الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم: اللّغة العربية وآدابها

رسالة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغة والأدب العربي

تخصّص: التواصل اللغوي

موسومة بـ

تقنيات التبليغ عند سيبويه

إعداد الطالبة:

عمارية حاكم

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الجليل مرتاض

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.المهدي بوروبة	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسًا
أ.د.عبد الجليل مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً
د.بوعلي عبد الناصر	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	عضوًا.
أ.د.العرابي أحمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	عضوًا
أ.د.بريهمات عيسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأغواط	عضوًا.
د.حنيفي بن ناصر	أستاذ محاضر (أ)	جامعة مستغانم	عضوًا.

السنة الجامعية: 1433-1434هـ/2012 – 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

من أولى الناس بالإهداء، التي قال عنها الرسول -صلى الله عليه وسلم- موصيا "أمك، ثم أمك، ثم أمك" معلمتي الأولى "أمي الرّؤوم" تغمدها الله برحمته الواسعة وأسكنها فسيح جنانه، أهديها ثالث عمل (ليسانس، ماجستير، دكتوراه)، كما أهدتني أول جرعة لبن، وأتأسف حزنا على عدم مشاركتها أفراحي وارتقائي إلى الدرجات العلمية العليا.

إلى أبي أطال الله في عمره وأمده بالصحة والعافية ما حيا، أبي الذي لم يقف يوما في طريق تحقيق أحلامي، ولم يقل لي يوما "لا" وما سمعتها منه إلا في تشهده، حفظه الله لي ولإخوتي وأسعده بنجاحاتنا وليقدرنا الله على طاعته والإحسان إليه.

الابنة المخلصة والمحبة والبارة بوالديها

عمارية

شكر وعرفان

أشكر الله جلّ وعلا أولا وآخرا على توفيقه لي مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: الآية 88] والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

إن البحث في كتاب سيبويه بحث شاق ومتعب لما يبذله الباحث من قراءات متكررة ومتمعنة ومتفحصة لما جاء في الكتاب، وهذا الجهد احتاج مني إلى جهود كثيرة تدعمني وتشد من أزري لأصل إلى مبتغاي.

ومن باب الإنصاف أجد لزاما على نفسي أن أعترف بالفضل لأهله تقديرا وعرفانا بجهودهم التي بذلوها في إخراج هذا البحث على ما هو عليه.

وأبدأ بالشكر الجزيل والعرفان الكبير؛ لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور "**عبد الجليل مرتاض**" رفعه الله إلى أعلى وأرقى المراتب العلمية؛ الذي تكرم بالإشراف على هذا البحث من بدايته إلى نهايته، حيث أحاطني بالعناية العلمية وأفادني بخبرته العالية وإرشاداته ونصائحه القيمة موجها ومصوبا كل خُطايا.

أضف إلى ذلك سعة صدره التي تحلى بها، مما سنح لي الفرصة للقاء به في الجامعة كلما احتجت إلى توضيح أو استفسار أو استشارة في مجال بحثي، فجزاه الله عني وعن كل زملائي الطلبة والأساتذة خير الجزاء.

ثم إنه لم يبخل عليّ بالمصادر والمراجع التي وجدت فيها ضالتي والتي أثرت البحث.

وأوجه شكري الجزيل كذلك إلى الأستاذ الدكتور "أحمد عزوز" جامعة وهران لمساعدته لي ببعض المراجع العلمية.

ولا أنسى أن أشكر كل زملائي وأصدقائي الذين لم يبخلوا عليّ هم كذلك بكل ما يخدم بحثي من مراجع وأخص بالذكر: سعيداني نور الدين، محمد صغير، خديجة بوخشة، خبراج سنوسي، بن يخلف نفيسة، بلحيارة خضرة، بن ضياف كريمة وكل من ساعدني ونسيت أن أذكر اسمه وخاصة وسيلة رمضاني التي تعبت معي كثيرا في كتابة هذا البحث.

أشكر كذلك أفراد أسرتي الذين قدموا لي كل المساعدات المادية والمعنوية من أجل التفرغ لهذا البحث بكل حب وامتنان.

عمارية حاكم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن تبعه بصدق وإيمان إلى يوم الدين.

وبعد:

يشكل الاتصال والتواصل اليوم حقلا واسعا من حقول المعرفة الإنسانية، لأنه يمثل إحدى أهم وظائف اللغة، والنحو جزء لا يتجزأ من اللغة، لأنه بقواعده المقننة للغة تمثيل صوري رمزي لها، يلتقي معها فيما ينتج عنه عند التطبيق الصحيح من خطابات لغوية متنوعة، تماثل في بنيتها النحوية التخاطبات التي أنتجت بالسليقة قبل اكتشاف القاعدة، فكانت أصل احتجاج لها تتقدم عليها، أما التخاطبات اللغوية المنتجة بعد تقعيد النحو وتقنينه فالقاعدة قبلها، ووراء قوانين النحو العربي وقواعده التطبيقية نظرية توجيهية تفسيرية، يبني على معرفتها النحاة تحليلاتهم النحوية، ويتخذون منها مرتكزا منهجيا في البحث النحوي، وذلك أن عملهم يتجاوز معرفة أحكام ضبط الكلام إلى معرفة نظريات هذه الأحكام ومناهجها البحثية، ولا يوصل من النحو إلى ما يحتاج إليه إلا بقراءة ما لا يحتاج إليه، وهذا يقتضي التبحر فيه، ولا يعني التبحر هنا، التعمق في نظريات العامل والمعمول والأصل والفرع، بل الإدراك والتدبر من أجل الفهم والتبليغ.

والتبليغ كما سيتبين -لاحقا- يتطلب عناصر محددة تتمثل في المتكلم والمستمع والكلام (الخطاب) والمقام أو السياق كما يسميه بعض الباحثين، وتسمى هذه العناصر مجتمعة عناصر العملية التواصلية، أساسها السياق الاجتماعي.

وسعيا مني لإثراء مكتبتنا العربية بالبحوث اللغوية الحديثة، وحبا مني لإحياء التراث العربي الأصيل، ارتأيت أن أتناول جانبا رأيت أنه مهمل أو لم يأخذ حظه الأوفر من الدراسات اللغوية الحديثة، وهو جانب النحو العربي الذي قام الباحثون بتفكيك أبوابه وشواهده، إذ منهم من اهتم بقواعده وضبط أحكامه، ومنهم من شرح شواهده الشعرية، ومنهم من درس منهجه في الاحتجاج بالقراءات القرآنية والاحتجاج لها، ومنهم من تعرض

لأصوله ومصادر مادته اللغوية، حيث أجمع كثير منهم على أن مادة النحو العربي مادة جامدة وثابتة اعتمادا على ثبوت قواعده، والالتزام بأحكامه في سلامة اللغة العربية وفصاحتها.

وتثبيتا مني لاتفاق نظريات حديثة مع ما جاء في كتاب سيبويه، كنظرية التواصل اللغوي وغير اللغوي ونظريات لسانية أخرى لا يكفي المقام لدراستها كلها، فضلت أن أعالج تقنيات التبليغ في التواصل اللغوي، كون التواصل بعدا مستهدفا تحقيقه من كل نظرية وفق تقنيات متعددة ومتباينة.

وبعد أن استقرت في ذهني فكرة معالجة "تقنيات التبليغ عند سيبويه"، وبعد قراءاتي المتكررة والمتمعنة والمتعمقة لكل ما جاء في الكتاب، توضح لي أن المنهج الذي بإمكانه هتك الحجب وتوضيح السبل للدراسة، هو المنهج التكاملي الذي يضم عدة مناهج، بعضها وصفي وبعضها تحليلي تعليلي، وبعضها الآخر تاريخي.

فالمنهج التاريخي تمثل في تأصيل التراث العربي المتمثل في أصول النحو ومصادر اللغة العربية، أما المنهج الوصفي، فكونه فرعا من الفروع اللسانية التي تعالج الظواهر اللغوية وفق منهج علمي رصين نال حظوة كبيرة من الباحثين اللغويين الغربيين، إذ عمقوا اتجاهاته بنظريات اتخذت من اللغة مادة لها وموضوعا.

أما المنهج التحليل التعليلي، فيتضمن تلك المقارنات التي ستتم بين سيبويه والمناهج الغربية الحديثة، ومن أهم أسباب توقف البحث عند سيبويه هو أن كتابه موضوعه اللغة بكل مستوياتها اللغوية من أصوات وأبنية وتراكيب ودلالات، ثم إنه يمثل النبع الصافي لمنهج البحث الوصفي عند العرب، ولقد وقف سيبويه عند الظواهر اللغوية طويلا يصف حقائقها ويتأمل أسرارها ويحلل بنيتها ليصل إلى أحكام تمثل غاية في النضج.

وقد اخترت "تقنيات التبليغ عند سيبويه" موضوعا لأطروحتي لأن كل ما ذكره سيبويه من تقنيات؛ من حذف وتقديم وتأخير، ومجاز وأمر ونهي وتمثيل واستفهام وحجج وغيرها، مما لم يتسع البحث لإيراده كله، -لأن ذلك أمرا غير مقدور عليه في بحث شامل- يمثل الاستعمال الحي للغة الطبيعية داخل المجتمع.

ولم يكن بحثي ليخلو من بعض العوائق، أهمها: قلة توفر الممارسة في هذا اللون من البحث، أقصد ما تعلق بالنحو العربي وعلاقته بالتواصل، وندرة المصادر التي تنير السبيل أمام بحث جديد، وذلك أن معظم المصادر الحديثة التي تناولت جانبا من الدراسة النحوية وعلاقتها بالتواصل قد ألفت باللغات الأجنبية، غير أن الإيمان بأهداف البحث قد ذلل كل صعب.

توزع البحث إلى: مدخل وأربعة فصول وخاتمة للنتائج المتوصل إليها، حسب الخطة الآتية.

مدخل عنونته بـــ: التواصل والتبليغ والتخاطب في اللغة والاصطلاح، رأيت أن هناك خلطا في المصطلح وتقاربا في المفهوم، فحاولت أن أفك هذا التعاضد حتى تتوضح معالم البحث ويتيسر الفهم للمتلقي.

الفصل الأول: التبليغ اللساني العام -دراسة في العناصر- بعد أن توضح مفهوم كل مصطلح وتم التوصل إلى التقارب في المدلول، غدا ضروريا دراسة عناصر العملية التواصلية، فقسمت هذا الفصل إلى مباحث أربعة:

1. مبحث دراسة المتكلم: وكل ما تعلق به من تجليات للمصطلح إلى القواعد المتعلقة به.
2. مبحث دراسة المستمع: نال حظه من الدراسة كدراسة المتكلم.
3. مبحث دراسة المقام: شغل حيزا وافرا من الدراسة لمدى أهميته في إنجاح عملية التواصل اللغوي وغير اللغوي.
4. مبحث دراسة الخطاب/الرسالة: وكل ما تعلق به، وتظهر أهميته في التحليل.

الفصل الثاني: تقنيات التبليغ اللساني العام، وقسم إلى مباحث ثلاثة:

1. مبحث في التقنيات الحجاجية-الاستدلالية: تناولت فيه التعريف بالحجاج وبأنواعه الممكن توفرها في الخطاب، وأشرت إلى علاقته بالتداولية والبلاغة واللسانيات والنحو، مع ذكر أبرز الأعلام المنظرين للحجاج وأبعاده التواصلية في الخطاب.
2. مبحث الحجاج في الدرس النحوي العربي:ولقد عالجت في هذا المبحث أصول النحو العربي وعلاقتها بالحجاج، فدرست: السماع، القياس، الاستدلال ومسالك الحجاج

المتمثلة في توثيق تقنية السماع، وكذا توثيق تقنية التوثق/القياس وما انجر عن هذا التوثق، وكنت قد تعرضت في بداية هذا العنصر إلى تداولية المتكلم، وتداولية المستمع، وتداولية الخطاب في النحو العربي.

وإذا كنت قد وقفت عند التداولية في هذا العنصر، فذلك أنها تمثل توجها لسانيا في محاولة جادة لوضع اليد على الأبعاد الحاضرة الغائبة في الخطاب، بحكم أنها تطوير للوظيفة لسد العجز الذي كثيرا ما انتاب التيارات اللسانية السابقة، فكان من أهداف الدراسة الاستفادة من التقدم الذي أحرزه علم اللغة الحديث وإضاءته لتراثنا وتفسيره وتحديد موقفنا من هذا التراث ومن اللغة الآن، مع الاعتراف بالسبق الزمني لعلمائنا وقصر الوسائل لديهم (مكتبة تحفظ ما قدموه آنذاك من العلوم، إذ ضاعت معظم العلوم إما بسبب الحرق كما حدث مع صاحب الكامل والجامع كما سنرى، أو ضياعها لعدم القدرة على حفظها في الذاكرة حتى يمكن تداولها من جيل إلى جيل).

3. مبحث التقنيات اللسانية-البلاغية: رأيت أن البلاغة هي الميدان الأرحب والأكثر تنوعا، إذ تتناول العملية التواصلية وقواعدها ويستطيع كل ميدان آخر الاستفادة منها لأنها تعرض للتواصل بمستوييه؛ الاتصال النوعي (وهو الغالب عليها) والاتصال العادي وحظه قليل، لذلك تراوحت التقنيات بين: الحذف، التقديم والتأخير، الالتفات والأمر والنهي والاستفهام والنداء والدعاء وغيرها.

الفصل الثالث: التبليغ السيبويهي وأهم تقنياته

قسمته إلى مباحث عدة، أولها: سيبويه وعصره اللغوي، رأيت أنه لابد من التعرض إلى ترجمة حياة سيبويه وإن كان هناك مصادر خاصة بذلك، ولكني أضع نصب عيني دائما المتلقي الذي قد يحتاج إلى معرفة الرجل الذي لقب "بإمام النحاة" وسعيا منا أن نكفيه عناء الرجوع إلى المصادر وأمهات الكتب الخاصة بتأريخ حياة الأعلام، أوردنا حياته بشيء من التفصيل، وكذلك أن جانبا من حياته يفيدنا في بحثنا هذا.

المبحث الثاني: أسس منهج سيبويه في الكتاب

1. ماهية المنهج (لغة واصطلاحا)

2. أسس المنهج: السماع، الاستقراء والقياس

المبحث الثالث: مصادر اللغة في الكتاب: القرآن الكريم، الشعر، النثر

المبحث الرابع: التبليغ السيبويهي في الكتاب وعناصره. وتعرضت فيه إلى:

سيبويه والنظرة الاجتماعية: اللغة والكلام، عناية سيبويه باللغة المنطوقة، طبيعة الشواهد في الكتاب.

المبحث الخامس: عناصر العملية التبليغية في الكتاب، تناولت في هذا المبحث دراسة كل عنصر وأنواعه، وتقنياته التبليغية في الكتاب (المتكلم، السامع، الخطاب، وظيفة الكلام [التبليغ]، سياق الموقف وأشكاله)، وذكرت كذلك أقسام النحو في الكتاب.

الفصل الرابع: التبليغ السيبويهي في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، وكان مساحة شاسعة لرصد اللقاء بين سيبويه ومعظم الدارسين والباحثين البارزين الغربيين، ولكن قبل المقارنة والإسقاط، أشير إلى أنني قد قسمت هذا الفصل إلى مبحثين يشملان ما يلي:

المبحث الأول: أثر سيبويه في بعض النحويين واللغويين العرب

تناولت فيه سيبويه والجاحظ، سيبويه وابن جني، وكذا سيبويه وعبد القاهر الجرجاني لأوضح مدى تأثر هؤلاء النحاة والبلاغيين العرب بكتاب سيبويه، سواء أشاروا إلى ذلك أو لم يشيروا، فيكفي أن معظم الشواهد المقتبسة في مؤلفاتهم تعود في أصلها إلى الكتاب.

أما المبحث الثاني، فقد عنونته بـــ: التبليغ السيبويهي وبعض الاتجاهات الغربية الحديثة

فكان هذا المبحث ميدانا لمقارنة سيبويه بأبرز العلماء الغربيين، بالإشارة إلى معظم التقنيات التي لم يتم ذكرها، ليس سهوا منا، وإنما قصدنا إلى ذلك، لأن معظم التقنيات الحجاجية الاستدلالية منظر لها في الاتجاهات الغربية، ومن هنا كانت البداية مع عالم اللغة وأبي اللسانيات، فيردينان دي سوسير، بلومفيلد، نوام تشومسكي، فنكنشتاين، أوستين،

سيرل، ديكرو، وغيرهم من الذين ذكرت أسماؤهم عرضا في مواضع متعددة ومختلفة من البحث.

ومن هنا، فالإشكالات المطروحة في هذا البحث هي: هل كان سيبويه معنيا بوصف الظواهر النحوية فحسب؟ أم كان معنيا كذلك بتفسيرها وتسويغها لفحص العلاقات بين الأبنية والتراكيب؟ ما هي الأصول التي اقترحها سيبويه لمعالجة المادة اللغوية؟ كيف نظم تصنيف مادة الكتاب؟ ما موقفه عندما كان يسمع كلاما لا تكَلَّم به العرب؟ وما موقفه كذلك حين يصادف كلاما سمعه يشذ عن القاعدة النحوية؟ وهل يتضمن كتاب سيبويه عناصر العملية التواصلية؟ وما دور كل عنصر داخل هذه العملية؟ وما هي التقنيات التبليغية الخاصة بكل عنصر؟ هل أثر كتاب سيبويه فيمن تلاه من لغويين ونحاة عرب؟ وهل اجتذب كتاب سيبويه أنظار باحثين وعلماء غرب؟ وهل هناك اتفاق بين سيبويه والاتجاهات اللغوية الغربية؟ وما مدى هذا الاتفاق؟ والإجابة عن كل هذه الإشكالات سوف تكشف لنا -إن شاء الله- عن ذخائر علم سيبويه الغزير من خلال بحثنا الموسوم بـــ: "تقنيات التبليغ عند سيبويه".

الخاتمة: وتمثل معظم النتائج المتوصل إليها من خلال البحث.

هذا، وأرجو ألا أكون قد ابتعدت عن جادة الصواب، كما أرجو ألا أكون قد بالغت في تصور الأمور أو قصرت في حق سيبويه.

حاكم عمارية

نوقشت هذه الرسالة يوم : **2013/07/04**

وبالله التوفيق

مدخل:

التواصل والتبليغ والتخاطب

في اللغة والاصطلاح

المبحث الأول: التواصل والاتصال

المبحث الثاني: التواصل والتبليغ

المبحث الثالث: ماهية الخطاب والتخاطب

تمهيد:

اهتدى الإنسان انطلاقا من فطرته وحاجته إلى الاتصال والتفاهم ونقل المعلومات إلى غيره، وأخذها منه، ومن أجل هذه الغاية، فقد أوجد لنفسه وسائل متنوعة كانت اللغة أرقاها وأكثرها فعالية في الإبلاغ، ولكن استعماله لها لم يكن عشوائيا أو غير مضبوط، بل ظل مرتبطا بنظام تكونه مجموعة من القواعد، والغاية من كل ذلك هي ضمان نجاح عملية الاتصال(1).

وبناءا على ذلك، فقد عد "الاتصال" ضرورة إنسانية لتماسك الأفراد والجماعات وحتى الأمم على اختلاف مشاربها، إذ هو المحور المركزي الذي على أساسه يتشكل المجتمع وينمو ويتطور، بل صار كما يخبرنا "هوغ Hogue" يشكل جزءا من ديكور الإنسان الذي عرف تطورات مع مرور الزمن(2).

ويؤكد التاريخ الإنساني أن الاتصال كان في بداية أمره يتم بواسطة الإشارة والرمز، ثم سرعان ما تنبه الإنسان إلى قدرات جهازه النطقي، فاستعمله بأصوات متمايزة للتفاهم مع الآخرين، ثم تنبه إلى أعضائه الأخرى، فاهتدى إلى الاتصال الكتابي ليبلغ الغائبين، وبهذا التطور استطاع أن يجعل الآخرين يشاركونه خبراته وأفكاره ومشاعره(3).

ونتيجة لتفطن الإنسان إلى الوسيلة التي توصله بالآخرين، ولشدة اهتمامه بالاتصال وبكل أشكاله المختلفة تولد علم يدرس ذلك، وهو علم "الاتصال" وتعززت بقوة حاجة الإنسان إليه في العصر الحديث، فأضحى من الضروري دراسة قضاياه دراسة علمية، من أجل الإفادة منها في حل الإشكالات التي باتت تطرح في ظله، ولعل هذا ما لوحظ أثناء الحرب العالمية الثانية، والحرب الإعلامية التي تدور في البلدان عبر القنوات العصرية من تلفزيون وشبكة عنكبوتية وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة.

---

(1)- الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، ع1، ماي 2008م/1429هـ، ص: 47

(2)- مدخل إلى نظريات الاتصال المعاصرة، محمد مزيان، منشورات دار لالة سكينة، الجزائر، ط1، دت، ص: 11

(3)- الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة، ص: 47

ونظرا لهذه الأهمية، فقد شغل موضوع "الاتصال" معظم العلماء الباحثين المختصين في مختلف فروع المعرفة الإنسانية، سواء في البحث في أركانه ومكوناته أو في اللغة التي تستعمل لنقل الرسالة الإبلاغية، أو في وظائفه ودوره في التأثير على الفرد، أو غير ذلك، وفي رحاب هذا التنوع كان من الضروري الأخذ بالنتائج العلمية التي تناولت مسائله بالبحث العلمي الدقيق كاللسانيات والبلاغة والتداولية، وعلم الاجتماع وعلم النفس[1].

علم الاتصال: نظرة تاريخية

إن البحث في الاتصال بحث قديم قدم الوجود البشري، ومرجع ذلك إلى الإنسان نفسه لأنه لا يستطيع أن يحقق وجوده دون فعل التواصل، وكذلك ظل البحث في قضايا الاتصال ضاربا جذوره في أعماق الدراسات العلمية، وجدير بالذكر أن أول من وضع للاتصال نظرية هو اليوناني "كوراكس Corax"، ثم بعده تلميذه "تيزياس Tisias" الذي قام بتطوير هذه النظرية، وذلك أن هذه النظرية كانت مبنية على أسلوب المرافعة، هذا الأسلوب الذي عد صناعة للإقناع[2].

وبالإضافة إلى الفيلسوفين السابقين، هناك أيضا أفلاطون (347-427ق.م) وتلميذه أرسطو (322-385ق.م) اللذان يعتبران من مؤسسي دراسات الاتصال، ويعود ذلك إلى أنهما توصلا إلى فكرة جوهرية مفادها أن الاتصال فن، أو هو صناعة يمكن تعلمها بالدراية، لذلك اعتبرا الاتصال علما قائما بذاته[3]، ثم جاء "شيشرونCicerone" (43-106ق.م) وكوينتليان (35-95ق.م) فتوسعا في دراسة الاتصال محتفظين بفهم سابقيهما[4].

(1)- الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة، ص: 48

(2)- كوراكس وتيزياس، فيلسوفان يونانيان عاشا في القرن الخامس قبل الميلاد في صقلية (مستعمرة يونانية) آنذاك قبل السفسطائيين والإسكندر المقدوني، ويعدان من الأوائل الذين اهتموا بفن البلاغة، حيث وضعوا لها خصائصها التي ربطوها بالإقناع، الاتصال والسلوك الإنساني

(3)- ينظر: في الجانب التاريخي لعلم الاتصال، برنت روبن، ترجمة: نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية، جامعة الملك سعود، معهد الدراسات العامة، 1991، ص: 67

(4)- ينظر: نظرية التواصل، جونيفين شوفو، تر: إبراهيم أولحيان، مجلة فكر ونقد، فبراير 2001، ع 36، ص: 121

ولقد قدم العرب في العصور الوسطى دراسة قيمة في موضوع الاتصال لا تقل قيمة عما توصلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة، إذ كانت لديهم نظرات ثاقبة في وصف العملية الاتصالية وأركانها وشروطها ووظائفها، ونجد كل هذا في مطلع ثنايا مصنفاتهم، ولقد انبثقت هذه العناية من مدى حرصهم على لغتهم، لغة "القرآن الكريم" الذي يمثل في أدنى تأمل له رسالة اتصالية موجهة للبشرية، إذ القرآن الكريم يمثل النموذج المثالي لكل عمليات الاتصال بكل عناصرها من مرسل ومرسل إليه، ورسالة وقناة وأثر (قصد)[1]، لذا دعا العقول والقلوب (الأفئدة) لتتأمله وتتدبر في مكنوناته فانجر عن ذلك المؤلفات الضخمة والمساعي الشريفة.

ومما دعم البحث العلمي لدى العرب، توافرهم على ثلاث مدونات أساسية، كلام الله (القرآن الكريم) والشعر الذي عد "ديوان العرب"، بل اعتبره بعض النقاد الصحيفة السيارة[2]، وكذلك الفنون النثرية من خطابة ورسائل وتوقيعات ومناظرات[3].

وكان من نتائج دراسة تلك المدونات وحضور تلك المناظرات انبثاق علوم جديدة وكثيرة تبحث كلها في كل ما له علاقة باللغة والاتصال، ولعل ما يمكن قوله إن علم الاتصال لعلم قائم بذاته لم يظهر عند العرب تحت مصطلح الاتصال، ولكنهم قدموا انطلاقا من التأليف المختلط لديهم آراء قيمة تتصل مباشرة بما يتأسس عليه البحث في هذا العلم، حتى إن الدراسات الحديثة أصبحت تنظر إلى مؤلفات الجاحظ خاصة "البيان والتبيين"، وكذلك عبد القاهر الجرجاني بكتابيه "أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز"، و"البرهان في وجوه القرآن" لابن وهب، على أن هذه المؤلفات تمثل نظريات في التوصيل اللغوي بكل ما ينطوي عليه هذا العلم من تقنيات وآليات.

يوضح ذلك عبد العزيز شرف على سبيل المثال، ما ذكر ضمن علوم البلاغة التي تضم علوما ثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فعلم المعاني –كما هو معروف– اهتم بدراسة الأسلوب ككل، وذلك ليطابق مقتضى الحال وليعبر عن المراد بأبلغ تعبير، أما البيان والبديع فمباحثهما

(1)- تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، دار المغرب، المغرب، دط، 2000، ص: 141

(2)- تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، القاهرة، دط، دت، ص: 40-41

(3)- مقال: الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة

تتصل مباشرة بجوهر الاتصال، إذ يتعلقان بتنميق الجمل بالصور البيانية والمحسنات البديعية التي تجعل الرسالة اللغوية أكثر تعبيرا عن المراد وتأثيرا في النفوس(1).

ولكن دراسة التواصل الإنساني لم تعرف النضج والتقنين وضبط المصطلحات إلا في العصر الحديث، ويعود الفضل في ذلك إلى علماء الاتصال، وعلى رأسهم رياضي ومهندسي الاتصالات اللاسلكية، مما جعلهم يكشفون أن الخصوصيات النظرية لكل نسق من العلامات (المستعملة من قبل الكائنات حية أو تقنية) لها غايات تواصلية، وبتحديدهم هذا المجال يكون منظرو الاتصال قد عالجوا من منظور جديد بعض مظاهر التواصل الإنساني(2).

وانطلاقا من اكتشافات منظري علماء الاتصال الرياضيين والمهندسين، لقي موضوع التواصل عناية كبيرة من علماء اللغة والنقد على وجه سواء، تعدت كل مدرسة وكل نظرة تركز على جانب من جوانب هذا التواصل: المتكلم، الرسالة، المتلقي، المقام، الشفرة، القصد، وإن كانت هذه المدارس والاتجاهات قد نشأ كل واحد منها على غرار مدرسة أخرى، أو بسبب تفريط أو إفراط معين في طرف من تلك الأطراف، كأن ينتصر اتجاه لطرف ما، ويقلل اتجاه آخر مما جاء عند سابقه، ومن ذلك ظهر المنهج البنيوي بمختلف مدارسه، هذا المنهج الذي جاء نتيجة إفراط الدراسات قبله في تغليب الجانب النفسي والجانب الخارجي للنص، الأمر الذي دفع بهم إلى رفض هذه المغالاة والتركيز على النص ذاته، والاعتماد على تحليل بنائه للوصول إلى المعنى، إلى أن جاءت نظرية القراءة لتنتصر للقارئ بعدما جعلت الدراسات الكاتب هو محور وأساس عملية الإبداع وهو المسؤول الوحيد على تحديد المعنى(3).

ولا يخفى على كل دارس أن هذه المناهج والمدارس والنظريات قد استفاد كل واحد منها من الآخر، ولذلك أصبحت تشكل مجموعة متناسقة في عملية تحليل الخطاب، وبديهي أنه كلما ازدادت النظرية اتساعا ونضجا ازدادت اقترابا أو التحاما مع أكثر من مجال، كما في

---

(1)- علم الإعلام اللغوي، عبد العزيز شرف، دار لونجمان للطبع، مصر، دط، 1995، ص: 75

(2)- نظرية التواصل، جونيفين شوقو، ص: 121

(3)- نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، عبد الناصر حسن محمد، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، دط، 1999، ص: 04

نظريات التلقي، وعلم النص، ونظرية القراءة، والسيميائية، وأفعال الكلام والتداولية وتحليل الخطاب،..، وما إلى ذلك.

ولذلك سأعرض بعض النظريات الحديثة كل حسب اهتمامها بجانب من جوانب عملية التواصل: المتكلم، السامع، الرسالة.

1. **المتكلم**: اعتنى بهذا الجانب كل من المدرسة الرومانسية والمدرسة الماركسية وكذا نظرية أفعال الكلام.
2. **المتلقي** (**سامعا/قارئا**): كان له الحظ الأوفر في نظريات جماليات التلقي مع هانز روبرت (H. R. Jauss) وفلفغانغ إيزر (Wolf Gangiser) الألمانيان.
3. **الرسالة:** أما الرسالة فقد تناولتها البنيوية وهي مدارس كثيرة أوروبية وسوفيتية وأمريكية، ومن أشهر أعلامها: (فيردينان دي سوسير F. De Saussure 1857-1913)، (رومان جاكبسون R. Jakobson1896-1982)، (فيجو بروندال Brondal) و(هلمسليف Hrelmslev)، (إدوارد سابير Edward Sapir 1884-1939)، (ليونارد بلومفيد Leonard Bloomfield 1887-1949)، (نوام تشومسكي NoamChomsky)، والمدرسة التفكيكية (جاك دريدا)، ونظرية علم النص (زيليغ هاريس وايزنرج H. Isemberg) و(فوندرليش D. Wonderlish)، (يانوس بتوفي Petofi)، بالإضافة إلى اتجاهات تحليل الخطاب ونظريات الحجاج.

أما التداولية فقد اعتنت بكل عناصر التواصل انطلاقا من أنها لا تدرس اللغة إلا وهي تؤدي وظيفتها التخاطبية، وذلك أنها تركز على بحث التفاعل بين كل عناصر الخطاب (المتكلم، السامع، الرسالة والمقام)، فالتداولية لا تنظر إلى المتكلم أو السامع على أن كل طرف مستقل عن الآخر، وإنما ينظر إليهما على أنهما عنصران لا ينفصلان عن مقام (سياق) وظروف داخلية وخارجية تجمع بينهما، بحيث يستحيل الفصل بين وظيفة كل منهما، زد على ذلك أنها تدرس اللغة على أنها وسيلة تواصل تؤدي وظيفة حيوية في الربط بين أطراف

العملية التواصلية/التخاطبية في مقام معين، ولا تعنيها اللغة وهي خارج الاستعمال، ومن ثم تكون التداولية "جامعا بين جانبين اثنين هما: التواصل والتفاعل"(1).

ومن أقطاب اتجاه التداولية: موريس (Morris) الذي يحدد وظيفة التداولية بأنها "تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"(2)، ويضيف آن ماري ديير (AnneMarie Diller) وفرانسوا ريكاناتي (F. Recannati) بأنها: "دراسة اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية"(3).

ونجد للتداولية تحديدا آخر عند "الجيلالي دلاش": "بأنها تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للدلالة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"(4).

وهكذا أصبحت التداولية الاتجاه الذي يجمع المناهج والمدارس السابقة (البنيوية، نظرية التلقي، نظرية أفعال الكلام وتحليل الخطاب، نظرية التأويل، نظرية الحجاج، نظرية الاتصال) وذلك لاستفادتها من علوم أخرى، كعلم النفس المعرفي، وعلم النفس اللغوي، وعلم الاجتماع اللغوي، وعلم الاتصال، وللتداولية آثار إيجابية ليس فقط على مستوى دراستها عملية التواصل، وإنما تتعدى ذلك إلى علم الاتصال وتعليمية اللغات، نضيف إلى ذلك أنها أثرت على الاتجاهات الأخرى وجعلتها تهتم بفكرة التواصل التي قد أغفلتها من قبل.

وبذلك أدرك العلماء على اختلاف توجهاتهم أن التواصل الإنساني مقوم من مقومات الحياة الإنسانية، بل مقوم لحياة كل الكائنات الحية، كما أدركوا أنه ليس نشاطا عاديا لديه، بل هو معقد جدا، كما أنه يكتسي أهمية كبرى، إذ يعد عمدة لنشاطات الإنسان جميعها، ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع نشاطاته تصب في باب التواصل، تتم به وتؤدى به(5).

---

(1)- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، دت، ص: 244

(2)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينيكو، تر: سعيد علوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 08

(3)- نفسه

(4)- مدخل إلى التداولية، جيلالي دلاش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 01

(5)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2005، ص: 14

ولأن الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يمكنه أن يعيش إلا وسط مجتمع يتعاون أفراده على تحقيق مآربهم بشكل جماعي، كان التواصل مطلبا ضروريا في حياته، إذ لا يتم الاجتماع إلا بالتواصل، ولقد بين لنا ابن خلدون ذلك بشكل جيد حين قال: "...بيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته... إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، فلابد من اجتماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه"[(1)]، وهذا الكلام إن دل على شيء، فإنما يدل على أن مفهوم اللغة عند ابن خلدون جاء متجانساً مع الخاصية الاجتماعية في الإنسان، فاللغة هي: "عبارة المتكلم عن مقصوده.. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم"[(2)]، لذا أصبح نشاط التواصل محط اهتمام علماء الاجتماع وكل من نهج نهجهم.

وبما أن نشاط التواصل يغطي حياة الإنسان كلها، فإنه يتم بأشكال كثيرة، بداية باللغة وانتهاءً بالإشارة والألوان والرسم والموسيقى، الأمر الذي يستحيل لا محالة إلى تنوع وسائله من مثل: لسان، قلم وهاتف وتلفاز، وشبكة عنكبوتية، وما إلى ذلك من كل وسائل الاتصال الحديثة، ولكن تبقى اللغة (الشفهية والكتابية) هي الوسيلة الأرقى والشكل الأهم في عملية التواصل الإنساني.

ومما يدل على أهمية اللغة الإنسانية اهتمام واعتناء كثير من العلوم بدراستها، كعلم الأنثروبولوجيا الذي يتناولها من ناحية الاختلافات اللغوية من موطن إلى آخر، وعلم التاريخ وعلم الاجتماع من ناحية التغيرات التي تطرأ عليها، أما علم النحو وعلم اللغة فقد عالجهما من ناحية قواعد اللغة، وتكوين الجمل وتراكيبها، وتناولها علم وظائف الأعضاء من الناحية التشريحية للأجهزة الصوتية عند الإنسان، ويبقى التواصل من أهم وظائف اللغة دون منازع.

---

(1)- المقدمة، ابن خلدون (ت808هـ)، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984، ج1، ص:42

(2)- نفسه، ج2، ص: 712

وكثيرا ما نصادف في قراءتنا اللسانية المعاصرة عدة كلمات متباينة في دوالها، في الوقت الذي لا يعني بها أصحابها إلا مفهوما واحدا[1]، ومن بين هذه الكلمات ما يتعلق بمجال بحثنا، وهي كالآتي: الاتصال، التواصل، التوصيل، التبليغ، الإبلاغ، التخاطب، المخاطبة.

المبحث الأول: التواصل والاتصال

أ. التواصل في مادة بعض المعاجم العربية:

إن مادة "وصل" في لغتنا العربية ثرية بمفرداتها وترادفاتها، غزيرة المباني، متعددة المعاني، إذ تحيل في بعض معاجم اللغة العربية كمعجم الصحاح للجوهري: على معنى "اتصل"، إذا دعا بدعوى الجاهلية كأن يقول: يا فلان، وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾، أي يتصلون[2].

والوصل ضد الهجران، ووصل الثوب والخف، وبينهما وصلة أي اتصال، وتواصل ضد التصادم، ومن هذا المعنى جاء الحديث: "لعن الله الواصلة والمستوصلة"[3].

فالتواصل هنا ضد التقاطع، غير أن الاتصال أعم من التواصل، لأن التواصل من التفاعل، والتفاعل في اللغة العربية لها ثلاثة معان[4]:

1) أن تكون من اثنين تخاصما: تقاتلا، تشاركا...
2) أن تكون أحيانا من واحد: تراءى له، تمارى في ذلك، تعاطى منه أمر قبيح.
3) أن تكون إظهارا بغير ما تدل عليه حقيقة الشيء: تغافل، أي أظهر غفلة وليس بغافل، أو كما يقول سيبويه: "ليريك أنه في حال ليس فيها"[5].

---

(1)- اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، مدونة المحاضرات الملقاة عام 2000، ص: 51

(2)- الصحاح للجوهري، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ج1842/5، نقلا عن : اللغة العربية والاتصال ، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 51.

(3)- نفسه، ص: 1842-1843، نقلا عن : المرجع السابق ، للأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 52.

(4)- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د. الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963، ص: 222-223، نقلا عن : المرجع السابق ، للأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 53.

(5)- الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت، ج68/4

وجاء في المصباح المنير للفيومي: "تعهدت الشيء، ترددت إليه وأصلحته، وحقيقته تجديد العهد به، تعهدته حفظته، قال ابن فارس: ولا يقال تعاهدته، لأن التفاعل لا يكون إلا من اثنين، وقال الفارابي: تعهدته أفصح من تعاهدته"[1].

ويكون سيبويه واضحا حينما قال: "وأما تفاعلت فلا يكون إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعدا، ولا يجوز أن يكون معملا في مفعول، لا يتعدى الفعل إلى منصوب"[2]، مضيفا إلى قوله هذا "أن تفاعل يلفظ بالمعنى في فاعلته، ويقصد أن فاعل مثلها مثل تفاعل كلتاهما تدل على تشارك اثنين في أمر"[3].

لذا يقول: "اعلم أنك إذا قلت: فاعلته فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته، ومثل ذلك: ضاربته، وفارقته، وكارمته"[4].

وبعد هذه المقاربات اللغوية لمادة "وصل" وبعض مشتقاتها الدلالية نخلص إلى أن الاتصال أكثر عموما من التواصل وحتى المواصلة[5]، وأن التواصل لا يكون إلا من اثنين فصاعدا، لأنه يدل على التفاعل والتشارك.

هذا عن المدلول اللغوي لمادة (وصل) في بعض المعاجم العربية القديمة، فماذا عن التواصل في معجم المصطلحات اللغوية، وبعض المعاجم الغربية الأخرى.

ب. التواصل في معجم المصطلحات اللغوية:

وجد في هذا المعجم لصاحبه خليل أحمد خليل ما يلي [6]: تواصل (Communication) .بمعنى: إبلاغ، اتصال، تخاطب، مخاطبة، توصيل، أساس التواصل استعمال راموز (Code) لنقل رسالة:

---

(1)- المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت، ص: 435، نقلا عن : اللغة العربية والاتصال ، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 54.

(2)- الكتاب، سيبويه، ص: 69

(3)- اللغة العربية والاتصال، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، ص" 53

(4)- الكتاب، ص: 68

(5)- اللغة العربية والاتصال، ص: 54

(6)- معجم المصطلحات اللغوية، د. خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط5، 1995، ص: 55

1) التواصل اللغوي: يدل على تبادل في الإشارات بين فرد وآخر، بين فرد وجماعة وبالعكس، وبين جماعة أخرى، فيما الحيوانات التي لا تملك لغة بالمعنى الحقيقي، تتواصل من خلال الإيماءات والصراخات التي توفر لها دلالات دقيقة.

2) اللغة البشرية: هي عامل مميز للاتصال، حيث يرتبط التواصل بالتعبير الذي يعني انتقال المضمون التعبيري من فاعل إلى قابل (هو فاعل آخر في قبوله المرسلة).

3) في مستوى تجربة التخاطب بين الأنا والآخر (Expérience Intersubjective)، تقوم علاقة مقلوبة بين الطريفين:

أ. كلما كان التعبير جديا، كان التواصل عشوائيا.

ب. كلما كان التعبير عاميا، كان التواصل سهلا.

4) يستلزم تحليل الاتصالات داخل الجماعة مجمل التخاطبات إلى وحدات اتصال مرسلة من فرد إلى آخر ومنه إلى الجماعة برمّتها، وفي درس آثار التواصل، لابد من التنبيه إلى مؤثرات الإعلان (Publicité) والدعاية (Propagande) والتحقق من فعالية منطقهما وحجمهما.

5) يجري التفريق بين تركيبتين اتصاليتين متعاكستين:

أ. تركيبة متناسقة: يقوم كل فرد بإبلاغ معلوماته إلى الجميع، ويسعى كل واحد منهم إلى إيجاد الحل.

ب. تركيبة متمركزة: يرسل الأفراد معلوماتهم إلى أحدهم فيمركزها، يكتشف حلها ويبلغه إلى سواه (تبلغ ⟵⟶ تبليغ)[1].

ج. التواصل في معجم اللسانيات:

يواجه كل باحث صعوبة كبيرة في تحديد بعض المفاهيم اللغوية المرتبطة بأي مصطلح، لذا لا يمكن العثور على تعريف واحد للتواصل يضم كل رضاءات الباحثين، غير أننا نجد أن

(1)- معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، ص: 55-56

معجم اللسانيات الذي أشرف عليه ج. ديبوا (Jean Dubois) يعرف التواصل كالآتــــي[1]:

1) التواصل (Lacommunication): تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظا أو قولا موجها نحو متكلم آخر (Interlocuteur) يرغب في السماع أو إجابة واضحة أو ضمنية (Expliciteou implicite) وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم (Le sujet parlant).

2) التواصل: حدث نبأٍ ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عددا من الأشكال المفكوكة (Qui a été codé).

ولكن بعض الدارسين يرى بأن هذا التعريف يعمم بين ما يتصل باللغة، وبين ما ليس له صلة بها من معلومات تستخدم في مجال اتصالات أخرى غير لغوية.

د. التواصل في معجم (A. Moles Démoèl):

التواصل في هذا المعجم هو "عملية جعل فرد أو مجموعة متموضعة في عنصر من نقطة –س– يشارك في التجارب التي ينشطها محيط فرد آخر متوقع في عهد آخر وفي نقطة –ص– من مكان آخر، مستعملا عناصر المعرفة المشتركة بينهما والتجربة الوكيلية"[2].

هـــ. التواصل في معجم تعلم اللغات:

وجد في هذا المعجم أن "نظرية المعلوماتية" (La théorie de la communication) تحول الإعلام أو تنقله بين باث ومتلق، وذلك بفصل مرسلة تمر عبر

---

(1)- Les voies du langage, Bordas, Paris, Dunod, 1982, p: 2-6.

نقلا عن : اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتــاض، دار هومــة للطباعــة والنشــر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص: 81.

(2)-Les voies du langage, p: 2

نقلاعن : المرجع السابق ، للأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 81.

قناة مثل الإعلام عن طريق التلفون، حيث الباث أو المتكلم سيرسل إلى مستقبله أو مكالمه مرسلة بفعل ذبذبات كهربائية بواسطة قناة الخط الهاتفي(1).

ولكن "قيرو (Guireau)" يرى أن هذا التحليل لا يكون في أي لحظة معنى للمرسلة، لأن التواصل يقوم على نقل أو تحويل شكل مسجل في ماهية أو مادة، مثال ذلك، الأشكال المرئية في رسالة مكتوبة، وأما الخط الهاتفي فهو ينقل الطاقة، والحرف لأشكال خطية، وعموما فإن التواصل لا يتأسس في المستوى الدلالي إلا في الحالة التي يكون فيها الباث والمتلقي يملكان نفس القانون أو السنن لفك المراسلة(2).

وإلى جانب هذا يرى "أندري مارتيني" (André Martinit) ولسانيون آخرون أن التواصل هو إحدى وظائف اللغة، حيث إن اللغة هي الوسيلة التي تسمح لمستعمليها بالدخول في علاقات مع بعضهم بعضا، وهي التي تضمن التفاهم المتبادل بينهم(3).

ويبدو أن "مارتيني" في تصوره هذا لم يهمل الجانب الدلالي لمصطلح التواصل.

المبحث الثاني: التواصل والتبليغ

أ. ماهية التبليغ:

في عملية التبليغ لابد من توافر المبلّغ والمبلَّغ ورسالة مبلغة، يعضدها في كل ذلك منهج قائم على الفهم ومن ثم الإفهام من منطلق أن أَفْهِمْ نَفْسَكَ ما تقول ثم رُمْ أن يفهَمَ عنك غَيْرُكَ، وقد يسلك المبلّغ الطريقة الكلية من منطلق أن العلم يؤخذ دفعة واحدة، وقد يروم فيه إلى اعتماد الطريقة الجزئية، وقد يقرن بينهما على اعتبار أن في كل خير(4).

ب. التبليغ بين اللغة والاصطلاح:

الباء واللام والغين أصل واحد وهو الوصول إلى الشيء، يقال: بَلَغْتُ المكانَ، إذا وصلت إليه، وقد تسمى المشارفة بلوغا بحق المقاربة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ

(1)- Dictionnaire de didactique des langues, R. Galisson et D. Coste, librairie Hachette, 1976, p: 102-104

نقلا عن : اللغة والتواصل ، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 80.

(2)- Dictionnaire didactique des langues, Galisson et. D. Coste, p: 103

(3)- المرجع نفسه، ص: 103، نقلا عن : اللغة والتواصل ، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 80.

(4)- مقال: عملية التبليغ بين الإلهام والإتقان، أ.د. عبد القادر سلامي، مجلة اللغة والاتصال، العدد 02، جامعة وهران، 2006، ص: 39

أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[1]، ويقال تَبَلَّغَتِ القِلَّةُ بفلان، إذا اشْتَدَّتْ، فلأنه تناهيها به، وبلوغها الغاية، وبلغ الغلام: أدرك، وثناءٌ أبلغُ: مبلغ فيه، وشيء بلغ: جَيِّد، والتَّبْلَغَة: حَبْلٌ يُوصَلُ به الرِّشاء حتى يَبْلَغَ الماء، ومنه قولهم: أحمق بُلُغُ وبَلْغٌ، أي إنَّه مع حماقته يَبْلُغُ ما يريده، واللَّهُمَّ سَمْعٌولا بَلْغٌ سَمْعًا لا بَلْغًا، أي: نَسْمَعُ به ولا يَتِمُّ أو يقوله من سمع خَبَرًا لا يُعْجِبُهُ، وأمر الله بَلْغٌ: نافذ يبلغ أين يريد به، والبلغة ما يتبلغ به من عيش، كأنه يراد أنه يبلغ رتبة المكثر إذا رضي وقنع، والبليغ: الفصيح يبلغ بعبارته كنه ضميره، وكذلك البلاغة، التي يمدح بها الفصيح اللسان، لأنه يبلغ بها ما يريده، والبلاغ: الكفاية، يقال: لي فيها هذا بلاغ أي: كفاية، والاسم الإبلاغ والتبليغ وهما الإيصال وفي الحديث: "كل رافعة رفعت علينا من البلاغ"[2]، أي بلغ من القرآن الكريم والسنن الشريفة أو المعنى من ذوي البلاغ أي التبليغ، أقام الاسم مقام المصدر ويروى بالكسر أي من المبالغين في التبليغ من بالغ مبالغة وبلاغا: إذا اجتهد و لم يقصِّر[3].

وكذلك البلاغة، التي يمدح بها الفصيح اللسان، لأنه يبلغ بها ما يريده، والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بلغك والبلاغ: الكفاية، تقول له: في هذا بلاغ وبلغة، وتبلغ أي كفاية، وبلَّغت الرسالة، والبلاغ: الإبلاغ وفي التزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾[4]،أي لا أجد منجى إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به[5]، والبلاغ: بيان يذاع في رسالة ونحوها، وهو مما أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة[6].

(1)- سورة البقرة، الآية: 231

(2)- ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، 152/1، والحديث فيه بتمامه (كل رافعة رفعت عنا من البلاغ فلتبلغ عنا)، وجاء فيه: "ويروى بفتح الياء وكسرها، فالفتح له وجهان: أحدهما أنه بلغ من القرآن والسنن، والآخر من ذوي البلاغ، أي الذين بلغونا يعني: ذوي التبليغ، فأقام الاسم مقام المصدر الحقيقي، كما تقول: أعطيته عطاء، وأما الكسر فقال الهروي (ت401هـ): أراد من المبالغين في التبليغ"، نظر: المرجع نفسه

(3)- مقال: عملية التبليغ بين الإلهام والإتقان، ص: 40

(4)- سورة الجن، الآية: 23

(5)- ينظر: معجم مقاييس اللغة، 201/1-202، مادة (بلغ) والقاموس المحيط، 106/3-107، مادة (بلغ)، ولسان العرب، 419/8، مادة (بلغ)

(6)- ينظر: المعجم الوسيط، 70/1، مادة (بلغ)

ويتضح مما سبق أن التبليغ يقوم على مبدأ الاجتهاد في الإيصال والتواصل النافذ بلسان عربي مبين، بما يمثل كفاية تخرج الكلام عند الضرورة من حيز القوة إلى حيز الفعل.

ب.1 التبليغ في اصطلاح العرب:

ولقد اصطنع السيميائيون العرب "التبليغ" و"الإبلاغ" مقابلا للمصطلح الأوروبي (Communication) وهو في تمثل الأستاذ عبد الملك مرتاض أدق وأدل على هذا المعنى من مصطلح "التواصل" الذي قد يشيع في كتابات بعض النقاد العرب المعاصرين، ذلك أن المصطلح الأوروبي إنما ورد في أصوله على صيغة التعددية المعنوية، على حين أن معادله العربي "التواصل" لم يرد في العربية بهذا المعنى، بل هو محايد لا يتعدى إلى أي معنى في غيره، وإنما يقتصر على ما فيه من معنى في نفسه[1].

و"التبليغ" بمفهومه العام يشمل الإخبار، أو نقل أمر من أعلى إلى أدنى، أو من أعلى إلى مستوى مماثل له في الدرجة.

ولفظ "البلاغ" اسم قديم الاستعمال في اللغة العربية، وقد ذكر في القرآن الكريم وصفا لوظيفة الأنبياء والرسل تجاه من أرسلوا إليهم من الأمم ليبلغوهم رسالات الله.

وهذا ما يبينه الجدول الآتي:

اسم السورة	رقم الآية	الآية
الرعد	40	﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾
النحل	82	﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾
الأنبياء	106	﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾
الجن	23	﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

[1]- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، د. عبد الملك مرتاض، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، 1992، العدد الأول، ص: 13

ب.2 التبليغ في اصطلاح الغرب:

يرى "غريماس" أن "نظرية التبليغ" إنما جاءت على غرار نظرية الإعلام وبتعالق معها...ولما كانت نظرية التبليغ في أصلها نظرية لسانية، فإنها لم تكد تعنى إلا بالشبكة المظهرية الرابطة بين المرسل والمرسل إليه، وما بينهما، وما يعتور علاقتهما من متعارفات الدلالة الوضعية كالسياق الدال، والشفرة المستخدمة بين الطرفين[1].

بينما يطلق عبد الله الغذامي اسم "نظرية الاتصال" على تلك المسماة "نظرية التبليغ"، أما "دي سوسير" فإن نظريته تنهض على نزعة اجتماعية، ولذا فهو يرى أن "التبليغ" ضرب من الحدث الاجتماعي الملاحظ في فعل الكلام، بالتالي فإن نظريته تقوم على وجود شخصين اثنين على الأقل (باث ومتلق) لسيران تيار الكلام[2].

ومن منظور "علم النفس" يذهب النفساني "بوهلر" (Boohler) إلى أن النشاط اللساني يتحدد بثلاثة وظائف تتمثل في[3]:

1. التعبير من حيث هوباث.
2. النداء من حيث هو مثبوث له أومتلق.
3. الاستحضار بما فيه من طبيعة الإحالة على المرجع أو السياق.

ثم جاء "جاكبسون" (R. Jakobson) فأضاف إلى هذه النظرية الثلاثية، وفصل من أمرها ما كان موجزا فغدت سداسية العلاقة حسب الشكل التالي[4]:

		سياق		
بـــاث	ــــــــــــ	رسالة	ــــــــــــ	متلق
		اتصال		
		شفرة		

(1)- Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes, communication, p: 45

(2)- المرجع نفسه، ص: 45

(3)- Sémiotique dictionnaire, p: 45

(4)- الألسنية (علم اللغة الحديث)، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص: 85

وتقوم رسمة "دي سوسير" على الصورة نفسها تقريبا، غير أنه يركز على جهازي النطق والسمع من جهة، والإرسال والاستقبال من جهة أخرى، بينما يركز "جاكبسون" على السياق وضرورة الاتصال.

يعد "دي سوسير" من الأوائل الذين تعرضوا إلى إشكالية التخاطب عند الإنسان، فقد بادر إلى تجاوز العملية التي تفترض مرسلا ومرسلا إليه وكلمات متبادلة بينهما[1].

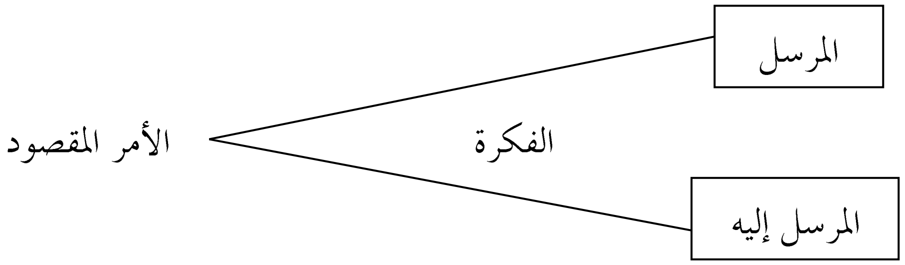

ليحدد مخططا عاما أكثر عمقا لظاهرة التواصل اللغوي، يأخذ عدة أبعاد ذهنية وتصورات فكرية، وقنوات فيزيائية وصوتية ونفسية وفيزيولوجية[2].

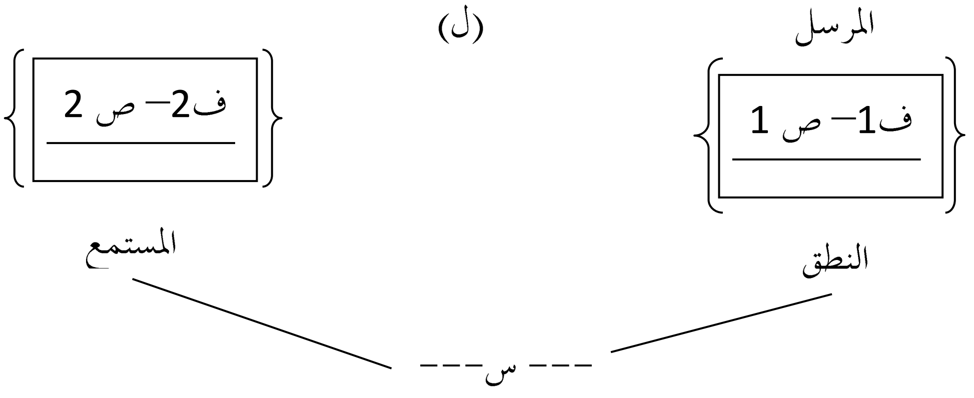

حيث تمثل[3]:

1) (ف1) تصور فكري مرفق بصورة ذهنية (ص1) للفظة التي تعبر عن ذلك التصور في اللغة المشار إليها.

2) يلفظ المرسل الكلمة المرسلة بواسطة عملية النطق.

---

(1)- مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، دط، 1980، ص: 47، نقلا عن: اللغة والتواصل، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 9.

(2)- ينظر: اللغة والتواصل، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 9-10.

(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص: 10

3) تتحرك هذه الكلمة المنطوقة عبر المسافة (س) الفاصلة بين المرسل والمستمع (المرسل إليه).

4) يتلقاها المستمع (ع) أو المرسل إليه.

5) يقوم الجهاز اللغوي للمستمع بتأويل هذه اللفظة من حيث هي صورة صوتية (ص2) ملازمة بالتواضع للتصور الذهني (ف2) الذي تشير إليه.

6) تشير الدائرة (ل) إلى الجانب النفسي للكلمة وبالتالي فإذا كان ف1=ف2 صح التفاهم بين الباث والمتلقي أي نجاح العملية التواصلية.

ولكن وعلى الرغم من أن مخطط "دي سوسير" قد حدد وبعمق ظاهرة التواصل اللغوي، إلا أن اللسانيين يطمئنون أكثر إلى مخطط "رومان جاكبسون" الشهير[1].

وذلك أن مخطط "دي سيوسير" لا ينهض بكل عملية من عمليات التخاطب، خاصة ما كان مرتبطا بالقاعدة الفيزيائية التي تساعد على تبليغ الرسالة ونقل إشارتها التي تعني القناة، فضلا عن سياق التخاطب الدال على المقام أو الظروف المحيطة بالإبلاغ واطراد القول من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل[2].

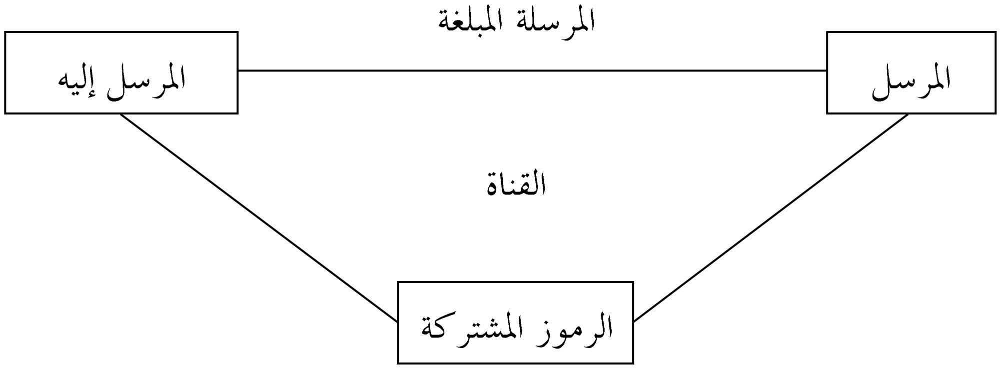

وانطلاقا من هذا المخطط الجاكبسوني لعملية التواصل اللغوي تم تحديد الوظائف الستة للاتصال على الشكل التالي[3]:

(1)- اللغة والتواصل، أ. عبد الجليل مرتاض، ص: 11

(2)- مدخل إلى اللسانيات، رولان إلوار، ص: 50

(3)- Les voies du langage, p: 05

نقلا عن : اللغة والتواصل ، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 88.

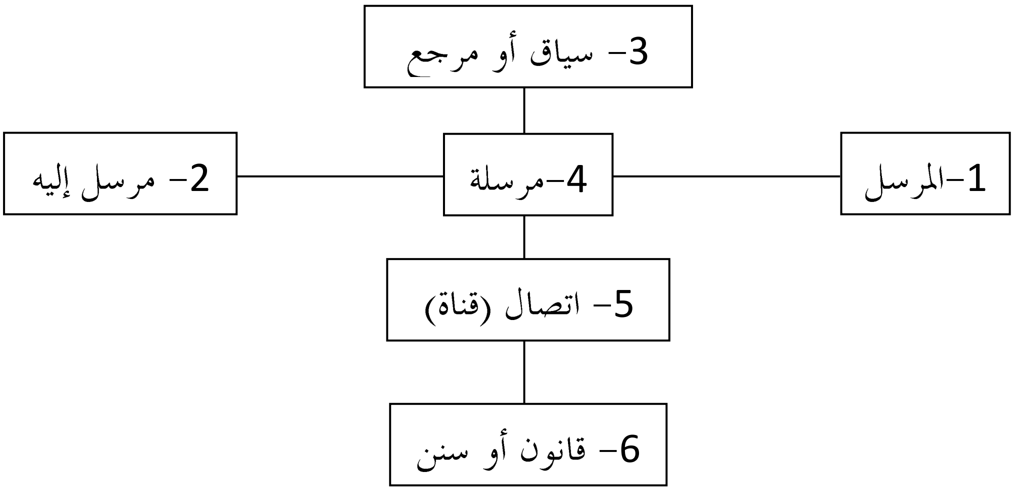

بحيث كل عنصر من هذه العناصر الستة يقابل وظيفة أساسية.

1) المرسل ←—— الوظيفة التعبيرية، وتتعلق بالمتكلم ولذلك قد تسمى انفعالية.

2) المرسل إليه ←—— الوظيفة الندائية، وتتعلق بما يتلقاه الشخص الذي يوجه إليه الخطاب قصدا أو عن غير قصد.

3) السياق أو المرجع ←—— الوظيفة المرجعية (الإخبارية).

4) المرسلة ←—— الوظيفة الشعرية أو الإنشائية.

5) الاتصال أو القناة ←—— وظيفة إقامة الاتصال.

6) القانون أو السنن ←—— وظيفة تعدي اللغة أو ما وراء اللغة.

ج. نظرية التبليغ عند "بلومفيد" (Bloomfield):

سيناريو جاك وجيل: معروف في كتب اللسانيات الغربية أن نظرية "بلومفيد" تمثلها هذه الرسمة[1]:

حح —— رع —— رض —— حض

1) حح: تمثل "الحافز الحقيقي" (Le stimulus effectif) (شعور جيل بالجوع ومشاهدتها التفاحة).

(1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث الغربي، د. عبد الملك مرتاض، ص: 15،

2) رع: رد "الفعل العملي" (Réaction active) (مجاوزة جاك السياج، وتسلقه الشجرة).

3) رض: رد "الفعل الاستيعاضي" (Réaction substitive) (جيل تنتج ملفوظا، الموجات الصوتية تنفرز من حنجرتها وشفتيها).

4) حض: الحافز الاستيعاضي (Le stimulus subsitif) (ملفوظ جيل يسمعه جاك).

ويمكن تمثيل هذه الوضعية باختصار على الشكل التالي[1]:

1) الوضع السابق لفعل الكلام.

2) الكلام.

3) الوضع اللاحق لفعل الكلام.

وبعد هذا نخلص إلى أنه إذا كان "بلومفيد" يتفق مع "دي سوسير" في تأسيسهما النظرية التواصلية، فإن بلومفيد يجاوز دي سوسير في كونه ينحو بنظريته منحى نفسانيا بإشارته إلى ذلك التأثير الذي يحدثه فعل الكلام في النفس البشرية.

ومعلوم لدى الدارسين أن نظرية "بلومفيد" قامت على الصمت، لأن لا "جيل" ولا "جاك" يحادث أحدهما الآخر حديث الكلام، وبالتالي فإن نظرية "بلومفيد" هي نظرية سيمولوجية خالصة، بينما تكتسي نظرية "دي سوسير" طابعا لسانيا محضا، لأنها تتعلق بالكلام لا بالإشارات أو الهمهمات أو ما شابه ذلك.

وغير بعيد عن النظرية التواصلية "لدي سوسير" نجد أن "ابن خلدون" يقترب من هذه المسألة حيث يتحدث عن نظرية التبليغ اللسانية، وأنها تقوم على "مراعاة التأليف الذي يطبق

---

(1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث الغربي، أ.د عبد الملك مرتاض، ص: 17

الكلام على مقتضى الحال"[1]، وأن المتكلم (الباث أو المرسل) إذا جاء ذلك "بلغ (...) حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع"[2].

فكأن هذه النظرية الخلدونية تبدو أشمل من النظرية السويسرية، لأنها لا تلتمس التبليغ في صورة ميكانيكية فجة، فتكون في كثير من الأحيان قاصرة عاجزة، إنما تلتمسه داخل شبكة توصيلية، وعبر قنوات، أدواتها: العلم باللغة، والقدرة على التبليغ، واكتساب الملكة على هذا التبليغ[3].

وإذا ما حاولنا تفسير كلام ابن خلدون عن النظرية التبليغية ومقارنته مع ما ورد عن دي سوسير وجاكبسون، فإننا سنجد حتما ما يلي:

1) "المتكلم" (لدى ابن خلدون) وهو الطرف المرموز له في نظرية دي سوسير بـــ(أ) وهو إذن الطرف المرسل للرسالة.
2) "السامع" (لدى ابن خلدون) هو الطرف المرموز إليه في نظرية دي سوسير بـــ(ب) وهو إذن الطرف المتلقي للرسالة.
3) "الكلام" في نظرية (ابن خلدون) هو العنصر الذي يقابل أو يمثل الرسالة في نظرية (جاكوبسون) أي الغرض من وراء الكلام الملقى إلى السامع.
4) "مقتضى الحال" في النظرية الخلدونية هو العنصر الذي يعادل في نظرية (جاكبسون) "السياق" وإن كان البلاغيون العرب قد ربطوا في كثير من أطوار تعاملهم مع اللغة والخطاب، والدلالة بالسياق[4].
5) إن ما يسميه "جاكبسون" "الاتصال" (Contact) ليس هو في الحقيقة إلا ما ورد في تحديد العلاقة بين المتكلم والسامع في النظرية الخلدونية وذلك حين يتمثل هذه المسألة في بلوغ "المتكلم حينئذ الغاية من إفادة السامع"[5].

---

(1)- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج38/1
(2)- المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 1071
(3)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، أ.د. عبد الملك مرتاض، ص: 19
(4)- نفسه، ص: 20
(5)- المقدمة، ابن خلدون، ص: 1071

6) "مقصوده" وهو العنصر الذي يعادل إلقاء الكلام أي إلقاء الرسالة.

ومن غير الممكن حصر كل الآراء والنظريات التي تعرضت للخطاب والتواصل بالدراسة والتحليل، ومجمل القول إن الحياة البشرية برمتها تقوم على التعارف والتبليغ والتخاطب والاتصال، أي على العلاقات الإنسانية بما في ذلك العلاقة الدينية والعاطفية والفكرية والسياسية والتجارية والعائلية والمهنية... قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[1]، فالحكمة المستخلصة من التعارف هي التواصل الذي وجد منذ وجد آدم عليه السلام.

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الاتصال لم تظهر إلا بعد ظهور العالم "شانون" (Shannon) سنة 1949 بمساعدة العالم "ويفر" (Weever) على أن القسم الأكبر لهذه الدراسة الهامة الخاصة بهذا المجال، جاءت من خارج علم النفس، أي من جهود المهندسين والرياضيين، خاصة بعد نشر عمل "كلود شانون" الموسوم بعنوان: "النظرية الرياضية التبليغية" (La théorique mathématique de la communication)[2].

ولقد أحدثت هذه النظرية ثورة لفتت انتباه جل المهتمين بحقول الإعلام، فتغلغل بعد ذلك الاتصال في علم النفس عن طريق علم النفس الاجتماعي، واللسانيات النفسية، وعن نظرية الشخصية.

(1)- الحجرات، الآية: 13

(2)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، أ.د. عبد الملك مرتاض، ص: 21

المبحث الثالث: ماهية الخطاب والتخاطب.

1. الخطاب والتخاطب في اللغة:

إن ما يجب النظر فيه منذ البداية في أي بحث علمي، هو تحديد مصطلحاته حتى تتبيّن المفاهيم، وتتميز الحقائق وتتجلى الحدود المعرفية المحصلة، ومن هنا حاولت تحديد مفاهيم مصطلحات البحث حتى أرفع اللبس والغموض الذي قد يكتنف بعضها.

جاء في لسان العرب مادة "خ ط ب": "...وهما يتخاطبان"[(1)]، "...والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا"[(2)]، و"المخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة"، والخطيب اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر[(3)]. ورجل خطيب، حسن الخطبة، وجمع الخطيب خطباء، وخُطب بضم الطاء، خطابة بالفتح (فتح الخاء) صار خطيبا[(4)].

ومن هنا، وجدنا مادة (خطب) في بعض المعاجم العربية ومشتقاتها تحيل على عدة معان منها:

1) الشأن أو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة سواء صغر الأمر أو عظم، فيقال: خَطْبٌ وخُطوبٌ، وقيل: هو سبب الأمر؟ يقال: ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ ونقول هذا خَطْبٌ جليلٌ وخطب يسير[(5)].
2) "المواجهة بالكلام"[(6)].
3) "التخاطب والمراجعة"[(7)].

---

(1)- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن منظور، دار بيروت للطباعة والنشر، (د.ط، د.ت)، مادة (خطب)، ج1، ص 361

(2)- نفسه

(3)- نفسه

(4)- نفسه

(5)- أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر،1979، مادة (خطب)، وينظر كذلك: اللسان والقاموس، مادة (خ ط ب)

(6)- نفسه

(7)- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ط، 1979، مادة (خ ط ب)

والبحث عن مادة "خ ط ب" ومشتقاتها في المعاجم العربية يطول ولا يتسع البحث لذلك، لأنه ليس مقام الإعداد لمعجم، وإنما الإحالة فقط إلى بعض المعاني اللغوية التي بإمكانها مساعدة الباحث على تجلية ما قد يبهم مفهومه.

2. الخطاب في الاصطلاح:

لقد تحدد هذا المدلول بتحدد التخصصات، وتميزت الاتجاهات التي تهتم بالخطاب، خاصة الأدبي منه، لذا فإن جذور مصطلح الخطاب تعود إلى عنصري اللغة والكلام[1].

أ. فاللغة نظام من الرموز يستعملها كل فرد للتعبير عن أغراضه، حيث تكون هذه الرموز إما على شكل أصوات تنطق أو حروف تكتب.

ب. أما الكلام فهو إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شخص آخر يدعى المخاطب أو المرسل إليه.

ومن هنا تولد مصطلح "خطاب" بعده رسالة لغوية يبثها المتكلم إلى المتلقي، فيستقبلها هذا الأخير ويفك رموزها[2].

وفي تحديد آخر لمفهوم كلمة "خطاب" يرى كمال عمران أن الخطاب يعتبر من أبرز الظواهر التي تحرر طرق الاتصال وتضبط بنية التغيير، وتنحت الأهداف المنشودة[3].

ويحظى الخطاب في اللغات الغربية بقدر كبير من العناية، لأنه يخرج الدراسة من الانطباع إلى التفكيك، ومن وصف أداة الاتصال إلى النبش عما يحيط بها من مشكلات.

وبناءا على هذه العناية "بالخطاب" توسعت مجالاته فعرف عند كل من:

4) "مايك بال" (Mike Ball) و"أنجلية" (Angelet) النقاد المغربي السعيد علوش -عرف- توجيهين:

---

(1)- دروس في الألسنة العامة، فيرديناندي سوسير، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1985، ص: 27

(2)- النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، جان لوي كابنس، دار الفكر، سوريا، 1982، ص: 94

(3)- في تحديد مفهوم الخطاب، د. كمال عمران، المجلة العربية للثقافة، مجلة نصف سنوية (مارس-سبتمبر)، العدد 28، 1995، ص: 62

أ. التوجه الأول: وتطبق عليه السيميائات السردية، ومن أهم ممثليه "فلادمير بروب" و"غريماس"، حيث يعتمد هذا التوجه على سردية القصة في أي عمل حكائي مهما كانت الأدلة التي يتوسل بها في عملية التواصل، لأن الأحداث التي يتم إخبارنا بها يمكن أن تترجم عبر وسائط مختلفة.

يقول ابن الهيثم: "إن الحق واحد، وإن الاختلاف هو من جهة السلوك إليه"[1]، فالمسالك تتعدد لبلوغ هدف واحد، لذا يجب التركيز على المضامين السردية وكذا على الكليات الدالة التي تتجاوز المجموعات اللسانية.

ب. التوجه الثاني: يركز دارسو هذا التوجه على دراسة الخطاب كصيغة لفظية لتشخيص القص أو الحكي (Le récit)، وإبراز العلاقات التي تنظم المستويات الثلاث: الخطاب-القص-السرد، بحيث يكون الخطاب مجالا متميزا يمارس فيه المتكلم عملية التلفظ (النطق) على أن يكون هذا التلفظ قابلا للتحليل والتفكيك.

وعلى الرغم من اتساع مجال السرديات وتعقدها وتطور مناهج دراستها، فإن هناك من يصر على التوفيق بين التوجهين أمثال: "تشاتمان" (Chatiman) و"جيرالد برينس" (Gerald Prince)، وذلك من أجل القضاء على كل الالتباسات التي لا تزال تكتنف هذا الميدان[2].

وممن أسهم بشكل واضح في هذا التوجه —الشكلانيون الروس- بزعامة "توماشفيكسي" الذي ميز بين المتن الحكائي (Fable)، والمبنى الحكائي (Sujet)، إذ يمثل المتن مجموع الأهداف والحوافز، بينما يمثل المبنى البحث عن الأنساق والوظائف، أي الخطاب، خاصة عند "تودوروف"(Todorov)[3].

---

(1)- نقلا عن مقال: عن الضوابط اللغوية لتوجيه الخطاب العلمي، أ.د سيدي محمد غيتري، الملتقى الدولي الأول، جامعة البليـدة، مـاي 2000، ص: 03

(2)- مقال: في قراءة التحليل السردي للخطاب، الطاهر رواينية، مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد 04، جوان 1996، ص: 8

(3)- نفسه، ص: 9

أما ضوابط القص وميكانيزماته فإنها تعد بمثابة السنن أو العلامات التي تتيح إمكانية فك رموز الخطاب، لذا فإن "إيخنباوم" يتحدث عن وظيفة الحكي التي عد أنها تشير إلى العلاقة التي تنشأ بين المرسل والمرسل إليه.

وبهذا، يكون الشكلانيون الروس قد أولوا عناية كبيرة لدراسة الخطاب خاصة "إيخنباوم" في دراسته الموسومة "معطف غوغول" -وكنتيجة لسيميائيات السرد، تأتي دراسة- "بروب" لمورفولوجية الخرافة أو الحكاية ثمرة لتطور التحليل السردي للخطاب، واتساع مجاله ليشمل كل أنواع الحكي[1].

ومعلوم أن وظيفة كل راو أو متكلم تختلف من حكاية أو قول إلى آخر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، حيث يحددها في كل مرة مدى تبلور العلاقة الجدلية بين وظيفة الإرسال والتلقي.

ولهذا يصر "غريماس" على أهمية التواصل بتتبعه مسارات المرسل عبر السياق، مفرقا بين المرسل والمرسل إليه، مشبها عمل الذات المرسلة بتحريات الشرطي وعمل العالم، وبحث المؤمن[2].

أما "بنفينيست" (Benveniste) فإنه يذهب في تعريفه للخطاب على أنه "كل منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راو ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما"[3]، على أن نية التأثير هذه، هي القصدية التي تلمح دوما إلى الإقناع، هذا الإقناع الذي لا يتم إلا إذا كانت حافظة المستمع مخزنة لما في حافظة المتكلم.

هذا، دون أن ننسى أن كل خطاب يعتمد اللغة التي هي وسيلة للاتصال والتواصل، وأن كل لغة تمتلك عددا من العناصر التي تهتم بإخبارنا عن موضوع الفعل الكلامي، وعناصره الأخرى التي تتسبب في تحويل اللغة إلى خطاب.

---

(1)- مقال في قراءة التحليل السردي للخطاب، ص: 10

(2)- مقال السيميائيات السردية للخطاب، "غريماس"، مجلة التواصل، ص: 18

(3)- اللغة والخطاب الأدبي، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992، ص: 48

وإلى جانب هذا، فإن اللغة هي أيضا مادة كل فن وفقا لمستوى المنطوق، أو الفعل الكلامي الذي يظهر، لأن الخطاب يرتبط أساسا بقرائن لغوية معينة، وبهذا يأتي مفهوم الخطاب كأداة تحليل بنوي وعلامي ودلالي للأثر الأدبي، باعتباره بناءا مستقلا من جهة، وفي علاقته بقائله وبالخطابات السابقة وكذلك السائدة من جهة أخرى[1].

ولذلك يسمح الخطاب بدراسة التراث، ويمكن تحليله من جهتين، أولا من جهة العلاقة الجدلية التي تربط المبدع بالمتلقي، وثانيا من جهة ارتباط هذا الخطاب بخطابات أخرى.

هذا عن السيميائيات السردية للخطاب، فماذا عن أصحاب المدرسة التوزيعية؟

يعرف "هاريس" (Harris) الخطاب على أنه ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض[2].

ويبدو أن "هاريس" من خلال كلامه هذا، يود أن يطبق مفهومه وتصوره التوزيعي للخطاب، على أنه عبارة عن متتاليات يلتقي بعضها بعضا بطريقة منتظمة تكشف عن بنية النص، هذا الانتظام الذي يطلق عليه اسم "تعادل متكافئ التوزيع" (Equivalence) منطلقا في اعتقاده هذا من اعتبار الجملة أكبر وحدة دالة قابلة للوصف النحوي.

أما أصحاب معجم اللسانيات[3] (1973) فقد أوردوا للخطاب ثلاثة تعاريف هي كالآتي:

1) الخطاب يعني اللغة في طول العمل أو اللسان الذي تتكلف بإنجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام (Parole) بتحديد "دي سوسير" (De Saussure).

---

(1)- مقال السيميائية والنص الأدبي للأستاذ عبد الحميد بورايو، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، 1995، ص: 82

(2)- L'information et la communication, Roget escaprit, Hachette. SI. 3ed, 1991, p: 22

نقلا عن: مقال السيميائية والنص الأدبي للأستاذ عبد الحميد بورايو، ص: 83.

(3)- Dictionnaire de linguistique (discours Taxte), Jean Dubois et autres, Larousse, Paris, 1973, p: 57.

نقلا عن : اللغة والتواصل ، الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض، ص: 42-43.

2) الخطاب يعني وحدة توازي الجملة أو ما فوق الجملة، وتتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية، وهو هنا مرادف للملفوظ (Enoncée).

3) استعمال الخطاب لكل ملفوظ يتعدى الجملة منظورا إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل، أي الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة (Enoncée supérieure à la phrase)، ويمكن تفصيل هذه التعاريف كما يلي:

3. الخطاب والكلام:

يعرف دي سوسير الكلام بأنه ذو نزعة فردية، إرادي وذكي كذلك[1]، والكلام حسب هذا التحديد مستقل عن مؤسسة الجماعة، وهو من ثم مفرغ كليا من سلطتها، وقابل بخصوبة كبيرة للتحرر والانبعاث المتجدد الذي يمكن تمثله في ولادة اللغة الجديدة كالإبداع مثلا[2].

وإلى جانب كون الكلام نشاطا فرديا، فإنه "ينفتح على فاعلية الإلقاء المستمر التي يشكلها دافع الإرادة والذكاء"[3]، هذا الدافع الذي ينبعث من عملية نقل الرسالة، وأين تتم عملية توجيه الكلام، التي تكتسب فيما بعد الصبغة التخاطبية حيث يوجه المخاطب رسالة إلى المخاطب (المرسل إليه).

وعلى هذا النحو تم تعريف الخطاب في الأغلب الأعم، ومن هنا يمكن "وضع الكلام على قدم المساواة مع الخطاب، فهو تكلم وتلق في آن واحد"[4].

أما "فرانسوا راستيه" (François Rastier) صاحب كتاب "من أجل تحليل الخطاب" فقد دعا إلى أنه ينبغي في تحليل الخطاب أنه يحدد موضوعه بسبب ارتباطه الوثيق باللسانيات التي حددت موضوعها ونجحت كعلم مؤسس.

---

(1)- دروس في الألسنية العامة، ص: 42

(2)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، هواري غزالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000، ص: 95

(3)- في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، حكمت صباغ، دار الآفاق للنشر، بيروت، ط3، 1985، ص: 31

(4)- القول الشعري، د. يمني العيد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987، ص: 10-11

وعلى ذلك الأساس اقترح فرانسوا ثلاث إستراتيجيات ممكنة من بينها، اعتبار الخطاب مرتبطا بالكلام.

واعتمادا على المفهوم السويسري للخطاب كونه اللغة التي هي في طور العمل أو اللسان الذي تتكلف بإنجازه ذات معينة ميّز "دومينيك مانقينوا" (Dominique Maigueneau) بين اللغة والكلام وتبين له إثر ذلك، أن الجملة لا تدخل في إطار اللسان ولكنها تنتهي إلى الكلام موئل الفعالية والذكاء[1].

وإذا كان دي سوسير يرى أن اللغة "كتر موضوع من خلال تطبيق الكلام"[2]، فإن سعيد يقطين يعتبر أن "اللسان ككل منته وثابت العناصر نسبيا"[3]، أي أنه يمثل كيانا منغلقا لا يسمح بالتفتح إلا لما تنتجه آليات الخطاب.

وبناءا على هذه المفاهيم اللسانية فقد وقع خلط كبير في تحديد مفهوم الخطاب، مما أدى إلى نشوء علاقة جدلية بين النص والخطاب تبعا للعلاقة نفسها بين اللغة والكلام.

4. الخطاب والتلفظ:

يعد "بنفينيست" أكبر مدرسة نظرت لمفهوم الخطاب، هذه المدرسة التي غيرت جميع آليات الدراسة اللسانية، وذلك بانطلاقها من إلغاء الجملة كأعلى مستوى للدراسة اللسانية، مما أحدث قطيعة مع أعمال "هاريس" و"بلومفيد" الذين شكلا مرحلة من مراحل اللسانية التقليدية. ولقد حدد "بنفنيست" ماهية الخطاب على أنه "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[4].

---

(1)- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص: 21

(2)- Théorie du langage, J.P Brancard, 2ème édition, Bruxelles, 1977, p: 103

(3)- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص: 22-23

(4)- Problèmes de linguistique générale, Emile Benveniste, édition Gallimard, Tome I, 1966, p: 129-130

أما الجملة فهي عنده "إبداع ليس له تعريف، وتنوع بدون حدود، وهي الحياة نفسها للغة في أثناء العمل"[(1)]، معارضا بذلك أبي اللسانيات الأمريكية "بلومفيد" الذي يحصر النحو عند حدود الجملة، كون الوحدة اللسانية الكبرى تتمثل في الجملة.

ويؤدي بنا تعريف "بنفنيست" إلى الافتراض أن "تلفظ الخطاب يستلهم مادته من الأداء الشفاهي للكلام بكل تنوعاته المختلفة ابتداءا من المخاطبة اليومية إلى الخطبة الأكثر صنعة وزخرفة إلى الإنشاء الأكثر شعرية من حيث الأداء"[(2)].

ولكن هذا الافتراض لا يعني أبداء إلغاء الخطابات الكتابية لأننا مدينون للكتابة بقدر كبير، فلولاها ما أمكننا الإطلاع على ثقافات الغير سواء القديمة أو الحديثة.

وإذا كان "بنفنيست" قد حدد ماهية الخطاب، فإنه لم يضع له حدوده الخاصة، وإنما تحدث عنه بكونه ذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما، بواسطة متكلم معين في مقام معين، باعتبار أن هذا الملفوظ يمثل آلية اشتغالية داخل التواصل.

ولعل نظرة "بنفنيست" هذه تقترب من نظرة المدرسة الفرنسية للخطاب، خصوصا مع اللساني "قيسبن" (L. Guispin) الذي فصل بين الملفوظ الخطاب.

وفي فصله هذا، يرى "قيسبن" أن الملفوظ متتالية من الجمل الموضوعة بين بياضين دلاليين، أما الخطاب فهو الملفوظ المعتبر من وجهة نظر حركية خطابية مشروط بها، وهكذا فنظرة تلقى على نص تبنينه لغويا تجعل منه ملفوظا، وأن دراسة لسانية لشروط هذا النص تجعل منه خطابا[(3)].

فإنتاج الخطاب إذن قائم أساسا على حركية خطابية متجلية في الملفوظ.

---

(1)- Initiation aux méthodes de l'analyse du discours (problèmes et perspectives) Dominique Maingueneau, éd. Hachette université, 1976, p: 154

(2)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 97

(3)- تحليل الخطاب الروتني، سعيد يقطين، ص: 22

5. الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة:

لقد انتصر "رولاند بارث" (Roland Barthes) لهذا التحديد، وهو التحديد الثالث حسب معجم اللسانيات، حيث اتخذه مرتكزا لتحليله البنيوي، فمن جهة نظر القواعد، يمثل الخطاب سلسلة من الجمل، ومن جهة نظر التحليل اللساني الخطاب مرادف للملفوظ، ومن أجل هذا تسعى اللسانيات لمعالجة الملفوظات المتجمعة، ودراسة مسارها عندما تحدد قواعد الخطاب وقوانينها، وتصفه وصفا معقولا وقابلا للملاحظة والتأمل باعتباره سلسلة متتالية من الجمل.

ومتصورات الخطاب حسب التحديدات الثلاثة تقترب من مفهوم النص، إن لم تكن مرادفة له، وفي الوقت ذاته متعارضة معه، فالنص في المعجم اللساني مدونة تتألف من مجموعة من الملفوظات اللغوية الخاضعة للتحليل سواء كانت شفهية أو خطية.

ومن هذا المنظور يصبح الخطاب ضمن الممارسات اللسانية أداة للمعرفة، وبهذا المعنى يتحول إلى نص، حتى إن الكثير من اللغات لا يفرق بين النص والخطاب.

فالنص عند "هلمسليف" (Louis Hjelmslev) بالمفهوم الواسع يعني كل مادة لسانية مدروسة، وكلا المفهومين (النص والخطاب) لدى "غريماس" و"كورتيس" (Greimas et Courtes) يشكلان فرضية خصبة، استعملت للدلالة على عمليات سيميائية (procès sémiotiques) غير لسانية[1].

وفي الممارسة الفكرية يشير الخطاب إلى الأطر المرجعية للسانيات "فوكو لاكان" (Foucault Lacan) ثم إنه يلتبس أحيانا بمفهوم الرسالة (Message) عند "جاكبسون" (Jakobson).

وإذا كانت المتصورات السابقة للخطاب قد حصرته في زوايا ضيقة حينما ربطته بالجملة، فإن البلاغة القديمة سعت جاهدة إلى بناء أنظمته وقواعده، كما أن الأسلوبية

(1)- مقال: بين النص والخطاب، الأستاذ أحمد يوسف، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، العدد 1، 1992، ص: 51

التعبيرية وظفت معطيات ألسنية مثل الملفوظ والتلفظ كما هو الحال لـ"شارل بالي" (Charles Bally) تلميذ "دي سيوسير".

وهكذا، فإن مفهوم النص في تصور "تودوروف" يكمن في فقرة أو وحدة من النمط الخطي الذي تكونه مجموعة من الجمل... [1].

وعلى هذا الأساس، فالنص يكون جملة جملة، كما قد يكون كتابا بكامله، إنه يتحدد باستقلاليته وانغلاقه، إنه نظام ثاني إيحائي، وهو ثانوي بالنسبة لنظام آخر من الدلالة، وله مظاهر منها، المظهر الفعلي، والتركيبي الدلالي، والبلاغي والسردي والموضوعاتي،... كل ذلك يتقاطع مع النظرية التوزيعية ولسانيات "هاريس" وتلامذته فيما يخص تحليل الخطاب.

وإلى جانب هذا التحديد، يضيف "تودوروف" ثلاثة أنظمة تتلخص في النظام المنطقي، والنظام الزمني والنظام المكاني، وهكذا يبتعد مفهوم النص عن مفهوم الخطاب ليكون أشمل منه[2].

ويصب في هذا الاتجاه كثير من الآراء، فالنص بنية من القيم عند "رينيه ويلك" (R. Weeelk)، وعلامة عند أصحاب نظرية التلقي، ووحدة مستقلة قائمة بذاتها، بعيدة عن إدراك القارئ (شلوفيسكي والشكلانية الروسية)، وعرض دال عند أصحاب مدرسة النقد الجديد[3].

كل هذا يفضي بنا إلى صعوبة تحديد ماهية النص والخطاب مما يفضي كذلك إلى صعوبة إيجاد حدود علمية موضوعية بين هذين المفهومين (النص/الخطاب).

ونلفي بين التصور اللساني للخطاب وبين تصور "رولاند بارث" مسافات بعيدة هي أقرب إلى التنظير الجمالي منها إلى التقعيد اللغوي، ولعل هذا ما جعله يتداخل مع استعمالات الخطاب في أدبيات "فوكولاكان" وغيره من الذين يشتغلون في حقول العلوم الإنسانية

(1)- مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 52

(2)- نفسه

(3)- نفسه

والاجتماعية، وإن كان "بارث" لا يرى في النص إلا فضاءًا اجتماعيا له وشائج قوية مع الممارسات الفعلية للكتابة[1].

وبعد هذا، يبدو من العبث البحث عن فوارق أو أوجه التقارب بين النص والخطاب، فمفهوم الخطاب احتضنته علوم لسانية وقعدت له، فصار حقلا من حقولها، ولما تلقفه المعجم النقدي للعلوم الإنسانية انزاح عن خصوصياته اللسانية، فعرف توسعا في الاستعمال، وإن حرص بعض الدارسين في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية على الاحتفاظ بجوهر مرجعيته اللسانية[2]، لذا يجب التريث في استعمال هذه المفاهيم، وتحديد مواقعها في المعجم النقدي، لأنه قد يصبح خلطا لا جدوى منه.

ومن جهة سيكو-لسانية يعرف "جان كارون" (J. Caron) الخطاب بأنه متتالية منسجمة من الملفوظات[3].

ومعنى هذا أن الخطاب يفترض علاقات بين مجموعة من الملفوظات التي لا يجب أن تكون مبنية مسبقا، إنما يجب الربط بينها.

ومجال الحديث عن الخطاب واسع جدا، لذا لا يمكن حصر كل التعاريف التي وردت للاصطلاح على مفهومه، ونخلص في النهاية، أنه كل ما جاء في الخطاب يدل على أن الكلام ينطلق من الطرف الأول وهو المتكلم إلى الطرف الثاني وهو السامع الذي لا يملك سوى الإنصات، وعليه كان الاتصال والخطاب عملية يتصدى لها المتكلم دون السامع (دور السامع هنا سلبي).

بينما تساوي أو اقتراب المصطلحات الثلاث: التواصل والتبليغ والتخاطب ومعناها يعود في أصله إلى الطبيعة الصرفية للكلمة في اللغة العربية، إذ تشير كلها إلى التفاعل الذي يستدعي المشاركة بين اثنين فأكثر، كما سبقت الإشارة في التواصل بمعناه اللغوي.

---

(1)- مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 55

(2)- نفسه، ص: 57

(3)- مقال تحليل الخطاب الروائي، بشير برابر، ص: 23

هذه المشاركة التي تحدث من الجانبين على السواء، إذ يتبادلان فعل التخاطب دون الإشارة إلى أسبقية طرف على طرف، وهذه هي المشاركة الحقيقية.

ومن الدارسين الذين توصلوا إلى التفريق بين مصطلحات التواصل والتبليغ والتخاطب "طه عبد الرحمن" الذي يقول: "إن الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية، وإن الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجابية، وإن الأصل في تكوثر الحجاج هو صفته المجازية"(1).

مواصلا قوله: "كلما وقفنا على لفظ الكلام تبادرت إلى أذهاننا دلالته على معنى "التواصل" حتى إن ما سواه من وسائل التواصل المعلومة إن حركات ملحوظة أو إشارات مبثوثة أو رموز منظومة، تبدو لنا موضوعة على قانونه ومفهومه على مقتضاه، أو قل إن الكلام أصل في كل تواصل كائنا ما كان"(2).

وبعد شرحه لكل الأنواع الكلامية التي قد لا يخص بعضها التواصل ككلام النائم، يصل به المطاف إلى نتيجة مفادها إن الكلام الذي يدل على التواصل "ينبني على العلاقة التخاطبية، وأن التخاطب -إجمالا- هو عبارة عن إلقاء جانبين لأقوال بغرض إفهام كل منهما الآخر مقصودا معينا"(3)، إلا أن يقول: "ولما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية" أو قل "فائدتها التواصلية" نسميها بـــ"قواعد التبليغ" علما بأن مصطلح "التبليغ" موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان"(4).

ومعروف أن موضوع التخاطب في كلا وجهيه التواصلي أو التبليغي أخذ يشغل الباحثين من مختلف الآفاق العلمية، منطقيين ولسانيين، وفلاسفة اجتماعيين ونفسانيين وغيرهم، ويتولى فرع متميز من المنطقيات الحديثة البحث فيه، وهو "منطق الحجاج والحوار"،

---

(1)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص: 213

(2)- نفسه، ص: 213

(3)- نفسه، ص: 237

(4)- نفسه

كما يتولى فرع "التداوليات" من اللسانيات الحديثة النظر فيه لاختصاصه بدراسة الاستعمالات اللغوية في تعقلها بمقامات الكلام[1].

ومن هنا بات لزاما النظر في الضوابط التبليغية التي تخص التخاطب بوصفه عبارة عن انتهاض المتخاطبين بأقوال وأفعال بغية حصول التواصل والتفاعل بينهما، ولهذا سأعرض قواعد التواصل عند الفيلسوف الأمريكي "بول غرايس" (Paul Grice) تلك القواعد التي عرضها لأول مرة في دروسه الموسومة بعنوان "محاضرات في التخاطب" وثانيا في مقالته الشهيرة "المنطق والتخاطب"[2]، وقد جمعها "غرايس" في مبدأ سماه "مبدأ التعاون والاقتصار على جانب التبليغ"، وهذه القواعد هي كالآتي: قاعدة الكم، قاعدة الكيف وقاعدة الورود وقاعدة الكيفية.

1. **قاعدة الكم**: وتسمى كذلك حب الترجمة[3]، قاعدة كم الخبر وتتضمن:
   أ. إخبار السامع بالقدر الذي يحتاجه دون زيادة.
   ب. توافر القدر المطلوب من المعلومات.
   ج. يجب ألا توجز إلى حد الإخلال ولا تطنب إلى حد الإفراط.
2. **قاعدة الكيف**: أو قاعدة كيف الخبر:
   أ. عدم إعطاء المتكلم معلومة لا يملك الدليل على صدقها أو صحتها.
   ب. لا تقل للمخاطب ما تعلم كذبه.
   ج. لا تقل شيئا تعوزك في إثباته الحجة أي ما ليس لك عليه بينة.
3. **قاعدة الورود**: أو قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال
   أ. مناسبة المقال للمقام، ليناسب مقالك مقامك.

---

(1)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ص: 238

(2)- Logic and conversation in Cole Paul Grice, Peter and Morgan, Jerry L. (eds) speech acts, in syntax and semantics, vol 3, Academic press, New York, 1975, p: 41-59

(3)- ينظر في عرض هذه المبادئ ونقدها والتمثيل لها كتاب: روبرت دي بوجراند (النص والخطاب والإجراء)، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، وينظر كذلك: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص: 238

ب. ليكن خطابك واردا، أي ألا يكون متناولا لأمر غير الموضوع الذي أنت بصدده.

4. **قاعدة الكيفية:** تسمى كذلك قواعد جهة الخبر، وتشتمل على آداب الخطاب وطريقة أدائه:

أ. كن واضحا.

ب. تجنب الغموض.

ج. تجنب الالتباس.

د. ليكن خطابك مركزا.

ه. كن منتظما.

و. كن مؤدبا.

وفي السياق نفسه أشار ديكرو إلى[1]:

أ. قانون الاهتمام (Loi d'intérêt)

ب. قانون الإخبارية (Loi d'information)

ج. قانون الاستقصاء (Loi d'exhaustivité)

د. قانون التلطيف (Loi de litote)

وإذا كانت القواعد والقوانين المذكورة آنفا متعلقة بالمتكلم، فلا ننسى ما يجب توافره في الطرف المتلقي (سامعا أو قارئا) للرسالة من كفاءة تتمثل في[2]:

أ. حسن وسلامة السمع.

ب. حسن الانتباه.

ج. الرصيد اللغوي الكافي.

د. الرغبة في التواصل.

---

(1)- تعدد المعنى في القرآن الكريم، ألفت يوسف، دار سحر للنشر، كلية الآداب، منوبة، تونس، ط1، 2003، ص: 60

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 29

ه. القدرة على الربط والاستنتاج والتأويل.

و. القدرة على الاعتراض والمناقشة والتأييد.

وهكذا في جميع الميادين ولا يمكننا في هذه الدراسة التعرض للقواعد التواصلية الخاصة بكل مجال لأن ذلك -رغم أهميته- خارج عن موضوعنا ونخشى أن تتشعب الدراسة وتطول، وعليه ارتأينا أن نتعرض لما جاء في كتب البلاغة لأنها الميدان الأكثر تنوعا في هذا الأمر، فهي تتناول العملية التواصلية وقواعدها بحيث يستطيع كل ميدان آخر الإفادة منها، إضافة إلى أنها تعرض للتواصل بمستوييه: الاتصال النوعي (وهو الغالب عليها) والاتصال العادي (وحظه ضئيل) [(1)].

وقبل الخوض في ذلك أجدد تأكيدي على أن اعتناء البلاغة العربية كان بالمستوى العالي للغة، حيث يتم التواصل في طبقة ذات مؤهلات لغوية جيدة، بمستوى لغوي رفيع، وقلما ركزت على التواصل العادي، والذي يتم بين عامة الناس متعلقا بأمورهم اليومية، ولعل هذه الظاهرة تعود أسبابها إلى:

1. النظرة التقديسية للغة العربية: إذ يرى العلماء العرب والمسلمون، أن اللغة العربية هي أرقى وأكمل، وأتم اللغات جميعا، بدليل أنها أصبحت لغة آخر كتاب سماوي معجز، ومن ثم فاللغة بهذا المستوى، وهذا الجمال لا تبتذل -كباقي اللغات- في القضايا اليومية، بل عليها أن تحافظ على مستواها وطبقتها اللغوية من شعراء وأدباء وخطباء وعلماء ممن أتقنوها، بينما دراستها في المستوى العادي ينزع عنها هاته القدسية، ولعل قول ابن خلدون في مقدمته -وهو من لخص نظرة العلماء السابقين فيما يخص كل علم- بعدما عرف اللغة عموما، وبين أنها فعل لساني قال: "وهو في كل أمة بحسب اصطلاحهم، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد"[(2)].
2. طبيعة اللغة العربية ذاتها إذ كانت حتى قبل مجيء الإسلام لغة شاعرية راقية.

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 30

(2)- ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص: 712

3. ازدهار اللغة العربية نتيجة لقوة الدولة الإسلامية، وتمكنها من السبق العلمي، مما جعلها تعتني اعتناءً كبيرا، كما اعتنت بالجوانب الأخرى كالسياسة والقضاء والدفاع (دافع التفوق كان في كل شيء وعلى كل المستويات)[1].
4. نظرة العلماء البلاغيين إلى لغة العامة، على أنها لا تستأهل الدراسة من حيث إنها لا تتوفر على آليات الإبداع والتفنن، بل هي على العكس من ذلك، لغة ثابتة وجاهزة تفتقر إلى الحيوية والتجديد، إضافة إلى خضوعها إلى ظاهرة التكرار المميت (الابتذال)، بينما اللغة الفنية لغة متجددة، يفجر من خلالها المتكلم طاقاته الإبداعية[2].
5. كما كان انتشار اللحن وغياب مظاهر الفصاحة عند العامة، خاصة في العواصم العربية الكبرى، في الوقت الذي ظهرت فيه الدراسات العلمية للغة سببا في عزوف العلماء على دراسة لغة التخاطب العامة، وربما لو ظهرت هذه الدراسة العلمية للغة قبل دخول الأعاجم إلى البلاد العربية وتأثيرهم على اللغة العامة، لاختلفت نظرتهم إلى لغة العامة ورأوها أنها تستحق الدراسة.

ومن هذه النظرة التقديرية للغة العربية ركز العلماء على التواصل العلمي، وهو ما ذكروه في باب البلاغة والبيان والفصاحة.

ففي تعريف البلاغة مثلا يقولون: "فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة، فهو معجز، وهو بلاغة القرآن الكريم، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن، كبلاغة البلغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى، وهو غث مستكره وظاهره متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[3]، ويؤكدون على أن البلاغة "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 30
(2)- نفسه، ص: 31
(3)- النكت في إعجاز القرآن، (ت 386هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968، ص: 75

له اختصاص بتوفيه خاص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها..طرفان أعلى وأسفل...وبينهما مراتب"[1]، ونستطيع القول كما ذهب إلى ذلك محمد مفتاح:"إن البلاغة العربية جاءت لأجل وظائف محددة وهي "التواصل والإقناع والإمتاع"[2].

وهكذا البيان والفصاحة، وقد وضعوا بعد ذلك قواعد لهذا النوع من التواصل، منها ما يتعلق بالمتكلم، ومنها ما يتعلق بالسامع ومنها ما يتعلق بالرسالة.

أ. القواعد المتعلقة بالمتكلم في البلاغة العربية:

المتكلم في كتب البلاغة قد يكون شاعرا أو خطيبا أو كاتبا أو مسترسلا أو مجادلا أو مفتيا أو واعظا أو قصاصا أو راوية، وعلى هؤلاء أن يتوفروا على[3]:

1) العلم التام باللغة: أصواتها، وصرفها ونحوها وبلاغتها (الأساليب).
2) العام التام بمجال الاختصاص.
3) الثقافة المتنوعة خارج التخصص.
4) الأخلاق المستقيمة والسيرة الحسنة والتقوى والإخلاص.
5) حسن السمت وحسن المظهر، وقد يوجد لكل صاحب تخصص لباس خاص.
6) الصوت الجهوري مع سلامة النطق من العيوب.
7) الاستعانة بالأدلة والبراهين لتأييد رأيه.
8) مراعاة حالة السامع: استعداده للتواصل، طبقته، ثقافته ودينه.

ب. القواعد المتعلقة بالسامع في البلاغة العربية:

والذيدوره قد يكون: رجلا عاديا أو عالما أو متعلما أو مستفتيا أو قارئا، ومهما كان نوعه، فعليه الالتزام بالقواعد التالية[4]:

(1)- مفتاح العلوم، السكاكي أبو يعقوب يوسف (ت 626هـ)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص: 526

(2)-التلقي والتأويل، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، سنة 2001، ص: 38

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 32

(4)-آليات التواصل في الخطاب القرآني نفسه، ص: 33

1) حسن الاستماع والاهتمام.
2) معرفة لغة التخاطب وموضوعه.
3) عدم مقاطعة المتكلم.
4) القدرة على الاستنتاج والتحليل والاعتراض.
5) التزام الأدب والتحلي بالأخلاق.

ج. القواعد المتعلقة بالرسالة في البلاغة العربية:

والتي قد تكون شعرا، أو خطبة أو رسالة أو قصة أو حكما فقهيا أو قضية عامة تتعلق بحياة الفرد، ولابد أن يتوافر فيها ما يلي[1]:

1) تحديد الموضوع.
2) ترتيب أجزائه.
3) مناسبته لقدرات السامع.
4) اللغة الصحيحة، ومن ثم ذكروا ما يجب أن يعرفه المتكلم صوتا وصرفا ونحوا.
5) اللغة البليغة، وذكروا بذلك أبواب البلاغة مثل:

- كلامهم عن أنواع الكلام: الخبر وأنواعه، والإنشاء وأنواعه وموضوع كل واحد.
- قانون الفصل والوصل.
- قانون الإيجاز والإطناب.
- قانون الالتفات.
- قانون استعمال الصور البيانية: التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز.

وهذه أمور كلها مبثوثة في كتب النقد، وكتب الشعر وكتب البلاغة وكتب الجدل وكتب الحديث وغيرها.

(1)- نفسه، ص: 33-34

وعلى العكس من ذلك لم يحظ التواصل العادي بالاهتمام نفسه، لا من حيث التدوين، وإنما من حيث الدراسة، فمن حيث التدوين نجد مؤلفات عدة سجلت لنا اللغة اليومية للإنسان العربي ومنها: كتب التاريخ وكتب الصناعات وكتب الظواهر الاجتماعية كالبخل والكدية، أو الصفات الذاتية كالذكاء والغباء والحمق وكتب اللحن وما إلى ذلك، ولم تتعد هذه المؤلفات مرحلة التاريخ إلى الانتقال إلى دراسة هذا النوع من التواصل، حتى يتسنى لها معرفة نفسية الفرد من جهة، وطبيعة المجتمع وخصائصه من جهة أخرى، ولكننا نجد في ذلك بعض الجهود المتفرقة هنا وهناك ولكنها لا ترقى إلى درجة تصبح فيها دراسات متخصصة، اللهم ما جاء عند ابن وهب في كتابه المميز: "البرهان في وجوه البيان"، إذ اعتنى -على خلاف غيره- بالتواصل بنوعيه: الخاص والعام، ولقد جاء بمادة رائدة في هذا المجال الثاني، لعل ذلك ما جعله السباق إلى دراسة التواصل بشكل قريب مما يدرسه به المحدثون، والمعاصرون الآن مع فارق في المنهج والمصطلح طبعا، وهذه أهم أفكاره في هذا المجال دون تفصيل[1].

- **وسائل الاتصال وقواعد التخاطب عند ابن وهب:**

لقد قسم ابن وهب وسائل الاتصال إلى: تواصل الاعتبار، وتواصل الاعتقاد، وتواصل العبارة، وتواصل الكتابة، وجعل تحت كل قسم أنواعا وأشكالا، ويعد "باب العبارة" أهم الأبواب جميعا، لأنه ذكر تحته قوانين تواصل كل من: البليغ (شاعرا وناثرا)، والخطيب والمجادل، ثم المتكلم العادي، والذي خصه "بباب الحديث"، وقد قدم لنا مفهومه لهذا الحديث[2] بقوله: "وأما الحديث فهو ما يجري من الناس في مخاطباتهم، ومجالسهم ومناقلاتهم، وله وجوه كثيرة"[3]، وهو عنده جدير بالدراسة والتعقيد، لما له من وظائف اجتماعية ونفسية مهمة، وهذا ما جعله يبسط القول فيه، وقد ركز على الصفات التي يجب توافرها في المتكلم حتى يضمن لتواصله التوفيق وبلوغ الهدف، ومنها: الجد، الجزالة، الفصاحة، الصواب،

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 34

(2)- نفسه، ص: 34

(3)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب أبو الحسن إسحاق، تح: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، مصر، دت، دط، ص: 198

الصدق، الحق والنقع، والبلاغة والأهمية، كما يجب عليه في مقابل أن يتره قوله عما يعيق العملية التخاطبية من مثل: الهزل والسخف، والقبح والخطأ، والكذب، الباطل، والضر والعي[1].

وفي باب الصواب والخطأ، جمع ابن وهب قواعد التخاطب التي تضمن أداء تواصليا ناجحا حيث يقول في نص قيم: "ومن الصواب أن يعرف:

1) أوقات الكلام، وأوقات السكوت.
2) وأقدار الألفاظ، وأقدار المعاني.
3) ومراتب القول، ومراتب المستمعين.
4) وحقق المجالس، وحقوق المخاطبات فيها، فيعطي كل شيء من ذلك حقه"[2].

ثم راح يعطي لكل عنصر أمثلة ونماذج تبين ضرورة احترام القواعد التواصلية السابقة، وإذا نظرنا إليها، فإننا نجدها تغطي كل عناصر العملية التواصلية: المتكلم، والسامع والرسالة والمقام، ولكنه –كما أشرنا سلفا وشأنه في ذلك شأن كل البلاغيين- يركز بالدرجة الأولى على المتكلم لأنه هو المدير لعملية التواصل، سواء كان متكلما بادئا، أو كان متكلما معقبا، وهذا المتكلم عليه مراعاة هذه القواعد مع جميع عناصر الموقف التواصلي، وحسن التنسيق بينها بداية بـــ[3]:

1. **الرسالة:** عليه أن يحسن اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني المراد التعبير عنها وتبليغها، حيث لا يكون هناك قصور أو تفاوت بين تلك الألفاظ وتلك المعاني، وقد نبه الكاتب في هذه القضية على أنه سبق الكلام فيها في باب العبارة[4]، حيث ذكر كثيرا من القوانين الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية، والتي تعين المتكلم على مراعاة هذا الأمر.

---

(1)- نفسه، ص: 34

(2)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 207

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 35

(4)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 127

2. **المتكلم:** على المتكلم أن يراعي استعداد سامعه للتواصل، كما يراعي مرتبته العلمية، والدينية والاجتماعية، ويتبع معه القواعد الآتية:

1) أن يبدأه بما يجب أن يسمعه، لا بما يضجره ويصده عن الحديث.

2) أن يتدرج معه في الحديث فيرتب كلامه وينظمه، ويرتقي حتى يبلغ مقصده دون تنفير.

3. **المقام:** وهو من العناصر المهمة جدا في عملية التواصل، بل إن الإخلال به يؤدي حتما إلى فشل العملية التواصلية، ومما يجب مراعاته من قواعد في هذا العنصر هو:

1) اختيار الوقت المناسب لبدء التواصل واختيار الوقت المناسب لقطعه (السكوت)، وهذه القضية تتحكم فيها عناصر كثيرة في المقام مثل: طبيعة السامع فإن كان عاقلا متزنا مقبلا على المتكلم فإن عملية التواصل تستمر، أما إذا كان سفيها أو فاجرا، فالأحسن قطع التواصل معه، لأنه لا يجدي نفعا[1].

2) مراعاة طبيعة المقام، فمقام السلطان ليس كمقام الرعية، ومقام العلماء غير مقام الجهال، ومقام الجد غير مقام الهزل، فلكل واحد من هذه المقامات قواعد تخاطبية خاصة، فمثلا في مجلس السلطان على المتكلم أن:

- يحترم ويعظم.
- يبدي الطاعة.
- يتحفظ، ويتجنب الاسترسال.
- لا يبدأ بالكلام.
- لا يتكلم إلا إذا سئل.
- لا يتكلم إلى فيما يصلح الرعية.
- يكثر الإنصات.

في مجلس العالم:

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 36

- أن يحسن الإنصات.
- أن يسأل سؤال من يبتغي التعلم دون الإكثار.
- أن يوقر ويتملق.
- أن يخصه بالتحية.
- أن يجتنب الغمز والإشارة.
- أن يجتنب قول: قال فلان، وقال فلان.

في مجالس السوقة: وهي عنده ضرورة معيشية، وعلى الإنسان فيها:

- ألا يستعمل معهم كل عقله وكل علمه، حتى يشعرهم بالفارق فيتحرسوا منه.
- أن يتواصل معهم بما يعرفون من لغة، واصطلاحات وعادات حتى يضمن تجاوبهم.
- ألا يلتزم معهم الجد الكامل، أو الهزل الدائم، لأن الأول ينفرهم منه والثاني يجرئهم عليه، بل يجتهد أن يسير فيهم بين هذا وذاك، حتى يظفر بميلهم إليه، ويتقي تجاسرهم عليه.
- مراعاة أصنافهم، فالناس طبقات، منهم من تجب معه المداراة، ومنهم من تنفع معه المصارحة، ومنهم من لا يستجيب إلا بتأنيب وهكذا.

هذا عن مفهوم التواصل عموما، والفرق بينه وبين المصطلحات الأخرى كالاتصال والتبليغ والخطاب، وإن كانت معظمها تدل على التفاعل بين طرفين أو أكثر، أي أنها مصطلحات تنطوي تحت مصطلح واحد هو التواصل اللغوي بكل ما يحمله من ميكانيزمات، وهذا الذي سيتجلى من خلال بسطنا للفصل الأول المتضمن دراسة التواصل اللغوي أو التبليغ اللساني وتقنياته طبقا لعنوان الرسالة.

الفصل الأول:

التبليغ اللساني العام -دراسة في العناصر-

المبحث الأول: دراسة عناصر العملية التواصلية

المبحث الثاني: تفسير عملية التبليغ

المبحث الثالث: مفهوم الكلام

المبحث الرابع: مفهوم المتكلم

المبحث الخامس: مفهوم السامع

المبحث السادس: المقام

المبحث الأول: دراسة عناصر العملية التواصلية

1. أطراف التواصل في الاصطلاح:

للتواصل أطراف وعناصر لا يمكن أن يتم إلا بوجودها مجتمعة، وفي تناسق متين، وهاته العناصر هي: (المتكلم، السامع، الرسالة والسياق).

أ. المتكلم والسامع:

بما أن التواصل يقتضي اشتراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال، فإن غياب عنصر واحد منها سيشل العملية التواصلية، بل إن وجود كل واحد منهما يجب أن يكون وجودا نوعيا وإيجابيا، وإذا ما رجعنا إلى الكتب التي تدرس التواصل والتي تتناول القراءة أو نظرية الإعلام أو تحليل الخطاب أو البلاغة فإننا نجدها تستعمل للتعبير عن كل طرف اصطلاحات كثيرة.

- فالطرف الأول يسمى: المتكلم والمخاطب والمرسل والملقي والباث، وإذا ما حاولنا الاقتراب أكثر من عملية التواصل اللغوي، لقينا مصطلحي المتكلم والمخاطب هما الأنسب والأقرب، وذلك أنهما يوحيان حقا بالمصدر الأول للكلام أو الخطاب، والمصدر الأول هو الإنسان، ومن هنا فهما -أي المتكلم والمخاطب- مرتبطان ارتباطا كبيرا بالجانب الإنساني.

أما باقي الاصطلاحات: المرسل والملقي والباث، فإنها عامة، إذ قد تعني الإنسان، كما قد تعني الأدوات المستعملة في عملية الإرسال والإلقاء والبث، ومن ثم فإننا نجدها في ميادين عدة مثل: علم الاتصال والإعلام وغيرها.

وتمر عملية الاتصال عند المتكلم بمراحل متعددة ومعقدة نذكر منها ما يلي(1):

1) إننا نستقبل المعلومات من العالم الخارجي عن طريق الحواس، ومن العالم الداخلي بواسطة العقل والقلب.

(1)- نظرية التواصل، جونيف شوفو، ترجمة: إبراهيم أولحيان، مجلة فكر ونقد، فبراير 2001، العدد 36، ص: 122

2) تخزين المعلومات: تأتي هذه المرحلة بعد أن تنتقل المعلومات من الجهاز العصبي المركزي إلى اللحاء (المخ) ليتم تخزينها في الذاكرة، وكما هو معلوم فالذاكرة أنواع: ذاكرة الخبرة، وذاكرة المفاهيم، وذاكرة اللغة، ثم هناك أيضا الذاكرة طويلة المدى والذاكرة قصيرة المدى، إذ كل نوع من الثلاث قد يتميز بإحديهما.
3) تفسير المعلومات قد يأتي في هذه المرحلة بعد عملية استقبال المعلومات مباشرة أو بعدها.
4) الاستدعاء والتذكر ولها علاقة بالذاكرة.
5) عملية التحويل: وهي المرحلة الظاهرة حيث يختار المتكلم شفرة معينة (اللغة أو الإشارة أو اللون...) وتسمى بالتأويل.

ولكن الرسالة التي يريد المتكلم بثها أو إرسالها أو إلقاءها لا تأتي هكذا، وإنما يصاحبها عوامل أخرى لابد أن تتوفر للمتكلم وهي[1]:

3) مهاراته الشخصية.
4) اتجاهاته النفسية.
5) المستوى المعرفي.
6) المستوى الاجتماعي.
7) المستوى الثقافي.

- الطرف الثاني ويسمى: السامع، المخاطب، المرسل إليه، المبثوث إليه، والمتلقي، وما قيل عن اصطلاحات المتكلم يصدق على اصطلاحات السامع، حيث إن اصطلاح السامع والمخاطب يشير مباشرة إلى الإنسان الذي يستقبل الرسالة يعيها ثم يستجيب لها، بينما يشمل اصطلاح المرسل إليه والمتلقي والمبثوث له الإنسان المتكلم، كما يشمل الآلات التي تقوم بمهمة العملية التواصلية وكذا الاتصالية كالأذن والهاتف والمسجل، ومكبر الصوت، والدماغ الإنساني...

[1]- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 25

ومن أدق مهام السامع التعرف على شخصية المتكلم من خلال لغته التي تمكنه من معرفة حالته النفسية وثقافته واتجاهاته...

ب. الرسالة:

ويحددها جونييف شوفو بقوله هي: "متتالية من العلامات المنقولة بين مرسل ومرسل إليه"(1)، أو هي مجموعة الأفكار التي يريد المتكلم إبلاغها للسامع، وقد تكون هذه الرسالة لغوية أو غير لغوية، مفصلة أو مقتضبة، وتتضمن أربعة عناصر: المحتوى (الأفكار)، الشفرة (اللغة)، القناة ثم التنظيم(2).

ج. المقام:

كما تعددت اصطلاحات المتلقي والمتكلم تعدد الاصطلاح على المقام من الموضع إلى الحال إلى السياق، إلى تحقيق المناط... وهو من أهم عناصر العملية التواصلية، لأنه يمثل كل ما يحيط بهذه العملية، وعن طريقه يتميز التواصل عن الاتصال، والتخاطب عن الخطاب.

فالمقام هو الكفيل بإحداث التفاعل بين عناصر العملية التواصلية الأخرى، ذلك أنه يجعل كل عنصر يقوم بوظيفته على أحسن وجه يجمعهما والتنسيق بينها.

ويشتمل المقام على: حال المتكلم وشخصيته وسماته وحال المستمع وشخصيته وسماته، والرسالة وطبيعتها من حيث الموضوع ومن حيث اللغة، وإلى جانب هذا، يضم الزمان والمكان الذين يتم عبرهما التواصل، هذا عن المقام العام، وقد يستعمل المقام بمفهومه الخاص، كمقام الشكر ومقام التأنيب أو مقام الإطالة ومقام الإيجاز وغيرها من المقامات، لذلك فالمقام يمثل الأهمية الكبرى بالنسبة للتواصل.

(1)- نظرية التواصل، جونييف شوفو، ص: 123

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 26

المبحث الثاني: تفسير عملية التبليغ

وسنركز في هذا المبحث على الطرف الأساس في عملية التواصل ألا وهو المتكلم، وقولنا إنه الأساس لأنه هو المبتدئ لعملية التواصل، ولأن حضوره يستدعي حضور العناصر الأخرى (الرسالة، المستمع، المقام).

أ. نموذج التبليغ عند طه عبد الرحمن:

يقول طه عبد الرحمن عن نموذج التبليغ: "أصل الأصول في هذا النموذج هو أسبقية العلاقة التخاطبية بين المتكلم والمخاطب، فما تكلم أحد إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه، كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره وكأن الغير ينطق بلسانه"(1).

ويواصل طه عبد الرحمن قائلا: "فيكون، بذلك إنشاء الكلام من لدن المتكلم، وفهمه من لدن المخاطب عمليتين لا انفصال لإحداهما عن الأخرى، وانفراد المتكلم بالسبق الزمني ما كان ليلزم عنه انفراد بتكوين مضمون الكلام، بل ما إن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه المخاطب دلالته، لأن هذه الدلالات الخطابية لا تنزل على ألفاظها نزول المعنى على المفردات في المعجم، وإنما تنشأ وتتكاثر وتتقلب وتتعرف من خلال العلاقة التخاطبية، متجهة شيئا فشيئا إلى تحصيل الاتفاق عليها بين المتكلم ونظيره المخاطب بعد أن تكون قد تدرجت في مجاوزة اختلاف مقتضيات مقاميها واختلاف طرق عقدهما للدلالات"(2).

يستنتج مما أورده طه عبد الرحمن أن المتكلم يصبح مستمعا بعد إلقائه لكلامه وانتظار رد فعل السامع الذي يتحول بدوره إلى متكلم، ولذلك كانت العرب ترى أن المتكلم الجيد هو المستمع الجيد، ويؤيد العلم الحديث هذا التصور خاصة ما تعلق بالجانب التشريحي في تفسير عملية الكلام.

(1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص: 50

(2)- نفسه، ص: 150

ب. نموذج التبليغ عند دي سوسير:

وتتجلى أولى هذه التصورات في أعمال فردينان دي سوسير حيث عالجها في أصولها البيولوجية والفيزيائية، كما جعل "نقطة انطلاق الدارة في دماغ أحد المتحاورين، حيث تترابط وقائع الضمير المسماة تصورات (Concepts) مع تمثيلات العلامات الألسنية أو الصور السمعية المستخدمة في التعبير عنها"(1)، وهنا وصف لكيفية التداخل الواقعي بين المجال النفسي للطرف الباث (L'émetteur) مع جانبه الفيزيولوجي في المراكز الدماغية المسؤولة عن إرصاد وتوجيه عملية التخاطب اللفظي، حيث "إن تصور ما يشير في الدماغ صورة سمعية مماثلة، وهذه ظاهرة نفسية كليا تتبعها بدورها آلية فيزيولوجية، فالدماغ ينقل إلى أعضاء النطق ذبذبة ملازمة للصورة، ثم تنتشر الموجات الصوتية من فم المتحدث (أ) إلى أذن المتحدث (ب)، وهذه آلية فيزيائية بشكل صرف ثم تستمر الدارة حتى المستمع (ب) في اتجاه معاكس"(2).

وعلى هذا الأساس، يتحول المستمع إلى باث بعد استقبال الخطاب الموجه إليه من مركز الإرسال لتأخذ الصورة السمعية مسارها في الحيز النفسي والفيزيولوجي المستقبل والموجه لذلك، فيرتسم مخطط الدارة الكلامية من جديد بطريقة عكسية مقارنة بمساره الأول، فيأخذ الفعل الجديد مسارا له –الطريقة الأولى نفسها– أي من دماغ (ب) إلى دماغ (أ) ويستمر في المرحلة المتتالية نفسها(3).

وإليك الخطاطة التي رسمها "دي سوسير" للدارة الكلامية وهي خطاطة نظرية في تحليله لظاهرة التخاطب:

---

(1)- محاضرات في اللسانيات العامة، فرديناند دي سوسير، ترجمة: يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ط، 1984، ص: 23

(2)- نفسه

(3)- نفسه

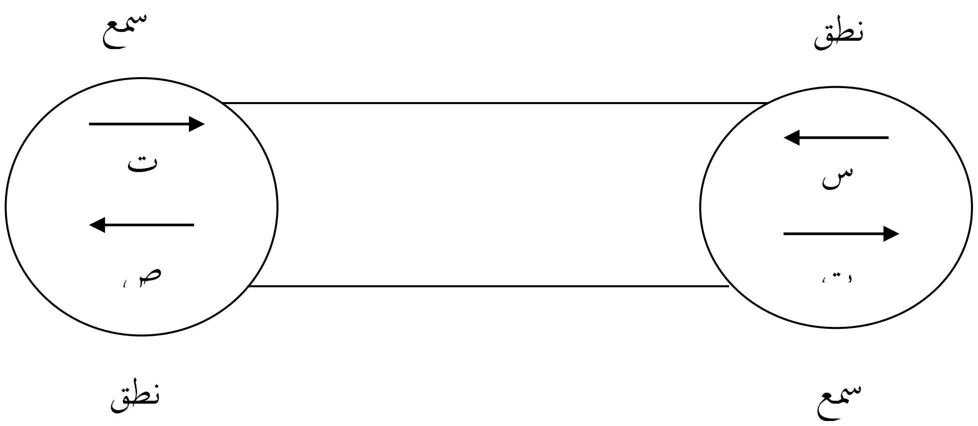

هذا الشكل مأخوذ من محاضرات "دي سوسير"

إن الملاحظة الأولى البادية على هذه الخطاطة هي ظاهرة الانغلاق، وإن كانت خاصية لغوية لها علاقة صرفة بالظاهرة اللغوية، فإنه في حدود الإمكان استثمار هذه الظاهرة في العملية التخاطبية حيث يعتبر الكلام دعما فرديا دائما، وللفرد طغيان دائم عليه(1).

وتكون اللغة هي الجزء الهام منه، بل يعتمد عليها كلية، إذ بفضل الجانب الاجتماعي الخالص في الخطاب يبقى استخدام القدرتين المستقبلة والمنسقة(2).

يستخلص من الكلام السابق أن محوري الاستقبال والإرسال تشكلهما القدرة على الاستقبال والتنسيق معا للرموز اللغوية، وهي قدرة يستحيل معها أن تتشكل ما لم يكن الطرفان المتخاطبان على لياقة متماثلة أو متقاربة في استخدام هذه الأنساق في التعبير عن فكرهما الشخصي بالإضافة إلى توفر الآلية النفسية القادرة على إدراك وفهم وتفكيك الوحدات الصوتية الوافدة إلى المراكز البيولوجية الناشرة والقارئة لها، والقدرة "الفيزيائية" التي يستخدمها لربط الطرف الثاني لجهازه التواصلي بحيث يعيد إرسال تصور جديد عبر صورة سمعية، فيتحقق التواصل في ظروف ملائمة(3).

وانطلاقا من الدارة الكلامية عند "دي سوسير" بنى "جاكبسون" دارته التواصلية فيما بعد، وأهم العناصر المستخلصة من تلك الدارة هما طرفا التخاطب أو التواصل أو التحاور،

(1)- محاضرات في اللسانيات العامة، ص 23

(2)- نفسه، ص: 25

(3)- نفسه

أي المرسل والمرسل إليه، أو بعبارة سوسير "المتكلم والمستمع" وكذلك القدرة المستقبلة والمرسلة أو السنن "Code"، والعنصر الرابع هو الرسالة أو "الصورة السمعية" الموجهة من المتحدث (أ) إلى المستمع (ب) [1].

ج. نموذج التبليغ عند كارل بوهلر:

لاحظنا في خطاطة "دي سوسير" أربع قمم في دارته الكلامية، بينما نلاحظ في نموذج "بوهلر" تراجعا في هذه القمم إلى ما سماه تشومسكي "مصطلح القدرة (Compétence)"[2]، وفسره دي سوسير بالقدرتين المستقبلة والمرسلة أو اللغة (Langue)، فيما احتفظ بالقيم الثلاثة وتناسب هذه القمم "لهذا النموذج المثلث ضمير المتكلم أي المرسل، وضمير المخاطب أي المرسل إليه، وضمير الغائب بأصح تعبير، أي شخص ما أو شيء ما نتحدث عنهما"[3].

وينشأ عن هذه المعادلة الثلاثية لنموذج بوهلر التقليدي "ثلاث وظائف: انفعالية وإفهامية ومرجعية"[4]، فتقابل الوظيفة الانفعالية ضمير المتكلم "المرسل"، وتقابل الوظيفة الإفهامية ضمير المخاطب "المرسل إليه"، أما الوظيفة المرجعية فإنها تقابل ضمير الغائب أو ذلك الشيء، أو الشخص الذي يتحدث عنه المتخاطبان (المتكلم والمخاطب).

---

(1)- التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بومزبر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص: 18-19

(2)- اللسانيات واللغة العربية، عبد القادر الفاسي الفهري، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص: 422

(3)- قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، تر: محمد الوالي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص: 30

(4)- نفسه، ص: 30

ولنوضح دارة "بوهلر" في الشكل التالي[1]:

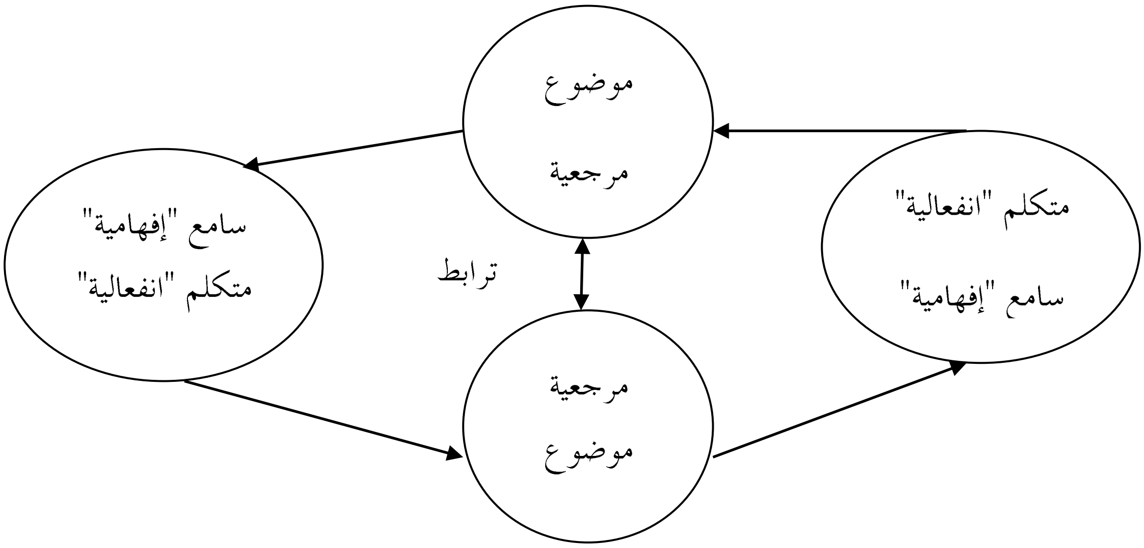

واعتمادا على هذا النموذج استطاع رومان جاكبسون أن يستنبط وبكل سهولة باقي الوظائف اللسانية الصرفة، ليستكمل نموذجه السداسي الذي غدا ست وظائف لغوية انطلاقا من عواملها التي تشكل في مجملها التواصل اللفظي، وفي حديثه عن أساليب الخطاب العلمي والخطاب اللساني ذهب عبد القادر الفاسي الفهري إلى القول بهذا النموذج الثلاثي "لبوهلر" وذلك أن أي خطاب من هذا المستوى "يتحدد تبعا للمخاطِب والمخاطَب ووضع الخطاب... وتمثل مجموعة الذوات التي تقوم بواسطتها التفسيرات والتي لا يمكن استخلاصها في البنية الاستنتاجية أَنْطُولُوجيَا الخِطاب"[2].

هذا إذن، عما يتعلق بتفسير العملية التواصلية كيف تتم بين المتخاطبين ورغم أنها عملية معقدة للغاية إلا أن حدوثها باستمرار وبعفوية في حياة الإنسان جعله يراها من البساطة والسهولة بمكان.

[1]- قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، ص: 30

[2]- عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1993، ص: 43

المبحث الثالث: مفهوم الكلام

أ. المعتزلة والأشاعرة:

يرى المعتزلة أن الكلام هو تلك الأصوات والحروف المقطعة الدالة على معنى، معتبرين في ذلك حضور السامع، فلولا سماع هذه الأصوات لما أمكننا أن نسمي العملية كلاما[1].

أما الأشاعرة فقد ذهبوا مذهبا آخر، إذ يرون أن الكلام هو تلك المعاني التي تحدثها النفس، و لم يشترطوا فيه الأثر الخارجي (السماع) [2].

يتضح لنا من خلال الرأيين، أن رأي المعتزلة هو الأقرب إلى مفهوم الكلام في إطار نظرية التواصل لاشتراطهم وجود السامع ولو كان هو نفسه المتكلم.

يقول الكفوي: "والتحقيق في هذا الباب أن الكلام عبارة عن فعل مخصوص بفعل الحي القادر؛ لأنه يعرف غيره ما في ضميره من الاعتقادات والإرادات، وأما الكلام الذي هو صفة قائمة بالنفس، فهي صفة حقيقية كالعلم والقدرة، والإرادة، والكلام في الأصل على الصحيح هو اللفظ وهو شامل لحرف من حروف المباني أو المعاني أو لأكثر منهما"[3].

ويضيف قائلا: "الكلام في العرف هو صوت مقتطع مفهوم يخرج من الفم، لا تدخل فيه القراءة والتسبيح في الصلاة أو خارجها، لأنه يسمى قارئا ولا يسمى متكلما"[4].

والكلام عند أهل الكلام: ما يضاد السكوت سواء كان مركبا أو لا، مفيدا فائدة تامة أو لا، وقال بعضهم: حروف مقطعة تدل على معنى، وهذا الحد لا يستقيم في كلام الله تعالى[5].

---

(1)- روح المعاني، الآلوسي، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1983، م6، ج16، ص: 125

(2)- ينظر: مشكلة خلق القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد الشفيع الماحي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع 16، 1998، ص: 95

(3)- الكليات، الكفوي أبو البقاء (ت1044هـ)، أعده للطبع: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998، ص: 756

(4)- نفسه، ص: 757

(5)- نفسه، ص: 758

كما أن العلماء ومنهم سيبويه -يشترطون توفر القصد- حتى يسمى اللفظ كلاما، ومن ثم لا يسمى كلام النائم أو السادر أو الحيوان كلاما؛ لأنه يفتقر إلى قصد التواصل مع الغير[1].

هذا إذن، عن بعض مفسري كلام الله، وبعض العلماء، فماذا عن اللسانيين الغرب.

ب. الكلام عند دي سيوسير:

بعد التفريق بين اللغة والكلام (Parole) من الثنائيات المشهورة عند دي سوسير التي قدمها إلى الدراسات اللغوية، فضلا عن ثنائيات أخرى، كتفريقه بين الدراسات التعاقبية والتزامنية نجده يقصد بالكلام ذلك النشاط الذي ينشأ عن الاستخدام الفعلي للغة، أي ناتج النشاط الذي يقوم به مستخدم اللغة عندما ينطق بأصوات لغوية مفيدة، وبينما تتسم اللغة بالطابع الاجتماعي بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في أذهان أفراد المجتمع، يحدثُ الكلام نتيجة نشاط فردي[2].

وللقولة المستعملة جانبان:

1) جانب ينتمي إلى اللغة: وهو الذي يضمن أن المخاطَبين يفهمون ما يقوله المتكلم بوصفه منتميا إلى مجتمعهم ويتحدث لغتهم، ويتمثل هذا الجانب في تقيد المتكلم بقواعد اللغة، والمناويل اللغوية (Linguistics patterns) المتعارف عليها في لغته، والمفردات المعجمية المصطلح عليها[3].
2) جانب ينتمي إلى الكلام: وهو تركيبة لقولة معينة على نحو يحكمه عادة قصده الإبلاغي، واختياره من مفردات معجمية ومناويل قواعدية بعينها استثمار السياق لبيان مقصده[4].

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 268

(2)- مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2004، ص: 53

(3)- نفسه، ص: 54

(4)- نفسه

وثمة صلة للتمييز بين اللغة والكلام من جهة، والتفريق بين المعنى والقصد من جهة أخرى، وهي صلة لم يشر إليها دي سوسير صراحة ولكنها تجسدت في الدراسات التداولية الحديثة التي استفادت من هذا التمييز، ومن هذا المنطلق، يمكننا القول إننا عندما نتحدث، فإننا في الواقع ننقل اللغة إلى الكلام، والجملة إلى قولة، والمعنى إلى قصد، ودلالات الألفاظ إلى إشارات، وجدير بالذكر أن القولة عندما تعزل عن سياقها يتعذر علينا أن نفقه المقصود وإن أمكننا فهم معانيها.

ولقد أصبح واضحا أنه لا يمكننا إدراك المقصود بالإشارات ولا المراد من المقولة إلا بإقحام العناصر الخارجة عن اللغة وهي المخاطِب والمخاطَب والسياق، أي ربط الجملة بزمان ومكان ومخاطبين ومقام تخاطبي، وتحديد ما تشير إليه التعبيرات اللغوية الإشارية، وهكذا تخرج بعض العبارات من حيز اللغة إلى مجال الكلام الفعلي[1]، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾[2]، إشارة إلى أحد الأصنام، ودلالة على أنهم لو كانوا يسمعون أو يعون لدافعوا عن أنفسهم ثم لكانوا أخبروا المشركين عمن قام بتحطيمهم، إذن فلا إله إلى الله وجب توحيده وعبادته.

الشكل[3]:

ما ينتمي إلى اللغة	ما ينتمي إلى الكلام
الجملة	القولة
المعنى	القصد
الإحالات أو دلالات الكلمات	الإشارات

(1)- مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس علي، ص: 55

(2)- سورة الأنبياء، الآية: 63

(3)- ينظر: مدخل إلى اللسانيات، ص: 56

ج. مفهوم الكلام عند نوام تشومسكي:

إذا كان ثمة صلة بين تفريق دي سوسير للغة والكلام منذ سنة 1916 فإن هناك تفريق آخر قدمه "تشومسكي" بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا بين الكفاية (Compétence) والأداء (Performance)، وتوجد فروق جوهرية بين هذين المصطلحين، إذ الكلام في ثنائية دي سوسير يشير إلى ناتج الاستعمال الفعلي للغة، وليس لعملية الاستعمال نفسها، أي إنه بتعبير النحاة من باب إطلاق اسم المصدر وإرادة اسم المفعول، الأمر الذي يجعل من مفهوم الكلام مفهوما جامدا غير ديناميكي، وإن كان هذا ينسجم مع مفهومه للغة بأنها نظام من العلامات (System of signes) أو الدوال بدلا من عدها نظاما من الدلالة كما يراها علماء أصول الفقه مثلا[1].

أما تشومسكي فيرى أن الكفاية (الكفاءة) هي التمكن من اللغة (بوصفها نظاما لا سلوكا) المخزونة في أذهان متكلميها السليقيين (أو من كان مثلهم إتقانا لتلك اللغة)، وهي نتاج التفاعل بين: 1- القواعد العمومية (Universal grammar) الموجودة في ذهن كل إنسان (تلك المسماة باللغة الملكة) التي يختص بها البشر، وتورث جينيا من إنسان إلى آخر، وعدد كاف من المقولات النموذجية التي يمكن تحليلها بمساعدة معرفة الطفل الفطرية لمبادئ القواعد العمومية ومعاييرها Parameters[2].

يلاحظ من خلال القولين، أن الأداء عند تشومسكي ينطبق على استخدام اللغة النظام (Langage System)، في حين ينطبق الكلام عند دي سوسير على نتاج استخدام النظام، لذا فإن جون لاينز يرى أن المطلوب ليس تفريقا ثنائيا بسيطا بين النظام ونتاجه، بل تفريق ثلاثي لا يتميز فيه النتاج Product من النظام System فقط، وإنما من العملية Process (وهي الأداء، أو السلوك أو الاستخدام)[3]، ومن هذا التفريق الثلاثي كان انطلاق عمل التداوليين وكذا أصحاب الدلالة.

---

(1)- مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس علي، ص: 56

(2)-Linguistic semantics, Lyons John, An introduction Cambridge, university press, 1995, p: 21

(3)- Linguistic semantics, p: 21

وبما أن التوليديين ينظرون إلى اللغة نظرة أكثر ديناميكية، ويرون أن عملية توليد الجملة المحكومة بالكفاية تتم على مستوى اللغة وليس على مستوى الكلام، فإن ما يسمى بالعملية وما ينشأ عنها من نتاج عند تشومسكي إنما هما مفهومان أكثر تجريدا من مقابليهما: العملية والنتاج عند دي سوسير وأتباعه، وذلك أن العملية عند تشومسكي تتم على نحو تجريدي بحيث تبدو مستقلة عن الاستخدام والسياقات الفعلية للكلام[1].

أما التداوليون فإنهم يولون أكبر عناية للاستخدام، بل إن كلمة Pragmatic نفسها تعني عملية "الاستعمال"، ولذا ألفينا الكثير منهم يرى أن عملية التخاطب لا تخلو من إخبار أو استفهام أو تسمية أو نحو ذلك مما يدعونه بأفعال الكلام Speech Acts.

وبذلك يتطور المفهوم الجامد للكلام، كما شرحه دي سوسير إلى عمل ديناميكي يأخذ طابع الاستعمال، وهو أمر يتيح إقحام مصطلحات ديناميكية أخرى تحل محل نظائرها الجامدة في تراث دي سوسير، ربما كان من أهمها استخدام مصطلح القصد Intention بدلا من الجملة، وأضحى اللسانيون يبحثون في مبادئ (أو أصول) التخاطب Principles of communication لبلوغ كنه المتكلم بدلا من الاقتصار على البنى المجردة[2].

المبحث الرابع: مفهوم المتكلم

هو الذات التي تستعمل اللغة المنطوقة في موقف تواصلي قصد إبلاغ طرف آخر رسالة ما، وعلى هذا الأساس سيكون الحديث عن اللغة الشفهية، وذلك أن الكتابة لغة صامتة، يسمى صاحبها الكاتب، وناقل الكلام يدعى مرسلا، ومستعمل الإشارة يسمى مشيرا، كما أنه يجب إبعاد كل ما يستعمله الإنسان في غير المواقف التواصلية كالمناجاة وخطاب الذات،.. ولا يندرج تحت هذا المفهوم أيضا ما يصدره غير القاصد للتواصل، كالنائم والسادر وغير ذلك.

---

[1]- Linguistic semantics, p: 21

[2]- مدخل إلى اللسانيات، ص: 57

وعلى هذا الأساس، فإن المتكلم هو الطرف الذي يمارس سلطته على اللغة، فيشكلها كما يشاء، وقد شاع أن اللغة ملك للجماعة وليس للفرد منها إلا التمثل والإتّباع، وهذا الأمر يضطرنا إلى التمعن في دور المتكلم اتجاه اللغة على المستويين: مستوى المفردات ومستوى التراكيب[1].

أ. **مستوى المفردات:**

معظم النظريات التي ناقشت طبيعة اللغة، أرجعت إلى الإنسان فضل وضعها والاصطلاح عليها، -وبديهي- أنه لا يكون الوضع إلا من إنسان متكلم، بينما النظرية التوفيقية تجعل الإنسان مستمعا والإله متكلما ومن ثم فلا دور للإنسان في اللغة غير الأخذ والاستعمال.

سوف لن نأخذ بالنظرية التوفيقية لطبيعة اللغة، لأن الأخذ بها يجعل لكل لفظ حقا من المعنى لا يتجاوزه، كقول اللافظ للعين الدالة على العضو، فلا يمكن أن تدل على ينبوع الماء... ومن هنا، فلا سلطة للمتكلم على اللغة، ثم إن اللفظة خارج الاستعمال لا حقيقةولا مجازا.

ب. **مستوى التراكيب:**

وهو المستوى الذي تضم فيه الألفاظ المفردة في نسق معين تحكمه طبيعة اللغة، وقصد المتكلم وقدراته التواصلية، وفيه يظهر دور المتكلم في صياغة اللغة، وتشكيلها بالصورة التي يبتغيها ويفضلها أكثر مما ظهر في المستوى الأول، إذ يتجاوز مستعمل اللغة الكلمة إلى أفق أفسح وأوسع يمكنه من صبغ اللغة بالصبغة الذاتية البحتة، ليتمكن من تبليغ مقصده، وهذا هو المستوى التخاطبي/التواصلي للغة[2].

ومن منظور "فان دايك" ينبغي أن يكون للمتكلم أغراض على نحو ما، إذا كان مراده أن تحصل عباراته على نتائج محددة، وتتصل هذه النتائج في المقام الأول بنوع من التغيرات

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 270

(2)- نفسه، ص: 271

الحاصلة في المخاطب ذاته، وعلى نحو أخص بنوع التغييرات الحاصلة في مجموع المعرفة التي للمخاطب[1].

وغير بعيد عن منظور "فان دايك"، ما ورد عن العرب القدامى، إذ كانوا هم كذلك على وعي تام بالدور الذي يمارسه المتكلم ولذلك أطلقوا على هذا الدور اسم: النظم، الأسلوب، المنوال والبناء، معتبرين قصد المتكلم عنصرا مهما في صياغة الكلام، إذ به يتم تعلق الكلمات بعضها ببعض، يؤكد هذه الفكرة ما جاء على لسان عبد القاهر الجرجاني: "معلوم علم الضرورة أن لن يتصور أن يكون لِلَّفِظَةِ تَعَلُّقٌ بلفظة أخرى من غير أن يعتبر حال معنى هذه مع تلك...ولو كانت الألفاظ يتعلق بعضها ببعض من حيث هي ألفاظ، ومع إطراح النظر في معانيها لأدى ذلك إلى أن يكون الناس حين ضحكوا مما يصنعه المجان من قراءة أنصاف الكتب، ضحكوا عن جهالة...لأنهم لم يضحكوا إلا من عدم التعلُّق"[2].

وفي موضع آخر يقول الجرجاني: "ليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى"[3]، جدير بالذكر هنا، أن نشير إلى أنه على المتكلم أن يحترم المعاني الوضعية للمفردات، وألا يتصرف فيها إلا في حدود ما يسمح به الاستعمال[4].

ونجد تأييدا للقدامى من قبل المحدثين في ذكرهم لأهمية القصد في تشكيل اللغة، ومن هؤلاء حسن طبل الذي يقول: "يمثل الغرض الذي يقصده المتكلم ويفيده المتلقي من الدلالة التركيبية للكلام، مستوى من مستويات المعنى في تراثنا البلاغي، بل لقد كان اصطلاح المعنى على هذا المستوى هو أكثر استخداماته شيوعا في ذلك التراث...إن المعنى بهذا المفهوم ينتمي في نظر البلاغيين إلى الكلام لا إلى اللغة بالمفهوم المعاصر لهذين المصطلحين"[5].

---

(1)- النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2000، ص: 265

(2)-دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص: 60

(3)- نفسه، ص: 62

(4)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 271

(5)- المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1998، ص: 59

وهذا القصد هو الذي يميز المتكلم عن المرسل، إذ المتكلم هو ذات تتوفر على مقصد أو مقاصد، تبلغها بطريقة الإظهار والإضمار، بينما المرسل يفتقر إلى القصد، كما أنه لا يستعمل إلا طريقة الإظهار، يقول طه عبد الرحمن: "ولما كان المتكلم لا يمارس النقل إلا على مقتضى الجمع بين ضربيه: الصريح والضمني، فقد استحق نقله أن يدعى باسم خاص، تمييزا له عن النقل الآلي، وهذا الاسم الخاص هو "التبليغ"، فإذن التبليغ هو عبارة عن نقل فائدة القول الطبيعي نقلا يزدوج فيه الإظهار والإضمار، فيتبين أن المتكلم ليس ذاتا ناقلة، حتى تجوز مماثلته بـــ"جهاز الإرسال" أو قول "المرسل"، وإنما هو ذات مبلغة، أي ذات لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تبطن فيه، معتمدة ما أوردت في متنه من قرائن وما ورد منها خارجه"[1].

لكن وعلى الرغم من اختلاف المصطلحات المستخدمة للتعبير عن المتكلم "الباث L'émetteur"[2] و"المخاطب"[3] و"الناقل"[4] و"المتحدث"[5]، إلا أنها تمثل كلها طرفا أولا في "جهاز التخاطب"[6]، ويستحيل أي تصور لوضع تخاطبي لفظي أن يستغني جزئيا أو كليا عن المتكلم/المرسل.

وهكذا فإن المتكلم مسؤول عن الكلام الذي يود إلقاءه إلى مستمعين أو إلى سامع، وذلك أن الكلام مسؤولية كبيرة، إذ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[7]، ومن هنا يتوجب على المتكلم/المرسل أن يتقيد ببعض القواعد التواصلية التي توفر له جو التبليغ:

1) أن يكون له "القدرتان المستقبلة والمنسقة" للقيام بعملية الترميز (Codage)، وتفكيك الرمز (Décodage) بالرجوع إلى النظام اللغوي الذي يشترك فيه مع

---

(1)- اللسان والميزان، ص: 216

(2)- الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي، ص: 137

(3)- عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني، ص: 43

(4)- في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص: 35

(5)- محاضرات في اللسانيات العامة، ص: 23

(6)- اللسان الميزان، ص: 214-215

(7)- سورة ق، الآية: 18

مستقبل الرسالة أي "نظام ترميز" (Un code) مشترك كليا أو جزئيا بين المتكلم والمخاطب (أو بين الرامز وفك الرمز) [1].

2) أن يكون على لياقة كافية -ولو في مستواها الأدنى- تسمح له بتوجيه الخطاب في شكله المنطوق "الأداء المباشر" أو في شكله المكتوب "غير المباشر" وذلك أن الكلام يتطلب قدرة فيزيولوجية لبثه، وقدرة على كتابته أو بعبارة لسانية أدق، أن يتمتع على الأقل بالقدرتين "العلامة الصوتية" أو "الأشكال الخطية" بتعبير الفكر السويسري، إذ تتجسد فيهما الوقائع اللغوية للخطاب المنقول أو المتداول[2].

3) أن يقول ما يعلم كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾[3].

4) أن يكون كلامه موافقا لما يعتقده الطرف المخاطب.

وسبق الذكر بأن قلنا إن التواصل يجعل طرفا من طرفيه متكلما ثم سامعا، فالذي يبتدئ الكلام يكون متكلما، ولكنه لا يكون متكلما دائما، والذي يستمع لا يدوم على حالة الاستماع، وذلك أن كل واحد منهما يتحول من متكلم إلى سامع، ومن سامع إلى متكلم، ولو أمعنا النظر جيدا لأدركنا أنه يوجد داخل كل متكلم -كما يقول طه عبد الرحمن- ذاتان متكلمة مدعية ومندفعة نحو التأثير على الغير، وذات باطنة معترضة تقف في صف المستمع، تفحص كل كلمة وكل معنى تريد الذات الأولى إطلاقه، وبذلك يحدث ازدواج اعتباري لذات المتكلم ولذات المستمع في اختلاف أركان التخاطب: "ازدواج في القصد" و"ازدواج في التكلم" و"ازدواج في الاستماع[4]".

ومن هنا، فإنه إذا ما حاول دارس أن يدرس أنواع المتكلمين فإنه لا محالة سيتعرض لدراسة المستمعين أيضا، وكما أن الناس طبقات فإن التخاطب سيخضع إلى مستوى كل طبقة، اعتمادا على نوع المتكلم ونوع المستمع الذي سيبث إليه الخطاب، ولذلك فإن معرفة

---

(1)- مفهوم الخطاب الشعري عند رومان جاكبسون، أحمد منور، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع2، 1984، ص: 86

(2)- نفسه، ص: 86

(3)- سورة الإسراء، الآية: 36

(4)- اللسان والميزان، ص: 265

السامع لقصد المتكلم تعينه بصورة كبيرة على فهم وإدراك الخطاب ومن ثم تعميق عملية التواصل.

المبحث الخامس: مفهوم السامع

لقد تعرضنا في المبحث السابق إلى عنصر المتكلم، وبينا أنه الطرف الأساس الذي يبني عملية التواصل ويقودها، ولكن ذلك لا يكون على حساب طرف آخر، هو بالمترلة نفسها أو قريب منها في عملية التواصل، إنه السامع الذي قد يكون مخاطبا، أو مستمعا، أو متلقيا، أو قارئا.

1) فالمخاطَب: هو السامع المقصود من الخطاب والذي من أجله أنشئ.
2) والمستمع: هو الذي يبلغه الخطاب في المقام التواصلي مع المتكلم، ليس من الضروري أن يكون مقصودا به.
3) والمتلقي: هو الذي يبلغه الخطاب في غير المقام التواصلي، وليس من الضروريأن يكون مقصودا به، فهناك من يرى أن أنواع المتلقين هي[1]:

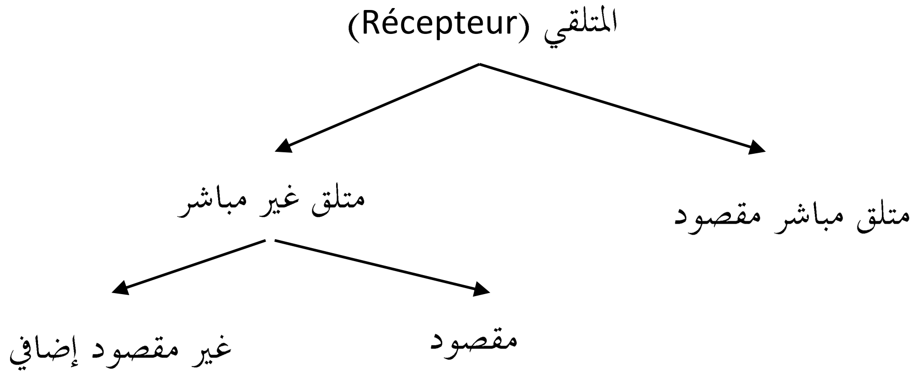

4) والقارئ: هو المتلقي للخطاب المكتوب، سواء كان مقصودا به أو لا، ويمكن أن نميز بين أنواع من المتلقين: متلق حقيقي (Réel)، ومتلق افتراضي (Virtuel)، ومتلق خيالي (Fictif)[2]، وقد فاضل "رولاند بارث" (Roland Barth) بين نوعين من

(1)- Dictionnaire d'analyse de discours, C. Patrick et M. Dominique, édition du Seuil, Paris, p: 483

(2)- ينظر: نفسه

القراء: الحقيقي والضمني، كما اخترع "جرالد برانس" (Gerald Prince) مصطلح "Narratee" ليفرق بين القارئ والمخاطب داخل النص، وبين القارئ الحقيقي الذي يقصد النص ليطالعه، وبين القارئ المفترض الذي يتصور الكاتب وقوع النص بين يديه، والقارئ المثالي الذي يتمنى أن يظفر به[1].

وقد لقي موضوع دور المخاطب في عملية التواصل نقاشا كبيرا، وجدالا واسعا منذ القديم وإلى يومنا هذا، ويبدو أن الذي كان مستقرا في الفكر القديم هو أن (السامع) عنصر سلبي، تقتصر وظيفته على استقبال الرسالة لفهمها والتفاعل معها، خاصة فيما يتعلق بالنصوص الدينية[2].

وإذا أردنا تحسس الأمر على مستوى البلاغة العربية القديمة، فإننا نلقاها قد اهتمت كثيرا بالمتكلم، لأن ما كان يهمها هو عملية إنتاج الخطاب، وبالخصوص في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ولكنها رغم ذلك فإنها لم تغفل (السامع)، بل كانت تنظر إليه بعين مهتمة بدليل[3]:

1) أنها ما فتئت تذكر المتكلم بمراعاة السامع في خطابه، سواء في طبيعة لغة الرسالة، أو في التقنيات اللغوية المستعملة (الحذف، التكرار، الإطناب...) أو على مستوى المقام العام (الوقت المناسب، مراعاة المكانة العلمية والاجتماعية والسياسية...).
2) أنها في كثير من الأبواب تعتمد على موقف هذا السامع، مثل تقسيمها الخبر إلى: ابتدائي وطلبي وإنكاري، تقسيمها القصر إلى: قصر تعيين وقصر إفراد، وقصر قلب وما إلى ذلك.
3) ويكفي أن يكون هذا المخاطب هو الحاكم على الرسالة، شعرا أو نثرا من حيث مستواها الفني، إذ لا يمكن أن يظهر مستوى نص معين، أو تظهر مؤهلاته الأسلوبية إلى من خلال متلقيه.

(1)- ينظر: نظريات قراءة النص، لمياء باعشين، مجلة علامات في النقد، جدة، م 20، ج 39، ذو الحجة 2110/1421، ص: 118

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 297

(3)- نفسه

وهذه الأمور تثبت لنا أن البلاغة العربية –رغم اعتنائها بالمتكلم- لم تفرط في جانب المخاطب، بل أعطته بعض ما يستحق بالنظر إلى دوره في عملية التواصل.

ويشهد العصر الحديث أن هناك اتجاهات غالت في التركيز على المتكلم (المؤلف)، ويمثلها المنهج التاريخي، والمنهج الاجتماعي المنهج النفسي،...، كما أن هناك أيضا اتجاهات ركزت على الرسالة (النص) نافية أي دور للمنتج أو للمتلقي، وتمثلها البنيوية باتجاهاتها المختلفة، كما حاولت أخرى أن تدافع عن المتلقي، وتبين دوره الإيجابي في عملية الإبداع الأدبي، وهذه الاتجاهات تمثلها: نظريات القراءة والتلقي والتفكيك، والتأويل (الهيرمينوطيقا)، والسيمولوجيا، ويهمنا من كل هذه الاتجاهات تلك التي ركزت جانب المتلقي وأرست مجموعة من المفاهيم أعادت بها إليه ما سلب منه قرونا[1]، ونذكر منها:

أ. إن هناك علاقة حوار بين المتلقي والخطاب (النص) تأثرا بحوارية العصر المعرفية[2].

ب. هناك متلق عادي، وآخر غير عادي، انطلاقا من مؤهلات كل نوع، كما أن هناك القارئ الساذج، والقارئ الناضج[3].

ج. وجوب التفرقة بين استجابة المتلقي العفوية للخطاب، وبين المعنى الذي ينسبه هذا المتلقي للرسالة[4].

د. إن عملية التفسير التأويل فيها من الذاتية ما يجعلها تبحث عن وجوه الاختلاف بين المتلقين أكثر من وجوه الاتفاق، لأن الهدف في القراءة الحديثة للنص هو إنتاج المعنى بدل اكتشافه[5]، فلا وجود لمعنى الخطاب/النص، بعيدا عن المتلقي/القارئ، إذ المعنى يولد أثناء تعامل المتلقي مع الخطاب لا قبل ذلك، وكما يقول "سلفرمان" (Silverman): "لقد أرغمت الذات عن التخلي عن عرشها، فهي ببساطة لا يمكن أن تسود، والمركز لا يمكن أن تشغله...ولم يعد بوسع الكوجيتو (Cojito) (الأنا

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 298

(2)- ينظر: نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، ط1، 2001، ص: 31

(3)- ينظر: سيمياء التأويل، رشيد الإدريسي، شركة المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000

(4)- ينظر: النظرية الأدبية المعاصرة، رومان سلدن، ترجمة: جابر عصفور، دار قباء، مصر، دط، 1998، ص: 185

(5)- ينظر: نصيات بين الهيرمنوطيقا والتفكيكية، ج. هيوسلفرمان، ترجمة: حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص: 35

أفكر) أن يدعي التفوق لنفسه"[1]، وذلك بفضل الصلاحيات التي أعطتها الهيرمنوطيقا والسيمولوجيا للمتلقي (سامعا أو قارئا) عن طريق ما يسمى استنطاق النص[2].

ولقد كثر الكلام بين الاتجاهات النقدية المختلفة حول سلطة النص وسلطة المؤلف، وسلطة القارئ، فالنقد الشكلاني "تم فيه اختزال سلطة النص إلى آلية الدلالة، وليس ماهية الدلالة"[3]، بينما نظرية القراءة والتفكيكية يجعلان النص مليئا بالثقوب والفجوات، ثقوب يكلف القارئ وحده برتقها، وفجوات يقوم القارئ وحده بملئها[4].

ه. الخطاب/النص، باعتباره رسالة يجد نفسه بين متلق ضمني (متخيل)[5]، وهو الذي يحضر مع المتكلم وقت إنتاج الخطاب، ومتلق فعلي وهو الذي يستقبل الخطاب، دون أن يكون قد مارس أي رقابة عليه.

و. إن أهم وسيلة إجرائية يستعين بها المتلقي في التعامل مع الخطاب هي "التأويل"[6]، الذي يمكنه كما يرى "آيزر" من ملء الفجوات الموجودة في النص "والتي تستند لا إلى مرجعيات خارجية وإنما مقاربة التفاعل بين بنية النص وبنية الفهم عند القارئ"[7].

وبإعتبار أنّ المتكلم هو ذلك الطرف الذي يبعث رسالة نحو طرف ثان قصد إثارته، فإن السامع هو ذلك الطرف الذي يستقبل الرسالة بإحدى الحاستين: السمع أو البصر، وعملية السمع كما هي عملية الكلام معقدة، وتتم على مراحل متعددة، بداية من خروج

---

(1)- نصيات بين الهيرمنوطيقا والتفكيكية، ج. هيوسلفرمان، ص: 60

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 298-299

(3)-الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 2003، ص: 73

(4)- نفسه، ص: 99

(5)- كان هذا المفهوم من إبداع فولفغانغ آيزر، أحد أقطاب جامعة كونستانس، ينظر في أنواع المتلقين، نظريات القـراءة والتأويـل الأدبي وقضاياه، حسن مصطفى سحلول، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2002، ص: 3-4

(6)- من العلوم التي اعتنت بالمخاطب/المتلقي علم الهيرمنيوطيقا (علم التأويل/أو تفسير النص) ومن أشهر أعلامه ويلهلم ديثلي، وشـيلر ماخر، ومارتن هيدجر، وجادامير (ينظر في جهودهم، وكذا الأسس الفلسفية التي انطلق منها كل واحد منهم: إشكالية القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1996 ص: 13 وما بعدها)

(7)- نظرية التلقي (أصول وتطبيقات)، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001، ص: 48

الصوت من فم المتكلم، وانتهاء برد الفعل، مرورا بالسماع، والإدراك والتأويل والتحليل والفهم[1].

وبغية فهم الرسالة "يستخدم المستمعون أشياء أخرى غير المعلومات السمعية، عندما يستقبلون رسالة شفوية، إذ يستخدمون معرفتهم بالمتكلم وحاله، بالإضافة إلى دلالات بصرية يحصلون عليها من مراقبة وجهه وسماته"[2]، إضافة إلى المهارات اللغوية والإدراكية، والمعلومات المخزنة في الذاكرة، وكل ذلك يجعل من عملية السمع عملية معقدة، ومتعددة الجوانب، وتتشابك العلاقات بين هذه العناصر، وتتضاعف كلما كان التواصل نوعيا، وعلى قدر من الأهمية من حيث موضوعه، ومن حيث لغته ومن حيث تعلقه بالسامع، ككتاب سيبويه، إذ التواصل فيه نوعي لأنه لا يفهمه كل الناس وإنما الباحثون وطلبة العلم.

أ. مفهوم السامع عند دي سوسير:

وذهب دي سوسير بعيدا في التدقيق الموضعي لهذا العامل التواصلي (المستمع) عندما أطلق عليه مصطلح "المتحدث (ب)"، ذلك أن "المتحدث (أ)" عندما يرسل خطابا معينا إلى المرسل إليه، أي المتحدث (ب) يكون هذا الأخير هو مستقبل الرسالة، فبينما لحظة الرد على الرسالة التي استقبلها (تعقيبا، إضافة، تساؤلا، رفضا...) يصير المتحدث (أ) هو المستمع والمتحاور (ب) هو المتحدث كما يبدو في الرسم التالي[3]:

(1)- ينظر في الجانب الفيزيائي والتشريحي لعملية السمع، أساسيات علم الكلام، بوردن وهارس ورافائيل، ترجمة: محي الدين حميدي، دار المدى للثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 45، 241، 243

(2)- نفسه، ص: 242

(3)- محاضرات في اللسانيات العامة، ص: 40

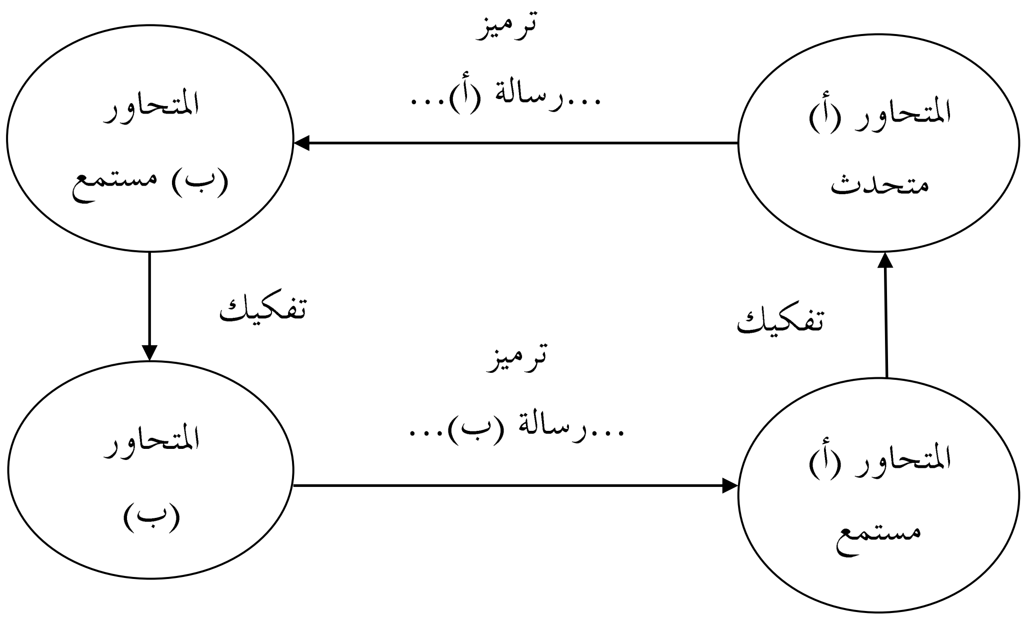

وتميز "كاترين كبيران أوركيوني" (C. K. Orechioni) بين صنفين من مستقبلي الرسالة الكلامية وهما: "المرسل إليه مباشرة (Destinateur Direct)" و"المرسل إليه غير المباشر (Destinateur Indirect)"، فالمفارقة هنا تتم من خلال عنصر هام في العملية التواصلية وهو المسافة أو البعد (Distance)، حيث يقودنا التحليل المنطقي إلى تحديد المسافة ببعديها الزماني والمكاني اللذين تتحدد في ضوئهما طبيعة الخطاب ومميزاته[1].

ونُمَثِّل لرأي (ك.ك. أوركيوني) بخطاب حواري بين صحفي ومستضاف لديه، فهذا اللقاء بينهما يتطلب تواصلا مباشرا وزمانا ومكانا، أو زمانا على الأقل، بينما يبقى العمل الإبداعي الفني خطابا متميزا بالكفاءة العالية في تحويل المتلقي له إلى مستقبل لخطابه مهما اختلف المرسل والمرسل إليه في "الفضاء الزمكاني"، لأنه في معظم الحالات خطاب غير مباشر لمتلق غير مباشر[2].

(1)- La conversation, Catherine Kebrat Orecchioni, Seuil, Paris, 1996, p: 30

(2)- التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بومزبر، ص: 26

ب. مفهوم السمع:

لقد سبق القول آنفا أن عملية السمع عملية معقدة متعددة الجوانب: الجانب الفيزيائي والجانب التشريحي والجانب الإدراكي.

ففي الجانب الأول، ينتقل الكلام من فم المتكلم إلى أذن السامع بواسطة الهواء على شكل ذبذبات ويستقر في الأذن، وهنا يبدأ الجانب التشريحي من لحظة وقوع الصوت من الأذن الخارجية إلى أن يصل إلى منطقة الإدراك في المخ، وعندها تبدأ المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الإدراك والفهم، وهي أعقدها جميعا، وذلك أن المرحلتين السابقتين خاضعتان للدراسة العلمية البحتة، الأمر الذي يسمح بتتبع الصوت، وملاحظة ما يطرأ عليه من تغير وما يتميز به أثناء عملية التواصل كلها من قوة وضعف ووضوح وغموض، ومشوشات وغيرها، بينما الجانب الإدراكي غير ذلك، إذ يتعلق بالنفس بمفهومها العام ويشمل الذاكرة اللغوية (بنوعيها/قصيرة المدى وطويلة المدى) الذاكرة العامة (التي تحتفظ بتاريخ الفرد السامع، علاقته، معارفه، أفكاره وعالمه الخارجي...)، وفي هذه المرحلة أي الثالثة يتميز المتلقون ويفترقون بعدما كانوا أكفاء في المرحلتين الأولى والثانية[1].

يستخلص مما سبق أن مرحلة الإدراك هي المرحلة الأساسية في التواصل، لأنها تمثل مرحلة الاستثمار الحقيقي للخطاب، ومن هنا فإنه لا يمكن أن تسمى عملية استقبال الصوت سمعا، لأن هذا الوصف متعلق بحال إدراك المتلقي لمعنى الخطاب، وفهمه بشكل جيد، لذلك نجد أن الله تعالى يركز على مرحلة الإدراك في كثير من آياته، إذ يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ﴾[3].

إذن، فالمراد بالسمّاع هو الفرد الكامل، وهو سماع الفهم والتدبر الذي يجعل صاحبه يستجيب لدعوة المتكلم، أو بشكل آخر يتواصل مع الطرف المتكلم إن قبولا أو اعتراضا أو

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 301

(2)- سورة الأنفال، الآية: 21

(3)- سورة الأنعام، الآية: 36

تساؤلا...وعلى هذا الأساس فالسمع هو الأداة التي بها يحصل العلم والمعرفة، بل هو الأداة الأولى التي يتم بها تواصل الإنسان مع كل من حوله وما حوله.

وقولنا عن السمع بأنه الأداة الأولى لأن القرآن الكريم تبنى ذكر السمع أولا في كل آياته التي ذكره فيها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، وبالإضافة إلى ذلك فإن المعرفة اللسانية تعتمد على حاسة السمع دون خاصة البصر، يظهر ذلك جليا في تعلم الأطفال للغة[2]، ولذلك قال ابن خلدون إن السمع هو أبو الملكات[3].

ج. آليات التواصل عند الإنسان:

وحتى يصل السمع إلى مرحلة الإدراك والفهم، لابد من أن يرتبط بمجموعة من الوسائل الإدراكية الأخرى، وهي: العقل والقلب والبصر والاستعداد والاستجابة والكلام المفيد[4]، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[5]، واضح من هذه الآية أنه عز وجل قد ربط بين السمع والعقل، وذلك أن الإنسان مكلف في هذه الحياة ومدار التكليف على أدلة السمع والعقل.

أما وسيلة القلب فهي دلالة على السمع الواعي كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[6]، وقد فسر الرازي هذه الآية بقوله: باعتبار

---

(1)- سورة النحل، الآية: 78

(2)- المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، مجموعة من الغربيين، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، المغرب/ لبنان، دط، 2000، ص: 106

(3)- المقدمة، ج2، ص: 712

(4)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 302

(5)- سورة الملك، الآية: 10

(6)- سورة الشعراء، الآية 193-194

الخطاب المترل قد استقر في النفوس وثبت فيها، فهو لا ينسى، ثم إن القلب هو المخاطب عل الحقيقة، لأنه موضع التمييز والاختيار، وما سائر الأعضاء إلا مسخرة له[1].

أما فيما يخص ارتباط السمع بالبصر، فذلك مرده أن أساس عملية التواصل هو السمع والبصر، وذلك أن حاسة البصر تشارك مشاركة فعالة في عملية السمع في مراحلها الثلاث (الفيزيائية والتشريحية والإدراكية).

ونحن إذا ما رجعنا إلى خطابنا العادي لأدركنا أهمية البصر في استيعاب الأصوات، وفهم المقاصد، يتضح ذلك جليا من خلال الملاحظات التالية[2]:

1) إن نسبة إدراكنا لكلام غيرنا تعتمد اعتمادا ظاهرا على تواجده في دائرة بصرنا، إذ تقل نسبة الإدراك حين غياب المتكلم عن نظرنا وتزداد بالعكس.
2) كثيرا ما نجد صعوبة في استقبال الخطاب من الهاتف، وذلك بسبب غياب المتكلم بصريا، ولذلك طور الهاتف ليكون بالصوت والصورة معا.
3) حينما يتواصل صديقان وهما يسيران جنبا إلى جنب، وتفوت أحدهما كلمة من كلام صديقه، فإنه يستدير إليه ببصره تلقائيا، وكأن البصر أذن ثانية.
4) إن إدراكنا للكلام نهارا أحسن منه ليلا.
5) وإدراكنا للبرامج التلفزيونية أجود من إدراكنا لبرامج الراديو.
6) إننا إذا أردنا تخليص أنفسنا من عناء سماع كلام لا نريده نصرف أبصارنا عن صاحبه حتى يقل وقعه في الأذن.

ولعل أهمية البصر في عملية السمع تكمن في[3]:

1) أن السامع حينما يتمكن من رؤية المتكلم يزداد وثوقا بمؤهلاته الإدراكية.
2) أن البصر يمكن السامع –خاصة الأصم– من متابعة حركة شفتي المتكلم.

---

(1)- ينظر: التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، فخر الدين أبو عبد الله بن عمر بن الحسين الرازي، تقديم وشرح: الشيخ خليل محي الدين الميس، دار الفكر، بيروت، دط، 1995، م12، ج24، ص: 167

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 305

(3)- نفسه

3) أن استعمال السامع لبصره في المقام التواصلي يقوي عنده الانتباه، ومن ثم الفهم والإدراك.

4) أن النظر إلى المتكلم يجعل الأذنين في وضعية فيزيائية جيدة لاستقبال الذبذبات الصوتية.

5) كما أن المعلومات البصرية تعين السامع على إدراك مقاصد المتكلم (حركات المتكلم، ملامح وجهه، ظروف المقام القريبة والبعيدة)، حتى إن بعضهم ذهب إلى أن حاسة البصر باعتبارها أداة تواصلية توفر كمية من المعلومات في المقام التواصلي تفوق مئة مرة معلومات السمع، بشرط توفر الإضاءة والقرب[1].

6) إضافة إلى أن للنظر إلى المتكلم قيمة أخلاقية واجتماعية تنم عن اهتمام السامع بالموضوع واحترامه للمتكلم، ورغبته في التواصل (والعكس بالعكس).

وهذه الآن بعض الآيات التي ذكر فيها السمع مقرنا بالبصر[2]:

1) قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[3].

2) وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[4].

3) وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[5].

▪ ارتباط السمع بالاستعداد:

إن توفر سلامة الجهاز السمعي لا يعني شيئا في عملية التواصل ما لم يكن عند الطرف المتلقي الاستعداد للتواصل أو للسماع، ولذلك صرح القرآن الكريم أن الذين اتخذوا موقفا

(1)- ينظر: 1 écrit et la communication, Robert Escarpit, Press universitaire de France, Paris, 1973, p: 06

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 306

(3)- سورة النحل، الآية: 78

(4)- سورة المؤمنون، الآية: 78

(5)- سورة الإسراء، الآية: 36

مسبقا من أحكامه فإنه لا ينفعهم، ولا ينفذ إلى نفوسهم، فقال تعالى مخاطبا رسوله الكريم[1]: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[2]، وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾[3]، وحذر الذين يشتغلون عن السماع بأمور تافهة قصدا وتعنتا ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[4]، وقال واصفا هذه الحالة: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[5]، وهذه صور يعبر من خلالها السامع عن عدم استعداده لاستقبال الخطاب وإقامة التواصل، بينما الأصل هو أن يبدي الاستعداد الكامل لتلقي الكلام وإنجاح التواصل بتوفير الإقبال على المتكلم، وعدم الاشتغال بأي شيء يعيق عملية التخاطب.

- **ارتباط السمع بالاستجابة:**

من أمنيات المتكلم أن يحقق استجابة السامع لخطابه في الموقف التواصلي، حيث تبدأ هذه الاستجابة من حسن الاستماع، مرورا بحسن الإدراك والفهم، وانتهاءً بحسن الالتزام والتطبيق، خاصة إذا تعلق الأمر بخطاب إلهي جاء ليقوِّم حياة هذا المتلقي، ويدله على كل أبواب الخير، وقد تجلى هذا الارتباط بين السمع والاستجابة في الآيات التالية[6]:

1) ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[7] في وصف المؤمنين.

2) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[8] أي لا يصدقون.

3) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[9].

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 306

(2)- سورة النمل، الآية: 81

(3)- سورة فاطر، الآية: 14

(4)- سورة الأنبياء، الآية: 2-3

(5)- سورة الإسراء، الآية: 47

(6)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 307

(7)- سورة البقرة، الآية: 285

(8)- سورة الأنفال، الآية: 21

(9)- سورة فاطر، الآية: 14

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "الرجل يجلس مع القوم فيستمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما يسمع ويكف عمَّا سواه"[1].

- **ارتباط السمع بالكلام المفيد:**

تذكرنا هذه الوسيلة بأحد مبادئ التعاون عند بول غرايس التي تقول: "لا تقل ما ليس لك به علم، كن صادقا، فكما أن الكلام مسؤولية كبيرة فكذلك السمع، وذلك أن السامع مطالب بألا يصدق كل ما يقع عنده من خطاب ويردده دون أن يتأكد منه"، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2].

وإذا كان المتكلم نوعين، متكلم داخل الخطاب، ومتكلم خارجه، فكذلك السامع، فهو نوعان: سامع داخل الخطاب وآخر خارجه، وما يهمنا في دراستنا هذه، هو النوع الثاني: السامع خارج الخطاب، وذلك أنه هو المقصود بالكلام والمعني الأول بالاستقبال، وهو الذي يتحقق على مستواه مفهوم التواصل.

ونشير إلى أن أي خطاب كان، سواء سياسي أو تعليمي، أو إرشادي، فهو خطاب السامع، وذلك أن حضور المتلقي فيه -غالبٌ- ودليل حضوره هو تلك الأفعال الإنجازية التي يتضمنها كل نوع من الخطابات الهادفة إلى تحقيق مقاصد معينة، ومن هذه الأفعال: الأمر والنهي، الترغيب والترهيب، إضافة إلى ظاهرة النداء التي تؤكد أنّ هناك عملية تواصلية حقة بجميع عناصرها.

وحتى تنجح عملية التواصل يشترط على المتكلم اتباعه مسلك التعميم بالتركيز على الصفات لا على الموصوفين، بمعنى إنه لا يجب عليه ذكر الأسماء في الخطاب، خاصة في الخطابات السياسية التي تسعى إلى جلب الرأي العام لصالحها، وكذلك الخطابات الإرشادية

---

(1)- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل، الزمخشري محمود بن عمر (ت528هـ)، دار الفكر، دمشق، دط، دت، ج4، ص: 121

(2)-سورة الإسراء، الآية: 36

والتعليمية، إذ نصوصها موجهة إلى كل الفئات إلا من أبى أن يعمل بالنصائح أو أن يكتسب علما.

وبما أنني بصدد دراسة الكتاب لسيبويه وما جاء فيه، إذن فأنا أمام خطاب ونص في الآن ذاته، لأن كل ما جاء في الكتاب هو في أصله خطاب ونص وذلك أن سيبويه كان متلقيا للنصوص المبثوثة في كتابه، ومن هنا، فما يحتويه هذا الكتاب هو خطاب في زمانه، ونص في زماننا، أو هما معا، كذلك فإن كل متلق لكتاب سيبويه فهو سامع وقارئ معا، ومن أجل هذا نستطيع القول إن من أهم خصائص كتاب سيبويه الشفاهية والكتابية، وربما لهذا الأمر أو بالأحرى من أجل هذا الجمع سمّى سيبويه -مؤلفه- بالكتاب، وذلك لذكائه الحاد، إذ المقصود بالكتاب فيما ذهب إليه بعض المفسرين: هو السورة، وهو اللوح المحفوظ، وهناك تفسير آخر للبغوي يؤيد صفتي النص والخطاب، حيث يرى: "أن الكتاب ما يكتب، والقرآن ما يجمع بعضه بعضا"[(1)].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[(2)]، وقال كذلك: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(3)].

ولعل سيبويه يكون قد اتخذ صفة اللوح المحفوظ، وصفة الشفاهية والكتابية وكذلك عدم الشك في محتويات الكتاب المترل منطللقا لتسمية مؤلفه بالكتاب، خاصة وأن كتابه فيه من الشواهد القرآنية والشعرية وكذا معظم اللهجات العربية، ما يجعله متداولا في كل مكان وزمان، ولذا سمي بقرآن النحو.

ويشترط في المتلقي، الكفاءة لأنها هي التي تحدد نوع أو درجة المتلقين، وذلك أنه -كما سبق الذكر- هناك متلق نوعي، ومتلق عادي، فالمتلقي النوعي هو ذلك السامع أو القارئ الذي توفرت عنده مجموعة من القدرات على صعيد اللغة وعلى صعيد العلم، وعلى

---

(1)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي أبو الفضل شهاب الدين محمود البغـدادي (ت1270هـ)، دار الفكر، بيروت، دط، 1982، م5، ج14، ص: 03

(2)- سورة الحجر، الآية: 01

(3)- سورة ص، الآية: 29.

صعيد التواصل تمكنه من استقبال الرسالة، وفهمها الفهم المناسب واستثمارها الاستثمار اللائق، ويدخل تحت هذا النوع كل الفئات المثقفة والمتعلمة، أي كل من توفرت لديه الدراية باللغة والعلم الوافر، الذي نقصد به ذلك الجانب غير اللغوي الذي يساعد المتلقي على استغلال الخطاب، وذلك كمعرفة الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية التي قيل فيها الخطاب، ويدخل في هذا الشرط أيضا الإطلاع على ثقافات الغير.

وبالإضافة إلى ما سبق، هناك أيضا المؤهلات التواصلية المتمثلة في المشاركة الإيجابية للسامع من خلال عملية السؤال والجواب (في الجدل والمحاورة)، كما تشمل عنصر الاستعداد للتواصل والرغبة فيه، والإقبال عليه إضافة إلى معايشة المقام الذي يحتضن الخطاب للمشاركة في صنعه، هذا إذا كان بلغة المتكلم ولغة الخطاب سواء من حيث المفردات أو من حيث التراكيب، بالإضافة إلى معرفة واقع الخطاب (مكانه وزمانه والظروف التي كانت أحاطت به).

ثم إن هناك أيضا كل تلك المؤهلات الذاتية، كقوة الاستيعاب والتحليل والاستنتاج، وقوة الذاكرة والفطنة والذكاء يضاف إلى هذا كل ما من شأنه إنجاح عملية التواصل، كاستحضار مكانة المتكلم أثناء التعامل مع الخطاب، وذلك أن كل خطاب يحمل حتما بصمات صاحبه، وخصوصياته بدءا من نوع الصوت، وانتهاءً بصورة التركيب في الخطاب الحي، ولذلك لم يكن أحسن من القائل في تبليغ خطابه إذ لا يرتقي إلى درجة تبليغه أي وكيل وأي وسيط وأي رسول، وقد يعوض شخصية المتكلم عند غيابه استحضار المتلقي له أثناء سماع أو قراءة الخطاب، ومن هنا فكلما كانت معرفة السامع بصاحب الخطاب جيدة، حصل الفهم الجيد كذلك، يقول الحارث بن أسد المحاسبي: "فإذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم به، لم يكن عندك شيء أرفع ولا أشرف ولا أنفع ولا ألذ ولا أعلى من استماع كلام الله عز وجل وفهم معاني قوله...وكذلك تجده في فطرنا فيما بيننا وبين الخلق، نحب قول الأخ والقرابة والعالم الشريف على قدر محبتنا له، ونجل قوله ونعظم ونردد ذكره، ونتفهم

معانيه على قدر حبنا له وإجلالنا له"[1]، إلى أن يقرر بأننا نرتاح لاستقبال صوت من نحب ونتأثر به حتى ولو لم نفهمه[2].

ومهما يكن من أمره، فإن كل نص أو خطاب مهما كان نوعه، يخضع لزمان ومكان ومتلق، بحيث تترك هذه العناصر الثلاثة أثرها، بل وتصبغه بصبغتها، والمتكلم مهما كان فهو ينتمي إلى حيز زمكاني ووسط اجتماعي لا يستطيع مهما –أوتي من مؤهلات– أن ينسلخ كلية عن مؤثرات هذا المثلث، ومن ثم يمكن تكون هذه العناصر من جهةٍ أحسَنَ معينٍ للمتلقي على إدراك وفهم دلالة الخطاب وطبيعته[3].

هذا إذن، عن المتلقي النوعي، فما شأن المتلقي العادي للخطاب؟ لا سبيل للمتلقي العادي في فهم النصوص والخطابات غير الاعتماد على نفسه ولو أن الأمر كله قائم على القدرات التواصلية لكل فرد وهي نسبية لا يستوي فيها اثنان.

ولكن المهم هو أن يتوفر على الحد الأدنى من المؤهلات التواصلية وعلى رأسها معرفة لغة الخطاب، لذا وجب إلغاء كل الوسائط بين المتلقي والخطاب، وذلك أن فهم أي إنسان –وخاصة الإنسان العادي– للخطاب في لحظة القراءة لا ينطلق إلا من النص ذاته، وبناءا عليه فإنه يحاول أن يظفر بمعنى هذا الخطاب ليضمن التفاعل معه في تلك اللحظة على الأقل.

ونشير هنا إلى أن الخطابات الأدبية بل والخطابات العادية أيضا لا تمتلك في الأصل إلا متلقيا خاصا وسامعا مقصودا، يكون حاضرا حضورا ماديا أمام المتكلم الذي يأخذه في اعتباره حين تأليفه للخطاب، أو يكون حاضرا حضورا معنويا في داخل المتكلم الذي يمارس رقابة ما، بل ويشارك في صياغة الخطاب، ولعل ما يؤكد هذه القضية هو أن لكل جنس أدبي جمهوره ونقاده الذين تتوفر عندهم آليات التذوق والتقييم دون غيرهم[4].

---

(1)- العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، تح: حسن القوتلي، دار الندى، ط3، 1982، ص: 274

(2)- نفسه، ص: 309

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 317

(4)- نفسه، ص: 320

ولقد ثبت في الدرس اللساني، أن القراء يختارون من نص معين عناصر مهمة مختلفة باختلاف معارفهم، واهتماماتهم وأعمالهم وآرائهم، وعليه يمكن أن تتغير البنية الكبرى من شخص لآخر مع وجود قاعدة مشتركة بينه على مستوى التفسير الإجمالي(1).

وصفوة القول، إن كل خطاب يقدم نفسه نموذجا للخطاب الجاد والهادف، خاصة ذلك الخطاب الذي يجمع بين الإقناع والإمتاع، كالخطاب القرآني، والخطاب البلاغي، والخطاب الحجاجي الاستدلالي وغيره من الخطابات الأخرى، على أن تتناسب هذه الخطابات وطبيعة المتلقي الذي يؤثر الجمال ويؤخذ به.

ومن أجل ذلك، فإن كل متلق (قارئ أو سامع) مطالب بحسن الفهم والتدبر لاستثمار الخطاب وإنجاح عملية التواصل، ولا يحصل هذا إلا بعملية التدبر التي تمثل أعلى درجات التركيز، وأرقى مراتب الاهتمام، بل وأعلى مستويات استقبال الخطاب، إذ فيه يتجلى المجهود الذاتي للمتلقي في تفهم ما يلقى إليه، وهو كذلك صورة من صور التعاون التي يجب أن تكون بين المتحاورين خاصة السامع الذي يجب عليه "أن يبحث عن الأسباب الخطابية التي دعت المتكلم إلى قول ما قال"(2)، ثم إن التدبر يمكن المتلقي من الانتباه إلى المعاني الضمنية للخطاب في مقابل المعاني الصريحة، كما يمنحه فرصة متابعة المعلومات الواردة في النص والاحتفاظ بها، وذلك أن المتعارف عليه "أن مستعملي اللغة لا يستطيعون ولا يحتاجون أن يحتفظوا بسائر المعلومات في قضايا خطاب متناول لتفصيل القول..." (3).

ثم إن هناك خطابات تمتاز بمؤهلات أسلوبية ودلالية غير عادية، ومن هنا أصبح ضروريا تكرار القراءة وتجديد السماع، من أجل استكشاف معانيها، ومن جهة أخرى، فإن القراءات المتعددة لبعض النصوص والخطاب تمثل استدامة للتواصل، وإحياءً له كما هو الحال بالنسبة لقراءة القرآن الكريم التي يجعل تكرارها الإنسان على صلة دائمة مع خالقه، وكأن الله يخاطب عباده في كل لحظة، لذا فإن القرآن الكريم مجرد من الزمان والمكان.

(1)- النص بناه ووظائفه، مقدمة أولية لعلم النص والفكر العالمي، تون أ. فان ديك، مركز الإنماء القومي، د.ط، د.ت، ص: 64

(2)- في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص: 108

(3)- النص والخطاب، فان دايك، ص: 198

ثم إن القراءة المتكررة تمكن المتلقي من الحفظ لكل أنواع النصوص والخطابات وزيادة عن ذلك، فإنها تحقق شفاهية المقروء من جهة، وتضمن له حضور هذا الخطاب بشكل دائم ليتمكن من استحضاره ومحاورته من جهة أخرى، بل واستعماله في مقالات مختلفة، كالاستشهاد والتدليل على قضية ما، ولعل الذي يساعد عل الحفظ هو فريضة التدبر التي تعني -كما سبق الذكر- الفهم الجيد والعميق للخطاب، وما من متلق يجيد فهم نص ما (شعري، نثري، قرآن) إلا وعلق بذاكرته بشكل كلي أو جزئي وإن لم يقصد إلى حفظه.

وبعد كل ما تمَّ عرضه تأتي استجابة السامع للخطاب، لتمثل الدليل القوي على حسن استقباله للخطاب وجودة فهمه، إذ يعد تأثره واستجابته تلك أحسنَ وسيلةً لاستمرارية الخطاب وحيويته.

د. عملية فهم السامع للخطاب بين التفسير والتأويل:

إن التعرض لاصطلاحات الفهم والتفسير والتأويل يعني البحث في طبيعة ومهمة دور المتلقي في عملية التواصل، كيفما كان هذا المتلقي سامعا أو قارئا، ولذلك اختلفت الاتجاهات والنظريات في تحديد وظيفة هذا المتلقي، فذهب بعضها إلى أنه لا يملك الحق في تحديد معنى الخطاب إلا بما يفيده الخطاب ذاته، وما توحي به لغته وبناؤه، وما يتلاءم مع قصدية المتكلم، أما بعضها الآخر فقد ذهب إلى إعطاء المتلقي دورا أكثر حيوية، وأكثر إيجابية وذلك بجعله شريكا في تحديد معنى الخطاب مستعينا بآليات النص، بالإضافة إلى قدراته التواصلية (الكفاءة التواصلية)، وكذلك مقام النص من ثقافة ومعرفة مسبقة بالمتكلم، وبموضوع الخطاب، أما الفريق الثالث فقد وكل مهمة تحديد معنى النص وفهمه للمتلقي وحده، دون البناء (اللغة)، ودون المتكلم (صاحب الخطاب) ويصبح بذلك الخطاب واحدا من حيث المتلقي ومتعددا -بشكل غير متناه- باعتبار المتلقي الواحد فضلا عن المتلقين المتعددين ولعل من يمثل هذا الفريق، أصحاب نظرية التلقي، أمثال هانز روبرت ياوس، وولف جانج آيزر، ورومان إنجاردين الذين جاء اتجاههم لمقاومة الجبرية التي فرضها النقد الماركسي على الفن[1].

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 328-329

ولكن محمد عباس عبد الواحد يرى أن الفريق الثالث "لا يقصدون بحرية القارئ أن يكون غير ملتزم بالضوابط الفنية، ولا يريدونه قارئا وجوديا يتقبل النص في فوضى لا تخضع للمعايير، ولا قارئا رمزيا يعيش التجربة من غير فهم، ولا يريدونه كذلك قارئا بنيويا"(1).

ومن هذا المنطلق وُجِدَ اتجاهان في مفهوم التأويل: الأول يرى أن عملية التأويل هي محاولة لاسترداد معنى النص الذي هو بحوزة الكاتب أو المتكلم (الحضور الدائم لصاحب النص مهما تباعد الزمن، وتغيرت الظروف)، ويمثل هذا الاتجاه كل من "شلاير ماخر" (1768-1834)، و"ديثي" (1833-1911)، و"سيترر" (1877-1960) ونقاد مدرسة جنيف (جورج بوليه، وريتشارد، وستاروبنسكي)(2).

أما الاتجاه الثاني، فإنه لا يثق بقدرة النص على تمثيل صاحبه، ولا عصره ولا واقعه، ومن ثم فقد نادى هذا الاتجاه بضرورة التأويل البعيد عن المتغيرات، ويمثل هذا الاتجاه الهيرمنوطيقا، وفيها منظومتان: منظومة ترى أن بنية النص ذاته كافية في عملية التأويل، ومنظومة أخرى تؤمن بانفتاح النص على الأنساق غير النصية(3).

إن معظم الخطابات الأدبية والفنية تتسم بالجانب الإمتاعي في عمومها، إذ كلما طغى هذا الجانب ازدادت فسحة المتلقي للمشاركة في التأويل، وعلى العكس من ذلك فإن هذه الفسحة تقل وتضيق كلما اقتربت هذه النصوص الأدبية من الجدية والتعليمية (ككتب النحو والنصوص التشريعية (الدينية والقانونية)، وتكمن جدية هذه النصوص في هدفها المنشود، إذ منها ما يقصد إلى تنظيم حياة الفرد والجماعة، ومنها ما غرضه تعليمي، ومنها ما هدفه إحقاق الحق والإدلاء بالحجة القاطعة، ولهذا يستحيل أن تحل في هذه الخطابات قصدية المخاطب (السامع أو القارئ) محل قصدية المتكلم، فليست كل الخطابات عرضة لأهواء المفسرين والمؤولين.

(1)- قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، محمد عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1996، ص: 20

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 329

(3)- نظريات قراءة النص، لمياء باعشن، ص: 170

وحتى لا نجعل النصوص الجدية جامدة، نستعين في تأويلها على بعض الضوابط، وذلك باعتماد منهج دقيق يحفظ للنص قدسيته، ويجعل المتلقي لا يتجاوز حدوده، لذلك قلنا إنه يشترط لتواصل السامع معرفته بالمتكلم، وبطبيعة لغة النص، لأن التأويل كما يقول رشيد الإدريسي: "لكي يكون مثمرا منسجما، يجب أن يكون محركا وموجها بواسطة قوة فكرة ملهمة، وهذه الفكرة تستخرج من النص ذاته"[1].

وهكذا أصبح من الثابت في علم النص الحديث أنه من دلائل تماسك النص أو الخطاب هو عندما يقبل كل تركيب فيه "التفسير والتأويل في خط داخلي يعتبر امتدادا بالنسبة لغيره من العبارات المماثلة أو المتتالية"[2]، يحيلنا هذا النص إلى أنه بإمكان متلقي نص ما الاستعانة ببعض النصوص القريبة من النص/الخطاب المراد تأويله.

وعلى الجملة، فإن عملية التأويل أو الفهم الذاتي خدمة عظيمة للخطاب ذاته، إذ هي الوحيدة الكفيلة بجعله يحقق مقاصده وعلى رأسها صلاحيته لكل زمان ومكان، وحاجتنا إلى التأويل تزداد كلما ازددنا ابتعادا عن المقام الأول للنص، لأن الظروف تتبدل بشكل مستمر، وآفاق المتلقي واهتماماته وثقافته تتطور هي الأخرى، ولابد أن يستوعب الخطاب ذلك كله، وبفضل آلية التأويل أصبح الخطاب مرنا يزداد حجمه ويتشكل دون أن يفقد شيئا من خصوصياته[3]، وغدا التأويل بذلك قناة تواصلية تمفصل مختلف الحقب التاريخية وتؤلف أطراف الفكر البشري[4].

إذن لقد أصبح التأويل أو العدول أو الانزياح مبدأً جماليا يكشف الطاقات التعبيرية لكل خطاب، وذلك من أجل الوقوف عند المناحي الجديدة التي في الخطاب، كما يستنتج القدرات الإيحائية للأساليب المختلفة، ولأجل ذلك يكثر المجاز في بعض الخطابات، وهي

---

(1)- سيمياء التأويل، رشيد الإدريسي، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص: 83

(2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، مجلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع164، 1992، ص: 255

(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 334

(4)- هندسة النص، سلطة القراءة خرائط الكلام الزماني والمتعالي، محمد أحمد خضراوي، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، ع33، م09، 1998، ص: 72

دعوة للمخاطب حتى يعمل فكره فيه، هذا فضلا عن طبيعة الفرق الموجود بين اللفظ والمعنى، إذ لا يمكن أن يمثل اللفظ المعنى تمثيلا مطلقا لأن:

1. "المعنى مضمون ذهني (Contenu Montale)، غير محدد (Indéterminé) واللفظ قابل للتحديد.
2. المعنى متسع (متألف من صفات لانهائية) واللفظ منقوص بالضرورة.
3. المعنى متسع (له ضروب تجسم مختلفة) واللفظ لا يمكنه تجسيم كل العناصر.
4. المعنى ينشأ في مقام ما، واللفظ لا يحدد كل عناصر المقام"[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الأثر الأدبي "مهما رأيناه غامضا، فإنه ينطوي على دلالات بعينها يتقيد بها تأويله ويحدها فهمه، وأول هذه العناصر والحدود اللغة"[2]، وعلى هذا الأساس "فالتأويل مغامرة وإحالات محكومة بنقطة بداية ومتجهة نحو نهاية بعينها، ولا يمكن للتأويل أن يقود إلى كل المدلولات الممكنة لأن ذلك خرقا لمبادئ التفكير العقلي"[3].

ويرى سارتر أن عَمَلَ المؤلف ينطوي على فراغ على القارئ أن يملأه[4]، وذلك أنه ذو طابع عضوي، فليس "المعنى هو مجموع الكلمات، ولكنه في مجموعها العضوي"[5]، والملاحظ أن هذين القولين يمثلان أحد الافتراضات المهمة عند "هوسرل" ومدرسة الجشطالت الذين شددوا على مفهوم العضوية (أي الكلية) في أية ممارسة دالة، مثل "أنغاردن" الذي حصر مهمة المتلقي في تحقق العمل، فوجد أنه يتحقق...على قدر المستوى الدقيق لطاقة القارئ[6].

أما أصحاب نظرية التلقي –وخاصة "ياوس"- فقد عضدوا افتراضاتهم في شرعية إسهام الذات المتلقية في بناء المعنى، فعادوا على إثر ذلك إلى الفيلسوف "هانس جورج

(1)- تعدد المعنى في القرآن، ألفت يوسف، ص: 404

(2)- نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، محمد حسن عبد الناصر، المكتب المصري، القاهرة، د.ط، 1999، ص: 87

(3)- التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، أمرتوإيكو، ترجمة وتقديم: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2004، ص: 13

(4)- ما الأدب، جان بول سارتر، ترجمة: د. محمد غنيمي هلال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1971، ص: 45

(5)- نفسه، ص: 52

(6)- نفسه، ص: 55

غادامير" وذلك أن ثنائية الذات والمعنى تضعنا مباشرة على تماس بذلك الفعل الذي يعطي للبنيات المادية التقنية لأي عمل دلالة مشتركة، هي الدلالة الحرفية المقيدة بشروط وضعية، والدلالة الأخرى هي دلالة الفعل لنفسه، أي دلالة الفهم[1].

ويعنى علم التأويل بالفهم كونه حقلا مهما من حقل المعرفة، وقد كان "دلتاي Dethey" –وهو أحد مصادر فلسفة غادامير– يهتم بدراسة الفهم دراسة علمية يشدد على "إيجاد أساس للفهم في التجربة الحية (Lived Experience) كما نعيشها بالفعل، ومن ثم لا يهمه البحث في الذات المتعالية، إن موضوع بحثه الإنسان ببنائه الجسمي والعقلي المركب بمجموع غرائزه، ومن ثم يؤكد أن الوجود البشري فريد تماما، وبالتالي لا يمكن سبر غوره عن طريق المعرفة"[2].

فالفهم عند "دلتاي" هو العملية التي بواسطتها تعرف شيئا نفيسا ما عبر الرموز المحسوسة التي تجليه وتكشف عنه[3]، ولذلك فهو يرى أن "الغاية القصوى للهيرمنوطيقا هي الفهم الجيد للمؤلف أكثر مما فهم نفسه"[4]، لقد وجد "غادامير" أن "دلتاي" يعطي أسبقية خاصة للفهم وأن التأويل لم يكن سوى حالة جزئية من الفهم[5]، فراح غادامير يبحث عما يعطي للفهم طالعه الملموس، فجعل اللغة هي الوسيط الذي ينتقل عبره ووحد بينه وبين التفسير والتطبيق، فعند قراءتنا لنص ما يمتزج فهمنا بوصفه سلسلة من الإجراءات والاستعدادات الذهنية والمواقف الذاتية بالتفسير (تفسير البنيات والصيغ الأساسية للعمل) ويمتزج كذلك بالتطبيق كونه نهاية المطاف لعملية تجسيد الفهم عبر الوسيط اللغوي، إن هذا التوحيد بين اللحظات الثلاث، كان ذا أهمية بالنسبة "لياوس"، لأنه ينسجم والنظرية الحديثة التي تركز على فعل الفهم، وتعتقد أنه جزء أساس من المعنى[6].

---

(1)- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997، ص: 97

(2)- دلتاي وفلسفة الحياة، د. محمود سيد أحمد، القاهرة، د.ط، د.ت، ص: 33

(3)- النص والتأويل، بول ريكور، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع5، شتاء 1988، ص: 41

(4)- نفسه، ص: 42

(5)- نفسه

(6)- الأصول المعرفية لنظرية المتلقي، ناظم عودة خضر، ص: 99

وخلاصة القول، إن البحث عن عمق تأويلي يشكل وحدة كلية تنتهي إليها كل الدلالات سيظل حلما جميلا من أجله ستستمر مغامرة التأويل حتى وإن كان الوصول إلى هذه الوحدة أمرا مستحيلا[1].

المبحث السادس: المقام

1. مفهومه وأهميته:

بعد أن تعرضنا في المبحثين السابقين إلى قطبي العملية التواصلية، وهما المتكلم والسامع في الخطاب بصفة عامة، وبينا ما يجب توفره عند كل طرف حتى يساهم في إنجاح عملية التواصل، نأتي إلى العنصر الأهم، وهو عنصر "المقام"، ونعتناه بالأهمية لأنه يمثل العلامة الأولى على تواصلية الخطاب، إذ أن توفر عنصر المتكلم وحده أوتوفر عنصر المستمع وحده لا يحقق التواصل الحي، بل إن العنصر الوحيد الكفيل بنقل الخطاب إلى درجة التواصل الفعال والمباشر هو عنصر "المقام" الذي يجمع كل أطراف العملية التواصلية (المتكلم، السامع والخطاب) ليبث فيها روح التناسق (الإيقاعية التواصلية)، وهو الذي يضمن النجاح التداولي للخطاب في مقابل النجاح النحوي الدلالي الذي هو مسؤولية البناء[2].

بل إنه لا ينبغي أن ندعي الوصول إلى فهم المعنى الدلالي –كما يقول تمام حسان– بمجرد النظر إلى معنى "المقال" دون اعتبار "المقام"، وهل يمكن بالمقال فقط أن نفهم المقام المقصود من عبارة: "زيارة الأصدقاء تسعد النفس، إننا لا نعرف من هذه العبارة ما إذا كان الأصدقاء زائرين أم مزورين"[3].

ولعل ما يميز المقام هو ثبوته وحياده، الأمر الذي يفرض على أطراف التواصل الأخرى التكيف بحسبه، وتتشكل وفق ما يسمح به، وإن أخطأت ذلك، كتب الفشل للعملية التواصلية، لذلك فهم البلاغيون العرب المقام أو مقتضى الحال فهما سكونيا قالبيا نمطيا مجردا

(1)- التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، أمبر توإيكو، ص: 12

(2)- النص والسياق، فان دايك، ص: 257

(3)- الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1983، ص: 339

على نحو ما جرد النحاة أصل الوضع للحرف وللكلمة وللجملة، ثم قالوا: "لكل مقامٍ مقالٌ"، و"لِكلٍّ كلمة مع صاحبتها مقام"[1].

أ. مفهوم المقام عند القدامى:

المقام أساس موجود عند كل الأمم، وقد أشار إليه شيشرون (Ciceron) الروماني حينما تكلم عن الرجل البليغ ومزاياه قائلا: "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكيف دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح أي شيء، عليه إذن لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له"[2].

ولقد جاء مفهوم المقام عند البلاغيين العرب تحت ما أسموه "مراعاة المخاطب وخاصة من حيث طبقته"[3]، يتضح هذا على سبيل التمثيل في قول العسكري: "إذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب"[4].

وقد يستعمل المقام قريبا من مفهوم مقتضى الحال، استنادا إلى ما يقوله القزويني: "ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي"[5]، و"لكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[6].

---

(1)- الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمام حسان، ص: 338

(2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، الكويت، العدد 164، 1992، ص: 26

(3)- البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، ص: 27

(4)- الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 29

(5)- الأصول، تمام حسان، ص: 338-339

(6)- مفتاح العلوم، السكاكي، ص: 256

فالملاحظ أن البلاغيين العرب كانوا يستعملون لفظ (الحال) مرادفا للفظ (المقام) و"الحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى التكلم على وجه الخصوص، أي الداعي إلى أن يعبر من الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصيته، ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا: كون المخاطب منكرا للحكم، حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها"(1).

وغير بعيد عن هذا الرأي ما أورده ابن جني في باب أنّ المحذوف إذا دلت عليه الدلالة كان في حكم الملفوظ به: "من ذلك أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض، ثم أرسله، فتسمع صوتا فتقول: "القرطاسَ والله"، أي أصاب القرطاس ف(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه نائب مناب اللفظ به"(2).

وتتجلى فكرة المقام أيضا في علم المعاني إذ عرفه القزويني بأنه: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من استحسان وغيره، ليتحرر بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"(3).

ومعلوم لدى كل باحث أن علم المعاني هو العلم المختص بدراسة أنواع الأساليب اللغوية، ومقامات كل منها، كما أنه يولي أهمية كبرى للأغراض الفرعية –في مقابل الأغراض الأصلية– للأساليب العربية (النداء، الأمر، النهي، الاستفهام وغيرها)، وهي أغراض لا تحددها إلا معرفة المقام التواصلي والسياق الاجتماعي(4).

وإذا كانت المفاهيم الأولى للمقام عند من سبق ذكرهم من بلاغيين ضيقة، فهذا لا ينفي أنها تتسع عند غيرهم، لتشمل "مجموعة الاعتبارات والظروف التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون تأثيرها في ذلك النشاط من خارجه، بحيث لا تتحدد دلالة الكلام أو تتجلى مزاياه إلا في ظلها، وفي ظل ارتباطه بها"(5).

---

(1)- موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، التهاوني، ج1، ص: 616

(2)- الخصائص، ابن جني (أبو الفتح عثمان ت392هـ)، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، دط، 1952، ج1، ص: 284

(3)- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (الخطيب ت339هـ)، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993، ج1، ص: 57

(4)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 341

(5)- المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، ص: 194

ولتوضيح أهمية المقام في تحديد المعاني وضبط الدلالات نورد بيتا شعريا، قام ابن جني بشرحه وهو كالآتي:

تَقُولُ: وَقد صَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا   أَبَعْلِي هَذَا الرَّحَى المُتَقَاعِسُ[1]؟

يقول ابن جني: فلو قال حاكيا عنها: أبعلي هذا الرحى المتقاعس، من غير أن يذكر صك الوجه، لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: وصكت وجهها، علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل: ليس المخبر كالمعاين، ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: "وصكت وجهها لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها"[2].

أما من منظور أبي حامد الغزالي، فقد عرف المقام على أنه وسيلة من وسائل إدراك العلوم، فهو بعد إذ حصر مدارك العلم في مقدمة كتابه "المستصفى" في العمليات المحضة والمحسوسات والمشاهدات الباطنة، والتجريبيات والمتواترات، يستدرك في موضع آخر من كتابه مدركا آخر من مدارك العلم ألا وهي القرائن المقامية[3]، فيقول: "إن مجرد الإخبار يجوز أن يورث العلم عند كثرة المخبرين، وإن لم تكن قرينة، ومجرد القرائن أيضا قد تورث العلم، وإن لم يكن فيه إخبار... تشهد الصبي يرتضع مرة بعد مرة، فيحصل لنا علم قطعي بوصول اللبن إلى جوفه، وإن لم نشاهد اللبن في الضرع، لأنه مستور، ولا عند خروجه، فإنه مستور بالفم، ولكن حركة الصبي في الامتصاص وحركة حلقه تدل عليه دلالة ما، مع أن ذلك قد يحصل من غير وصول اللبن"[4]، ويعلق أحد الباحثين على هذا الرأي قائلا: "وهنا يأخذ المقام

---

(1)- البيت لنعيم بن الحارث بن زيد السعدي، يقال إنه كان قد عقد النكاح على امرأة لم يدخل بها بعد، فمرت به نسوة وهو يطحن بالرحى لضيف نزلوا به، فقالت: أبعلي هذا، تعجبا واحتقارا له، فقال شعرا، والمتقاعس هو الذي يخرج صدره ويدخل ظهره وذلك شكل من يطحن بالرحى

(2)- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 245

(3)- المستصفى من علم الأصول، الإمام أبو حامد الغزالي محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)، اعتناء عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص: 22 وما بعدها

(4)- المستصفى من علم الأصول، الإمام أبو حامد الغزالي محمد بن محمد الغزالي، ص: 176

معنى الحجة والبرهان ويصبح من وسائل الإقناع والاقتناع، وقد قالوا قديما: ليس من رأى كمن يسمع"[1].

يستنتج مما قيل أن المقام الحي يؤدي وظيفة أخرى لا تقل أهمية عما سبق، وهو توحيده للرؤى والاهتمامات، وجمعه للثقافات والمشاعر، وإعطاؤه فرصة للتأثر والتأثير، وتقريبه الفجوة بين القائمين فيه، ولعل ما أورده العسكري دليل على هذا الاستنتاج وذلك من خلال قوله: "وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متصارعة"[2]، يحيلنا هذا القول على أن متلقي الخطاب الواحد، في المقام الواحد، تكون فهومهم متقاربة، ولذلك لا نجد للخطاب في زمن إنتاجه إلا معنى واحدا متداولا، كما حدث مع القرآن في زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم- ثم تبدأ التأويلات والتخريجات كلما ابتعد الخطاب عن المقام الأول.

ب. مفهوم المقام عند المحدثين:

اتسع مفهوم المقام عند المحدثين بسبب ارتباطه بمجالات مختلفة، في الشرق والغرب، ومن هذه المجالات: تحليل الخطاب، والسيميائيات، ونظرية أفعال الكلام، وعلم النص، وعلم التأويل والبلاغة والتداولية.

ونشير إلى أن هؤلاء المحدثين يستخدمون لفظ السياق دلالة على المقام في كثير من الأحيان، وإن كان فريق منهم يجعل مصطلح السياق متعلقا بالبناء اللغوي، والمقام متعلقا بالمؤثرات الواقعية خارج الخطاب[3].

ليس هذا فقط، وإنما هناك أيضا مصطلحات أخرى للدلالة على المقام، كالعالم المعيش عند "هابرماس" أو الإطار التبليغي، ثم إننا نجد من يميز بين السياق الاجتماعي والسياق المقامي، إذ الأول يمثل الشروط الاجتماعية التي تسمح بدراسة العلاقات بين السلوكات

[1]- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 342

[2]- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 230

[3]- تعدد المعاني في القرآن، ألفت يوسف، ص: 80-83

الاجتماعية، والسلوك اللغوي، بينما يمثل السياق المقامي "المعطيات التي يشترك فيها كل من المرسل والمرسل إليه حول المقام الثقافي والنفسي والخبرات والمعارف"[(1)].

وبديهي أن تتعدد مفاهيم المقام تبعا لتعدد المنطلقات النظرية التي يتبناها كل دارس، ومن هنا وجب عرض مجموعة من هذه التعاريف:

1) المقام عند (ف–فال Vahle): "مجموعة من العوامل يتعين على الفرد الاحتفال بها حتى يتوفق في إنجاز فعله اللغوي"[(2)].
2) ويدخل في المقام عند "برنت روبن" اللغة المصاحبة، أو ما وراء اللغة، ومنه: التنهد والنغمة، والدمدمة، وسرعة الكلام والوقفات، وكلها تساعد على فهم محتوى الرسالة، إضافة إلى الشفرات غير اللفظية مثل المظهر والحركة واللمس والمكان الزمان[(3)].
3) ويقول "فان ديجك Van Dijk": :"يتألف السياق البراغماتي من جميع العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد منهجيا ملاءمة الأفعال الكلامية، ومن هذه العوامل المعرفة التي يملكها مستعملو اللغة، ورغباتهم أو إرادتهم وأشياؤهم المفضلة، وآراؤهم وكذلك علاقاتهم الاجتماعية"[(4)].
4) ويعرفه "جان ديبوا J. Dubois" بقوله: "هو مجموع الشروط الاجتماعية التي تعتمد في دراسة العلاقات الكائنة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة...وهي المعطيات المشتركة بين المتلقي والمرسل، والوضعية الثقافية والنفسية، والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما"[(5)].
5) وحدده كل من "قالسون Galison، وكوست Coste" بأنه: "مجموعة إنتاج القول، وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين يستمد

---

(1)- مدخل إلى اللسانيات التداولية، جيلالي دلاش، ص: 58

(2)- نفسه، ص: 40

(3)- ينظر: الاتصال والسلوك الإنساني، برنت روبن، ترجمة: نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية، جامعة الملك سعود، معهد الدراسات العامة، دط، 1991، ص: 159، 178

(4)- فان ديجك، النص وبناه ووظائفه، ص: 70

(5)- J. Dubois, Dictionnaire de linguistique, Larousse, 2ème édition, 1989, p: 69

وجوده من شخصية المتكلم ومستمعه، ويحصل ذلك في الوسط (المكان) واللحظة (الزمان) اللذين يحصل فيهما"[1].

6) وهو عند "ألفت يوسف": "الإطار العام للقول الذي يشمل زمان القول ومكانه، وهوية الباث وهوية المتقبل، وعلاقتهما بعضهما ببعض، وكل ما يعرفه أحدهما عن الآخر"[2].

7) أما "تمام حسان" فإنه يعرفه قائلا: "وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما له اتصال بالمتكلم، فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا –وهو هنا يعرض بمفهوم القدماء للمقام– وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءاً منه"[3].

8) ويسميه "كمال بشر" (المسرح اللغوي): "ويعني الجو الخارجي الذي يحيط بالكلام من ظروف وملابسات، وتتمثل عناصره الأساسية في شخصية كل من المتكلم والسامع والعلاقة بينهما، والمكان، وما فيه من شخوص وأشياء"[4].

9) وحصر "فندريس Wunderlich" عناصر المقام في:

1. المشاركون في التبليغ.
2. ترقبات Attentes المتكلم والمستمع.
3. المتكلمون والمستمعون.
4. مساهمة المشاركين في الموضوع.
5. مكان التفاعل.
6. معارفهم اللغوية.
7. القول (الصفات اللغوية، وشبه اللغوية وغير اللغوية).

---

(1)- ينظر: جيلالي دلاش، ص: 41، و Dictionnaire didactique des langues, 1976, p: 504

(2)- تعدد المعنى في القرآن، ألفت يوسف، ص: 08

(3)- الأصول، تمام حسان، ص" 339، وينظر كذلك: اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 351-352، فقد جعل المعنى المقامي يشترك مع المعنى المقالي في تكوين المقام الدلالي، ويبدو أن المعنى الشامل هو المعنى التواصلي، ويتكون من اجتماع المعنى الدلالي (الوظيفي والمعجمي)، والمعنى المقامي.

(4)- علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، مصر، ط3، 1997، ص: 96

8. المعايير الاجتماعية.
9. مقاصد المتكلمين Intentions.
10. شخصياتهم وأدوارهم[1].

ويصبح المقام بذلك هو كل المؤثرات خارج النص، التي تشارك في إنتاجه، كما تشارك في استقباله وفهمه[2]، بمعنى أن المقام التواصلي فيه جوانب ثلاثة، مقام المتكلم ومقام المتلقي، ومقام مشترك بينهما، وهذه المحاور الثلاثة تعمل بشكل متداخل جدا، في اتجاه واحد[3].

والأمر نفسه بالنسبة لمقام الخطاب أو الرسالة، هو الآخر يمر بمراحل ثلاث، مقام قبل الخطاب، ومقام بعد الخطاب، ومقام أثناء الخطاب، حيث إن كل مرحلة منها ضرورية للفهم الجيد للخطاب، وإن جُهِلَتْ مرحلة أدّى ذلك إلى عرقلة فهم السامع وإدراكه، ويتعلق الأمر هاهنا بالخطاب الشفهي، أما الخطاب الكتابي فمعلوم أنه يفقد أجزاءًا من الخطاب سواء تعلق بالمتكلم أو بالقارئ أو باعتبار الرسالة ولا يبقى منه إلا ما حاول السياق اللغوي إثباته والذي لا يرقى كما يقول ابن جني: "إلى درجة المقام الحي، إذ هو عملية تعويضية لسد النقص الفاضح الذي يتركه فقد المقام التواصلي، وكذلك تسعى النصوص الأدبية إلى إحياء رغبتها في المقام التواصلي عن طريق السياق اللغوي، والأمر ذاته بالنسبة للخطابات اليومية بين الناس"[4].

- **الاتجاهات التي اهتمت بالمقام:**

بما أن المقام أساس يقوم عليه إنشاء الخطاب وفهمه على السواء، فقد اعتنت به اتجاهات كثيرة ومتنوعة قديما وحديثا، وبعد أن عرضنا إلى مفهومه عند البلاغيين العرب، وعند المحدثين نعود إلى تاريخنا القديم لحصر العلوم التي اعتنت بالمقام والمتمثلة في علوم القرآن

(1)- مدخل إلى اللسانيات التداولية،جيلالي دلاش، ص: 40
(2)- ينظر: Dictionnaire de l’analyse du discours, C. Patrick et M. Dominique, p: 135
(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 345
(4)- نفسه، ص: 346

والتفسير التي اهتمت بالمقام الذي نزل فيه الخطاب القرآني، وعلم الأصول الذي ركز على المقام الذي تنزل عليه النصوص، وعلم البلاغة الذي حدد المقامات المناسبة لفنون التعبير وأغراض القول[1]، فما مفهوم المقام عند هؤلاء العلماء؟

1. اتجاه الأصوليين:

علم الأصول هو "ما انبنت عليه معرفة الأحكام الشرعية"[2]، أي: "إدراك القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية"[3]، وبناءا على مفهوم علم الأصول راح العلماء يضعون شروطا لاستنباط الأحكام فتمثلت فيما يلي:

1) ألا يغفل المستنبط عن تفسير القرآن بالقرآن، إذ هو يفسر بعضه بعضا.
2) ألا يغفل عن السنة في تفسيره.
3) أن يعرف أسباب نزول الآيات.
4) أن يعرف النظم الاجتماعي عند العرب.

وهذه العناصر الأربعة يمكن اختصارها في كلمة المقام[4].

وللأصوليين أربع مراحل للوصول إلى مراعاة الشارع (الله) من خطابه، حيث وجهة نظر إدريس حمادي[5]:

1) ما قبل القراءة، ويتم فيها تحديد أركان التخاطب (المتكلم، السامع وما يحيط بالخطاب).
2) القراءة وفهم الخطاب، حسب مقتضيات اللسان العربي.
3) فقه مراد الشارع (الإلمام بلغة وأساليب الشارع).
4) الاهتمام بتحقيق المناط، أي إنزال النص إلى الواقع.

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 345

(2)- إحكام الفصول في أحكام الأصول، الباجي أبو الوليد، تح: عبد المجيد تركي، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1995، ج1، ص: 175

(3)- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، (محمد بن علي بن محمد ت1225هـ)، دار الفكر، دط، دت، ص: 03

(4)- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت، ص: 348

(5)- المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص: 10

إن المتتبع لهذه المراحل، يلمس أثر المقام على أكثر من صعيد، وكمثال عن ذلك ما أورده "الزحيلي" فيما يتعلق بتحقيق المناط الذي يقول عنه: "هو النظر في تحقيق العلة الثابتة بنص أو إجماع أو بأي مسلك في جزئية أو واقعة غير التي ورد فيها النص...ومثاله النظر في تحقيق الإسكار الذي هو علة تحريم الخمر في أي نبيذ آخر مصنوع من تمر أو شعير"[1]، وهذه خطوة تسبق ما يطلق عليه الأصوليين تخريج المناط، وتنقيح المناط، ليصار بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة (تحقيق المناط) وهي إسقاط النص على المقام المناسب له[2].

وتكلم الأصوليون كذلك عن باب الفتوى التي تقوم على فكرة المقام، إذ ترتبط الفتوى عندهم ارتباطا وثيقا بطبيعة كل من المفتي والمستفتي والظروف المحيطة بالمستفتي (المتلقي)، وهم لذلك وضعوا شروطا صارمة للمفتي (الملقي/المتكلم) باعتباره موقّعا عن الله تعالى، ونائبا عن أنبيائه ورسله[3]، وهذا ما يسمى عندهم بالاستصحاب، يقول الخوارزمي: "وهو أحد مدار الفتوى، فإن المفتي إذا سئل عن حادثة يطلب حكمها في الكتاب، ثم في السنة، ثم في الإجماع، ثم في القياس، فإن لم يجده فيأخذ حكمها من استصحاب الحال"[4].

وبالإضافة إلى تحقيق المناط، وباب الفتوى، هناك أيضا مبحث الناسخ والمنسوخ، ومبحث المصالح المرسلة، ومبحث العرف وهي كلها مباحث لها علاقة وثيقة بجدية العلاقة بين النص والمقام (السياق اللغوي)، ولا يتسع مقام البحث هاهنا لعرضها كلها بالتفصيل وذلك أنه يلزمها بحث مستقل.

2. المقام في مجالات الدراسات الحديثة:

يحتل المقام أو السياق المرتبة الأولى في الدراسات الحديثة، لأنه يمثل "أعظم التصورات الحديثة في اللسانيات وما قاربها من علوم"[5]، ومن هذه العلوم ما هو لساني وغير لساني، أفعال الكلام، نظريات تحليل الخطاب، والسيميائيات، وعلم النص، وأكثر هذه المجالات

---

(1)- أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986، ج1، ص: 694

(2)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 348

(3)- أدب المفتي والمستفتي، عثمان بن عبد الرحمن، دار الوفاء، المدية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص: 73

(4)-إرشاد الفحول، الشوكاني، ص: 237

(5)- النص والسياق، فان دايك، ص: 13

والاتجاهات الحديثة احتفاءًا بالمقام واعتمادا عليه، هي التداولية، يقول الدكتور خليفة بوجادي: "وتعد دراسة السياق محل اهتمام القضايا التداولية جميعا، لأن تحليل الجمل يخضع إلى السياق، وكذلك تحليل أفعال الكلام، وقوانين الخطاب ومسائل الملفوظية، والقضايا الحجاجية وغيرها، وربما يمكن القول بأن اهتمام الدرس التداولي كله ينصب في بحث مدى ارتباط النص بالسياق"(1).

ومما يؤكد هذا القول ما جاء به دايك: "إن أحد مهام النظرية التداولية هو صياغة الشروط العامة والخاصة المحددة لاستخراج كمال نجاح قوة أفعال الكلام، وينبغي أن تصاغ هذه الشروط في حدود مكونات السياق التواصلي وبنياتها"(2)، ومما عرف به السياق أيضا أنه: "علامات شكلية تكون في المحيط اللساني الفعلي..." (3)، إذ يشمل مدلول المحيط اللساني: مستخدم اللغة (المتكلم والسامع)، والحدث الذي ينجزه والنظام اللغوي المستخدم، ومواقع مستخدمي اللغة وأنظمة المعايير الاجتماعية والعادات والالتزامات...إلى غيرها من العناصر التي تحدد بنية المنطوق وتفسره(4).

وعلى هذا الأساس، فالتداولية تعنى "بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم"(5)، وبعدما كان النحو التركيبي يدرس العلاقات اللغوية وعلاقة بعضها ببعض، والدلالة تبحث في علاقة الألفاظ بمعانيها، وإذا كان من الفضل الاعتراف لأصحابه، فإن الفضل في إنشاء علاقة ثلاثية بين النحو والدلالة والتداولية يرجع إلى الفيلسوف الأمريكي "موريس" (O. Moris)، ثم إلى الإنجليزي "أوستين" (J. Austin)، والفرنسي "ديكرو" (G. Durot)(6).

(1)- في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، د. خليفة بوجادي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2008، ص: 114

(2)- النص والسياق، فان دايك، ص: 267

(3)- Dictionnaire de la linguistique, G. Moumin Quadrige, PUF, édition, 1974, p: 83

(4)- النص والسياق، فان دايك، ص: 117

(5)- في بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص: 25، 97

(6)- ينظر: نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، سحلول محمد مصطفى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2001، ص: 02

وإذا ما عدنا إلى علاقة التواصل بالتحليل التداولي للخطاب، وجدنا أن التواصل يشمل كل ما يمكن أن يصدر عن الإنسان من كلام وأقوال اتخذت مع تطوره أشكالا وأجناسا متعددة تبعا لغايات وأهداف معينة، إذ تعددت هذه الأشكال أيضا وانفرد كل واحد منها عن الآخر بمميزات (ترتبط بالهدف منها) تختلف من جنس إلى آخر حسب طبيعته، وحسب القضايا التي يطرحها والأدوات التي يستعين بها، فللشعر مثلا قضاياه وأدواته، وللقصة معاييرها وقضاياها، وللخطبة تقنياتها وتفاعلاتها مع الآخرين في مقام يستحضر عناصرها الخاصة، والشيء ذاته بالنسبة للمقالة الصحفية أو الخطاب الإشهاري أو الخطاب السياقي الذي ينبني على الحجاج باعتباره جنسا من أجناس التواصل يتميز بطبيعة المبادئ التي تحكمه والبنيات التي تحدد القضايا التداولية التي تعطيه هويته كقيمة تواصلية اجتماعية، ومن الخطابات الحجاجية نجد الخطاب العفوي (الشفهي) والخطاب المكتوب ذا اللغة المراقبة الذي يستطيع الباحث دراسته بتجلية آلياته وتقنياته وآثاره وغايته وقيمته.

ولقد شغل الخطاب بكل أنواعه المختلفة، خاصة الأدبي والاجتماعي اهتمام الدارسين اللسانيين وغير اللسانيين، متجاوزين بذلك حدود اللسانيات السويسرية عن طريق ما يعرف بتحليل الخطاب (Analyse du discours)، إذ توزعت في تحليل إشكالاته مدارس متعددة انتهت إلى إعادة النظر في المعالجة المتعلقة بالموضوع وبالأدوات الكلامية، وبينت أن الخطاب اللساني يشتمل على (ضَبَابِيَّةٍ) يَصْعُبُ نقلها مباشرة، لتنتقل بعد ذلك إلى التنظير والمساءلة في إطار التيار البنيوي، حيث اكتشفت ما يخفيه هذا الخطاب من جوانب إيديولوجية بين المتكلم والسامع[1].

أما التحليل التداولي اللساني فإنه يمثل اللسانيات المنحدرة من أعمال الفلسفة التحليلية للأفعال اللغوية (Austin, 1970, Searle 1972)، وقواعد الحوارية (Grice 1979) التي اهتمت أساسا بدراسة مختلف نماذج الأفعال اللغوية التي عرفت بالأفعال التكلمية (Illocutoires Actes) وشروط استعمالها، كما اعتنت بدراسة مختلف الوسائل اللسانية

---

[1]- إشكالات التواصل والحجاج، مقاربة تداولية معرفية، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 2000، ص: 72

التي يتوفر عليها المتكلم من أجل إيصال الفعل اللغوي، واهتمت كذلك بإشكالات مثل: هل يتحقق الفعل بوضوح (Explicitement) أو شكل ضمني (Implicetement) لدى السامع؟ هل يرتبط بحضور علامات لسانية؟ أو على العكس من ذلك هل يحدده سياق القول؟

لقد كانت هناك دراسة أساسية تهتم بتسلسل (Enchaînement) الأفعال اللغوية داخل الخطاب (Van Dijk) أي الشروط التي تحدد فقط الملاءمة (Appropriété) السياقية للأفعال اللغوية، ولكن أيضا الملاءمة التساوقية (Contextuelle) أي فعاليتها ومناسبتها[1].

وانطلاقا مما كانت تعج به الساحة الثقافية على مختلف الأصعدة العلمية وخاصة الفلسفية منها والاجتماعية ثم الأدبية، اعتبر اللجوء إلى الاستعمال والمقام كهدف يجعل العلاقات الدلالية تكشف عن لغتها في الأقوال بدل تركها قابعة في أعماق الفرد، فما يثيره القول، وما يعبر عنه المعنى هو معناه التداولي مقابل معناه التمثيلي أو الدلالي، ومن الكلام انطلقت التداولية لوصف اللغة على عكس لسانيات سوسير التي درست الجمل كما هي متماهية مع مضامينها التمثيلية[2].

وبناءا على الكلام سيكون الاهتمام باللغة من قبل المتكلمين، إذ المعنى لا يمثل بعض حالات الشيء فقط، بل يعبر أيضا عن أفكار ومشاعر معينة تحدد الغايات التي يقصدها المتكلم، ذلك أن المعنى لا يتحدد كحالة للأشياء أو صورة ذهنية، أو مضمون معرفي، وإنما يتحدد بما ينتجه من إمكانات كما في المثال التالي[3]:

❖ الكتاب غالي الثمن.

- إمكانية 1: لا تشتره
- إمكانية 2: اشتره. } السياق
- إمكانية 3: احذر

[1]- Argumentation et conversation, J. Moescler, Hatier, 1985, p: 17-20

[2]- ينظر: إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 74

[3]- نفسه

إن وصف قول ما، هو وصف لنوع الفعل الذي يتوخى القول تحقيقه (أمر، نهي، وعد، تمني، تدليل) أي كل فعل اعتقادي من شأنه أن يؤدي إلى فعل عملي مناسب وليس غريبا أن يقول "كارناب" (Carnap): "إن النحو الوصفي والدلالة تأسسا في الواقع على معارف تداولية"[1]. وقد لخص "أوستين" رأيه في دراسة اللغة باعتبارها حقيقة تخص الأشخاص المتكلمين لا دراسة اللغة في ذاتها.

ويضيف "أوستين" قائلا: "لقد درست اللغة في ذاتها بكثير من العمق، وهي اليوم ينبغي أن تدرس من أجل حقيقة أخرى هي حقيقتنا كأشخاص نتكلم"[2]، فليست اللغة سوى النظام المحصل عليه بواسطة التجريد، انطلاقا من مجموع أفعال الخطاب التي تكون نظرية التواصل، ومن كل مظاهر السلوك البشري، النظري والعلمي، أي أن مجموع أفعال الخطاب هي التي تكون بالدرجة الأولى نظرية التواصل والتي تكون مجالا تحتيا لنظرية الفعل التي لا تخرج في غالب الأحيان عن ثلاثة مرامي[3]:

1) يعد فعل التواصل تحويلا وتعديلا في الآن ذاته لعلاقة المتكلم بالسامع.
2) لا توجد وسيلة للكلام عن المعنى دون الكلام في الوقت نفسه على الهدف.
3) كل فعل تواصلي ينتج آثارا مختلفة بمجرد وجود تعبير كتابي أو شفهي[4].

وعلى هذا الاعتبار، ترى "أرمينيكو" أن: "السياق مفهوم مركزي يمتلك طابعه التداولي، ولكنا لا نعرف أين يبدأ وأين ينتهي"[5]، ولهذا السبب تعددت أنواع السياق إذ ذكروا:

1) السياق الظرفي أو الفعلي: ويشمل هوية المتخاطبين ومحيطهم زمانيا ومكانيا.
2) السياق التداولي (الموقفي): ويتضمن الغايات الممارسة خطابيا.

---

(1)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمنيكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، المغرب، د.ط، د.ت، ص: 34-35

(2)- Quand dire c'est faire, Austin (J. L) introduction, traduction et commentaire par Gile Lame, édition du Seuil, 1970, p:

(3)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 75

(4)- المقاربة التداولية، ص: 75

(5)- نفسه، ص: 48

3) السياق الاقتضائي: ويرتبط بحدس المتخاطبين.

4) السياق اللغوي (النص المساعد): هو مجموع الكلمات المجاورة التي تحدد مدلول الكلمة.

5) السياق غير اللغوي: هو مجموع الظروف الاجتماعية التي تحدد مدلول الخطابات.

6) السياق الثقافي، وكذا العاطفي... وغيرها[1].

وأهم ما عرض له الدارسون في موضوع السياق (Contexte) أنهم ميزوا بينه وبين المقام (Situation) دحضا للبس شائع عند الكثيرين، وهو أنهما بمدلول واحد، فعرفوا المقام بقولهم: " إنه مجموعة من العوامل التي يتعين على الفرد الاحتفال بها حتى يوفق في إنجاز فعله اللغوي"[2].

ومن عناصره المشاركون في التبليغ، مكان التفاعل، القول، مقاصد المتكلمين،... ويتلخص المقام في مجموعة الشروط الاجتماعية والتاريخية والعوامل غير اللسانية التي يتحدد بمقتضاها إنشاء عبارة أو عبارات في زمان ومكان ما[3]، واعتبارا من هذا المفهوم، فإن المقام يرتبط بشكل مباشر بالموضوع أو الفعل اللغوي، أو الوضع العام المرتبط بالكلام الذي إذا غيبت عناصره لا يعد كلاما.

ومن الذين يميزون بين المقام والسياق صراحة "جورج مونان" (J. Monane)، إذ يقول في معجمه: "وينبغي تمييز السياق الذي هو لساني عن المقام الذي هو الخبرة غير اللسانية، ...في المقام نشير إلى قلم على الطاولة قائلين: أعطني إياه، ونكتب مقابل ذلك: أعطني القلم الذي على الطاولة، رادين المقام الغائب إلى السياق اللساني"[4]، فعبارة (الذي على الطاولة) توضح السياق، وتغني عنها الإشارة باليد أو غيرها في المقام.

---

(1)- ينظر: معرفة اللغة، جورج يول، ترجمة: محمد فراج عبد الحافظ، نشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ت، ص: 136، وكذلك ينظر: المقاربة التداولية، ص: 48-49

(2)- مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش، ص: 40

(3)- ينظر: Dictionnaire de la linguistique, Jean Dubois, Larousse, Paris, France, 1998, p: 120

(4)- Dictionnaire de la linguistique, p: 83-84

وعلى هذا الأساس، فالسياق -إذا- ذو مفهوم لساني، أما المقام فوضعي لساني[1]، ولذلك إذا قلنا: سياق المقام (Contexte de Situation) أو سياق الموقف الاتصالي، فإن مدلوله لا يختلف عن مدلول السياق لسانيا[2]، لأن ذلك دمجا لما هو غير لساني، ويعني ذلك "المعطيات التي يشترك فيها المرسل والمتلقي حول المقام الثقافي والنفسي والمعارف الخاصة لكل منهما"[3]، ومن هنا ألفينا العلاقة بينهما علاقة تكامل، حيث يسمح المقام بإزالة الإبهام عن الجملة، ويغني المعلومات التي يعطيها لئلا تكون بحاجة إلى التعبير عنها باللغة[4].

إذن، لقد استفادت التداولية من نظرية أفعال الكلام، واعتمدت عليها، وذلك باعتناء كل من "أوستين" و"سورل" الذين اهتمَّا بالمقام اهتماما كبيرا بعدما نظرا إلى اللغة على أنها فعل تواصلي، وحدته الأساسية الفعل اللغوي وليس الجملة، إذ فرق "أوستين" بين الجملة الوصفية والجملة الإنجازية، حيث الأولى تخضع لقاعدة الصدق والكذب، بينما تخضع الثانية لمعيار النجاح والفشل، وهما مرهونان بتوفر عناصر المقام، فإن توفرت بشكل نوعي وكمي كانت الجملة ناجحة[5].

وحتى بعدما أعاد "أوستين" النظر في التقسيمات والمعايير السابقة فقد أبقى على معيار قول/إنجاز، قال إن جميع الجمل اللغوية أقوال-أفعال، أي إن هناك مستويين في كل جملة: مستوى مقالي وهو (فعل القول)، ومستوى مقامي قسمه إلى فعل إنجازي وفعل تأثيري[6]، وغير بعيد عن منهج "أوستين" ما نهجه "سورل" حين تكلم عن المقام مطلقا عليه اسم القواعد، وهي عنده نوعان: تأسيسية وضابطة، فالأولى هي القواعد المقامية الضرورية التي

---

(1)- في اللسانيات التداولية، ص: 117

(2)- ينظر:
Dictionnaire terminologique de la systématique du langue, Aune Boune et André Joly, Le harmattan, Paris, France, 1996, p: 112

(3)- ينظر: Dictionnaire de la linguistique, p: 120

(4)- ينظر: La sémantique, Christian Baylon et Paul Fabbre, éd. Fernand Nathan, France, 1978, p: 135

(5)- ينظر: آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 351

(6)- ينظر: نفسه

يفقد أو يختل المعنى حين الإخلال بها، بينما تشكل الثانية –أي القواعد الضابطة– أدبيات الفعل اللغوي، ولا يختل المعنى إذ اختلت[1].

هذا عن التداولية، وهناك أيضا اتجاهات أخرى غير لسانية اهتمت بالمقام، كعلم النفس اللغوي، وعلم الاجتماع اللغوي، إذ اهتم الأول بالمقام الذاتي للشخص المتكلم والمستقبل، وتأثير ذلك على معنى الخطاب، بينما ركز الثاني على المقام المتعلق بالمجتمع والعلاقات والعادات ومدى مساهمتها في صياغة الخطاب، وفهمه على حد سواء[2].

وأكثر الخطابات نجاحا في عملية التواصل هو ذلك الكلام الذي يدخل المتلقي في جو الخطاب حتى يصبح جزءا من المقام، وحتى يحيط به المقام من كل جهة، فيضمه إلى عناصره، فيصير معاينا ومشاركا فيه، وهذا هو فن التصوير، وهو تقنية جيدة لإنجاح عملية التواصل، وكل هذا من عمل المقام الذي اعتمادا على فنيات عرضه وإخراجه يستدرج المتلقي، وهو راغب لتلقي الخطاب، كما في القرآن الكريم، فمثلا في قصة سيدنا زكريا، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[3]،حيث تمثل المقام في السياقات التالية:

- كلما دخل عليها زكريا المحراب.
- وجد عندها رزقا.
- هنالك دعا زكريا ربه.
- وهو قائم يصلي في المحراب.

---

(1)- ينظر: الأمر والنهي في اللغة العربية، الزهري نعيمة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، دط، 1997، ص: 150

(2)- ينظر: آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص 351

(3)-سورة آل عمران، الآية: 37-38

وإن كان القرآن الكريم لا ينقل لنا المقام بكل تفصيلاته، وإنما يختار ما يناسب قصده، وهدف النص وما يناسب كذلك السياق اللفظي، وكذلك لا يفصل في أحيان كثيرة المقامات الدقيقة، لأن ذلك لا يساهم في فهم النص من جهة ويكون عبثا في الخطاب من جهة أخرى[1]، ويكشف ذلك في الأجزاء المحذوفة من السرد القصصي وسورة يوسف نموذج[2]، وكذلك قصة آدم مع إبليس في الجنة[3].

ومن هنا، فالنص بصفة عامة والنص الأدبي بصفة خاصة، من حيث علاقته بالمقام أنواع ثلاثة:

1) نوع له علاقة بالمقام التواصلي الأول وتظهر هذه العلاقة على مستوى البناء، وعلى مستوى الدلالة، إذ يحاول السياق الغوي إحضار ملامح المقام الخارجي، كما تتجه دلالته إلى الارتباط الوثيق بالواقع الأصلي للنص (شعر المناسبات النقائض نموذج على ذلك) [4].
2) نوع له علاقة بالمقام، ولكنها علاقة ضعيفة -ولا يمكن أن تكون غير موجودة لأنه لا يتصور نص خارج السياق- فهو يتميز باستقلالية خطابية عالية، من خلال تخفيفه سلاطة المقام على مستوى البناء، وعلى مستوى الدلالة، إذ يوظفه في اللحظة الراهنة، ثم يتلخص من قيوده ليدخله مقاما آخر وهكذا (الشعر الوطني والأمثال والحكم، وكل الخطابات المتعلقة بالقضايا الإنسانية...) [5].
3) نوع يجمع بين العلاقة المتينة بالمقام التواصلي الأول، وبين قابليته للاستقلال عنه، والخروج عن حدوده، وخير ما يمثل هذا النوع هو الخطاب القرآني، فهو من الوجهة التاريخية البحتة مرتبط بأسباب الترول (المقام التواصلي الحي)، ومن جهة مقاصده ولغته ودلالته متحرر منه، بدليل أنه لم يعتمد استعمال الأسماء التاريخية

(1)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 355-356
(2)- خاصة الآية 45 من سورة يوسف
(3)-سورة الأعراف، الآية: 20-23
(4)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 357
(5)- نفسه

للأماكن وللأشخاص، كما غيب التواريخ التي تمت فيها الأحداث، وبذلك أصبحت لديه القابلية على احتواء أي مقام جديد، وهذا التوفيق -باعتباره صعبا للغاية- من أهم مظاهر الإعجاز فيه، وهو من مظاهر الجودة والسمو -إن وجد- في النصوص الأدبية التي تمكن فيها أصحابها من الاقتراب من حدود النص القرآني، ولعل النموذج الأقرب إلى النوع الثالث هي تلك النصوص الأدبية التي اكتسبت طابع الإنسانية والخلود، سواء كانت بلغة الشرق أو بلغة الغرب، إذ مثل هذه النصوص يتخطى حدود اللغة، كما تخطى حدود المكان والزمان[1]، ذلك "بفضل المميزات الخاصة التي تجعلها تنفلت من الإطار المرجعي، فتصبح قادرة على تجاوز ظرفية الزمانية والمكانية، لتكتسب القدرة على مخاطبة قراء متنوعي الثقافات والنزعات"[2].

وتختلف المعاملة مع هذه الأنواع من النصوص كل بحسب ميزته، فالنص التاريخي (المقام الثابت) يتعامل معه المتلقي من خلال المعطيات الحقيقية للمقام الأول الذي أحاط به، فيفسره في ضوء الظروف الاجتماعية والسياسية الثقافية التي قيل فيها[3]:

نص تاريخي ←——— مقام ثابت ←——— معنى مغلق

ويتعامل مستقبل النص المتحرر من المقام معه انطلاقا من اللحظة الراهنة أو الظروف الآنية: نص متحرر ←——— مقام متجدد ←——— معنى مفتوح

أما النص التاريخي فيتعامل معه المخاطب انطلاقا من نوعي المقام:

- انطلاقا من المقام التواصلي الأول (المقام التاريخي، الثابت، سبب النزول).
- وانطلاقا من المقام التواصلي الثاني (المقام التاريخي، المتجدد، التناسب).

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 357

(2)- نظريات قراءة النص، لمياء باعشين، ص: 115

(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 357

بحيث يعطي في كل موضع لكل مقام حقه، ففي بعض المواضع يقدم توظيف المقام التاريخي على المقام الآتي، وفي مواضع أخرى يقدم توظيف المقام المتجدد (مقام المخاطب) على المقام التاريخي، وهنا يكمن اختلاف العلماء والدارسين قديما وحديثا[1].

ففي القديم طرح الأمر على شكل سؤال عند الأصوليين: هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ وقد ذهب الجمهور إلى الأول[2]، وقد بين ابن تيمية الإجابة عن هذا السؤال بشكل دقيق، حيث قال: "قد يجيء كثير من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا لاسيما إذا كان المذكور شخصا، كقولهم آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس، وأن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله وأن قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ نزلت في بني قريضة، وبني النضير، ونظائر ذلك كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه؟ فلم يقل أحد أن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال أنها تختص بنوع ذلك الشخص"[3]، وقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم، كما ثبت عن العلماء والمفسرين استعمالهم لآيات القرآن في مقاماتهم الآتية، وهذه شهادة منهم بعموم اللفظ (المقام المفتوح المتجدد)، مع العلم أن هذا الإسقاط يحتاج إلى مؤهلات خاصة (العلم بالنص، ومقاصده، وعلل الأحكام، وفقه الواقع والحكمة...) [4].

وخلاصة هذا الفصل أن أهم ما يميز الدرس اللغوي العربي القديم أنه يقوم على دراسة اللغة أثناء الاستعمال منذ بدايته ومثال ذلك ما يذكره السيوطي في اللغة من أنها تؤخذ استعمالا لا قاعدة، وهو لذلك جعل مخرج كتابه (الاقتراح في علم أصول النحو) هو ما

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 358

(2)- ينظر: الإتقان، السيوطي، ج1، ص: 95، والزركشي، البرهان، ج1، ص: 32

(3)- الإتقان، السيوطي، ج01، ص: 97، والآية 49 من سورة المائدة

(4)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 358

نطقت به العرب بعده الأصل في كل ظاهرة، يقول: "إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه"[1].

وإذا ما نظرنا إلى علوم تراثنا العربي من نحو، وبلاغة، ونقد وأصول، وتفسير وقراءات، يعدها وحدة متكاملة في دراسة اللغة، يمكن أن نميز من اتجاهاتها ما يهتم بوجه استعمال اللغة، وما يتصل بها من قرائن غير لفظية، نحو منزلة المتكلم وعلاقته بالسامع، وحالة كل منهما النفسية والاجتماعية والأدائية (حركة، صمت، ظروف التواصل، الزمانية والمكانية...)أي كل ما يتعلق بالمقام.

وتأسيسا على المفهوم العام لـــ"Pragmatique" في الدرس اللساني الغربي الحديث، وهو دراسة اللغة حال الاستعمال، أي حينما تكون متداولة بين مستخدميها، اختار "طه عبد الرحمن" مصطلح "التداوليات" مقابلا لـــ"Pragmatique" إذ يقول: "وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح "التداوليات" مقابلا للمصطلح العربي (براغماتيقا)، لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيين "الاستعمال والتفاعل" معا، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذي أخذوا يدرجونه في أبحاثهم"[2]، وانطلاقا من هذا القول، يحدد المعنى الاصطلاحي "للتداول" قائلا: "هو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس خاصتهم"[3].

ومن هنا يمكننا أن نخلص إلى أن أشكال الاهتمام بدراسة الخطاب الإقناع قد تعددت عند كل من القدامى والمحدثين، إذ تناولوا دراسة نص الخطاب في ذاته ودرسوا كل ما يرتبط بالمخاطب وطريقة أدائه، والمخاطب وطريقة تلقيه، ومطابقة الخطاب لمقتضى الظاهر ومخالفته إلى غير ذلك من المسائل التي يمكن أن يجمعها موضوع التداولية.

(1)- الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص: 116

(2)- ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2007، ص: 244

(3)- نفسه

وبعد هذه الدراسة التي نتمنى أن تكون قد أعانت المتلقي على فهم التواصل، ووضحت له -ولو بالقدر القليل- أهمية كل عنصر في العملية التواصلية، نستطيع الانتقال إلى كشف الحجب عن تقنيات التبليغ أو كما يسميها بعض الباحثين آليات التبليغ أو طرائق وسبل التبليغ حسب ما تعنيه لفظة التقنية.

الفصل الثاني:

تقنيات التبليغ اللساني

المبحث الأول: التقنيات/الآليات الحجاجية-الاستدلالية

المبحث الثاني: الحجاج في الدرس النحوي العربي

المبحث الثالث: تقنيات التبليغ اللسانية-البلاغية

توطئة:

قبل التعرض إلى تقنيات التبليغ اللساني، لابد أولا من الإطلاع على مفهوم التقنية.

ماهية التقنية:

أ. **إن مفهوم التقنية في اللغة:** يعني الأصول والأساليب والطرق المختصة بفن أو علم أو مهنة أو حرفة[1]، يستخلص من هذا المفهوم أنها تعني الأصل والأساس الذي يقوم عليه كل علم أو فن، وتعني أيضا الطريقة المختصة والمتخصصة.

ب. **أما من الناحية الاصطلاحية:** فيكثر استعمال التقنية في موضوعات التعليم ومجالاته، ومستوياته المختلفة والمتنوعة، لتنوع المواد المدرسة وطريقة التدريس وأهدافه[2].

ويعتبر الإصغاء الجيد، تقنية هامة لأجل تحليل الرسالة الصوتية المحولة عبر أعضاء الجهاز السمعي والمنقولة إلى الدماغ، فالسماع الخاطئ ينتج عنه تحليل خاطئ، وفهم العبارات والتراكيب أمر ضروري، ينبغي المرور به، حتى يتم التحليل الصحيح للرسالة، مع استخدام بعض الإشارات إن لزم الأمر ذلك[3].

كما أن هناك أيضا الخبرة الزمانية التي تلعب دورا مهما في عملية التحليل التي يقوم بها السامع، وهي تقنية يجب مراعاتها وتقديرها وذلك أن استقبال الرسالة أو الخطاب يتطلب وقتا معينا، وبين تحويلها وفهمها واستيعابها والتفاعل معها وقت تجب مراعاته، لذلك فإن الاستعجال في استجابة المتلقي مُحَذَّرٌ منه، والعلة في ذلك أن الإنصات والتفكير يعادل أربعة أضعاف الكلام، باعتبار أن الإنصات له مدى أوسع وأكبر من الكلام[4].

وعلى هذا الأساس، وجدنا أن نظرية التواصل اللساني تنطلق أساسا من معرفة كيف يتم التواصل أكثر من معرفة ما يتم إيصاله، ومن أجل ذلك فهي تفتح بابا مهما لمعرفة

---

(1)- الرائد: المعجم اللغوي الأحدث، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط8، ص: 372

(2)- السمعيات العربية في الأصوات اللغوية، د. سعاد بسناسي، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، الجزائر، 2012، ص: 112

(3)- نفسه

(4)- نفسه

الطرائق والآليات والتقنيات التي تتم بها صياغة الأقوال، ومن ثم فهي تطل على الكيفية التي يشتغل بها الذهن البشري لترتيب الأفكار، والتعبير بها عن المشاعر والمعتقدات، والتأثير بها في الآخرين، وإذا كانت هذه الوظائف في غالبها ترتبط بالمعنى الضمني (أو غير المباشر) وليس بالمعنى الحرفي (المباشر) الذي هو مجال النظريات التواصلية العلمية (الآلية)، فإن النظريات المعاصرة انفتحت على معطيات تجاوزت النقل الحرفي إلى البحث في الخلفيات المعرفية والسياقية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين، وهي معطيات تداولية تؤثث الفضاء التواصلي العام بمختلف العوامل، المعرفية والسياقية والنفسية والاعتقادية.

ومن هنا فإن التداولية بصفة عامة هي المعرفة الشاملة بالآخر، والمعرفة العميقة بمكنونات عمليات التخاطب، أو هي كما يحددها فكوني: جزء من العلم المعرفي باعتباره المستوى الوسيط بين العالم الحقيقي أو الفيزيائي وعالم اللغة، وهما عالمان لا يرتبطان بشكل ميكانيكي، وإنما تعمل اللغة على تجسيد سيرورة البناء المعرفي الواسع للعالم، كما أن هذه السيرورة لا تعكس العبارات التي ينشئها الإنسان، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر قضاياه صورة للتعبير اللغوي، وإنما تنحو في اتجاه تنظيم الميكانيزمات التي تشتغل وفقها الأنظمة السيكولوجية والذهنية، فاللغة باعتبارها ميكانيزما سيكولوجيا تتقاسمه آليات ذهنية متنوعة (تركيب، استنباط، مجاز، معجم،...) تشتغل وفق عمليات تفكيكية واستنتاجية، وهي عمليات أصبحت تعالج اليوم في إطار تداولي داخل النظرية الحجاجية، بعدما كانت تدرس وتحلل داخل النظام التواصلي الذي تحكمه قواعد النقل[1].

إن التواصل قبل أن يكون حركة نحو الآخر، فهو حالة ذاتية تنشأ من توفر مجموعة من العوامل، نذكر منها[2]:

- التحرر النفسي للفرد من الأوهام التي قد تغرس في نفسه الشعور بالضعف أو الوهن أو الخوف.

(1)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 14

(2)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 164

- النظرة إلى الآخر على أنه مساو أو مماثل مادام يلتبس بخاصية الإنسانية، بغض النظر عن الدرجة الاجتماعية أو المؤهل العلمي أو المالي.
- طبيعة الوظيفة المنوطة إليه.

وبتوفير هذه العوامل ينشأ عند الإنسان الاستعداد للتواصل، بل يصبح ينظر إلى التواصل على أنه حتمية، وأساس لا تقوم الحياة إلا به، وتساوقا مع ذلك فإن الفرد سيمد علاقاته مع غيره، ولكن هذه الدرجة من التواصل -رغم أهميتها- لا تكفي لبناء حياة متوازنة تُؤَدَّى فيها الوظيفة الأساسية للإنسان في هذا العالم، ومن أجل ذلك لابد من الانتقال بالتواصل إلى مستوى الجماعة اعتمادا على التواصل مع ذلك، وبهذا سيصبح التواصل سلوكا جماعيا مشتركا، سواء بين الجماعات الصغيرة (القبائل) أو الجماعات الكبيرة (الدول والأقاليم)، وهذا المستوى من التواصل كسابقه يحتاج إلى توفر مجموعة من الظروف حتى ينمى ويتطور، وحتى تقتنع الجماعات بضرورة التواصل، وذلك من خلال[1]:

1. التحرر التشريعي:

الذي يمثل حقوق الإنسان المتضمنة إسقاط كل قانون أوتشريع من شأنه أن يفرض على الجماعات الخضوع والتذلل، إذ ليس لأي مجموعة في الأرض الفضل في وضع قانون يتحكم في البشرية سوى شرع الله، ومن هنا فكل الجماعات متساوية ولا يتفاضلون إلا بالتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[2]، الأمر الذي يزيل الشعور بالفارق (غالب/مغلوب)، (قوي/ضعيف)، وبالتالي ينتج عند الجماعات الاقتناع بضرورة التواصل، والاستفادة المتبادلة، ومن ثم شعور كل تجمع باستقلاله وتميزه أمام المجتمعات الأخرى[3].

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 165
(2)- سورة الحجرات، الآية: 13
(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقسام حمام، ص: 166

2. النظرة إلى الآخر:

يذكر التاريخ أن هناك تجمعات كثيرة عانت من نظرة الاستعلاء، والسعي إلى إذلال الآخر معتمدة في ذلك بعض المقاييس التي تخول لها التمييز الظالم عن غيرها، كاعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار، وكنظرة الإغريق واليونان وكذا الأوربيين بأن لهم السبق في اكتشاف كل العلوم، أما في الجزيرة العربية، فقد كان الفرد يذوب في الجماعة التي ينتمي إليها ولا سلطان له، بل هو مسير من قبل أحكام القبيلة، فنشأت بذلك مجتمعات قوية، وأخرى ضعيفة بل ومقتنعة بضعفها، ومن مقاييس التفرق ما يلي[1]:

أ. **العامل العرقي**: إذ كانت هناك قبائل رفيعة النسب وأخرى وضيعة.

ب. **العامل الديني**: حيث توفر لدى بعض الجماعات الثقافة الدينية، وذلك باعتبارها صاحبة كتاب كاليهود، والنازلين في يثرب وتعاملهم مع الأوس والخزرج.

ولولا نزول القرآن الكريم وتحطيمه لتلك المعتقدات، لظلت المجتمعات الإنسانية في تناحر وصراع إلى يومنا هذا، فبالقرآن انصهرت تلك القبائل تحت لواء واحد، حتى أصبحت الجماعات تتلاقي وتتفاخر بالدخول إلى الدين الجديد، وذلك أن القرآن جاء للعالمين، وليس لفرد أو جماعة الحق في احتكار هذا الدين، أو الإدعاء بالاختصاص به.

وبعدما تآزرت القبائل والجماعات، وتكاتفت البطون وتكوّنت الجيوش، أصبح التعاون بينهم سبيلا إلى التواصل الاجتماعي، فقامت الدول والحضارات، وانتشرت تعاليم القرآن الكريم، وتوسعت المجالات العلمية، وكان طريق ذلك في بادئ الأمر السلوك والتجارة والحوار الذي كان من شأنه دفع الفرد إلى الانخراط مع الآخر في تعامل مثمر وبناء، وبالتالي دفع المجتمعات إلى الاحتكاك وتبادل الخبرات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ليس كل خطاب بإمكانه أن ينجح في مد جسور التواصل مع القارئ أو السامع، ولا بقادر على المحافظة على استمراريته، أو قادر على تعميقه بشكل دائم ومتجدد إلا إذا كان هذا الخطاب دينيا أو تعليميا أو ذا غايات إنسانية.

[1]- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 166

ومعلوم أن سلم التواصل يتضمن أربع تواصلات:

1) التواصل مع الذات أي الإنسان مع نفسه، لأنها "العجيبة الكبرى في هذه الأرض"[(1)].

2) التواصل مع الكون (التأمل والتدبر في الكون).

3) تواصل الإنسان مع خالقه.

4) تواصل الإنسان مع الإنسان أي التواصل الاجتماعي.

ويهمنا في بحثنا التواصل الرابع الذي يقوم بين أفراد المجتمع الذين خلقوا لغايات تستلزم وجودهم على وجه هذه المعمورة، ومن أهم هذه الغايات: التعارف الذي دعا الله إليه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[(2)]، وهذا التعارف هو نفسه التواصل الاجتماعي الذي يجري بين أفراد المجتمع، بل تعدى ذلك إلى كل المجتمعات البشرية، إذ تتواصل هذه المجتمعات وتتحاور حتى يعرف بعضها بعضا، وتنشأ القابلية للأخذ والعطاء، فيؤدي ذلك التعارف بدوره إلى تعميق التواصل ونقله من مستوى إلى مستوى أرفع، وهكذا كلما ازداد التعارف تجذَّر السلوك التواصلي بين المجتمعات، وكأن البشرية ما وجدت إلا من أجل التعارف، هذا التعارف الذي زادت حدته ودرجته بفضل الوسائل التكنولوجية الحديثة للاتصال، إذ أصبح لا معنى لاختلاف الألسنة، والألوان والطباع، والأخلاق إلا لتحقيق التنوع والثراء الذي يؤدي إلى النتيجة المرجوة، وهي إقامة التواصل بكل أنواعه وعلى أوسع نطاق، وبفضل التعارف والتواصل والتكامل قل التناحر والخصام بين الحضارات إلا ما نراه من الفتن الحالية في بعض المجتمعات العربية وغيرها.

وإذا كان عصرنا الحالي يمثل نموذجا صادقا لأقوى وأغنى صور التناحر والمواجهات الحضارية، فإننا نسمع في كل حين أصواتًا تدعو إلى حوار الحضارات، وتقارب الأديان أو تعايشها، وحوار الشمال والجنوب، وما إلى ذلك، لا لشيء إلا لأن الجميع أصبح يدرك تماما قيمة وضرورة الحوار والتواصل الذين يوفرا الاستقرار للبشرية جمعاء[(3)].

---

(1)- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط11، 1985، م6، ص: 3379

(2)-سورة الحجرات، الآية: 13

(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 170

وبفضل التعارف والاختلاف والتنوع "يتبادل البشر نتائج معرفية، ويستوعبون التجربة المكدسة عند الآخرين... ويؤدي التواصل دوره الخاص في العملية الاجتماعية للمعرفة سواء على المستوى العلمي-النظري أو على المستوى العلمي-التجريبي"(1).

وتساوقا مع ما سبق ذكره، فإن الخطاب -أي خطاب- لا يحقق التواصل مع القارئ، إلا إذا أفلح في دخول عالم القارئ/السامع أو إدخال هذا السامع إلى عالمه، ومن ثم يقف الطرفان في مقام واحد ويشعران بالاشتراك في ذلك المقام، بدون وجود مسافة أفقية أو عمودية تفصلهما حين ذاك، وحين ذاك فقط، يستجيب القارئ/السامع ويدخل في عملية التواصل ويزداد معهما اندماجا كلما ازداد استدراج النص/الخطاب له أو نفوذ النص/الخطاب إليه(2).

وبعد هذا التقديم أصبح لازما عرض تقنيات التبليغ التي بناءا على ما جاء في الدراسات القديمة والحديثة التي تناولت التواصل بالدراسة والتحليل، فإنها توزع إلى مجموعة من الآليات والإجراءات والتقنيات التي لا يتم نجاح التواصل إلا بها.

المبحث الأول: التقنيات/الآليات الحجاجية-الاستدلالية

1. توطئة:

لا أحد يجادل في أننا نعيش عصر التواصل والحجاج، في عالم مشرع على أصناف الدعاوى والحجج، "بحيث غدت الحجة والمعلومة عصب حياة المجتمعات المعاصرة في مجالات الإشهار، والدعاية، والقضاء، والسينما، والبيداغوجيا، والإيديولوجيا، والسيكولوجيا، واللائحة طويلة تصل إلى تواصل العامة، بل إن التواصل الإنساني جملة قائم على الحجاج إلى حد أن المرء ليسلم بأنه "لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج من غير تواصل"(3).

(1)- الإنسان نشاط وتواصل، لودميلا بويفا، ترجمة: زياد الملا، دار دمشق للطباعة، ط1، 1983، ص: 66

(2)- آليات التواصل في الخطب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 175

(3)- الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عبد النبي ذاكر، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 02، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2011، ص: 07، وينظر كذلك: حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010، ص: 108

ولئن شهدت الدراسات الحجاجية الغربية إطراءا متواصلا بحكم الأجواء الديمقراطية التي أفسدتها، فإن نظيرتها العربية لا تزال غريبة وفي حكم النادرة، علما بأن المناولة الحجاجية لا تخلو من فاعلية في هتك أسرار الخطاب، واستجلاء خباياه، وترسيخ قيم الحوار والإقناع واحترام الاختلاف، بل وأكثر من ذلك، إذ يمكن القول بأن هذا المجال المعرفي المتصل بالحجاج لا يشكل جانبا من معرفة الحاضر، بل سيكون جانبا من جوانب معرفة المستقبل أيضا[1].

2. اللغة والحجاج:

يقول الدكتور محمد الولي[*]: "إذا كان من المخجل ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالقوة العضلية، فإنه من العبث ألا يتمكن من الدفاع عن نفسه بالكلمة، إذ بها لا بالقوة العضلية يتميز الإنسان"[2]، وعلى هذا الأساس، فالحجاج هو توجيه خطاب إلى متلق ما، لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة[3].

فمن خلال التجارب اليومية وقف الإنسان على مجموعة من العلاقات بفضل التقنيات التبليغية التي يستعملها، والتي تمس حقولا معرفية متنوعة: نفسية وثقافية واجتماعية وسياسية وعلمية، كانت وراء استخلاص قواعد تَهُمُّ كل المجالات التي تدخل في النشاط الإنساني، انطلاقا من اللغة التي يستعملها والتي تعينهعلى بلورة تلك القواعد، حتى يتسنَّى له استعمالها في مجالات أخرى، إلى درجة أن بعض الدارسين اعتبروا القواعد الصورية والطبيعية مستمدة من اللغة[4]، بحيث تجسد اللغة هذا التفاعل الحاصل بين قدرات الإنسان وعناصر الطبيعة وكياناتها.

---

(1)- الحجاج، مفهومه ومجالاته، عبد النبي ذاكر، ص: 07

(*)- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، المغرب

(2)- مدخل إلى الحجاج، (أفلاطون وأرسطو وشايم بريلمان)، د. محمد الولي، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 02، ص: 11

(3)- مدخل إلى الحجاج، د. محمد الولي، ص: 11

(4)- ينظر: Logique et connaissance scientifique, p: 381

وإذا صَحَّ أن اللغة هي مادة الحجاج، صَحَّ معها أن الفكر هو الآلة التي تقوم بتحديد المبادئ والقواعد داخل أنساق تصورية، تعبر عن العلاقات التي تنظم تلك المبادئ والقواعد، كما نجدها في تحليل الخطاب[1].

ومن هنا ألفينا أن اللغة هي بدورها تطرح إحراجات التعريف، وذلك أن هناك اللغة الشفهية، ولغة الصم-البكم، واللغة الإشارية الميمية (Kinésique)، ولغة إشارات المرور، واللغة النبرية الصوتية (Prosodique)، كما أن هناك من يتحدث عن لغة الوجه وأوضاع الجسد في فضاء ما، وزمن ما (Proxémique)[2]، يقول إدوارد ت.هال: "الزمن يتكلم، إنه يتكلم بطريقة أبسط من كلمات الرسالة التي يحملها يتم توصيلها بصوت مرتفع وواضح، فلأنه يستعمل بطريقة أقل وعيا، لا يتعرض للتشويه كما يحصل مع اللغة المنطوقة، إنه قادر على الصدع بالحقيقة، في حين أن الكلمات تكذب"[3].

ولندع هذه التصورات ونقتصر على اللغة الإنسانية المنطوقة، وذلك أنها تقبل التدوين الكتابي والتسجيل، ولأن اللغة هي الصفة التي يتميز بها الإنسان عن أرقى العجماوات، إذ "الحيوانات لا تتحدث إلا في الحكايات العجائبية، ولهذا تمكن الإنسان منذ بدأ يستعمل اللغة من تدجين الحيوانات، في حين ظلت الحيوانات غير قادرة على تدجين الإنسان"[4].

وبناءا عليه اعتبرت اللغة أول أعظم الابتكارات التي تنطوي على أَجِنَّة كل الابتكارات اللاحقة، إنها -أي اللغة- تمثل أداة اقتصادية للتحكم في الأشياء والكائنات، وقد تكون الكلمة أشَدَّ فعاليةً وأفضل أداة أو سلاحا لأجل امتلاك الواقع[5].

---

(1)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 113

(2)-مدخل إلى الحجاج، د. محمد الولي، ص: 11

(3)- Le langage silencieux, Edward. T. Hall, éd. Seuil, Paris, 1984, p: 18

(4)-مدخل إلى الحجاج، د. عبد السلام عشير، ص: 11-12

(5)- نفسه، ص: 12

إن محاولة التحكم أو التأثير في الإنسان بواسطة اللغة هو ما يدعى بالحجاج، وحينما ينصب هذا التأثير اللغوي على الطبيعة والأشياء فإنه يختص بتسمية أخرى، وقد تكون هي العمل أو التقنية أو العلم، كما أن التأثير في الإنسان بأداة أخرى غير اللغة ليس حجاجا[1].

ولقد سبق الذكر أن الممارسة الكلامية تقتضي المتكلم والمخاطب وموضوع الكلام، وأشرنا كذلك إلى أنَّ الباث والمتلقي متجذران في الخطاب، وبما أنَّ هناك قصد تغيير رأي المتلقي، وهو الأمر الأساس في أي مسعى تواصلي حجاجي، وبما أن هذا المسعى التغييري لرأي المخاطَب يصدر بالضرورة عن متكلم أو باثٍّ، فإن أي خطاب حجاجي يتجذر فيه هذان العنصران، إذ المتكلم يراعي استعداد السامع لقبول ما يلقى إليه من حجج، وهي الحجج التي ينبغي بالضرورة أن تنطوي على عناصر مقبولة، وهذا الاعتبار في الخطاب العلمي لا يقام له أي وزن، إذ لا أحَدَ ينتظر موافقة مخاطَبٍ ما على كون زوايا المربع متساوية وذات 90 درجة، إذن فطرفا الخطاب ينخرطان في التواصل الحجاجي محملين بكل انفعالاتهما ونوازعهما واعتقاداتهما وإيديولوجياتهما وثقافتهما وكفاءاتها العلمية وغير العلمية، إن كلاًَ من المتكلم والسامع متأهبان دائما لاستنفار كل هذه المكنونات، وذلك من أجل تشغيلها جزئيا أو كليا في العملية التواصلية، والواقع أن هذه التعبئة أو الاستنفار لا يمكن تفاديه إِذِ الملكات والاستعدادات قد تتنافر بين الباث والمتلقي، وهي الملكات والاستعدادات التي تحدد في النهاية ملامح المعنى المنسوب إلى الرسالة[2].

وننبه هنا إلى أن اللغة التي نتوسّل بها في الحجاج هي من جنس اللغة الطبيعية التي طهرت من الشوائب، ولقحت لجعلها جديرة بأن تكون موضع اتفاق بين المتخاطبين، فلا تحمل إلا ما اتفقت عليه الأطراف المتواصلة.

وإذا كنا قد ركزنا في هذا الباب على الحجاج، معتبرين أن دراسة الحجاج في الخطاب هي شأن التداولية، فإن لهذا التركيز ما يبرره، إذ نجد الخطاب الحجاجي يخضع ظاهريا وباطنيا

(1)- مدخل إلى الحجاج، د. عبد السلام عشير، ص: 12

(2)- نفسه، ص: 13

لقواعد وشروط القول والتلقي، ما يعني انتماء القول أو النص الحجاجي إلى مجال التداوليات التي تحاول الإجابة عن عدد من الأسئلة من قبيل[1]:

- من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟
- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟
- ما مصدر التشويش والإيضاح؟
- كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تقتضي استحضار مقاصد التخاطب وأفعال اللغة ببعديها المقالي والمقامي التداولي، ثم إننا نجد أن الخطاب الحجاجي يرتبط بالبعد التداولي على عدة مستويات، ذلك أن الحجاج يعتبر ظاهرة متجسدة وبعدا ملازما لكل خطاب، إذ به يتحقق، وعلى هذا الاعتبار نجده متلبسا بألبسة لسانية وأسلوبية بغية رصد الصور الأسلوبية أو الصور البنائية الاستدلالية وذلك أن الباحث في الحجاج يجد نفسه مبدئيا يصدر أفعالاً كلامية مقالية ومقامية مشتركة بين المتكلم والسامع[2].

وتعود أهمية الحجاج في الدراسات المعاصرة إلى العودة القوية للبلاغة تحت تسمية "البلاغة الجديدة" حيث ركزت على جانبين هما: "البيان والحجاج" كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع، ولعل في اختلاف مستويات التلقي ما يؤكد هذه الصفة الحجاجية للخطاب البلاغي، وذلك يجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصيغ اللغوية، على اعتبار أن هذه الصيغ هي أفعال كلام تمارس وظيفة التأثير من خلال قوتها الكلامية التي تتجلى بدورها من خلال طرائق منطقية في البناء وترابط العلاقات الاستدلالية التي يمثل الحجاج أبرز مظاهرها[3].

لقد صار الحجاج في الدراسات اللغوية والبلاغية الحديثة أوسع مجالا، إذ لا يقتصر دوره على التوظيف الانتقائي باعتباره عنصرا خارجيا ثانويا يوظف فقط في مواقف تواصلية

---

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، مجلة عالم الفكر، م40، العدد 02، ص: 68

(2)- نفسه، ص: 68-69

(3)- نفسه، ص: 69

معينة، بل تحول مع تيار التداولية المدمجة في الدراسات اللسانية إلى عنصر كامن في اللغة، إن من حيث بنيته أو من حيث وظيفته، وبذلك أصبح الحجاج فعلا كلاميا تجب دراسته في نطاق دراسة اللغة لا في البحث عما هو واقع خارجها، وهذا ما يدعو إلى اعتبار اللغة مسرحا للمحاورة والتحاج بين الذوات المتواصلة، إذ تنحصر وظيفة اللغة في دلالة الأقوال على التوجيهات الحجاجية الناتجة عنها[1].

إن هذا التغيير الجوهري الذي طرأ على مفهوم الحجاج هو الذي جعلنا نسمح لأنفسنا بمحاولة إدراجه ضمن تقنيات التبليغ أو ما يسمى بآليات التواصل اللغوي.

3. مفهوم الحجة أو الحجاج:

أ. الحجة (Argument preuve):

بالضم مرادف "للدليل، والحجة الإلزامية هي المركبة من المقدمات المسلمة عند الخصم، المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته"[2]، ولا يخلو خطاب أو نص منها، إذ نجدها في التواصل العادي، كما نجدها في التواصل النوعي، كما نجدها في الجدل والحجاج، وهي تنصبغ عادة بنوع الخطاب الذي تأتي فيه، فإن كانالخطاب لغويًّا عاديًّا، فإنها تكون حجة لغوية محضة، وإن كان الخطاب لغويا راقيا، تكون الحجة لغوية بلاغية، وإن كان الخطاب منطقيا، فإن الحجة تكون عقلية صرفة، وهكذا، والأساس في كل ذلك أن الحجة لا يخلو منها خطاب[3].

ونشير إلى أن كل حجاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يكتنفه، ولا غرو والحال هذه أن نجد حجاجا خطابيا (لسانيا)، وحجاجا خطابيا (بلاغيا)، وآخر قضائيا، وغيره سياسيا، وآخر فلسفيا وما إلى

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 68

(2)- نفسه، ص: 69

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 182

ذلك، وتبعا لذلك يصبح الحجاج -عمليا- بعدا من أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة والمنطوقة(1).

والذي يهمنا في هذا المقام هو الحجاج اللساني البلاغي، الذي يخضع في بنائه وترتيبه لقواعد اللغة العربية بنحوها وبلاغتها واشتقاقها ويتميز بـــ:

- اشتراطه لرغبتين هما: إرادة المتكلم... وإرادة المتلقي.
- خضوع حججه للتراتبية: القوة، الضعف، البدء، الختم، الإبطال الإثبات...الخ.
- اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإمتاعي، أو الجمع بين البيان والبديع، أي الإفهام والإمتاع.
- عدم قابليته للقولبة والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية(2).

والهدف الأساس لكل خطاب بالحجة، هو الوصول إلى إقناع السامع بفكرة معينة، كان قد أخذ منها موقف الرافض أو المتشكك، ومن ثم فهو يتم أولا بإبطال الفكرة المراد نقضها والتي تكون هي المسيطرة على ذهن المتلقي، ثم إحلال مكانها الفكرة التي جيء بالحجة من أجل إثباتها، وعليه نجد كل الذين تعرضوا لتعريف الحجة أو الحجاج، راعوا هذه النقطة المهمة في تعاريفهم، فهم يقولون مثلا: "الحجاج خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي، والتأثير على سلوكه أي الإقناع"(3).

ولقد جعل طه عبد الرحمن الحجاج، انطلاقا من بعده التحاوري، ثلاثة نماذج وهي: النموذج الوصلي، والنموذج الإيصالي، والنموذج الاتصالي.

فالنموذج الأول وهو الوصلي، فإنه يعتمد على الحجاج ذاته، دون اعتبار المقام التواصلي، بمعنى أنه يغفل عنصري المتكلم السامع.

(1)- ينظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، مجلد 30، العدد 01، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت، 2001، ص: 98

(2)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، ص: 110

(3)- البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، دط، 2000، ص: 07

وأما النموذج الإيصالي للحجاج، فهو ذلكالنموذج الذي يركز على المتكلم ووظيفته في العملية الخطابية، دون مراعاة للسامع، وهذا من جراء استناده إلى نظرية الأفعال اللغوية، والتي بدورها تتمركز حول الذات المتكلمة.

أما النموذج الثالث وهو الاتصالي، فهو الذي يستحضر ركني العملية الاتصالية: المتكلم والسامع في جو من التفاعل والممارسة الخطابية في مقام حي[1]، والذي يبدو من خلال ما جاء به طه عبد الرحمن أن هناك نموذجا رابعا يمكن أن نضيفه إلى الثلاثة السابقة، وهو النموذج التواصليالذي يراعى فيه ركنا العملية التواصلية، وهما يؤديان وظيفة التواصل لا الاتصال، والفرق بين التواصل والاتصال هو الذي جعلني اقترح هذا النموذج الرابع، إذ نموذج الاتصال في حقيقته يركز على المتكلم بالدرجة الأولى، ودون تغييب السامع، ولكن حضور السامع في هذا النموذج هو إنجاح وتأكيد لحضور المتكلم، أما في النموذج التواصلي فإنه يتم استحضار الركنين بشيء من الاستقلالية، حيث ننظر إلى السامع -كما هو الحال مع المتكلم-على أنه قطب مساو للمتكلم من حيث استقباله للحجة، ومناقشتها واستعمالها إن اقتضى المقام ذلك[2].

ومهما يكن من أمر فإن النموذج الثالث (الاتصالي) وكذا النموذج (التواصلي) هما اللذان يصلحان فقط لدراسة التبليغ اللساني بين المتخاطبين.

ولكي لا يلتبس علينا مفهوم الحجة والحجاج، فالحجة تجمع على حجج وحجاج، أي أنها من الأصل نفسه، ولها معنى الدليل نفسه، ويكمن معنى الحجة في القصد والظفر وغلبة الخصم، في حين يقوم الحجاج على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع الذين يفترض فيهما أن يتحاجَّا في أمر يستلزم دليلا أو حجة له أو عليه[3]، فهو بذلك "كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[4].

(1)- ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ص: 271

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 183

(3)- الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 74

(4)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، ص: 226

إذن، فالحجاج يؤطره التفاعل، حتى إنَّ ما سواه من مظاهر التفاعل، إنْ تبادلاً للتأثير أو تناقلا للتغيير أو ترابطا وظيفيا، أو حتى تجاوبا وجدانيا تبدو هذه المظاهر موضوعة على قانونه ومفهومه على مقتضاه، وباعتبار الخطاب وسيلة يتحقق بها التخاطب، فإنه لا يقدم بصورة واحدة، بل يكون بطرق مختلفة ويتلون بصور ووجوه متنوعة، ومن ثم جاءت أقسام الحجة على هذا النحو الأساس[1].

1) **البصر بالحجة:** وهي حسن التدبير والتقاط المناسبة، بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى، حتى يسد المتكلم السبيل على السامع، فلا يجد منفذا إلى استضعاف الحجة والخروج عن دائرة فعلها، وربما نقضها بما يخالفها أو يُبَايِنُهَا، ومفهوم البصر بالحجة نجده في كتب البلاغة باعتبارها فنًّا للقول، لذلك قال الجاحظ: "جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"[2].
2) **ترتيب الحجج:** وذلك بوضع كل واحدة في المكان المناسب لها، فيزيدها ذلك قوة ويُمَكِّنُ لها في ذهن المخاطب، ويأتي ذلك بالبدء بالمقدمات التي تعتمد فيها على الإشارة والاستمالة والتأثير، فالخبر الذي يتوسل تقنيات كاعتماد الوقائع التاريخية اعتمادا يكون بمثابة دعم وتطعيم للموقف الإقناعي لدى المتكلم، ثم وصولا إلى الخاتمة التي تبرز في النهاية شطارة وحذق المتكلم في الإبلاغ والإيصال، ومدى التأثير في المتلقي من خلال انفعالاته العاطفية.
3) **الأسلوب أو العبارة:** فبعد الاهتداء إلى الحجج المناسبة للمقام، وترتيبها في الذهن بما يجعل تلك الحجج مترابطة، يأتي البحث عن طريق الإخراج والقول في العملية التخاطبية، إذ يتم فيه الاعتماد على عملية الانتقاء والاختيار للألفاظ الدالة والمناسبة.

ومن هنا فالحجاج -من منظور طه عبد الرحمن- فعالية تداولية جدلية، وذلك أن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة

---

(1)- مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمود، منشورات كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، د.ط، د.ت، ص: 12

(2)- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1961، ج1، ص: 88

علمية، إنشاءًا موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدليّ، لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات الضيقة[1].

وبعودتنا إلى التحديدات القاموسية نجد أن الحجة قد استعملت مرادفة لـــ"الدليل" و"البرهان"، إذ يصحب لفظ "الحجة" ببعض التميزات الدقيقة التي تربطه بسياقه التخاطبي المتمثل في:

أ) **إفادة الرجوع أو القصد:** فالحجة بهذا التحديد هي الدليل الذي يجب الرجوع إليه للعمل به.

ب) **إفادة الغلبة:** فيكون مدلوله هو إلزام الغير بالحجة، فيصير بذلك مغلوبا[2].

ج) **الاستقامة في النظر:**يكون الحجاج على ما ذكرنا، هو النظر المستقيم في "الحجة" المؤيدة لدعوى المتكلم "وحَدُّ النظر طلب إدراك الشيء من جهة البصر أو الفكر"[3].

وعلى هذا الأساس، وجب اعتبار المميزات السياقية المتمثلة في "التخاصم" و"التنازع" و"الجدل" عمليات مأخوذة هنا بمعانيها التواصلية[4].

نشير هنا إلى أن الحجاج البلاغي قد تعدى نطاق الخطابة ليجد مكانته المنهجية في مجال العلوم والكتابة، ولكنه بقي محتفظا بخصائصه الأصلية المتمثلة في كسب تأييد المتلقي في شأن قضية ما أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي بواسطة إشباع مشاعره وفكره معا، حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب[5].

(1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص: 65

(2)- اللسان والميزان، د. طه عبد الرحمن، ص: 137

(3)- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، تح: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط4، 1997، ص: 65

(4)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، ص: 99

(5)- نفسه، ص: 110

4. تقنية الحجاج وعلاقته بالحقول المعرفية (بلاغة، تداولية، لسانيات، نحو):

أ. الحجاج في تصور البلاغيين الجدد:

اهتممُحَلِّلُو الخطاب داخل نظرية التواصل بالجانب البلاغي والجانب الخطابي بصفة عامة، لما له من حضور فعال في كل نشاط إنساني، سواء تعلق الأمر بإنتاج الفكر أو بممارسته ممارسة تتجه بالأساس إلى الآخر، وذلك أن الإنسان لا يفكر ولا يتفلسف أو يكتب أدبا أو غيره بمعزل عن العالم، إنه في تواصل مستمر وفعال مع محيطه الخارجي، وما يحتويه من مؤثرات ومحفزات وإكراهات، أو ما يطرحه من أسئلة وإشكالات وافتراضات... ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كتقنية رئيسة في تشكيل الخطاب لتحقيق تواصل مميز ومثمر بين الناس[1].

وتجدر الإشارة إلى أن البلاغة، هي قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتوسله الخطيب، أو القائل عموما، لفرض موضوعه أو رأيه أو قناعته، ولأجل كسب تأييد الآخر أو التأثير فيه، إلا أن الصور البيانية والحيل المجازية واللغوية (فن الإيصال) وحدها لا تحقق التصديق والتدليل ما لم تُدَعَّمْ بأدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقليا، وهذه الأدوات هي التي يوفرها الحجاج أو المحاجة[2].

ولا أحد ينكر أن البلاغة منذ نشأتها قد ارتبطت بالحجاج، وقد عرَّفها أرسطو –أي البلاغة– بأنها: "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"[3]، ولم يكن لهذا الارتباط أن ينشأ لولا أن البلاغة في أصلها نشأت في أحضان الخطابة، وما تتميز به من مراعاة للمقام والمتخاطبين، ومحاولة التأثير فيهم بأساليب لغوية، وتقنيات استدلالية تدفعهم إلى الاقتناع بكلام الخطيب[4].

---

(1)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 68

(2)- مقال: الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، ص: 110

(3)- المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، محمد العمري، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح، المغـرب، العدد 05، 1991، ص: 08

(4)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي، د. رضوان الرقبي، ص: 82

وعلى هذا الاعتبار، عرف "بيير أوليرون" الحجاج بأنه مسعًى يحاول به فرد أو جماعة إقناع مخاطب بتبنِّي موقف ما، وذلك بالاستعانة بتمثيلات أو دعاوى أو حجج تهدف إلى البرهنة على صحة ذلك الموقف أو شرعيته، إذ يقوم على عناصر عدة، هي تلك العناصر المنتجة للخطاب والأخرى المستقبلة، وعند الاقتضاء جمهور أو شهود، إذن فالحجاج ظاهرة اجتماعية(1)، ويُثَمِّنُ هذا القول تصور "ميشال مايير" (Michel Meyer) الذي يُعَرِّف الحجاج -عادة- بكونه جهدًا إقناعيًّا معتبرًا البعدَ الحجاجيِّ بعدًا جوهريًّا في اللغة لسعي كل خطاب إلى إقناع من يتوجه إليه(2).

وانطلاقا من البعد الإقناعي للحجاج، ومراعاةً لطبيعته التداولية التواصلية التي تستثمر كل ما قد يساعد المتلقي على الاقتناع، عرَّف طه عبد الرحمن الحجاج قائلا: "وَحَدُّهُ الحجاج، أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية إنشاءًا موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي، لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"(3).

وهكذا، فإن المُسْتَدِلَّ يثبت دعواه من خلال تقنيات استدلالية غير صورية، وهي التقنيات الحجاجية لما تَتَّسِمُ به من فعالية جدلية تبتعد عن صرامة البرهان وحسابيته الآلية، وذلك من خلال أخذها بالتفاضل والتراتب، أو بالتناقض الذي لا يخرج عن نطاق العقل الذي بسببه يحصل الإقناع، عكس البرهان الذي قد يستوي دليله ولكن ينعدم معه اقتناع المخاطب(4).

(1)- L’argumentation colle « Que sais-je » Ed PUF, Paris, 1983, p: 04

(2)- Logique, Langage et Argumentation, Michel Meyer, Hachette Université, 2ème édition, Paris, 1982, p: 136

(3)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، ص: 65

(4)- نفسه

يدرك المتأمل إذن، أن هذا التصور ينظر إلى الحجاج على أنه تقنيات بلاغية ومنطقية وهو ما يسميه ديكرو "الحجاج في مفهومه العادي"، ويعني به مجموع الترتيبات والإستراتيجيات الخطابية المستعملة من قبل متكلم بغية إقناع سامعيه، ومن هنا تتجلى الجوانب الصالحة للحجاج باعتبارها أفعالا خطابية، ولا علاقة لها مطلقا بالخصائص المتميزة للألسنة الطبيعية، هذا الاعتبار الذي وجد أرضيته في حقل الدراسات ذات الطبيعة المنطقية غير الصورية، كأعمال "شايم بيريلمان" أو الكتابات التي تبحث في منطق الخطاب الطبيعي، كأعمال "غرايز" (Jean Blaise Grize) و"بوريل" (Borel) و"مييفيل" (Miéville) و"فينيو" (Vignaux)، وحسب تصور هؤلاء الباحثين، فإن الحجاج ينهض -عادة- على ما يطلق عليه "تحليل الخطاب"[(1)].

وقديما كان مفهوم الحجاج تابعا تَبَعِيَّةً عضوية واستعمالية لمجالات وأفعال تتطلبه وتستدعيه، أما في نظرية "الحجاج" المعاصرة التي من أبرز منظريها "بيريلمان ومايير"، فقد تم التركيز على الجانب الإقناعي في البلاغة الجديدة، وذلك من أجل إدماجه في البحث التداولي المعاصر، ولذلك ألفينا "بيريلمان" يقرر حضور الحجاج في كل الخطابات الاجتماعية والسياسية والقانونية والإشهارية، بل وفي جميع أشكال المناقشات العامة، أي: إنه يغطي كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع مهما كان المتلقي ومهما كانت التقنية المتبعة وطبيعة الموضوع الذي يدور حوله النقاش[(2)].

وفي موضع آخر وجدنا "بيريلمان" وصاحبه "تيتيكا" (Titika) يعرفان الحجاج انطلاقا من موضوعه بقولهما: "موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[(3)].

[(1)]- Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Jacques Moeschler, et Anne Rebole, Seuil, France, octobre 1994, p: 88

[(2)]- Logique, Langage et Argumentation, p: 112

[(3)]- Traite de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, Pérélman (CH) et Olbracht Tytéca (L), éditions de l'université de Bruxelles, Belgique, 3ème éd. 1976, p: 05

وفي المؤلف نفسه يتحدث الباحثان عن الغاية من الحجاج، فيؤكدان أن غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج هو ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يحثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق -على الأقل- في تحفيز السامعين للاستعداد للقيام بذلك الفعل في اللحظة المناسبة(1).

ويتميز الحجاج في تصوير "بيريلمان" بملامح خمسة هي(2):

1) أن يتوجه إلى مستمع.

2) أن يعبر عنه بلغة طبيعية.

3) مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

4) لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

5) ليست نتائجه ملزمة.

ولوظائف الحجاج حدد "بيريلمان" سلما من درجات ثلاث وهي(3):

1) الإقناع الفكري الخالص.

2) الإعداد لقبول أطروحة ما.

3) الدفع إلى الفعل.

وحظي القصد والمقام باهتمام "بيريلمان" إذ اعتبرهما أساسيين لكل حجاج خطابي وذلك أن:

1. **القصد:** هو الذي يُحْسَمُ في تحديد مجال التخاطب، ويحدد طبيعة المخاطبين الذين يستهدف المتكلم التأثير فيهم باحتجاجه، وهكذا يمكن أن يتبع مجال المخاطبين

---

(1)- Traité de l’argumentation, Pérélman (ch) et Tytéca, p: 59

(2)- نفسه، ص: 223

(3)- نفسه

ابتداءًامن المتكلم نفسه -حين يحاول إقناع نفسه بقضية ما- إلى الناس جميعا حيثما كانوا[1].

2. **المقام:** يجب على المتكلم -وفق "بيريلمان"- التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بعلاقة المخاطبين مع المقام والموضوع معا، ويكون أكثر تأثيرا كلما استثمر حقائق فعلية وأحداثا معينة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية[2].

نشير هنا إلى أن "بيريلمان" يقدم تصورين أساسيين للمقام، إذ هو تارة الإطار المحدد للخطاب المستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية ولكل المشاركين فيها، وتارة أخرى يمثل المقام المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج ترتيب القيم[3]، لقد كان الحجاج على الدوام وبشكل عام دفاعا على ملفوظ أمام ملفوظات أخرى[4].

وعلى الرغم مما قدمه البلاغيون الجدد من مميزات الحجاج، إلا أن تصورهم قد قصر الحجاج على بعض التقنيات والآليات البلاغية والمنطقية مما دفعه إلى تقسيم الخطابات إلى خطابات حجاجية ذات طبيعة إقناعية؛ كالمناظرات والمجادلات الدينية، والفلسفية والسياسية والقانونية، وأخرى غير حجاجية، بينما يتبنى التصور التقني للحجاج تقسيما آخر تصير بمقتضاه كل الخطابات المختلفة التي تستعمل لسانا طبيعيا خطابات حجاجية بدرجات مختلفة، وهو ما سيتبين من خلال العنصر الموالي.

ب. تقنية الحجاج في التصور التداولي:

1) المفهوم والعلاقة:

لقد سبق أن ذكرنا أن الحجاج هو بعد ملازم لكل خطاب وبه يتحقق، وانطلاقا من هذا المبدإ فالحجاج متلبس بألبسة لسانية وأسلوبية، ومن نتائج هذا الأمر، إن مقاربة ظاهرة الحجاج مقاربة لسانية غدت حاليا مسألة طبيعية، إن لم تكن ضرورية، غير أن علاقة

---

(1)- المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، د. محمد العمري، ص: 19-20

(2)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 84

(3)- نفسه

(4)- خطابات الحداثة، مانويل ماريا كاريلو، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، منشورات دار ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2001، ص: 74

اللسانيات بالحجاج تثير تساؤلات أخرى هي كالتالي: هل مقاربة الحجاج هي مهمة ملقاة على اللسانيات العامة أم على التداولية، أم على الأسلوبية، أم على البلاغية؟ وإذا كان النص الحجاجي -لسانيا- هو نَصٌّ متميز عن باقي الأجناس النصية الأخرى فهل يولي الباحث اهتمامه لبنيته الحجاجية وعلاقتها الداخلية أم لقيمته وفعاليته الحجاجية من خلال تفاعل ذاته أو ذواته مع محيطها الخطابي؟ وإذا كان من الصعب جدا اختزال الظاهرة الحجاجية في المجال اللساني البحت، أو في النطاق العقلي والفكري المحض، فإن التناول اللساني لها هو نفسه ملتقى تقاطع مقاربات متباينة أشد التباين[1].

ولقد اعتاد اللسانيون أمثال "ج.ب برونكار" (J.P.Bronckart) النظر إلى الخطاب اللفظي الحجاجي كخطاب يتوفر على خاصيات بنائية وبراغماتية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات السردية، الحكائية والإخبارية والتفاعلية–الحوارية ثم النظرية، وحسب هذه الأنماط التي أوردها "برونكار" فإن النصوص التفاعلية–الحوارية وكذا النظرية هي الأكثر احتضانا للحجاج[2]، ومن هنا تسعى المقاربة اللسانية وحتى الأدبية إلى التعامل إذاك مع نوع خاص من التخاطب والتكلم.

وإذا كان هذا التخاطب محدِدا ببعده الحجاجي المتميز، فهو خاضع لمثلثات سيميولوجية لسانية[3]:

- المرسل ---- الرسالة --- (جاكبسون Jacobson)
- التعبير ---- المعنى ---- الإقناع والانفعال (بوهلر Bohler)
- المخاطب --- المخاطب --- المخاطب (أوستينAustin)

وانطلاقا من إدراج الحجاج ضمن الدوائر السابقة يمكن رصد الصور الأسلوبية في الخطاب الحجاجي أو صوره البنائية الاستدلالية، وذلك برصد الأفعال الكلامية أو التكلمية التي لها مرجعية أو سياق مشترك بين طرفي التواصل (المتكلم والمستمع)، ولئن كان هناك من

(1)- مقال: الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، ص: 101

(2)- Langage et présentation in « Sciences Humaines », J. P. Bronckart, n° 21, Hors-série Juin-Juillet, Auxerre 1998, p: 20-23

(3)- مقال: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 101

يعتقد أن دراسة الحجاج في الخطاب اللفظي هو شأن التداولية Pragmatique، فإن لهذا الاعتقاد ما يبرره، إذ بالفعل نجد الخطاب الحجاجي يخضع ظاهريا وباطنيا لقواعد شروط القول والتلقي، والدليل على ذلك أن كل خطاب مهما كان نوعه تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية، بالتالي قيمة ومكانة أفعال الذوات المتخاطبة[1].

واعتمادا على ما قدم من مفاهيم الحجاج، فإن القول أو النص الحجاجي ينتمي إلى مجال التداوليات، وإن كان هذا المجال واسعا من جهة، ومتشعبا من ناحية أخرى، إذ هناك تداولية البلاغيين، وتداولية اللسانيين وتداولية المناطقة والفلاسفة، حتى إن "فرانسواز أرمنيكو" تذهب إلى القول: "فالتداولية كبحث في قِمَّةِ ازدهاره، لم يتحدَّد بعد في الحقيقة، و لم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد افتراضاتها أو اصطلاحاتها"[2].

ولعل أول أسباب ذلك، أن مفهومها تتقاذفه مصادر معرفية عديدة، فعدت التداولية بعد ذلك "ملتقى لمصادر أفكار وتأملات مختلفة يصعب حصرها"[3]، هذا إضافة إلى أنها تتداخل مع علوم أخرى، مما جعل مجالها ثريا وواسعا وعسيرا[4].

وفي حديثه عن التداولية يردف "مانقينو Mainguenau" في موضع آخر قوله: "إنه من الصعب الحديث عن التداولية، لأن هذا التعبير يغطِّيه العديد من التيارات من علوم مختلفة تتقاسم عددا من الأفكار...واللسانيون ليسوا وحدهم المعنيين بالتداولية، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة، وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني"[5].

---

(1)- مقال: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 101

(2)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، د.ط، 1986، ص: 11

(3)- Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Collection lettres, SUP Dunod, Paris, 1997, p: 01

(4)- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 2002، ص: 10-11

(5)- L'analyse du discours introduction de D. Maingueneau, L'archive Hachette, Paris, 1991, p: 170

والحديث عن نشأة التداولية وأزمة المصطلح والمفهوم، وتحديد المجال يطول ويستلزم بحثا مستقلا، لذا سنستثمر ما له علاقة بمجال بحثنا، أي تلك التعريفات التي ترتبط بحقل التواصل والأداء وكذا الحجاج.

وتنطلق تعريفات هذا الحقل من مبدأ أن لسانيات القرن العشرين قد وحَّدَتْ بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام، خلافا لموضوعها المحدد في اللغة وحدها في محاضرات دي سوسير[1]، واهتمت بالخطاب كونه يمثل "أي إنتاج لغوي منظور إليه في علاقته بظروفه المقامية وبالوظيفة التواصلية التي تؤديها في هذه الظروف"[2]، يشير هذان القولان إلى أن التداولية في عمومها تهتم بجميع شروط الخطاب معتمدة أسلوبا ما في فهمه وإدراكه، وذلك بدراسة كيفية استخدام اللغة وبيان الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا بالاستعمال[3]، وشرح سياق الحال الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم، إذ ينصب اهتمام التداولية أساسا على المتكلم انطلاقا من سياق الملفوظات التي يؤديها، إلى جانب تحليل الأفعال الكلامية ووظائف المنطوقات اللغوية وسيماتها في عمليات الاتصال[4]، ولذلك سماها بعضهم: لسانيات الاستعمال اللغوي؛ موضوعها توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعل[5].

ومهما يكن من أمر، فإن كل تعريفات الحقل التداولي ينصب اهتمامها على دراسة العلاقة بين المتكلم والسامع بكل ما تتعرض له هذه العلاقات من ملابسات وشروط مختلفة، حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللغوية وعمليات الاتصال والتفاعل، مستندة في ذلك إلى علم اللغة النفسي وعلم اللغة الاجتماعي، متناولة معالجة قيود صلاحية المنطوقات اللغوية أو الأفعال الكلامية وقواعدها بالنسبة إلى السياق، ويتم هذا كله ضمن دراسة العلاقة

---

(1)- علم اللغة العام، فيرديناند دي سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي، مالك يوسف المطلبي، دار الكتب للطباعة، بيت الموصل، بغداد، العراق، 1988، ص: 253

(2)- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، أحمد المتوكل، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 2001، ص: 17

(3)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو ص: 08

(4)- علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، فان دايك، ترجمة وتعليق: محمد سعيد البحيري، جمهورية مصر العربية، ط1، 2001، ص: 114

(5)- La pragmatique d'Austin à Goffman, Philippe Blanchet, Collection référence, éd. Bernard Lacoste, Paris, France, 1995, p:09

بين المتلفظ والمخاطب[1]، فموضوعها إذن هو التواصل البشري المعتمد على دراسة المقام والشروط الملائمة لأداء الكلام.

وعلى هذا الاعتبار، فالتداولية اختصاص جديد في حقول الدراسات الإنسانية، يقول جيلالي دلاش: "إنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"[2].

ويضيف الباحث مجملا تعريف التداولية يقوله: "هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية"[3]، لأننا نبحث في معرفة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه، إذ المعنى لا يستقى من البنية وحدها، وهي الجانب اللغوي منه، وإنما من الجانب السياقي أيضا، فقد يكون بعيدا جدا عن الجانب الأول، وعلى السامع أو اللساني أن يدرك ذلك نحو قول أحدهم لمن مازال يحادثه في غرفة -مثلا- وفي وقت متأخر من الليل[4]:

[إِنِّي مُتْعَبٌ]، فمعنى المتكلم هنا، هو: أوقف الحديث، أو دعني أنام، فالغرض هنا ليس الإخبار بالتعب، (وذلك وفق شروط معينة طبعا) أو أن يذكر المتكلم أمرا، وهي يعني أمر آخر، نحو قوله لمن يدخل عليه المكتب ويترك الباب مفتوحا[5]:

[أَلاَ تَرَى أَنَّ الجَوَّ بَارِدٌ]، وقصد المتكلم هنا، هو: أغلق الباب، وعلى السامع أن يدرك ذلك القصد لنجاح التواصل وإحداث التفاعل، ولهذا السبب رأى بعض الدارسين أن التداولية "تشرح وضعية التواصل وسياقه وتفتح أبواب دراسة ما لم يقل، ودراسة الضمني من الحديث"[6].

(1)- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، أحمد المتوكل، ص: 17

(2)- مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش، ص: 01

(3)- نفسه

(4)- في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي، ص: 71

(5)- نفسه

(6)- 100 Fiches pour comprendre la linguistique, Gilles Siouffi, et Dan Van Raemdonck, Bréal, Rosny, Novembre 1999, p: 51

وإذا كان "بنفينيست" (Benveniste) قد تحدث قائلا: "إن اللغة لا يمكن أن تتحقق فعليا إلا بواسطة التلفظ، ثم بعد ذلك تتحول إلى خطاب يجسد العلاقة بين المتخاطبين، وإذا كان -كذلك- قد ذهب إلى أن الفعل الفردي الذي تستعمل بواسطته اللغة يجعل المتكلم قبل كل شيء ما، يشبه المحدد الثابت في شروط التلفظ الضرورية، فقبل التلفظ لا تكون اللغة سوى عبارة عن إمكانية لغوية، وبعد التلفظ تصبح بمنزلة الخطاب الذي يصدر عن المتكلم في شكل صورة ناطقة تستهدف مستمعا يبعث تلفظا آخر ارتجاعا"(1)، فإن التداولية وبعد استوائها في أعمال "أوستين" تلميذه "سورل" حثت على الرجوع إلى تحليل الحجاج، خاصة عند اللسانَيَيْنِ "ديكرو" و"أوريكيوني" وغيرهما(2).

نشير هنا إلى أن الحجاج هو مجال غني من مجالات التداولية، لأنه يشترك مع العديد من العلوم الأخرى(3)، ويعد ضمن الحقل التداولي أيضا على الرغم من أنه انبثق من حقل المنطق والبلاغة الفلسفية(4)، ولهذا يرتبط مفهومه بالفعل، وهو بحث من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما(5).

وبعد عرض "ديكرو" و"انسكومير" مفهوم الحجاج وآلياته من خلال كتابهما (L'argumentation dans la langue) لسنة 1983 وهو يختلف عن المفهومات السابقة، لأنه حجاج لساني (لغوي) بحت(6)، يذهب "ديكرو" إلى القول إن التكلم داخل الخطاب هو المصدر عن هذا الخطاب وعن حجاجه، كما يميز بين التكلم والتلفظ، على اعتبار أن التلفظ هو الصوت المتحدِّث باسمٍ للتَّعْبيرِ عن أفكار معينة ضمن الخطاب

---

(1)- Problème de linguistique générale, Emil Benveniste, Gallimard, Paris, 2ème édition, 1974, p: 84

(2)- ينظر: La pragmatique d'Austin à Goffman, p: 12

(3)- ينظر: L'analyse du discours, D. Maingueneau, p: 228

(4)- مفهوم الحجاج عند "بيريلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد الأمين، عالم الفكر، م28، العدد 03، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير-مارس 2000، ص: 58

(5)- مفهوم الحجاج عند "بيريلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد الأمين، ص: 57

(6)- Aborder la linguistique, D. Maingueneau, Collection « lettre », dirigée par Jacques générant et Edmond Blanc, Edition Seuil, Février 1996, p: 47

الحجاجي، وقد يكون هذا المتلفظ مفردا أو متعددا[1]، لذلك أبدع ديكرو "المتلفظ متعدد الأصوات لحل مشكلة تحليل بعض الأقوال التي لا نَعْرِفُ بالضبط لمن ننسب فيها الكلام، هل إلى متكلم واحد أم إلى أكثر من متكلم؟"[2].

وهكذا، فإن كثيراً من أفعال التكلم –وفق ديكرو– لها وظيفة حجاجية، عندما تهدف إلى توجيه المتلقي، إما بفعل شيء ما، وإما بتركه، ولذلك يطلق "ديكرو" (Ducrot) وصاحبه "انسكومبر" (Anscomber) على هذا الحجاج الخطابي اسم "الحجاج داخل اللغة" دلالة على أنه يمكن تَسْمِيَّةُ الحجاج بمنطق الكلام، أي تلك القواعد الداخلية للخطاب والتي تتحكم في ترابطه وتسلسله[3].

يدرك المتأمل لعلاقة الحجاج بالتداولية وكذا ببقية الحقول المعرفية الأخرى، أن الحجاج ليس عنصرا خارجا عن اللغة أو يضاف إليها، بل هو يسري فيها سريانا طبيعيا، لذلك فإن الوظيفة الحجاجية –وفق ديكرو– تتوافر على خصائص بنية ذاتها، وذلك أن القيمة الحجاجية لتلفظ ما ليست هي خلاصة أو نتيجة المعلومات التي يقدمها فقط[4]، بل "إن الجملة بإمكانها أن تشتمل على مورفيمات وتعابير أو صيغ، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري تصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول وتوجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو في ذاك"[5].

وعلى هذا الأساس، يرى طه عبد الرحمن أنه إذا كان الحجاج فعلا استدلاليا يأتي به المتكلم بغرض إفادة المستمع وإقناعه خصوصا في الأدوار الخطابية، فإن المجال التداولي هو المجال الأرحب والأوسع للوصف الاستدلالي للمتكلم والمستمع الذي تدل عليه في الحجة أدوات لغوية خاصة[6].

---

(1)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 85

(2)- Polyphonie des discours argumentatifs in pratiques, Auricchio Angres et Alliesla, revue N° 73 Mars 1992, Metz, p: 07

(3)- ينظر: Les échelles argumentatives, Ducrot Oswald, édition de Minuit, Paris, 1989, p: 12

(4)- ينظر: Les échelles argumentatives, p: 18

(5)- ينظر: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 86

(6)- ينظر: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص: 256

ويشكل الالتقاء بين الوصف الاستدلالي الحجاجي والمجال التداولي أساسا ينطلق من تصور المعنى في استثماره لعلاقات متعددة تضم الملفوظ مع ربطه بظروف المقال، وما يتبع ذلك من تحديد للقرائن المعنوية المحددة لطبيعة الخطاب، "أي الاهتمام بالمجال التداولي، وكذلك بموضوع الدلالة الذي يرتبط بالجمل من حيث دراستها بلاغيا لتحديد صدقها أو كذبها، وهذه الجمل التي يسعى الجانب التداولي إلى تحليلها وعدم اختزال وصف قيمتها الإخبارية في الوصف الدلالي فقط، بل ليبرهن على الطريقة التي تُسْهِمُ فيها قرائن العلاقات بإعطاء اتجاه تداولي للجملة، وأيضا لفرض نتيجة على المخاطب عن طريق التحاور المتبادل في الكلام"[(1)].

فعلى مستوى أفعال اللغة التداولية: هناك أفعال اللغة العرضية التي بسطها (أوستين 1962) وذلك بعرض مفاهيمها وتقديم موضوعها وتوضيح استعمال الكلمات وضبط المراجع، مثال: أكَّد، أنكر، أجاب، اعترض، وهب... [(2)].

وعلى مستوى السياق: هناك أدوات وتعابير وصيغ تَسِمُ أي تخاطب بالسمة الحجاجية، مما يجعل الحجاج يكون إما ضمنيا أو صريحا، ومن أجل ذلك وجدت "تعابير إنجازية موجهة إلى ربط قول ما ببقية الخطاب، وبكل السياق المحيط، من هنا نعثر على: أجيب، أستنبط، أستخلص، أعترض،... وتأتي هذه التعابير لتربط القول بالأقوال السابقة، وأحيانا بالأقوال اللاحقة، إذ إن هذه الأقوال تأكيدية عامة"[(3)].

وعلى مستوى الحوارية: يظهر ارتباط الخطاب الحجاجي بالبعد التداولي على أساس أن "الملفوظ دال ما دام يتموضع في مجتمع القائمين بتلفظه، ويمتلكون علاقة تخاطبية"[(4)].

لذلك وجدنا فرانسواز أرمينكو تعرف الحوارية بأنها: "مكون لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين تَلَفُّظَتَيْنِ توجدان في علاقة حالية، ويقدم المبدإ الحواري من

---

(1)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 83

(2)-المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص: 86

(3)-نفسه، ص: 111

(4)- نفسه

خلال الحدود التالية: كل تلفظ يوضع في مجتمع معين، لابد أن ينتج بطريقة ثنائية تتوزع بين المتلفظين الذين يتمرسون على ثنائية الإصاتة، وثنائية العرض، على حد تعبير فرانسيس جاك، وإن كل كلام إلا وله مالكان تقريبيان، وربما كان من المضبوط القول بأن سيدة الكلام الحواري هي العلاقة التخاطبية ذاتها"[1].

أصبح الآن جليا، أن التداولية قد ساهمت في معالجة الحجاج بكونه فعلا تداوليا، لا يمكن تفسيره دون إظهار مراتب المتكلمين وأدوارهم في أفعال الكلام وأهمية السياق التخاطبي، وحاولت أيضا أن تقف على الروابط الحجاجية باعتبارها أدوات إجرائية تعين على تحديد العلاقة الخطابية بين طرفي التواصل من جهة، وبين أطراف النص أو الخطاب من جهة أخرى، إضافة إلى ذلك فقد وسعت التداولية اهتماماتها بالسلالم الحجاجية داخل المنطوقات (أفعال الكلام)[2]، لذلك اتخذ التحليل التداولي للحجاج مادته من النصوص للاطلاع على كيفية إنتاجها وهو الموضوع المركزي للحجاج.

ويسعى هذا التحليل إلى المساهمة في تحديد قواعد ومعايير قراءة النصوص الحجاجية، وبناءا عليه، تعد نظرية الحجاج في اللغة امتدادا وتطويرا لنظرية الأفعال اللغوية، وذلك أن الحجاج –وفق ديكرو– يعتبر فعلا لغويا خاصا، إذ يتمثل الحجاج بالنسبة إلى هذه النظرية في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، أي متواليات من الأقوال والجمل بعضها بمترلة الحجج، وبعضها الآخر بمترلة النتائج التي تستخلص منها[3].

ويخلص أبو بكر العزاوي بعد ما أورده في كتابه "الخطاب والحجاج" إلى القول: "ونريد من خلال فصول هذا الكتاب الذي درسناه في فصوله الأربعة...أن نؤكد الحقيقة التالية وهي أن كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص لنص ومن خطاب لخطاب، فليس مجال

(1)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص: 111

(2)- الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 87

(3)- البنية الحجاجية للخطاب القرآني، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، العدد 62-63، المغرب، مايو 2001، ص: 125

الحجاج هو القول أو الجملة، وإنما مجاله الحقيقي هو الخطاب والحوار حيث تظهر وجوه استعماله وتتجلى طرائق اشتغاله"(1).

وعن علاقة الخطاب والحجاج يقول العزاوي: "فالخطاب هو مجموعة من الأقوال والجمل، ومجموعة من العلائق الدلالية المنطقية القائمة بينها، أو بتعبير حجاجي هو مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق، فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو الحجة المضادة لها، والدليل يفضي إلى نتيجة، والنتيجة تفضي إلى دليل آخر، وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه، وبعبارة أخرى، فإن الأقوال والجمل تقوم بينها علاقات منطقية ودلالية مثلا الشرط والسببية، والاستلزام والاستنتاج والتعارض، وكلها علائق حجاجية استدلالية، ومجموع هذه العلائق هو ما يكون البنية المنطقية للنص أو الخطاب المقصود، وهو ما نسميه عادة بمنطق الخطاب أو المنطق الطبيعي"(2).

ولعل أبا بكر العزاوي وهو تلميذ ديكرو ينطلق من تصور أستاذه حول الحجاج، هذا التصور الذي يدعوه ديكرو بـــ"الحجاج بمفهومه التقني" في مقابل "الحجاج بمفهومه العادي"، إذ يشير المفهوم الأول إلى نوع خاص من العلاقات المسجلة داخل اللغة، وتربط بين محتويات دلالية(3).

وعلى هذا الأساس، فالحجاج عبارة عن علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجة، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية، إذ لابد أن تتوافر في الحجة (ق1) شروط محددة حتى تؤدي إلى (ق2)، ولهذا فإن الحجاج مسجل في بنية اللغة ذاتها، وليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للقضايا التي ينشئها(4)، ولا ريب في أن هذا التمييز يمكن أن يتنوع من متكلم إلى آخر، وفق حالات الخطاب، حيث لا أحد يمكنه القول ما هي الخلاصة

(1)- حوار حول الحجاج، د. أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010، ص: 36-37

(2)- نفسه، ص: 37-38

(3)- نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، منشورات كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، دط، دت، ص: 360-361

(4)- Dictionnaire encyclopédique pragmatique, p: 88

المقترحة أو المنفية من (ق)، أي إن القيمة الأساسية للتلفظ ترجع في جزء مهم إلى الاستعمال الحجاجي له[1].

ولقد انطلق أصحاب هذا التصور -ديكرو وانسكومير وغيرهم- من الاعتراض على التصور التداولي القديم للعلاقة بين مستويات التحليل اللغوي الذي اعتمدته التداولية منذ بدايتها مع المؤسس الأول للتداولية "موريس" (Charles Morris) الذي ميز في كتابه "أسس نظرية الرموز" (1938) بين ثلاثة عناصر تدخل في تحديد الرمزية[2]:

- الرمز من حيث هو علامة.
- الرمز من حيث هو دلالة.
- الرمز من حيث هو محل التأويل.

ولقد استعار "موريس" هذا التصميم الثلاثي للرمز من المنطق، ونقله إلى اللسانيات، فميز من خلاله بين مستويات ثلاثة تحدد العلاقة بين علم الدلالة **Sémantique** والتداولية Pragmatique وتتعاقب تعاقبا خطيا[3].

أ. **المستوى التركيبي**: يعنى بتحديد قواعد التأليف التي تنشئ أولا تنشئ سلاسل تامة التشكل أي جملا لغوية، والكلمة المفتاح في هذا التطور هي "النحوية Grammaticalité".

ب. **المستوى الدلالي**: ويعالج علاقة العلامات بمراجعها أو مدلولاتها؛ حيث مدلول جملة ما أو ما تحيل عليه -وفق موريس وغيره من المناطقة- هو قيمتها الحقيقية من حيث الصدق والكذب.

ج. **المستوى التداولي**: وتدرس فيه علاقات الرموز بالمؤولين لها، ويبحث فيه عن مدى استيفاء القول لشروط القول وقدرته التأثيرية.

---

(1)- Les échelles argumentatives, p: 37-38

(2)- اللسان والميزان والتكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص: 121

(3)- L’argumentation dans la langue, p: 15-16

ومنالأسئلة التي تطرح في المستوى التداولي، هل يُنَاسِبُ القولُ والمقامَ، أم أن الأمر على خلاف ذلك؟ ما هي الأفعال الكلامية التي تسمح بإنجازه (الإثبات، الاستفهام، الأمر، التمني...)؟ ما هي طبيعة رد فعل المخاطب (استنكار، الإجابة بسؤال)؟ [1]، نشير هنا، إلى أن ديكرو قد اعترض على هذا التحليل ذي المستويات الثلاثة، معللا سبب اعتراضه في كون ظواهر تداولية عديدة تظهر منذ المستوى الأول، أي التركيبي، ففي قول مثل: أنا صائم[2].

يوجد ضمير المتكلم الذي لا يتعين إلا مقاميا، وهو مسجل في بنية اللغة، سابق الاستعمال في مقام معين، كما أن الإثبات الذي يعبر عن اعتقاد المتكلم، متزامن مع المضمون القضوي وليس مضافا إليه بعد تركيب القضية وتحديد علاقتها بحالة الأشياء في الكون[3].

يستنتج من هذا التحليل أن "قواعد التشكل الجيد للمستوى التركيبي مستقلة عن المحتوى الإخباري للأقوال، ويمكن أن تحدد هذه الأخيرة بدورها من دون أن نقيم وزنا لتأثير الكلام في المخاطبين"[4]، وذلك أن للقول قيمة أكبر من مجرد نقل معلومة إخبارية، إذ حينما نطرح سؤالا فإننا نقوم -وفق ديكرو- بشيء آخر غير إعلام المتلقي برغبتنا في المعرفة، وهو أننا نلزمه بالإجابة، ونعطيه دورا في الوقت نفسه الذي يختار فيه دورا آخر، وحينما نطلق أمرا أو وعدا، أو إذنا... فإن اللسان "La langue" كما يرى -ديكرو- ينطوي بذاته على قائمة من العلاقات البشرية التذاوتية "Interhumaines" وعلى مجموعة من الأدوار، أي على جهاز كامل من الاتفاقيات والقوانين التي تنظم التخاطب بين الأفراد[5].

ولتنظيم التخاطب بين الذوات المتكلمة، يقدم كل من ديكرو وانسكومير تصورا أكثر إجرائية بناءا على المستويات الثلاثة التي درسها موريس، وذلك أنهما يَدْعُوَّانِ إلى إدماج المظهر التداولي في الدلالة، هذا الإدماج التي ينتج عنه ما يسمى بالتداولية المدمجة التي تعرف حسب المعجم الموسوعي بكونها "نظرية دلالية تدمج مظاهر التلفظ في البنية اللسانية (بمعنى

---

(1)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 88

(2)- نفسه

(3)- نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص: 353-354

(4)- L'argumentation dans la langue, p: 17

(5)- Dire et ne pas dire, p: 04-05

اللسان عند دي سوسير 1968)" [1]، إذ ليست مظاهر التلفظ في بعض وجوهها سوى عوامل حجاجية تندرج في الأقوال، فتكيف تأويلها وفق غاية المتكلم، وقد درس ديكرو ألفاظا وكلمات مخصوصة لها قيمة حجاجية[2].

وبهذا الاعتبار، فالتداولية المدمجة بحث في الجوانب التداولية المسجلة في بنية اللغة ودلالة الجملة لاستخراج الأشكال اللغوية ذات القيمة التداولية لضبط شروط استعمالها[3]، وذلك أن المشروع الأساس للتداولية المدمجة هو بناء دلالة الخطاب المثالي الذي يهدف إلى صياغة دلالة الخطاب انطلاقا من المظاهر اللغوية القابلة للصياغة، اعتمادا على التوجيهات والتعليمات التي توفرها أبنية اللغة للمتكلم حتى يوجه خطابه وجهة ما[4]، ففي المثال التالي: [أنا مريض لكنني صائم]، تصاغ قواعده الدلالية في صيغة متغيرات من خلال الوحدات اللغوية التي تفرض على المخاطب تعليمات ما، ومن هذه التعليمات ما يفرضه الرابط "لكن" الذي يقدم قرائن معنوية تبين المراد من الخطابِ، وتوجه طريقة تأويل العلاقة بين المحتويين الخبريين لــ"أنا مريض" و"أنا صائم"، فالاستدراك بــ"لكن" يوجه دلالة القول كله إلى سلب نتيجة مضمون الجمل المستدركة، أما في المستوى الدلالي فيقع ربط دلالة القول بسياقه حيث تدخل اعتبارات التخاطب بين المتكلم والمخاطب، ومكان القول وزمانه وكل المعطيات المقامية[5].

وانطلاقا من هذا التصور للتداولية المدمجة، سعى كل من ديكرو وانسكومير إلى صياغة دلالة الخطاب لسانيا من خلال تحديد العلاقات بين المضمر "L'implicite" والمصرح به "L'explicite"، وحسب تصورهما، فإن القول المصرح به ما هو إلا حامل لخلاصة مقترحة من قبل متغيرات حجاجية ملازمة للجملة، سواء أوافق المتلقي عليها أم لم يوافق، وذلك أن الحجاج يبرز في كيفية تسجيل اللغة الطبيعية لخلاصة ما، أو اقتراحها أو تضمنها أو إظهارها أو اقتضائها[6].

(1)- Dictionnaire encyclopédique et pragmatique, éd. Seuil, 1994, p: 79

(2)- التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2008، ص: 20-21

(3)- نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص: 354

(4)- نفسه، ص: 359

(5)- نفسه، ص: 355

(6)- Logique, langue et argumentation, p: 116

وعلى الجملة، فإن حجاجية التلفظ تبرز في كونه يسد مسد دليل –أو ملزوم- محدد له مدلول –أو ملزم يفهم من السياق، مدلولا يقصد به المتكلم مطالبة المخاطب بالتصديق به والانتهاض للعمل وفقه، أي يقصد "إلزامه" و"التزامه" به معا، قاصدا بهذا الدليل مدلولا مخصوصا، بيد أن ديكرو لا يشجع على الأخذ بالدلالة المنطقية التي تساهم في فساد القول وبالتالي انقطاع التواصل أو خروج الخطاب عن غرضه، كأن نطالب شخصا ما باعتقاد الصدق في كل أقوالنا ونلزمه بهذا الاعتقاد انطلاقا من القول التالي: أَلَمْ أَصْدُقْكَ الحَدِيثَ دَائِمًا؟[1].

ورغم الالتباس الواقع بين الحجاج والاستدلال الذي هو عمل لغوي يستلزم إنتاج قول ما، إلا أن هذا الأمر لم يثبط من عزيمة ديكرو في محاولة استنباط تقنيات وأدوات تسهل سير الأبنية اللغوية للقولات الحجاجية، وذلك من خلال تقنيات وآليات لغوية محضة، وتتمثل هذه التقنيات حسب تصور ديكرو في: المراتب الحجاجية، السلم الحجاجي، الروابط الحجاجية التداولية، التضمين التداولي في الروابط الحجاجية والتي سنتعرض إلى دراستها بالتفصيل.

2) المراتب الحجاجية:

توطئة:

في دراسته لمراتب الحجاج وقياس التمثيل، يورد "طه عبد الرحمن" خلاصة للفصل الثاني مفادها: "إن الحجج ليست سِرْبًا واحدًا، وإنما ضروب مختلفة قد نجملها في ثلاثة هي: "الحجة التجريدية" و"الحجة التوجيهية" و"الحجة التقويمية"، كما عرفت أن كل ضرب منها يناسب نموذجا مخصوصا من نماذج التواصل، وهي أساسا ثلاثة: "نموذج الوصل" و"نموذج الإيصال" و"نموذج الاتصال"[2].

---

(1)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص: 276

(2)-نفسه، ص: 272

ثم يواصل قائلا: "يتعين علينا الآن أن نبين لك كيف أن للحجة الواحدة مراتب مختلفة؛ كل مرتبة منها ترتبط مع غيرها بقوانين مخصوصة؛ مراتب لا يلبث التحليل أن يكشف أنها الأصل في القوانين التي يتحدد لها الصنف الاستدلالي المعروف باسم الاستدلال التمثيلي الذي أطلق عليه أصوليو الإسلام "القياس"، وهو كما تعلم غير "القياس" عند فلاسفة الإسلام، الذي هو صنف استدلالي آخر سمي تفصيلا "القياس الجامع" واختصارا "الجامعة"[1].

وانطلاقا من الاهتمام بـــ"مسألة المراتب أو المدارج" باعتبارها ظاهرة لغوية طبيعية؛ انبعثت دراسات لسانية ومباحث في فلسفة اللغة، هذا الانبعاث الذي نتج عنه تنوع في اختصاصات الدارسين الذي اشتغلوا بهذه المسألة اللغوية، ومن بين هؤلاء الدارسين اللساني والمنطقي والرياضي والمتفلسف"إدوارد سابير" و"لورانس هورن"، و"جان كلود أنسكومير" والفيلسوف الأمريكي "تشارلز كاتون" واللساني المنطقي "جيل فوكونيي"، بالإضافة إلى اللساني الفرنسي "أوزفالد ديكرو" الذي تعرض لهذه النظرية في كتابه "السلالم الحجاجية" (Les échelles argumentatives) هذه النظرية التي طورها خاصة في كتابه المشترك مع "انسكومير" في اللغة "L'argumentation dans la langue"، هذا الكتاب الذي تناولا فيه التحليل الحجاجي للقولات والذي كشف عن التأثير الكبير في الدراسات التداولية اللغوية وكذا البلاغية.

ولقد اتخذت هذه المراتب أشكالا ثلاثة نوردها كالآتي[2]:

أ. **المراتب المتضادة**: مع "إدوارد سابير" اللساني والإناسي الأمريكي صاحب مقالة "التدرج: دراسة في الدلاليات"[3]، والذي يؤكد أن الكلمات الدالة على معان يمكن ترتيبها بين طرفين متقابلين، مثال ذلك: [الرمضاء، الحر، الدفء، البرد، القارس]،

[1]- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص: 272

[2]- مقال: الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 92، وينظر كذلك: اللسان والميزان، ص: 273-274

[3]- اللسان والميزان، ص: 274

إذ تتضمن هذه المجموعة من الألفاظ لفظتين: الرمضاء والقارس اللتين هما بمترلة طرفين: أعلى وأسفل متباينين، بينما مراتب يمكن تمثيلها على الشكل الآتي[1]:

ب. **المراتب الموجهة توجيها كميا:** مع كل من "هورن Lawrence Horn" و"جيل فوكونيي Gilles Fauconier"، وفحوى هذا التوجه أنه "يوجد هذا النع من المراتب في الألفاظ الدالة على معاني تقبل التدرج في اتجاه واحد إما على مقتضى التزايد أو مقتضى التناقض"، مثال ذلك معايير الوزن التالية: [درهم، مثقال، أوقية، رطل] المرتبة على سبيل الزيادة في الوزن أو [رطل، أوقية، مثقال، درهم] المرتبة على سبيل النقص منه[2].

ج. **المراتب الموجهة توجيها قصديا:** مع "ديكرو وانسكومير"، حيث إنه قد تدخل المراتب لا على الألفاظ وحدها وإنما تتعدى ذلك إلى الجمل، إذ العامل المحدد لهذا النوع من المراتب هو قصد المتكلم، مثال ذلك أنه يقصد المتكلم التوقف عن العمل متى شعر بالنعاس أو التغيب أو الملل، فالقولان: "شعر المتكلم بالملل"، و"غلب على المتكلم النوم"، هما بمثابة مرتبتين متفاوتتين بموجب قصد المتكلم في التوقف عن العمل[3].

---

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 92

(2)- ينظر: اللسان والميزان، ص: 275، وكذلك: مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص: 92

(3)- نفسه

ولعل ما يهم كل باحث في دراسة الحجاج، هو المرتبة الثالثة، وذلك أنها تتعدى الألفاظ إلى الجمل، هاته الجمل التي تشكل أقوالا يصبح بالإمكان جمعها في مجموعة تدليلية يصطلح عليها بالفئة الحجاجية التي تحدد نتيجتها المشتركة، كما أن تعدد الأقوال والحجج التي يستدل بها على نتيجة ما، يجعلها تختلف من جهة قوتها بشكل يجعل بعضها يعلو بعضها الآخر، الأمر الذي يسمح بترتيبها وفق معايير متعددة ومختلفة[1]، وكلما ارتفعت الحجة الموظفة للتدليل على قضية ما، قوي الحجاج وارتفعت درجة هذه القوة.

3) السلم الحجاجي:

أ. المفهوم:

هو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين[2]:

1) كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.
2) كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه، ولأكثر توضيح نورد الرسم التالي:

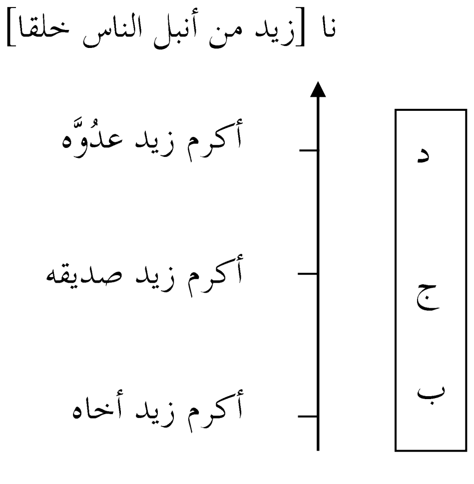

حيث: ب، وج، ود: ترمز إلى الأدلة

ونا: ترمز إلى المدلول منها.

حيث القول (د) يلزم عنه القول (ج)

الذي بدوره يلزم عنه القول (ب).

ف(د) أقوى إثباتا للمدلول (نا) من (ج)

الذي هو أقوى إثباتا لهذا المدلول من (ب).

---

(1)- ينظر: الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، إفريقيا الشرق، ط1، 2004، ص: 137

(2)- اللسان والميزان، ص: 277

فالملاحظ أن الأقوال الثلاثة تسعى إلى النتيجة نفسها، ولكن درجة القوة والضعف تتفاوت وتختلف من قول إلى آخر، لذلك فإن مفهوم الحقل الحجاجي عند ديكرو يرتبط بالنتيجة كما يرتبط بالمتكلم، بمعنى أنه عندما ينتمي معنى جملتين أو أكثر إلى الحقل الحجاجي نفسه، فإنهما يسعيان إلى خدمة النتيجة نفسها وإن كان يختلفان وفق القوة والضعف[1].

ب. قوانين السلم الحجاجي:

من خلال تحليل السلم الحجاجي -استخلص اللسانيون- ثلاثة من القوانين وهي بمنزلة قواعد تدعم هذا السلم الحجاجي، وقد صاغها ديكرو في كتاباته على النحو التالي:

1) **قانون تبديل السلم:** وفحوى هذا القانون، أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله[2]، حيث إذا كان القول (ب) يدل على مدلول ما، فإنَّ نفيه (ليس -ب) سيكون دليلا على نقيض المدلول، وهذا يعني أنه إذا كان (ب) ينتمي إلى الفئة الحجية بالمدلول (ج)، فإن (ليس -ج) تنتمي إلى الفئة الحجية المحددة بالمدلول (ليس -ج)[3].

2) **قانون الخفض:** مقتضى هذا القانون أنه، إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها[4]، يدل هذا على أنه بإمكان المتكلم أن يعدل أو يغير في الحجج المقدمة من لحظة لأخرى، وذلك بإضافة حجة جديدة يمكنها أن تغير من المدلول وبالتالي من قوتها، ولذلك نجد مفهوم القوة يحتل موقعا خاصا منذ أن تكلم "أوستين" عن القوة الإنجازية و"سورل" عن القوة التكلمية، و"ديكرو" عن القوة الحجاجية[5].

---

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 93

(2)- اللسان والميزان، ص: 278

(3)- منهجية الحوار والتفكير النقدي، حسان الباهي، ص: 138

(4)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص: 277

(5)- منهجية الحوار، ص: 138

3) **قانون القلب:** وفحوى هذا القانون، إنه إذا كان أحد القوانين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول(1).

ولقد ناقش ديكرو عددا من القواعد التي يمكن أن تخدم الروابط الاستدلالية خاصة في قانون القلب وهي(2):

أ) **قاعدة قلب التفاضل:** وذلك بترتيب قيم التفاضل في النفع والضرر، حيث يقول: هذا الشيء أخف ضررا من الآخر، أي أفضل منه من جهة الإضرار، فهو أجلب منفعة منه، أي أفضل منه من جهة النفع.

ب) **قاعدة تفاضل الأطراف:** إذا كانت إحدى المجموعتين تفضل الأخرى، فإن أفضل عنصر في المجموعة الفاضلة أفضل من أفضل عنصر في المجموعة المفضولة.

ج) **قاعدة جمع التفاضل المركب:** إذا كان فضل الأول على غيره أكبر من فضل الثاني عليه، وكان فضل الثالث على غيره أكبر من فضل الرابع عليه، فإن فضل الأول والثالث على غيرهما أكبر من فضل الثاني والرابع عليه، ويمكن التمثيل لذلك بما يلي:

1. محمد مجد.
2. جاء محمد لكن عمر تأخر.
3. جاء عمر، بل محمد.

فالملاحظ أن هذه الجمل تتفاوت وفق قصد المتكلم، وذلك بإهمال (عمر)، ففي المثال (2)، استعمل الربط "لكن" ليدل على درجة معينة من إثبات الضدية بين الجد لمحمد والإهمال لــ(عمر)، أما في المثال (3)، فاستعمال الرابط (بل) للدلالة على نفي الجدية عن عمر وإثباتها

(1)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص: 278

(2)- الاستدلال في معاني الحروف، دراسة في اللغة والأصول، أحمد كروم، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، ديسمبر 2000، ص: 240، وينظر كذلك: اللسان والميزان، ص: 283-284

لمحمد، وفي المثال (1)، فقد تم الإثبات بالجدية لمحمد دون رابط للدلالة على قصدية الطرف الواحد[1].

ج. السلم الحجاجي والقياس عند الأصوليين:

لقد أسهبنا في الحديث عن المناهج والاتجاهات الغربية اللسانية التداولية مع "ديكرو" الذي يعود إليه الفضل في وضع السلم الحجاجي للقولات التي تنتمي إلى اللغة الطبيعية -وليس من باب المقارنة- ولكن من باب الاعتراف بالفضل لكل من أدلى بدلوه في حقل الدراسات اللسانية والتداولية، وإن لم يكن ذلك عن وعي، فإن الفلاسفة واللغويين ومنظري القياس المسلمين من أصوليين وغيرهم قد استثمروا مبدأ السلم الحجاجي وعملوا به، وإن لم يتمثلوه عن وعي -كما سبق الذكر- ودليلنا على ذلك تصنيف "الأحكام الشرعية"، حيث رتبوا الواجب والحرام في طرفي السلم، تتوسطهما درجة المندوب والمكروه بينهما المباح المطلق[2]، والتزموا القواعد السلمية في تحديد علاقة الأحكام بعضها ببعض، وأصناف نسخ بعضها لبعض وحددوا أيضا مبادئ ترتيبية عامة[3].

وبهذا الصدد يقول ابن حزم: "مراتب الأوامر في الشريعة كلها خمس لا سادس لها، وهي الحرام يجمع بين حَدَّيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ، وفرض هو الطرف الثاني، وبين هذين الطرفين، ثلاث مراتب، فيلي الحرام مرتبة الكراهية، ويلي مرتبة الفرض مرتبة الندب، وبين هاتين المرتبتين المباح المطلق"[4].

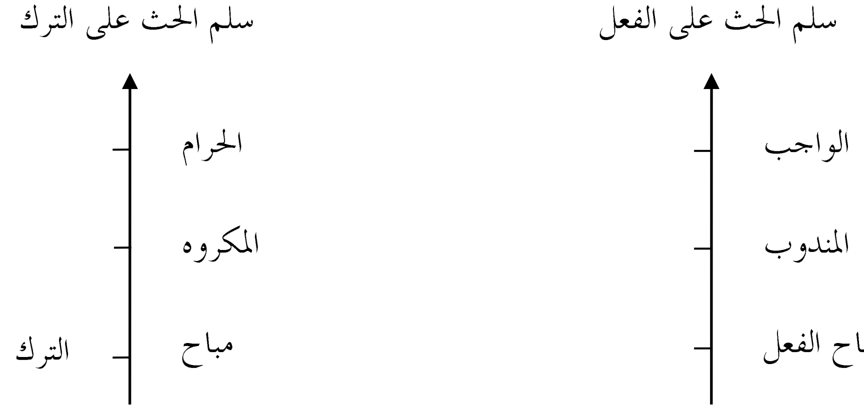

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 99-100

(2)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ص: 106-107

(3)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 100

(4)- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1981، ص: 587

ودرج أيضا على ألسنة الأصوليين مبادئ ترتيبية عامة، مثل: "ما كان كثيره مقدورا، فقليله مقدور، أو على العكس ما كان قليله مقدور، كان كثيره مقدورا"[1].

د. الروابط الحجاجية التداولية:

1) المفهوم:

يشهد القرن العشرين ثورة عارمة في ميدان اللسانيات، ولم يخل حقل لم يستفد من هذا الميدان الذي فجره "دي سوسير"، فكانت محاضراته منبعا نهل منه كل باحث، وتنوعت الدراسات، فكان طبيعيا أن تتفجر علوم أخرى، وذلك أن العلم رحم بين أهله، ومن الأعمال التي برزت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين الأعمال التداولية وتحليل الخطاب، حيث ركزت هذه الدراسات اهتماماتها بكل الاتجاهات المتعلقة باستعمال اللغة في التواصل والتداول والحجاج، خصوصا اللغة التي يتواصل بها الناس فيما بينهم لتحقيق أغراضهم، فنتج عن ذلك أن توجهت الدراسات اللغوية نحو بنية تداولية تراعى فيها مختلف المكونات بين الدلالة والتركيب والسياق التخاطبي.

وإذ كان التواصل اللغوي الناجح يخضع لقواعد اللغة، فإن ذلك يحيلنا إلى أنه قد اعتمد على الحجج التي يتم استقراؤها أو استنباطها عن طريق الروابط الحجاجية مثل: ذلك أنّ، حيث، لهذا، ثم، وإذ ذاك،...، وهذه العملية لا تتأتى هكذا، بل تخضع هي الأخرى لعملية تفكير تساير المنطق، وتأخذ وضعية المخاطَب الاجتماعية والمادية، ومؤهلاته الفكرية بعين الاعتبار، فيكتب للتواصل النجاح (اقتناع المخاطَب)، على اعتبار أن هذا الإقناع إما أن يكون واضحا يستخلص من المعطى الظاهري للخطاب، وإما أن يكون ضمنيا يستخرج من المعطى الاحتمالي الاقتضائي للخطاب[2].

وبناءا على الأهمية القصوى للروابط الحجاجية ولمساهمتها في إنجاح التواصل بين الأطراف، انكبَّ اهتمام "ديكرو" على دراسة هذه الروابط خاصة في كتابه "كلمات الخطاب

(1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 106-107

(2)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 101

"Les mots du discours" الذي كرسه وآخرون لدراسة كلمات وروابط مثل: أجد أنَّ، أرى أنَّ (Je trouve que)، لكن (Mais)، حتما (Décidément)، حسنا (Eh bien)، من جهة أخرى (d'ailleurs)، التي وظيفتها الأولى وفق "ديكرو" خدمة التوجيه الحجاجي للقولات[1].

ومن أجل هذه الغاية التي تحققها الروابط الحجاجية في التلفظ من أجل الإقناع، يؤكد "ديكرو" أن "الاستعمال الإقناعي للغة، ليس شيئا مضافا إلى اللغة، بل إنه موجود في نظامها الداخلي"[2]، لذلك فالروابط الحجاجية ما هي إلا أحد المؤشرات التي تُسْنِدُ معنىً من المعاني إلى القولات التي يتلفظ بها المتكلم، وبها يوجه دفة الحجاج بداية ونهاية، افتتاحا واختتاما، وذلك أنه يمكن التعبير عن العلاقات بين القضايا والأحداث عن طريق مجموعة من العبارات من مختلف أنواع التراكيب، وهذا السبيل يطلق عليه اسم "الروابط"[3].

وعلى هذا الأساس فالرابط في القاموس التداولي لكل من "موشلير" و"روبول" (Reboul) "عبارة عن علاقة لسانية تربط بين غرضين لغويين داخل القولة نفسها"[4]، أما موضوعه فيكمن أساسا في تحديد بنية الخطاب، لكونه آلية مهمة في عملية الربط داخل النسق المقول، ولذلك اهتم التنظير بموضوع الروابط في اللغات الطبيعية، لما لها من دور فعال في فهم الأبعاد التداولية التي تؤدي دور القرائن في ترجيحها، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ساهمت مرجعية الروابط التداولية في تقسيم أطراف الكلام بين مقول منطوق ومقتضى مسكوت عنه، ولها وجود أيضا في الكلام بمساهمة منطقية في ترتيب الأغراض التي تقتضيها الجمل[5].

واعتمادا على المنطق الطبيعي لكل تلفظ أو خطاب، يمكن تصور ثلاثة أنواع للربط، ربط نحوي تركيبي، ربط دلالي وربط تداولي.

---

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 101

(2)- Dire et ne pas dire, p: 227

(3)- النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، بيروت، إفريقيا الشرق، 2000، ص: 82-83

(4)- الاستدلال في معاني الحروف، أحمد كروم، ص: 241

(5)- مقال: مقاربة نظرية في مظاهر الربط الحجاجي لبنية الاقتضاء، أحمد كروم، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، م32، العدد 3، يناير-مارس، 2004، ص: 233

أ) **الربط النحوي**: يتم فيه ربط موضوعات مثل الفاعل والمفعول إلى محمولات، تلك التي تسمى في النحو العلائقي بالحدود، ويدخل في مجال هذه الروابط النحوية، الإعراب المعمول به، والتطابق بين المعمول والموضوع، وكذلك الرتبة المحفوظة في البنية الشجرية في التحليل اللساني(1).

ب) **الربط الدلالي**: "فهو الذي يتم فيه عادة ربط الموضوعات إلى الفعل بواسطة الحرف بموجب دلالته الخاصة"(2).

ج) **الربط التداولي**: هو الذي يركز على العلاقة التي تربط الكل الدلالي التركيبي من جهة، ومتداول اللغة من جهة ثانية(3).

ونشير هنا إلى أن هذه الروابط منها اللفظية ومنها المعنوية التي تفهم من السياق، فالرابط الحجاجي في بيت جرير(4):

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْبًا بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

هو التجاوز "La Juxtaposition" الذي -غالبا- ما يفيد السببية، ولنحلل هذا البيت باعتبار الرابط الحجاجي كالآتي(5):

- إذا كنت من نمير فغض الطرف (شرط-استلزام).
- أنت من نمير، إذن، غض الطرف (استنتاج).
- بما أنك من نمير، فغض الطرف (تبرير).

وهكذا، فكلما اعتمدنا روابط حجاجية لفظية، كلما تعددت الصياغات وتنوعت العلاقات، لذلك ذهب ديكرو إلى التمييز بين نوعين من المكونات اللغوية التي تحقق الوظيفة الحجاجية(6).

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضان الرقبي، ص: 102
(2)- نفسه
(3)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص: 102
(4)- ديوان جرير (أبو حرزة بن عطية التميمي ت110هـ)، دار صادر، بيروت، دط، دت
(5)- حوار حول الحجاج، د. أبو بكر العزاوي، ص: 48-50-51
(6)- نفسه، ص: 51

النوع الأول: ويتمثل في الأدوات أو العناصر النحوية التي تربط بين القولات، كأدوات الاستئناف (الواو، الفاء، لكن، إذن...)، وعلى هذا الاعتبار تطرقت الدراسات اللغوية إلى الأدوار التركيبية والدلالية التي تقوم بها تلك الروابط، لأنها تضمن تلاحم أجزاء النص وترابط عناصره، واتصال بعضه ببعض، -وكما سبق الذكر- فبعض هذه الروابط نحوي كـــ(الفاء، الواو، ثم...)، وبعضها تداولي حجاجي نحو: (بل، لكن، وحتى...) [1].

النوع الثاني: محتواه كل ما يكون داخل القول الواحد من عناصر تدخل على الإسناد، نحو: الاستثناء والنفي أو مكونات معجمية تحيل في الغالب إحالة غير مباشرة مثل: "منذ" الظرفية و"تقريبا" و"على الأقل"...

وهذه العناصر تدعى بالعوامل الحجاجية[2]، و"العامل الحجاجي" (L'opérateur argumentatif)، ليس هو الرابط الحجاجي الذي يربط بين متغيرات حجاجية، أي بين حجة ونتيجة، أو بين مجموعة حجج، وإنما العامل هو الذي يقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما[3].

- **الروابط الحجاجية ودورها في الفهم والإدراك:**

ترتكز دراسة الأغراض اللغوية على جانب الاستعمال اللغوي في الخطاب بغية استخلاص القيم الدلالية للغة، وذلك أن الروابط هي التي تحدد علاقة المخاطب بالأغراض اللغوية المختلفة، وعلى هذا الأساس حاول "سورل" (Searle) في كتابه " Les actes de langage" أن يلم بمجموعة من الأوصاف اللغوية التي بإمكانها تحديد المراحل التي يتم عن طريقها فهم جملة ما،مشيرا في الآن ذاته إلى أن فهم أي جملة يعني الانتقال من مرحلة المدرك الحرفي إلى مرحلة المدرك الذهني، وهذه المراحل حسب "سورل" تعتمد على الخطوات التالية[4]:

---

[1]- نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص: 376-377

[2]- نفسه، ص: 377

[3]- حوار حول الحجاج، د. أبو بكر العزاوي، ص: 49-50

[4]- Les actes de langage, Searle Herman, Paris, 1972, p: 89

1. الفهم الدلالي للجملة.
2. تقييد دلالة الجملة بشرط الاستعمال.
3. إشعار المخاطب بقرائن الجملة ووسائطها قصد الفهم والإدراك.
4. الجملة المستعملة وسيلة تواضعية لإنتاج فعل كلامي معين لدى المخاطب.

ووفق هذه الخطوات، لابد لفهم المعنى وإدراكه من الاعتماد على معطيات خارج لغوية، أي على مبادئ التداولية المدمجة أو المندمجة، وذلك أنها "ذات قيمة استدلالية تسمح بتوزيع ظواهر لسانية مشتقة من الخاصية الداخلية للغة التي يصفها "ديكرو" بالتعاقدية، والظواهر الخارجية التي تتعلق بالقيم التخاطبية أو التحاورية وفق "موشلير" وهو يعني أننا يمكن أن نتنبأ بالمعنى عن طريق الاستعارة والصور البلاغية المختلفة قبل حدوثه"[1].

وعلى الجملة، فالروابط التداولية تشارك في إنجاز الأغراض اللغوية المباشرة وغير المباشرة، لكونها إطارا شاملا لمواصفات الربط الاستدلالي التداولي، وذلك أن الروابط هي بمثابة قرائن أو علامات للتضمينات المتواضع عليها، كما أنها علامات تتدخل على مستوى الوصف الدلالي للغة الطبيعية، إذ لا تتعلق باستعمال نظام اللغة في الخطاب والتواصل فقط، بل تتعلق باستعمالات أخرى، لأن مضمون الخطاب لا يحدد باعتباره ثابتا، ولكن باعتباره متغيرا، فهذه الروابط تفرض قيودا دلالية على التأويل التداولي، على أن هذه القيود ذات طبيعة استدلالية، ومن هنا يحقق الوصف اللساني بنية دلالية عامة، في حين يقترح الوصف التداولي تأويلات تقترن بطبيعة هذه الروابط (القيود الاستدلالية)[2]، التي تعين على فهم المعنى الظاهر والخفي، كما أنها تعين على تحديد المعاني التي تنجزها ملفوظاتها.

وعلى هذا الأساس، فعندما يؤول المخاطب جملة، فإنه يسعى إلى إنجاز غرض استدلالي يعالجه في علاقته مع النتيجة التي يمكن أن تدور باعتبارها حديثا منعزلا[3]، "وندرك من خلال المفاهيم المقدمة للرابط من قبل التداوليين، أشال "سورل" و"أوستين" و"ديكرو" أنها تعمل

---

(1)- الاستدلال في معاني الحروف، أحمد كروم، ص: 202

(2)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 103-104

(3)- الاستدلال في معاني الحروف، ص: 203

على طي العلاقات الصورية القضوية الاستدلالية، بمعنى أنها تتجاوز التحديد المنطقي الذي يحصر دور الترابط في اللغة البرهانية في تحديد قيم وشروط صدق القضية، ولذلك يقول "موشلير" عن وظيفة الروابط: "يتعين دورها الوظيفي في توجيه الجمل الاستدلالية مع ربطها بظروف الخطاب، وأغراضه الاستدلالية"(1).

- **التضمين التداولي في الروابط الحجاجية:**

التضمين هو أحد مظاهر التحويل التالية: الحذف، الزيادة، التقديم والتأخير، البدل، العوض، الإنابة، وهذه المظاهر هي أشكال يتبدى فيها التحويل، وهي وسائله التي يتحقق عن طريقها، ولعل الدافع إلى التحويل هو محاولة النحاة التوفيق بين ظاهر بعض النصوص ودلالاتها، أو بين هذا الظاهر وبين قواعد النحو التي توصلوا إليها، ووفقا لذلك، فأكثر هذه التقنيات ينقسم وفقا لعلة الذهاب إليه، إلى قسمين: ما قيل به بدافع دلالي، وما قيل به بدافع صناعي(2).

ويمتاز التضمين عن غيره من المظاهر بأمرين، الأول: أنه لا يقال بالتضمين إلا مع الأفعال أو ما في معناها، والثاني: أن عملية التضمين كما يشي بذلك المصطلح تبقي على شيء من دلالة الفعل المستبدل، إذ الفعل الجديد يشرب شيئا من دلالة الفعل المحذوف، وتكون الدلالة النهائية محصلة دلالة الفعلين معا وهذا ما لا يكون مع التعويض والإنابة والبدل(3).

ويقال التضمين في حالات ثلاث: الأولى حينما يتعدى فعل لازم إلى مفعول كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾(4)، فالمعنى كما يقول الأخفش: "أَفَلَمْ يَتَبَيَّنْ لهم"(5)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن

(1)- Argumentation et conversation, Elément pour une analyse pragmatique du discours, Moechler, Paris, 1985, p: 58

(2)- الأسس المنهجية للنحو العربي، د. حسام أحمد قاسم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007، ص: 220

(3)- نفسه، ص: 267-268

(4)- سورة الأعراف، الآية: 100

(5)- معاني القرآن، الفراء (أبو زكريا يحيى ت207هـ)، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار سرور، بيروت، لبنان، دط، دت، ج333/1

يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾[1]، فقد تعدى الفعل إلى "نفسه" لأنه متضمن معنى جهل، وجهل متعد بنفسه[2].

ففي هذه الحالة، يتناوب القول بالتضمين مع القول بالحذف، وفي الحالة الثانية من الحالات، يذهب النحاة إلى التضمين في تعلق الفعل بحرف جر غير الحرف الذي يتعدى به،وذلك يتناوب التضمين مع الإبدال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾[3]، يرد مع اسم الفاعل حرف لا يناسبه، إذ الفعل -هدى- يتعدى بـــ"من" أو "اللام" أو "إلى" تقول: هديته من الضَّلال إلى الحق، وله، ولهذا فللنحاة في الآية تقديران، الأول: إبدال "عن" من "من" والمعنى: ما أنت بهادي العمي من ضلالتهم، والثاني: تضمين الفعل "هدى" معنى الفعل "صرف" ويكون التقدير كما يذكر الفراء "وما أنت بصارف العمي عن ضلالتهم"[4].

أما الحالة الثالثة من حالات التضمين، فهي عكس الأولى، حيث يأتي الفعل المتعدي لازما، أو المتعدي لفعلين متعديا لفعل واحد، ومن ذلك قولهم بتضمين "جعل" معنى "خلق" في قوله تعالى:﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾[5]، "فجعل" يجوز أن تكون "خلق"، وفي هذه الحالة تكون زينة مفعولا له، "لأن خلق لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد"[6].

إن دراسة التضمين تستدعي بحثا مستقلا لما لهذه التقنية من وظائف في النحو والتفسير والتأويل، ولكننا بصدد دراسة علاقته بالروابط الحجاجية من وجهة واحدة، هي وجهة

---

(1)- سورة البقرة، الآية: 130

(2)- البيان في غريب إعراب القرآن، الأنباري (أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ت577هـ)، تح: طه عبد الحميد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1980 ج1، ص: 123

(3)- سورة الروم، الآية: 53

(4)- معاني القرآن، للفراء، ج2، ص: 326

(5)- سورة الكهف، الآية: 07

(6)- البيان في غريب إعراب القرآن، الأنباري، ج2، ص: 100

التداولية لنبين أنه "قد يخرج الرابط عن معناه الأصلي الحرفي إلى قوة استلزامية أخرى تنتج من خلال السياق، إذ الروابط لا تكتسب وظيفتها إلا من خلال السياق التي ترد فيه"[1].

يقول السرخسي مبينا تضمين الرابط "ثم" معنى "الواو" في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "من حلف على يمين ورأى خيرا منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر يمينه"، إذ ورد حرف "ثم" بمعنى "الواو" مجازا، وذلك أن صيغة الأمر للإيجاب، وإنما التكفير بعد الحنث لا قبله، فحملنا هذا الحرف على المجاز لمراعاة حقيقة الصيغة فيما هو المقصود، إذ لو حملنا حرف "ثم" على الحقيقة كان الأمر بالتكفير محمولا على المجاز، فإنه لا يجب التكفير على الحنث بالاتفاق[2].

يحيلنا هذا القول على أن الدلالة المقصودة للرابط لا تتضح إلا داخل السياق التداولي، وقد تختلف دلالتها من تركيب إلى آخر، يقول الإمام الشافعي: تدخل الباء بمعنى "على"، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾[3]، أي "على دينار"[4]، وقال سيبويه: "وترد بمعنى أجل"، قال تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، أي و لم أكن "لأجل" دعائك شقيا، وقال غيره: بمعنى "في" أي في دعائك[5].

وإذا أخذنا الرابط "حتى" على سبيل المثال، فإنه يأخذ ثلاث صور وفق السياق التخاطبي التداولي الذي يرد فيه، ومن ذلك قولنا: أكلت السمكة حتى رأسها، أي إلى رأسها، وذلك؛ لأني في مقام تحديد الغاية وهي أكلت السمكة؛ ولكني لم آكل رأسها، وقد ترد

---

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 107

(2)- الأصول، السرخسي (أبو بكر محمد بن أحمد)، حقق أصوله: أبو الوفاء الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، دط، دت، ج1، ص: 217

(3)-سورة آل عمران، الآية: 75

(4)- البرهان في أصول الفقه، إمام الحرمين الجويني، حققه وقدمه ووضع فهارسه: عبد العظيم الديب، دار الأنصار، القاهرة، ط2، 1400هـ، ج1، ص: 180

(5)- نفسه، ج1، ص: 181

"حتى" بمعنى العطف، نحو أكلت السمكة حتى رأسها، أي ورأسها، وقد تكون "حتى" بمعنى الاستئناف، فتقول: أكلت السمكة حتى رأسها، أي: ورأسها مأكول[1].

وعلى هذا الأساس، فالكلمة في التركيب قابلة لألوان مختلفة من الإيحاء والدلالة، تستمدها من مكانها في هذا التركيب ومن علاقتها بجاراتها، ومن تأثرها بالروح المسيطر على الموقف مما تسميه البلاغة المقام.

يقول النابغة[2]:

قَالَتْ أَلاَ لَيْتَمَا هَذَا الحَمَامُ لَنَا ... إِلَى حَمَامَتِنَا أَوْ نِصْفُهُ فَقَدْ

فَحَسِبُوهُ فَأَلْفَوْهُ كَمَا ذَكَرَتْ ... تِسْعًا وَتِسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ

وقد علق ابن جني على هذا الشاهد بقوله: "وذهب قطرب إلى أن "أو" بمعنى "الواو"، يقال: معناه ونصفه، ولعمري إن هذا معناه، وكيف لا يكون كذلك، ولابد له منه؟ وقد كثرت فيه الرواية أيضا بالواو"[3].

ولعل ما يستفاد من الأمثلة السابقة، هو التوجيه الحجاجي " L'orientation argumentative" الذي عرفه موشلير وربول بأنه الوجهة المقدمة من القول بغية التوصل إلى فئة معينة من الاستنتاجات، وعلى هذا الاعتبار، فالتوجه الحجاجي هو ما تتميز به الجملة، وهو موضوع التلفظ الذي يحدد معنى القول، وعلى هذا الأساس يتم تحديد القيمة الحجاجية لقول ما، أو خطاب عن طريق الاتجاه الحجاجي الذي يكون إما صريحا أو ضمنيا (مضمرا)، يساعد على ذلك الروابط والعوامل الحجاجية المتضمنة تعليمات وإرشارات تتعلق بالتقنية التي يتم بها توجيه القول نحو نتيجة معينة[4]، هي التي تحدد القصد الحقيقي للمتكلم.

---

(1)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 108

(2)- الخصائص، أبو الفتح ابن جني، تح: محمد النجار، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان د.ط، د.ت، ج2، ص: 460

(3)- حوار حول الحجاج، العزاوي، ص: 51

(4)- نفسه

هذا عن التوجيه "المعلم" "Marqué"، كما يمكن للقول غير المعَلَّم "Nonmarqué" أن نستنتج تعليماته الحجاجية من ألفاظ الخطاب ومفرداته بالإضافة إلى مقاصد المتكلم والسياق التخاطبي العام[1].

وعلى الجملة، فإن ما يساعد المخاطب على إدراك التوجيه الحجاجي المتضمن في القول أو الخطاب، هو مجموع تلك المؤشرات المتمثلة في الروابط والعوامل الحجاجية والمقتضيات والمعاني المضمرة التي يتم اكتشافها عن طريق التحليل السلمي لبنية الجملة ونوع العلاقات الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب، إضافة إلى مقام التخاطب والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين[2].

هذه، إذن بعض التقنيات والآليات والمفاهيم الاستدلالية الحجاجية المتضمنة في معظم الخطابات والأقوال والتلفظات من كل جنس معرفي، يسعى إلى تحقيق التواصل الناجح ونؤكد هنا، أن القدرة الحجاجية كامنة في بنية اللغة، وفي قدرة المتكلم اللغوية مادامت لا تفترق عن استخدامه للغة بأدواتها المختلفة وفق نظام تراتبي معين[3].

ومن هنا وجب توسيع مجال التحليل الحجاجي ليشمل كل النصوص الأدبية وغير الأدبية، التي قلما نجد من يهتم بالبحث عن أبعادها الحجاجية وطرائق وتقنيات اشتغالها، خاصة النصوص النحوية، وقبل الولوج إلى مبحث الحجاج في الدرس النحوي لابد من توضيح علاقة النحو بالبلاغة والتداولية.

- **النحو العربي وعلاقته بالبلاغة والتداولية:**

إذا كانت البلاغة العربية وحدها قد مثلت كثيرا من مباحث اللسانيات التداولية الحديثة لما تناولته من قضايا ترتبط بالاتصال واستعمال اللغة، ولأن هذا البحث يتناول تقنيات التبليغ في مدونة النحو العربي، رأيت أنه ينبغي النظر فيما يشمله هذا النحو من مسائل ترتبط بعناصر الاتصال السابقة: المتكلم، السامع والخطاب ذاته.

---

(1)- حوار حول الحجاج، العزاوي، ص: 51-52

(2)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 109

(3)- نفسه، ص: 110

وتجدر الإشارة إلى أن النحو نفسه لم يكن بعيدا عن البلاغة، وذلك أن البلاغة كثيرا ما كانت تقيم أحكامها على المقولات النحوية، لذلك فإن الاتصال بين النحو والبلاغة وثيق منذ الدرس القديم، وعلم النحو لم يكن تناولا للبنية اللغوية دون النظر إلى أحوال الاستعمال المختلفة، حيث اهتم بمسائل مرتبطة بالمتكلم بعده منتج الخطاب، مما يظهر أثره على البنية ذاتها، وكذلك السامع وموضوع الخطاب[1].

ولأن النحو موضوعه اللغة التي تقوم على مفاهيم الاستعمال والتداول، فقد عرَّفها وعرض وظيفتها الأساسية حازم القرطاجني بقوله: "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى بعضهم على تحصيل المنافع وإزاحة المضار، وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها، وجب أن المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب وإما الاستفادة منه"[2].

وبناءا على غاية الاستفادة، فقد جعل الكلام دليلا على المعاني المتداولة بين الناس؛ لأنه يعرض حاجاتهم فيما بينهم عن طريق اللغة، التي ترتكز وظيفتها أساسا على تقديم الفائدة إلى السامع أو أخذها منه.

فاللغة ليست بنى وتراكيب مستقلة بذاتها، بقدر ما هي قائمة على الفعل الحي والأداء الفعلي الذي تتضمنه، لذلك فحاجتنا إلى النحو كحاجتنا إلى الهواء، وعلى هذا الأساس بنى عبد القاهر الجرجاني في مطلع كتابه "دلائل الإعجاز" تصوره للنحو والحاجة إليه، ومفاد نصه "أن النحو الذي يعنى بالإعراب ومشاكله من المسائل اللفظية، لا يمكن أن يعد نحوا، وأن النحو هو الوصف الذي يجاوز رصد الخصائص اللفظية إلى رصد العلاقات القائمة بين اللفظ والمعنى، باعتبار المعنى مجموع الوسائط التي تتفاعل في تحديد الصورة التركيبية للجملة"[3].

(1)- في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي، ص: 216-217

(2)- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقويم وتحليل: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1985، ص: 344

(3)- اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، دط، 1989، ص: 87-88

ويشرح"أحمد المتوكل" تصور الجرجاني للنحو، قائلا: "فالنحو في نظر الجرجاني يتجاوز النظر في العلاقات القائمة بين عناصر البنية فيما بينها، العلاقات بين البنية ذاتها، وما يمكن أن تؤديه من وظيفة وأغراض كلامية في واقع الاستعمال"[1]،إلى أن يقول: "وبهذا المعنى يمكن أن تقول؛ إن النحو الذي كان يدعو إليه الجرجاني ومن حذا حذوه من البلاغيين والأصوليين، نحو "وظيفي" باعتبار قيامه على مبدأ ضرورة الربط بين اللغة والوظيفة التي تؤديها في التواصل"[2].

وقريبا من مفهوم الجرجاني وتعليق أحمد المتوكل للنحو، ما ذكره "ابن خلدون" عن علم النحو في حديثه: "اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان"[3]، و"عبارة المتكلم عن قصده" هي "إنجاز فعل بتعبير اللسانيات الحديثة، ويتمثل قصد المتكلم في إفادة السامع بالكلام، وتفصيل أشكال الكلام حسب ابن خلدون تكون "إما تصور مفردات تسند ويسند إليها... وهذه كلها هي صناعة النحو"[4].

وعن معرفة أحوال المتخاطبين وظروف أداء الخطاب بينهم يقول ابن خلدون: "ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه"[5].

وفيما يلي عرض لبعض قضايا التواصل والتداول وفق العناصر المذكورة سابقا: المتكلم، السامع والخطاب، وفق ما أورده الدكتور "خليفة بوجادي"[6]:

---

(1)- اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، أحمد المتوكل، ص: 88

(2)- نفسه

(3)- المقدمة، ابن خلدون، ص: 565

(4)- نفسه، ص: 570

(5)- نفسه

(6)- في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي، بيت الحكمة، جامعة سطيف، الجزائر، ط1، 2008، ص: 219

أ. تداولية المتكلم في النحو العربي.

ب. تداولية السامع في النحو العربي.

ج. تداولية الخطاب في ذاته في النحو العربي.

أ. تداولية المتكلم في النحو العربي:

للمتكلم مكانة بارزة في الدرس النحوي العربي، يحددها "أبو هلال العسكري" في كتابه "الفروق في اللغة"، إذ يعتد به في كثير من المباحث نحو: "الفرق بين الكلام والتكليم، حيث "التكليم" تعليق الكلام بالمخاطب، فهو أخص من الكلام، وذلك أنه ليس كل كلام خطابا للغير، والمتكلم هو فاعل الكلام"[1]، وقد يسمى متكلما بناءا على الفعل الذي يؤديه، أما "ابن جني" فقد تجاوز هذا التحديد مرجعا "أمر الرفع والنصب والجر للمتكلم نفسه"[2]، محاولا التفريق أيضا بين (الكلام والقول)، حيث جعل القول "للخفوف والحركة وذلك أن الفم واللسان يخفان له، ويقلقان ويمذلان به (مذل المريض: فرح) وهو ضد السكوت"[3].

فالمجال الدلالي (للقول) هو الخفة والحركة، خلافا لمجال (الكلام) الذي يتحدد في القوة والشدة[4]، ويعد كل كلام قولا، ليس كل قول كلاما[5]. ويجمع الشروط التي حددها النحاة للكلام في "كل لفظ يستقل بنفسه مفيد لمعناه"[6].

وبالإضافة إلى استقلالية اللفظ وإفادة معناه، نجد شرطا آخر أضافه "السيوطي" وهو القصد الذي يقول عنه: "إنك إذا قلت قام الناس. اقتضى إطلاق هذا اللفظ إخبارك بقيام جميعهم... فعلم بهذا أن لإفادة (قام الناس) الإخبار بقيام جميعهم بثلاثة شروط، الأول: ألا

(1)- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، تح: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط4، 1997، ص: 27

(2)- الخصائص، ابن جني، تح: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، سيدنا الحسين، 1418هـ، ج1، ص: 11

(3)- نفسه، ص: 19

(4)- نفسه، ص: 26

(5)- نفسه، ص: 37

(6)- نفسه، ص: 31

تبتدئه بما يخالفه، الثاني: ألا تختمه بما يخالفه، الثالث: أن يكون صادرا عن قصد"(1)،حيث إن الكلام الصادر عن الساهي والنائم لا يعتد به لعدم توفر شرط القصد.

أما "ابن هشام"، فقد أدخل القصد في مفهوم الكلام، فقال: "الكلام هو القول المفيد بالقصد"(2)، والمراد بالقصد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، والإفادة هنا مختصة في الأصل بالمتكلم لا بالكلام الذي هو من "وضع الواضع له معناه أن جعله مهيأً لأن يفيد ذلك المعنى عند استعمال المتكلم على الوجه المخصوص، والمفيد في الحقيقة إنما هو المتكلم، واللفظ كالآلة الموضوعة لذلك"(3).

ومما تظهر فيه القيمة التداولية للمتكلم من خلال القصد قولنا(4): جاءني زيد (جملة فعلية) يظهر فيها الاهتمام بالمعنى قبل الشخص المسند إليه، زيد جاء. في (جملة اسمية) يظهر فيها الاهتمام بالشخص قبل المجيء والمسند.

ب. تداولية السامع في النحو العربي:

تتضح قيمة السامع في الدرس النحوي من خلال مفهوم الكلام وأقسامه التي حددت اعتدادا بالسامع، يقول "ابن فارس" في "باب مراتب الكلام في وضوحه وأشكاله": "أما واضح الكلام فالذي يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب"(5)، وحقيقة الكلام نفسه قائمة على "ما سُمع وفُهم وذلك قولنا: قام زيدٌ، وذهب عمروُ"(6).

والواقع إنه لا فصل بين المتكلم والسامع، وذلك أن المتكلم ذاتّه سامع وفاعل للكلام، وبالتالي فإن حضور المتكلم يستدعي وجود السامع الذي تظهر قيمته التداولية في بناء

(1)- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 1987، ج1، ص: 39

(2)- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تح: محي الدين عبد المجيد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، د.ط، 1991، ص: 431

(3)- نفسه

(4)- المقدمة، ابن خلدون، ج1، ص: 39-40

(5)- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس أحمد زكريا، حققه وقدم له: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1963، ص: 74

(6)- نفسه، ص: 81

الخطاب، والكلام عند النحاة مرتبط بالفائدة -كما سبق الذكر- أي أنه مرتبط بما يحرزه السامع من نفع، والفائدة نفسها تتحدد بالسامع دون غيره، وذلك أننا لا نتكلم من أجل لا شيء، وإنما نتكلم من أجل أن نبلغ هدفا ونحقق غاية، وفي شرح الكلام عند النحاة، يقول "ابن عقيل": "اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها... والكلم ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر، ولم يحسن السكوت عليه، نحو: إن قام زيدٌ"[(1)]، ففي العبارة المتكررة (تحسن السكوت، ولم تحسن السكوت) اهتمام بالسامع لأنه هو المقصود برد الفعل، إما أداءً أو سكوتا، أي إما أن يوافق أو يعارض.

وانطلاقا مما جاء في تعريف الكلام أو في الفروق في الكلام، ندرك أن تعريف الكلام كان بالنظر إلى موقف اتصالي ما، وهي قيمة تداولية معتمدة في بيان الكلام من غيره وعند النحاة، وخلاصة ما يحكم الفرق بين الجملة والقول، والكلام عند النحاة أربعة مقاييس، منها ما يرتبط بالمتكلم، ومنها ما يرتبط بالسامع، ومنها ما يرتبط بالخطاب ذاته، وهذه المقاييس هي: الإسناد، القصد، الإفادة وحسن السكوت، ونشير هنا إلى أن هذه المقاييس لا تتحقق إلا بالاستخدام الفعلي للغة[(2)].

ج. تداولية الخطاب في ذاته في النحو العربي:

من مباحث الاهتمام بالخطاب ذاته في النحو العربي، التعبير بالجملة الفعلية واختلافه عن التعبير بالجملة الاسمية، حيث يكون الأول عندما يتلقى السامع الخبر لأول مرة، وليس لديه فكرة عنه، أما الثاني، فيكون حين يملك السامع على الأقل أدنى معرفة بموضوع الحديث، لكن المتكلم يرسله بقصد ومبالغة.

ولقد ذكر "ابن الأثير" أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[(3)]، فقد عبروا بالفعلية حين حديثهم

(1)- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ومعه كتاب منحة الجليل، بتحقيق شرح ابن عقيل، محي الدين عبد المجيد، تح: شرح ابن عقيل، دون بيانات، ط2، ج1، ص: 14

(2)- في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي، ص: 224

(3)-سورة البقرة، الآية: 14

عن المؤمنين وبالاسمية مع إخوانهم الكفار، "لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد... وأما الذي خاطبوا به المؤمنين فكان تكلفا وإظهارا للإيمان خوفا ومناجاة،"ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين يمثل ما خاطبوا به إخوانهم"[1].

وتَحَدَّث النحاة أيضا عن الوحدات اللغوية نحو الضمائر، أسماء الإشارة، الظروف الزمانية والمكانية، وزمن الفعل... وغيرها من الوحدات التي لا تتحدد مدلولاتها إلا بالنظر إلى عناصر المقام والعبارات التي ترد فيه، وهي بذلك دلالات تداولية اشترك في دراستها النحويون قديما واللسانيون التداوليون حديثا[2].

وعلى سبيل التمثيل، نذكر ما قدمه "سيبويه" في نظرته إلى المعنى وعلاقته بالبنية، إلى جانب ربط ذلك بمدى صحته في الاستعمال ومطابقة الكلام للواقع، حيث جعل المعنى في العربية خمسة أقسام[3]:

1. مستقيم حسن: أتيتك أمس، سآتيك غدا.
2. محال: أتيتك غدا، وسآتيك أمس.
3. مستقيم كذب: حملت الجبل، شربت ماء البحر.
4. محال كذب: سوف أشرب ماء البحر أمس.
5. مستقيم قبيح: قد زيداً رأيتُ.

ومن أهم مباحث النحو العربي التي اهتمت بتداولية الخطاب أيضا: الفصل والوصل، الحذف، التقديم والتأخير وغيرها من التقنيات اللسانية التي ستكون لنا معها وقفة مطولة في دراسة الجزء الثاني من تقنيات التبليغ اللساني وغير اللساني، وقبل ذلك سنقف مع الحجاج في الدرس النحوي.

---

(1)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد الموصلي ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1990، ج2، ص: 51

(2)- في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي، ص: 229

(3)- الكتاب -سيبويه- شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ج1، ص: 25-26

المبحث الثاني: الحجاج في الدرس النحوي العربي:

توطئة:

يعمل كثير من نحاة العربية في دائرتين:

أ. دائرة الأحكام النحوية المطلقة المتفق عليها بين جمهور النحاة، وهي الأحكام التي تؤدي بمتعلميها إلى انتحاء سمت العرب في كلامها إعرابا وبناءا ، تقديما وتأخيرا، حذفا وإظهارا، وتحويلا للكلمة من شكل صحيح إلى آخر.

ب. وأما الدائرة الثانية فهي دائرة البحث النحوي في مستندات أحكام النحو وعللها، وتنقيح المدونة النحوية صياغة ومصطلحا، استدراكا وتنبيها، اعتراضا وأخذا، ردا وتدقيقا... وغيرها من وجوه البحث فيما وراء الأحكام النحوية، وهذه الدائرة أوسع من الدائرة الأولى وأكثر منها تشعبا، إذ فيها يطحن الفكر النحوي ويعجن ويخبز، وإن كان "الشاطبي" يرى أن العلم بما في هذه الدائرة متمم وليس بواجب، إذ لا ينبني عليه من انتحاء سمت كلام العرب شيء[1].

وعلى هذا الأساس، وجب أن نُنَبِّهَ إلى الفرق بين هاتين الدائرتين، وهو فرق في الهدف من تناول النحو، هل هو تعليمي؛ فيقتصر على شرح الأحكام العامة المؤدي تطبيقها تطبيقا سليما إلى انتحاء سمت كلام العرب الفصحاء المحتج بلغتهم؟ أم هو علمي بحثي؛ ينشد البحث عن الحكمة من وراء تناسق اللغة في الاستعمال؟

وسواء أكان ذلك الاستعمال مقيسا مطردا أم شاذا محدودا فعندما يعمل النحوي في دائرة النحو التعليمي لا يرى في النحو العلمي البحثي فائدة علمية، لكنه عندما يؤوب إلى دائرة النحو العلمي يحرص كل الحرص على ردف الحكم النحوي بالحجة والدليل[2].

(1)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 69

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، م 40، ع 02، ص: 119

ولقد أشار "الزجاجي" قبل منتصف القرن الرابع الهجري إلى هذه الرؤية للنحو العام في كتابه "الجمل في النحو"، إذ عمل فيه على الأحكام التعليمية، مكتفيا بالحديث عن أقسام الكلام حيث قال: "أقسام الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى"(1)، لكنه عندما ألف كتاب "الإيضاح في علل النحو" طفق يقيم الحجج والبراهين على انحصار كلام العرب في هذه القسمة الثلاثية(2)، معلنا أن "النحو علم قياسي ومسبار لأكثر العلوم لا يقبل إلا ببراهين وحجج"(3).

وتساوقا مع هذا، فالبحث فيما وراء اللغة نحوها وصرفها وأصواتها ودلالاتها إنما هو بحث في النظرية العامة للغة، تلك النظرية التي تضيء للمشتغلين في اللغة طريقهم في التعليم والبحث معا، وذلك أن النحوي قاض بين الناس في كلامهم، يحكم على صحة سبك كلامهم بالأدلة والبراهين، وذلك أن الدليل مؤد للحكم، وإن كان في ذاته لا يمثل حكما، وهكذا فأدلة النحو ليست أحكاما، لكنها براهين مؤكدة صحة الأحكام، وهذه البراهين يمكن أن يقع فيها الخلاف، لأنه يمكنها أن ترد أو تنقض، شأنها في ذلك شأن الأدلة في القضاء، إن لم تكن قطعية الدلالة. وطبيعي أن توابع الأحكام من مستندات وتفسيرات وأدلة أكبر حجما من منظومة الأحكام نفسها(4).

ويعلق المستشرق "كيس فريستيج" على رؤية الزجاجي للنحو قائلا: "استنتج الزجاجي أن الدليل القطعي على دقة الظاهرة اللغوية (الأحكام) يتكون فقط من شهادة مرجع معين، مثل: القرآن الكريم أو الشعر الجاهلي أو لغة الأعراب، في حين يؤدي استخدام القياس لدى علماء اللغة وظيفة التفسير الإضافي فقط، أو الدعم في اختيار البدائل"(5)، يعني هذا -من منظور السيوطي- أن المستند الأول في إثبات صحة الأحكام هو النص الذي يعبر عنه في الممارسة النحوية بالسماع أو بالنقل أو بالاستقراء، وفي حين أخرى يأتي مستند

(1)- الجمل في النحو، الزجاجي عبد الرحمن بن إسحاق، تحقيق: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ص: 01

(2)- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1979، ص: 41-45

(3)- نفسه، ص: 41

(4)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 120

(5)- أعلام الفكر اللغوي، التقليد اللغوي القرآني، كيس فريستيج، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديدة، لبنان، ط1، 2007، ج3ن ص: 711

القياس بعدَه بوصفِه تفسيرا عقليا أو برهانا إقناعيا، إذ لابد لكل قياس من مستند من السماع[1].

يؤكد ما سبق، ما ورد على لسان الشاطبي من أن: "المتبع هو السماع، والقياس إنما يأتي من ورائه"[2]، و"لا قياس مع مخالفة السماع"[3]، و"القياس إذا وُجِدَ السماع بخلافه متروك"[4]، لأن احتذاء السماع يؤدي إلى استمرار النطق بلغة العرب[5]، المبني نحوها وصرفها على تقنين كلامهم.

فالسماع والقياس هما ركنا القاعدة النحوية الصرفية، نستشف ذلك من ممارسة العمل النحوي عبر تاريخ النحو لأكثر من اثني عشرة قرنا، إذ سارت هذه الممارسة تدعم هذين الركنين (السماع والقياس) انطلاقا من البحث المتواصل في تنقيحهما مستفيدة بذلك من الروافد الثقافية للنحو العربي كالفقه وأصوله، والمنطق وتثبيت الصورة النحوية والصرفية للغة العربية، لذلك ألفينا النحاة ينتقلون إلى مرحلة التدقيق في لغة التأليف النحوي، الأمر الذي أدى إلى نشوء ظاهرة الردود والاستدراكات، والاعتراضات والموافقات، والشروح وغيرها من صور الحجاج في النحو العربي[6].

إن التنظير الموروث يقوم على الصورة العامة لأصول الفقه في الإسلام التي تبني الأحكام على النص المتمثل في القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم القياس، ثم الإجماع، ثم الاستحسان، ثم الاستصحاب[7]، وهذا التنظير غير متعارض مع النحو العربي بشكل عام،

(1)- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، قرأه وعلق عليه: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 2006، ص: 14

(2)- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، إبراهيم بن موسى الشاطبي، باعتناء معهد البحوث العلمية، ومركز إحياء التراث في جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 2007، ج4، ص: 38

(3)- نفسه، ج2، ص: 200

(4)- نفسه، ج1، ص: 305

(5)- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط، 1990، ج1، من ص: 118 إلى ص: 134

(6)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 121

(7)- رأي في أصول النحو وصلته بأصول الفقه، مصطفى جمال الدين، مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران، 1990، ع 15، ص: 98-150

لكنه لا يمثل وحده حقيقة الحجاج في الدرس النحوي للعربية[1]، كما أن الإجماع والاستحسان والاستصحاب ظلال للسماع والقياس، ولذلك يمكن تجاوز الاستحسان والاستصحاب لأنهما لا يناسبان الطبيعة العقلية للنحو العربي، أما الإجماع فإنه يجد مكانه في مسالك الحجاج لا في أصوله[2].

- **تقنيات الحجاج في النحو:**

أضحى مصطلح الحجاج غير محصور "في استعمالات خطابية ظرفية، بل صار بعدا ملازما لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل"[3].

أما في النحو فيدل مصطلح الحجاج على ما تَصِحُّ به مصطلحات النحو وأحكامه وقواعده في الوجوب والجواز والامتناع، ولصحة المصطلحات مجالان، أولاهما: الاستعمال الموروث لأنحاء الكلام في العربية، إذ لا يجوز الحجاج حول وجود ضمة ظاهرة على الاسم المفرد الطبيعي المرفوع على الفاعلية، ومن هنا وجب ألا يتصف الحجاج فيه إلا بصفة الصدق أو الحقيقة.

وثانيهما: الحجاج في ما وراء الاستعمال كتعليل وجود الضمة تحديدا على الاسم المرفوع على الفاعلية، أو علاقة الفاعل بالمبتدأ، أوباسم كان وأخواتها، أو بخبر إن وأخواتها، وهذا المجال هو الذي تقع فيه الحجة المضادة أو الحجة الخطأ، أو المردودة، إذ الميدان العام للحجاج[4] "ليس الصادق الضروري"[5].

(1)- رأي في أصول النحو وصلته بأصول الفقه، مصطفى جمال الدين، ص: 135-139

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 121

(3)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، (عناصر استقصاء نظري ضمن كتب: الحجاج، مفهومه ومجالاته)، أ. حبيب أعراب، ص: 100

(4)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 124

(5)- نفسه

يستنتج مما قيل، إن مصطلح الحجاج النحوي أوسع من المصطلح الموروث المتداول في أعمال نحاة العربية، وهو مصطلح "الاحتجاج" الذي يكتفي بإثبات مستند صحة أحكام النحو وقواعده، وعلى هذا الأساس، فالحجاج النحوي في العربية يسير في مسارين[1]، الأول: يتضمن إثبات حجية القاعدة النحوية وذلك بإبراز مستند بنائها وتقنينها من كلام العرب، فيكون هذا المسار معادلا لظاهرة السماع، كالاستدلال بقول "امرئ القيس"[2] على جزم الفعل المضارع في جواب الطلب بحذف حرف العلة من آخره إن كان معتل الآخر، إذ قال[3]:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ   بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ

فالملاحظ في الفعل المضارع "نبك" أن ياءه قد حذفت بسبب الجزم في جواب الطلب، ولا يمكن إرجاع "الياء" حتى لا ينكسر الوزن العروضي للبيت، وقد شكل هذا المسار من الحجاج ما عرف بالشواهد النحوية[4].

أما المسار الثاني، فيكتفي بالتركيب المنطبق تمام الانطباق مع الحكم النحوي أو القاعدة النحوية، وهو ما عرف بظاهرة التمثيل بالإتيان بمثال يدل على مقتضى قواعد النحو؛ كالتمثيل على المبتدأ المرفوع المعرف بأل التعريف بقولنا: "الجوُّ جميلٌ"، فكلمة "الجو" مبتدأ مرفوع معرف عملا بمقتضى القاعدة السابقة[5].

وبعد عرضنا للمسارين، نشير إلى أن الفرق بينهما يمثل قسمة زمانية، فما يسبق زمن تقعيد القواعد النحوية يدعى شاهدا، وما يُتْبَعُ زمان التقعيد يسمى مثالا، وهكذا تكون

---

(1)- الحجاج في الشعر العربي القديم، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008، ص: 24

(2)- ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 29

(3)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 124

(4)- نفسه

(5)- نفسه

القواعد النحوية قد قسمت كلام العرب إلى عصرين، واستمدت مشروعيتها وصدقيتها من العصر الأول، لتعمل في مواصلة الحياة اللغوية للغة العربية في العصر الثاني[1].

فالزمان اللغوي مكان لغوي في الآن ذاته، ولهذا كان الحجاج في الشواهد ظاهرة "زمكانية" أطرت الزمان والمكان لتستمد بعد التقنين والتقعيد في مطلق الزمان والمكان[2].

يستخلص بعد هذا أن الشاهد والمثال يشكلان الاتجاه النصي في الحجاج، بينما تأتي الحجج العقلية غير النصية في الاتجاه الثاني ضمن ظاهرة القياس وتوابعها، متحللة من الإطار الزمكاني، وفي مقابل ذلك، فهي غير متحللة من الفضاء المعرفي وامتداداته في المعارف والعلوم والثقافات، وهي في حالة النحو العربي تعادل الكون، بينما يعادل النص الحياة، وهكذا، فإن ظاهرة القياس امتداد في الحجاج بعد امتداد، ذلك أن النحوي عندما يقيس إنما يحاول اكتشاف شيء جديد في الكون النحوي الواسع، لا لمجرد الاكتشاف، بل لمحاولة تفسير الحياة اللغوية للغة العربية على الأقل[3].

وعلى هذا الأساس وجدنا ركنين للحجاج: السماع والقياس.

- **ركنا الحجاج:**

الركن ما لا يتم الشيء إلا به، حتى لا وجود له إلا به[4]، مثل أركان الإسلام، وللنحو العربي ركنان، لا خلاف في ضرورتهما له بمفهومه العلمي البحثي، وهما: السماع والقياس، ولا يمكن لأي حجاج في النحو أن ينكر أيا منهما على الجملة، أو يتجاوز الاعتماد عليهما خاصة السماع، ذلك أن إنكاره أو استبداله يخل بالنحو العربي، لهذا كان النحاة أحرص العلماء على رواية الشعر الجاهلي وشرحه شرحا لغويا، كالأصمعي، والأخفش الأوسط، والجرمي وأبي حاتم السجستاني وابن السكين، وغيرهم من النحاة.

---

(1)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 125

(2)- نفسه

(3)- نفسه

(4)- أصول التفكير النحوي، د. علي أبو المكارم، منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص: 34

أ. السماع:

السماع في اللغة أو السمع مصدر الفعل سمع، والسمع حسن الأذن، وفي التتريل العظيم، قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1]، وفسره الإمام اللغوي "أحمد بن يحي ثعلب (ت.291هـ)" معناه خلا له، فلم يشتغل بغيره، وقد سمعه سَمْعًا، سِمْعًا، سَمَاعًا، سماعةً، سَمَاعِيةً، قال اللحياني: وقال بعضهم: السمع المصدر، السمع الاسم، السمع أيضا الأذن، والجمع أسماعٌ[2].

قال ابن السكيت: السمع، سمع الإنسان وغيره يكون واحدا وجمعا، وأما قول "الهذلي":

فَلَمَّا رَدَّ سَامِعَهُ إِلَيهِ وجَلَّى عَنْ عِمَايتهِ عَمَاهُ

فإنه عني بالسامع الأذن، وذكر بمكان العضو سمعه الخبر وأسمعه إياه[3].

والسماع بهذا المعنى حاسة من الحواس الفطرية والعضوية، والمسؤول عن إنجاز هذه العملية هو الأذن بالاشتراك مع الأعضاء الأخرى، فهو عملية لاشعورية لا يتحكم الإنسان فيها، حيث يولد المولود مزودا بمقدرة على التقاط كل الأصوات الواقعة في حيز الاستقبال، إثر نموه على إدراك كل ما يسمعه، وبناءا على هذه المسموعات يمتلك الطفل المعطيات اللغوية الأولى، فيستوعبها على ضوء ما توفر لديه من استعدادات فطرية، كما يقول "ميشال زكريا" في ضوء هذا الانطباع، "يشبه ذهن الطفل آلية مبرمجة هيأها الطبيعة البشرية لإتمام عملية التعلم"[4].

---

(1)- سورة ق، الآية: 37

(2)- لسان العرب، ابن منظور، مادة (سمع)، دار صادر، بيروت، دط، دت، ج8، ص: 162

(3)- لسان العرب، مادة (سمع)، ج8، ص: 162

(4)- مباحث في النظرية الألسنية وتعلم اللغة، ميشال زكريا، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، لبنان، د.ط، د.ت، ص: 27

ويعرف السماع بأنه "الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها"[(1)]، ويقوم المنهج الوصفي في البحث اللغوي أساسا على السماع، وذلك أن الخطوات الثانية للبحث، إنما تكون بعد جمع المادة التي يجري ملاحظتها ودرسها[(2)].

وقد وضع "السيوطي" تحديدا لمعنى السماع بأنه "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، وكلام نبيه -صلى الله عليه وسلم- وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا، عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لابد في كل منها من الثبوت"[(3)].

وترى "خديجة الحديثي": أن السماع هو المصدر الأول الذي دوّن العلماء اللغة بموجبه، والطريق الطبيعية التي تعرف بها أسرار اللغة، وتتوضح خصائصها، كما أنه أقرب سبيل إلى ضبط اللغة العربية ومعرفة المستعمل منها وغير المستعمل، إذ إن اللغات في أصلها نقلية، والسماع هو الأساس في معرفة خصائصها[(4)].

وهو أصل من أصول النحو، ودليل من أدلته، وقد أطلق عليه ابن الأنباري (ت577هـ) النقل[(5)]، فقال: "أما النقل فالكلام العربي الفصيح المنقول الصحيح الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة، وخرج عنه إذن في كلام غير العرب من المولدين، وما شذَّ عن كلامهم كالجزم بـــ(لن) والنصب بـــ(لم)" [(6)].

واعتمد عليه علماء اللغة الأوائل في بحثهم، واشترطوا أن يكون الناقل قد سمع من العرب الفصحاء حسا، أو أن يسمع من الناقل حسا[(7)]، وحدده"ابن خلدون" بقوله: "السمع أبو الملكات".

[(1)]-أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص: 34

[(2)]- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، طبعة 1412هـ، ص: 166

[(3)]- الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي حيدر أباد، ص: 48

[(4)]- الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، مطبوعات جامعة الكويت، د.ط، 1974، ص: 134

[(5)]- اللغة والمنطق في الدراسات الحالية، د. عبد الرحمن أيوب، ص: 87، وكذلك: الإغراب في جدل الإعراب، ص: 45

[(6)]- شرح شواهد المغني للسيوطي، ج2، ص: 674

[(7)]- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، شرح وتعليق: منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1987، ج1، ص: 59

واهتم سيبويه بالمسموع من اللغة جَرْيًا على طريقة أساتذته ومنهجهم في وصف اللغة إيمانا منه بأن اللغة المجموعة عن طريق السماع، هي المعين الرئيس للاتصال بناطقي اللغة، والسبيل الوحيد لربط البحث اللغوي بالواقع، ودليل قاطع على صدق الأحكام اللغوية المستقراة[1].

وهو لذلك -أي سيبويه- وجدناه قد أورد في الكتاب خمسة وأربعين عبارة تحمل كلمة السماع، أو قول سمع من عربي، وإن لم يعرف مصطلح السماع مثلما عرفه السيوطي (التحديد السابق). وإن الناظر في تحديد السيوطي لمعنى السماع ليرى رأي العين أن السماع هو المتداول والمتعارف عليه، وبكثرة من كلمات وجمل وتراكيب، وكذا في طريقة التعلم، ولقد تم تحديد المدونة اللغوية الفصيحة بالقرآن في المترلة الأولى، ثم الشعر الجاهلي ثم بكلام العرب، و لم يكن الحديث الشريف بحجة، ومرد ذلك أنه مروى بالمعنى لا باللفظ[2].

ونظرا للأهمية القصوى للسماع تعددت الدراسات عنه وعن مداه الزماني والمكاني وأشكال مادته اللغوية وأساليب التوثيق والاختيار، وتحوله من سماع إلى رواية واستقراء بفعل سعة الهوة الزمنية بين النحاة المتأخرين وعصور الاحتجاج[3].

ب. الرواية:

الرواية هي الطريق الثاني الذي لجأ إليه اللغويون والنحاة في المرحلة الأولى لاستقصاء المادة اللغوية واستقرائها، حيث ظل مفهومها محصورا في الشعر وحده حتى نهاية القرن الأول الهجري، وبداية القرن الثاني وعنوا بها "مجرد الحفظ والنقل والإنشاد له، لا يتجاوز الشعر إلى

(1)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. نوزاد حسن أحمد، دار دجلة، المقنز للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006، ص: 38

(2)- إشكالية تعلم مادة النحو العربي في الجامعة، حمار نسيمة، منشورات مخبر الدراسات اللغوية في الجزائر، جامعة تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص: 21-22

(3)- الأصول، دراسة أبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (نحو فقه لغة بلاغة)، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1982، ص: 78-120

النثر، ولا تتعدى النقل إلى الضبط والتحقيق، والنظر والتمحيص، وفي هذا يقول "ابن المنكدر التميمي" (ت130هـ): "ما كنا ندعو الرواية إلا رواية الشعر"[1].

ولكن هذا المفهوم لم يلبث أن تطور، إذ غدت الرواية تعني الشعر وغيره، كما عني العلماء بالضبط والتمحيص، والتحقيق والشرح، والتفسير والإسناد، ومن أجل ذلك رسموا للسماع والرواية أطرا ومبادئ يسيرون على هديها، واسْتَنُّوا القوانين والشروط التي يجب أن تتوافر في عناصر كل من السماع والرواية، وفرضوا على هذه العناصر حدودا وضوابط مشددة حتى غدت سنة متبعة بينهم ومنهجا متعارفا عليه، وعرفا يتوارثه العلماء[2].

وعلى الرغم من كل ما قيل، تبقى دراسة السماع شكلا من أشكال الحجاج الذي لا ينتهي للحاجة المتصلة دائما إلى إعادة النظر فيه، كلما ظهرت زاوية معرفية أو منهجية جديدة[3].

وانطلاقا من الاستعمال الحي الفصيح للعربية، لم يكن أمام نحاة العربية الأوائل مناص من تقنين نحو العربية تركيبا وبنية، لتبرئة أنفسهم براءة قاطعة من تهمة صنع قوانين للعربية غير مستندة إلى النصوص الماقبلية التي سبقت في الاستعمال الحي قوانينهم وتقنيناتهم، لأن النص القرآني المترل بلسان العرب نص فصيح معرب معجز، إذ استمداد القوانين النحوية والصرفية من النصوص الجاهلية التي سبقت في الزمن القرآن الكريم جعل منها شاهدا شهادة صدق، حتى إن النحاة لم يتصرفوا في إعراب النص القرآني على الرغم من تعدد قراءاته، لهذا زخرت كتب التفسير -كتفسير الطبري- بالشواهد الشعرية الجاهلية، لأن الشاهد اللغوي الجاهلي شاهد على أمرين متلازمين[4]:

- الأول: صحة البنية الإعرابية والصرفية والدلالية والصوتية للنص القرآني.

---

(1)- ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية بين علماء اللغة القدامى والمحدثين، د. عبد الفتاح حسن علي البجة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1998، ص: 48

(2)- نفسه: ص: 49

(3)- الحجاج في الدرس اللغوي، حسن خميس الملخ، ص: 126

(4)- نفسه

- والثاني: صحة القاعدة النحوية والصرفية التي استنبطها النحاة من تتبع كلام العرب في النصوص اللغوية الجاهلية.

ج. الاحتجاج:

انطلاقا من السماع والرواية، نشأ الاحتجاج الذي يراد به إثبات صحة قاعدة أو تركيب بدليل نقلي صح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة(1)، وإنما احتاج العلماء إليه، خوفا من تفشي اللحن في اللغة العربية، بعد أن امتزج العرب بالأعاجم بعد الفتح الإسلامي، الأمر الذي نتج عنه أخذ وعطاء في الأفكار والأخلاق واللغة والأعراف، هذه النتيجة التي تؤدي بالضرورة إلى نتيجة أخرى فحواها؛ فساد اللغة وانتشار العصبية، وبالتالي التفريط في حماسة الدين، حيث إن سلامة أحكامه مرهونة بحسن فهم النص القرآني، لذلك قام العلماء بدراسة أحوال الرواة من أهل البادية، والحضر قدماء ومحدثين، ونقدوها وأجمعوا على الاحتجاج بقول يوثق بفصاحته وسلامة عربيته زمانا ومكانا وأحوالا(2).

فأما المكان: فقد اعتمد اللغويون على فئتين من الناس في جمع المادة اللغوية، أعراب البادية، مصوبين أنظارهم صوب بوادي الجزيرة العربية بحثا عن العرب الذين لم يخالطوا العجم، ثم فصحاء الحواضر سواء الأعراب الوافدون الذين استوطنوا الحواضر أم الذين اكتسبوا اللغة عن طريق الدراسة في الحواضر الكبرى.

وأما الزمان: فيمثل الفترة التي تقبل منها المسموعات والمرويات اللغوية، ولعل "أبا عمرو بن العلاء (ت154هـ)" هو المسؤول الأول عن تقنين عصر الاستشهاد وتحديده زمنيا، إذ جعل منتصف القرن الثاني الهجري حدا لنهاية الاحتجاج في اللغة النحو، جاعلا إبراهيم بن هرمة المتوفى بعد سنة 150 للهجرة آخر من يحتج بشعرهم(3)، يؤكد هذا جلّ العلماء والباحثين من أنّ "أول من بدأ التحريات اللغوية هو أبو عمرو بن العلاء المتوفى (154هـ)، فهو المؤسس الأول للجغرافية اللغوية، ولم يسبقه إلى ذلك أحد، تحول من العراق إلى اليمن،

(1)- من تاريخ النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1978، ص: 17

(2)- نفسه، ص: 19 وما بعدها

(3)- نظرية الاكتمال اللغوي عند العرب، د. أحمد طاهر حسين، القاهرة، د.ط، 1987، ص: 258-259

ومن الحجاز إلى البحرين[1]، وكان اهتمامه باللغة ورواياتها أكثر من اهتمامه بالأقيسة والقواعد، ومع هذا فله آراء نحوية"[2]، وقد خلفه بعد ذلك ثلاثة من العلماء: أبو زيد الأنصاري (ت205هـ)، وأبو عبيدة (ت211هـ)، والأصمعي (ت216هـ)[3].

وإذا صح القول بأن العلمية تبدأ من اعتماد اللغة المنطوقة على المكتوبة، فإن اللغويين العرب هم الأسبق إلى ذلك قبل غيرهم، إذ أخذوا اللغة من أفواه الفصحاء الذين لا يعرفون اللكنة اللغوية، أو ما يعكر صفو لغتهم التي يتلاغون بها، وعلى هذا يكون: "السماع عند علماء العربية يؤكد أصالة مبدأ دراسة اللغة المنطوقة وسبقها على اللغة المكتوبة Written Language، وهو عكس ما سار فيه تطور الفكر اللغوي الغربي الذي بدأ بالنصوص المكتوبة لينتهي إلى اللغة المنطوقة أو المسموعة"[4].

- **تقنية الشاهد Illustration:**

أ. الشاهد في اللغة:

جاء في لسان العرب عن ابن سيده: الشاهد، العالم الذي يبين ما علمه...وشهد الشاهد عند الحكم، أي بين ما يعلمه وأظهره، والشاهد الشهيد الحاضر، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾[5]، أي على أمتك بالإبلاغ والرسالة، وقيل: مبينا، قال مجاهد: (ويتلوه شاهد منه) أي حافظ ملك.

وروى شمر في حديث أبي أيوب الأنصاري: أنه ذكر صلاة العصر، قال: ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد، قال: قلت لأبي أيوب: ما الشاهد؟ قال النجم كأنه يشهد في الليل أي يحضر ويظهر، وصلاة الشاهد" صلاة المغرب، والشاهد: اللسان من قولهم لفلان، شاهد

---

(1)- إشكالية تعليم مادة النحو العربي في الجامعة، حمّار نسيمة، ص: 22

(2)- المدارس النحوية، خديجة الحديثي، دار الأمل، أربد، الأردن، ط3، 1422هـ/2001، ص: 60

(3)- العربية وعلم اللغة البنيوي، دارسة الفكر اللغوي العربي الحديث، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 1996، ص: 33

(4)- نفسه

(5)- سورة الأحزاب، الآية: 45

حسن، أي عبارة جميلة... وقال ابن الأعرابي أنشد أعرابي في صفة فَرَسٍ: له غائب لم يبتذله وشاهد. قال الشاهد من جريه ما يشهد له على سبقه وجودته[1]،

وبتأمل هذه المعاني يتبين لنا طريقنا لفهم الشاهد ودوره وأهميته، إذ نفهم[2]:

1. البيان والإعلام والإبلاغ.
2. الحضور والظهور.
3. الحفاظ.
4. اللسان والعبارة.
5. العلامة والأمارة.

ب. الشاهد في الاصطلاح:

الشاهد مصطلح من المصطلحات التي هاجرت وسافرت كثيرا بين رياض المعرفة العربية الإسلامية من فقه، وحديث، وفتوى وقضاء وغيرها.

ففي اصطلاح القوم (أي المتصوفة)، يدل الشاهد عما كان حاضرا في قلب الإنسان وغلب عليه ذكره، فإذا كان الغالب عليه العلم، فهو شاهد علم، وإن كان الغالب عليه الحق، فهو شاهد حق[3].

والشاهد عند أهل المناظرة كما حكى "التهانوي" ما يدل على فساد الدليل للتخلف أو لاستلزامه المحال، وبهذا المعنى وقع الشاهد في تعريف النقض الإجمالي[4].

أما السيد الألوسي، فإنه قد فرق بين الشاهد والمثال قائلا: "اعلم أن المثال هو الجزئي الذي يذكر لإيضاح القاعدة وإيصالها إلى فهم المستفيد ولو بمثال جعلي، وأن الشاهد هو الكلي الذي يذكر لإثبات القاعدة كآية من التريل، أو قول من أقوال العرب الموثوق بعربيتهم، فالفرق بينهما بالعموم والخصوص المطلق، فإن كل ما يصلح شاهدا يصلح مثالا،

---

(1)- لسان العرب، ج3، (شهد)، وينظر كذلك: القاموس المحيط، ج1، ص: 305-306

(2)- منهج سيبويه في الاحتجاج بالقراءات ولها، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، د.ط، 2010، ص: 33-34

(3)- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت716هـ)، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1992، ص: 164

(4)- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، تح: لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1977، ج4، ص: 99

من غير عكس كلي، إذ لا يلزم أن يكون الجزئي مذكورا بعد الحكم الكلي فضلا عن كونه مثالا أو شاهدا"[1].

وهكذا، فإن الشاهد مَتْنُ قوانين النحو، ومستند براءة النحاة من أي اصطناع للأحكام من غير الاتكاء على المسموع، إذ "النحويون لا يخترعون الكلام من عند أنفسهم على غير سماع من العرب"[2]، وبغية ذلك تشتد الحاجة إلى إبرازه في معرض الدفاع عن أحكام النحو، فكان من البديهي أن يكثر –سيبويه– في كتابه من الشواهد؛ لأنه يقدم الصورة المتكاملة الأولى للنحو العربي، وبعده حذا حذوه أتباعه كالأخفش الأوسط، والمازني والمبرد والزجاج، والزجاجي والسيرافي، وأبي علي الفارسي والروماني وغيرهم، وذلك أن الشاهد كان وسيلة لتثبيت أحكام النحو، ولكن بعد مرور الزمن بقرنين دل الشاهد على صدقية استنباط النحاة لأحكام النحو، وكان الأحرى التقليل من الشواهد، غير أن عقدة الاتهام لازمت النحاة، فجعلوا من الشاهد تقنية تعليمية توضح قواعدهم وضوابطهم[3].

ومعلوم أن توضيح قواعد النحو بابه الأمثلة والشواهد لأعراف الزمان والمكان، وقد يكون ضمن هذه الأمثلة بعض الشواهد المناسبة لا لأنها شواهد فقط، وإنما لكونها أمثلة توضيحية للقواعد النحوية، خاصة وأن هناك بعض الشواهد عويص الفهم لتقادم عهده، الأمر الذي سيعيق حتما عملية فهم البعد النحوي في ذلك الشاهد.

حري بالذكر، أن الشاهد النحوي شاهد عدل، يستمد عدالته من زمنه،وطريق وصوله، ومكان قائله، وثبوته بلفظه الأول من غير تعديل أو تحريف أو تصحيف، وذلك أن العلاقات النحوية علاقات بين الألفاظ في الأصل يدرك المعنى بتضامنها لاحقا، لهذا لم يقع جمهور النحاة –كما سبق الذكر– في فخ الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف، مع أن قائله أفصح العرب قاطبة، إذ أجاز المحدّثون رواية الحديث بالمعنى لأنهم ينقلون المعاني[4]، قال

---

(1)- إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد، محمود شكري الألوسي (ت1342هـ)، تح: عدنان الدوري، وزارة الأوقاف العراقية، د.ط، 1402هـ، ص: 61-62

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 130

(3)- نفسه

(4)- نفسه، ص: 130-131

الشاطبي عن أئمة الحديث: "المقصود الأعظم عندهم فيه إنما هو المعنى لتلقي الأحكام الشرعية لا اللفظ،...، لأن المعاني إذا سلمت في النقل فلا مبالاة بمجرد الألفاظ إلا من باب الأولى"[1].

واعتمادا على مبدأ "ما تسرب إليه الاحتمال بطل به الاستدلال"[2]، لم يحتج جمهور النحاة بالأحاديث من باب سد الذرائع وحفظ مقاصد النحو، وهو من جملة تحريهم في المحافظة على القواعد اللسانية[3]، وإن لم يُشِرْ المتقدمون إلى علل عزوفهم عن الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة[4].

ولا يعني هذا أن الأحاديث النبوية ليس فيها ما يصح أن يكون في أعلى مراتب الاستشهاد، ولكن ينبغي الاحتراس من التفريق بين النحو واللغة، إذ اللغة تقوم على المعاني، بينما يقوم النحو على التراكيب والمباني، لهذا فلا خلاف في أن الحديث النبوي الشريف حجة مطلقة في الدلالة اللغوية لا الدلالة النحوية، والتوثق من لفظ الحديث ليس من عمل النحوي، بل هو من عمل المحدِّث، لذلك تجنب النحاة القول فيما ليس لهم به علم احتياطا لا إنكارا[5].

وعلى هذا الأساس، ومما وقع عليه الإجماع من أئمة فقه اللغة والنحاة، أن الشواهد لا تخرج عن قسمين رئيسين هما: القرآن الكريم، وكلام العرب شعره ونثره، واختلف في الحديث وآثار المولدين اختلافا كبيرا.

1) **الشاهد القرآني:** قال صاحب خزانة الأدب: "كلامه عَزَّ اسمه أفصح كلام وأبلغه؛ ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه"[6].

---

(1)- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، الشاطبي إبراهيم بن موسى، معهد البحوث العلمية ومركز إحياء التراث في جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 2007، ج3، ص: 405

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 131

(3)- المقاصد الشافية، للشاطبي، ج3، ص: 402

(4)- في أصول النحو العربي، السعيد شوقة، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط1، 2008، ص:

(5)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 131

(6)- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شرح الكافية لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت1093هـ)، دار صادر، بيروت، ط1، ج1، ص: 04

وقال ابن خالويه في شرح الفصيح: "قد أجمع الناس جميعا أن اللغة إذا وردت في القرآن، فهي أفصح مما في غير القرآن، لا خلاف في ذلك"[(1)].

2) **الشاهد الشعري:** عقد صاحب الخزانة بابا بعد المقدمة مباشرة في الكلام الذي يصح الاستشهاد به في اللغة والنحو والصرف، فنقل قائلا: "قال الأندلسي في شرح بديعية رفيقه ابن جابر: علوم الأدب ستة: اللغة، والصرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب دون الثلاثة الأخيرة، فإنه يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولدين، لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذ هو أمر راجع إلى العقل"[(2)].

وعلى الجملة، فإن الشاهد هو طريقة تدور حول تقوية وتأكيد الأطروحة موضوع القول، وذلك بإعطائها مظهرا حيا وملموسا، إذ لا يتعلق الأمر بالتدليل، بقدر ما يعمل الشاهد على تحريك المخيلة، وهذه الطريقة ترتبط بالضرورة بحقيقة الشاهد، وإنما يتجاوز شكلها الحجاجي الإطار اللغوي، ليرتبط بالمقتضيات التداولية، وإذا كان استعمال الشاهد يقوم على تجسيد الفكرة باستحضارها في صورة شاخصة، فإن الغاية منه لا تكمن فقط في تعويض المجرد بالملموس، وتبديل أو نقل الأطروحات من مجال إلى مجال آخر –كما هو الشأن في المثل والتمثيل- وإنما تكمن أساسا في تقوية الفكرة وتأكيد حضورها في الذهن[(3)].

ولهذا، فإن اختيار الشاهد يخضع لمعايير تقتضيها الشروط المقامية التي يجد لها صدى شعوريا وعاطفيا لدى المخاطب؛ لتقوم بدور المحرك لخياله وتفرض عليه الانتباه وتسهل عليه عملية الفهم[(4)]، ويفترض في كل من المتكلم والمستمع أن "يكون له معرفة سابقة بالشاهد المقصود، وقدرة على تصوره بيسر ودراية بوجود تداخله في مجال التداول"[(5)].

---

(1)- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، شرح وتعليق منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1987، ج1، ص: 212-213

(2)- خزانة الأدب، ج1، ص: 03

(3)- Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, Perlman (Chaïm) Olbrechts Tyteca (L), éditions de l'université de Bruxelles, Belgique, 3ème édition, 1976, p: 481

(4)- نفسه، ص: 484

(5)- في أصول الحوار وتجديد الكلام، طه عبد الرحمن، ص: 111

ويستمد الشاهد طاقته من العيان والمشاهدة اعتمادا على ما قاله الجاحظ: "وهو استشهاد على شيء ما بقرآن أو حديث أو شعر أو مثل أو خبر مُرْوَي يهدف إثباته أو إنكاره أو الاحتجاج له أو بطلانه أو نحو ذلك"(1).

- **تقنية التمثيل Analogie:**

التمثيل نوع من الحجاج نعني به التشبيه والاستعارة وهذا النوع من الحجة هو الأنسب للتواصل اللغوي وللمتلقي، ويوضح لنا "طه عبد الرحمن" الفرق بين الحجاج العقلي وبين الحجاج التمثيلي بقوله: "لا يخفى على ذي بصيرة أن نموذج الحجاج هو قياس التمثيل، إذ المعروف أنه هو الاستدلال التي يختص بالخطاب الطبيعي في مقابل البرهان الذي هو الاستدلال الذي يختص بالقول الصناعي"(2).

والتمثيل عند العلماء القدماء الذين تعاملوا مع الخطاب القرآني هو "إثبات حكم واحد جزئي لثبوته في جزئي آخر، بمعنى مشترك بينهما، والفقهاء يسمونه قياسا، والجزئي الأول فرعا والثاني أصلا، والمشترك عِلّةً وجامعًا، كما يقال، العالم مؤلف، فهو حادث كالبيت، يعني حادث لأنه مؤلف، وهذه العلة موجودة في العلم، فيكون حادثا"(3).

هذا عن مفهومهم للتمثيل، أم عن تحديدهم للوظيفة، فنشير إلى أن ابن وهب هو الذي بينها وذلك بقوله: "أما الحكماء والأدباء، فلا يزالون يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾"(*)، وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته، والمثل مقرون بالحجة(4)".

(1)- البيان والتبيين، الجاحظ (أبو عمرو بن بحر)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص: 86

(2)- اللسان الميزان، ص: 232

(3)- التعريفات، الجرجاني علي بن محمد، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1998، ص: 423

(*)- سورة الأحزاب، الآية: 27

(4)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب (أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم ت4هـ)، تح: حفني محمد شريف، مكتبة الشباب، مصر، دط، دت، ص: 42

وقريبا من هذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني حينما قال: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة... ورفع أقدارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم وأنبل في النفوس وأعظم؛ وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع... وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر"[1]، وقد ردد المعنى نفسه في (الشافية)، إذ وسيلة إدراك الصورة التمثيلية في نظر عبد القاهر الجرجاني "هي المعاينة أو الإدراك الحسي الذي هو أكثر أثرا في تقرير المعاني في النفس، من إدراك اللغة المجردة عن التصوير إدراكا عقليا، فالإدراك الأول أشبه بالعلم الضروري الذي تأنس به النفس وتطمئن اطمئنانا لا تجده مع العلم النظري"[2].

ولحجية التمثيل شأن عظيم في هتك الحجب عن المعاني وإبراز ما خفي من الحقائق، يقول الزمخشري في هذا الشأن: "ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثال والنظائر، شأن ليس بالخفي في إبراز جليات المعاني ورفع الستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المُتَيَقِّن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الأول، وقمع لصورة الجامع الأبي[3]... وهناك بعد آخر للمعرفة الحسية كامن في النفوس، فهي في ذلك تعود إلى تجربتها الأولى في العالم"[4].

فالإنسان يبدأ أولا باستقبال المعلومات حول العالم الذي هو من حوله عن طريق الحواس، ثم يعمل فيها بعد ذلك نظره، مثال ذلك مرحلة الطفولة ومرحلة البلوغ عند الإنسان.

ومن هنا، فإن كل ما له علاقة بالمشابهة يدخل تحت مفهوم التمثيل،ونقصد بذلك التشبيه بكل أنواعه، والاستعارة بكل أنواعها والتي هي أدخل في هذا الباب من غيرها، وذلك

(1)- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، تقديم: رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص: 92
(2)- الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968، ص: 117
(3)- الكشاف، الزمخشري، ج1، ص: 72
(4)- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، ص: 394

أن الاستعارة تتميز عن باقي أنواع التمثيل بالتجريد وبدرجة الإمتاع[1]، كما تعد الكناية من وسائل الحجاج، وقد قال الجرجاني عنها: "أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح، أنّ كل عاقل يعلم إذا رجع إن نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكِدٌ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك ولا يظن بالمخبر التجوز الغلط"[2].

وصفوة القول، إن التمثيل هو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة، وذلك أن التمثيل لا يرتبط بعلاقة المشابهة دائما، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدا[3]، ومن ثمة اعتبر عاملا أساسا في عملية الإبداع، وهو قريب من الحجاج المقارني دون أن تكون له علاقة بالمنطق الصوري، لأنه لا يطرح معادلة صورية خالصة، ولكنه ينطلق من التجربة بهدف إفهام فكرة أو العمل على أن تكون الفكرة مقبولة، وذلك بنقلها من مجال مغاير، جريا على مبدأ الاستعارة[4].

إن الأساس في التمثيل يكمن في العلاقة بين الموضوع والحامل (وجه الشبه Phore) وتوتر العلاقة بينهما، مثال: "مغرب اليوم ليس هو مغرب الأمس" وذلك أن التمثيل بصفة عامة يعتبر منبعا للإبداع والأفكار الجديدة، وأصلا لكل الصور التخيلية، غير أنه قد يكون خاطئا أو مرفوضا، أو غير مفهوم في الواقع إذا خرج عن إطاره التداولي، إذ لا يمكن إقامة علاقة المشابهة انطلاقا من الخصائص العامة الملازمة، وإنما يتم عن طريق تفكيك الأجزاء الدقيقة لمكوني التمثيل (الموضوع والحامل Phore)، واستعمال الخيال للربط بينهما كالمشابهة بين الطفل والبراءة أو المشابهة بين سيولة التيار الكهربائي وسيولة الغازات[5].

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 191-192

(2)-دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، ص: 54

(3)- Traité de l’argumentation, p: 50

(4)-إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 126

(5)- نفسه، ص: 127

وبناءا على ما سبق ذكره، يمكن استحضار الخلاصة التي خرج بها الجاحظ في هذا الباب والتوجيه الذي أشار به على مربي النشء "بأن لا يشغلوا قلب الصبي بالنحو إلا بقدر ما يؤدي به إلى السلامة من فاحش اللحن، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أرد عليه منه من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع"[1].

- **تقنية المثل (Exemple):**

نشير إلى أن هناك من يفرق بين المثل والتمثيل، وباعتبار أن المثل (Exemple) وسيلة ناجعة للتعبير عن القيم والحقائق التي تختزل التجارب الإنسانية، وهو نوع من الاستدلال يقوم بنقلة نوعية من خلال الجمع بين الاستقراء والمشابهة عن طريق الحدس، حيث يستعمل كقيمة رمزية بمثابة مسلمات قيمية تستجيب للقضايا المطروحة عن طريق المرور من العام إلى الخاص أو العكس، بهدف التدليل على قضية ما أو المساهمة في تأسيس قاعدة خاصة تكون بمثابة حالة مجردة تجعل المستمع يستند خلالها إلى أطروحة معينة[2].

مثال: يداك أوكتا وفوك نفخ، وهي تعني أنك مسؤول عن قضية (وهي حكاية تاريخية تمثل تجربة معينة لشخص مسؤول عن فعله)، ويتضح أن الهدف من المثل هو تقوية درجة التصديق بقاعدة أو فكرة أو أطروحة معلومة، تقدم ما يوضح القول العام ويقوي حضوره في الذهن[3]، وتدعى هذه الأمثلة بالقوالب الجاهزة، يتم تخزينها في ذاكرة الإنسان، يستحضرها كلما استدعى المقام ما يشابهها أو ما هو في حاجة إلى تأكيد فكرته.

وكان أرسطو قد أجرى المثال على وحدات قولية تشترك في قيامها على علاقة المشابهة، بقصد الإخبار عن الأحداث التي وقعت لتأكيد موضوع القول، وقد وجد هذا التوظيف امتدادا واسعا داخل الخطابة العربية، حيث يرجع "الخفاجي" أساس المثل إلى كونه: "ماثلا في خاطر الإنسان أبدا وشاخصا وأعون شيء على البيان"[4].

---

(1)- رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، دط، دت، ج3، ص: 38

(2)- Traité de l'argumentation, Pérélman et Tytéca, p: 489

(3)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 122

(4)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1972، ج1، ص: 417

وفي السياق نفسه يؤكد "الزمخشري" "أن الأمثال هي زيادة في الكشف وتتميما للبيان..." [1]، ويكون الغرض كما يقول السيوطي "تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبتت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض بالمثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد"[2].

- **تقنية النموذج (Model) أو النموذج المضاد (Anti-model):**

النموذج وسيلة تعبيرية مؤسسة على حجة السلوك، باعتبار السلوك قوة تستوحى من الأشخاص أو الجماعات أو الأفكار أو المذاهب... تؤكدها قيمة الأفعال؛ وذلك لميل طبيعي في الناس نحو اقتداء نماذج معينة، وهي في القول الحجاجي مقدمات تستخلص منها نتائج معينة تؤدي إلى امتداح سلوك خاص يمتلك بعض مظاهر التميز (إذ لا يمكن الاقتداء بأيّ كان)، "لقد كان لكم في رسول الله قدوة حسنة"، كما اقتدى سيبويه بشيوخه خاصة الخليل في توصيل المعرفة إلى أبعد حد ممكن.

إن النموذج لا يصلح فقط لتأسيس أو بلورة قاعدة معينة كما في المثال والشاهد، بل يدفع إلى فعل شيء مستوحى من النموذج، لوجود سلوكات عفوية للاقتداء من الإنسان[3]، لذلك -فغالبا- ما تكون النماذج الجيدة وراء تشكيل سلوك وثقافة الأفراد والجماعات والأوساط، والحقب، انطلاقا من الطريقة التي تتصور بهذه النماذج والكيفية التي تتحقق بها ضمانا لقيمتها[4].

ويعتبر النموذج المضاد (أو مخالفة النموذج) نموذجا كذلك، إذ يستعمل كتقنية في التواصل الناجح (الخطاب الحجاجي)، ويكون أكثر فعالية، حيث يفقد النموذج الأصلي قيمته وفعاليته بتحوله من مجالات مقامية معينة إلى مجالات أخرى كالهزء والهزل والسخرية...

---

(1)- الكشاف، الزمخشري، ج1، ص: 72

(2)- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت911هـ)، تقديم وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط5، 2002، ج2، ص: 67

(3)- Traité de l'argumentation, p: 488

(4)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 123

كما في المثال الذي أورد "بيريلمان" (Pérélman)[1]، حين قال الأب لابنه الكسول: في مثل سنك كان نابليون على رأس الفصل الذي يدرس فيه.

- فرد الابن: وفي مثل سنك كان نابليون إمبراطورا.

ويقابل هذا النوع من التقنية، الحجاج والحجاج المضاد عند النحاة العرب حول نظرية الحد الأدنى الصالح لتجريد قاعدة من المسموع أو المروى أو المستقرإ، ونظرية الحد الأدنى ليست تأسيسية في الهيكل النحوي لأي لغة؛ بل هي توسيعية للجسم النحوي واللغوي، "ولهذا لا يضر الاقتناع بالحجة أو الحجة المضادة، كما في مسائل الخلاف حول القياس على مسموع ينتمي إلى فئة الحد الأدنى، كاختلاف البصريين والكوفيين في جواز توكيد الاسم النكرة توكيدا معنويا"[2]، إذ "ذهب الكوفيون إلى أن توكيد النكرة بغير لفظها جائز إذا كانت مؤقتة نحو قولك: "قعدت يوما كله، وقمت ليلة كلها"، وذهب البصريون إلى تأكيد النكرة يغير لفظها غير جائز على الإطلاق"[3]، واحتج الكوفيون بأربعة شواهد شعرية عضدوها بالتعليل المسوغ للجواز، ورد البصريون بتعليل مضاد ونقض رواية، وإعادة توجيه الإعراب بالاحتمال، وعدم معرفة صاحب أحد الأبيات[4]، وقالوا: "لو طردنا القياس في كل ما جاء بالاحتمال شاذا مخالفا للأصول والقياس وجعلناه أصلا، لكان ذلك يؤدي إلى أن تختلط الأصول بغيرها، ويجعل ما ليس بأصل أصلا، وذلك يفسد الصناعة بأسرها، وذلك لا يجوز"[5]. ولفظ "الصناعة" هنا لا يعني العلم وحده، بل يعني منهجية بناء العلم[6].

ومن منظور حسن خميس الملخ، أن ظاهرة الخلاف بين البصريين والكوفيين مع ما داخلها من تضخيم، ولدت مع نهاية عصر الاحتجاج بكلام العرب عامة، وانتهت تقريبا مع نهاية القرن الرابع الهجري عند انتهاء عصر الاحتجاج بكلام أعراب البوادي خاصة، ويدل

---

(1)- Traité de l’argumentation, p: 425

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 127

(3)- الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، تح: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ج2، ص: 451

(4)- نفسه، ج2، ص: 451-456

(5)- نفسه، ص: 456

(6)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 127

هذا على أن ما دار فيها من حجاج كان شكلا من أشكال استمرار التنقيح في المادة المسموعة[1].

ومهما يكن من أمر، فإن كلا من تقنية النموذج والشاهد والمثل والتمثيل تمثل كلها بنيات مستمدة من الواقع الماضي، بما يختزنه من تجارب إنسانية وأحداث تاريخية أو شخصية تترجمها الحكم والأمثال والحكايات والكنايات وغيرها، تكون معروفة من قَبْلُ لَدَى كل من المتكلم والمستمع وذات قيم مجتمعية تحظى باحترام واهتمام الأفراد والجماعات تستخدم داخل القول الحجاجي الذي يبتغي التواصل الناجح، بما تقدمه هذه البنيات من تصور تجريد للأشياء والأحداث، وما تتضمنه من مشابهة يستدعيها سياق القول أو الفعل الكلامي لما تحدثه من تماثلات عامة بينها وبين الأهداف من إدراجها وسوقها وفق الضرورة السياقية أو المقامية[2].

ولولا امتلاك الجنس البشري هذه الآليات والتقنيات ما كان ليحصل بينهم تفاعل وما كان ليتم بينهم تواصل لساني، وكلما أفلح الفرد في اختيار ما يناسب من هذه التقنيات كان لخطابه وقع على مخاطبيه، اقتناعا أو استمالة، أو امتناعا... إذ تعمل جميعها على تسريع عملية تعديل موقف أو تغيير سلوك، أو الدفع إلى عمل، أو تغيير نظرة تجاه موضوع، أو حدث أو شخص، أو فكرة، وذلك أن الجنس البشري يشترك فطريا في استعمال عدة آليات وتقنيات منطقية أو حجاجية أو لغوية في إنشاء الكلام وتأويله انطلاقا من تجارب الأفراد وتفاعلاتهم مع محيطهم الخارجي[3].

- **تقنية القياس:**

توطئة:

لا ريب في أن مبدأ السماع الذي انتهجه اللغويون القدامى كان السبيل القويم والخطوة المثلى التي لا مناص منها في جمع اللغة وتدوينها، إلا أن العلماء لم يتمكنوا من سماع كل ما قالته العرب، إذ لم يسمعوا كل فاعل ولا مفعول، لأن ذلك غير مقدور عليه ولا

(1)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 127
(2)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 121
(3)- نفسه، ص: 112

يكون إلا لنبي[1]، الأمر الذي جعل جمع المادة اللغوية ناقصا، وتدوينهم لها غير مستوفى، يؤكد هذا ما صرح به "عمرو بن العلاء" بقوله: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[2]، وهو نفسه ما قاله الشافعي: "لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا، ولا تعلم أنه يحيط بجميع علمه غير نبي"[3].

فعدم الإحاطة باللغة وعدم تمكن اللغويين من سماع كل ما نطقت به العرب، حمل العلماء على البحث والتفكير في طريقة تكمل ذلك النقص، وتسد تلك الثغرة التي حاقت بالمادة المسموعة، خاصة بعد اقتناعهم من أن كل ما نطقت به العرب أمر لا يتأتى لأحد، ولا يحيط به إلى نبي، فراحوا يبوبون ويصنفون ما تجمع لديهم من مدونات، ومرويات لوضع الكليات العامة والقوانين المطردة، مستعينين بالقياس بعد أن توضحت فكرته عند أقرانهم الفقهاء وأصحاب الكلام[4].

- **القياس تقنية لتوليد الخطاب الطبيعي:**

1. مفهومه:

حظي القياس في أعمال نحويي العربية بالمساحة الكبرى من مؤلفاتهم، كما حظي في أعمال الدارسين والباحثين بعدد وافر من الدراسات، إذ هو النتيجة الطبيعية لفرز كلام العرب في أحكام وقوانين يقاس عليها في توليد الكلمات والتراكيب العربية الصحيحة من غير سماع للشواهد، وهذا يدل على أن أول أشكال القياس هو القياس على القواعد، وهذا الشكل هو عماد النحو التعليمي، ففيه تشرح القواعد ليقاس عليها مع الاستعانة بالأمثلة التوضيحية[5].

---

(1)- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس (أحمد بن زكريا ت395هـ)، حققه وقدم له: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، لبنان، دط، 1964، ص: 64

(2)- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 357

(3)- الرسالة، الإمام الشافعي (الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس ت204هـ)، تحقيق وشرح وتعليق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص: 42

(4)- ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية بين علماء اللغة القدامى والمحدثين، د. عبد الفتاح حسن علي البجة، ص: 68

(5)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 132

ويعد القياس الأساس لكثير من العلوم، وبخاصة العلوم الإنسانية، إذ يمثل جوهر علم المنطق وأحد مصادر التشريع الإسلامي، ودليلا بالغ الأهمية في علم النحو، بل هو القياس نفسه على حد قول الكسائي (ت189هـ):

إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعْ وَبِهِ فِي كُلِّ أَمرٍ يُنْتَفَعْ[1]

ولذلك عرفوا النحو بقولهم: "علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب"[2].

ونشير إلى أن أهمية القياس في العربية ليست في الشكل التعليمي، بل في قيام القياس بملء الفراغات السماعية وإحاطة النحو والصرف بالتفسيرات الكلية والجزئية، وإبقاء الباب مفتوحا أمام الحجاج المناسب لطبيعة النحو والصرف[3].

أ. القياس عند المناطقة:

لا يهمنا في بحثنا هذا أن نتعرض إلى المعنى اللغوي للقياس أو التقدير، وذلك أن أهيمته تكمن في الاستعمال والاصطلاح، فالقياس عند المناطقة إحدى الوسائل التي تنظم التفكير بطريقة صورية، إذ عرفه أرسطو في كتابه "المباحث Topic" بأنه الاستدلال الذي إذا سلمنا فيه ببعض الأشياء لزم عنها بالضرورة شيء آخر، ثم كرر هذا في كتابه "التحليلات الأولى Prior Analytics" بأن القياس: "هو الاستدلال الذي إذا سلمنا بمقدمات معينة لزم عنها بالضرورة شيء آخر غير تلك المقدمات"[4].

يستخلص من ذلك أن القياس عند المناطقة يرمي إلى إقامة البرهان والدليل على أمر ينضوي أو لا ينضوي تحت طائفة من القضايا التي تأخذ حكم البديهيات، ويتخذ القياس المنطقي طريقة الانتقال من العام إلى الأقل عموما، والابتداء من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأجناس إلى الأنواع ومن الأنواع إلى الأفراد[5].

(1)- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، دط، 1979، ج2، ص: 164

(2)- الاقتراح في علوم القرآن، السيوطي، ص: 30-31

(3)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 132

(4)- أصول النحو العربي، د. محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، 1978، ص: 75

(5)- نفسه

جاء في كتاب التعريفات: "القياس مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر كقولنا: العالم متغير، وكل متغير حادث، فإنه قول مركب من قضيتين، إذا سلمنا بهما لزم عنهما لذاتهما (العالم حادث)" [1].

ويرجع أرسطو العمليتين الأساسيتين في العلوم: الاستقراء والاستنباط إلى الخطوات القياسية التي أنتجت البرهان وأنتجت بطريقة معكوسة الاستقراء[2]، ومن هنا كان المشتغلون اليونان في الحقل العلمي يتحدثون عن البرهان لا عن القياس، وذلك أن البرهان هو قياس الضرورة، والاستقراء عكس ذلك، وما لبث أن تم الاعتراف بالقياس خارج الميدان العلمي، أي في الاستدلال الجدلي والاستكشافي، حيث استعيرت صورة القياس من البرهان لكي تكون أداة استدلال بواسطة عناصر اللغة الطبيعية، لكون القواسم المشتركة بينها واضحة، يمكن أن يفهمها الجميع، وهو ما يعرف بقياس الشمول أو الضرورة، بحيث يفيد شيئا لا يتصوره غيره، وهذا لأن طبيعة البرهنة القياسية تقوم على الكلي، والكلي هو نقطة البدء الذي تنتقل منه في عملية الاستدلال القياسي إلى الجزئي، وهو ما يعطي للبرهنة القياسية السهولة واليسر والقوة، على أساس قيامها على النظر إلى المصادف[3].

نستنتج من هذا أن المنطق اليوناني قد حصر الاستدلال في القياس العملي، مما جعل العلاقة المنطقية تقوم فيه على مبدأ التداخل الذي يقضي باندراج أجزائه بعضها في بعض، ويجعل العناصر التي تدخل فيها لا تتجاوز ثلاثة الشيء الذي يجعل النتيجة في القياس ترجع إلى ما وضع في المقدمتين، بناءا على تصور نظري ينطلق من أن الترتيب بين المقدمة والنتيجة في البراهين هو صورة للترتيب بين الأشياء وآثارها، أي إن العلاقات التي تنتظم التصورات والقضايا هي ذاتها العلاقات التي تنتظم الموضوعات والوقائع[4].

ولقد تنبه أرسطو في هذا الإطار إلى أن هناك ضرورة منطقية تربط المبادئ أو المقدمات بالنتائج، فترغم السامع إذا ما اعترف بمقدمات معينة على قبول النتيجة إلى درجة لا

---

(1)- التعريفات، الشريف الجرجاني، ص: 190

(2)- Le raisonnement, Robert Blanché, PUF Paris, 1973, p: 137

(3)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 114

(4)- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2007، ص: 325

يكون في حاجة إلى طلبها، كما سجل في سياق البرهان الجدلي أن مقدماته غير يقينية ولا تتقيد بالشروط التي يتقيد بها القياس البرهاني، الأمر الذي مهد لظهور القياس الإضماري الذي عرف بأنه قياس مؤسس على مقدمات ظنية، تتعرض غالبا للحذف إما لجلائها ووضوحها أو تحاشيا لذكرها لاعتبارات مقامية، ومع ذلك ظل القياس الأرسطي يتقيد بالانطلاق من الجوهر ليستدل على العرض، وفق صورة قياسية قوية، إذ بمجرد ما نضع فيها أقوالا ينتج عنها بالضرورة قول آخر أو نتيجة تتخذ من الحدس نقطة البدء[1].

ويمكننا التمثيل لهذا الرأي بالمثال: "زَيْدٌ فَانٍ وذلك"، لحمل كلمة "فانٍ" على زيد لكونه ينتمي للنوع الإنساني دون أن تضيف النتيجة شيئا جديدا، وكما يقول "ديكارت": "القياس الأرسطي يشرح للآخرين الأشياء التي يعلمونها، إنه فن يؤكد ما هو معروف ويرسم ما هو مرسم"[2]، فهو عملية تستند إلى حقيقة مباشرة لكي تصل إلى حقيقة تكون ثابتة وصادقة بل أزلية كما في البرهان العلمي.

ولكن أرسطو خرج في كتاب "الخطابة" من البحث المنطقي المحض أو بالأحرى من المنطق الصوري إلى البحث في علاقة القول بالأخلاق والسياسة والجدل، والقياس الإضماري الذي يحكم الخطاب الطبيعي، وهو ما يخالف المبدإ القائم على ضرورة الصورة القياسية واضطرارية النتيجة، إذ المسألة الجدلية لدى أرسطو هي مسألة يكون منتهاها هو اختيار سلوك أو الانصراف عنه واكتساب حقيقة أو معرفة[3].

ولما كان القياس في أبسط صورة له مرتبطا بنقل الصفات أو إثباتها أو نفيها سواء تعلق الأمر بالقول المجازي أو القول الحقيقي، استحق بالفعل أن يكون تقنية تشتق بها الأقوال بعضها من بعض، وتتألف بعضها ببعض لتكون تراكيب مقبولة ومشتقة ومرتبطة فيما بينها،

---

(1)- المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، د. علي سامي النشار، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1965، ص: 380

(2)- نفسه، ص: 522

(3)- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، منشورات كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، د.ط، د.ت، ص: 112

إنها تقنية تشتغل إلى جانب تقنيات أخرى في تثبيت وإلحاق الصفات، كما تتحكم في بناء الخطاب اعتمادا على دواعي لسانية أو حجاجية أو تداولية.

وعلى هذا الأساس؛ يمكن القول بأن القياس تقنية أساسية من تقنيات الذهن البشري تقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما للوصول إلى استنتاج ما، بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك[1]، وذلك اعتمادا على أن القياس يقوم على التجربة التي ينطلق منها المتكلم لتشكيل صورة استدلالية، كما يقول "الغزالي": "المدركات الأولى للإنسان في مدار فطرته وحواسه، فكانت مستولية عليه... من جملتها الإبصار الذي يدرك الألوان بالقصد الأول، والأشكال على سبيل الاستتباع، ثم الخيال يتصرف في المحسوسات، وأكثر تصرفه في المبصرات، فيركب من المرئيات أشكالا مختلفة، فإنك تقدر أن تتخيل فرسا له رأس إنسان، وطائر له رأس فرس، فلا تزال تركب من آحاد ما شاهدت... لأن الخيال يتبع الأبصار"[2]، يستنبط المتأمل لهذا الكلام أن "الغزالي" يبين أن الآلية البصرية تقوم بدور مركزي في تشغيل الآليات الأخرى كالخيال والاستقراء والتشبيه، وذلك بتقديم المعلومات الضرورية الحسية والحركية المتفاعلة مع المعلومات الأخرى، التي مصدرها السماع أو الخيال أو شيء آخر، ومجموع هذه العمليات هي التي تستحضر في تقنيات القياس والتقنيات الفكرية الأخرى، وذلك أن القوانين العلمية المنطقية كما يؤكد "غونزيت"[3]، مرجعها إلى أصول التجربة الطبيعية للإنسان، فمبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض، ومبدأ الثالث المرفوع وكل الاستدلالات العقلية الأخرى، يمكن ردها إلى القوانين التي تنتظم العلاقات بين الموضوعات أيا كانت، حتى إن أصول المنطق تبدو وكأنها بمترلة نظرية تمهيدية للعقل الإنساني[4].

وبناءا على ما سبق ذكره في حق القياس، فإنه يمكن القول بأن القياس الطبيعي هو أغنى وأكثر إجرائية في اللغة من القياس الصوري البرهاني، وأنه لا وجود في الخطاب الطبيعي

---

(1)- في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص: 99

(2)- معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد الغزالي، تح: حسن شرارة، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1964، ص: 61

(3)- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، ص: 339-360

(4)- اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص: 290

للاستنباط المنطقي والاستقراء التجريبي بالمعنى الذي تحدده المعرفة العلمية، ولذلك فإن القياس الطبيعي يصبح أكثر ملاءمة للاستدلال اللغوي، إذ به يتماسك الخطاب وتتركب القضايا فيما بينها لتنشئ قطعا خطابية موحدة[1].

ب. القياس عند الأصوليين:

"هو بيان حكم غير منصوص على حكمه بإلحاقه بأمر معلوم، حكمه بالنص عليه في الكتاب والسنة، وهو أيضا إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه للاشتراك بينهما في على الحكم"[2].

وعرفه ابن حزم (ت456هـ) بقوله: "هو أن تحكم للثاني المختلف فيه الذي لا نص فيه بمثل الحكم في المنصوص عليه"[3].

وهو عند الشيرازي (ت476هـ): "حمل فرع على أصل في بعض أحكامه، بمعنى يجمع بينهما"، أو هو "إظهار مثل حكم الأصل في الفرع لوجود علة فيه"[4].

وحدده الشافعي (ت204هـ) في مؤدى القياس: "كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، وعليه إذا كان بعينه أتباعه وإذا لم يكن منه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق بالاجتهاد، والاجتهاد هو القياس"[5].

وأوجزه صاحب الكليات بقوله: "والقياس الشرعي هو ما يجري في أحكام لا نص فيها"[6]، وهو في عرف النحاة: "عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل"، وقيل: "هو حمل فرع على أصل بعلة، وإجراء حكم الأصل على الفرع"، وقيل: "هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع"،

(1)- اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص: 290

(2)- أصول الفقه، د. محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط، 1958، ص: 218

(3)- ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل لابن حزم الأندلسي، تح: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1969، ص: 34

(4)- اللمع في أصول الفقه، للشيرازي، تح: محمد ياسين عيسى، القاهرة، د.ط، 1907، ص: 93

(5)- الرسالة للشافعي، ص: 477

(6)- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، 1982، ج4، ص: 241

وقيل: "هو اعتبار الشيء بالشيء بجامع"[1]، وقيل: "هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه"[2]، وقيل أيضا: "هو رد الشيء إلى نظيره واكتشاف المجهول من المعلوم"[3].

كما عرف بأنه "محاكاة العرب في طرائقهم اللغوية وحمل كلامنا على كلامهم في صوغ أصول المادة، وفروعها وضبط الحروف وتركيب الكلمات، وما يتبع ذلك من إعلال وإبدال وإدغام وحذف وزيادة"[4]، أو هو "حمل مجهول على معلوم، وحمل ما لم يسمع على ما سمع، وحمل ما يجد من تعبير على ما اختزنته الذاكرة ووعته من تعبيرات وأساليب كانت قد عرفت أو سمعت"[5].

والمتأمل في ما حد به المنطقيون والفقهاء والنحويون مفهوم القياس، يستشف أن ثمة صلة بين المفاهيم الثلاثة المتمثلة في الصورة الفكرية في كل منها، حيث ترسم القوانين التي تضبط كل ما يندرج تحتها، ولكننا سنعتمد تعريف الأنباري لأنه أجمع، وذلك لتوضيح تأثير القياس الفقهي في تعريف القياس النحوي الذي نشأ نشأة فطرية بمسائل محدودة، تلتقي فيها الأمور المتشابهة والظواهر المتقاربة في النصوص التي انحدرت إليهم، ثم تستنبط من هذه الأشباه والنظائر مقاييس وأصول وأحكام إذ لم يكن القياس "ضوابط حديدية"[6]، ولا "اجتهادا في النص"[7]، ولا "هو أشبه بالمحور الذي يدور حوله الكلام"[8]، ولا بما صار إليه عند متأخري النحاة[9].

---

[1]- الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين محمد الأنباري، تح: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط2، 1981، ص: 93

[2]- نفسه، ص: 45

[3]- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1978، ص: 08

[4]- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د. محمد نجيب اللبدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الفرقان، عمان، د.ط، 1985، ص: 191-192

[5]- في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1964، ص: 20

[6]- مقال: نشأة الخلاف في النحو بين البصريين والكوفيين، مصطفى السقا، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 10، 1950، ص: 96

[7]- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (ت231هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ط، 1974، هامش المحقق 14/1

[8]- الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، عبد العال سالم مكرم، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، 1977، ص: 371

[9]- ينظر: لمع الأدلة في أصول النحو، الأنباري (أبو البركات عبد الرحمن بن محمد)، تح: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1857، ص: 42

وليس غريبا أن تحدث صلة في القياس بين النحو والفقه، فكلاهما علم لابد من إتباع القياس فيه، وضرورته في النحو متأتية من أن ما سمع عن العرب لم يشمل كل صور التعبير عن المعاني المختلفة، ولو اقتصر على المسموع والمنقول لتعذر التعبير عن كثير من المعاني التي لم يرد فيها سماع عن العرب، فلزم لذلك قياس ما لم يرد على ما ورد، وكذلك الحال في الفقه[1]، وإن كان هناك من يرى أن القياس النحوي قد نشأ نشأة طبيعية ساذجة منفصلا عن القياس الفقهي، و"أنهما قد التقيا بعد ذلك في الأخذ بقوانين المنطق لإحكام أركانهما، ثم تأثر النحاة المتأخرون بالفقهاء في ترتيب قضايا قياسهم، عندما اتجهوا إلى بناء أصول النحو على أصول الفقه"[2].

ونشير هنا غرار إلى أن ما يمتاز به علم اللغة عن علم النحو هو أن الأول مبني على السماع، وأن الثاني مبني على القياس، ولذا كانت مهمة اللساني تتوقف عند تلقي المادة اللغوية من مصادرها وجمعها وتدوينها ولا يتعداها، وأما النحوي فمهمته استقراء هذه المادة وتبويبها واستنباط القواعد الكلية والقوانين العامة التي تندرج تحتها الفروع، والقياس عليها[3]، ومن هنا جاء تعريفهم النحو على أنه "علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، بل إن هذه المقاييس هي النحو ذاته، إذ لا يمكن إنكارها، لأن في إنكارها إنكاراً للنحو، ولم يعرف أن أحدا من العلماء قد أنكرها"[4].

ولقد ورد لفظ القياس مقترنا "بعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي" (ت117هـ) الذي "كان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل... وكان أشد تجريدا للقياس"[5]، والمراد بالقياس هنا، القاعدة النحوية[6]، ومدى إطرادها في النصوص اللغوية مروية أو مسموعة، وتقويم ما يُشَذُّ من نصوص اللغة عنها[7]، ولم يصبح القياس أصلا في الدرس النحوي إلا في

---

(1)- ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية بين علماء اللغة القدامى والمحدثين، د. عبد الفتاح حسن علي البجة، ص: 73

(2)- مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، د. جعفر عبابنة، دار الفكر، عمان، د.ط، 1974، ص: 59-60

(3)- ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية، د. عبد الفتاح حسن علي البجة، ص: 74

(4)- الاقتراح في علوم القرآن، السيوطي، ص: 95

(5)- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ج1، ص: 15

(6)- المفصل في تاريخ النحو العربي، د. محمد خير الحلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1963، ج1، ص: 145

(7)- أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، ص: 13

زمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أكثر منه وتوسع فيه، فقد عرف بتصحيح القياس[1]، وكاشف قناعه[2]، والناظر لكتاب سيبويه يجد فيه أمثلة كثيرة للأقيسة المختلفة المتعددة التي تدل على أن القياس وصل على يد الخليل إلى كامل نضجه، وتمام قوته، وأنه أصبح أساسا من أسس الدراسة النحوية التي تبنى عليها القواعد ويوزن بها الكلام، فقد كان الخليل يستعين بالقياس ضمن حدود اللغة، بحيث لم يكن يفرض جديدا على الأصول المستنبطة من الطبيعة اللغوية؛ وذلك أن قياسه مبني على التشابه بين المقيس والمقيس عليه[3]، وقد عاش الخليل في البيئة البصرية ذات الثقافات المتنوعة، وعاصر مدرسة الفقه القياسية التي نشأت في الكوفة والتي نحت بالقياس نحوا علميا[4].

ويطول الحديث عن القياس، ويتشعب كثيرا لارتباطه بالمنطق والفقه والنحو، وما يهمنا في بحثنا هو القياس النحوي الذي لجأ إليه النحاة لملء الفراغات -كما سبق الذكر- ولأنه يمنح للنحاة حرية التفسير، إذ يشيع في النحو العربي قياس الشبه والعلة، كقياس نصب التمييز على نصب الحال بعلة الفضلة والتنكير، وهو قياس شكلي يؤكد أمرين[5]:

الأول: وجود شبه يسمى علة القياس.

والثاني: وجود علة مخالفة أو أكثر يحفظ للمقيس والمقيس عليه استقلاليتهما كل على حدى، فمعنى قياس الحال على التمييز وجه شبه وعلة جامعة، وفي الوقت ذاته وجود وجه مفارقة ومخالفة، لهذا يتحدث بعض النحاة عن ظاهرة الفروق بين الأبواب المتشابهة كما فعل السيوطي في كتابه "الأشباه والنظائر" حيث خصَّصَ فنا كاملا سماه "فن الجمع والفرق" تحدث فيه عن وجوه الافتراق والاتفاق بين بعض الظواهر والحدود والقضايا والأبواب[6]،

(1)- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد الشيرافي (ت368هـ)، تح: فرنسيس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1936، ص: 38

(2)- الخصائص، ابن جني (ت392هـ)، تح: محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط1، 1956، ج1، ص: 361

(3)- الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزومي، مطبعة الزهراء، بغداد، د.ط، 1960، ص: 252

(4)- القياس في النحو العربي، نشأته وتطوره، د. سعيد جاسم الزبيدي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997، ص: 19

(5)- الحجاج في الدرس النحوي، ص: 133-134

(6)- الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1984، ج2، ص: 211-286

بغية الحفاظ لكل باب على حدوده المميزة له، والمحافظة على وظيفته في التعبير حتى لا تتخرم الأبواب فتضيع المعاني.

ولقد تبين للنحاة كالخليل بن أحمد الفراهيدي ومن جاء بعده من النحاة، أن اللغة العربية تعتمد على نظام دلالي مطرد للعلامات الإعرابية في أواخر الكلمات المعربة من الأسماء والأفعال المضارعة، الأمر الذي أتاح لهم بناء منظومة من العلاقات النسبية بين الألفاظ، سموها "نظرية العامل" وذلك أنها تعتبر اطراد وجود علامات إعرابية مرتبطة بعلاقة ظهور واختفاء مع عناصر لغوية أخرى في الكلام العربي، وانطلاقا من نظرية العامل، انقسمت وحدة الكلام إلى ثنائية العامل والمعمول أو إلى ثلاثية العامل والمعمول والمهمل[1].

لكن الأمر الذي لم يستقم للنحاة جميعهم هو: كيف نحدد العامل؟[2] هذا التساؤل الذي أثار حجاجا طويلا حول تحديد العوامل، وهو حجاج مقيد في الاستدلال على إدراك العلاقات الاقترانية بين عناصر الكلام لكنه غير مقيد على الدوام في التعليم[3].

وإذا كان "ابن مضاء القرطبي" قد دعا إلى إلغاء نظرية "العامل" والعلل الثواني والثوالث، وهاجم القياس والتقدير بناءا على فهمه الظاهري، متخذا من الفقه معيارا في تقويم الفكر النحوي، وإن كان لا يجوز للعلوم أن يحكم بعضها على بعض، وإنما من المفيد أن يستفيد بعضها من بعض[4]، فقد بسط "الشاطبي" القول في نظرية العامل أثناء شرحه المبسوط على الألفية قائلا: "وإنما بسطت القول في العامل لأن ابن مضاء ممن يُنْسَبُ إلى النحو، قد شَعَّ على النحويين في هذا المعنى آخذا بظاهر اللفظ من غير تحقيق مرادهم، فنسبهم إلى التقول على العرب، وإلى الكذب في نسبة العمل إلى الألفاظ، بل نسبهم إلى مذهب الاعتزال

(1)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 134

(2)- التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء، التحليل، التفسير، حسن خميس الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2002، ص: 213-215

(3)- الحجاج في الدرس النحوي، ص: 134

(4)- نفسه

والخروج عن السنة، وظلمهم -عفا الله عنه- إذ لم يعرف ما قصدوه"[1]، نلمس من هذا الرد أن الحجاج العلمي السليم لا يكون إلا بعد إدراك مرامي الكلام ومقاصده.

إذن، ليس للقياس حدود زمانية أو مكانية يقف عندها، لهذا يمكن الشروع دائما في اعتساف مسالك جديدة فيه مادامت لا تفارق طبيعة النحو العربي، ولا تلغي مستنداته في السماع، إذ باب القياس مفتوح في العلة والتفسير والاجتهاد بتقعيد الظواهر الجديدة في العربية، والإفادة من المنجزات العلمية القديمة والحديثة بالتفاعل العلمي السليم معها[2].

- **تقنية تنقيح وجه الاستدلال في القواعد النحوية:**

أ. مفهوم الاستدلال:

الاستدلال عند المناطقة هو تفكير عقلي بواسطته يتم إنتاج العلم، وهو لا ينطلق من فراغ، وإنما من معارف سابقة أهمها المبادئ والتعريفات أو حتى المسلمات الشائعة، وهكذا اهتم أرسطو أكثر بصور الاستدلال، وهي الصور القياسية، ويهمنا هنا الاستدلال في الخطابات الطبيعية غير الصورية (غير البرهانية) كما تثبته الدراسات الحديثة في فلسفة اللغة والتداوليات ومنطق الخطاب حجاجي لا برهاني[3].

وذلك أن الحجاج فعالية تداولية وخطاب جدلي يقبل المغايرة والاختلاف، كما تبين دلالته المعجمية، عكس خطاب البرهان الصناعي القائم على الإفهام بإتباع طرائق في الاستدلال مغلقة وصماء[4]، وذلك أن الصدق والكذب مرتبط فقط بالقضايا (بالمفهوم المنطقي Propositions) التي تحتفظ باستقلالية موضوعها ومحمولها، ولها دلالة واحدة غير متغيرة، أما التعابير الموقعية التي تستند في الأساس إلى المقومات التداولية فهي مستبعدة، ولا

(1)- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، الشاطبي، ج1، ص: 619

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 135

(3)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 79

(4)- الاختلاف في طوية الوحدة من أجل معاقلة الخطاب العربي الإسلامي، إبراهيم مشروح، ص: 113، نقلا عن مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي، ص: 79

تنطبق عليها شروط القضية، إذ يستحيل تحديد المحتوى القضوي لمثل هذه التعابير ما لم نضف إلى ما تدل عليه الجملة ما يبينه مقام التلفظ[1].

وإذا كان الاستدلال هو طلب الدليل أو تقرير الدليل لإثبات المدلول[2]، فإن الإنسان مسوق لاستخدام الأدلة لبلوغ مقاصد متعددة، فقد يستدل لنفسه على أمر ما طلبا للعلم به، وقد يصل إلى نتيجة ما من مقدمات يصوغها ويسلم بصدقها أو يصوغها غيره، وقد لا يحتاج إلى التصديق بالمقدمات بقدر ما يحتاج إلى بيان الكيفية التي تثبت بها النتائج[3].

ومن هنا يتضح أن الاستدلال هو بمترلة سلسلة من العمليات العقلية التي لا تكون بالضرورة منطقية، وذلك أنها قد تأخذ صبغة تداولية ترتبط فيها المعايير بالمعاني والسياقات والمقاصد، ولأن مقاصد القول تتعلق في كثير من الأوقات لا بالقول، وإنما بتداول القول، ولا يعتمد في إدراكها على الأخذ المباشر لألفاظ القول، وإنما يُعَوَّلُ في ذلك على ما للمخاطب من كفاءات لارتياد مسارات استدلالية قد تقصر أو تطول... فإن ذلك يجعل هذا الاستدلال حدثا تداوليا[4].

وبإطلاعنا على الأعمال والدراسات النظرية التي أقيمت حول الاستدلال في الدراسات الحديثة، وجدناها تتوزع إلى ثلاثة اتجاهات[5]:

الاتجاه الأول: ويمثله كل من "بيريلمان" و"بلانشيه"، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن نظرية الاستدلال يجب أن يكون موضوعها مجموعة من التقنيات المقولية التي تمكن من البرهنة على وسائل الإقناع بمختلف التقديرات التصورية التي يقتضيها الخطاب.

الاتجاه الثاني: ويمثله "مرتان" و"كرايس"، ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الاستدلال يجب أن يهتم بدراسة العلاقات المنطقية الممكنة في الخطاب.

---

(1)- اللغة والمنطق بحث في المفارقات، حسان الباهي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص: 77-78

(2)- التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص: 39

(3)- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 79

(4)- نفسه، ص: 80

(5)- الاستدلال في معاني الحروف، دراسة في اللغة والأصول، أحمد كروم، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، 2000، ص: 59-60

الاتجاه الثالث: تطور مع "أوزفالد ديكرو Oswald Ducrot" وهو أكثر تعقيدا في نظرية الاستدلال، ويمكن تلخيصه في أن الاستدلال يظهر انطلاقا من مستواه العميق، وهو الوصف الدلالي أو الوظيفة التي تلحقها اللسانيات بكل جملة تكون طبيعتها استدلالية، حيث تشتق منها المعطيات الإخبارية للمتلفظ، وتعمل على إيصال معلومات إخبارية إلى المخاطب مع إنجاز عقود أو علاقات استدلالية بواسطة الخطاب.

ومن منظور أوزفالد ديكرو، فإن الخطاب الطبيعي بخلاف الأنساق الصورية الصناعية، لأنه لا يصرح بكل مقدماته المنطقية، وبدلا من أن تكون موضوعاته التي يعبر عنها محددة تحديدا نهائيا كالبراهين الرياضية، فإنها تتحدد شيئا فشيئا مع تطور الخطاب: "إنها موضوعات "رخوة" في مقابل موضوعات المنطق الرياضي الصلبة"(1).

وعلى هذا الاعتبار، فإن الاستدلال الحجاجي ذي الطبيعة الخطابية يتميز عن الاستدلال البرهاني بسمة "القصدية"؛ لأنه لا يمكن وصف قول ما في سياق تواصلي دون الإحالة على بعض قصود التلفظ، وحسب هذا التصور يستحيل عزل أي جزء كيفما كان من المعنى لم يسبق تعيينه بواسطة الوظيفة التلفظية "إن عملية القول (Le dire) مسجلة في المقول (Le dit)" (2).

وعلى هذا الأساس؛ أصبح واضحا أن الآليات الاستدلالية التي ينطوي عليها الخطاب الطبيعي العادي ليست إلا تقنيات حجاجية وجدلية، وميزة كل قول حجاجي أن يزاوج بين الصورة والمضمون لتسهيل التواصل الناجح، عكس البرهان الذي يستغني عن المضمون، الأمر الذي يؤكد أن البرهان آلية استدلالية فقيرة مقارنة بالحجاج، لذا يرى طه عبد الرحمن أن الخطابات الطبيعية من فلسفة وآداب لا تهتدي إلى سبيل التوجيه العملي إلا بانتهاج مسالك الحجاج(3).

---

(1)- Dire et ne pas dire, principes de sémantique linguistique, Oswald Ducrot, collection Savoir Sciences, Hermann, 3ème édition, Paris, France, Octobre 1991, p: 121

(2)- Les échelles argumentatives, Ducrot, édition de minuit, Paris, 1980, p: 08-09

(3)- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، ص: 66

وتبقى المرحلة الحجاجية في نظر طه عبد الرحمن أبدع وأعظم من المرحلة الاستنباطية ذات التقنين البرهاني الصارم، وذلك أن المرحلة الحجاجية تعتمد أساليب قياسية أو تشبيهية أو تمثيلية أو شاهدية، حتى إنه يجوز القول عنده بأن منطق اكتشاف الحقائق العلمية هو منطق التمثيل والاستعارة، أما المنطق البرهاني فلا يلجأ إليه العالم إلا بعد الانتهاء من كشوفاته، وطلبا لإثبات الحقائق التي تصل إليها[1].

نخلص في النهاية، إلى أن الحجاج وهو أحد أنواع الاستدلال، يختص بالخطابات الطبيعية التي تتسم بالخصوبة والالتباس والتداول والتفاعل الاجتماعي، وبسبب غناها النحوي والمعجمي والدلالي كانت الأداة المفضلة للتواصل البشري الطبيعي والعادي، بكل ما يشمله هذا التواصل من أهداف ووظائف تعبيرية واجتماعية وشعرية[2].

- **مسالك الحجاج:**

يقصد بمسالك الحجاج أساليب تنقيح وجه الاستدلال في القواعد النحوية ومستنداتها من السماع والقياس؛ وذلك أنها مسالك للجدل العلمي السليم في النحو والصرف، وأهم هذه المسالك:

1. تقنية التوثق في مستندات السماع:

لا أحد يختلف مع الآخر فيكون هدف النحاة هو استنباط قواعد دقيقة جدا لا يتسرب إلى صحتها الشك، لذلك كان التوثق من سلامة مستندات السماع هو الغاية الأولى المقدمة على استنباط القواعد نفسها، لهذا عزل النحاة كل شاهد لحقه الشك في روايته أو معرفة قائله أو افتعاله، وهذا الاستبعاد معناه عدم جواز بناء القاعدة النحوية إلا على الشواهد السليمة، أما تلك المشكوك فيها فتظل مجرد لواحق توضيحية في تأكيد القاعدة لا تأسيسا لها،

(1)- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، ص: 55

(2)- مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، ص: 82

وعلى هذا الاعتبار، فمجرد الشك يعد كافيا لإضعاف الاستدلال وإسكات الخصم في الحجاج[1].

ولقد مارس معظم النحاة في القرون الأربعة الأولى هذا العمل التدقيقي مثل "سيبويه" و"الأخفش الأوسط" و"المبرد" و"الفراء" و"الزجاج" و"ابن جني" وغيرهم، حتى إن دارس النحو العربي لا يجد قاعدة نحوية مبنية على شاهد مشكوك فيه، ونتيجة لهذا العمل الجبار برزت تقنية التوثق في النحو العربي، وما إن ظهر "كتاب سيبويه" حتى قام "الجرمي البصري" بالنظر في شواهده الشعرية، فنسبها إلى قائليها باستثناء خمسين بيتا عجز عن تحديد قائلها[2].

وإذا كان الشك لا يعتد به في بناء القواعد النحوية، فإن عجز الجرمي عن تحديد القائلين للخمسين بيتا، لم يكن سببا في الشك في شواهد سيبويه، إذ تعميم توثيق نسبة ما يقرب من ألف شاهد يرفع عن شواهد سيبويه أي شك فيها، ولاسيما أن اللاحقين مثل، المبرد البصري تابعوا التوثق بتنقيح شواهد سيبويه[3]، حتى نشأ فن شرح الشواهد، كتلك الكتب التي تناولت شرح شواهد سيبويه لابن أبي سعيد السيرافي البصري، وابن النحاس، وغيرهما، وهو فن توثيق الشاهد وتحديد قائله ومعناه ووجه الاستشهاد به، تواصل هذا الفن كما في شرح شواهد الكافية والمغنى، وألف الجرمي البصري كتابه "تفسير أبيات سيبويه"[4].

ولظاهرة الخلاف النحوي بين النحويين، كالأخفش وسيبويه وغيرهما من النحاة دور كبير في تنقيح السماع، كما في الاستدلال بتغيير الرواية أو عدم معرفة القائل[5]، ويعني هذا أن تنقيح السماع تقنية استدلالية أخذ النحاة على اختلاف مشاربهم ومآربهم أنفسهم بها،

(1)- مقال: الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 136

(2)- تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، السيوطي جلال الدين، تح: حسن الملخ وسهى نعجة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2005، ج1، ص: 162

(3)- نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، حسن الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2000، ص: 44

(4)- تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، السيوطي، ج1، ص: 161

(5)- الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ج1، ص: 135-136

فأدى ذلك إلى خلو النحو العربي وصفائه من كل الرواسب التي يشك فيها من حيث السماع لإسقاط كل ما وقع فيه الخلاف إلى درجة الشاهد الظني الذي لا تقام عليه وحدة القواعد[1].

ولعلة تأكد ثقة النحاة فيما يرون من شواهد، لم يعد تحديد قائل الشاهد ضروريا عند بعضهم، كما استفاد بعضهم من حجية رد الرواية أو عدم تحديد القائل في إسكات الخصم، فصار الاحتجاج به علة للرد، وبتتبع الباحث "حسن الملخ" لرواية الشاهد الشعري وتحديد قائله في كتاب "الإنصاف" لأبي البركات الأنباري توصل هذا الباحث إلى أن البصريين اتخذوا تقنية تغير الرواية تسويغا لتثبيت الحكم النحوي لا الوصول إليه، وكل الشواهد التي ردها البصريون بجهل القائل أمكن تحديد قائلها أو توثُّق إسنادها[2].

أما افتعال الشاهد أو اصطناعه، فأمر لم يقدم عليه النحاة وهم يعلمون، لكنهم حين تنقيح المسموع لجؤوا لهذا النوع من الشواهد، وهو قليل في النحو العربي، قال "سيبويه" في الاستدلال على عمل صيغة المبالغة عمل الفعل: "ومما جاء على "فعل" قوله:

حَذِرٌ أُمُورًا لا تُخَافُ وَآمِنٌ مَا لَيْسَ مُنَجِّيهِ مِنَ الأَقْدَارِ"[3].

ورد صاحب "المقتضب" البيت بقوله: "وهذا بيت موضوع محدثٌ"[4]، وعلى الرغم من ذلك فقد وافق "سيبويه" في جواز عمل صيغة المبالغة عمل الفعل وذلك بالقياس على سائر شواهد الأوزان طردا للقياس، إذ لا موجب لشاهد على كل وزن[5].

وفي شرحه لكتاب سيبويه يقول أبو سعيد السيرافي: "قال النحويون: هذا بيت لا يصح عن العرب، ورووا عن أبي عثمان المازني عن الأخفش عن اللاحقي أنه قال: سألني "سيبويه" عن شاهد في تعدي (حَذِرَ) -يقصد وزن (فَعِلَ)- فعملت له هذا البيت"[6]، فإن

---

(1)- الحجاج في الدرس النحوي، ص: 136

(2)- رؤى لسانية في نظرية النحو العربي، حسن الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2007، ص: 207

(3)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 113

(4)- المقتضب، المبرد محمد بن يزيد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت، ج2، ص: 117

(5)- نفسه، ص: 117-118

(6)- شرح كتاب سيبويه، الحسن بن عبد الله السيرافي، تح: أحمد حسن مهدي وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008، ص: 443

صحت الرواية فسيبويه لم يسأل اللاحقي إلا وهو واثق به، لكن أتباعه ردوا البيت لإقرار اللاحقي نفسه بوضع البيت، ومع هذا فقد استشهد النحويون على عمل وزن "فَعِلَ" عمل فعله بعدة شواهد غير مدخول عليها[1]، وتبقى الممارسة التاريخية للنحو العربي هي السند الأكثر قوة على وثاقة شواهد هذا النحو، لا التوثيق من المصادر التي وصلت إلينا حديثا، أو من شواهد مروية من طرف واحد لا أكثر.

2. تقنية تنقيح موجب القياس:

إن القياس الذي يقوم على الكثرة المطلقة في الأحكام الإعرابية، كرفع الفاعل وجر المضاف إليه، ونصب التمييز، لا يحتاج إلى تدقيق أو تنقيح، وذلك أنه يحتمي بحجة وقائية تتمثل في عدم جواز القياس على الشاذ المخالف في الحكم الإعرابي محافظة على سلامة القوانين والقواعد النحوية، حيث لا عبرة لمجيء المفعول به مرفوعا في قول أحد العرب "خرق الثوبُ المسمارَ" فهذا الانزياح لا قيمة له في التقنين النحوي، والعمل به هلاك للصناعة وموت للنحو، ليس في العربية وحدها، وإنما في كل اللغات الطبيعية[2].

ولقياس الطرد استعمالات كثيرة في معرفة أنواع الكلمات، تنقل الحجاج فيها من مستوى الحجاج في التصنيف إلى مستوى الحجاج في علامات التصنيف، بغية تحويل هذا النقل إلى قياس طرد معتمد على الكثرة في الاستعمال، وهذه الكثرة هي علامة الاستدلال على فعلية فعل ما، فيعمل بالأكثر ويؤول الأقل، كما في الاستدلال على فعلية "نِعْمَ" و"بِئْسَ" و"ليس" بجواز قبول علامات الفعل الماضي الإلصاقية[3].

أما عن قياس العلة، فهو قياس تفسيري تصوري في نظرية الأصل والفرع، إذ قد يجعل الأصل فرعا، والفرع أصلا كما في قياس الفاعل على المبتدإ بعلة الإسناد، وهي العلة نفسها

---

(1)- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، الشاطبي إبراهيم بن موسى، معهد البحوث العلمية ومركز إحياء التراث في جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 2007، ج4، ص: 284-288-290

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 137-138

(3)- نفسه، ص: 138

في قياس المبتدإ على الفاعل، ويبقى الفرق بين القياسين، من حيث نوع الجملة، فيكون المبتدإ هو الأصل إذا كانت الجملة اسمية، ويكون الفاعل هو الأصل إذا كانت الجملة فعلية.

وبناءا على أهمية هذا النوع من القياس بنى النحاة ترتيب أبوابهم النحوية، إذ من يجعل الجملة الاسمية هي الأصل بأصالة المبتدأ في الإسناد يقدم الجملة الاسمية وأبوابها على الجملة الفعلية وأنواعها والعكس، وإن كان هناك من استغنى عن هذا النوع من القياس، فراح يرتب أبواب النحو العربي على أصناف الكلمة بإضافة المشترك كما فعل الزمخشري في "المفصل في صيغة الإعراب"[1].

ومهما يكن من أمر، فإن لقياس العلة أهمية كبيرة لأنه يؤدي إلى الترابط المنهجي السليم بين أبواب النحو العربي، وكثرة الحجاج حوله دليل على هذه الأهمية، ونشير هنا إلى أن العلة ليست هي قياس العلة وليست هي التعليل، فالعلة هي الحجة والدليل والاستدلال، والتعليل هو الطريقة المعلل بها أو ما يعرف عند الأصوليين بمسالك العلة[2]، لكنه في النحو أوسع منه في علم أصول الفقه لامتزاجه بالمنطق، وهي أوسع من علة القياس، لأنها تمثل الوجه الاستدلالي لكل ما في المنظومة النحوية، إذ بها يتم تصويب الأحكام النحوية، ولا يعتد بعددها، لذلك يظل بابها مفتوحا أمام الباحثين لتنقيحها، وبهذا الشكل فهي ضمن دائرة المحتمل عند القائل بها[3].

3. تقنية الإجماع:

"الإجماع في النحو ليس ركنا، بل تقنية من تقنيات الحجاج"[4]، ذلك أنه لم يكن منطلقا في تأسيس النحو العربي، وإنما صار كالعلة في أعمال النحاة العرب، وإذا كان مفهومه

---

(1)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص: 138
(2)- نفسه، ص: 138-139
(3)- نفسه
(4)- نفسه، ص: 140

قد حصر إقليميا في كل من البصرة والكوفة[1]، فإنه قد قسم على ضوء مكانته في الدرس الحجاجي إلى أقسام ثلاثة هي[2]:

أ. إجماع وصفي:

وهو الإجماع على وصف ما وصل إلينا من المسموعات والمرويات قبل تحليلها نحويا أو صرفيا أو دلاليا أو صوتيا، أي عدم الخوض في أي بحث معرفي أو علمي، ومعناه عدم جواز الحجاج حول الوصف، فلا نحاجج على أنّ الشمس شمس والقمر قمرٌ.

ب. إجماع تقنين:

وهو الإجماع على الحكم الإعرابي بين الإعراب والبناء، وهو قانون نحوي –كما نرى– وهذا النوع من الإجماع ليس ملزما بدليل، وعدم الإلزام في هذا الإجماع هو الذي يبقي الباب مفتوحا أمام تقنين جديد للعربية لا يمس الوصف الثابت، ولكن نجاح التجربة النحوية لأكثر من ألف عام يجعل من الصعوبة، غاية الصعوبة مجاوزة التقنينات الموروثة إلا بتعديلات طفيفة، يمكن أن تكون من باب التيسير الصادق كمحاولة "تمام حسان" في الخلاصة النحوية[3].

ج. إجماع تعليل وتفسير وتأويل:

يشترط في هذا النوع من الإجماع عدم مخالفة أصول النحو العربي ونظرياته فيمن يريد الأخذ به، حيث إنه غير ملزم على الإطلاق عند جمهور النحاة، فالباب مفتوح فيه أمام كل مجتهد في التعليل، وقد لا يُحتاج إليه[4].

وفي نهاية هذا المبحث نخلص إلى أن دراسة الحجاج وتقنياته التي تساهم بشكل كبير، أو التي بفضلها يكون التواصل (التبليغ) ناجحا بين الأفراد والجماعات، تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها "إننا نتكلم عامة بقصد التأثير والإقناع، وإن اللغة الطبيعية تحمل بصفة

---

(1)- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 190

(2)- الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، ص، 140

(3)- نفسه

(4)- نفسه، ص: 141

ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، أي؛إن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال والجمل نفسها، بل وفي بنية اللغة بوجه عام، إذ نجدها في المعنى، كما نجدها في كل الظواهر الصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية، هذه المؤشرات التي تتمثل في تلك الروابط وتلك العوامل الحجاجية –التي درسناها– والتي لا وظيفة لها عدا الوظيفة الحجاجية التداولية، كل هذا لنشير إلى أن الإنسان عندما يتكلم فإنه يمارس سلطة على الآخر، والكلام (الخطاب، القول، التلفظ) له قوة تعبيرية وتحويلية للواقع بمختلف أنماطه، لا تعادلها أي قوة، ولذلك فإن كل الخطابات والنصوص التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية تختلف حسب طبيعة ودرجة الحجاج.

وننتقل من مبحث التقنيات الحجاجية –الاستدلالية في التبليغ– إلى مبحث التقنيات اللسانية–التحولية في الخطاب المراد به تبليغ رسالة ما من أجل تواصل ناجح.

المبحث الثالث: تقنيات التبليغ اللسانية–البلاغية:

تمهيد:

إن النص الناجح والخطاب الموفق هو ذلك الخطاب الذي يمد جسور التواصل بينه وبين المستقبل قارئا كان أو سامعا، ويصل الخطاب إلى ذلك من خلال تقنيات يوفرها، متعلقة بالمقام التواصلي، من مثل: مراعاة السامع، ومراعاة المقام، واختيار الوقت، وتزداد هذه الأمور اكتمالا إذا كان محتوى النص أو الخطاب يدعو في ثنايا عرضه لأفكاره ومبادئه بين الفينة والأخرى السامع إلى الانسجام والتواصل مع ذاته، ومع الكون، ومع الخطاب ذاته، وهذه التقنيات بعضها حجاجي–استدلالي، قمنا بدراسته وتحليله، وبعضها لغوي–تحويلي نحن بصدد دراسته وتحليله حتى تتكشف الحجب عن كل ما له علاقة بالتواصل اللغوي الناجح.

ولابد هاهنا من التذكير بأن اهتمام العرب نحاة وبلاغيين قد بلغ حدودا قصوى في إعطاء التركيب قيمة مميزة في دراسة اللغة وألفاظها وتراكيبها وأوزانها وتصاريفها، وقد وصل التركيب في نظر بعضهم إلى مرتبة "الإعجاز" وهو ما سماه الجرجاني "النظم" معتبرا لجام الألفاظ وزمام المعاني هو الذي تقوم له صورة في النفس ليتشكل به البيان، وفي وقت مبكر قدم كل من ابن وهب والجاحظ صورة دالة للخصائص التي يتميز بها التركيب اللساني العربي

ألفاظا ومعاني، ووقفوا على الاختلافات والوظائف التي تجعل من القول المركب قولا ذا غايات دلالية وتداولية، كما وقفوا على آثار القول في نفس السامع، وبهذا صار التركيب اللساني عماد القول المنظوم والمنثور وسر فصاحته، كما يؤكد ذلك الجرجاني في "دلائل الإعجاز" بقوله: "فالفصاحة خصوصية في نظم الكلم وضم بعضه إلى بعض عن طريق مخصوصة أو على وجوه تظهر فيها الفائدة"(1).

بذلك أصبحت طريقة النظم في اللسان العربي بمثابة صنعة من الصنائع تتمثل في المهارة والحسن والإجادة، ولو لم تكن مادة هذه الصناعة ذات قيمة، ما استعار النقاد العرب مصطلحات النسيج والوشي والصياغة وغيرها... لمفهوم "النظم" اللساني وذلك أن بإمكان المجازات أن تؤدي في بعض المقامات الصور البلاغية نفسها، غير أن فعاليتها وتأثيرها في النفس، وتأديتها للمعاني لا يتأتى إلا عن طريق الصياغة الجيدة والترتيب الرفيع للألفاظ والجمل، عن طريق تقنيات (آليات) الربطة والوصل والفصل والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والاستفهام والنداء، والأمر والنهي والنفي... الأمر الذي حذا بالجرجاني إلى إدخال المقومات التداولية في مجالات معينة، حتى وإن كان المعنى نفسه أو الغرض هو المراد في المقامات المختلفة.

ولا ريب في أن ما أنجزته الدراسات اللسانية المعاصرة من أبحاث ونظريات أدت إلى خلق فروع جديدة في موضوع اللغة، كان له الأثر الإيجابي في تطور العلوم الإنسانية عامة وعلم التواصل اللساني خاصة، كما أدت إلى قيام طفرة نوعية في تحليل اللغة من جوانبها المتعددة، تركيبا ودلالة وفونولوجيا...، وظهرت في هذه الفترة العلمية حقول جديدة واتجاهات فرعية استقلت بذاتها، كان "دي سيوسير" يعتقد أن مجالها الخاص هو اللغة ذاتها، ومن بين هذه الحقول والاتجاهات اللسانية؛ البنيوية، والوظيفية والتوزيعية والتحويلية والتوليدية التي اعتمدت التحليل العلمي الخالص مبعدة كل مظاهر وتمظهرات اللسان، وكل ظروف التواصل، الأمر الذي جعل تلك الدراسات حقلا للتجارب الفيزيائية والبيولوجية،

(1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 421

ودفع ببعض الدارسين إلى الكشف عن ثغرات النظرية البنيوية اللسانية بصفة عامة، فنتج عن ذلك ظهور دراسات أعادت للغة ديناميتها الخارجية بشكل جديد، أي إنه بعيد عن التحليل الفيلولوجي أو البنيوي الخالص، أو المنطقي الشكلي، معولة في ذلك على الإنجازات التي قدمها المنطق المعاصر مع بداية القرن العشرين المتمثل في المنطق الطبيعي "لجورج لايكوف" ومنطق العلاقات مع "فريج" و"راسل" و"فتكنشتاين"[(1)].

ولقد حاول كل من "كارناب وستراوسن" جمع كل الجوانب الأساسية التي تدخل في صميم تحليل القول الطبيعي بدءا من شكله الصوري المنطقي، وما يتعلق به من قيم الصدق والكذب مرورا بإحالته المرجعية، وانتهاءًا بدلالته التداولية، ومن ينظر في كتاب "المدخل إلى السيمانطيقا" "لكارناب" يندهش لبناء هذا الصرح العجيب الذي يمثل منطلقا لنشأة التداوليات المعاصرة المرتبطة أساسا بأفعال الكلام أو الأفعال الإنجازية التي أولت الجانب الفعلي (الإنجازي) عناية خاصة في تحليل الكلام (القول) وفق متغيرات الوضع المقامي والخلفيات النفسية والمعرفية للمتكلم، وعلاقاته بالمستمع ومقتضيات المقام الخاصة والعامة[(2)].

ومهما يكن من أمر، فإنه لا يمكن بأي حال إقصاء أو إلغاء أحد الاتجاهين: الاتجاه السوسيري في اللسانيات البنيوية، والاتجاه اللساني التداولي، ولا تجاهل قيمة أحدهما العلمية والمعرفية على حساب الآخر، وذلك أن الأمر لا يتعلق فقط بملء الفراغات، بل يرتبط بشروط وخلفيات الدراسة وموضوعها ومنهجيتها وأهدافها، ولذلك لم تكن عودة "جاك موشلير" "Jacque Moschler" إلى موضوع المقارنة بين الاتجاهين من باب الصدفة أو التأريخ، ففي كتابه الصادر عام 1996 "النظرية التداولية والتداولية التخاطبية" تطرق إلى مؤسس النظرية التي قام عليها الاتجاهان السالفا الذكر، انطلاقا من المكونات والخصائص المميزة التالية: الدلالة والمعجم، والعلاقات التركيبية[(3)].

---

(1)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 83-84

(2)- اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، جورج لايكوف، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 2008، ص: 05

(3)- Théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle, Jacque Moschler, éd: Armand Colin Masson, Paris, France, 1996, p: 10-15

ويتضح جليا من خلال دراسة "موشلير" أن "دي سوسير" باعتباره مؤسس اللسانيات البنيوية قد تناول مفاهيم الدلالة والقيمة الدلالية للوحدة اللسانية، باعتبارها لعبة مركبة من العلاقات والتعارضات داخل نسق اللغة، وهي خصوصية تقوم على مطابقة المبادئ التقليدية للتحليل البنيوي (التقطيع، التبادل، التوارد)، حيث تهدف إلى وصف الوحدات المعجمية عن طريق الخصائص الدلالية للكلمات في مرحلة أولى، ودلالة الجملة باعتبارها نتيجة تركيبية لمجموع الخصائص الدلالية للعناصر في مرحلة ثانية، اعتمادا على المحورين التبادلي (التوزيعي) والتركيبي، وعلى مفهوم الاستدعاء، وبهذا اتجهت النظرية الدلالية البنيوية أساسا نحو إقامة نظام معجمي للغة، يكون الدور الأساس للمفاهيم الدلالية فيه منحصرا في العلاقات التركيبية والحقول الدلالية المتمثلة في التعارض والتضمين والترادف،...[1].

أما الاتجاه الثاني الذي يمثله مؤسس الدلاليات التداولية (أوستين بالخصوص)، فتشير الدراسة إلى أنه قد تناول الدلالة خارج النظام الداخلي للغة، أي من حيث علاقاتها المرجعية المرتبطة بشروط الاستعمال، حيث تصبح للقيمة وظيفة سياقية، أي داخل السياق الذي استعمل فيه القول، ومن هنا يتضح أن رهان النظرية الأوستينية هو الوحدة الكاملة للقول من منظور قضوي مرتبط بفعل تكلمي أو قول إنجازي يهتم أساسا بالقضايا المتعلقة بالنظرية التداولية؛ كوصف صنف الأفعال التي تسمح بتحقق الفعل التكلمي[2].

وانطلاقا من هذه المقارنة السريعة التي أجراها "موشلير" بين الاتجاهين، يبدو جليا أن المفهومين السوسيري والأوسيتيني للدلالة من خلال التركيب متعارضان، وذلك أن منطلق "سوسير" هو النظام الداخلي المتجانس للسان، وهذا النظام يتعارض مع منطلق "أوستين" المتمثل في السياق الخارجي غير المتجانس للخطاب أو القول[3].

أما "سورل" وهو من أنصار الاتجاه الدلالي للتداوليات، فإنه يركز على مفهوم "القصد" باعتبار فعل الكلام مظهرا من مظاهر "القصدية"؛ لأن معرفة الرسالة أو القول لا

---

(1)- إشكالات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، ص: 85

(2)- Théorie pragmatique, p: 13

(3)- نفسه

تنحصر في فهم نظام اللغة وحده، وإنما تتطلب المسألة معرفة مسبقة بالسياقات التي تتجاوز حدود الدلالة اللسانية التقليدية، إلى خلق دلالات جديدة، تنسجم وتتلاءم وفعل الكلام، باعتباره مظهرا للقصدية، وليست القصدية هنا مجرد علاقة بين الوعي والعالم، أو بين شخص وقضية يمكن تحليلها منطقيا، ولكنها كما يقول "سورل": "ما يشكل ذاتية المتكلم نفسه، فالحالات القصدية هي مضامين تمثيلية تأتي على شكل موجهات (Modes) سيكولوجية، هي بمثابة خصوصية جوهرية للذهن البشري تعمل على الربط بين الحالة القصدية والأشياء التي تمثلها"[(1)]، ثم يضيف قائلا: "إن كل حالة قصدية لا تحدد بشروطها الناجحة إلا بإقحامها داخل شبكة من حالات قصدية أخرى تكون الخلفية العلمية (للمتكلم) قبل القصدية (اللحظية)"[(2)]، ولا يمكن الانتقال من القصد القبلي إلى الفعل إلا عن طريق نظام سببي هام يؤدي إلى ذلك.

وبظهور المنظور الجديد للدراسات التداولية للغة، لم يعد الاهتمام محصورا في تحليل اللغة في ذاتها ولذاتها، بما في ذلك الآليات والمكونات الداخلية لنظام اللغة التي تحدد الطبيعة القضوية للقول إنشاءًا أو خبرا، بل تم تجاوز هذه التقسيمات التي قيدت دراسة المناطقة التقليديين لمدة طويلة بمفهومي "الصدق والكذب" داخل الجمل الخبرية، الأمر الذي دفع "أوستين" في كتابه "نظرية أفعال الكلام العامة" للبحث عن هذه الإشكالات التي كانت تدور في فلك مغلق (الصدق والكذب) والخروج بنظرية جديدة تهتم بالإنجاز، فأصبح الاهتمام منصبا على الكلام وعلى علاقاته بالوقائع الخارجية من جهة، وبطبيعة الأدوات والمكونات الداخلية التي تشكل القول (إنجازي أو خبري) من جهة أخرى[(3)].

وحينما نتحدث عن الأدوات والمكونات لا تعنينا الأشكال التركيبية الجامدة أو المنطقية الشكلية، ولكننا نريد الإشارة إلى إشكالية أساسية تتعلق بالتحول الخارجي والتأثير الذي يحدثه فعل القول على المتكلم أو المستمع، انطلاقا من استعمال التقنيات والمكونات

---

(1)- Les actes de langage, Searl (Jhon. R), Collection savoir, lecture, Herman, Paris, France, Nouveau tirage, 1996, p: 84-87

(2)- ينظر Dictionnaire critique de la communication, p: 984-987

(3)- نظرية أفعال الكلام العامة، جون أوستين، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1991، ص: 17

اللغوية باعتبارها تدخلا ذاتيا في القول المرتبط بالوقائع الخارجية للعالم، فماذا عن هذه التقنيات والآليات؟ وكيف ستساهم في مد جسور التواصل بين المتكلم السامع؟

1. تقنية الفعل الإنجازي:

أ. مفهوم الفعل الإنجازي عند الغرب:

يعتبر العالم "جون أوستين" أن: "إحداث التلفظ إنجاز لفعل وإنشاء لحدث"[(1)]، ويذهب "فان دايك" إلى أن "مفهوم الفعل الإنجازي يؤخذ من مفهوم الحدث الذي يرتبط معه في علاقة وثيقة"[(2)]، والحدث بتعريف دايك هو: "كل تغيير يستلزم اختلافا في الأحوال أو العوالم أو المواقف، ويخضع تعريف الأحداث لعرف الجماعة وتحديدها"[(3)]، واعتمادا على هذا التعريف قال دايك معرفا "الفعل" بأنه "كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني"[(4)].

وعلى هذا الاعتبار "يتميز الفعل عن سائر الأحداث التي تجري في العالم بأن الإنسان من حيث هو "فاعل لها" يتبع غايات معينة يختارها لنفسه (خلافا لما هو الحال عند الحيوانات العجم التي تسير من الطبيعة)... هكذا مثلا، عند البناء والحياكة والتنزه وقيادة السيارات والتكلم والغناء، القتل والسرقة... الخ، فالإنسان ينجز أفعالا تتوخى غايات معينة"[(5)]، وعلى أساس أن الفعل الكلامي حدث، يقول كل من "فولفجانيج هانيه مان" و"ديتر فيهفجر" في كتابهما "مدخل إلى علم لغة النص": "تعد الأفعال الكلامية الإنجازية في الواقع وفق مفهوم الحدث أحداثا، فنحن نعمل شيئا عندما نتبع سلسلة من الأصوات أو الحروف التي لها، بوصفها منطوقات معينة، بشكل عرفي يمكن معرفته ومعرفة أثره، كما أننا ننجز هذا العمل لقصد معين نتطلع إليه"[(6)].

---

(1)- نظرية أفعال الكلام العامة، جون أوستين، ص: 17

(2)- النص والسياق، فان دايك، ص. 228

(3)- نفسه

(4)- نفسه، ص. 230

(5)- تيارات في السيمياء، عادل فاخوري، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1990، ص: 89

(6)- مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانيج هانيه همان وديتر فيهفجر تر وتع: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2004، ص: 122

إذن، نستنتج من التعاريف السابقة أن الفعل الكلامي الإنجازي الذي تنطلق منه النظرية هو الحدث "Act" وليس الفعل "Verb" الذي يعد مؤشرا أو وسيلة لغوية لإنجاز الحدث، ومن هنا جاءت تسمية الفعل الكلامي "Speech act"[(1)].

وهكذا فإن الفعل الكلامي الإنجازي هو ذلك الحدث الذي يُوجِدُهُ النطق سواء أكان هذا النطق اسما أو فعلا أم حرفا، فعندما تتلفظ بكلمة "جميل" و"رائع"، فالملاحظ هنا أن -الفاعل- قد أنجز فعلا هو فعل (المدح) بحسب السياق، ويعد الهدف من المنطوق وفق نظرية أفعال الكلام جزءا من الفعل[(2)]، ونشير هنا إلى أن الأفعال الكلامية الإنجازية معظمها ينجز من خلال الأفعال بمعناها اللغوي الصرفي والمعجمي، وذلك لارتباط مفهومها الوثيق بمفهوم الحدث، نرى ذلك بوضوح في البنى الصغرى من الأفعال الإنجازية المباشرة بشكل بين[(3)].

ب. مفهوم الفعل الكلامي عند العرب:

ليس من باب المقارنة، ولكن من باب التذكير فقط، فإن علماء العربية القدماء هم أول من أشار إلى وظيفة الفعل الإنجازي، فهذا عالم النحو الشهير في تاريخ العربية "سيبويه" يعرف الفعل قائلا: "وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع، فأما بناء ما مضى: فذهب، وسمع...، وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك آمرا: اذهب،...، ومخبرا: يقتُل،...، ويُقتَل،...، وكذلك بناء ما لم ينقطع، وهو كائن إذا أخبرت، فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء لها أبنية كثيرة...."[(4)].

---

(1)- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، د. علي محمود حجي الصّرّاف، مكتبة القاهرة، دط، 2010، ص: 11

(2)- مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانج هاينه همان، وديتر فيهفجر، ص: 225

(3)- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، د. علي محمود الصّرّاف، ص: 11

(4)- الكتاب (أبو بشر عمرو بن قنبر)، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج1، ص: 12

ويقول الزمخشري في "المفصل": "الفعل ما دل على اقتران حدث بزمان"[1]، وهو التعريف نفسه المقدم من قبل سيبويه، ويفهم من تعريف سيبويه وغيره من العلماء "كأبي سهل بن السراج" صاحب كتاب "الأصول في النحو" وغيرهما أن:

- الفعل يدل بمادته على معنى المصدر، أي الحدث؛ أي أن دلالة الفعل على الحدث تتم عن طريق مادة اشتقاقه، يتضح ذلك من خلال قول سيبويه "الفعل أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء".

فالمراد من قول "سيبويه" "أمثلة" هو "أبنية" وذلك أن أبنية الأفعال مختلفة، وقد تنبه سيبويه إلى ذلك فشرح بنفسه معنى "أحداث" بقوله: "والأحداث نحو الضرب، والحمد، والقتل"[2]، وهو يعني بالأحداث المصادر.

وبناءا على هذا الفهم أو النتيجة المتوصل إليها من لدن سيبويه، تتحدد الدلالة الإنجازية للفعل، كالدلالة المعجمية للتهنئة، أو التسمية أو القسم، أو الوعد، أو الاحتجاج،...، وغيرها من الدلالات الإنجازية الأخرى التي سنتعرض لدراستها وتحليلها خلال بحثنا هذا.

وأما قوله: "أحداث الأسماء" فهو يعني أن هذه الأبنية المختلفة أخذت من المصادر التي تحدثها الأسماء، والمراد بالأسماء –من منظور سيبويه– أصحاب الأسماء، وهم الفاعلون تحرزا من أن يظن ظان بأنه يقصد الأحداث المشتقة من الأسماء.

ومن علماء العربية كذلك "الرضي الاسترابادي" الذي يشير إلى أن الفعل يدل على الحدث بحروفه المرتبة، أي بمادة اشتقاقه، في حين أنه يدل على الزمن بوزنه الطارئ، أي بصيغته[3].

(1)- المفصل، موفق الدين بن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ط، ج07، ص: 02

(2)- الكتاب، ج1، ص: 12

(3)- شرح الكافية، الرضي الاسترابادي، تح: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2000، ج1، ص: 05

ويدل الفعل دلالة عقلية وتلازمية على فاعل، وهو الفاعل المنجز في نظرية الأفعال الكلامية، وذلك أن الفعل يقتضي فاعلا، وقد فهم ذلك من إشارة "سيبويه" إلى الفاعلين في قوله: "أحداث الأسماء"[1].

ولأن دلالة الفعل على فاعله تتخصص من صيغته الصرفية بما يلحقها من زوائد ولواصق، فالفعل -أَذْهَبُ- على سبيل المثال، يدل بصيغته على أن الفاعل مفرد متكلم، يدل على ذلك حرف المضارعة (الهمزة)، يؤكد هذا "سيبويه" بقوله: "إن صيغة الفعل تدل على فاعله، ويقع فيه الضمير الدال عليه لفظا"[2]، هذه إذن، إشارة إلى فطانة علماء العربية إلى العلاقة المهمة بين الأحداث والأفعال اللغوية.

ج. تحليل الفعل الكلامي عند الغرب:

- **عند أوستين:**

لقد حلل "أوستين" الأفعال الكلامية إلى نطقية أو لفظية وهي الأصوات التي ينطقها المتكلم بصورتها التركيبية ومعناها المعجمي، وإنجازية؛ وهي ما يقصده المتكلم بقوله وتأثيرية، وهي ما يخلفه القول من تأثير، وزاد عليه تلميذه "سورل" الأفعال القضوية، وهي تحمل قضية مكونة من خبر ومرجع[3]، وعلى هذا الأساس، فالإنجاز في اللغة هو الأداء والإتمام والقيام بالعمل، وأنجز المهمة: أدّاها، وقام بها على خير وجه، وأنجز العمل: أتمه وأكمله أو قضاه[4].

إذن، يراد بالأفعال الإنجازية تلك الأعمال التي يتم أداؤها وعملها، والقيام بها أثناء النطق بالأفعال اللغوية التي تدل عليها، أي التي قد يشير معناها المعجمي إلى أحداثها التي تُؤَدَّى أو يحدثها المتكلم في أثناء النطق بها ما لم تتدخل عناصر سياقية معينة تغير من معناها

---

(1)- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، علي محمود حجي الصّرّاف، ص: 12

(2)- الكتاب، ج2، ص: 54

(3)- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993، ص: 183-184

(4)-المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، 1985

المباشر، ثم إن هذا النوع من الأفعال لا يحكمها مقياس الصدق والكذب، وإنما يتزامن النطق بها مع تحقق مدلولها، ولا تتحقق إنجازيتها إلا وفق شروط أوضحها الدارسون هي كالآتي[1]:

1) أن يكون الفعل فيها منتميا إلى مجموعة الأفعال الإنجازية المتمثلة في: وعد، سأل، قال، حذر، أوعد...
2) أن يكون الفاعل هو نفسه المتكلم، أي إنها تمثل الفردية ممن يقولها.
3) أن يكون زمن دلالتها هو المضارع.

يلاحظ المتتبع لهذه الشروط أنها تجمع بين المستويين، النحوي والمعجمي، وغياب شرط واحد كفيل بتحويلها إلى عبارة وصفية.

ويتميز الفعل الإنجازي عن الوصفي الإخباري بكونه عاكسا للآثار التي ينجزها كلامنا، وهو فعل دقيق للغاية، وإن كان بالإمكان تقدير فعل وفق الشروط المذكورة في العبارات الوصفية نحو: (أقول) الجو جميل، لتصير إنجازية هي الأخرى من منظور "أوستين" الذي جعل كل العبارات الملفوظية إنجازية على نوعين[2]:

أ) إنجازية (صريحة/مباشرة): فعلها ظاهر (أمر، حض، دعاء، نهي) بصيغة الزمن الحاضر المنسوب إلى المتكلم.

ب) إنجازية (ضمنية/غير مباشرة): فعلها غير ظاهر كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[3]، فالتقدير: احذروا الدنيا، أو قول: الدنيا متاع الغرور، وهكذا...

وبناءا على هذين النوعين ميز "أوستين" أنواعا ثلاثة من الأفعال الكلامية[4]:

1. فعل قولي "Locutoire": يقابل التلفظ بالأصوات (فعل صوتي) والتلفظ بالتراكيب (فعل تركيبي)، واستعمال التراكيب حسب دلالاتها (فعل دلالي).

---

(1)- اللسانيات الوظيفية، أحمد المتوكل، ص: 19، وينظر كذلك: Quand dire c'est faire, p: 50-51

(2)- Quand dire c'est faire, p: 114-115, huitième conférence

(3)- سورة الحديد، الآية: 20

(4)- Quand dire c'est faire, p: 115

2. فعل إنجازي (القول الفاعل) "Illocutoire": يحصل بالتعبير عن قصد المتكلم من أدائه: يعد، يخبر، يعجب، ينذر، ويشمل (الجانب التبليغي والجانب التطبيقي).
3. فعل تأثيري (استلزامي) "Perlocutoire": يحصل حين يغير الفعل الإنجازي من حال المتلقي بالتأثير عليه، كأن: (يرعبه، يجعله، ينفعل...)، ويتميز كل فعل من هذه الأفعال بتوفره على قوة إنجازية وهي: "تفترض تزامنا تاما بين موضوع الملفوظية والمتلفظ"(1).

وانطلاقا من مفهوم القوة الإنجازية ميز "أوستين" بين خمسة أنواع للأفعال الكلامية(2):

1) الأفعال الحكمية الإقرارية "Verdictifs": مثل: حكم، وعد، وصف.
2) الأفعال التمرسية "Exersitifs": إصدار قرار لصالح أو ضد،...، أمر، قاد، طلب...
3) أفعال التكليف (الوعدية) "Courressifs": تلزم المتكلم: وعد، تمنى، التزم بعقد، أقسم.
4) الأفعال العرضية التعبيرية "Expositifs": عرض مفاهيم منفصلة (أكد، أنكر، أجاب، وهب...).
5) أفعال السلوكات (الإخباريات) "Comportementaux": ردود أفعال، تعبيرات تجاه السلوك: اعتذر، هنأ، حيّ، رحب...

ولقد أوضح "دومينيك منقينو" أشكال الفعل الإنجازي حسب الترسيمة التالية(3):

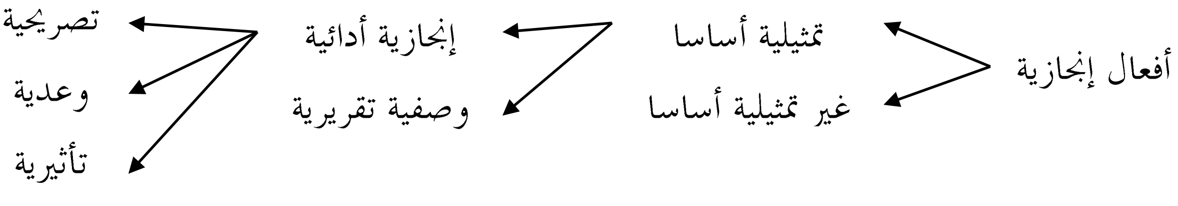

(1)- Pragmatique pour le discours littéraire, D. Main Guéneau, Collection lettres, Sup, Dunod, Paris, France, 1997, p: 06

(2)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص: 62

(3)- Pragmatique pour le discours littéraire, p: 10

- **عند "سورل":**

يعتبر "سورل" أول من أوضح الفكرة السابقة لأستاذه "أوستين"، حيث قام بشرحها، مقدما هو الآخر شروطا لإنجاز كل فعل، مضيفا شروطا تخص تحول الفعل من حال إلى حال أخرى، مبينا آليات هذا التحول، موضحا خطوات استنتاج الفعل المقصود[1]، فقول من في المكتب: "تركت الباب مفتوحا" لمن يدخل عليه، يخضع وفق سورل إلى جملة من الخطوات لإدراك الفعل المقصود إنجازه منها:

- إن الضجيج في الرواق، ولا ينبغي ترك الباب مفتوحا ⟵ فهو يأمرني بإغلاقه.
- المكتب مكيف ولا ينبغي ترك الباب مفتوحا ⟵ فهو يطلب مني (بشكل ما) إغلاقه
- من الأدب أن تغلق الباب كما وجدته مغلقا حال دخولك ⟵ فهو يعاتبني على سوء سلوكي.

ومثل هذه الأفعال، ما نجده عند شخص يريد أن يوجه ابنه إلى شعبة معينة، فيذكر الابن لوالده قائلا: "إن فلان لاعب كرة ممتاز"، فيدرك الوالد حينذاك أن ابنه يرفض وجهة والده، ويريد أن يشتغل أو يدرس شعبة خاصة بالرياضة، وهكذا وعلى نهج أستاذه أعاد "سورل Searl" هو الآخر تقسيم الأفعال الكلامية إلى أربعة أقسام[2]:

1) فعل التلفظ (الصوتي والتركيبي).
2) الفعل القضوي (الإحالي والجملي).
3) الفعل الإنجازي (على نحو ما فعل أوستين).
4) الفعل التأثيري (على نحو ما فعل أوستين).

مقترحا لهذه الأفعال تصنيفات خمسة[3]:

أ) الأوامر "Directifs": تحمل المخاطب على فعل معين.

---

(1)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص: 66-68

(2)- Les actes de langage (essai de philosophique du langage), Collection Savoir, Lettres, Herman, Nouvelle tirage, Paris, 1996, p: 60

(3)- نفسه، ص: 62

ب) الالتزامية "Commissifs": أفعال التعهد، وهي أفعال التكليف عند أستاذه، حين يلتزم المتكلم بفعل شيء معين.

ج) التصريحات "Experssifs": وهي الأفعال التمرسية عند أوستين وتعبر عن حالة مع شروط صدقها.

د) الإنجازيات "Déclarations": الإدعاءات، وتكون حين التلفظ ذاته.

ه) الأخبار "Assersifs": تبلغ خبرا، وهي تمثيل للواقع، وتسمى كذلك: التأكيدات، الأفعال الحكمية.

وبالإضافة إلى التقسيمات والتصنيفات، وضع "سورل" اِثني عشرة مقياسا لنجاح الفعل الإنجازي، منها: غاية الفعل، توجيهه، حالته السيكولوجية،...[1]، وسماها شروط النجاح مستمدا ذلك من قوانين المحادثة عند غرايس "Grice" التي ذكرناها سابقا، ثم إنه قد وسع مفهوم الفعل الإنجازي ليتجاوز ارتباطه بالمتكلم إلى العرف الاجتماعي اللغوي، وجعل للقوة الإنجازية أدلة عليها: تقديم، تأخير، نبر، تنغيم، علامات ترقيم...[2].

وبعد عرضنا لمفهوم الأفعال الإنجازية وكيفية تحليلها يجوز لنا أن نورد بعض التقنيات التي نراها تغلب على كل تواصلاتنا وتعاملاتنا اليومية ومن ذلك:

➢ تقنية الأمر والنهي:

إن الأمر والنهي يجعل كلا من المتكلم والمتلقي يتمايزان من حيث المكانة والوظيفة، فغالبا ما يكون المتكلم متعال أو في مركز يخول له مكانة عليا تمنحه أن يكون هو الآمر وهو الناهي، وفي هذه الحالة يكون المتلقي أدنى درجة، حيث يتقبل الخطاب لتحويله إلى واقع عملي، كخطاب الله للأنبياء، وحديث الأب مع الأبناء، أو مدير مؤسسة مع الموظفين، وغيره، وبخاصة تقنية الأمر، إذ الأمر من أهم أقسام الكلام وذلك أن "معاني الكلام من حيث هي لا تخرج عن الأمر وما في معناه والخبر وما في معناه"[3].

---

(1)- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ص: 63

(2)- في اللسانيات التداولية، د. خليفة بوجادي، ص: 100

(3)- المعتمد في أصول الفقه، أبو الحسن البصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ج1، ص: 21

وبتتبعنا لنظرية أفعال الكلام، وجدنا أنها تعتمد على هذا النوع من الأفعال الإنجازية اعتمادا كبيرا، وذلك أنها تحول الخطاب من صورته الملفوظية التجريدية إلى صورة فعلية وسلوكية، وعلى هذا الاعتبار تصبح "الوحدة الأساسية للاتصال البشري ليست الكلمة، أو الرمز أو الجملة أو العلامة، -كما يفترض غالبا- بل هي إنتاج واحد من هذه الوحدات أو قولها، بأداء أنواع معينة من الأفعال الكلامية"[1].

وتحتل الأفعال الإنجازية من أوامر ونواه، ووعود ونصائح، وحث على التعلم والتحصيل وغيرها في الاتصال البشري المترلة الأولى، بل إننا حينما نُمْعِنُ النظر فيه، نجد أن هذا الاتصال لا يكاد يتألف إلا منها، ذلك أنها في الحقيقة هي التقنية الكفيلة بإقامة التواصل بين الناس.

ولأن دراسة وظائف الخطاب دراسة بنيوية لا تكفي وحدها، عمدت النظرة التداولية لأفعال الكلام إلى دراسة الخطاب انطلاقا من تصوره في مجال تواصلي، حيث يتفاعل من خلاله المتكلم مع المتلقي قصد إحداث التأثير، ومن ثم ترتبط أفعال الكلام بمفهومين تواصليين هما: المقام والحوار[2].

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، فالأمر والنهي يُوحيّان بتقابل المتكلم والسامع دون واسطة، أي إن تواصلهما مباشر، فالمتكلم هو المصدر المباشر للخطاب أو الكلام من حيث النطق به، ومن حيث إنتاجه له، وبذلك فهو المسؤول الأول عن المحاجة والدفاع عن فكرته أو قضيته، أو دعم رأيه حتى يقتنع السامع بأفكاره إن كان موضوع الخطاب يستلزم الإقناع، وذلك أن هناك خطابات كثيرة ليس غرضها دائما الإقناع؛ وإنما مجرد الإخبار لا غير، أو الإمتاع، وذلك أن الإقناع يستلزم من المخاطب القيام بالفعل أو الترك أو المشاركة أو الإقدام، أو التغيير في رأي أو في سلوك ما.

(1)- العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، أبو فالح شبيب العجمي، مجلة عالم الفكر، م28/ع01، سبتمبر 1999، ص: 254

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 207

ولا أحد يختلف مع الآخر، في وجود خطابات عديدة مختلفة متنوعة ومتباينة من حيث منزلة المتكلم، ونوع الرسالة، وقد سبق الذكر أن هناك خطابات من الأعلى إلى الأدنى، -كخطاب الله تعالى أنبياءه ورسله، هذه الخطابات التي يشعر كل متلق للنص القرآني، وربما لكل الخطابات الدينية السابقة- يشعر وكأنه هو المتلقي المقصود، على اعتبار أن المصدر الأول للتبليغ هو الله عظم قدره.

وبذلك تصبح الأفعال الإنجازية، خاصة الأوامر والنواهي المصدرة ب"قُلْ" تعني كل قارئ وكل مستعمل للقرآن الكريم، وكأنه الفاعل المضمر في (قل) و(اصدع)، و(ادع)، فكل متلق يحل محل المبلغ الأول، وهو النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الله تعالى.

ولعل ما يؤكد هذا الطرح أن معظم الأفعال الإنجازية التي يتوفرها كلامه -عز وجل- لم ترتبط باسم المخاطب الأول، سواء أكان النبي -صلى الله عليه وسلم- في مثل قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[1]، أو ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2]، أو كان المخاطب قبيلة أو حيا، مثل: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾[3]، في مخاطبة المولى الأوس والخزرج[4]، وتغييب متعلق الفعل الإنجازي له دور تواصلي هام جدا، إذ يمكن للقارئ أو السامع للقرآن الكريم أن يضع نفسه المعني بذلك الفعل، ومن ثم فهو يتقدم نحو الخطاب القرآني بنية الاستجابة والتأثر الشعوري والسلوكي، وعلى هذا الأساس، يجد الخطاب طريقه إلى الواقع الخارجي، وهذا هو المقصود الأسمى للقرآن الكريم[5].

وقريبا من الخطاب القرآني، كل الخطابات التعليمية والإرشادية والسياسية والاجتماعية، إذ هي موجهة في الأساس إلى معظم الناس، إن لم نقل كافة الناس، أي إلى كل مُتَلَّقٍ في بيئته بلغتها ونظامها وتقاليدها وأعرافها وقوانينها ودينها.

(1)- سورة النحل، الآية: 125

(2)- سورة الشعراء، الآية: 214

(3)- سورة آل عمران، الآية: 103

(4)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 208

(5)- نفسه

وإذا كانت التقنية الغالبة في معظم الخطابات أو الأقوال الموجهة إلى المتلقي هي الأوامر والنواهي، فإن هناك أنواعا أخرى تمثل مع الأمر والنهي شبكة تواصلية تحيط بالسامع مستجيبة لهدفها، نذكر منها:

1. تقنية الترغيب والترهيب:

وهما أمران يساعدان كثيرا على دفع المتلقي نحو سلوك معين (الالتزام أو الترك)، وكلما كان هذان الأمران مناسبين لفطرة السامع، وخصائصه النفسية، وحاجاته الاجتماعية، وربما الاقتصادية والثقافية، كلما كان الاتصال ناجحا ووَفَّقَ ربط السامع بالأفعال الإنجازية (الترهيبية أو الترغيبية)، كما أنهما يعمدان إلى تجديد ذلك الدافع حينما يفتر أو يضعف[1].

2. تقنية تنويع الأفعال الإنجازية:

الإنسان بطبعه ملال، لذلك فهو يسعى دائما إلى التغيير والتجديد، لذا فطبيعي جدا أن يعمد المتكلم إلى التنويع في أفعاله تنويعا يتماشى وثراء حياة المتلقي السامع، ويتناسب وتعدد حاجاته، وهذا الأمر كفيل بإحداث التوازن في تعامل الإنسان مع هذه الأفعال، إذ لا يحظى جانب بما لا يحظى به آخر، كما أن التنويع من شأنه أن يجدد الحالة النفسية للمتلقي، ويدفع عنه الملل والضجر ويشده إلى متابعة الكلام إلى أن يختمه المتكلم، وذلك أن الإصغاء الجيد سبيل نجاح التواصل بين الأطراف.

3. تقنية الحذف:

الحذف مظهر من مظاهر الاقتدار اللغوي، يتوسله المتكلم إذا رغب في نزع أجزاء من الكلام، يزداد بها المعنى تأثيرا في نفسية السامع، إذ "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[2].

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 209

(2)- الدلائل، ص: 106

إلى أن يقول "... فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال الذي ينبغي أن يحذف فيها، إلا أنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"[1].

فالحذف من منظور الجرجاني لا يتم فقط كمقولة نحوية، بل يأتي لدواعي تواصلية معينة، ويتم ذلك الحذف في الموضع والحال الذي ينبغي فيه كي يؤدي المعاني التي تقتضيها الشروط التواصلية، حتى يصل تأثير القول الذي فيه حذف إلى تحريك نفس السامع.

يقول الجرجاني: "ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف، يبدؤون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر الخبر من غير مبتدأ مثال ذلك قوله[2]:

وعلمتُ أَنِّي يَومَ ذَا ... كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا أو هِنْدًا
قَومٌ إذا لَبِسُوا الحَدِيـ ... ـدَ تَنَمَّرُوا حلقًا وَقِدًّا

والنماذج من كتاب "الدلائل" كثيرة، ليس هاهنا متسع لإيرادها، أو شرح مغزاها وتقديم لطائفها التي لا تحصى.

وعليه فمن المستقر في الأذهان أن مباني اللغة -أيا كانت- قليلة، إذا ما قيست بالمعاني والأفكار، وذلك ما فرض ظاهرة الأضداد والمشترك، والتجوز، وهذا لا لشيء إلا لجعل بنية اللغة تناسب وتسع المعاني والدلالات، وهذا لا يعني أن هذه المواكبة أصبحت أو تصبح تامة، لأن ذلك لا يمكن الوصول إليه بحال من الأحوال، بل إن وسائل توسيع بنية اللغة المذكورة آنفا، لم تستطع في حقيقة الأمر إلا مد اللغة بمرونة نسبية، تضمن لها مسايرة المعاني، ولكنها لا تظفرها بالإحاطة بها، ومن هنا يبدأ الإبداع والابتكار في التعبير، إذ لو أحاطت المباني بالمعاني -باعتماد وسائل معينة- لاندثر التفاعل الفردي والشخصي مع اللغة، وأصبحت

(1)- الدلائل، ص: 111
(2)- نفسه، ص: 106

محدودة ومسكوكة، تحفظ وتستعمل كما تحفظ، وتغدو وسيلة مثل باقي الوسائل الثابتة، والتي يستعملها الإنسان في الحدادة والنجارة[1].

ولعل من جوانب الإبداع اللغوي عند الفرد، هو استعمال المجاز، حيث يبيح لنفسه كسر معيارية ورتابة اللغة الجماعية، ليصنع بذلك لغة لنفسه عليها بصماته الخاصة، وتميزه عن غيره[2].

وكان من المفروض -اعتمادا على قلة المباني وكثرة المعاني- ألا يعتمد الإنسان في التعامل باللغة إلا التوليد، وتكثير الحروف والكلمات والتراكيب حتى يحيط -بشكل نسبي- بتهاطل المعاني وتجددها، ولكننا في جانب من جوانب التواصل اللغوي نلاحظ مستعمل اللغة يذهب إلى حذف جزء منها سواء كان هذا الجزء حرفا، أو كلمة أو جملة، أو فقرة وتلك ظاهرة تخالف احتياجات المبنى التي أشرنا إليها آنفا[3].

ولكننا إذا ركزنا جيدا في تعامل الإنسان مع اللغة، وباللغة، في موقف تحاوري معين فإننا نجزم أنه ما لجأ إلى هاته الآلية، آلية الحذف إلا لسببين هنا[4]:

أ) رغبته في تبليغ مقصده وغرضه تبليغا سليما، ويرى أنه لا يحقق ذلك إلى بالحذف.

ب) رغبته في مشاركة السامع في بناء الخطاب حتى ينتقل من الاتصال إلى التواصل.

وقد تعرض علماء البلاغة عموما، وعلماء الدراسات القرآنية خصوصا، إلى هذه الظاهرة، وهي ظاهرة الحذف، وبينوا أبعادها التداولية، سواء ما تعلق منها بالمتكلم، أو ما تعلق منها بالسامع، وسنحاول عرض مجهودهم في هذا الأمر، ونبدأ بتحديد مفهومهم لهذه الظاهرة[5]، فالحذف هو "إسقاط الشيء لفظا ومعنى"[6]، وقد جعله الرماني تحت باب أكبر

---

(1)- آليات التواصل في القرآن الكريم، ص: 210

(2)- نفسه

(3)- نفسه

(4)- نفسه

(5)- آليات التواصل في القرآن الكريم، ص: 211

(6)- الكليات، الكفوي، ص: 384، وقد عده الأوائل من المجاز كما عند أبي عبيدة، والفراء والجاحظ

وهو الإيجاز، فقال: "الإيجاز: تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى... والإيجاز على وجهين: حذف وقصر.

- فالحذف: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام.
- والقصر: بِنْيَةُ الكلام على تقليل اللفظ، وتكثير المعنى من غير حذف"[1].

ومنهم من فرق بين الحذف والإضمار، إذ الحذف إسقاط الشيء لفظا ومعنى ونية، كقولك: أعطيت زيدا، أما الإضمار: فهو ترك الشيء لفظا لا معنى ولا نية، ولذلك فهو يقدر كقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[2]، والمعنى أنك في الأول لا تريد من السامع أن يقدر أي كلمة، وأي معنى، لأنك لم ترد من كلامك إلا إفهامه أن هناك إعطاءً من جانب، ثم لزيد من جانب آخر، بغض النظر عن الشيء المعطى[3]، ويوضح عبد القاهر الجرجاني ذلك جيدا في كتابيه "الدلائل" و"الأسرار"، أما في الثاني فإنك تريد من السامع أن يقدر معنى حتى يستقيم مفهوم الكلام.

ولقد أشار طه عبد الرحمن إلى فرق آخر بين الإضمار والحذف في قوله: "إن كل مضمر محذوف، باعتبار أن الحذف هو إسقاط الكلام إن جزءا أو كلا، لكن لا يصح أن يقال إن كل محذوف مضمر، لكون الأول أعم من الثاني، فقد يحذف المتكلم من كلامه ما لا علم له به، فلا يكون مطالبا بتقدير ما حذف ولا بتصديقه لثبوت جهله به، بينما مقتضى الإضمار أن يكون حذفا لما هو معلوم للمستدل، فيستحق أن يسأل عما أضمر، ويؤاخذ ببيان الحجة عليه"[4].

وبالمفهوم التواصلي للحذف الذي نريده في هذه الدراسة يكون الحذف نوعين:

- حذف متعلق بالمتكلم أو بقصده.
- حذف متعلق بالسامع ومؤهلاته التواصلية.

---

(1)- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص: 76

(2)- سورة يوسف، الآية: 82

(3)- ينظر: الكليات، الكفوي، ص: 384

(4)- اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ص: 164

أ. الحذف المتعلق بقصد بالمتكلم:

وهو النوع الذي يستعمله المتكلم لتبليغ قصده إلى السامع، وهذا القصد يضيع إذا لم يستعمل هذا الحذف، ومثال ذلك قول القائل: "فلان يحل ويعقد، ويأمر وينهي... المعنى في جميع ذلك على إثبات للشيء نفسه على الإطلاق، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، المعنى هل يستوي من له علم، ومن لا علم له، من غير أن يقصد النص على معلوم، فإن الفعل لا يتعدى هنا، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى"[1]، ويوضح ذلك عبد القاهر بشكل جيد في قوله تعالى في سورة القصص:﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾[2]، بقوله "ففيهما حذف المفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى: وجد عليه أمةً من الناس يسقون أغنامهم ... وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما..، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذوذ... فأما ما كان المسقي، أغنما أم إبلا، أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافه، وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذوذان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذوذ من حيث هو ذوذ، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبلا لم ينكر الذوذ"[3]، ويؤكد ذلك تعليق الزمخشري على هذه الآيات إذ جاء فيه "فإن قلت لم ترك المفعول غير مذكور في قوله (يسقون) ويذوذان، ولا نسقي، قلت، لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى إنما رحمهما لأنهما كانت على الذياد، وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذوذهما غنم، ومسقيهم إبل مثلا، وكذلك قولهما: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، المقصود فيه السقي لا المسقي"[4].

---

(1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 154، والآية 09 من سورة الزمر

(2)- سورة القصص، الآية 23 إلى 24

(3)- الدلائل، الجرجاني، ص: 160

(4)- الكشاف، الزمخشري، ج3، ص: 401

ومقاصد المتكلم من هذا النوع من الحذف كثيرة جدا، لا يمكن حصرها وتعدادها، ويندرج تحتها ما ذكره البلاغيون من: قصد التفخيم والإعظام، ورعاية السجع وصيانة اللسان عنه (أي المحذوف)، وصيانته عن اللسان، ولكون المذكور لا يصلح إلى لمحذوف بعينه لا يتجاوزه ولا يتعداه، فمثال التعظيم قولنا: هذا هو الرجل، في إشارة إلى شخص معين على سبيل الإشادة، دون ذكر صفة واحدة تصرح بالتنويه، لأن في ذكر صفة أو أكثر ما يحدد هذه الإشادة، ويقلل من ذلك التنويه، ويمنعه من تجاوز مرتبة معينة، أما إذا تركنا العبارة هكذا مفتوحة، فإننا نجعل الرجل يحتل المكانة العالية من العظمة والفحولة عند السامع، وكل سامع يقدر ذلك على حسب سعة إدراكه وقوة تصوره[1].

ومثال رعاية الفواصل قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2]، وقد فسر الزمخشري حذف المفعول هنا بظهوره وسهولة تقديره[3]، وأما صيانة اللسان عنه فكقوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾[4]، أي هم[5]، وأما صيانته عن اللسان فكقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[6]، "حذف المبتدإ في ثلاثة مواضع، قبل ذكر الرب، أي هو رب، والله ربكم، والله رب المشرق"[7]، وأما

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 213
(2)- سورة الضحى، الآية: 03
(3)- ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج4، ص: 766
(4)- سورة البقرة، الآية: 18
(5)- البرهان، الزركشي، ص: 107
(6)- سورة الشعراء، الآية من 23-28
(7)- البرهان، الزركشي، ص: 107

كون المذكور لا يصح إلى المحذوف واحد كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[1].

ب. الحذف المتعلق بالسامع:

يمثل هذا النوع من الحذف، الحذف التواصلي/التداولي، إذ فيه يختبر المتكلم القدرات التواصلية للسامعالذي يجب أن يكون على مستوى متقارب مع المتكلم في المقام التواصلي الذي يجمعهما، كما أنه يجب عليه أن يكون عارفا بهذه الآلية حتى يتجاوب معها تجاوبا كاملا، ونمثل لهذا النوع بقول السكاكي في باب حذف الفعل، وكيف يترك ذلك في الكلام رونقا وجمالا: "ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالما بجهات حسن الكلام، ومعتقدا بأن المتكلم تعمدها في تركيب الكلام عن علم منه، فإن السامع إذا جهلها لم يميز بينه وبين ما دونه، وربما أنكره، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده، ربما نسبه في تركيبه في ذاك الخطأ"[2].

والمتكلم باستعمال هذا الحذف، يكون قد نقل السامع من متلق حيادي للخطاب إلى مشارك فيه ومنجز له، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فالمتكلم يفرض على المتلقي الاهتمام بالعملية التواصلية بجميع أطرافها، لأن تحديد المحذوف، وتقديره يعتمد على أشياء كثيرة منها[3]:

- طبيعة اللغة.
- قصد المتكلم.
- طبيعة الفكر.
- نوع المقام.
- قدرة السامع.

---

(1)- سورة غافر، الآية: 06، وينظر في هذه المعاني الكليات، ص: 384

(2)- مفتاح العلوم، السكاكي، ص: 332

(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 214

والمتكلم حين يحذف جزءا من كلامهالذي قد يكون حرفا أو كلمة أو جملة أو فقرة، يكون قد لجأ إلى شكل من أشكال الصمت والسكوت، ليتعالى صوت السامع خلال ثنايا كلام المتكلم، ومن ثم يصبح المتلقي متكلما حين يضيف أو يقدر المحذوف[1].

يستنتج من الكلام السابق أن الحذف يمثل منطقة مشتركة بين المتكلم والسامع، عكس المناطق الأخرى، فإن منها ما يعود للمتكلم فقط، ومنها ما يعود للسامع فقط، فمما يعود للمتكلم في العملية التخاطبية الكلمات والجمل المنطوقة، ومما يعود إلى السامع دون المتكلم فهو فهم تلك الكلمات، وتوجيه دلالات الجمل، أما المنطقة المشتركة التي يتقاسمها الطرفان فهي الحذف، إذ يصبح هو كلام الطرفين معا، ففي جملة: أعرني الكتاب[2]، يكون قصد المتكلم مثلا كتاب الكشاف، دون أن يصرح بلفظ الكشّاف، والسامع يقدر كلمة الكشاف نفسها ولا يصرح بذلك، فكلاهما في هذه الحالة متكلم. ولا ينافي هذا الكلام قولنا إن المتكلم صامت حيث يستعمل الحذف، لأن ذلك مبني على المقارنة بين التلفظ وعدم التلفظ[3].

وقد أشار العلماء القدامى إلى هذه الخاصية التواصلية للحذف[4]، إضافة إلى مزايا أخرى نذكر منها:

- تحرير خيال السامع: "وإنما صار الحذف في مثل هذا، أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر... لقصر على وجه الذي تضمنه البيان"[5].
- تفاعل المتلقي مع الخطاب: يقول صاحب الكليات: "ويزيد في النفس مكانة وزيادة لذة استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر، كان الالتذاذ به أكثر"[6].

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 215

(2)- ويسمي النحويون "الـ" هنا العهدية

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 215

(4)- وقد جعله ابن جني من شجاعة العربية حيث يقول: "ومن المجاز كثير في باب الشجاعة العربية من الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى"، الخصائص 446/2، وربما يكون لفظ الشجاعة هنا مشيرا إلى خطر وأهمية هذه الظواهر والآليات

(5)- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص: 76

(6)- الكليات، الكفوي، ص: 384

- زيادة الأجر بسبب الاجتهاد، وهذا يخص الخطاب القرآني.

كما جعلوا للجوء المتكلم إلى الحذف مسوغا وشرطا:

1) أما المسوغ فهو علم المتلقي به، فالحذف "تستعمله العرب للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول، إذا كان المخاطب عالما بمرادها فيه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ وسكت عن تمام الكلام لعلم المخاطب به، وكان تقدير ذلك، وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم، وما خلفكم، استكبروا وعتوا وتمادوا"[1].

2) وأما الشرط: فهو أن يدل عليه دليل، سواء كان هذا الدليل لغويا أو غير لغوي، وهنا يتجلى التفاعل بين مختلف جهات العملية التواصلية: المتكلم والسامع، والرسالة والمقام.

أ) **الدليل اللغوي**: كأن يأتي مفعولا من دون ذكر الفعل نحو:﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[2]، ف"انتصبت سلاما على إضمار الفعل أي: سلمنا عليك سلاما.. قال ابن عطية: ويصح أن يكون سلاما حكاية لمعنى ما قالوا، لا حكاية للفظهم، قاله مجاهد والسدي، ولذلك عمل فيه القول، كما تقول لرجل: لا إله إلى الله، قلت: حقا وإخلاصا، ولو حكيت لفظهم لم يصح أن يعمل فيه القول"[3].

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرًا ﴾[4]، ولقد التفت الزمخشري إلى لطيفة جيدة في هذا الحذف، وذلك حينما قارن في السورة نفسها بين هذه الآية على لسان المؤمنين وآية سابقة حكاية عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ

(1)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 121، والآية 45 من سورة يس، وقد ذكر هذا الشرط أبو عبيدة في "مجاز القرآن"، تح: محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1970، ج1، ص: 100-101

(2)- سورة هود، الآية: 69

(3)- البحر المحيط، أبو حيان، ج6، ص: 179

(4)- سورة النحل، الآية: 30

قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1]، فقال بأسلوبه التحاوري: "فإن قلت: لِمَ نَصَبَ هذا، ورفع الأول؟ قلت: فصلا بين جواب المقر، وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال، بينا مكشوفا مفعولا للإنزال، فقالوا خيرا، أي أنزل خيرًا. وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء"[2].

ب) **الدليل العقلي**: "حيث تستحيل صحة الكلام إلا بتقدير محذوف كقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[3]، ونحو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾[4]"، إذ لا يقع التحريم على الذوات، وإنما المقصود تقدير "أكل أو تناول" ومن ثم فالتحريم واقع على المحذوف، وقد أضاف صاحب البحر المحيط دليلا لغويا على تعيين المحذوف، وهو لفظ كُلُوا المتقدم في الآية[5].

ج) **ثقافة السامع**: وذلك "بأن يكون العقل غير مانع من إجراء اللفظ على ظاهره من غير حذف، نحو: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾ أي مكان قتال، والمراد مكانا صالحا للقتال، لأنهم كانوا أخبر الناس بالقتال... فالعادة تمنع إرادة حقيقة القتال"[6].

د) **المقام أوالشروع**: كأن يكون الشخص بصدد القيام بفعل معين، ويقول: إنني أجده صعبا، فيقدر السامع اللفظة التي تدل على ما فيه المتكلم من عمل كأن يكون، بناء حائط، أو نقل أثاث أو ما شابه ذلك[7]، "وكقوله بسم الله فإن اللفظ يدل على أن فيه حذفا، لأن حرف الجر لابد له من متعلق، ودل عليه الشروع"[8].

---

(1)- سورة النحل، الآية: 24

(2)- الكشاف، الزمخشري، ج2، ص: 603، وانظر في مثل هذا الحذف، الآية 01 من سورة النساء

(3)- البرهان، الزركشي، ج3، ص: 108، والآية 82 من سورة يوسف

(4)- سورة المائدة، الآية: 03

(5)- ينظر: البحر المحيط، ج2، ص: 111

(6)- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، ج1، ص: 637، والآية 167 من سورة آل عمران

(7)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 217

(8)- البرهان، الزركشي، ج3، ص: 108

ومن ذلك اعتضاد الخطاب بسبب النزول كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]، "نزلت في قصة عائشة رضي الله عنها حيث فقدت العقد بسبب الماء، ومشروعية التيمم وكان الوضوء متعذرا عندهم"[2].

وكما يكون المقام وسيلة من وسائل تعيين المحذوف، فإنه يكون كذلك سببا في الحذف، وذلك حينما يلاحظ المتكلم[3] "أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم... وهذه هي فائدة باب التحذير وباب الإغراء"[4]، كما في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾[5]، "نصبت على التحذير كقولك الأسدَ، والصبي الصبيُ، بإضمار ذروا أو احذروا عقرها"[6].

وخلاصة القول؛إن القيمة التواصلية للحذف لا تتجلى على مستوى المتكلم والسامع والمقام فقط، بل هي أيضا على مستوى الخطاب/الرسالة، إذ الحذف من طرائق تكثير الدلالات وتجديدها، هذا التكثير والتجديد يرتبطان بالمستوى الثقافي والعلمي، واللغوي للسامع، وعلى هذا الأساس؛ فإن الحذف يمكّن المتلقي من وضع بصماته على الخطاب، وإن تلك البصمات تختلف من متلق لآخر، وعليه يكون الخطاب خطابا واحدا باعتبار المتكلم، ولكنه خطابات متعددة وثرية باعتبار المتلقي.

4. تقنية الالتفات:

تعد ظاهرة الالتفات من أهم الظواهر التواصلية في الخطاب عموما، والخطاب القرآني خصوصا، بناءًا على تعريفات علماء البلاغة الذين نجدهم في كثير من الأحيان يتبنون تعريفات غير جامعة، وغير محيطة بأبعاد هذه الآلية، وذلك مثل قولهم: هو "نقل الكلام من

(1)- سورة المائدة، الآية: 06

(2)- البحر المحيط، أبو حيان، ج4، ص: 186

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 217

(4)- البرهان، الزركشي، ج3، ص: 105

(5)- سورة الشمس، الآية: 13

(6)- الكشاف، الزمخشري، ج4، ص: 760، وينظر ألفت يوسف، تعدد المعنى في القرآن، من ص 71 إلى 83، ففيه نماذج عن مرجعيات تعين المحذوف في القرآن الكريم

الحكاية إلى الغيبة"(1)، أو هو "العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم أو العكس"(2)، وقد سماه ابن وهب الصرف وذلك من خلال قوله: "وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب، ومن الواحد إلى الجماعة"(3)، وقد أضاف هنا الانتقال من مخاطبة الواحد أو الاثنين أو الجماعة إلى آخر، وغير بعيد عن هذا التعريف ما ذهب إليه "الطاهر بن عاشور" من المحدثين بقوله: "نرى من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرف التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها"(4).

وإلى جانب تلك التعريفات، هناك تعريف جامع يأخذ في الحسبان أهمية هذه الظاهرة واتساعها بحيث تشمل كل انتقال فجائي في الأسلوب، سواء على مستوى الضمائر (طبيعة المتكلم والسامع) أو على مستوى تعدد الأطراف أو عدمه (المتكلم والسامع)، أو على مستوى أزمنة الفعل، وهذا ما نلمسه في الحدود التالية(5):

الالتفات عند الزركشي: "هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر"(6).

ويقول أبو هلال العسكري: "الالتفات على ضربين، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه، يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره، كقول جرير من (الوافر):

طَرِبَ الحَمَامُ بِذِي الأَرَكِ فَشَاقَنِي لاَ زِلْتُ فِي عَلَلٍ وَأَيْكَ نَاضِرِ(7)

فالتفت إلى الحمام ودعا له.

---

(1)- مفتاح العلوم، السكاكي، ص: 262

(2)- التعريفات، الشريف الجرجاني، ص: 51

(3)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 122

(4)- التحرير والتنوير، ابن عاشور (محمد الطاهر)، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984، ج1، ص: 05

(5)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 219

(6)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1972، ج3، ص: 314

(7)- الديوان، جرير، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص: 236، وفيه (فهاجني) بدل (فشاقني) و(غلل) بدل (علل)، والغلل الماء الذي يجري بين الشجر، والأيك: الشجر الكثير الملتف

والضرب الآخر هو أن يكون الشاعر آخذا في معنى، وكأنه يعترضه شك أو ظن، أن رادا يرد عليه أو سائلا يسأله، فيعود راجعا إلى ما قدمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه"[1].

والالتفات عند "ابن رشيق": "هو الاعتراض عند قوم، وسماه آخرون الاستدراك، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا في معنى، ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول كقول كثير (الوافر):

لَوْ أَنَّ البَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ   رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ المِطَالاَ"[2]

يستخلص من التحديدات السابقة أن للالتفات مفهومين: مفهوم ضيق، وهو الانتقال بين ضمائر المتكلم والخطاب والغيبة، ومفهوم واسع يشمل المعنى الأول، ويضيف إليه الانتقال من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجماعة إلى غيره، كما يشتمل على التنويع في استعمال الأزمنة، فيستعمل الماضي أو المضارع بدل الآخر، بل ويخرج معنى الالتفات عن هذه الدائرة إلى كل تنقل غير منتظر في بنية الخطاب مهما كان مستواه ونوعه، ثمَّ إنه لولا المقام التواصلي لما حدثت ظاهرة الالتفات بدليل أن علماء البلاغة والنقد جعلوا الهدف الأساس للجوء المتكلم إلى هذه التقنية هو أحد أمرين[3]:

الأمر الأول هو تبليغ فكرة معينة بواسطة الالتفات "منها قصد تعظيم المخاطب كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4]، ومنها قصد المبالغة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، كأنه ذكر لغيرهم ليتعجب منها، ويستدعي الإنكار والتقبيح لها،

---

(1)- كتاب الصناعتين، العسكري (أبو الهلال حسن)، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952، ص: 392

(2)- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، قدم له وشرحه، د. صلاح الدين الهواري، وأ. هدى عودة، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996، ج2، ص: 71

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 220

(4)- سورة الفاتحة، الآية من 02 إلى 05

ومنها قصد التوبيخ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾[1]، عدل عن الغيبة إلى الخطاب للدلالة على أن قائلا مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخا"[2]، وإضافة إلى هذا يرى أبو حيان أن للالتفات معنى آخر يتمثل في إظهار النعمة والامتنان على المخاطبين، لأن المسيرين في البحر والبر منهم الكافر ومنهم المؤمن، والخطاب جاء عاما وشاملا للفريقين[3].

ونشير إلى أن هذا الأمر متعلق بالمتكلم لأنه يستعمله تقنية لإيصال الرسالة إلى السامع من جهة، ومن جهة أخرى فهو يمارس مهاراته اللغوية والتواصلية من خلال هذه الآلية، لأن الانتقال من اتجاه قولي إلى اتجاه آخر مع المحافظة على استمرارية الفكرة، واستدامة العملية التواصلية ليس بالأمر الهين، بل هو مما يحتاج إلى قدرة كبيرة للسيطرة على اللغة وتصريفها بشكل وظيفي وجمالي في آن واحد، ولذلك عد الالتفات من أفانين البلاغة، واستعمله الخطاب القرآني[4].

الأمر الثاني وهو الأهم، لأن جلّ التعاريف قد ركزت على الالتفات كما في قول الزركشي "وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر تطرية واستدرارا للسامع، وتجديدا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه"[5]، وقول التهانوي: "وجه حسن الالتفات أن الكلام إذا نقل من أسلوب يتوقعه السامع إلى أسلوب لا يتوقعه، كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه"[6]، ولذلك ذهب الطاهر بن عاشور بعدما عرف الالتفات وتبين وظيفته إلى القول: "...لأن ذلك التعبير يجدد نشاط السامع"[7].

(1)- سورة مريم، الآية من 88 إلى 89

(2)- البرهان، الزركشي، ج3، ص: 326

(3)- ينظر: البحر المحيط، أبو حيان، ج6، ص: 33

(4)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 221

(5)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج3، ص: 314

(6)- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (محمد علي)، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1996، ج1، ص: 253

(7)- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج1، ص: 109

وأشرنا إلى هذا الأمر بالأهمية، لأنه يتعلق بمدى اعتناء المتكلم بالسامع، إذ إنه من أهم آفات، ومعوقات العملية التخاطبية، هو إعراض المتلقي، بأي صورة من صور الإعراض والتخاطب، إذا طال قد يخلف الفتور والوهن عند السامع، ومن ثم كان على المرسل أن يستعمل مجموعة من آليات تمكنه من استدامة التواصل، وذلك من خلال وسائل كثيرة مثل: أهمية الموضوع بالنسبة للسامع، والمستوى اللغوي والمقام المناسب، ومنها كذلك التفنن والتنويع في الخطاب (وهو الالتفات)، إذ ينتقل المتكلم بالمخاطب من شكل إلى آخر، ثم يعود به إلى الأول في تناسق كبير، بحيث لا يشعر المخاطب إلا بالأثر الإيجابي لهذه الآلية، وهذا يعتمد اعتمادا كبيرا على مهارة المتكلم(1).

فالالتفات إذن آلية من آليات استمرار التواصل من خلال تجديد النفس التحاوري عند السامع، كما أن المتكلم يلجأ إلى استعمال الالتفات، إذا عرض له في المقام ما يمكن أن يهدد العملية التواصلية سواء في ديمومتها أو في نوعيتها، فيلجأ إلى استعمال هذه الآلية حتى يتخلص من ذلك العائق، أو من تلك الحالة النفسية التي انتابته(2)، وتوضيحا لوظيفة وجمال الالتفات يقول السكاكي: "أليس أن المرء إذا أخذ في استحضار جنايات جان متنقلا فيها عن الإجمال إلى التفصيل، وجد من نفسه تفاوتا في الحال بينا، لا يكاد يشبه آخر حاله هناك أولها، أو ما تراك، إذا كنت في حديث مع إنسان، وقد حضر مجلسكما من له جنايات في حقك كيف تصنع؟ تحول عن الجاني وجهك، وتأخذ في الشكاية عنه إلى صاحبك، تبثه الشكوى معددا جناياته واحدة فواحدة، وأنت فيما بين ذلك واجد مزاجك يحمى على تزايد، يحرك ذلك حالة لك غضبية تدعوك إلى أن تواثب ذلك الجاني وتشافهه بكل سوء، وأنت لا تجيب إلى أن تغلب، فتقطع الحديث عن الصاحب، ومباثتك إياه وترجع إلى الجاني مشافها له: بالله قل لي: هل عامل أحد مثل هذه المعاملة، هل يتصور معاملة أسوأ مما عملت، أما كان لك حياء يمنعك؟"(3).

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 222

(2)- نفسه، ص: 223

(3)- مفتاح العلوم، السكاكي، ص: 299، ثم يكر الحالة النقيض وهي المجلس الذي يحضر فيه منعم

ومتى ما لاحظ المتكلم أثناء عملية التواصل أن هناك شكًّا أو ترددًا، أو تساؤلا تظهر ملامحه على المتلقي، فإنه يلجأ إلى تقنية الالتفات بناءًا على ذلك السياقفيقطع كلامه في اللحظة التي بدا له ذلك، ويعمل على إزالة ذلك الشك أو التردد أو التساؤل، ثم يعود إلى ما كان عليه من الكلام قبل ذلك، بشرط أن يكون كل ذلك في تلاؤم تام حتى لا يتحول ذلك إلى عائق من عوائق التحاور، وبهذا يكون المتكلم باستعمال الالتفات قد جنب السامع تعلق ذهنه بذلك الشاغل، ففوته بذلك متابعة باقي الحوار، وعليه فالمتكلم يقطع عليه هذا الطريق ويأخذ بيده إلى مواصلة الاستماع والتركيز[1].

ولعل خير مثال على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾[2]، يقول الزمخشري "وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة، ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ، وخوفا من أن ينفلت منه، فأمر بأن يستنصت له ملقيا إليه بقلبه وسمعه"[3]، ولعل قوله (لا تحرك به لسانك) جاء دخيلا عن المعنى الذي كان فيه السياق، بل جاء معترضا بين جزأين متصلين في الدلالة وهما قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾،وقوله ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، ويوضح لنا الرازي ذلك بمثال من الواقع المعيش "إن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئا، فأخذ التلميذ يلتفت يمينا وشمالا، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس، لا تلتفت يمينا وشمالا، ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب"[4].

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 223

(2)- سورة القيامة، الآية من 14 إلى 20

(3)- الكشاف، الزمخشري، ج4، ص: 661

(4)- التفسير الكبير مفاتيح الغيب، الرازي (فخر الدين أبو عبد الله بن عمر بن الحسن ت604هـ)، تقديم وشرح: الشيخ خليل محي الدين الميس، دار الفكر، بيروت، دط، 1995، ج30، ص: 223

5. تقنية التكرار:

بعد استقرائنا لبعض المصادر البيانية تزودنا بطائفة من التعاريف المهمة عن التكرير، نجملها فيما يلي:

أ. للتكرير (ويسمى أيضا بالترديد والترداد) وظائف خطابية عُبِّر عنها بالإفهام والإفصاح والكشف[1]، وتوكيد الكلام التشييد من أمره، وتقدير المعنى وإثباته[2].

ب. ليس التكرير محض وقوع اللفظ في الكلام أكثر من مرة، أو صياغة المعنى أكثر من مرة، لكن قد يعاد لفظ الفصل الأول من الكلام مرة ثانية، وذلك أن أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به[3]، مثال هذا قوله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[4].

ج. ترتبط بعض حالات التكرار بالتغيير في سلوك المخاطب، يقول "ابن الأثير" (ت637هـ): "إذا صدر الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجردا من قرينة تخرجه عن وضعه، ولم يكن موقتًا بوقت معين، كان ذلك حثًّا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور، فإنك إذا قلت لمن تأمره بالقيام: "قم قم قم" فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة"[5].

د. يعدُّ التكرار ظاهرة مقامية، وبناءا على ذلك أشار "ابن الأثير" إلى تكرير المعنى في مقام الاعتذار والتنصل قصدا إلى التأكيد والتقرير لما ينهي عن المتكلم ما قصد إليه[6].

وعلى أساس الأهمية الكبرى للتكرير قدمت محاولات لتصنيف أنواعه أبرزها ما قدمه "ابن الأثير":

---

(1)- البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ط5، 1985، ص: 104-105

(2)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله ت637هـ)، تح: محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأبنائه، القاهرة، مصر، دط، 1939، ج3، ص: 20-29

(3)- نفسه، ج3، ص: 17

(4)- سورة آل عمران، الآية: 188

(5)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج3، ص: 03

(6)- نفسه، ج3، ص: 27

- التكرير في اللفظ والمعنى.
- التكرير في المعنى دون اللفظ.

فمن الصنف الأول قولنا لمن تستدعيه "أسرع أسرع"، ومن الصنف الثاني قولك: "أطعني ولا تعصني"، إذ الأمر بالطاعة نهي عن المعصية[1].

ه. يرى ابن الأثير أن تكرير المعنى يدل على مفهومين، أحدهما: خاص والآخر عام، كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2]، فالأمر بالمعروف خير، وليس كل ما هو خير أمر بالمعروف، ذلك أن الخير أنواع كثيرة، من جملتها الأمر بالمعروف[3].

وإلى جانب هذه التعريفات، فقد قيد الجاحظ التكرير ويسميه -الترداد- قيده بقدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص[4]، "وهو مصدر ثلاثي يفيد المبالغة كالترداد مصدر رد عند سيبويه، أو مصدر مزيد أصله (التكرير) قلب الياء إلى ألف عند الكوفة، ويجوز كسر التاء، فإنه اسم من التكرار"[5].

وتجدر الإشارة إلى أن معظم العلماء يدعون إلى اجتناب التكرار في الكلام، وهذا هو الأصل، ولا يلجأ إليه إلا لغرض تواصلي يقصد إليه المتكلم، ولذلك قالوا: "تكرير اللفظ الواحد في الكلام حقيق بالاجتناب في البلاغة"[6]، والعلة في ذلك أن تكرير اللفظ من شأنه أن يخل بطبيعة عملية تبليغ الخطاب من حيث[7]:

- دفع السامع إلى الملل والضجر من قرع اللفظ سمعه أكثر من مرة.

(1)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج3، ص: 03

(2)- سورة آل عمران، الآية: 104

(3)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج3، ص: 27

(4)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 104

(5)- الكليات، الكفوي، ج3، ص: 297

(6)- نفسه

(7)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 230-231

- الدلالة على الفقر اللغوي الذي ينطوي عليه المتكلم والذي لولاه لأتى المتكلم لكل معنى بلفظٍ وأسلوبٍ مغايرٍ ومناسبٍ، وقد يعمد المتكلم إلى تكرير المعنى الواحد بصور مختلفة دون القصد إلى هدف معين وذلك لافتقاره إلى ثراء المعاني.

وبناءا على هذين السببين، جعل العلماء التكرير قسمين: "أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغنى عنه، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفد؛ وهو بالكلام الأول... والضرب الآخر، بخلاف هذه الصفة"(1).

أما في اللسانيات النصية، فقد عولج التكرير من منظور دوره في السبك المعجمي، وذلك أن يحيل اللفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف، أو مرادف قريب يرتبط به عن طريق الإحالة المشتركة(2).

ومهما يكن من أمر التكرير، فإننا نسعى في بحثنا هذا إلى تحليل هذه التقنية من منظور الوظيفة الاتصالية التي ألقي الضوء عليها من قبل بعض العلماء والمحدثين، مثل أبي هلال العسكري (ت395هـ) الذي وجدناه يقرن التكرير بتأكد الحجة(3)، جاعلا التكرير مدا للقول، ومن ثم فهو يربط بين مد القول وبلوغه الشفاء والإقناع(4).

أما المستشرقون المحدثون، فقد شغلوا كثيرا بتقنية التكرير، ومن هؤلاء:

شيرلي أوستر (Shirley Ostler) التي استنتجت من خلال دراستها التقابلية بين النثر الإنجليزي والنثر العربي، أنه على عكس التطور في الإنجليزية من لغة شفهية إلى لغة كتابية، تظل العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطا وثيقا بتقاليد شفاهية "Oraltraditions"(5).

---

(1)- إعجاز القرآن، الخطابي، ص: 52

(2)- Cohesion in English, M.A.K, Halliday Ruqaiya Hasan, Longman, Th impression, 1983, p: 278-282

نقلا عن مقال: النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، محمد العبد، مجلة فصول للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 60، صيف/خريف 2002، ص: 62

(3)- الصناعتين، العسكري، ص: 156

(4)- نفسه، ص: 157

(5)- نقلا عن مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 63

English in parallels, A comparison of English and Arabic prase, E. Shirley Ostler, South California, Uni, p: 169-171-185

أما باربرا جونسون كوتش "B. J. Koch"، فإنها ترى أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على العرض اللغوي للدعاوي الحجاجية وصياغتها صياغة موازية، وإلباسها إيقاعات نغمية؛ إيقاعية وبنائية متكررة، كما ترى أن هذا النوع من الحجاج هو نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع العربي الإسلامي[1].

وتسمي "باربرا" هذه الإستراتيجية البلاغية، "إستراتيجية الإقناع بالتكرير" "Repeating" وبالصياغة الموازية "Rephrasing" وبإلباس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تدعوها باسم "إستراتيجية العرض""Presentation"، أي استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره[2].

وعلى العموم فإن التكرير والتوكيد عاملان قويان في تكوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربية في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة والزعماء كل يوم في خطبهم، ولا يحتاج التوكيد إلى دليل عقلي يدعمه، وإنما يقتضي أن يكون وجيزا حماسيا ذا وقع في النفس[3].

يضاف إلى ما سبق، أن للتكرير تأثيرا كبيرا في عقول المستنيرين؛ وتأثيرا أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والعلة في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن، نسي الواحد منا التكرار وانتهى بتصديق المكرر، وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيب، يقرأ الواحد منا مائة مرة أن أحسن الحلوى من صنع فلان، فيُخَيَّلُ إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى، وينتهي باعتقاد صحة الخبر[4].

---

(1)- النص الحجاجي العربي، ص: 63

(2)- نقلا عن المرجع السابق، ص: 63

Presentation as proof, The language of Arabic rhetoric anthropological linguistic, Barbara Johnston Koch, Vol 25, N° 01, 1983, p: 47

(3)- الخطابة العربية، أصولها وتاريخها في أزهر عصورها، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص: 66

(4)- نفسه

واستفادة من وظيفة التكرار في الإقناع، يعمد المتكلم إلى التكرير كلما وجد أن المقام لا يحتاج إلى إيجاز، والسبب في ذلك أن التكرار أولي في مقام الإطناب، وهو أولي كذلك في مقام الإيجاز، ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون التكرار بعبارات وأساليب مختلفة، وأن يكون النظر إلى المعنى من جوانب متعددة، وعلى هذا الأساس فإن التكرار يؤثر ويقنع؛ لأنه من بواعث شد انتباه السامعين.

وبناءًا على هذا الاستنتاج، فإن التكرار ظاهرة حرية بالدراسة خاصة في جانبها التداولي، وذلك أنها كمثيلاتها من التقنيات السابقة، يظهر بعدها التواصلي على مستوى المتكلم، وعلى مستوى السامع، وعلى مستوى المقام، وعلى مستوى الرسالة مع الإشارة إلى أن العناصر الثلاثة الأولى هي التي تتحكم في استثمار هذه التقنية[1].

1) **على مستوى المتكلم**: يلجأ المتكلم إلى التكرار لاعتبارات كثيرة منها:

أ) **إثبات الكفاءة التواصلية:**

من حيث حسن استعمال هذه التقنية التي يعد استعمالها من حيث المبدإ صعبا ودقيقا، بل ويكون عادة مُضِرًّا، وعلى حساب نجاح الخطاب، لذلك يضطر المتكلم إلى استعمالها بطريقة جد مدروسة، وهذا لا يتأتى مجانا وإنما يحتاج إلى مؤهلات غير عادية، لذلك عد التكرار من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

ب) **لتأدية معنى تواصلي:**

لا يؤدّى إلا بالتكرار، وهذه المعاني كثيرة لا يمكن حصرها وإنما نشير إلى بعضها[2]:

التأكيد: وذلك أن عادة العرب في خطاباتهم إذا أبهمت بشيء إرادةُ تحقيقِهِ وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كررته توكيدا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه[3]، وإنما عندهم "التكرار أبلغ من التأكيد"[4]، ولعل ما يدل على أن الوظيفة الأصلية للتكرار هي

---

(1)- آليات التواصل، ص: 231

(2)- أسرار التكرار في القرآن الكريم، أبن حمزة الكرماني، تح: عبد القادر أحمد عطا، وينظر كذلك: النكت للرماني، ص: 101

(3)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج3، ص: 09

(4)- الكليات، الكفوي، ص: 270

التأكيد قول الزمخشري: "التكرير تقرير المعاني في النفس وتثبيتا لها في الصدور"[1]، والتكرار تأكيد للردع والإنذار عليهم و"ثم" دلالة كما يقول: "على أن الإنذار أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك ثم أقول لك: لا تفعل"[2]، جاء هذا تفسيرا لقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[3].

ولأنه لا يمكن حصر كل معاني التكرار، نشير إلى موقف اتخذه جل البلاغيين في مواضع التكرار التي يختلف فيها معنى اللفظ المكرر، وهو أنهم يرون أنّ معنى اللفظ المكرر لا ينتمي إلى التكرار، لأن كل لفظة تستقل بمعنى خاص، وهو الذي ذهب إليه الرازي وأيَّده الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4]، "فإن قلت: أليس هذا تكريرا؟ قلت: لا، لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين، وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم، ونصرهم عليها"[5].

ومن وظائف التكرير زيادة عن التأكيد وإثبات الكفاءة التواصلية للمتكلم، التهويل والتهديد والترغيب، والردع والتعجب والتعظيم والتفخيم والتعدد المتعلق، كتلك اللازمة التي تتكرر في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6].

2) على مستوى السامع:

لا ريب في أن المتكلم لا يلجأ إلى تقنية التكرار إلا إذا استدعته الضرورة، ولعل الدافع إلى ذلك هو المتلقي الذي قد يظهر عليه اشتغال، أو نقص في الإدراك، أو تردد، وبتكرار

---

(1)- الكشاف، الزمخشري، ص: 334

(2)- نفسه، ج4، ص: 793

(3)- سورة التكاثر، الآية من 01 إلى 04

(4)- سورة الأنفال، الآية من 07-08

(5)- الكشاف، الزمخشري، ج2، ص: 2000

(6)- سورة الرحمن، الآية: 16

المتكلم للكلمة أو العبارة أو المعنى، يضمن وصول الرسالة إلى المخاطب، بل ووصولها على الوجه الذي يريده، ومن هنا يصبح التكرار شكلا من أشكال جلب الانتباه لمضاعفة وقت الخطاب، ومن ثم منح فرصة أكبر للسامع تمكنه من متابعة الرسالة واستقبالها، وفي حالة التردد يكون التكرار آلية من آليات ترجيح معنى على آخر، ولذلك دعا "ابن وهب" المتكلم أو الخطيب إلى الإطالة بقوله: "وأما الإطالة فهي مخاطبة العوام ومن ليس ذوي الأفهام، ومن لم يكتف من القول بيسيره، ولا يتفتق ذهنه إلا بتكريره، وإيضاح تفسيره، ولهذا استعمل الله عز وجل في مواضع من كتابه تكرير القصص، وتصريف القول؛ ليفهم من بعد فهمه ويعلم من قصر علمه"[1].

وتحت اسم التذييل؛ ذكر أبو هلال العسكري موضحا الوظيفة التخاطبية التداولية للتكرير قائلا: "وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحا؛ والقصد إيضاحا...[و] هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه؛ ويتوكد عند من فهمه، وهو ضد الإشارة والتعريض، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة؛ والمواقف الحافلة؛ لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تُؤَكِّدُ عند الذهن اللقن؛ وتصح للكليل البليد"[2].

ولقد انتبه "الجاحظ" لأهمية تكرير القصص في القرآن الكريم، فقال: "وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص، وقد رأينا الله عز وجل ردَّدَ ذكر قصة موسى، وهود، وهارون، وشعيب،..، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر، ساهي القلب"[3].

---

(1)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 154

(2)- كتاب الصناعتين، العسكري، ص: 373

(3)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 105

ولد أجمع المفسرون على أن تكرار القصص في القرآن الكريم يحتوي على حكمٍ، ويهدف إلى أغراض غير التي ذكرها في المواضع نفسها، ولذلك قال "سيد قطب" نيابة عنهم: "يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها، هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض فيها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها تنسيقا للجو الروحي والفكري، والفني الذي تعرض فيه"(1).

ولأن القرآن الكريم نزل على لغة قريش أو كما يقال نزل على سَمْتِ كلام العرب، ولأن معظم الدراسات العربية انطلقت من دراسة الإعجاز القرآني، يجوز لنا أن ندلي ببعض من الوظائف المتعددة لتكرار القصص في القرآن الكريم لإسقاطها على معظم التخاطبات العربية، ومن هذه الوظائف ما يلي:

أ) تسلية وتثبيت قلب السامع:

وذلك أن المخاطب الأول في القرآن الكريم هو الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم كل داع إلى الإسلام من بعده، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(2)، ولا يخفى على أحد أن التعرض لتجارب السابقين يولد حافزا؛ ويجدد دافعا؛ ويمد طاقة، وينفخ نفسا؛ لا يمكن أن توفرها لغة النصح المباشر، والتوجيه المكشوف، وهو نوع من التكوين من خلال الوقائع الحية(3).

ب) تعميم فحوى الخطاب على جميع المستمعين:

يقل الزركشي: ف"الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، فلولا تكرار القصة لوقع قصة موسى لقوم، وقصة عيسى إلى آخرين، فأراد الله تعالى اشتراك الجميع فيها"(4).

---

(1)- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط11، 1985، م1، ج1، ص: 55

(2)- سورة هود، الآية: 120

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 237

(4)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج3، ص: 25

ج) إقامة الحجة وإثبات الإعجاز:

"...كرر الله تعالى القصص بوزن خارج عن أوزان الكلام المعهود عندهم ليريهم عجزهم"[1]، فالكلام هنا عن قريش الذين لولا تكرر القصص في القرآن الكريم وبألفاظ مختلفة وبعيدة عن قدرتهم لتحدوا النبي، ولذلك جاءت صيغة تكرار القصص حجة لإعجازهم وصدق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

د) إنشاء الإمتاع في الرسالة:

إذ "يجد البليغ ميلا إلى سماعها لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ"[2].

وحري بالإشارة إلى أن التكرار مظهر من مظاهر التواصل الشفهي من جهة، ووجه من وجوه اعتبار السامع أو المتلقي من جهة أخرى، وذلك أن الخطيب -زمن الوحي- كان يخاطب أقواما ينتمون إلى الثقافة الشفاهية التي تعتمد على الذاكرة والحفظ، وفي تكرار الكلمات؛ وترداد المعاني إعانة لهذه الذاكرة على الاستيعاب والتخزين[3].

3) على مستوى المقام:

للمقام التواصلي دور مهم في استدعاء تقنية التكرار خاصة إذ وجد ما يعيق عملية التخاطب، وهذه بعض المقامات التي تقتضي اللجوء إلى هذه الظاهرة[4]:

أ. المقام الخاص: كمقامات الوعظ والإرشاد والنصح والتوجيه والتعليم وإصلاح ذات البين، فإنه "يحسن من الخطيب إذا دعا إلى حقن الدماء ونصرة الجار، تكرير ذلك في مواضعه من الخطب"[5]، يضاف إلى ذلك مقام التحذير والإغراء الذي تتحد فيه تقنية

---

(1)- الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني (أبو بكر ت403هـ)، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، د.ت، ص: 213

(2)- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج2، ص: 28

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 238

(4)- نفسه، ص: 239

(5)- الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص: 213

الحذف مع تقنية التكرار، كأن نحذر شخصا، فنقول له: إياك الكفر، إياك الكفر (احذر الكفر)، أو نغريه بقولنا: الصلاة، الصلاة (إلزم الصلاة).

ب. المقام الذي يطول فيه موضوع التحاور، ويخشى "تناسي الأول أعيد ثانيا تطرية له، وتجديدا لعهده"[1]، ولعل هذا الذي نلحظه في مقام التعليم.

4) على مستوى الرسالة:

للتكرار ارتباط وتأثير كبيرين على الرسالة، وذلك أنه يمدها بتوازن لغوي وموسيقى داخلية وخارجية تكسبها وقعا حسنا عند السامع، مثال ذلك السجع.

ومهما يكن الأمر؛ فإن التكرار في كل خطاب مهما كان نوعه، وخاصة الخطاب القرآني "لا يعيد نفس الشيء، بل هو تكرار يطرح جديدا، وحين قارن العلماء هذه النصوص المكررة ولاحظوا الاختلاف بينها حاولوا أن يكشفوا أن هذا الاختلاف دال على الإعجاز من حيث دلالته على قدرة النص على التصرف دون الوقوع في التكرار الحرفي، إن القصص القرآني مثلا يكرر في الصور المختلفة، لكن هذا التكرار يضيف دائما شيئا جديدا"[2].

ومما هو معروف أن اللغة المنطوقة تستعمل الإطناب بوصفه تقنية مهمة في توصيل الرسالة اللغوية "ذلك أن الإطناب، أي تكرار ما قد قيل توا، يجعل المتكلم والسامع على الخط نفسه بشكل مؤكد... والإطناب كذلك أمر محمود في الظروف المادية للتعبير الشفاهي أمام جمهور كبير حيث يبرز الإطناب في الحقيقة أكثر مما يبرز في معظم المحادثات وجها لوجه، فليس في إمكان كل فرد في الجمهور الكبير فهم كل كلمة يتفوه بها المتكلم، ومن صالح المتكلم أن يقول الشيء نفسه، أو ما يعادله مرتين أو ثلاثا، ومما يشجع كذلك على الإطناب حاجة خطيب المحافل إلى الاستمرار في خطبته، وهو يدير في عقله ما سوف يقوله في اللحظة

---

(1)- الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني، ص: 213

(2)- مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1996، ص: 185

التالية... ومن هنا كانت إعادة الشيء بشكل فني إذا أمكن أفضل من التوقف عن الكلام جريا وراء الفكرة التالية"[1].

وعلى هذا الأساس، يمكن أن يتبادر إلى الذهن في النحو العربي القديم التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي، وإن كان التوكيد المعنوي يربط بألفاظ معينة مقترنة بضمائر إحالية، فإن التوكيد اللفظي بتكرار اللفظ يمثل التكرار في أجلى أنواعه، غير أن قيمته في الربط تكاد تكون صِفْرًا، لأنه كثيرا ما يكون تكرارا في إطار الجملة، ثم إنه إذا تعدى الجملة لا يسمّى توكيدا لفظيا، إلا إذا تجاوز المُؤَكِّدُ والمُؤَكَّدُ في صورة متماثلة، وتكاد والحالة هذه أن تضعف قيمته الرابطية لتجاور الجملتين[2].

وينص ابن هشام صراحة على أن التكرار يُعَدُّ نوعًا من أنواع روابط الجملة الخبرية العشرة، وبغية ذلك ذكر ثلاثة أنواع من الروابط التي وردت عند علماء لغة النص، فقال: "الثالث: إعادة المبتدإ بلفظه، نحو (الحاقة ما الحاقة)...والرابع: إعادته بمعناه، نحو:"زيد جاءني أبو عبد الله...والخامس: عموم يشمل المبتدأ، نحو: "زيد نِعْمَ الرَّجُلُ"[3].

وترى "ليلى خميس" أن كلام ابن هشام يكشف عن وعيه "بدور أنواع التكرار المختلفة في ربط الجمل، فإعادة المبتدإ بلفظه هو التكرار التام، وإعادته بمعناه هو التكرار بالترادف، والعموم الذي يشمل المبتدأ المقصود به التكرار بالاسم الشامل"[4].

ولا تقتصر وظيفة التكرار في اللغة العربية على النحو، فقد تناوله بالدرس المفسرون والبلاغيون، وذكروا فوائده بالتفصيل، وأشاروا إلى فائدته الرابطية، كما عدد البلاغيون منه أصنافا مختلفة؛ كرد العجز على الصدر، والترديد والتجنيس والمشاكلة والعكس وغير ذلك[5].

---

(1)- الشفاهية والكتابية، والترج أو تج، تر: د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، (182، المجلس الوطني للثقافة الفنون والآداب، الكويت، شعبان 1414هـ/فبراير 1994، ص: 101-103

(2)- إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان بن عبد الكريم، النادي الأدبي بالرياض، بيروت، ط1، 2009، ص: 362

(3)- الشفاهية والكتابة، والترأونج، ص: 101-103

(4)- الربط النحوي في كتاب فيض الخاطر لأحمد أمين، ليلى خميس السيد خميس، كلية الألسن، جامعة عين شمس، القاهرة، 2000، ص: 62

(5)- الخطاب والمترجم، باسل حاتم، وميسون إيان، تر: عمر فايز عطاري، جامعة الملك سعود، الرياض، ط1، 1998، ص: 316

ومما تقدم؛ يتضح أن التكرار ظاهرة أسلوبية؛ وتقنية لغوية متأصلة في نسيج الخطاب وبناه، لها دور في سبك الخطاب وتماسكه[1]، ولها ارتباط عميق بمقاصد الخطاب، وتعد في الدراسات البلاغية القديمة والحديثة من طرق التأثير والإقناع، بل قد تتجاوز وظيفة الإخبار والإبلاغ والتأثير إلى الدفع نحو تنفيذ الفعل وتغيير السلوك؛ وهي الغاية القصوى من الحجاج، وإن شئت؛ فقل الرتبة العليا في السلم الحجاجي[2]، وهذا الكلام ينص على أن للتكرار وظيفتين؛ إحداهما تتمثل في الربط، أي الجمع بين الكلامين، وثانيتهما الوظيفة التداولية المتمثلة في لفت انتباه المستمعين إلى أن الرسالة أو الكلام الملقى ذو أهمية بمكان لا يمكن إغفالها.

6. تقنية البديع:

يستعمل المرسل أشكالا لغوية تصنف بأنها أشكال تنتمي إلى المستوى البديعي، وأن دورها يقف عند الوظيفة الشكلية، وهذا الرأي ليس صحيحا، إذ أن لها دورا تداوليا لا على سبيل زخرفة الخطاب، ولكن بغرض الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، حتى لو تخيل الناس غير ذلك. ولعل المتتبع لتاريخ البلاغة العربية يلحظ أنها مليئة بهذه الصور والإمكانات، ومليئة كذلك بالشواهد التي تثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسة، وليس وجودها على سبيل الصنعة في أصلها، وإن كان لا يمنع المرسل من أن يبدع كيفما شاء[3].

وعلى هذا الأساس؛ذهب طه عبد الرحمن إلى القول: "وإذا أدركنا أن الآليات القياسية التي تتحكم في بناء الخطاب الطبيعي، تقوم في عمليات التفريق والإثبات والإلحاق، وأن هذه

(1)- النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، محمد العبد، مجلة فصول، العدد 60، شيف/فريق، 2002، ص: 62

(2)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، دراسات في البلاغة الجديدة، حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011، ص: 34

(3)- إستراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص: 498

الآليات الاحتجاجية هدفها الإفهام، تَبَيُّنًا أن أساليب البيان مثل المقابلة والجناس والطباق وغيرها، ليست اصطناعا للتجنيس والبديع وإنما هي أصلا، أساليب للإبلاغ والتبليغ"[1].

وهذا ما يشير إليه "محمد القارضي" عند حديثه عن المجاز عند (ميار) وأنه يتبع في ذلك (شارل بيريلمان) إذ يؤكد ذلك بقوله: "فالوجوه البلاغية عند (بيريلمان) تكون ضربا من الزخرف إذا لم توظف في خدمة الحجاج"[2].

ومن هنا، يتوجب على المتكلم/المرسل أن يحسن اختيار الفرصة، لاستخدام هذه الآليات البلاغية في الخطاب المراد به، دحض مزاعم الخصم أو تقوية التأثير عليه حتى يتقبل الفعل أو القضية المقصودة، وعلى هذا الاعتبار، قد يعمد المتكلم إلى الطباق أو إلى السجع أو إليهما معا، وتراثنا العربي حافل بهذه الصور التي لا مجال لعرضها كاملة، كمخاصمة أبي الأسود الدؤلي وامرأته بين يدي زياد بن أبيه[3]، أو محاججة الفضيل بن عياض من سأله عن زهده[4]، أو منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين[5].

ونتيجة لذلك "تعتبر الصورة البلاغية ذات قيمة حجاجية، إذا أحدثت تغييرا في الرؤية، وكذلك إذا بدا استعمالها طبيعيا في ذلك الموقف، أما إذا لم يحقق الكلام إذعان المرسل إليه لهذا الشكل الحجاجي، فإن الصورة تعد من قبيل الزخرف، أي صورة أسلوبية"[6].

وانطلاقا من البعد الشفاهي لمعظم التخاطبات، واستحضارا للمقامات المختلفة التي يرد فيها كل خطاب، ومراعاة لطبيعة المتلقين، وتناسبا مع المقاصد لتلك الخطابات، يعمد معظم المخاطِبين (المتكلمين) إلى تقنية النغم الموسيقي، سواء كان هذا النغم داخليا في ثنايا أصوات

---

(1)- مقال: مراتب الحجاج وقياس التمثيل، طه عبد الرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صبري، محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، العدد 09، ص: 18

(2)- البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، القارضي محمد علي، بإشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة، تونس، 1998، ص: 397

(3)- إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ص: 398

(4)- نفسه

(5)- نفسه

(6)- The new rhetoric a treatiseon argumentation, ch Perelman L. olbreahts, p: 169

الكلمة الواحدة، أو بين الكلمات في سياق واحد، أو كان خارجيا يربط سياقا بسياق، وجملة بجملة، وآية بآية كما في القرآن الكريم[1].

ولقد تعرض البلاغيون العرب إلى الموسيقى الداخلية تحت اسم "التلاؤم" الذي يجعلونه من وجوه البلاغة، وهو عندهم: "نقيض التنافر [ويعني] تعديل الحروف"[2]، ويمكن أن ندرج تحت هذا التعريف مجموعة من الأبواب مثل الترصيع، ورد الإعجاز على الصدور والتنظير والمجاورة والتطريز[3].

ولعل المقصود بالتلاؤم كلام الخطابي حين قال: "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خَلُصَ له إلى القلب من اللذة، والحلاوة في حال؛ ومن الروعة والمهابة في أخرى...فكم من عدو للرسول -صلى الله عليه وسلم- من رجال العرب وفتاكها، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول"[4].

ومن الذين مثلوا لبعد التلاؤم في النظم الموسيقي "مصطفى صادق الرافعي" الذي يقول: "وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا يتفق مع ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه،لترتيب حروفه، باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، وللتفخيم والترقيق والتفشي والتكرار، وغير ذلك، ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباع البلغاء بعد الإسلام"[5].

وبناءا على وعي العلماء القدامى بالدور التواصلي للتلاؤم نصوا على أن الفائدة منه تتمثل في:

---

(1)- الموازنات الصوتية والممارسة الشعرية، محمد العمري، ص: 137

(2)- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص: 94

(3)- كتاب الصناعتين، العسكري، ص: 375-385-411-413-420-425

(4)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، دت، ص: 70

(5)- نفسه، ص: 115

- حسن الكلام في السمع ←——— وهو يتعلق بالسامع.
- سهولة في اللفظ ←——— وهو يتعلق بالمتكلم.
- حسن الصورة وطريق الدلالة[1] ←——— وهذا يتعلق بالخطاب/ الرسالة.

أما ما تعلق بالموسيقى الخارجية فتمثله الفواصل والأسجاع التي هي "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[2]، إلا أن الأسجاع عند بعضهم، قد عدت من عيوب الخطاب، لأنها مضنة التكلف عكس الفواصل التي هي من مظاهر الإبداع، بل وحتى الإعجاز، إذ تأتي بشكل متناغم في السياق كله، ثم إن "السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ... وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تبعا للمعنى"[3].

ومهما يكن الأمر، فإن من أهم أهداف تقنية الفواصل والأسجاع؛ تمكين السامع من:

أ. التمتع بالخطاب من حيث حسن تقسيمه؛ وحسن تماثل الأصوات.

ب. التتبع الجيد للأفكار والمعاني؛ وذلك أن الجمل في الفواصل والأسجاع غالبا ما تكون قصيرة أو متوسطة.

ج. التخزين الجيد والسريع في الذاكرة، الأمر الذي يسهل حفظ النصوص وتثبيتها.

وهذا ما يوضحه "عبد الصمد بن الفضل بن الرقاشي" حين سئل: "لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا استماع الشاهد، لقلّ خلافي عليه، ولكن أريد الغائب والحاضر والراهن، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيِّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحْفَظْ من المنثور عشره ولا ضاع من

(1)- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص: 96

(2)- نفسه، ص: 47

(3)- إعجاز القرآن، ص: 58

الموزون عشره"[1]، ويؤكد هذا أيضا قول ابن الأثير: "ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لذ لسامعه فحفظه وإذا لم يكن مسجوعا، لم يأنس به أنسه في حالة السجع"[2].

ولقد كانت الأمم تعتمد في حفظ موروثها الثقافي؛ وتاريخها السياسي والعسكري على موسيقى الخطاب (الداخلية والخارجية)، وذلك أنها في مراحل حياتها الأولى لم تكن تجيد لا القراءة ولا الكتابة، ولعل هذا ما يفسر كثرة حفظها لموروثها الشعري مقارنة بالنثر.

فلا يخفى على أحد أن التوازن في إيقاع العبارات، هو منظور شفاهي يرتبط باللغة المنطوقة أكثر من ارتباطه باللغة المكتوبة، بل إن وجوده في اللغة المكتوبة غالبا ما يكون بتأثير من أساليب النطق "ففي الثقافة الشفاهية الأولية عليك لكي تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبر عنه لفظيا واستعادته على نحو فعال، أن تقوم بعملية التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر، صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهي، وينبغي أن يأتي تفكيرك إلى الوجود في أنماط ثقيلة الإيقاع، متوازنة أو في جمل متكررة أو متعارضة، أو في كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة، أو في عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة... ويميل التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي، حتى عندما لا يكون في شكل شعري إلى أن يكون إيقاعيا بشكل ملحوظ، لأن الإيقاع حتى من الناحية الفسيولوجية يساعد على التذكر"[3].

وجدير بالذكر؛ أن سياق الموقف الشفاهي هو الذي يدفع بالمتكلم إلى استعمال بعض العبارات ذات التوازن الإيقاعي، وتلك العبارات إضافة إلى بعدها التواصلي في التفكير والتذكير، وذلك أن بعدها هذا يؤدي إلى المساعدة في ربط النص على مستويين: مستوى يخص المتكلم حيث إن التوازن الإيقاعي هو لاشعوريا إدراج العنصر الأول من التوازن في العنصر الثاني، ومستوى يتعلق بالمتلقي حيث يمثل التوازن الإيقاعي وسيلة ربط موسيقية توحد بين العنصرين المتوازيين، أو في أقل تقدير يكون اللجوء إلى التوازن الإيقاعي عاملا للفت انتباه المتلقي يؤدي إلى جذبه، أو وصله بالخطاب الملقى، لذلك فلما يَخْلُ كلام متحدث أو

(1)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 287

(2)-المثل السائر، ابن الأثير، ج2، ص: 53

(3)- الشفاهية والكتابية والترأونغ، د. حسن البنا عز الدين، ص: 94

خطيب مجيد من التوازن الإيقاعي في مقام التلقي، وهذا لا يغمط التوازن الإيقاعي حقه من الاستثمار البلاغي والأسلوبي والتواصلي في الشعر والنثر وما له من فعل جمالي[1].

وفي العصر الراهن ضعفت ملكة الحفظ نتيجة اعتماد الإنسان على الكتابة واتكاله عليها، ولذلك أضحى ضروريا الاعتماد على الفواصل، وذلك لمساعدة الأميين والصبية الصغار على الحفظ، لأنها أثبت في ذاكرة السامع، إضافة إلى أنها تهبه الفرصة للتأقلم النفسي؛ والاستئناس الشعوري؛ والتأمل العقلي خاصة في الخطاب القرآني وفي تلك السور القصيرة التي جاءت في نهاية ترتيب سور القرآن، ومرد ذلك أنها المعين على تحريك وتنشيط قدرات الحفظ، والفواصل هي عماد تلك السور[2].

وعلى مستوى المتكلم، فإن للأسجاع دلالات تواصلية تتمثل في إظهار قدراته الخطابية واللغوية التي تمكنه من تبليغ أفكاره في شكل من العزف يجلب إليه الطرف الثاني، كما تبين ذوقه وحسه المرهف، يقول ابن وهب: "ومن أوصاف البلاغة أيضا السجع في موضعه، وعند سماحة القول به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه،....، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته، فذلك جهل من فاعله"[3].

يضاف إلى إظهار القدرة الخطابية واللغوية أن السجع يمكن المتكلم كذلك من الاستفادة من محطات الوقف، وذلك أنها تسمح له بتجديد النفس لمواصلة الكلام، كما تمكنه من الاستراحة؛ ولذلك قال السيوطي: "تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام، وتسمى فواصل؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان، ذلك أن آخر آية فصل بينها وبين ما بعدها، وأخذ من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[4]، وقبل هذا وذاك؛ فإن الموسيقى الخارجية خاصة (السجع والجناس) يبرز بعدها التواصلي في ارتباطها بالمعنى لا تكاد تحيد عنه، وكما -سبق الذكر- فإن هاتين

(1)- إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان بن عبد الكريم، ص: 418

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 244-245

(3)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 165

(4)- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج2، ص: 942، سورة فصلت، الآية: 03

الظاهرتين (السجع والجناس) لا تكونان محمودتين ومقبولتين إلا إذا أدتا وظائف على مستوى تبليغ فحوى الرسالة، ومن أجل ذلك وجدنا عبد القاهر الجرجاني يركز على البعد التخاطبي مقررا أنك: "لا تحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا"[(1)]، وقد مثل الجرجاني لتوظيف الجناس بمثالين، أحدهما أخفق في تبليغ المعنى والزيادة فيه، بينما الثاني قد حالفه التوفيق، إذ أحرز بعدا تواصليا:

المثال الأول: قول أبي تمام (الكامل) [(2)]

ذَهَبَتْ بِمذْهبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوَتْ فِيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَبٌ أَمْ مُذْهَبٌ

المثال الثاني: قول الفتح البستي (من الخفيف)

ناظِراهُ فيما جَنَى نَاظِرَاهُ أَوَدَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي

"فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن"[(3)]، وهو المبدإ نفسه الذي يكرره في الحكم على السجع الموفق الذي أدى وظيفته على مستوى تبليغ قصد المتكلم، وإفهام السامع المعنى المراد، "وعلى الجملة؛ فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه، واستدعاه وساق نحوه"[(4)].

إذن، يبدو جليا أن الدلالة هي المتحكمة في درجة حضور هذه التقنيات؛ وهذا هو سِرُّ نجاحها، فإذا ما حاول المتكلم القصد إليها، دون استدعاء المعنى لها، وقع في مضنة التصنع، وجلب النقص إلى عملية التواصل من ذلك الجانب[(5)].

[(1)]- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 04-14

[(2)]- شرح ديوان أبي تمام، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981، ص: 55

المذهب: الثوب المذهب، مذهب: العقيدة

[(3)]- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 05

[(4)]- نفسه، ص: 07

[(5)]-آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، ص: 246

وخلاصة القول، إن تقنية البديع (الأسجاع والفواصل) هي مظهر من مظاهر الشفاهية؛ ووسيلة من وسائل إنجاح التخاطب، واكتمال التواصل، وميدانها في التوازن الإيقاعي (الموسيقى الداخلية والخارجية) التي يمثلها -كما سبق الذكر- الصوت من حيث: مخرجه، وصفته، وتركيبه، وهي العلة التي جعلت علماء البلاغة سواء في دراسة الشعر أو النثر، أو القرآن الكريم يصنفون أنواع الفواصل والأسجاع بالتركيز على نوع الصوت الذي يمثل هذه الظاهرة اللغوية، فيتم بالحروف المتجانسة وبالحروف المتقاربة، بالإضافة إلى توافق الكلمتين أو تقاربهما في الوزن، وإن كنت أستدل على تقنيات التبليغ بما جاء في القرآن الكريم، فذلك أنه جاء على سمة كلام العرب، وهو مصدر كل الدراسات اللغوية العربية القديمة والحديثة.

7. تقنية التقديم والتأخير:

التقديم التأخير واحد من أهم مظاهر التحويل في النحو العربي، واللغة العربية بوصفها إحدى اللغات المعربة لأنها تفسح المجال بحرية كبيرة بغية ترتيب الكلمات داخل الجملة، ولذلك تحتل القواعد المتعلقة بالتقديم والتأخير جانبا كبيرا من قواعد النحو العربي، وتماشيا مع ذلك قسم النحويون رتبة المواقع الإعرابية إلى قسمين[1]:

أ. **الرتبة المحفوظة:** وتعني أن هناك ترتيبا خاصا لموقع إعرابي بالنسبة لآخر يختل التركيب العربي إذا تغير، ومن هذه الرتب المحفوظة: رتبة الفاعل بالنسبة إلى فعله، والصفة بالنسبة لموصوفها، والصلة إلى موصولها، والمبدل والبدل والمعطوف عليه والمعطوف، والمؤكد للتوكيد، والجار للمجرور، وكذلك الأسماء التي لها الصدارة نحو: أدوات الشرط والاستفهام والعرض والتخصيص[2].

---

(1)- الأسس المنهجية بالنسبة للنحو العربي (دراسة في كتاب إعراب القرآن)، د. حسام أحمد قاسم، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007، ص: 260

(2)- نفسه، ص: 260-261

ب.**الرتبة غير المحفوظة:** من أمثلتها رتبة المبتدإ بالنسبة للخبر، والفعل والفاعل بالنسبة للمفعول، وعامل الحال وصاحبه بالنسبة للحال، والفاعل بالنسبة للتمييز في باب المدح والذم، والضمير بالنسبة لمعاده في أرجح الأقوال(1).

ونشير إلى أنه قد تحفظ هذه الرتبة لدواع معنوية أو صناعية، كحفظ رتبة المبتدإ بالنسبة للخبر إذا لم يؤمن اللبس، نحو قولنا: أخي صديقي، وكذلك رتبة الفاعل بالنسبة للمفعول، نحو: ضرب موسى عيسى.

وتحفظ الرتبة كذلك إذا اختلف المعنى باختلاف التركيب، كما في ضرورة تأخير المحصور ب"إلا" حيث تختلف دلالة الجملة: "ما ضرب زيدا إلا علي"، عن دلالة الجملة: "ما ضرب علي إلا زيدا"، ومن حفظ الرتبة لضرورات صناعية، تقديم ما له الصدارة، كتقديم المفعول إذا كان ضميرا متصلا بالفعل أو ضميرا منفصلا نحو: إياك نعبد.

ولأن التقديم والتأخير يعد تقنية إجرائية تواصلية، فإننا مضطرون للاستعانة بعبد القاهر الجرجاني لتقريب المفاهيم إلى المتلقي بإعطاء نماذج من كتابه "الدلائل" توضح دور هذه التقنية النحوية-البلاغية في تقريب المعاني أو تشويق المستمع.

ومن هنا ألفينا أن التقديم يأتي على وجهين، الأول على نية التأخير كخبر المبتدإ إذا أُخِّرَ عن المبتدإ "منطلقٌ زيدٌ"، والثاني تقديم على نية التأخير، ولكن على أن يستقل الشيء من حكم إلى حكم، كتقديم المفعول على الفعل فيصبح فاعلا "زيدٌ ضربته"، ويكون القصد الأساس من التقديم لدى النحاة هو العناية "إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم" التي تفقده بذلك من -منظور الجرجاني- قيمته التداولية، وذلك أن التقديم -كما سبق الذكر- لا يأتي لإبراز الفائدة في الكلام أو عدمها، وإنما يأتي لتمييز المعاني المختلفة التي تدور في ذهن السامع، والتي يريد إيصالها إلى المستمع، ومن أمثلة ذلك:

(1)- نفسه، ص: 261

1) الاستفهام بالهمزة في التقديم والتأخير:

يلاحظ في المثالين: أفعلت؟ أَأَنت فعلت؟ أنّ القولين يختلفان من حيث المعنى، ومن حيث الوظيفة التواصلية، إذ في قوله: أفعلت؟ كان الاستفهام على الفعل، وهو -كما سبق الذكر- يؤدي معنى الشك في الفعل نفسه، وليس في الفاعل، دون أن يعرف هل تحقق الفعل أم لم يتحقق، وهذا يدل على أنه ليس قولا إنجازيا، أما في قوله: أَأَنْتَ فَعَلْتَ؟ فالشك في الفاعل من هو؟ إذاً؛ هناك تقرير بالفعل من غير توهُّم بأن الحدث غير موجود، بدلالة أن الفعل واقع، وهو بذلك قول إنجازي، يؤدي معاني جديدة غير الاستفهام، يقول الجرجاني: "واعلم أن الهمزة فيما ذكرناه "أأنت فعلت؟" تقرير بفعل قد كان، وإنكار لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه"[1].

ويأخذ الاستفهام بالهمزة في التقديم معاني أخرى ذات بعد تواصلي منها:

أ) **الإنكار**: أَأَنْتَ قُلْتَ الشِّعْرَ؟ تنكر على السامع قول الشاعر، قال تعالى: ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴾[2]، وقوله تعالى جل شأنه: ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[3]، فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم، وفي قوله ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم[4].

ب) **النهي**: "أهو قال ذلك على الحقيقة، أم أنت تغلط؟"[5]، نفي القول عن الفعل نظيره قوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾[6].

ج) **التسليم بالخبر ومطالبة المستمع بدليل على خبره:** متى كان هذا في ليل أم في نهار؟[7]

(1)- الدلائل، عبد القاهر الجرجاني، ص: 90

(2)- سورة الإسراء ، الآية : 40.

(3)- سورة الصافات ، الآية : 153 – 154.

(4)- الدلائل، عبد القاهر الجرجاني، ص: 90

(5)- نفسه

(6)- سورة الأنعام ، الآية : 143.

(7)- الدلائل، عبد القاهر الجرجاني، ص: 90

ونشير هاهنا إلى أنه إذا كان هذا شأن الاستفهام مع الفعل الماضي، فإن له شأنا آخر مع الفعل المضارع، يلخصه الجرجاني إثر تحليله للقولين: "أتفعلُ؟" و"أأنت تفعلُ؟" في قوله: "واعلم أنَّا وإن كنَّا نفسر الاستفهام في مثل هذا (أأنت تفعل؟) بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى: أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعي الجواب، إما لأنه ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: "فَافْعَلْ" فيفضحه ذلك، وإما لأنه هَمَّ بأن يفعل ما لا يستوجب فعله، فإذا روجع فيه، تَنَبَّهَ وعرف الخطأ، وإمَّا لأنه جَوَّزَ وجود أمرٍ لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وُبِّخَ على تَعَنُّتِهِ، وقيل له: فَأَرِنَاهُ في موضع وفي حالٍ، وأقم شاهدا على أنه كان في وقت"[1].

تبدو وجاهة هذا التحليل في إبراز المعنى الجديد والمقصود، من خلال إثارته للآثار التواصلية المتحصّلة من هذه المقولات النحوية التي تعمل على تنبيه المستمع حتى يرجع إلى نفسه وتقوية اعتقاده.

د) التقديم والتأخير في النفي:

يورد الجرجاني التحليل نفسه في الأقوال التي تكون منفية، ويكون فيها تقديم، مثل: "وما فعلتُ"، و"مَا أنَا فَعَلْتُ" مع الفعل والفاعل، ففي "وما فَعَلْتُ" كنتَ نفيتَ عَنْكَ فعلاً لم يثْبُتْ أنه مفعولٌ، وإذا قلت: "ما أنا فعَلْتُ" كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول... ومما هو مثال بَيِّنٌ في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قوله[2]:

وَمَا أَنَا أسقَمْتُ جِسْمِي به ولاَ أَنَا أَضْرَمْتُ في القَلْبِ نَارًا

والمعنى كما لا يخفى على أن السقم ثابت موجود؛ وليس القصد بالنفي إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له، ويكون قد جره إلى نفسه[3].

(1)- الدلائل، عبد القاهر الجرجاني، ص: 93

(2)- نفسه، ص: 95

(3)- نفسه

وبعد أن أعطى الجرجاني أمثلة أخرى على التقديم والتأخير في النفي والخبر قال: "واعلم أن معك دستورا لك فيه إن تأملت غِنًى عن كلِّ ما سواه، وهو أنه لا يجوز أن يكون لنظم الكلام؛ وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى؛ لا يكون له ذلك المعنى في الخبر"[1].

وختاما لهذا المبحث؛ نشير إلى أنّ كلّ تقنية أو كل باب من أبواب النحو العربي يلزمه بحثا مستقلا، خاصة باب الحذف والزيادة، وكذا التقديم والتأخير، لما لكل باب من الأهمية في التواصل البشري، ولحاجة الناس في الاستعمال اللغوي إلى مثل تلك التقنيات في السياقات الاجتماعية أو الظرفية المختلفة، إذ لكل تقنية نصيبٌ من الاستعمال حتى في كلامنا اليومي.

[1]- نفسه، ص: 104

الفصل الثالث:

التبليغ السيبويهي وأهم تقنياته

المبحث الأول: سيبويه وعصره اللغوي

المبحث الثاني: منهج سيبويه في عرض موضوعات الكتاب

المبحث الثالث: أسس منهج سيبويه

المبحث الرابع: سيبويه والنظرة الاجتماعية للغة

المبحث الخامس: عناصر العملية التبليغية في الكتاب

المبحث الأول: سيبويه وعصره اللغوي

توطئة:

سأبدأ قولي بما قاله الأستاذ الكبير الدكتور "شوقي ضيف": "لا يختلف اِثنان في أن كتاب سيبويه أروع كتاب صنف قديما في النحو والصرف، لا لأن سيبويه بناه على غير مثال سابق فحسب، بل أيضا لأنه استوفى فيه قوانينهما واستقصاهما استقصاءا بهر معاصريه ومن خلفوهم على مر العصور، حتى أطلقوا عليه جميعا اسم "الكتاب" عنوانا يتفرد به دون غيره من الكتب التي عاصرته أو ألفت بعده، لما امتاز به من كمال في وضع أصول الصرف والنحو وضعا نهائيا، بحيث لم يترك فيهما للعصور التالية شيئا تضيفه إلا بعض التفريقات والزوائد الطفيفة مما جعل "صاعد بن أحمد الأندلسي" يقول: "لا أعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها، اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب، أحدها "المجسطي لبطليموس" في علم هيئة الأفلاك، والثاني كتاب "أرسطو طاليس" في علم المنطق، والثالث "كتاب سيبويه البصري النحوي"، فإن كل واحد من هذه الكتب لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما خطر له"[1].

ولعل قارئ هذا التقديم لصاحبه الدكتور شوقي ضيف الذي ناقش الدكتورة خديجة الحديثي، يزرع في قلبه (أي القارئ) رغبة في معرفة سيبويه، واعتزازا وفخرا به كمؤسس للنحو العربي. فمن يكون سيبويه صاحب هذا الاسم الفريد والغريب؟

- **اسمه ونسبه:**

هو عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، وقيل أبا الحسن[2]، وقيل أبا عثمان ولكن أثبتها وأشهرها أبو بشر المكنى بسيبويه مولى بني الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد، ومولى آل الربيع بن زياد الحارثي[3].

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1965، ص: 11

(2)- الفهرست، النديم أو الفرج (385هـ)، تحقيق: رضا تجداد بن علي بن زين العابدين الحائري المازنداني، ط3، 1988، ص: 57

(3)- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، نشره فرنسيس كرنكو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1936، ص: 48

وعلى الرغم من أن كنية سيبويه هي أبو بشر واسمه عمرو إلا أنه فارسي الأصل، ولهذه الأسماء ما يجعلها في قول الأستاذ علي النجدي "كل هذه الأسماء تشير إلى أن والده كان عربيا بدليل تسميته ولده بعمرو، وبدليل أن جده قنبر وهو اسم عربي، فربما لم تأت التسمية عفوا، بل ربما كانت ظاهرة من ظواهر الرغبة في التعرب والزلفى إلى الدولة القائمة -الأموية- كدأب الأقليات مع الأكثريات والمغلوبين مع الغالبين، أو من ظواهر الرغبة في التودد والمسالمة للدولة العربية التي غلبت عليها العصبية القومية وعرفت بإيثار العرب والانتصار لها"[1].

وترى خديجة الحديثي أن هذا التعليل غير مقبول، وذلك أن "سيبويه وأباه وجده كانوا مسلمين، وليس ببعيد أن يتسموا بأسماء عربية، يضاف إلى ذلك أنه عربي المنشإ والثقافة، أما أجداده الآخرون فهم فرس، لذلك لم يُعْنَ المؤرخون بذكر أسمائهم لعدم أهميتهم بالنسبة له، وقد اكتفوا بذكر أبيه وجده لأنهما تشرفا بالإسلام، واستظلا بظل الدولة العربية"[2].

وتضيف صاحبة كتاب أبنية الصرف في كتاب سيبويه قائلة: "ومما يؤيد رأينا أيضا أنه انتسب لقبيلة الحارث بن كعب العربية ثم لقبيلة أخرى هي آل الربيع، ولو كان عربي الأصل لما أصبح مولى لهاتين القبيلتين العربيتين"[3].

وإلى جانب هذا الرأي، هناك آراء أخرى حول أصل سيبويه؛ فهو حسب ياقوت الحموي من أصل فارسي من البيضاء وأمه فارسية، وقد لقبته عندما كانت ترقصه وهو صغير سيبويه[4].

ولقد أشار بشار بن برد إلى أصل سيبويه حينما هجاه وسماه "ابن الفارسية" في قوله[5]:

أَسِيبَوَيْه يَا ابْنَ الفَارِسيةِ مَا الَّذِي تَحَدَّثْتَ عَنْ شَتْمِي وَمَا كُنْتَ تَنْبُذُ

---

(1)- سيبويه إمام النحاة، علي النجدي ناصف، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، 1953، ص: 99

(2)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، ص: 41

(3)- نفسه، ص: 42

(4)- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: د. أحمد فريد رفاعي ، دار المأمون، القاهرة، دط، دت

(5)- مقالة: "سيبويه حياته وكتابه"، د. أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1960، ص: 38-39

أَظَلْتَ تُغَنِّي سَادِرًا فِي مُسَاءَلَتِي وَأُمُّكَ بِالمِصْرِينِ تُعْطِي وَتَأْخُذُ

يستنتج من كل ما سبق أن سيبويه فارسي الأصل، مسلم العقيدة، عربي النشأة والثقافة.

- **لقبه:**

سِيْبَوَيْهِ -بكسر السين المهملة، وسكن الياء المثناة من تحت، وفتح الباء الموحدة، والواو، وسكون الياء الثانية، وبعدها هاء مكسورة، اسم فارسي معناه رائحة التفاح، وقيل إن كل من كان يلقاه يشم منه رائحة الطيب، وقيل سمي بذلك لنظافته، لأن التفاح من لطيف الفواكه، أو تشم منه رائحة التفاح، وقيل إنه سمي بسيبويه، لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين وكان هو في غاية الجمال، وقيل كان يعتاد شم التفاح[1].

وربما يعود اتفاق الأقدمين وبعض المحدثين في معنى سيبويه "رائحة التفاح"، إلى أن كلمة "سيب" بالفارسية هي التفاح و"ويه" تعني الريح، ولكن خديجة الحديثي ترى أنه لا يمكن لكلمة "سيبويه" أن تكون مركبة من شقين "سيب" و"ويه"، كما ذكر الخطيب البغدادي -لأنها من منظورها- تصبح "سِيبَّويْ" بتضعيف الباء، ولم ترد هذه اللفظة بالتضعيف، وكل ما ورد من ألفاظ سابقة كسيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه، كلها خالية من الباء، يضاف إلى ذلك أن معناها لا يتفق مع هذه الألفاظ المختلفة[2].

ومن جهة أخرى يرى هارت (Hart) أن صيغة -سيبويه- قد يكون مدلولها التصغير في اللغة الفارسية، ومعناها التفاحة الصغيرة[3].

---

(1)- نزهة الألباب في طبقات الأدباء لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1959، ص: 238، ينظر كذلك: أخبار النحويين البصريين، ص: 48

(2)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، ص: 43

(3)- سيبويه حياته وكتابه، أحمد أحمد بدوي، ص: 39

أما كرنكو (F. Krenkow) فإنه لا يبتعد في رأيه عن هارت، فهو الآخر يرى أن الكلمة تنطق "سَيْبَوَيْ" (Seboe) وهي عبارة تحمل معنى التدليل والإعزاز وتدل على التفاحة الصغيرة (Apelchem)[1].

وفي كتاب "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"، قيل إن لفظة سيبويه تتكون من "سِيْ" وتعني الثلاثين و"بوي" بمعنى الرائحة، وبهذا يكون معناها: الثلاثين رائحة، أي الكثير العطر الساطع العرف[2]، وحسب الباحثة خديجة الحديثي فإن كلا الرأيين مقبول، وذلك أن البون بينهما غير بعيد، وإن الأول أشهر[3]، ولم يكن سيبويه هو الوحيد الذي لقب بهذا اللقب؛ وإنما لقب به ثلاثة آخرون من النحاة هم:

1. محمد بن موسى عبد العزيز الكندي أبو بكر، وقيل أبا عمر بن الصيرفي المولود سنة (284هـ)، وكان عارفا بالنحو والمعاني والقراءات والغريب والإعراب وعلوم الحديث والفقه والكلام، وأخبار الناس وأشعارهم والنوادر، وكان يتكلم في الزهد وأحوال الصالحين، عفيفا ذا منزلة عند الملوك، وعني أكثر ما عني بالنحو والغريب حتى استحق بها لقب سيبويه، توفي سنة (358هـ) بمصر[4].
2. محمد بن عبد العزيز بن محمد بن محمود بن سهل أبو نصر التميمي الأصبهاني، عاش في القرن الرابع، وكان أديبا عالما بالنحو واللغة والأدب، ويعرف بسيبويه[5].
3. علي بن عبد الله بن إبراهيم الكوفي النحوي المغربي المالكي الملقب بسيبويه، ولد حوالي (600هـ)، توفي بالقاهرة سنة (667هـ)، كان عالما بالنحو، وله شعر يتكلف فيه استعمال المصطلحات النحوية كقوله:

---

(1)- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أبو الخطيب البغدادي، ط1، مطلعة السعادة بمصر، 1931، ج13، ص: 195

(2)- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1326هـ، ص: 67

(3)-أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 44

(4)- نفسه، ص: 67

(5)- نفسه، ص: 108

عَذَّبْتِ قَلْبِي بِهَجْرٍ مِنْكِ مُتَّصِلٍ يَا مَنْ هَوَاهُ ضَمِيرٌ غَيْرُ مُنْفَصِلٍ
مَازَالَ مِنْ غَيْرِ تَأْكِيدِ صُدُودِكِ لِي فَمَا عُدُولُكِ مِنْ عَطْفٍ إِلَى بَدَلٍ[1]

- **مولده:**

في فارس قرب شيراز في القرية البيضاء، وهي مدينة مشهورة في فارس لقبت أيام الفرس "دار أسفيد"، وفي أوائل دولة بني العباس ولد "سيبويه"، ولأنه لم ينشأ في بيت عريق ذي غنى وسلطان لم يعرف له تاريخ لولادته، نشأ بالبصرة وتلقى علومه وأخذ ثقافته على يد علمائها الذين تبوؤوا مترلة رفيعة آنذاك، ولكن يمكن معرفة تاريخ ولادته بالتقريب بعد قراءتنا لما أورده ابن النديم في قوله: "قرأت بخط أبي العباس ثعلب؛ وقد قدم سيبويه أيام الرشيد إلى العراق وهو ابن اثنين وثلاثين سنة، وتوفي وله نيف وأربعون سنة بفارس"[2].

وتتضارب الروايات في أن أول أساتذة سيبويه هو عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ)، "ولا يمكن أن يُسَمَّى عيسى أستاذه حتى يكون قد أخذ عنه العلم المختص به وأدركه، ولا يكون قد أخذ عنه إلا وهو يعقل، ولا يعقل حتى يكون رشيدا"[3].

واستنادا إلى الروايتين السابقتين، رواية ابن النديم الذي ذكر أن سيبويه قدم العراق أيام خلافة الرشيد أي سنة (170هـ)، وهو ابن اثني وثلاثين سنة، والرواية الثانية التي تذكر أن سيبويه تلقى علومه على يد أستاذه عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ)، فإنه يمكن التأريخ لميلاد سيبويه في سنة (135هـ) على وجه التقريب[4].

- **أخباره:**

لم تلق سيرة سيبويه العناية المناسبة لمكانته وأثره في تاريخ النحو العربي، فالاهتمام به حسب الأخبار المتناثرة التي رواها الرواة يكاد يكون مقصورا على كتابه، ولقد كان من عادة

---

(1)- بغية الوعاة، ص: 399، سيبويه إمام النحاة، ص: 70-71
(2)- الفهرست، ابن النديم، ص: 76
(3)- نزهة الألباء، ص: 39، أخبار النحويين البصريين، ص: 48
(4)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 45

الرواة القدامى أن يذكروا في تراجمهم للمشهورين نسبهم وأسرهم وأخلاقهم وشخصيتهم وعلمهم، ويقدموا للقراء صورة لحياتهم، قد تتفاوت من عالم إلى آخر، لكن من ترجموا لسيبويه لم يذكروا مولده، ولم يعرف شيء عن أسرته ولا أهله سوى خبر مختصر عن حنان أمه وأخيه عليه، على حد قول خديجة الحديثي: "قد وردت إشارة إلى أخيه الذي كانت تربطه به روابط الحب والمودة، وكان كظله حيثما حل أو ارتحل، ولعله لم يكن لسيبويه غيره، فقط أنه لما اعتل وضع رأسه في حجر أخيه وأغمي عليه، فبكى أخوه ولما رأى ما به وانحدرت من عينه دمعة حرى على وجه سيبويه الذي فتح عينه وقال حينما رآه يبكي"[1]:

أُخَيَّينِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا إلىَ الأَمَدِ الأَقْصَى وَمَنْ يَأْمَنِ الدَّهْرَ[2]

وترجع الدكتورة "هدى جنهوينشي" أسباب عدم الاهتمام بالترجمة لسيرة سيبويه إلى ما يلي[3]:

1. **سيبويه فارسي الأصل**: وقد نشأ في لسانه حبسة، إذ قال أحمد بن معاوية بن بكر العليمي: "ذكر سيبويه النحوي عند أبي فقال عمرو بن عثمان قد رأيته، وكان حدث السن، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد، وقد سمعته يتكلم ويناظر في لغو وكانت في لسانه حبسة، ونظرت في كتابه فعلمه أبلغ من لسانه"[4].

وفي مناظرته لسيبويه قال الأصمعي: "...ورفعت صوتي فسمع العامة فصاحتي، ونظروا إلى لكنته، فقالوا: لو غلب الأصمعي سيبويه فسرني ذلك..."[5]، ويبدو من خلال

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، ص: 46

(2)- نزهة الألباب، الأنباري، ص: 41

(3)- من مناهج البحث في اللسانيات واللغويات المعاصرة، سيبويه والأخفش الأوسط، د. هدى جنهويشنى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، دط، 1425هـ/2004م، ص: 09-10

(4)- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)، تح: حنّا حدّاد، دار العلوم، الرياض، ط1، 1987، ص: 66-67

(5)- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص: 16، ص: 125

هذين القولين أن لكنة سيبويه كانت سببا في التقدير السلبي له عند معاصريه، أو إلى عدم استعظامه بين النحاة العرب وهذا يسمى بالسبب العنصري[1].

2. **السبب السياسي:** عاش سيبويه في أوائل العصر العباسي، ولا أحد من العرب آنذاك كان يرحب بتفوق الأجانب عليه في علم لغته.
3. **السبب العلمي:** لم ينتبه المؤرخون إلى ذكاء سيبويه الوقاد وعلمه الغزير وأدبه الجم، إلا بعد أن واراه الثرى وبعد أن ذاع كتابه في الآفاق، وقد عد تأليف هذا الكتاب من صناعة العلماء العرب، ومعهم سيبويه، لا صناعة سيبويه وحده، وقد قيل: "...اجتمع على صنعه كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا، منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل"[2].

ويبدو بعد هذه الأخبار أن سيبويه لم يترك ذرية ترثه من بعده، و لم تذكر المصادر أنه تزوج وأعقب، هذا كل ما نعرفه عن أسرة سيبويه وذويه، فالذين تحدثوا عنه لم يهتموا كما سبق الذكر أهمية كبرى بسيرة سيبويه لانصرافهم إلى الحديث عن علمه وكتابه الشهير، و لم يذكروا إلا تلك المناظرة التي جرت بينه وبين الكسائي في المسألة الزنبورية التي غلب فيها.

- **وفاته:**

اختلف الرواة في تاريخ وفاة سيبويه كما اختلفوا في تاريخ ميلاده وهو ينتقل من فارس إلى البصرة فبغداد، وحتى يمكننا معرفة سنة ومكان وفاته بالتقريب، لابد من ذكر معظم الروايات التي وردت في المعاجم والمصادر العربية.

الرواية الأولى: تقول إن وفاته كانت سنة (161هـ)[3]، وهذه الرواية لا يمكن تصديقها، لأن سيبويه قدم بغداد أيام الرشيد وتوفي بعد توليه الخلافة؛ أي بعد سنة (170هـ) -كما سبق الذكر- ومن هنا لا بد أن تكون وفاة سيبويه بعد هذا التاريخ.

---

(1)- من مناهج البحث في اللسانيات واللغويات المعاصرة، د. هدى جهنويتشي، ص: 10

(2)- إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي (جمال الدين علي بن يوسف)، تح: محمد أبي الفضل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986، ج2، ص: 347

(3)- نزهة الألباب، الأنباري، ص: 42، بغية الوعاة، السيوطي، ص: 367

الرواية الثانية: تقول بأنه توفي سنة (188هـــ)[1]، وهذا غير صحيح لأنه توفي قبل الكسائي المتوفى سنة (183هـــ)، وقبل جماعة أخذ عنهم يونس الذي مات سنة (182هـــ) أو (183هـــ)[2].

الرواية الثالثة: لا يمكن الاتفاق معها البتة؛ لأنها تقول إن سيبويه توفي سنة (194هـــ)[3]، ولقد ذكرنا أنه درس على يد عيسى بن عمرو، وتوفي وعمره اِثنان وثلاثون سنة أو نيّف وأربعون، وكذلك لا تتفق مع الرواية التي تقول بأن سيبويه توفي قبل الكسائي ويونس أيام الرشيد المتوفى سنة (183هـــ)[4].

ثم إن هناك روايتين إحداهما تذكر أنه مات سنة (177هـــ)، والأخرى تقول إنه توفي سنة (180هـــ)، وهي الأرجح والأصح لأنها الرواية التي عليها أكثر المؤرخين، واعتمادا كذلك على ما ذكره المؤرخون بأنه مات قبل الكسائي (ت183هـــ) وقبل يونس (182هـــ)، واختلفوا كذلك في مكان وفاته، فمنهم ما يقول إنه مات في مدينة ساوة بعد الخيبة التي أصابته في المناظرة التي عقدت في بغداد، وقيل إنه توفي بالبصرة[5].

ويبدو أن خبر وفاته بالبصرة غير صحيح، وذلك أن أكثر الأخبار تؤكد أنه لم يعد إلى البصرة بعد أن خسر المناظرة، وذلك خجلا من أهلها الذين كانوا ينتظرون انتصاره وعودته إليهم مرفوع الرأس، لا خائبا مغلوبا[6].

وقيل إنه توفي بالبيضاء[7]، وذكر أبو دريد أنه مات بمدينة شيراز، كما نقل ذلك الخطيب البغدادي وقبره فيها معروف[8].

---

(1)- نزهة الألباب، الأنباري، ص: 42، بغية الوعاة، السيوطي، ص: 367

(2)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي،ص: 47

(3)- المرجع نفسه

(4)- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة بالقاهرة، ط3، 1953، ج2، ص: 45

(5)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 48

(6)- المرجع نفسه، ص: 48

(7)- بغية الوعاة، السيوطي، ص: 266

(8)- المصدر نفسه، ص: 266

وقد وردت روايات أخرى تذكر أنه توفي بالأهواز؛ كرواية الزبيدي عن الأخفش الأوسط قائلا: "فلما وصل سيبويه إلى شاطئ البصرة وَجَّهَ إليَّ فجئته فعرفني خبره مع البغدادي(*) وودعني، ومضى إلى الأهواز... فأقام سيبويه مديدة في الأهواز، ثم مات في ذَرْبٍ أصابه، وما قتله إلا الغم لما جرى عليه"(1).

وإلى جانب هذه الرواية هناك رواية "كرنكو" الذي يقول فيها: "ويحيط بمكان وفاته أيضا بلبلة واضطراب على أن خير المصادر تقول إنه توفي بساوة، وذكر الخطيب صاحب تأريخ بغداد عن ابن دريد أن سيبويه مات بشيراز وقبره يقوم فيها، ونحن نعلم أن ابن دريد عاش عدة سنوات في فارس فضلا عن أنه يعد خبر رواية البصريين، فإنه يصح لنا أن نذهب إلى أن روايته هي الرواية الصحيحة، وسيبويه من شيوخ الأئمة في العلوم العربية، وحسبنا أن كتابه الذي كان ثمرة لقريحة رجل لم يصل به العمر، قد لقي مثل هذا الإقبال من الناس عامة، ذلك أن فقهاء العرب قد درجوا دائما على التعظيم من شأن الكتب التي ألفها أناس ذوي السن العالية، وما من ريب في أن المناظرة التي عقدت بين سيبويه والكسائي في حضرة الوزير يحي بن خالد البرمكي المتوفى سنة (182هـ) عن المسألة الزُّنْبُورِيَّة قد وقعت بعد وفاة الخليل، وانتصر الكسائي على سيبويه بمراجعة عربي، ولعل الكسائي عدو سيبويه الذي لا يعرف وازعا من ضمير اشترى العربي بمال، وتلقى سيبويه جائزة نسبية من يحي، ولكنه وجد موجدة عظيمة لما لحقه من هزيمة، وقصد بلده ولم يعد إلى العراق قط، ويقال إنه توفي بها من الغم والكمد"(2).

ويقال إن الأصمعي –أحد معاصري سيبويه– قد قرأ على قبر سيبويه بشيراز أبياتا لسليمان بن يزيد العدوي وهي:

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بعد طُولِ تَزَاوُرٍ ... وَنَأَى المُزَارُ فأسْلَموكُ وَأَقْشَعُوا
تركُوكَ أَوْحَشَ ما تكُونُ بِقَفْرَةٍ ... لم يُؤْنِسُوكَ وَوِحْدَةً لَمْ يَدْفَعُوا

(*)- المقصود بالبغدادي: الكسائي

(1)- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص: 71-72

(2)- دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)، ج16، ص: 407، الطبعة العربية، ج4، ص: 397

وقضَى القَضاءُ فَصِرْتَ صَاحبَ حُفْرةٍ عَنكَ الأَحبَّةُ أَعْرَضُوا أَو تَصَدَّعُوا[1]

توفي سيبويه بعيدا عن موطن أساتذته وتلامذته الذي احتضنه زمنا طويلا، مات وهو يردد:

يُؤْمَلُ دُنيَا لِتَبْقَى لَهُ فَمَاتَ المُؤَمِّلُ قَبلَ الأَمَلِ
حَثِيثًا يُرَوِّي أُصُولَ النَّخِي لِ فَعَاشَ الفَسِيلُ وَماتَ الرَّجُلُ

وقيل إنه كان يتمثل عند وفاته بهذا البيت:

يَسُرُّ الفَتَى مَا كَانَ قدَّمَ من تُقَى إِذَا عَرفَ الدَّاءَ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ[2]

ولقد رثاه كثير من العلماء وعلى رأسهم الزمخشري بقوله:

أَلاَ صَلَّى اللهُ صَلاةَ صِدْقٍ عَلى عَمْرِ بنِ عَثْمَانَ بنِ قُنْبُرَ
فإنَّ كِتَابهُ لم يُغْنِ عَنهُ بنُو قَلَمٍ وَلا أَبْناءُ مِنْبَرٍ[3]

كما رثاه النحاة وفي مقدمتهم أبو العلاء المعري الذي وَدَّ في أبياته لو كان للغة عقل يعقل، وإحساس يحس فتبكي عليهم وتستهول خطبها فيهم، لكنهم مضوا كما مضى غيرهم، لا تبالي بأحد منهم ولا تعرف من أمرهم شيئا، يقول:

توَلَّى سيبويه وجَاشَ سَيْبٌ من الأَيامِ فَاختَلَّ الخَليلُ
ويونُسُ أَوْحَشْتَ منه المَغَاني ودُونَ مُصَابهِ الخَطْبُ الجَليلُ
أَتتْ عِلَلُ المَنُونِ فما بَكَاهُمُ من اللَّفْظِ الصَّحِيحُ ولا العَليلُ

---

(1)- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج16، ص: 116، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1948، ج3، ص: 135

(2)- المراجع نفسها، ج16، ص: 121، ج3، ص: 135

(3)- بغية الوعاة، السيوطي، ص: 366

وَلَوْ أنَّ الكَلامَ يُحِسُّ شَيْئًا لَكانَ لهُ وَراءَهُمْ أَلْيلُ [1]

- **أخلاقه وصفاته:**

تجمع معظم الروايات على أن سيبويه كان غلاما ذكيا أنيقا جميلا ونظيفا، وكان فتى لطيفا واسع العقل والإدراك[2]، ولقد روى ابن خلكان أن معاوية بن بكر العليمي قال —وقد ذكر عنده سيبويه: "رأيته وكان حديث السن، وكنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد، وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو، وكان في لسانه حبسة فنظرت في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه"[3].

ولقد كان سيبويه ذكيا واسع الإطلاع، يحسن التعليل والتفريع وكتابه خير دليل على ذلك، وبالإضافة إلى كل هذا فقد كان طموحا متفائلا حليما وأكبر دليل على حلمه تلك المناظرة التي جرت بينه وبين الكسائي، وكان لقبه (سيبويه) رمزا يشار به إلى كل من تبحر في علوم العربية، ونبه فيه، وعرف دقائقها، وصار خبيرا بأسرارها، متصرفا في مسائلها، لا تخفى عليه منها خافية، فسيبويه إمام النحاة هو الذي ضرب به المثل في التبريز في علوم العربية والعلم بدقائقها وتفاصيلها وأسرارها وغريبها، والتصرف في أحكامها، فغطى اسمه على أسماء الذين سبقوه من العلماء، وإن كانت لهم آثار محمودة، كما لهم فضل السبق[4].

يضيف الدكتور سليمان يوسف خاطر قائلا: "لقد أصبح اسم سيبويه في النحو وعلوم العربية كحاتم في الجود، وقَسّ في الفصاحة، وإياس في الذكاء، وعمرو في الإقدام، وأحنف في الحلم، وابن الخطاب في العدل...الخ، أي إنه صار المثل الأعلى في مجاله، لأنه كان أعلم أهل

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 50-51

(2)- المرجع نفسه، ص: 51

(3)- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص: 67

(4)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتوجيه قراءاته ومآخذ بعض المحدثين عليه، دراسة نقدية تحليلية نحوية وصرفية، د. سليمان يوسف خاطر، مكتبة الرشيد (ناشرون)، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 2008، ص: 107

زمانه وعصره وما تلاه في علوم العربية، واستحق بجدارة لقب: إمام النحاة وشيخ اللغويين أجمعين"[1].

ولما بلغ ابن خلدون خبر نبوغ جمال الدين بن هشام الأنصاري صاحب "القطر والشذور والتوضيح المغني"[*]، وأراد أن ينوه بفضله لم يجد ابن خلدون أحسن من أن يقرن اسمه باسم سيبويه، فقال: "مازلنا –ونحن بالمغرب– نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له: ابن هشام أنحى من سيبويه"[2]، وهذا مثل بعض الشعراء وينسب إلى قطرب البصري تلميذ سيبويه[3]:

فَأَعْلَمُ بِالنَّحْوِ مِنْ سِيبَوَيْه وأَجْوَدُ بِالَمالِ مِنْ حَاتِم

وجرت العادة أنه إذا أراد شخص أن يمدح آخر حاذقا لعلوم العربية، ويبالغ في وصفه بذلك، كان أقصى ما يمكن أن يقوله له: هو سيبويه زمانه، وفريد عصره وأوانه، وإن أردت اللغة فلديه، أو البلاغة فموقوفة عليه، أو النحو والصرف فمن سيبويه[4].

- **الحوادث التي وقعت لسيبويه:**

يحدثنا الرواة عن حوادث وقعت لسيبويه مع شيخه حماد لعلها كانت السبب المباشر في انصرافه عن دراسة العلوم الشرعية أو تأجيله لها وتفرغه الكامل لدراسة علوم العربية، ومن ذلك ما ذكروه من أن سيبويه سأل أستاذه حمادًا يوما فقال: أحدثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رَعُفَ في الصلاة...؟ فقال حماد: أخطأت يا سيبويه! إنما هو رَعَفَ، فانصرف سيبويه إلى شيخه الخليل شاكيا، فقال له الخليل: صدق حمادُ، أمثله يُلَقَّنُ بمثل هذا؟![5].

(1)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، د. سليمان يوسف خاطر، ص: 107-108

(*)- شرح قطر الندى وشرح شذور الذهب، أوضح المسالك، مغني اللبيب، وهي كتب لابن هشام الأنصاري

(2)- بغية الوعاة للسيوطي، ج1، ص: 393

(3)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، د. سليمان يوسف خاطر، ص: 108

(4)- المرجع نفسه، ص: 108

(5)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، د. سليمان يوسف خاطر، ص: 109

وقد حدَّث نصر بن علي بأن سيبويه كان يستملي على حماد بن سلمة فقال يوما: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "ما من أحَدٍ من أصحابي إلا وقد أخذت عليه، ليس أبا الدرداء"، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء (وظنه اسم ليس)، فقال حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت وإنما (ليس) هاهنا استثناء، فقال سيبويه: لا جرم، لأَطْلُبَنَّ علما لا تلحنني فيه أبدا، فلزم الخليل فبرع، أو طلب النحو فلزم الخليل[1].

وخبر آخر يرويه حماد أنه جاء إليه سيبويه مع قوم يكتبون شيئا من الحديث، قال حماد: فكان فيما أمليت ذكر (الصفا)، فقلت: صعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصفا وكان هو الذي يستملي، فقال: صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفاء، فقلت: يا فارسي، لا تقل الصفاء، لأن الصفا مقصور، فلما فرغ من مجلته كسر القلم، وقال: لا أكتب شيئا حتى أحكم العربية[2].

ولعل هذه الحوادث هي التي حفزت سيبويه على تعلم العربية وطلبه النحو والانصراف عن الفقه وعلوم الشريعة.

- **دراسته وعلمه:**

عاش سيبويه في العصر العباسي الأول، وهو العصر الذهبي للدولة العباسية، عاش عشر سنين من خلافة أبي جعفر المنصور التي استمرت من (136 إل 158هـ) وعاصر المهدي الذي استمرت خلافته من (158-169هـ)، وابنه الهادي من (169-170هـ)، ثم هارون الرشيد من (170-193هـ)، وأربعتهم من عظماء الخلفاء العباسيين، ومات سيبويه -رحمه الله- أثناء خلافة الرشيد سنة (180هـ) على أرجح الروايات[3].

وفي هذه الفترة كثر العلم والعلماء في كل فروع المعرفة بدءا من علوم الدين كعلوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والعقيدة والكلام، إلى جانب الدراسات الأدبية كاللغة

(1)- ينظر: منهج سيبويه، ص: 109، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 53، طبقات النحويين واللغويين، ص: 66، خلاف الأخفش الأوسط عن سيبويه، ص: 12

(2)- أخبار النحويين البصريين، ص: 43، طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص: 66

(3)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، ص: 104

والنحو والصرف ورواية الأخبار والأشعار وغيرها، ولقد عمرت المساجد بالعبادة ودروس العلم وحلقات المناظرة بين العلماء من الطوائف المختلفة، وكانوا يقومون بتدريس أبناء الخلفاء والأمراء وذوي السلطان والجاه في بيوتهم، وكان الطلاب يختلفون إلى الحلقات يدرسون ما يحبون من غير تخصص أو توجيه ثابت، وكان الواحد منهم يدرس جميع العلوم ولكنه يشتهر بواحد منها فينسب إليها، فيقال: المحدث أو النحوي أو المفسر، وبدأ التأليف في شتى العلوم والمعارف، وكثر العلماء في كل فروع المعرفة لعناية الخلفاء بهم بإغداق الأموال عليهم كالشعراء والأدباء، فنشطت الحركة العلمية والثقافية، كما نشطت حركة الشعر والأدب[1].

وفي وسط هذا الجو العلمي المشحون بالعلم والعلماء في كل فروع المعرفة وفنون العلم عاش سيبويه، يعاشر القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء في المساجد ودور العلم، ومجالس الدروس والمناظرة، ولا أظنني أريد الاسترسال في التأريخ لحياة سيبويه، فقد قام عدد كبير من العلماء والباحثين بالترجمة الواسعة له، وإنما أردت أن أذكر خلاصة مختصرة ووافية لترجمته والحديث عن أخلاقه وصفاته لأهمية هذه الترجمة في البحث.

- **شيوخه:**

بعد تلك الخلاصة المختصرة عن حياة سيبويه، وتلك الحوادث التي وقعت له، يتضح أن سيبويه كان مثابرا في طلب العلم، فهو الفتى الذي ترك البيضاء مسقط رأسه وهو حديث السن متوجها إلى البصرة التي كانت آنذاك مزدهرة بالعلم والعلماء، يطلب العلم والتزود بالمعارف والتشبع بعلم الفقه والشريعة.

فطفق يطلب العلم بها (البصرة)، فكان الحديث والفقه من أول ما يدرس العلماء، فأعجبه ذلك، فصحب الفقهاء وأهل الحديث، وكان أول أساتذته حماد بن سلمة بن دينار الذي كان الإمام المشهور في الحديث، وشيخ أهل البصرة في العربية وهو الذي دفع به إلى تعلم النحو بعد أن خطأه حينما كان يستملي عليه حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم-

(1)- نفسه، ص: 104، ينظر كذلك: أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 52

وبعض المسائل اللغوية -كما سبق الذكر- فكان بذلك ممن اشترك في صنع سيبويه النحوي[1].

وتلقى سيبويه علم القراءات واللغة والنحو عن أساتذته كأبي عمرو بن العلاء الذي كان عالما بالقراءات واللغة، ونقل عنه في كتابه كثيرا ولاسيما في القراءات والأصوات اللغوية ورواية الشعر والأمثال، وكان أستاذا لأستاذيه الخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب الذين روى سيبويه عن طريقهما نحو (48) ثمان وأربعين قولا لأبي عمرو بن العلاء[2].

ومن شيوخ سيبويه كذلك يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري القارئ، وكان أعلم الناس في زمانه بالقراءات والعربية، وله قراءة مشهورة هي إحدى القراءات العشر[3].

و لم يكن سيبويه قد طلب النحو أول ما طلب، وإنما طلب الآثار والفقه، وبعد تخطئته من قبل أستاذه ألح على طلب النحو، فلزم عيسى بن عمر الثقفي الذي كان أول الأساتذة الذين ذكرت الروايات أنه درس عليهم، وكان ضريرا وهو أحد القراء البصريين، وقد نقل سيبويه عنه كثيرا من شواهد النحو ومسائله، وقيل عن هذا الأستاذ إنه أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل[4].

ويذكر الرواة أن لعيسى بن عمرو الثقفي كتابين في النحو هما: "الجامع" و"الإكمال" وفيهما يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو أحد من أخذ عنه عيسى بن عمرو الثقفي[5]:

بَطَلَ النَّحْوِ جَمِيعًا كُلُّهُ   غَيْرُ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ
ذَاكَ إِكْمَالٌ وَهَذَا جَامِعٌ   وَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرٌ

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 53، ينظر كذلك: الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، د.ت، ج1، ص: 08

(2)- المرجع نفسه، ص: 53، المصدر نفسه، ص: 09

(3)- كتاب سيبويه، تح: محمد عبد السلام هارون، ط1، ج1، ص: 09

(4)- الكتاب نفسه، ج1، ص: 10، أبنية الصرف في كتاب سيبويه

(5)- بغية الوعاة، السيوطي، ص: 370، الفهرست، ابن النديم، ص: 62

ولكن هذين الكتابين لم يصلا إلينا، ولا رأينا أحدا ذكر أنه رآهما على حد قول السيرافي، كما يذكرون أن له نيفا وسبعين مصنفا ذهبت كلها[1].

يضاف إلى الأساتذة السابقين عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي، مولى بني ضبة الذي أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعن حماد بن سلمة، وسمع من العرب أيضا، وتتلمذ أيضا على يد الكسائي والفراء وأبي عبيدة، قال أبو حاتم: "سمعت أبا عبيدة يقول: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ ألواحي من حفظه"[2]، وكانت له مذاهب وأقيسة تفرد بها، وكانت حلقته بالبصرة يقصده طلاب العربية وفصحاء الأعراب والبادية[3]، وقد أكثر سيبويه من النقل عنه في كتابه، حتى بلغ نقله عنه مائتي رواية فكان ثاني العلماء الذين أكثر سيبويه من النقل عنهم[4]، وله من الكتب: كتاب معاني القرآن، كتاب اللغات، كتاب النوادر الكبير، كتاب النوادر الصغير، وكتاب الأمثال[5].

ومن الشيوخ والأساتذة الذين لزمهم سيبويه أستاذه الجليل الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، الذي يذكر الرواة أن أباه أول من سمي بأحمد بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- قال السيرافي: "كان الغاية في استخراج مسائل النحو تصحيح القياس فيه، وليس الخليل بحاجة إلى أن أسهب في ترجمته، وهو الأستاذ الأكبر لسيبويه، وعامة الحكاية في كتابه عنه، وكما قال سيبويه: "وسألته" أو "قال" من غير أن يذكر القائل، فهو الخليل كما نص السيرافي، والخليل من تلاميذ أبي عمرو بن العلاء"[6].

---

(1)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 10، بغية الوعاة، ص: 370، الفهرست، ص: 62

(2)- مراتب النحويين، أبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة مكتبة النهضة، القاهرة، 1955ص: 21، كتاب سيبويه، ج1، ص: 11

(3)- نزهة الألباب، السيوطي، ص: 60، الكتاب، ج1، ص: 11

(4)- الكتاب، ج1، ص: 11

(5)- مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي ص: 21، أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، نشره فرنسيس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1936ص: 36

(6)- الكتاب، ج1، ص: 11، ينظر كذلك: أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 54

وتذكر الروايات أيضا أن الخليل كان سيد أهل الأدب وصاحب العقلية الجبارة الفذة، وهو أعظم أساتذة سيبويه أثرا فيه وأكثرهم اتصالا به وأخذًا عنه، وكان سيبويه ملازما له حتى توفي، وقد أكثر من نقل آرائه في الكتاب وكان يعظمه ويقدره حق قدره[1].

ومن الأساتذة الذين أخذ عنهم سيبويه اللغة؛ أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري من رواة الحديث، ونقل عنه في كتابه، وكان أبو زيد يقول مفتخرا: "كان سيبويه غلاما يأتي مجلسي وله ذؤابتان فإذا سمعته يقول: "حدثني من أثق بعربيته" فإنما يعنيني أنا"[2]، وكلما قال: "سمعت من أثق به" فهو عن أبي زيد"[3].

وتجدر الإشارة إلى أن سيبويه لم يصرح باسم أبي زيد في الكتاب، ولكن النصوص القديمة التي لم يعترض عليها العلماء تدل على أنه روى عنه في كتابه وإن لم يصرح، فقد أحصى الأستاذ علي النجدي الرواية عنه بهذه الطريقة تسع مرات[4].

توفي أبو زيد بالبصرة سنة (215هـ) بعدما قارب المائة[5]، ومن شيوخه: هارون بن موسى النحوي كما ذكر في تاريخ بغداد[6]، وهو من أهل البصرة، وكان يهوديا ثم طلب القراءة فبرع فيها، كما حفظ القرآن، قال السيوطي: وهو أول من تتبع وجوه القرآن وألفها، وتتبع الشاذ منها على إسناده[7]، مات في حدود سنة (170هـ)[8]، كما أخذ اللغة عن أبي الخطاب الأخفش الكبير[9]، الذي روى عنه كثيرا في كتابه بعد الخليل ويونس بن حبيب.

وبناءا على ما سبق ذكره، فأساتذة سيبويه المشهورون هم: أبو عمرو بن العلاء، عيسى بن عمر الثقفي، حماد بن سلمة، الخليل بن أحمد الفراهيدي، يونس بن حبيب، أبو زيد

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 54

(2)- مراتب النحويين، ص: 42، طبقات النحويين، ص: 67

(3)- مراتب النحويين، ص: 76

(4)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 13

(5)- مراتب النحويين، ص: 42

(6)- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أبو بكر الخطيب البغدادي، ص: 198

(7)- بغية الوعاة، السيوطي، ص: 406

(8)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 13

(9)- الفهرست، ابن النديم، ص: 86

الأنصاري وأبو الخطاب الأخفش الكبير، ولقد اجتمع كل هؤلاء العلماء والمشايخ والرواة على صقل مواهب سيبويه، وشحذ ذكائه وتغذية طموحه، وإشباع نهمه وتطلعه إلى المجد بالعلم النافع والأدب الجم، وكانت ثمرة ذلك كله كتابه الشهير المسمى "الكتاب" الذي كان ومازال وسيظل نبراسا يهتدى به،ومصدرا يرجع إليه في معرفة خصائص العربية، وينبوعا ينهل منه كل شغوف بالبحث والعلم[1].

وبعد أن أخذ سيبويه عن كل هؤلاء الأعلام اللغة والنحو كما أخذ عن غيرهم الحديث كان صاحب مشاركة، فقد قال عنه ابن عائشة: كنا نجلس مع سيبويه النحوي في المسجد، وكان شابا جميلا قد تعلق من كل علم بسبب، وضرب في كل أدب بسهم مع حداثة سنه وبراعته في النحو[2]، وكان سيبويه سُنِّيًا على مذهب السنة والجماعة[3].

- **أقرانه:**

يقال إن سيبويه نجم من أصحاب الخليل الأربعة وهم: عمرو بن عثمان سيبويه، والنضر بن شميل، وأبو فيد مؤرج العجلي، وعلي بن نصر الجهضمي، وكان أبرعهم في النحو سيبويه[4].

1. أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي، يقال إنه قدم من البادية ولا معرفة له بالقياس في العربية، قال: أول ما تعلمت القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة، اشتهر بقرض الشعر وبأنه كان لغويا، توفي سنة (195هـ)[5].
2. نصر بن علي الجهضمي، قال عنه الصفدي: "كان من أصحاب الخليل في العربية ورفقاء سيبويه، وقد غلب عليه الحديث، توفي سنة (178هـ)"[6].

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 55

(2)- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص: 67

(3)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، د. سليمان يوسف خاطر، ص: 111

(4)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 55

(5)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 15، مراتب النحويين، ص: 67

(6)- نفسه، ص: 15، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 55، إنباه الرواة، ج3، ص: 345

3. أبو الحسن البنصر بن شميل المازني التميمي، يقال إنه أقام بالبادية أربعين سنة ثم أخذ عن الخليل والعرب، وهو أول من أظهر السنة بمرو وخراسان، غلبت عليه اللغة وله فيها كتاب "الصفات"، وكذلك "المدخل إلى كتاب العين" و"غريب الحديث" و"المصادر"، توفي سنة (203هـ)[1].

- **معاصروه:**

عاصر سيبويه من العلماء أساتذته، فمنهم من قضى نحبه قبله بسنوات، ومنهم من توفي بعده، ومن هؤلاء أعلام البصرة المشهورون: عيسى بن عمر والخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي عمرو ابن العلاء، ويونس بن حبيب البصري، وعبد الملك بن قريب الأصمعي، والحسن البصري، وعاصره كذلك خلف الأحمر، وبشار بن برد، وأبو نواس، والسيد الحميري والكسائي والفراء وغيرهم من أعلام اللغة والنحو والأدب في ذلك العصر الذي زخر بالعلم والعلوم وكل فروع المعرفة[2].

- **تلاميذ سيبويه:**

أخذ النحو عن سيبويه جماعة منهم من درس عليه مباشرة، ومنهم من درس كتابه واستفاد منه، غير أن الذين درسوا عليه مباشرة هم قلة لأنه مات مبكرا ولم يجلس للتدريس طويلا، ومن هؤلاء التلاميذ:

1. أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط المجاشعي من أهل بلخ، كان أجلع[3]، أخذ عن شيوخ سيبويه ولكنه لم يأخذ عن الخليل، ثم أخذ عن سيبويه رغم أنه كان أسن منه، وكان كما ذكروا الطريق إلى كتاب سيبويه، إذ احتفظ بالكتاب ثم شرحه وبينه وهو من قال: "وكنت أسأل سيبويه عما أشكل علي منه، فإن تصعب علي الشيء منه قرأته عليه"[4]، وكان كتاب سيبويه معظما في النحو عند البصريين

(1)- مراتب النحويين، ص: 68، الكتاب، ص: 15، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 55

(2)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 55

(3)- الأجلع: الذي لا تنطبق شفتاه

(4)- طبقات النحويين، الزبيدي، ص: 67، منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، ص: 111

والكوفيين[1]، يقول الرياشي: "حدثني الأخفش قال: كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرضه علي، وهو يرى أني أعلم به منه، وكان أعلم مني، وأنا اليوم أعلم منه"[2].

وهذا النص إنما ينبئنا عن تواضع سيبويه وحرصه على المشاورة في العلم، كما يدلنا على أن الأخفش شهد مولد الكتاب ونشأته.

ويروى أن الأخفش جاء سيبويه يوما يناظره بعد أن برع فقال له الأخفش: "إنما جئتك لأستفيد منك"، فقال سيبويه: "أتراني أشك في هذا؟"[3]، ويقال إن لا أحد قرأ كتاب سيبويه في حياته ولا حتى سيبويه قرأه، إلا بعض المسائل التي قرأها الأخفش واستصعبت عليه –كما سبق الذكر– ولكن بعد وفاة سيبويه قرئ الكتاب على الأخفش من قبل أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني[4]، توفي الأخفش سنة خمس عشرة ومائتين (215هـ)[5]، ويقال سنة (207هـ) أي بعد سيبويه[6].

2. أبو علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب النحوي، وسيبويه هو الذي سماه بهذا الاسم لأنه كان ملازما له وكان يدلج إليه فإذا خرج رآه على بابه، فقال: "ما أنت إلا قطرب ليل!"، والقطرب: دويبة لا تستريح نهارها سعيا، وقد أخذ قطرب أيضا عن عيسى بن عمرو النحو، كما أخذ عن النظام مذهبه الاعتزالي، توفي سنة (206هـ) في خلافة المأمون[7].
3. الناشئ، تتلمذ على يد سيبويه والأخفش، رجل يعرف بالناشئ وهو أبو عبد الله بن محمد المعروف بابن شرشير الناشئ الكبير، وجد في مراتب النحويين[8]، أنه وضع

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 56
(2)- مراتب النحويين، ص: 69، طبقات النحويين، ص: 67
(3)- أخبار النحويين البصريين، ص: 49
(4)- الفهرست، ص: 78
(5)- نفسه
(6)- إنباه الرواة، ج3، ص: 219
(7)- الكتاب، ج1، ص: 16، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 56، الفهرست، ص: 76
(8)- مراتب النحويين، ص: 85، الكتاب، ص: 16، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 57

كتبا في النحو قبل أن يستلمها وتؤخذ عنه، أخبرنا محمد بن يحي قال: سمعت محمد بن يزيد يقول: لو خرج علم الناشئ إلى الناس لما تقدمه أحد، وتوفي بمصر سنة (293هـ)[1].

هذا عن الذين تتلمذوا على يد سيبويهمباشرة، وكما سبق الذكر فهم قلة، إما لأنه لم يجلس إلى التعليم طويلا، أو لعل قلة تلاميذه ناجمة عما يذكرون من أنه كانت في لسانه حبسة، قال معاوية بن أبي بكر العليمي: "عمرو بن عثمان قد رأيته، وكان حدث السن، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل بن أحمد، وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو وكانت في لسانه حبسة، ونظرت في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه"[2].

ويذكر الفراء في شأن سيبويه قائلا: "فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح، سمعته يقول لجارية له: هات ذيك الماء من ذاك الجرة، فخرجت من عنده فلم أعد إليه"[3].

ويرى عبد السلام هارون "أن تلك الحبسة على ما يبدو من مبالغة في تصويرها، هي التي دفعته إلى التأليف، وتنحت به عن مقام الأستاذية الواسعة إلى مقام التأليف البارع المقتدر الذي يجانبه فضول القول وفضول الفكر"[4].

أما الذين تتلمذوا عليه بقراءة كتابه على تلاميذه وغيرهم فهم:

1. المازني أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية، يقال إنه درس كتاب سيبويه على الأخفش الأوسط، وكان يقول: "من أراد أن يصنف كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي"[5]، ومن مؤلفات المازني: تفاسير كتاب سيبويه، الديباج من جامع كتاب سيبويه[6]، يقول المبرد: "ولم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان"[7]، يقصد

(1)- وفيات الأعيان، ج1، ص: 362، الكتاب، ص: 16، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 57

(2)- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص: 67

(3)- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج1، ص: 138

(4)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 17

(5)- أخبار النحويين البصريين، ص: 50

(6)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 57

(7)- بغية الوعاة، ص: 203

المازني، وقيل إنه أخذ عن الجرمي ثم اختلف إلى الأخفش، وكان يعظم كتاب الله، ويظهر أنه كان شديد التمسك بعقيدته الإسلامية، متدينا يبذل كل شيء من أجل كتاب الله[1].

وعن أخلاق المازني يقول المبرد: "إنَّ ذَميًّا قَصَدَ أبا عثمان ليقرأ عليه كتاب سيبويه، وبذل له مائة دينار على تدريسه فامتنع أبو عثمان من قبول بذله، قال: فقلت له: جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك وشدة ضاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا آية من كتاب الله، ولست أرى أن أمكِّنَ ذَمِيًّا"[2].

ويحكى أيضا أن كتاب سيبويه تخرق في كم المازني[3]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طول مصاحبة المازني للكتاب، توفي سنة (247هـ)، وقيل سنة (248هـ) [4].

2. أبو عمر الجرمي: يقال إنه قرأ كتاب سيبويه على الأخفش الأوسط، وبذلك يكون أبو عمر والمازني قد استطاعا نشر كتاب سيبويه بين الناس وإذاعته[5]، يقول ابن الأنباري: "ويقال إن أبا الحسن الأخفش لما رأى أن كتاب سيبويه لا نظير له في حسنه وصحته، وإنه جامع لأصول النحو وفروعه استحسنه كل الاستحسان، فيقال إن أبا عمر الجرمي وأبا عثمان المازني -وكانا رفيقين- توهما أن أبا الحسن الأخفش قد هم أن يدعي الكتاب لنفسه، فقال أحدهما للآخر: وكيف السبيل إلى إظهار الكتاب ومنع الأخفش من ادعائه؟ فقال له: أن نقرأه عليه، فإذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنه لسيبويه، فلا يمكنه أن يدعيه، وكان أبو عمر الجرمي موسرا وأبو عثمان المازني معسرا، فأرغب أبو عمر الجرمي أبا الحسن الأخفش وبذل له شيئا من المال على أن يقرئه وأبا عثمان المازني الكتاب، فأجاب إلى ذلك، وشرعا في القراءة،

(1)- بغية الوعاة، ص: 203

(2)- نفسه، ص: 266

(3)- نفسه، ص: 203

(4)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، خديجة الحديثي، ص: 58

(5)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها

وأخذا عنه، وأظهرا أنه لسيبويه، وأشاعا ذلك، فلم يمكنا أبا الحسن أن يدعي الكتاب، فكانا السبب في إظهار الكتاب أنه لسيبويه"[1].

وتشير الكتب إلى أن أبا عمر الجرمي كان كصاحبه المازني صاحب دين وورع وتقى، توفي سنة (225هـ) في خلافة المعتصم[2].

3. الفراء: يرى معظم النحاة والمؤرخين أن الفراء هو المؤسس الحقيقي لمدرسة الكوفة النحوية[3]، كان رجلا متدينا متورعا على تيه فيه وتعظيم، ولما توفي سنة (207هـ) وجدوا كتاب سيبويه تحت رأسه[4].
4. الكسائي: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، تعلم النحو على الكبر، ويقال إنه حمل إلى أبي الحسن الأخفش خمسين دينارا وقرأ عليه كتاب سيبويه سرا[5]، توفي الكسائي سنة (183هـ)[6].

وهناك الكثير ممن درس كتاب سيبويه واستفاد منه حتى إن أهل الأندلس كانوا يسألون النحويَّ عندهم، إذا كان قرأ كتاب سيبويه عظموه، وإلا اعتبروه جاهلا إذا لم يفعل، وكأنهم جعلوا حفظ الكتاب واستظهاره منافسة[7].

هذه إذن سيرة سيبويه، وربما يعترض قائل على أني ترجمت لسيبويه، لأن الكتب لا تخلو من التعرض لحياة الرجل، فهو أشهر من نار على علم، كيف لا وهو إمام النحاة؟ وكيف لا وهو شهيد النحو وحجة البصريين؟ ومع هذا فقد ترجمت له لا للتعريف به وإنما لحاجة أريد تحقيقها، ولهدف أصبو إليه، زد على ذلك أن المقام يقتضي هذه الترجمة حتى تكون الدراسة شاملة متكاملة، وبعد هذا سنلقي نظرة على كتابه.

---

(1)- نزهة الألباب، الأنباري، ص: 92

(2)- المصدر نفسه، ص: 101

(3)- أبو زكرياء الفراء ومذهبه في النحو واللغة، د. أحمد مكي الأنصاري، القاهرة، 1964، ص: 59

(4)- مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي، ص: 74، الفهرست، ص: 10

(5)- المصدر نفسه، ص: 74

(6)- نزهة الألباب، ص: 47

(7)- بغية الوعاة، السيوطي، ص: 312

▪ الكتاب وآراء العلماء حوله:

إن علم النحو هو من أقدم علوم العربية وضعا، ولقد سبقت البصرة إلى فتح بابه ووضع أسسه، وتأليف الكتب فيه، إذ بدأ أبو الأسود الدؤلي (ت69هـ) بضبط المصحف الشريف للتمييز بين حركات الإعراب المختلفة[1]، كما نسب إليه وضع أول فصول النحو بتوجيه من علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه–[2]، ثم توالى من بعد ذلك تلاميذ أبي الأسود الدؤلي... إلى أن كان عيسى بن عمر الثقفي (149هـ) فوضع في النحو –كما سبق الذكر– كتابين هما: "الجامع" و"الإكمال أو الكامل"، أثنى عليهما تلميذه الخليل بن أحمد الفراهيدي بقوله[3]:

بَطَلُ النَّحْوِ جَمِيعًا كُلُّهُ غيرُ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ
ذَاكَ إِكْمَالٌ وَهذَا جَامِعٌ وَهُمَا للنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرٌ

غير أن الزمن عوض عن هذين الكتابين الذي لم يصلنا منهما ثني –عوض عنهما– بمعجزة القرن الثاني، بالخليل نفسه (ت175هـ) بعد أن قضى شطرا من عمره يشافه الأعراب ويحفظ عنهم، معملا في ذلك فكره، يستقرئ ويستنبط، يقيس ويعلل، ولكنه لم يضع في ذلك كتابا، ولكن ثمار قياسه ونظراته وتعليلاته آتت أكلها في كتاب تلميذه الثقة "سيبويه (ت180هـ)" الذي سار في لقاء أبناء البادية والأخذ عن فصحائها سيرة شيخه الخليل "الذي كان يحفظ نصف اللغة"[4]، حتى قال المبرد: "إن المفتشين من أهل العربية ومن له المعرفة باللغة تتبعوا على سيبويه الأمثلة، فلم يجدوه ترك من كلام العرب إلا ثلاثة أمثلة منها: الهندلع وهي بقلة، والدرداقس وهو عظم القفا، وشمنصير وهو اسم أرض"[5].

---

(1)- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، ص: 12

(2)- المصدر نفسه والصفحة نفسها، بغية الوعاة، ج2، ص: 22

(3)- المصدران نفسهما، ص: 25، ج2، ص: 237

(4)- أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص: 31

(5)- المنصف، شرح أبي الفتح ابن جني لكتاب التصريف للمازني، تح: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1954، ج1، ص: 31، "شمنصير" في القاموس (شمر)، ج2، ص: 64، جبل لهذيل

ثم عكف على وضع كتابه، ملتزما مراجعة أستاذه الخليل، ينقل أقواله ويستضيء برأيه في كثير مما جاء في كتابه من مسائل النحو، ولقد أنف الذكر أنه كلما قال: (وسألته) أو (قال) أو ما أشبه ذلك، فإنه يعني شيخه الخليل.

لقد أحدث كتاب سيبويه منذ حياته شغفا وولعا كبيرين للبحث فيه وكشف خباياه، إذ أقبل عليه المشتغلون في إكبار وتعظيم، بما يتميز به من أمانة في النقل، وغزارة في المادة، وتنوع في الأساليب الفصيحة، في حسن تقليب لها، ونظر فيها، وموازنة بينها، ثم من ذوق في الاختيار وتوخ للمعنى، والتزام جانبه بقوة فيما يختاره ويأخذ به من وجوه، بعيدا عن الأحكام المسبقة والقواعد المطلقة، بما يفتح ذهن القارئ، ويأخذ به ليشارك في استنباط هذه القواعد التي تهتدي في دروبها -بين هذا الجم الغزير من الشواهد والنصوص- بالذوق ودقة النظر، وحسن التمييز معتمدا في ذلك نصوص القرآن الكريم وطرفا من الحديث الشريف، والشعر العربي الموثوق به وما سمعه من كلام الأعراب وأقوالهم[1].

ولما توفي سيبويه قيل ليونس بن حبيب: إن سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة في علم الخليل، فقال يونس: "ومتى سمع سيبويه من الخليل كل هذا؟ جيئوني بكتابه، فلما نظر في كتابه، ورأى ما حكى عنه، قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه، كما صدق فيما حكى عني"[2].

وهذه الشهادة من يونس بن حبيب حجة قاطعة على ما أجمع عليه كل من تحدث عن سيبويه، -حتى الذين خالفوه من بعد في بعض المسائل- من أنه ثقة، حافظ صدوق في كل ما يروي، فقبلوا كل ما رواه من غير تردد، ولهذا تبوأ كتابه منزلة رفيعة عند القدامى منزلة لم يتبوأها كتاب مؤلف[3]، وهذا ما يؤكده قول الجاحظ: "لم يكتب الناس في النحو كتابا مثله وجميع ما كتب الناس عليه عيال"[4].

---

(1)- شرح أبيات كتاب سيبويه للسيراطي، تحقيق: د. محمد علي سلطاني، دار العصماء، سورية، ط1، 2010، ص: 04-05

(2)- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، ص: 48، طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص: 49

(3)- منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم، ص: 115

(4)- وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج3، ص: 133

ولقد صدق الجاحظ فيما قاله، وأصاب الحقيقة، لأن الكتاب كان أعظم ما ألف في النحو والصرف وغير ذلك من الدراسات المتناثرة في ثناياه، وما يزال الكتاب محتفظا بقيمته كما كان منذ قرون[1].

ونظرا لقيمة كتاب سيبويه فقد كان يقدم كهدية ثمينة، وهذا ما يؤكده قول الجاحظ: "أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك، ففكرت في شيء أهديه إليه، فلم أجد أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدي إليك شيئا، ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وهذا كتاب سيبويه اشتريته من ميراث الفراء، فقال: والله ما أهديت إليَّ شيئا أحبَّ إلي منه"[2].

ويروى أن الجاحظ لما وصل ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل إحضاره، فقال له: أَوَ ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت هذا ولكنه بخط الفراء، ومقابلة الكسائي، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ، فقال ابن الزيات: هذه أجلُّ نسخة توجد وأعزها، فأحضرها إليه فسر بها ووقعت منه أجمل موقع[3].

وكما تؤكد الرواية أن كتاب سيبويه كان ذو قيمة، فإنها تدل كذلك على أنه كان شائعا، وكان الناس يشترونه ليزينوا به مكتباتهم كيف لا؟ وقد استحق أن يقدم كهدية لوزير أديب؟!

وهكذا نال هذا الكتاب في وقت مبكر أوسع ما يستحقه من اهتمام وإعجاب "حتى صار علما عند النحويين، فكان يقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب، فيعلم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، فلا شك أنه كتاب سيبويه"[4]، وكان أبو عثمان المازني (ت248هـ) يقول: "من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد سيبويه فليستح أو فليستحييه"[5].

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 60

(2)- نزهة الألباب، ص: 73

(3)- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج3، ص: 133

(4)- أخبار النحويين البصريين، ص: 39

(5)- الفهرست، ص: 77

وعن قيمة الكتاب أيضا يحدثنا المبرد: إذ كان يقول لمن أراد أن يأخذ عنه كتاب سيبويه: هل ركبت البحر؟ تعظيما واستصعابا لما فيه[1]، وهذا دليل آخر على أن القدماء كانوا يسمون -الكتاب- بالبحر تشبيها له بالبحر لكثرة جواهره وصعوبة ركوبه.

ولقد سماه الناس قديما "قرآن النحو"[2]، ومن عجيب ما يروى أن أحد نحاة الأندلس وهو عبد الله بن محمد عيسى "كان يختم كتاب سيبويه في كل خمسة عشر يوما"[3]، فكأنما كان يتلوه تلاوة القرآن.

ولعل كل من وقف على الكتاب ونظر فيه بوعي وتجرد، قد بالغ في الثناء عليه وعلى صاحبه، ومن ذلك: "كان سيبويه النحوي غاية الخلق، وكتابه في النحو هو الإمام فيه"[4]، و"هو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سماه الناس قرآن النحو، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل"[5]، و"عمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ولم يلحق به من بعده"[6]، و"له كتاب كبير في النحو وكان علامة حسن التأليف"[7].

يقول الأستاذ حمدي علي المهدي واصفا الكتاب: "هو البحر المتلاطم الأمواج، البعيد الأعماق الذي لا يضاهيه كتاب في النحو قديما ولا حديثا، بل كل الكتب التي ألفت في النحو تستقي منه وتروي عنه، وتعود إليه، فهو مصدرها الأول ومعينها الذي لا ينضب"[8].

ويقول الأستاذ عطية الأبراشي: "كان كتاب سيبويه أول عمل ناضج في علم النحو، وأول كتاب وصل إلينا من تأليف القدماء، فأصبح هذا الكتاب العظيم دستور النحاة قاطبة،

---

(1)- أخبار النحويين البصريين، ص: 39

(2)- مراتب النحويين لأبي الطيب، ص: 65

(3)- بغية الوعاة، للسيوطي، ص: 289، نقلا عن الصفدي

(4)- نزهة الألباب، ص: 84

(5)- مراتب النحويين، ص: 65

(6)- أخبار النحويين البصريين، ص: 48

(7)- تهذيب اللغة للأزهري، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتب العربي، بيروت، 1967، ج1، ص: 19

(8)- الكنوز الذهبية في شرح وإعراب شواهد سيبويه الشعرية، حمدي علي المهدي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ط1، 1964، ص: 74

ودعامة علم النحو، أهم مرجع للبحث والدرس، وكانت دراسَتُه دليلَ البراعة وميزان التحصيل..." [1].

ويحدثنا الزبيدي عن فضل الكتاب قائلا: "إني رأيت علماء النحو في زماننا هذا وما قاربه قد أكثروا التأليف فيه، وأطالوا القول على معانيه، فأملُّوا الناظرين وأتعبوا الطَّالبين بتكرار معان قد بينت، وركوب أساليب قد نهجت، فلم يحل أكثرهم بغير إعادة ما تقدم إليه، والتكثير فيما سبق إلى القول عليه، وقد كان ينبغي لمن هم لذلك منهم أن يتصفح كتاب عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه، فينظر إلى مبادئ وعنوانات أبوابه، ويرى لطائف معانيه ودقائق حجاجه إلى الإيجاز في قوله، والإيعاب لمواده فيزجره ذلك إن كان ذا حجة من تكلف ما لا حاجة إليه، ويمنعه الاعتناء بما لا معول عليه"[2].

ومن قول صاعد بن أحمد الجباني الأندلسي ما يلي: "لا أعرف كتابا ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها، فاشتمل على جميع ذلك العلم، وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب، أحدهما: المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني أرسطو طاليس في علم المنطق، والثالث كتاب سيبويه النحوي البصري، فإن كل واحد من هذه الكتب لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له"[3].

ويروي الزبيدي عن أبي عمر الجرمي صالح بن إسحاق أنه كان يقول: "أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه"[4]، وكان ابن جني يرى أن سيبويه هو صاحب علم العربية، فيقول: "لما كان النحويون بالعرب لاحقين، وعلى سمتهم آخذين، وبألفاظهم متحلين وبمعانيهم وقصودهم آمنين، جاز لصاحب هذا العلم (سيبويه) الذي جمع شعاعه[5]،

---

(1)- سلسلة أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامي، محمد عطية الأبراشي، وأبو الفتوح محمد التوانسي، مطبعة نهضة مصر، 1956، ص: 66

(2)- طبقات اللغويين والنحاة، الزبيدي، ص: 02، الاستدراك على سيبويه، الزبيدي، تح: حنا حداد، دار العلوم، الرياض، ط1، 1987، ص: 01

(3)- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج16، ص: 117

(4)- طبقات النحويين واللغويين، ص: 07

(5)- شعاعه: متفرقة

وشرع أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله[1]، وخلج أقطانه[2]، وزم شارده، وبعج أحضانه[3]، وأفاء فوارده[4]، أن يرى فيه نحوا مما رأوا ويحذوه على أمثلتهم التي حذوا، لاسيما والقياس إليه مصغ، وعنه غير متثاقل"[5].

ورأى فيه المبرد عملا كاملا متفردا في قوله: "لم يعمل كتاب في العلوم مثل كتاب سيبويه، ذلك أن الكتب المصنفة في العلوم مضطرة إلى غيرها، وكتاب سيبويه من فهمه لا يحتاج إلى غيره"[6]، ولم يقتصر هذا الإدراك لأهمية الكتاب على علماء البصرة فقط، بل إن الكسائي رأس الكوفة (ت نحو187هـ) وجد الفوز بأرومة هذا العلم أن يقرأ الكتاب، إذ ورد للأخفش قوله: "جاءني الكسائي إلى البصرة، فسألني أن أقرأ عليه أو أقرئه كتاب سيبويه، ففعلت، فوجه إلي خمسين دينارا"[7].

ولم يكن اهتمام المغاربة والأندلسيين بالكتاب أقل اهتماما من أهل المشرق، فأبو حيان يرى أنهم أكثر اهتماما واعتناءًا به وقياما عليه ودرسا له، كما يرى أن قراءة الكتاب ضرورية لكل من يريد الخوض في علم التفسير، وهو لذلك يقول عن أهل الأندلس والمغرب: "...ومما برعوا فيه علم الكتاب الذي انفردوا بإقرائه منذ أعصار دون غيرهم من ذوي الألباب، أثاروا كنوزه وفكوا رموزه، وقربوا قاصيه، وراضوا عاصيه، وفتحوا مغلقه، وأوضحوا مشكله، وأنهجوا شعابه، وذللوا صعابه، فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب، إذ هو المطلع على علم الأعراب، والمبدئ من معالمه ما درس، والمنطق من لسانه ما خرس، والمحيي من رفاته ما رمس، والراد من نظائره ما طمس، فجدير بمن تاقت نفسه إلى التفسير، وترقت إلى التحقيق

(1)- أغفاله: جمع غفل، وهو ما لا سمة له

(2)- خلج: جذب، وأشطان: جمع شطن وهو الحبل الطويل

(3)- بعج: فتق

(4)- أفاء الفوارد: رجع الشوارد

(5)- الخصائص، لابن جني، ج1، ص: 308

(6)- رسالة أبي جعفر النحاس، 1/أ

(7)- رسالة أبي جعفر النحاس، 2/[، أخبار النحويين البصريين، ص: 40

فيه والتحرير، أن يعكف على كتاب سيبويه، فهو هذا الفن المعول عليه، والمستند في حل المشكلات إليه"[(1)].

وأقدم ممن حفظ الكتاب حمدون النحوي المتوفى بعد المائتين ولعله أول من عرف به[(2)]، ثم كان من أكثر حفاظه في القرن الثالث الهجري الأفشي القرطبي (ت309هـ)، فقد أخذ كتاب سيبويه عن أبي علي الدينوري، وفي القرن الخامس الهجري انصرفت الهمم في الأندلس إلى استظهاره، وكأنهم جعلوا ذلك منافسة، فقد ذكروا أن عبد الملك بن سراج إمام أهل قرطبة (ت489هـ) عكف عليه ثمانية عشر عاما لا يعرف سواه[(3)]، ومنذ ذلك العهد أو قبله ابتدؤوا يقرؤونه ويشرحونه ويملون عليه التعاليق حتى بلغت الكتب التي ألفت عليه شرحا وتعليقا العشرات[(4)].

وإذا كان للمشرف قصب السبق في تقعيد قواعد النحو واستنباط أحكامه بفضل النشاط اللغوي الحثيث الذي عرفته العدوتان وعن طريق المدارس والاتجاهات النحوية، فإن الأندلس قد تلقى قواعد اللغة العربية بمذاهبها الشرقية الثلاثة عن طريق النحاة المهاجرين من بغداد، واتخذوا كتاب سيبويه أساسا للتعليم[(5)]، ويقال إن الأقشينق محمد بن موسى بن هاشم (ت307هـ) هو أول من أدخل كتاب سيبويه وأقرأه لطلابه بقرطبة[(6)].

وقد ظل كتاب سيبويه المعتمد الأساس في أبحاث المغاربة والأندلس، كما ظل محل بحث وشرح وتعليق واستدراك، فقد شرحه الشنقيري يوسف بن سلمان الإشبيلي، كما شرح شواهد الكتاب الشعرية التي تنيف عن ألف بيت ونسبتها إلى أصحابها، كما اعتنى أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي صاحب "النوادر" و"الأمالي" و"المقصور والممدود" و"البارع" وغيرها من كتب اللغة والنحو والأدب، وأبو علي الذي عاش بقرطبة يدرس بها

---

(1)- البحر المحيط لأثير الدين، لأبي حيان الأندلسي النحوي، نشر مكتبة النصر الحديثة، الرياض، السعودية، ج1، ص: 03، أخبار النحويين البصريين، ص: 50

(2)- بغية الوعاة، ص: 312

(3)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها

(4)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 62

(5)- المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط2، 1972، ص: 288-289

(6)- المرجع نفسه، ص: 283

ويملي كتاب سيبويه، بالإضافة إلى الزبيدي الذي ظل يدرس الكتاب ويستدرك عليه كثيرا من المسائل النحوية والصرفية[1].

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الإدارة الفرنسية زمن الاستعمار في المغرب كانت قد وضعت جزءا من كتاب سيبويه ضمن برنامج الإجازة التي نظموها لتخريج حملة الشهادة العربية الأصيلة من الفرنسيين الذين كانوا يعدونهم للترجمة في المستعمرات والبلاد المحمية[2].

وازداد الاهتمام بالكتاب واتسعت دائرته بتقدم الزمن، فعكف عليه الكثير من العلماء عبر العصور، يشرحون نصه وعباراته -أو يقتصرون على شرح أبياته، أو يعنون بالأمرين معا- أو يختلفون معه في مسألة من المسائل الواردة في كتابه، والحديث عن الاهتمام والأخذ والشرح يطول، فقد يفرد له بحث خاص ابتداءًا من نشأة النحو العربي إلى يومنا هذا.

- **تأليف الكتاب:**

لم يشك أحد في نسبة الكتاب إلى سيبويه، وإن لم يظهر في حياته، ويروى أنه لم يقرأه عليه أحد، ولكنه لما مات قرئ على أبي الحسن الأخفش (ت215هـ) من قبل المازني وأبو عمر الجرمي -كما سبق الذكر- خوفا من أن ينسبه الأخفش إلى نفسه، ولم يسند الكتاب إلى سيبويه إلا بطريق الأخفش، وإن كل الطرق التي ترويه لصاحبه مستندة إلى الأخفش.

يفهم من الروايات السابقة أن كثيرا من الناس كان يعلم بتأليف سيبويه لكتابه، ويرجح الدكتور "أحمد بدوي" أن بعض أجزاء الكتاب كان معروفا، وكذلك بعض ما استشهد به من الشعر مستندا إلى الرواية التي تقول: إن الأصمعي وجه بعض الأشعار غير توجيه سيبويه مما اضطر سيبويه إلى مناظرته فيها[3].

---

(1)- تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1974، ج2، ص: 280

(2)- المرجع نفسه، ص: 84

(3)- معجم الأدباء، ج16، ص: 122، مقال: سيبويه، حياته وكتابه، أحمد أحمد بدوي، جانفي، صحيفة دار المعارف للعلوم، مصر، 1948، ص: 21

جاء في مقدمة الكتاب بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون عن تأليف الكتاب: "لا ريب أنه ألفه بعد موت الخليل (ت160هـ)، فإن مخطوطات الكتاب نجد فيها كثيرة التعقيب على قول الخليل بعبارة "رحمه الله" فهذه واحدة"[1].

ونص آخر ورد ذكره كذلك في مقدمة الكتاب، قال: "سمعت نصرا يحكي عن أبيه[2]، قال: قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه: تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل"[3].

ولعل الذي شهد كتاب مولد كتاب سيبويه بحق هو أبو الحسن الأخفش، جاء في المعارف لابن قتيبة، عن الرياشي قال: سمعت الأخفش يقول: كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرضه عليَّ وهو يرى أني أعلم منه، وكان أعلم مني، وأنا اليوم أعلم منه[4].

وهذه الشهادة دليل أن سيبويه كان قد عزم على تأليف كتابه، لذا فلا مجال للشك في نسبة "الكتاب" إليه.

ويمتاز الكتاب بأنه ليس له اسم ولا مقدمة ولا خاتمة، وقد قيل إن سيبويه توفي قبل إكمال تأليفه[5].

- **روايته:**

جاء في مقدمة عبد السلام هارون محقق الكتاب قوله: "ولا ريب أيضا أن سيبويه قد انتفع بعلم الخليل انتفاعا ظاهرا، كما انتفع بعلم شيوخه الذين سبق ذكرهم، ولا ريب كذلك أنه أفاد ممن سبقه من أئمة النحو الذين ألفوا فيه وأثرت رواية فيه"[6]، ونجد عبد السلام هارون يستدل على قوله هذا برواية صاحب الفهرست التي يقول فيها: "قرأت بخط

---

(1)- كتاب سيبويه، ج1، ص: 25، دار الجيل، بيروت، ط1، د.ت

(2)- هو علي بن نصر بن علي الجهضمي، زميل سيبويه ورفيقه في التلمذة على الخليل توفي سنة (187هـ) وابنه نصر راوي الخبر هو نصر بن علي بن نصر بن علي المتوفى سنة (250هـ)

(3)- المعارف الإسلامية، ابن قتيبة، تح: سالم الكرنكوي حيدر أباد، 1353، ص: 138، مراتب النحويين، ص: 69

(4)- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص: 25

(5)- من مناهج البحث في اللسانيات واللغويات المعاصرة، د. هدى حموتشي، ص: 15

(6)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 25

أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل"(1).

ولا يدل هذا النص على أن كتاب سيبويه إنما هو لقاح جهود النحاة الذين سبقوه، وهذه حقيقة علمية حتمية، إذ لا يعقل أن يبتدع سيبويه هذا العلم المتكامل، دون أن يفيد من تلك الجهود الأصيلة التي رسمت كثيرا من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله(2)، قال السيرافي: "وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلما قال سيبويه "وسألته" أو "قال" من غير أن يذكر قائله، فهو الخليل"(3).

وبعد، فلقد سبق الحديث عن الذين قرؤوا الكتاب وعن معظم الذين شرحوه وعلقوا عليه، أو حققوه، وما كل ذلك إلا لعظمة هذا الكتاب الذي لم يترك لا شاردة ولا واردة في علم النحو والصرف وحتى بعض المسائل المتعلقة بالصوتيات وبالبلاغة، إلا ذكرها شارحا ومفصلا، ممثلا ومستشهدا.

- **نشر كتاب سيبويه:**

لقد تم تشر الكتاب أول مرة سنة 1881، يقول محقق الكتاب: "لم يكن نشر كتاب سيبويه بالأمر الهين، بل كان شيئا جليلا له عظيم خطره وضخامة قدره، وهو الذي اقتضاني أن ألقي هنا ضوءا على تاريخ نشره في تفصيل علمي، دارسا للصور التي أداها إلينا الناشرون في قرابة قرن من الزمان، منذ سنة 1881 إلى وقتنا الحاضر"(4).

(1)- الفهرست، لابن النديم، ص: 76
(2)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 25
(3)- نقلا عن الكتاب، ج1، ص: 26
(4)- الكتاب، ج1، ص: 44

وكما أنف الذكر، فقد فصل عبد السلام هارون في كل الطبعات التي قامت بنشر هذا الكتاب ابتداءًا من الطبعة الأولى لصاحب الفضل الأكبر في إحياء هذا الكتاب ألا وهو الأستاذ المستشرق الفرنسي هرتويغ درنبرغ (Hartuig Derembourg)[1]، أستاذ اللغة العربية الفصحى بالمدرسة الخاصة للغات الشرقية في باريس[2]، إلى الطبعة الخامسة (طبعة بولاق، وتلك النسخة المطابقة لها بالطباعة التصويرية بالعراق) بعناية الأستاذ قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد، بالإضافة إلى هذه الطبعة السادسة التي هي من إصدار وتحقيق عبد السلام هارون[3].

- **موضوعات الكتاب:**

جمع سيبويه أكثر من علم من علوم العربية في كتابه كالنحو والصرف والأصوات اللغوية والاشتقاق وغيرها، ويكاد الجزء الأول منه يكون للنحو، وإن تناثرت فيه بعض مسائل الصرف كجمع كلمة أو اشتقاقها أو تصغيرها أو النسب إليها، وترتيب الكتاب ليس كترتيب الكتب المتأخرة، ففي الجزء الأول جمع سيبويه مختلف مصطلحات النحو وشرح كثيرا من مسائله وموضوعاته، وقد بدأ بقوله: "هذا باب علم ما للكلم من العربية" وفيه قسم الكلم إلى: اسم، وفعل وحرف، ثم تكلم عن مجاري أواخر الكلم من العربية، وعلامات الإعراب والبناء، والمسند والمسند إليه وغيرهما من الموضوعات التي أخذ بها النحاة من الكتاب فبوبوها تبويبا جديدا وشرحوها شرحا مفصلا[4].

أما الجزء الثاني فقد ذكر في أوله "باب ما ينصرف وما لا ينصرف"، ثم تكلم عن النسب، وتثنية الصحيح والمنقوص والممدود والجمع بالواو والنون وجمع التكسير، والتصغير

---

(1)- هرتويغ درنبرغ: هكذا عرب اسمه بقلمه، ولد في باريس سنة 1844 وتوفي بها سنة 1908، درس العربية في جامعات ألمانيا ونبغ فيها، فعين أستاذا لها في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة 1879، ثم في مدرسة الدراسات العليا سنة 1885، وعمل بقسم المخطوطات في مكتبة باريس الوطنية حيث قضى أعواما عديدة، من آثاره العلمية: تحقيق ديوان النابغة، كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، والنكت المصرية لعمارة اليمني، والجزء الثاني من فهرس المخطوطات العربية في الإسكوريال، ينظر: المستشرقون، ج1، ص: 213، ومعجم المطبوعات العربية لسركيس، س: 899-900

(2)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 44

(3)- الكتاب، سيبويه، ج1، ص: 56-57

(4)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 66

الذي يسميه التحفيز أحيانا، وتكلم كذلك عن اتصال الفعل بنوني التوكيد، ثم عاد فتحدث عن جموع التكسير مرة أخرى، ثم إنه قد ذكر موضوعات تخص الفعل وغيره من المشتقات وأوزانها، وذكر المصادر من الفعل الثلاثي المجرد، والمزيد والرباعي المجرد، والمزيد أيضا، وفي نهاية الكتاب تكلم عن الإمالة والوقف والتسكين والروم والإشمام، والإعلال والأصوات اللغوية.

ويختلف ترتيب الكتاب -كما أنف الذكر- عن الترتيب الذي يَتَّبِعُهُ المتأخرون، ذلك أنه لم يذكر المرفوعات على حدة، والمنصوبات على حدة، وإنما يخلط بعضها بالآخر، وربما كان لهذا الأمر ما يعلله حينذاك عن سيبويه.

أما مصطلحات النحو فيبدو أنها لم تكن قد استقرت بعد في عهد سيبويه لذلك وجدناه يفرد عناوين طويلة للأبواب، وغالبا ما تكون هذه الأبواب غير مفهومة للقارئ، فيضطره ذلك إلى الرجوع إلى الكتاب يقرؤه كله ليفهم ما رمى المؤلف إليه، ومثال ذلك عنوان التوابع: "هذا باب مجرى النعت على المنعوت، والشريك على الشريك، والبدل على المبدل منه"، وهناك أيضا عناوين طويلة جدا أطول من عنوان التوابع، وكل هذا يدل على أن مصطلحات النحو لم تكن محددة حتى جاء النحاة من بعده فضبطوها وحصروها، وحددوا معانيها[(1)].

المبحث الثاني: منهج سيبويه في عرض موضوعات الكتاب

أ. المنهج لغة:

النهج أو المنهج أو المنهاج لغة: الطريق الواضح، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[(2)].

---

(1)- أبنية الصرف في كتاب سيبويه، ص: 68

(2)- سورة المائدة، الآية: 48

وجاء في "لسان العرب": "نَهجَ: طريقٌ نهجٌ: بيِّنٌ واضحٌ، والجمع نهجات وسبيل، منهج كنهج، ومنهج الطريق: وضحه، والمنهاج كالمنهج: الطريق الواضح"(1).

يتضح من المعاني السابقة أن المدلول اللغوي لمادة (نهج) تعني وضوح الأمر.

ب. المنهج اصطلاحا:

المنهج هو "فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة من أجل الكشف عن الحقيقة"(2)، ويعني كذلك الخطة أو التقنية أو الإستراتيجية التي يرسمها الباحث لنفسه في ترتيب أفكاره، وتوجيه موضوعات بحثه توجيها صائبا وهو ينتقل من نقطة إلى أخرى، ومن قضية إلى تالية من أجل الوصول إلى "استنباط الأحكام العامة والنتائج الكلية والخروج بالمبادئ والنظريات التي تمثل العلوم والمعارف"(3).

وبناءا على ما سبق ذكره، فإن المنهج هو النسق والنظام الذي يتبعه الباحث لعرض موضوعاته وأفكاره وآرائه، وذلك أنه -أي المنهج- يحدد مسارها وينظم ترتيبها، ويصبغ عليها صبغة الوضوح والعلمية.

وإذا كان لكل علم منهجٌ يستعين به في عرض قضاياه، متخذا إياه وسيلة في الارتقاء بأفكاره، فإن لعلم اللغة منهجه أيضا، ويعد المنهج الوصفي في دراسة القضايا اللغوية من أكثر المناهج اللغوية اعتمادا وشيوعا.

وإذا كان مبلغ الإعجاب بالتاريخ عند الغرب يعود إلى كون المنهج التاريخي هو المادة الموجهة للبحث اعتبارا من أن "الطريقة العلمية الوحيدة لدراسة اللغة هي الطريقة التاريخية"(4)، فإن البحث اللغوي عند العرب بدأ وصفيا وفق منهج وصفي دقيق في جمع البيانات اللغوية ثم ملاحظتها ومن ثم استقراء الأصول العامة لها، يؤكد هذا قول الدكتور تمام حسان "إن تاريخ

(1)- لسان العرب، مادة (نهج)

(2)- من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، د. عبد الله ربيع محمود، مجلة كلية اللغة العربية، الإمام محمد بن سعود، السعودية، العدد 09، 1979، ص: 37

(3)- نفسه، ص: 81

(4)- تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، تأليف جورج مونان، ترجمة: بدر الدين قاسم، مطبعة دمشق، د.ط، 1972، ص: 217

دراسة اللغة العربية ليعرض علينا في بدايته محاولة جدية لإنشاء منهج وصفي في دراسة اللغة، يقوم على جمع المادة ورواياتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم"[1].

ولعل اعتماد العرب على منهج وصفي علمي دقيق في دراساتها يعود إلى أن العلوم الإسلامية قد نشأت في مناخ فكري عام هدفه خدمة القرآن الكريم، ولغته التي بلغت أسمى مراتب البيان، ثم إن القرآن الكريم جاء ليحث الإنسان على التدبر والتفكير بميزة العقل التي فضله الله بها عن سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، ومن هنا لا يمكن أن تفصل اللغة عن التفكير، ذلك أن للغات جميعا غرضا واحد هو غرض الأفكار[4]، والأفكار -كما سبق آنفا- تنظم وتتسلل في ضوء منهج معين.

و لم يغب عن علماء العرب الأوائل هذه الحقيقة، فقد أدركوها قبل غيرهم، فاستندوا إليها في دراساتهم، واستنباط أصول اللغة وهذا "تشومسكي" يعترف بجهود علماء اللغة العرب ووصفها بأنها كانت أقرب إلى الإنسان[5]، أي إلى الواقعية البعيدة عن متاهات الفلسفة التي تضفي على البحث اللغوي صفة الخيال وإن كانت الفلسفة هي المنطلق الأساسي لكثير من العلوم التي أصبحت فيما بعد علوما قائمة بذاتها، أي بعدما سارت على منهج محكم ورصين.

وسيبويه، هو المسلم الذي نشأ في ظل بيئة فكرية تشع بالثقافة العربية الإسلامية، وأخذ عن علماء وفقهاء لهم الرغبة الصادقة في إرساء أسس العلوم الإسلامية التي تستظل بفيء الفكر الديني، وتهتدي بالمنهج العلمي الواضح، ووسط هذا الجو العلمي الديني، وجد

(1)- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1989، ص: 22-23

(2)- سورة "ص"، الآية: 29

(3)-سورة الرعد، الآية: 03

(4)- تاريخ علم اللغة، جورج مونان، ص: 47

(5)- النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج)، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، د.ط، 1988، ص: 119

سيبويه سبيله إلى المنهج الذي سيؤلف به كتابه وذلك أن: "معالم منهج واضح كانت تفرض عليه السير بيقظة وحذر في طريق التأليف"[1]، لذلك وصف كتابه بالشمولية والإحاطة بجميع أبواب النحو، ويرى كثير من الباحثين الذين تعرضوا لكتاب سيبويه بالدراسة والتحليل، أن سيبويه لم يستطع أن يقدم هذه الشمولية ضمن منهج قويم وبأسلوب ناصع، إذ أن أول ما يلاحظه الباحث أو يستنتجه هو اضطراب المنهج، ويبدو ذلك واضحا من أول الكتاب الذي هو بلا مقدمة، يوضح سيبويه ضمنها منهجه في التأليف، والخطة التي سار عليها في ترتيب أبواب كتابه، وذلك أنه يمزج أبواب النحو على نسق غير محكم، إذ ينتقل من باب إلى آخر قبل أن يستوفي كل أحكامه، ويطرد هذا الحكم على معظم الأبواب[2].

إن النظر إلى كتاب سيبويه ترك الباحثين في حيرة من أمرهم وهم يحاولون تلمس الطريق الذي نهجه في الدراسة وفي البحث والتنسيق، ومن ثم الترتيب والعرض، حتى ذهب بعضهم إلى القول بأن الكتاب مجموعة من الدراسات المتناثرة في النحو والصرف لا رابط بينها ولا ترتيب[3]، ونعتقد أن هذا الكلام لا يليق برجل عظيم عالم مثل سيبويه، الذي لم يؤلف قبله ولا بعده كتاب في الدراسات اللغوية إلى يومنا هذا، إذ كل الباحثين عيال عليه، ما دام كتابه هو المنبع والمنهل لجل الدراسات اللغوية (نحوية، صرفية، صوتية وبلاغية)، خاصة عند المتأخرين.

إن ركوب "بحر" الكتاب لا يخلو من مخاطر ومحاذير، لأنه أعسر من أن يعطينا من نفسه بيسر وسماحة، ولعل أبرز هذه المحاذير هو التسرع في الفهم عن سيبويه، والخروج باستنتاجات محددة وتعميمها، وذلك أن الباحث في كثير من الأحيان يجد أن ما قرأه في موضع ما، يناقضه أو يخالفه، أو لنقل يختلف عنه كلام في موضع آخر، ومرد ذلك إلى أسباب معروفة لا تحتاج إلى بيان، هي اضطراب المنهج الذي سار عليه سيبويه، بل وإلى تداخل المباحث فيما بينها، الأمر الذي يفضي من جهة إلى صعوبة الخروج من الكتاب في بعض

---

(1)- تطور الدرس النحوي، د. حسن عون، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الجيلاوي، د.ط، 1970، ص: 34

(2)-ابن السراج ومذهبه في النحو (دراسة في كتاب الأصول)، أحمد مطر العطية، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 2009، ص: 251

(3)- تطور الدرس النحوي، ص: 34

الأحيان بأحكام قطعية أو قواعد ثابتة، ومن جهة أخرى إلى احتماله وجوها مختلفة من القراءات والتأويلات لما فيه من تشعب وغنى[1].

وعلى الرغم من اضطراب المنهج، فإنه لا يجدر بنا أن نلوم سيبويه، لأنه لم يكتب مقدمة لكتابه يبين فيها منهجه، وذلك أنه لم يكن من عادة علماء ذلك العصر كتابة مثل تلك المقدمات، ولعل ما كتبه المتأخرون كان حائلا بيننا وبين فهم كتاب سيبويه الذي ألف كتابه في عصر لم تكن مناهج التأليف فيه قد وضحت ولا استقرت، فسار وفق منهج اختطه لنفسه، وفهمه عنه معاصروه ومن جاؤوا بعده[2].

وإذا كان المتأخرون لم يسلكوا في ترتيب موضوعات كتبهم الطريق الذي انتهجه سيبويه (ت180هـ)، إذ فصلوا المباحث النحوية عن المباحث الصرفية فصلا دقيقا وواضحا، مقسمين مباحث النحو إلى أقسام ثلاثة، مبحث الأسماء، ومبحث الأفعال، ومبحث الحروف، وما هو مشترك بين الأفعال والأسماء والحروف، مثل أسماء الأفعال الأصوات[3]، فإن سيبويه قد رتب أبواب كتابه حسب العوامل لا حسب الآثار الإعرابية، يقول علي النجدي ناصف: "نظر سيبويه إلى العوامل فشق المسائل، أما اللاحقون فإنهم نظروا إلى أحوال الإعراب أي إلى أثر العوامل، فقسموا الأسماء إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات، وأفردوا كل موضوع بباب"[4].

ولعل هذا الاختلاف هو الذي دفع بالعديد من النقاد والشراح إلى القول بأن مادة الكتاب مضطربة لم يسر فيها سيبويه على منهج معلوم[5].

إن نظرة فاحصة متأنية في الكتاب، تجعلنا نقر بأن سيبويه قد اتبع خطة واضحة، وتقنية دقيقة، وإستراتيجية هادفة لاسيما في الأبواب التي خصصها للنحو، إذ يصعب بعد

---

(1)- أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبد الله الخالدي، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 2006، ص: 08-09

(2)- شواهد الشعر في كتاب سيبويه، د. خالد عبد الكريم جمعة، مكتبة دار العروبة، الكويت، القاهرة، 1980، ص: 47

(3)- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري (ت528هـ)، ت-بـ: د. علي بلحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993، ص: 05

(4)- سيبويه إمام النحاة، د. علي النجدي ناصف، مكتبة نهضة مصر، بالفجالة، د.ط، د.ت، ص: 179

(5)-أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت، ص: 69

سيبويه وجود كتاب نحوي واضح، يعالج كل القضايا النحوية والصرفية دون أن تتداخل المادة أو تتكرر بشكل من الأشكال، وتجدر الإشارة إلى أن ما نجده في النسخ المطبوعة من كتاب سيبويه، لم يكن هو الذي قسم كتابه على نحوها، وذلك أنه قد دون مادة كتابه في شكل كراريس[1]، وكل كراس يتضمن مجموعة من الأبواب[2].

وفي ذلك يقول فوزي مسعود في كتابه "سيبويه جامع النحو": "إن مادة الكتاب كانت في كراسات بلغت عدة أوراقها ألف ورقة ولم يتمكن صاحبها من جمعها في كتاب"[3].

إذن، لا نغالي إذا قلنا بأن لا أحد استطاع أن يفهم اللغة العربية ويفسرها ويقعدها في ذلك الوقت المبكر كما فعل سيبويه، معتمدا في ذلك على قريحة شيوخه الذين تتلمذ أو أخذ عنهم، وكذلك على ذلك النشاط اللغوي المتمثل في جمع اللغة والاهتمام بالرواية والغريب وما إلى ذلك...، لهذا السبب نعتقد أن كتاب "سيبويه" يستحق منا ومن كل باحث الإطلاع الواسع على ما صدر عنه اللغويون الغربيون، ليس ابتغاء فهم الكتاب وحسب، بل لاستنكاه ما في بطن هذا المؤلف من إشارات وتلميحات ونظرات عميقة جدا في دراسة طبيعة اللغة وتحليلها وربطها بغيرها من العلوم الاجتماعية، وهذا ما يذهب إليه "نهاد الموسى" الذي يرى أن درس العربية من الجانب العربي يظل منقوصا، ومن هنا لابد لنا من "أن نتبصر فيما بلغه الدرس اللغوي الحديث من آفاق"[4].

فلا غرو أن يقول كارتر "Carter": "إن الكتاب يقدم نموذجا من التحليل البنيوي لم يعرف في الغرب حتى القرن العشرين، وهو منهج قريب مما يعرف عند البنيويين بـــ: "تحليل المقومات المباشرة" "Immediate Constituent Analysis"[5].

---

(1)- سيبويه إمام النحاة، د. علي النجدي، ص: 47

(2)- التأريخ النصي للنحو العربي من خلال مفهوم الإضافة، د. عبد السلام العيساوي، منشورات كلية الآداب، منوبــة، دار ســحر للنشــر، تونس، ط1، 2004، ص: 16

(3)- سيبويه جامع النحو العربي، د. فوزي مسعود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1986، ص: 64

(4)- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشــر، بيــروت، د.ط، 1980، ص: 09

(5)- An Arab Grammarian of the Eight Century, Carter Michael G. Jaos, 93, 1973, P: 146

ولا يكتفي "كارتر" بهذا القول، إنما تعد مقالته تلك محاولة لإنصاف سيبويه، وهو يدعو إلى توخي الدقة في تأويل ما جاء به سيبويه أو نقده، مختتما حديثه بقوله: "إنه لو قدر لسيبويه أن يولد في عصرنا لتبوأ منزلته ما بين دي سيوسير وبلوم فيلد[1].

وعلى الرغم من التداخل الجزئي في عدد مباحث المستويات اللغوية، فإن السمة الغالبة على كتابه هي الالتزام المنهجي في تقسيم علوم اللغة "فحسبه أن يضع النحو وقضاياه في جانب من كتابه، ويضع الصرف وقضاياه في جانب آخر[2]، ويضع الصوت وقضاياه في ثالث[3]، موجبا إلى الأصول البلاغية التي استنبطها بعده لغويون وبلاغيون كثر، أمثال: الجاحظ، عبد القاهر الجرجاني، ابن جني، ابن السراج وغيرهم". وأغلب الظنّ أنّ ذلك التداخل الجزئي في المستويات اللغوية، كان مردُّهُ الاستطراد وحاجة المستويات اللغوية بعضها إلى بعض لأنّ "اللغة عنده دائما وحدة متماسكة يفسر بعضها بعضا"[4].

وجملة القول، إن المنهج الذي ميز كتاب سيبويه بعد كل ما ورد، هو المنهج الوصفي المراد به الطريقة التي عالج بها سيبويه الظواهر اللغوية، ومجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي قادته إلى الهدف الذي سعى إليه، بالإضافة إلى الأسس الواقعية التي اعتمدها في تحقيق مراميه، وهي نفسها الأسس التي اعتمدها الغرب فيما بعد على النحو الذي تتبعه سيبويه.

وعلى الرغم من كل ما قيل، وما سيقال من ملاحظات سطحية سيبقى كتاب سيبويه قمة شامخة في ميزان الدراسات اللغوية، وسفرا جليلا من أسفار التراث العربي الخالد، ودستور النحو العربي.

ولو حاولنا التوسع في البحث عن حياة سيبويه، وشيوخه وعصره، وكتابه وقيمته، وعدد طبعاته ومخطوطاته ومن قام بشرحه أو درسه أو التعليق عليه، لما أمكننا الخروج من هذه الدائرة التي سبق إليها غيرنا، ولهم الفضل كل الفضل في ذلك، كابن النديم (الفهرست)،

---

(1)- An Arab Grammarian of the Eight Century, p: 157

ينظر: ترجمة: سارة عبد الله الخالدي، في رسالتها أثر سياق الكلام، ص: 11

(2)- تطور الدرس النحوي عند العرب، د. حسن عون، ص: 34

(3)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. نوزاد حسين أحمد، دار دجلة، عمان، ط1، 2006، ص: 37

(4)- سيبويه إمام النحاة، د. علي النجدي، ص: 158

ياقوت الحموي (معجم الأدباء)، أبي الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد أو مدينة السلام)، وغيرهم كثيرون، إذ منهم من أرخ، ومنهم من درس، ومنهم من شرح، ومنهم من علق، ومنهم من قارن، ولأن مجال بحثي لا يتسع لكل هذا سألتزم بخطة البحث.

المبحث الثالث: أسس منهج سيبويه

1. السماع:

لقد مر بنا أن عرَّفنا السماع بأنه "الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها"(1)، وأن المنهج الوصفي يقوم أساسا على السماع، لأن الخطوات اللاحقة للبحث، إنما تكون بعد جمع المادة اللغوية التي تجري ملاحظتها ودرسها(2).

ولقد اعتمد على السماع علماء اللغة الأوائل في بحثهم، واشترطوا أن يكون الناقل قد سمع من العرب الفصحاء حسا، أو أن يسمع من الناقل حسا(3).

واهتم سيبويه بالمسموع جريا على عادة أساتذته ومنهجهم في وصف اللغة، إيمانا منه بأن اللغة المجموعة عن طريق السماع هي المعين الرئيس للاتصال بناطقي اللغة، وأنها السبيل الوحيد لربط البحث اللغوي بالواقع، ودليل قاطع على صدق الأحكام المستقراة(4).

وسعيا من سيبويه لجمع المادة اللغوية، تنوعت مصادر السماع عنده، بين الأخذ غير المباشر عن طريق أساتذته وشيوخه وعلى رأسهم الخليل، وبين الأخذ المباشر من أفواه بعض العرب الذين ينتمون إلى قبيلة معينة تشعبت أماكن سكنها، أو برجل أو رجلين من العرب، حرصا منه على جمع أكبر عدد ممكن من البيانات اللغوية من اللهجات المنتشرة على الرقعة الجغرافية في الجزيرة العربية.

ويشترط في السماع المباشر أمران هما: الفصاحة والثقة، نحو قوله: "وسمعنا العرب الفصحاء"(1)، و"سمعنا فصحاء العرب"(2)، و"سمعنا من نثق به من العرب"(3)، و"سمعنا من يوثق

---

(1)- أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، ص: 34

(2)- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1958، ص: 166

(3)- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج1، ص: 59

(4)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. سليمان يوسف خاطر، ص: 38

بعربيته"[4]، و"سمعنا بعض العرب الموثوق بهم"[5]، و"سمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به"[6]، و"هذه حجج سمعت من العرب وممن يوثق به يزعم أنه سمعها من العرب"[7]، و"سمعت من أثق به من العرب"[8]، و"سمعنا من نثق به"[9]، و"لو فعلوا ذلك كان قياسا ولكنني لم أسمعه"[10]، و"حدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته ينشد هذا البيت"[11]، و"أنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس يزعم أنه شعر أبيه"[12].

إن المتتبع لهذه العبارات يلاحظ حرص سيبويه على توثيق المسموع، كما يلاحظ دقته عندما لم يسمع بنفسه، فينص على عدم سماعه بقوله كما ترى: "ولو فعلوا ذلك كان قياسا، ولكنني لم أسمعه"[13]، ولقد أطلق على النصوص المسموعة "الشواهد النحوية" لأنها تشهد بصحة القاعدة، وبما استنبطه النحويون من ضوابط على اختلاف مستويات تلك الضوابط.

واشتملت هذه النصوص بناءا على ما جاء في "الكتاب" على القرآن الكريم والحديث الشريف (سنة أحاديث فقط مع عدم الإشارة إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكلام العرب من شعر ونثر.

2. الاستقراء:

هو استخلاص المبادئ العامة التي تنظم الظواهر اللغوية، وعن طريق الاستقراء، يكتسب الباحث اللغوي المعرفة التامة بأسرار اللغة، تلك المعرفة التي تعينه على استنباط

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 219، ج4، ص: 478

(2)- نفسه، ج3، ص: 503

(3)- نفسه، ج4، ص: 465، ج1، ص: 155

(4)- نفسه، ج1، ص: 423

(5)- نفسه: 319-396

(6)- نفسه، ص: 53

(7)- نفسه، ص: 355

(8)- نفسه، ص: 230

(9)- نفسه، ج4، ص: 216

(10)- نفسه، ج3، ص: 572

(11)- نفسه، ج2، ص: 110

(12)- نفسه، ج3، ص: 300

(13)- نفسه، ص: 572

الأحكام وتثبيت القواعد، وحري بالإشارة أن الاستقراء يتطلب "عددا هائلا من البيانات التي يتناولها، وقد تكون هذه البيانات أصواتا عند دراسة الأصوات، أو حروفا أو مقاطع، أو ظواهر موقعية عند دراسة التشكيل الصوتي، أو صيغا عند دراسة الصرف، أو أبوابا نحوية عند دراسة النحو"[1].

ولأن الدراسات اللغوية في المنهج الوصفي "ليست افتراضات توضع أو تثار، ولكنها استقراء"[2]، وجب أن يكون العمل الاستقرائي للأصول لصيقا بالواقع الاستعمالي للغة، وليس الاستقراء بالعمل الجديد بالنسبة للغويين الأوائل، فقد استعانوا به في تتبع كلام العرب، وكون عندهم تجربة علمية رائدة، والعلة في ذلك أن وظيفة الاستقراء "لم يفهمها على حقيقتها أحد مثلما فهمها وطبقها سلفنا الصالح من علمائنا الأولين"[3].

وكتاب سيبويه دليل على اتخاذ علمائنا الأوائل الاستقراء منهجا في معالجة الظواهر اللغوية، خاصة في محاولة الكشف عن أصول اللغة، ولهذا السبب أقام سيبويه بحثه "على تجميع ملاحظات عن الجزئيات ثم استخلاص قاعدة كلية"[4]، وعمله هذا ينسجم مع منهج الاستقراء العلمي الذي "يهدف إلى اكتشاف القوانين العامة التي عن طريقها تفسر ظواهر الطبيعة"[5].

وتظهر هذه الحقيقة المنهجية في أن الكلام العربي مبني ومعرب جاء في "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية"، قول سيبويه: "... وإنما ذكرت لك ثمانية مجار لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة... وبين ما يبنى عليه الحرف بناءا لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ الحرفي، وذلك الحرف حرف الإعراب"[6].

(1)- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، ص: 160

(2)- اللغة بين العقل والمغامرة، د. مصطفى مندور، مطبعة أطلس، القاهرة، الناشر منشأة المعارف، الإسكندرية، 1974، ص: 91

(3)- الاستقراء في اللغة، د. عدنان محمد سلمان، مجلة المجتمع العلمي العراقي، بغداد، المجلد 24، ج3، 1983، ص: 203

(4)- اللغة بين العقل والمغامرة، د. مصطفى مندور ص: 55

(5)- الاستقراء والمنهج العلمي، د. محمود محمد فهمي زيدان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1998، ص: 75

(6)- الكتاب، ج1، ص: 13

واعتمادا على استقراء كلام العرب توصل سيبويه إلى نتائج علمية موضوعية وضوابط ثابتة لوظيفة البنية داخل الكلام/التركيب، وتوصل باستقراء بنية الكلمة العربية في كلام العرب إلى أنها تتألف من عنصرين أحدهما (الصوامت) والآخر (الصوائت)، ولا تخلو كلمة من (الصوائت) وهي الحركات الطويلة (الألف، الواو، الياء) والقصيرة (الفتحة، الضمة، الكسرة)، يدل على ذلك كلامه: "فأما الأحرفُ الثلاثة فإنهن يكثرن في كل موضع ولا يخلو منهن حرف أو من بعضهن... ثم ليس شيء من الزوائد يعدل كثرتِهِنَّ في الكلام، هُنَّ لكل مَدٍّ، ومنهنَّ كل حركة... وكثرتهنَّ في الكلام وتمكنهنَّ فيه زوائد أفشى من أن يحصى ويدرك"[1].

ويقر الدكتور "عدنان سلمان"، بأن أول من استقرى حروف الزوائد هو سيبويه وقد عقد لها أبوابا كثيرة في كتابه بدأها "هذا باب علم حروف الزوائد"[2]، فبين عدتها ومواضع زيادتها في الأسماء والأفعال، وقد جاء بعده علماء كثيرون لم يستطيعوا أن يستدركوا عليه شيئا[3].

والأمثلة على مدى حرص سيبويه على استقراء مادته اللغوية عزيزة عن الحصر، وليس غريبا أن يهتم سيبويه بربط استقراء مادته بالواقع اللغوي، وتعزيز الأصول المستقراة بالشواهد المستعملة فعلا في كلام العرب، ليطمئن إلى سلامة نتائج الاستقراء، لذلك كان يلجأ إلى القول: "هذه حجج سمعت من العرب وممن يوثق به، يزعم أنه سمعها من العرب"[4]، وقوله أيضا: "وتصديق هذا قول العرب"[5]، و"يدلك على ذلك قول بعض العرب"[6].

(1)- الكتاب، ج4، ص: 318

(2)- نفسه، ص: 235

(3)- الاستقراء في اللغة، د. عدنان محمد سلمان، ص: 203

(4)- الكتاب، ج1، ص: 255

(5)- نفسه، ج3، ص: 503-506

(6)- نفسه، ص: 364

ومن عباراته التي تفصح عن اطراد الظواهر اللغوية، قوله: "التنوين والنون عربي مطرّد"[(1)]، و"جاز هذا في الأزمنة واطرد فيها، كما جاز للفعل أن يكون صيغة"[(2)]، و"الاعتلال هو الكثير المطرد"[(3)]، ولعلنا نستشف من هذه العبارات أن سيبويه يكون قد ألزم نفسه في الاستقراء بمنهج صائب لصيق بالواقع، متصف بالعلمية، لأن الاستقراء يقوم على الاطراد[(4)].

وعلى الجملة، فقد أتاح الاستقراء لسيبويه أن يصف ويتتبع ما سمعه وما لم يسمعه بنفسه من كلام العرب، وما توصل إليه من أحكام وأصول مبني كله على الاستقراء، وكأنه استفاد من المنهج الاستقرائي الوصفي لضبط أنماط الكلام العربي.

3. التصنيف:

هو وسيلة منهجية تأتي بعد مرحلة جمع البيانات اللغوية وتراكم المعارف في ذهن الباحث بفعل الملاحظة الدقيقة للظواهر اللغوية، يتوسله الباحث للتعامل مع ما جمعه بغية معالجته في فئات، ولا نعتقد أن كتاب سيبويه بعيدا عن هذا العمل المنهجي في وصف اللغة، إذ معالم التصنيف جلية واضحة من أول باب إلى آخره.

كيف لا!؟ وقد هداه عمله التصنيفي إلى معرفة أقسام الكلم حين قال: "فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"[(5)]، وعلى أساس التصنيف قسم الكلام من حيث الجنس[(6)]، والعدد[(7)]، والزمن[(8)]، وبين كذلك لواحق الأسماء[(9)]، ولواحق الأفعال[(10)]، وقد ميز بينها بشكل دقيق وتحرى العلاقة بين شكل البنية وما يكون له من دلالة ومن ذلك قوله:

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 197

(2)- نفسه، ج2، ص: 117

(3)- نفسه، ج4، ص: 346

(4)- الاستقراء والمنهج العلمي، د. محمود محمد فهمي، ص: 77

(5)- الكتاب، ج1، ص: 12

(6)- نفسه، ص: 17-20

(7)- نفسه، ج1، ص: 17-18-19، ج4، ص: 220-230

(8)- نفسه، ج1، ص: 12، 136، ج3، ص: 07

(9)- نفسه، ج3، ص: 335

(10)- نفسه، ج4، ص: 279-282 وما بعدها

"ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: (النَّزْاوَن) و(النَّقِرَان)، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع ومثله (العَسَلان) و(الرتكان)..." [1].

وإذا كان الصوت هو الآلة التي تكشف عن أفكار المتكلم نطقا، فإن عزيمة وفطنة سيبويه لم تقف عند المستوى النحوي أو الصرفي للغة، وإنما تعرض كذلك إلى تصنيف أصوات اللغة فوصف مخارجها وبين صفاتها، موضحا الوظائف التي يقوم بها كل صوت في التشكيل الصوتي، يدلنا على ذلك قوله: "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم وهو بزنة المتحرك"[2].

وبناءا على مبادئ ونظريات الدراسات اللغوية الحديثة، يمكننا القول بأن سيبويه قد اعتمد في عمله التصنيفي بشكل عام على وسيلتين أساسيتين هما: الاستبدال والتحويل[3]، فقد صنف "أضربا من الكلم تصنيفا واحدا، أي ينسبها إلى باب واحد، أو معنى نحوي واحد وفق خطة الاستبدال بقطع النظر عن امتداد بينتها الصرفية"[4]، يدعم هذا الرأي قول سيبويه نفسه: "لأن (أن والفعل) بمنزلة مصدر فعله الذي ينصبه"[5]، حيث يصنف (أن يفعل) والمصدر تصنيفا واحدا لإمكانية استبدال أحدهما بالآخر داخل التركيب.

أما التحويل، فقد صنف سيبويه الأبنية الصرفية تصنيفا واحدا، حيث إن (الواو) المسبوقة بالكسرة تحول إلى (ياء) نحو: مِوْزان، ومِوْعاد، فيقال: ميزان وميعاد، إذ البنية التحتية هي (الواو) والبنية السطحية هي (الياء)[6]، وكذلك (الواو) إذا تحركت (الياء) التي قبلها ساكنة تقلب (ياءا) نحو: قيَّامٌ، ديَّارٌ، فالبنية العميقة لهما هي: قَيْوام ودَيْوار[7].

---

(1)- الكتاب، ص: 14

(2)- نفسه، ص: 436

(3)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. نوار حسن أحمد، ص: 62

(4)- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر الحديث، د. ناهد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص: 31

(5)- الكتاب، ج3، ص: 124

(6)- ينظر: الكتاب، ج4، ص: 335

(7)- ينظر نفسه، ج4، ص: 367

4. المصطلحات:

أساس "كل نشاط علمي أيا كان نوعه"(1) هو المصطلحات، وتعني كلمة الاصطلاح: "اتفاق جماعة على أمر مخصوص"(2)، ويشترط في كل مصطلح "وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة كبيرة كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي"(3)، على أن تنسجم المصطلحات مع منطق العلوم، وتعبر عن مضامين أفكارها، وألا تدل إلا على مدلول واحد، وأن هذه الدلالة يجب أن تكون جامعة مانعة، وأن يكون لفظ الاصطلاح مختصرا حتى يسهل تداوله(4).

ولأن كتاب سيبويه "يعد أول موسوعة عربية تجمع المعارف اللغوية من شتى نواحيها"(5)، فمن المسلم به أن تكثر فيه المصطلحات التي تخص علوم اللغة بكل مستوياتها كما هو قار في الكتاب (نحو، صرف، تركيب، دلالة، أصوات) غير أن جانبا من تلك المصطلحات لم يكن مستقرا في عهد سيبويه، وذلك أن "أي مصطلح علمي جديد لا يستقر ويعبر عن مضمونه إلا بعد أن يستقر ذلك العلم، وتشيع مصطلحاته، وتثبت بتتابع الدارسين عليه، وتعهدهم إياهم بالاستعمال، وتصقله الألسن والأقلام فيثبتوه أو يغيروه أو يضعوا ما هو أدل منه على مضمونه وما أطلق عليه"(6).

وسواء تشعبت المصطلحات عنده، أو لم يتضح بعضها، وسواء طالت الأبواب أو قصرت، وسواء عبر عن الفكرة بأكثر من مصطلح، فإن كل المصطلحات التي احتواها الكتاب عربية الأصل، مما دعا المستشرق الفرنسي (جيرار تروبو) إلى أن يقول بعد دراسة شاملة لمصطلحات الكتاب، أن عددا وافرا منها "كان تحت تصرف النحاة العرب القدامى، فمن المستحيل أن يكونوا قد احتاجوا إلى اقتباس بضعة من المصطلحات الأجنبية، يونانية

(1)- مناهج البحث في اللغة، ص: 235

(2)-معجم متن اللغة، الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، 1958، ص: 478

(3)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. نوزاد حسن أحمد، ص: 63

(4)- اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، ص: 161

(5)-أول كتاب في نحو العربية، د. حسن عن، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، مجلد 01، ديسمبر 1957، ص: 39

(6)-المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مطبعة جامعة بغداد، 1406هـ/1986م، ص: 114

كانت أم سريانية"[1]، ولذلك وجدنا المستشرق الإنجليزي (كارتر) يؤكد بأن المصطلحات التي استعملها سيبويه في كتابه هي مصطلحات عربية الأصل[2].

5. القياس:

إذا كانت المعيارية تعتمد المنطق الأرسطي أساسا في البحث اللغوي عند الغرب، فإن الوصف يرفض هذا المنطق لأنه بعيد عن الاستعمال، لكنه في مقابل ذلك يلجأ إلى القياس الطبيعي الذي يعتمد على منطق اللغة، وهذا القياس هو الذي اعتمده العرب في أبحاثهم، إذ منهج البحث عندهم في العلوم بشكل عام، قد استمد "مقوماته من حضارته العلمية، بحيث كون طابع تلك الحضارة الأساس وجوهرها الوحيد"[3].

وسيبويه ذلك الفتى الذي "وفد إلى البصرة في صدر شبابه لم يكن يحمل معه إلا قدرا زهيدا من المعرفة السطحية غطى على جوهره القرآن وحفظه، وتحصيل الثقافة العربية، وشيوخ سيبويه ليس فيهم متفلسف أو متمنطق حتى يقال: إنه نقل إليه منطق أرسطو أو فلسفة اليونان"[4]، وبناءا على هذا المناخ الفكري الإسلامي كثر القياس في الكتاب، وذلك أن "الجانب التطبيقي لعلم اللغة الوصفي يظهر بوضوح عندما تكون بياناته قابلة للقياس"[5]، غير أنه قياس فطري "لا أثر فيه للتعمق وهو مجرد مشابهة شيء بشيء، أو اعتبار هذا الشيء بذاك من غير مزج لذلك بالقضايا المنطقية أو صلة بالمسائل العقلية البحتة"[6].

إن المتتبع لقياسات سيبويه في الكتاب، يكتشف أنها بعيدة عن التفكير الذهني المرتبط بالمنطق والفلسفة لارتباط تلك القياسات بالواقعية المتصلة اتصالا مباشرا بكلام العرب، ومتابعة الظواهر اللغوية الجارية على ألسنتهم، ولذلك فقد اتخذ سيبويه من كثرة الاستعمال

---

(1)- نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، جيرار تربو، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 1، العدد 01، بغداد، كانون الثاني 1987، ص: 136

(2)- An Arabgrammar, Carter, p: 146

(3)- مناهج البحث عند مفكري الإسلام، د. علي سامي النشار، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط، 1947، ص: 03

(4)- المنهج اللغوي في كتاب سيبويه، د. عبد الصبور شاهين، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العددان 3-4، كانون أول 1973، ص: 810

(5)- An introduction to descriptive linguistics, H. Galeasson, New York, 1961, p: 236

(6)- أبو علي الفارسي، حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره في القراءات والنحو، د. عبد الفتاح شلبي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1987، ص: 219

والفصاحة مستوى صوابيا يعبر عن اللغة القياسية، قال: "ومما جرى نعتا على غير وجه الكلام: (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ)، فالوجه الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم، وهو القياس"[(1)]، وقال أيضا: "وقد اختلفت العرب في (من) إذا كان بعدها ألف وصل غير ألف اللام فكسره قوم على القياس، وهي أكثر في كلامهم، وهي الجيدة"[(2)].

فالملاحظ، أن شرط سيبويه في القياس أن يكون مصدره العرب الموثوق بعربيتها، وإذا لم يتوافر هذا الشرط، لم يلتفت إليه قال: "ولو أن هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتها تقوله لم يُلْتَفَتْ إليه"[(3)]، لذلك فالقياس الذي اعتمده سيبويه قياس لصيق بالواقع بعيد عن التصور والتخيل، التزم فيه عدم الخروج عن كلام العرب، وعباراته: "وكان ذلك أحسن من أن يجيئوا به على ما ليس من كلامهم"[(4)].

6. الموضوعية:

إن "وظيفة اللغوي هي وصف الحقائق لا فرض القواعد"[(5)]، وعلى هذا الأساس، فالموضوعية هي أصل من أصول البحث الوصفي، ومن هنا وجدنا سيبويه قد اتخذ من الموضوعية أساسا يستند إليه في منهجه الذي يشترط أن يكون بينه وبين الواقع جذور مشتركة، لأنه "كان يعالج موضوعه على أنه طريقة العرب في كلامهم"[(6)]، قال: "ولم يؤخذ ذلك إلا من العرب"[(7)]، وقوله أيضا: "وكل هذا ما سمعنا العرب تتكلم به"[(8)]، والمواطن التي يصرح فيها سيبويه بدراسته للغة على طريقة العرب كثيرة.

ومما يؤكد موضوعيته كذلك؛ حرصه الشديد على أن تكون الأحكام اللغوية جارية على كلام العرب، ولذلك فإن المنهج الوصفي الحديث يرى أن "وظيفة اللغوي هي وصف

(1)- الكتاب، ج1، ص: 436

(2)- نفسه، ج4، ص: 154

(3)- نفسه، ج2، ص: 20

(4)- نفسه، ج3، ص: 434

(5)- المنهج الوصفي عند سيبويه، ص: 74-75

(6)- Sibawaihis principle of grammatical analysis, M. Carter, Oxford University an Briphished, 1968, p: 157

(7)- الكتاب، ج1، ص: 237

(8)- نفسه، ص: 327

طريقة كلام الناس بلغتهم، وليست التحكم في كيفية الكلام، لأن علم اللغة الوصفي وصف وليس حكما"[1]، وهذه الحقيقة تثبت ريادة سيبويه في التزام الموضوعية، وأنه سبق علم اللغة الوصفي الحديث بقرون طويلة[2]، يؤكد ذلك قوله: "فأجريتها على ما أجرتها العرب"[3]، وقوله: "فأجريته على كلام العرب"[4].

ولعل كل قارئ لكتاب سيبويه، سيجزم لا محالة أن صاحب الكتاب يصف الحقائق اللغوية كما هي في الواقع، يظهر ذلك جليا في دعوته متكلم اللغة إلى الالتزام بالأحكام المستقاة منها، لأنها ضوابط تجري على سنن كلام العرب ولا يجوز تعديها أو تجاوزها[5]، يدعم هذا الاستنتاج قوله: "فليس لك في هذه الأشياء إلا أن تجريها على ما أجروها ولا يجوز أن تريد بالحرف غير ما أرادوا"[6]، وقوله كذلك: "فإنما ينتهي فيها حيث انتهت العرب"[7]، وقوله: "فإنما تجريها كما أجرت العرب، وتضعها في المواضع التي وُضِعْنَ فيها ولا تدخلنَّفيها ما لم يدخلوا من الحروف"[8].

وفي الكتاب أدلة كثيرة على التزامه بالموضوعية وعلى عدم إطلاقه أحكاما فرضية بعيدة عن الاستعمال الواقعي للغة، وعلى أن شمولية منهجه قد غطت استعمالات الكلام في بيئات لهجية متنوعة، أسد[9]، تميم[10]، الحجاز[11]، قيس[12]، بكر بن وائل[13]، طيء[14]،

(1)- Introduction to theoretical linguistics, J. Lyons, Cambridge University Press, 1968, p: 143

(2)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 75

(3)- الكتاب، ج1، ص: 334

(4)- نفسه، ج3، ص: 430

(5)- المنهج الوصفي، ص: 76

(6)- الكتاب، ج1، ص: 218-266

(7)- نفسه، ص: 252

(8)- نفسه، ص: 330

(9)- نفسه، ج4، ص: 125-177-178

(10)- نفسه، ج3، ص: 277-278-180

(11)- نفسه، ص: 278-534-535

(12)- نفسه، ج4، ص: 125

(13)- نفسه، ج3، ص: 535-536

(14)- نفسه، ج4، ص: 181-192

(15)- الكتاب، ص: 181

بنو سليم[1]، وخثعل[2]، وهذيل[3]، وعمله هذا يتفق مع مبادئ المنهج الوصفي الحديث الذي يدعو إلى أنّ "الوصف يجب أن يغطي الظواهر اللغوية المستعملة والمنبوذة في البنية الاجتماعية"[4].

ومن العبارات التي تدل على استعمال سيبويه لكلمة "الوصف" ما جاء على لسانه في كثير من المواضع، نحو قوله: "إلا أنه على ما وصفت لك"[5]، وقوله: "وجميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل رحمه الله، ويونس عن العرب"[6]، وقوله: "فما تحرك من السواكن كما وصفت لك"[7]، وقوله: "ومما تتبعه هذه الزيادة من المتحركات كما وصفت لك"[8].

ولقد تنبه سيبويه إلى أنه من غير المعقول أن يكون الوصف كافيا لدراسة الظواهر اللغوية، لذلك فقد تجاوز الوصف في نظرته إلى اللغة إلى التفسير والتحليل، وبيان كيفية تفاعل اللغة مع محيطها الاجتماعي الأوسع في ربطها بمواقف الكلام (السياق) ليتهيأ لمتكلم اللغة معرفة ما يقوله فعلا وفهم ما يقوله[9]، ويتفق ذكاءه الخارق هذا مع المنهج العلمي الصائب، الذي أثبت أن تطور العلوم "لا يقوم على وصف ما يحدث بل على وصفه وتفسيره"[10].

ولا يعتقد أن سيبويه لم يلجأ إلى هذا المنهج العلمي بدليل أنه يربط تفسيراته بواقع اللغة في كثير من عباراته الواردة في الكتاب، مثل قوله: "فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا

---

(1)- نفسه، ج1، ص: 124

(2)- نفسه، ص: 226

(3)- نفسه، ج4، ص: 440

(4)- Introduction Reading on langage, S. Anderson, United State of America, 1969, p :332

(5)- الكتاب، ج1، ص: 47

(6)- نفسه، ج2، ص: 214

(7)- نفسه، ص: 419

(8)- نفسه، ص: 421

(9)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 79

(10)- الاستقراء والمنهج العلمي، ص: 149

ثم فسر"[1]، ونحوه: "وإنما حملناه على تفسير (لبيك) و(سعديك) لنوضح به وجهَ نصبها"[2]، والمتتبع لنصوصه الخاصة بالتفسير والتحليل يستنبط أنها قائمة على المشابهة والتفريق بين استعمالات الكلام، ومن الطبيعي أن تفسر اللغة من لدن باحث مضطلع بأسرار اللغة، لأن "اللغة ظاهرة معقدة جدا، يحتاج وصفها وتفسيرها إلى ذاكرة مبدعة ومهارة فائقة"[3]، والمتفحص لكتاب سيبويه يستخلص أن صاحب هذا الكتاب مالك لناصية اللغة، غير أن التفسير بحاجة إلى مقدرة ذهنية لتوليد أمثلة جديدة منسقة مع أصول اللغة[4].

ونشير إلى أن أمرا مهما كهذا (حاجة التفسير إلى القدرة الذهنية) لم يفت سيبويه، لذلك فبعد الوصف والتفسير عمد إلى "التمثيل"، حيث كان يدعم أحكامه بأمثلة أو جمل مصنوعة من أجل توضيح نتائج أعماله، واقتراحه هذا يعبر عن القابلية اللغوية لدى متكلم اللغة على توليد جمل جديدة على غرار أصول التراكيب المستقراة في ذهنه، وهذا ما يعرف بالقواعد التوليدية (Generative Grammar) في اللغة التي تذهب أن جمل اللغة الإنسانية غير متناهية، وأن معرفة أية لغة تتضمن القابلية الضمنية على استيعاب عدد لا متناه من الجمل[5].

والكتاب خير دليل على تقنية التمثيل التي لجأ إليها سيبويه، والدالة على توليد جمل مصنوعة قصد هذه التقنية ومن ذلك قوله: "إنما ذكرت هذا للتمثيل"[6]، ومثله: "فالتمثيل على ما ذكرت لك"[7]، ويترل التمثيل عند سيبويه على مترلتين مختلفتين، إذ بعضه من كلام العرب (أي سمع من العرب) وبعضه الآخر تمثيل ولكن لا يتكلم به، أي: إنه كان يستعين به قصد

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 266

(2)- نفسه، ص: 353

(3)- Discoveringgrammar, H. Jackson Pergamon, press Great Britain, 1982, p: 116

(4)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 01

(5)- ينظر: جوانب من نظرية النحو، نوام تشومسكي، ترجمة: يعقوب بكر، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص: 8-9-39

(6)- الكتاب، ج2، ص: 387

(7)- نفسه، ج3، ص: 47

التفسير والتحليل من غير أن يكون معطى لغويا[1]، وذلك أن المنهج الوصفي يلتزم بالمستعمل الأصلي، وينهى على الاستعاضة بالتمثيل عن المعنى الأصل[2].

ومن العبارات التي تدل على وعي سيبويه بخطورة التمثيل وبفائدته في التوضيح والتحليل، وتمييزا له عن الاستعمال ما يلي: "وهذا تمثيل ولا يتكلم به"[3]، و"هذا تمثيل وإن لم يتكلم به"[4]،و"هذا تمثيل وإن كان لا يستعمل في الكلام"[5]، "وهذا تمثيل ولكنه لم يستعمل في الكلام"[6]، و"لا يستعمل في الكلام ولكن مُثِّلَ به"، وقوله: "فهذا يوضح لك وإن كان لا يتكلم به".

هذه إذن، أهم أسس منهج سيبويه في الكتاب والتي تنطبق تماما مع المناهج اللغوية الحديثة وعلى رأسها المنهج الوصفي، وبعد هذا العرض المفصل لحياة سيبويه وعصره اللغوي، والكشف عن منهجه في الدراسة، أصبح من الممكن التعرض إلى تقنيات التبليغ عند سيبويه، ولكننا قبل ذلك سنتعرض إلى مبحث: سيبويه والنظرة الاجتماعية للغة، وذلك أن طبيعة موضوع الأطروحة توجب علينا البدء بهذا المبحث لمدى ارتباطه الوثيق بالتواصل اللغوي بكل أشكاله، وبكل تقنياته.

المبحث الرابع: سيبويه والنظرة الاجتماعية للغة

أ. اللغة والكلام:

يميز علم اللغة الوصفي في منهجه بين اللغة والكلام، إذ اللغة مظهر اجتماعي، بينما الكلام هو ذلك العمل الفردي المقصود، حيث تكتسب اللغة وجودها الفعلي من خلال هذا الكلام الذي هو "نشاط يجري على شروط اللغة"[7].

(1)- ينظر: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 82

(2)- نقد نظرية النحاة في النداء، د. جميل علوش، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد 07، 1985، ص: 29

(3)- الكتاب، ج1، ص: 312، ج2، ص: 118، ج3، ص: 28

(4)- نفسه، ج1، ص: 375-376، ج2، ص: 171

(5)- نفسه، ج1، ص: 353

(6)- نفسه، ص: 374

(7)- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ط، 1979، ص: 139

والاتجاه الذي سار على هديه سيبويه في دراسة اللغة بمستوياتها المعروفة (نحوية، صرفية، تركيبية، دلالية، صوتية) يؤكد وجود اللغة من خلال الاستعمال، أي من خلال التداول الفعلي لها، يتضح هذا جليا في الكتاب، حين يقول سيبويه: "المعارف الغالبة أكثر في الكلام وهم لها أكثر استعمالا"[1]، وقوله: "ومن كلامهم أن يجري الشيء على ما يستعمل في كلامهم"[2]، وقوله أيضا: "وإن لم يستعملوا هذا في كلامهم"[3]، وقوله كذلك: "ولا يستعمل في الكلام"[4]، "وإن كانوا لم يستعملوا في كلامهم ذلك"[5].

والكلام حسب سيبويه لا يطلق إلا على النسق الشكلي، الذي يؤول إلى دلالة تتفق مع النظام الذي له وجوده في عقول أفراد المجتمع اللغوي، وهذا النظام يعرف عند أهل العربية بالجملة[6]، يقول سيبويه: "واعلم إن قلت في كلام العرب إنما وقعت على أن يحكى بها ما كان كلاما"[7]، وقوله "ولو قال: (ثلاثون اليوم درهما) كان قبيحا في الكلام"[8]، وقوله: "ولو قلت: (كان عبد الله) لم يكن كلاما، ولو قلت: ضرب عبد الله كان كلاما"[9].

وعدم التناسق الشكلي ينتج عنه ما يعرف في الدرس اللغوي الحديث "بالتنافس الدلالي"[10]، ولقد أشار عبد الهادي بن ظافر الشهري إلى أن الدراسات اللغوية تناولها وفق اتجاهين رئيسين هما: اتجاه الدراسات الشكلية للغة، واتجاه دراسات اللغة في السياق التواصلي[11].

(1)- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، ط3، 1408هـ/1988م، ج2، ص: 256

(2)- نفسه، ج2، ص: 281

(3)- نفسه، ج4، ص: 374

(4)- نفسه، ج4، ص: 67

(5)- نفسه، ج3، ص: 275

(6)- المسائل العسكريات في النحو، الحسن بن أحمد أبو علي النحوي (377هـ)، دراسة وتحقيق: علي جابر المنصوري، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1، 1982، ص: 41

(7)- الكتاب، ج1، ص: 122

(8)- نفسه، ج2، ص: 158

(9)- نفسه ص: 90

(10)- جوانب من نظرية النحو، تأليف (نوام تشومسكي)، تر: مرتضى سعيد باقر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، د.ط، 1986، ص: 103

(11)- إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص: 05

وبالنظر إلى هذين الاتجاهين العامين عند العرب، وجد أنهم قد استعملوا الاتجاه الشكلي في تقعيد النحو العربي[1]، إلى حد ما، لاسيما في مرحلة التأسيس لدى سيبويه الذي أشار إليه في "باب الاستقامة من الكلام" و"الإحالة"[2]، إذ فرق بين التركيب النحوي في الجملة وقبول دلالتها اللغوية مقسما إياها إلى: مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب[3]، يؤكد هذا قوله: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة... فأما المستقيم الحسن، فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدا، وأما المستقيم المحال، فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا، وسآتيك أمس[4].

يلاحظ معظم النقاد اللغويين من نحويين وبلاغيين أن سيبويه يستعمل مصطلح الكلام بمفاهيم نحوية ولغوية عدة، وفي مقدمتها الجملة، إذ كل ما ذكره في الباب السادس من الكتاب وهو "باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، يعد تراكيب تكوّن جملا بالمصطلح النحوي مستقلة مبنى ومعنى[5].

كما قد يعني بمصطلح الكلام، الكلمة أو الكلمات المفردة أو الكلم، وقد يدل مصطلح الكلام أيضا على العبارة اللغوية أو على أداء الناس للغة، كما قد يعني به التركيب اللغوي الصحيح أو الخاطئ ويعني كذلك اللغة.

وفي مساواته للكلام باللغة، يقول: "العباد إنما كلموا بكلامهم"[6]، والمراد بكلام العباد هو لغتهم القارة في عقولهم، وذلك أن اللغة منظومة من الأحكام، والقواعد مركوزة في عمل الجماعة التي تتحدثها، ولذلك ألفيناه يستعمل مصطلح الكلام، بمعنى اللغة والممارسة العملية للنظام اللغوي أي أداء اللغة، ومن هذا القبيل قوله: "لكثرة النداء في كلامهم"[7]، وقوله أيضا:

---

(1)- في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمايرة، عالم المعرفة، جدة، ط1، 1404هـ/1984م، ص: 85

(2)- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1982، ج1، ص: 25-26

(3)- إستراتيجيات الخطاب، ص: 05

(4)- الكتاب، ج1، ص: 25

(5)- معالم التفكير في الجملة عند سيبويه، د. محمد عبدو فلفل، دار العصماء، بيروت، ط1، 2009، ص: 32

(6)- الكتاب، ج1، ص: 331

(7)- نفسه، ج2، ص: 209

"اختص النداء بكذا لكثرته في كلامهم"[1]، وقوله: "وليس كل شيء يكثر في كلامهم يُغَيّر عن الأصل"[2]، فلفظ الكثرة يدل على الممارسة والأداء اللغوي، أي ممارسة الناس لكلامهم القار في عقولهم بلغتهم التي اعتادوا عليها.

وإن صح ما لاحظناه، فإن سيبويه يكون قد ألم بحقيقة التفريق بين اللغة والكلام، ذلك التفريق الذي بينه منهجيا "فردينان دي سوسير" وأقام عليه نظريته في دراسة الظاهرة اللغوية[3].

ب. عناية سيبويه باللغة المنطوقة:

إذا كنا قد ألمحنا إلى الأداء اللغوي، فذلك لنبين مدى اهتمام سيبويه باللغة المنطوقة، لأن التغيرات اللغوية تظهر على اللغة المنطوقة بشكل أدق[4]، وتظهر هذه الحقيقة بوضوح في المستويات اللغوية: الصوتية، الصرفية والنحوية.

1) ففي مجال الأصوات "لا يمكن القيام بوصف الأصوات إلا على عمل فعل النطق"[5]، حتى يتمكن الباحث من تصنيف وتحديد موضع (مخرج) كل صوت الذي لا يتم إلا عن طريق النطق.
2) وفي المستوى الصرفي، يتبين أثر اللغة المنطوقة في نبر الكلمات، وكما هو معروف فالنبر هو "بروز صوت واحد أو مقطع معين داخل بنية الكلمة قياسا بالأصوات أو المقاطع الأخرى"[6].

---

(1)- الكتاب، ج2، ص: 211

(2)- نفسه، ص: 213

(3)- اللغة والكلام في التراث النحوي العربي، بحث للدكتور محمد سعيد صالح ربيع الغامدي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 34، العدد 03، العام 2006

(4)- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: د. عزيز يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق العربية، بغداد، د.ط، 1981، ص: 43

(5)- المرجع نفسه، ص: 57

(6)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 44-45

3) وفي مجال النحو تساعد الكلمة المنطوقة المتكلم على أن يعبر بتركيب نحوي واحد عن معان مختلفة، وهذا ما يعرف بالتنغيم الذي "يؤدي وظيفة نحوية مهمة تخدم علم اللغة الوصفي في ميدان دراسة التراكيب النحوية"[1].

وبعد هذا التوضيح لأهمية اللغة المنطوقة في الدراسات اللغوية بكل مستوياتها، تجدر الإشارة إلى مدى وعي سيبويه لهذه الأهمية، إذ وجدناه من خلال كتابه قد اعتمد اللغة المنطوقة في استقراء الأصول اللغوية (من سماع وقياس).

ومن مظاهر اعتناء سيبويه باللغة المنطوقة ذكره أن اختلاس الحركة في نحو: (يضربها) و(من مأمنك) "تحكمه لك المشافهة[2]، وما الاهتمام بالتماثل الصوتي والاختلاف الصوتي والإدغام والإمالة، والإشمام وغيرها من التعبيرات الصوتية التي يتحكم فيها النطق إلا دليل على مدى اهتمام سيبويه باللغة المنطوقة التي ستكون هي المنطلق الأساس لعملية التبليغ.

إن إيلاء سيبويه العناية للغة المنطوقة توكيد لمنهجه الوصفي الذي سار على هديه، وبيان للعادات النطقية المختلفة التي يمكن ملاحظتها على لسان المتكلمين بها على اختلاف لهجاتهم، بالإضافة إلى تقريره أن اللغة المنطوقة في سياقها الاجتماعي -كما سنرى لاحقا- تختلف عنها في حالة استقرارها كتابة.

وانطلاقا مما سبق، وبإطلاعنا على كتاب سيبويه في بعض طبعاته القديمة، وكذا الحديثة أمكننا إحصاء بعض الألفاظ التي تكّرر ذكرها في سائر أجزاء الكتاب، هذه الألفاظ التي تمثل في ذاتها عناصر العملية التبليغية عند سيبويه، وهي كالآتي:

(1)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 45

(2)- الكتاب، ج4، ص: 202

اللفظة	عدد مرات ورودها	اللفظة	عدد مرات ورودها
كلام	277	نوى	13
متكلم	23	التبس	64
مخاطَب	86	التباس	43
مخاطبة	11	ملتبس	11
خاطب	10	استعمال	52
أخبر عن	16	مستعمل	32
حديث بمعنى خبر أو إخبار	35	حال (بمعناه السياقي)	368
نية	27	سعة	31

واعتمادا على هذا الجدول يبدو جليا أن معظم المفردات التي تم إحصاءها تتمحور حول: "الكلام"، "المتكلم" و"المخاطب" ولا يخفى على أحد أنها ألفاظ بمعظمها تتعلق باللغة المنطوقة لا المكتوبة، وقلما نعثر في الكتاب على لفظة تشير إلى الكتابة بشتى صورها. أما الألفاظ الأخرى نحو: "التباس" و"ملتبس" و"نية" فإنها تتصل بمدى التفاهم والتواصل والتبليغ الذي يتم بين المتكلم والمخاطب أو انعدام هذا التفاهم[1].

إذن، ومن خلال كل ما ورد من ملاحظات، يمكننا التأكيد مرة أخرى على أن سيبويه كان أكثر اهتماما باللغة الحية التي تجري بين متكلم ومخاطب، أو مجموعة من المتكلمين ومستمعين أو مخاطبين، لأنها اللغة التي أحسن مصاحبتها، وبنى عليها استنباطاته اللغوية وقواعده النحوية، التي أراد تبليغها إلى جمهور المتلقين[2].

ولقد كانت نظرة سيبويه إلى اللغة أكثر رحابة وغنى، ومرد ذلك أنه "درس الطبيعة الاجتماعية للنشاط اللغوي وأثرها في البنية الداخلية للغة، والباحث في الكتاب يستنبط أن سيبويه يركز على مسألة الانتماء إلى جماعة معينة (العرب الفصحاء الخلص، أي من يوثق

(1)- أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبد الله الخالدي، ص: 12

(2)- نفسه، ص: 12

بعربيته)، كما درس التعابير في حالة تفاعلاتها الحيوية التخاطبية، كما نوع في موضوعات المحادثة (التبليغ)" [1].

ويظهر تنوع موضوعات التواصل في كتاب سيبويه بجلاء في أبوابه الكثيرة كتلك التي يعقدها في النعت والبدل على سبيل المثال، حيث يتناول بالنقد والتحليل بعض التراكيب والتعابير التي تتضمن أنماطا مختلفة من النعوت نحو: "مررت برجل صالح بل طالح"، فيقول إن المتكلم قد أحدث تبديلا في الوصف "أبدلت الصفة الآخرة من الصفة الأولى وأشركت بينهما (بل) في الإجراء على المنعوت..."، ثم يواصل قائلا: "ولكنه يجيء على النسيان أو الغلط فيتدارك كلامه، لأنه ابتدأ بواجب"[2]، وفي "باب المبدل من المبدل منه" يقول: "وذلك قولك: مررت برجل حمار فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن، فأما المحال فأن تعني أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل، ثم تبدل الحمار مكان الرجل، فتقول: حمار، إما أن تكون غلطت أو نسيت، فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار بعدما كنت أردت غير ذلك"[3].

يلاحظ من النصين مدى تركيز سيبويه على الكلام المنطوق العفوي الذي يصدر من المتكلم، ويدل على ذلك العبارات الواردة في النصين، إذ ليست جزءا من كلام مكتوب ولا يمكن أن تكون كذلك؛ لأنه داخلها غلط أو نسيان، وهذا لا يحدث إلا مع المتكلم الذي يتدارك خطأه، أو نسيانه فيسرع إلى تصحيحه وتصويبه، وهذا يذكرنا بما يقوله غرايس "Grice" الذي يصف الكلام الحواري بأنه غير مكتمل ومفكك ومتداخل فيما بينه، أما من يكتب فإنه سرعان ما سيصحح الخطأ مهما كان سببه ولن يبقي له أثرًا[4].

---

(1)- سوسيولوجيا اللغة، بيار أشار، تعليق: عبد الوهاب ترو، منشورات عويدات، بيروت، د.ط، 1996، ص: 31-32

(2)- الكتاب، ج1، ص: 434

(3)- نفسه، ص: 439

(4)- ينظر: Introduction to sociolinguistics, Ronald WardHough, Oxford, Black well, 1993, p: 291

يستنتج مما أنف ذكره، أن سيبويه كان يركز جل اهتمامه على اللغة الحية التي تجري بين المتخاطبين، والتي يتواصل بها العرب فيما بينهم، بكل ما يعتريها من خطأ أو تلعثم أو إلغاء لمعنىً ما، أو العدول عنه إلى غيره[1].

ج. مصادر وطبيعة المادة اللغوية في الكتاب:

1) القرآن الكريم:

إن الشواهد والأمثلة التي ساقها سيبويه في كتابه في أغلبها ذات طبيعة حوارية-تخاطبية أو إخبارية-تقريرية، أو تعليمية-توجيهية، بدءا من الآيات القرآنية التي بلغ عددها أربعا وستين وأربعمائة (464) آية، والمكرر فيها أربع وستون (64) آية[2].

هذه الآيات التي كان سيبويه يستخلص منها القواعد النحوية، فتارة يحتج بها، وتارة يحتج لها[3]، وقد ذهب أحد الدارسين إلى القول بأن الآيات الواردة في الكتاب "لم يتخذ معظمها مصدرا للدراسة، بل إنها اعتمدت على نصوص أخرى أهمها الشعر، ثم تساق الآيات بعد ذلك، فكأنما تساق بهدف التقرير والتوكيد لا الاستشهاد"[4].

يفهم من هذا النص، أن سيبويه كان يحتج بالآيات القرآنية لتوضيح القواعد النحوية أو لتقريرها، وربما اكتفى بالتمثيل للقاعدة بآية أو آيتين ثم يعقب قائلا: "وهذا النحو كثير في القرآن" أو "وهذا الضرب كثير في القرآن"[5]، ولكن المهم من كل هذا أن معظم الآيات المحتج بها في الكتاب يتراوح مدلولها ما بين الخطاب المباشر وغير المباشر، وبين الإخبار والتقرير لذلك قال سيبويه بأن "العباد كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون"[6].

---

(1)- أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، د.ط، 1998، ص: 95

(2)- النحو العربي: أصوله وأسسه وقضاياه وكتبه مع ربطه بالدرس اللغوي الحديث، د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، ط1، 2009، ص: 23-24

(3)- نفسه، ص: 23

(4)- الرواية والاستشهاد باللغة، دراسة لقضايا الرواية والاستشهاد في ضوء علم اللغة الحية، د. محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، 1972، ص: 123

(5)- الكتاب، ج1، ص: 74

(6)- نفسه، ص: 331

ولا نعتقد أن الآيات المنتخبة من كتاب الله ليحتج بها سيبويه على قواعده وأحكامه، جاءت عفوية، وإنما اختيارها يعد تقنية لرجل ذكي خبر العرب وأحوالهم واستعمالاتهم للغتهم.

2) الشعر:

حظي الشعر بحظ وافر في الكتاب، إذ يجمع معظم الدارسين والباحثين وبعد عملية إحصائية قمت بها على أن عدد الأبيات في الكتاب قد بلغ ألفا وستة وخمسين (1056) بيتا، غير أن هناك عبارة مشهورة لأبي عمر الجرمي (ت225هـ) يقول فيها: "نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون (1050) بيتا، فأما الألف فعرفت أسماء قائليها، وأما الخمسون فلم أعرف قائليها"[(1)]، وفي طبعة (بولاق) لكتاب سيبويه، يبلغ عدد الأبيات الشعرية ألفا وستة وخمسين بيتا، وربما يكون الجرمي قد غفل عن ستة شواهد ظنها من المكرر وهي ليست كذلك، وذلك أن البيت قد يرد شاهدا في موضع من الكتاب، ثم يرد في موضع آخر مرتبطا بشاهد آخر[(2)].

وهذه بعض الشواهد التي خفيت على الجرمي كقول الشاعر:

يا بُؤْسَ للحربِ التي وَضعَتْ أَرَاهِطَ فاستراحُوا

فلم يرد من هذا البيت سوى قطعة صغيرة، وهي: (يا بؤس للحرب)[(3)].

وربما خفي عليه أيضا قول حسان بن ثابت:

دعُوا التَّخَاجُؤَ وامشُوا مِشيةً سُجُحَا إنَّ الرِّجَالَ ذَوُو عَصْبٍ وتذكيرٍ

فلم يرد من هذا البيت غير قوله: (مِشْيةً سُجُحَا)[(4)].

---

(1)- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد الحسن الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت، ص: 75

(2)- شواهد الشعر في كتاب سيبويه، خالد عبد الكريم جمعة، ص: 116

(3)- الكتاب، ج1، ص: 315

(4)- نفسه، ج2، ص: 315

والحديث عما خفي عن الجرمي أو أهمله أو عده من المكرر يطول، لذلك سأكتفي بهذا القدر، وإنما أردت بهذا التوضيح أن أشير إلى أن مجال البحث في كتاب سيبويه متعدد وواسع ومتشعب لكل من أراد التزود أو الكشف عما جاء في هذا الكتاب الذي يعد بحق مصدرا لكل الدراسات اللغوية، وسبيلا لاكتشاف ظواهر لغوية أخرى لم يتفطن لها بعد.

وإذا كان سيبويه قد أورد هذا الزخم الهائل من الأبيات الشعرية للاستشهاد والاحتجاج بها، ولأنها تصدر من متكلم إلى جمهور من المستمعين قلّ أو كثر، ولأن الشعر كان ديوان العرب خاصة في العصر الجاهلي، وذلك لأن لغته فصيحة نقية لا يشوبها لحن ولا عجمة، ولأن سيبويه أخذ مادته عن شيوخه الفصحاء، فلا جرم أن يستشهد على الأحكام المستنبطة من كلام العرب بأشعارهم التي كانت تلقى في المناظرات، والأسواق، وحلقات الدرس وغير ذلك، مما توفر في ذلك الزمان (عصر سيبويه) من أماكن للإلقاء.

3) كلام العرب المنثور:

لا يكتفي سيبويه في استشهاده بالقرآن الكريم، وبعضا من الحديث (وإن لم يشر إلى ذلك) ولا بالشعر، وإنما تدعوه الحاجة في التأليف والتدليل على قواعده المستنبطة، وأحكامه المستنتجة إلى التعابير والأقوال المستقاة من أقوال العرب (كلام العرب المنثور) وبخاصة ما جاء في أبواب الصرف.

ومن العبارات المروية عن العرب: "اجتمعت أهل اليمامة"، "إذا بلغ الرجل الستين فإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوابَ"، "أرسلها العراك"، "إنها الإبل بل شاءٌ"، "كَلَّمْتُهُ فاه إلى فيَّ"، "ليس خلق الله مثله"، "ما أنا بالذي قائل لك سواء"، وغير ذلك من عبارات. ومن الأمثال: "إلا حَظِيةٌ فلا أَلِيةٌ"، "أمر مُبْكِياتِكَ لا مُضْحِكَاتِكَ"، "شرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ"، "عسى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا"، "كجالب التمر إلى هَجَرَ"، "هذا ولا زعماتك"، وغيرها كثير[(1)].

أما المفردات فهي كثيرة أخذها سيبويه عن شيوخه، أو سمعها من أفواه من يحيطون به، وما كل هذا التوضيح إلا لنبين أيضا أن النحو عند سيبويه لم يرتبط بالقواعد المنطقية الجامدة،

(1)- شواهد الشعر في كتاب سيبويه، د.خالد عبد الكريم جمعة، ص: 46

وإنما كان للمعنى المراد النصيب الأكثر من الاعتبار والتحليل، ولذلك ذهب كارتر إلى القول بأن سيبويه كان ينظر إلى الكلام على أنه شكل من أشكال السلوك الاجتماعي، بدليل أنه أطلق فيه أحكاما أخلاقية أو ثقافية، فهو إما: "حسن" أو "خبيث" أو "قبيح"، شأنه في ذلك شأن أنواع السلوك الإنساني[1].

وعلى ما يبدو من خلال كلام كارتر فإن المصطلحات التي استخدمها سيبويه "حسن"، "خبيث" و "قبيح" يكون قد استمدها من علم أصول الفقه، وذلك لعلمنا "أن علم أصول الفقه هو العلم الذي يهتم أصحابه أكثر ما يهتمون بضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى في الخطاب الذي يتعاملون معه، وهو الخطاب الشرعي"[2].

واعتمادا على نظرة سيبويه إلى اللغة الحية وعلى تفريقه بين اللغة والكلام، وكذا على عنايته باللغة المنطوقة، واحتجاجه في التقعيد النحوي بالقرآن الكريم وكلام العرب شعرا ونثرا، يمكننا تحديد عناصر العملية التبليغية عند سيبويه.

المبحث الخامس: عناصر العملية التبليغية في الكتاب

لقد مر بنا أن تعرضنا إلى عناصر العملية التواصلية بشكل عام، حيث قمنا بتحديد وشرح وتوضيح الوظيفة لكل عنصر داخل سياق الكلام (الخطاب)، وبيَّنا أن غياب طرف من تلك العناصر قد ينجر عنه إعاقة في التواصل أو انعدامه. فهل كان لسيبويه اهتمام بهذه العناصر؟ وكيف يتم لنا الكشف عن ذلك؟

ليس صعبا على كل باحث اطلع على كتاب سيبويه أن يدرك عناصر العملية التبليغية في الكتاب، يساعده على ذلك طبيعة الأمثلة والشواهد التي يزخر بها هذا الكتاب الذي لم يترك لا شاردة ولا واردة من كلام العرب إلا ذكرها وشرحها ووضحها، معللا أو مستدلا.

وعلى هدي الأمثلة والشواهد والأسس (السماع والقياس) التي اعتمدها سيبويه في تأليف كتابه، ندرك مدى اهتمامه بثنائية اللغة والكلام، والمتكلم والمخاطب والسياق، وإن لم

(1)- ينظر: An ArabGrammarian, Carter, p: 146

(2)- المرايا المقعرة، عبد العزيز حمودة، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 2001، ص: 218

يكن قد اصطلح على السياق بهذا المصطلح، وإنما أشار إليه من خلال عدة ألفاظ يتكرر ذكرها في سائر أجزاء الكتاب، كما سنوضح في مبحث سياق الموقف عند سيبويه.

1. عناصر العملية التبليغية في الكتاب هي:

أ. المتكلم

ب. المخاطب

ج. وظيفة الكلام

د. سياق الموقف أو سياق الحال

أ. المتكلم عند سيبويه:

بنظرة فاحصة وقراءة متأنية متمعنة لكتاب سيبويه، يكتشف الباحث أن فيه (الكتاب) فئات ومستويات من المتكلمين يلزم تحديد هويتها حتى تتوضح معالم البحث، وهؤلاء المتكلمون هم:

- **المتكلم الشاعر:**

وهو الذي يترله سيبويه مترلة، خاصة يحتكم إلى شعره، ويتجاوز عن الكثير من "أخطائه" أو "شواذاته"، بحجة أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز للناثر، وأن الضرورات تبيح المحظورات اللغوية، شرط ألا تبيح هذه "الضرورات" قواعد عامة وأحكام قارة، أو تستخدم في الكلام العادي، وبهذا الشأن يقول سيبويه: "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام"[(1)]، "... وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها"[(2)].

يفهم من النص الثاني، أن حرية الشاعر مقيدة بالوجه الذي يريده، وللشعر وجوه كثيرة ترخص للشاعر استخدام ما قد يشذ عن القاعدة، ومن ذلك، الوزن والقافية والتفعيلة وغيرها مما قد يعتري قانون البحور الشعرية من خب وخرم وغيرها.

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 26

(2)- نفسه، ص: 32

وإذا كان سيبويه يتجاوز عن بعض أخطاء أو شواذات الشعراء، فإننا نجده في مقام آخر يضعّف الكثير مما جاء على ألسنة الشعراء، مثال ذلك ما قاله في رجز أبي النجم العجلي:

وَقَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَّارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

وعلة التضعيف في هذا الرجز تكمن في لفظة "كُلُّهُ" التي رأى سيبويه أنه كان يتعين على الراجز أن ينصب (كُلَّهُ) لأن الرفع "لا يَحْسُنُ" أو أن يلحق الهاء بالفعل "أصنع" إن أراد الرفع إذ قوله: "كلُّه لم أصنع" وفقا لسيبويه "ضعيف" وهو بمنزلته في غير الشعر، وذلك أن الراجز لو نصب، فالبيت لا ينكسر ولا يخلّ به ترك إظهار الهاء وكأنه قال: كلَّ غيرَ مصنوعٍ[1].

ونشير في هذا المقام إلى أن عبد القاهر الجرجاني قد أخذ على سيبويه في تضعيفه لهذا البيت، لاعتقاده أن سيبويه لم يلتفت إلى أن "كُلَّ" في حالة الرفع تعني شيئا مختلفا عما تعنيه في حالة النصب[2]، ولكننا نعتقد أن سيبويه ضعف ما جاء في هذا البيت؛ لأنه في الأساس رافض لكل استخدام ضعيف.

- **المتكلم المتعلم:**

دأب سيبويه في الكتاب من أوله إلى آخره يوجه ويعلم المتكلم المخاطب أصول الكلام العربي، وذلك أننا وجدناه في كل حين يطلب منه ترسم سنن العرب في التعبير، والسير وفق قواعد المتكلمين الأصليين للغة، يدل على هذا التوجيه والتعليم أغلب نصوص الكتاب المتضمنة للأمر والنهي والنصح "واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، لأن الأسماء هي الأولى، وهي الأشد تمكنا، فمن ثم لم يلحقها تلوين ولحقها الجزم والسكون، وإنما هي من الأسماء، ألا ترى أن الفعل لابد له من الاسم وإلا لم يكن كلاما والاسم قد يستغني عن الفعل، يقول: "الله إلهنا، وعبد الله أخونا"[3].

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 85

(2)- الدلائل، ص: 215، تح: محمد رشيد رضا، طبعة 1982

(3)- الكتاب، ج1، ص: 20-21

وقوله أيضا: "واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة، فالذي تشغل به كان المعرفة، لأنه حد الكلام، لأنهما شيء واحد، وليس بمنزلة قولك: ضرب رجل زيداً، لأنهما شيئان مختلفان"(1).

وكذلك قوله: "واعلم أنه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضمر بعدما أضمرت العرب... وتظهر ما أظهروا"(2)، و"وقف على هذا الأشياء حيث وقفوا ثم فسر"(3)، "فإنما تجريها كما أجرتها العرب"(4).

وكما أنف الذكر، فإن أغلب نصوص الكتاب تعليمية، توضيحية، تقريرية، إخبارية، وتفسيرية، مقاصد صاحبها كثيرة ومتشعبة، سامية ونبيلة.

- **المتكلم المخطئ:**

قلنا إن سيبويه في الأساس رافض لكل استخدام ضعيف، وإذا كان يأمر وينهي وينصح، فإنه يعمد كذلك إلى تصويب الأخطاء التي تشوب بعض التراكيب الضعيفة أو القبيحة التي يستخدمها بعض متكلمي العربية، ولهذا فهو يبينها بقوله: "واعلم أن ناسًا من العرب يغلطون..." (5)، و"فهذا كلام خبيث ضعيف"(6)، و"تقول...وهو ضعيف خبيث"(7)، "وقال الخليل رحمه الله: لا يقولون، إلا هذان جُحْرَانِ ضَبٍّ خربَانِ، من قِبَلِ أن الضَبَّ واحدٌ والجُحْرُ جُحْرَان، وإنما يغلطون إذا كان الآخر بعدة الأول، وكان مذكرا مثله أو مؤنثا، وقالوا: هذه جِحْرَةُ ضِبَابٍ خربة، لأن الضِّبَابَ مؤنَّثةٌ ولأن الجِحْرَةَ مؤنثة، والعدة واحدة، فغلطوا"(8)، وكثيرة هي المواضع التي يبين سيبويه خطأها وعمد إلى تصويبه.

(1)- الكتاب، ج1، ص: 47
(2)- نفسه، ص: 265
(3)- نفسه، ص: 266
(4)- نفسه، ص: 330
(5)- نفسه، ج2، ص: 155
(6)- نفسه، ص: 124
(7)- نفسه، ص: 318/ ج1، ص: 437
(8)- نفسه، ج1، ص: 437

▪ **المتكلم الثقة:**

وهو العربي الموثوق بعربيته وفصاحة لغته، وخلوها من الأخطاء، والمتكلم الثقة هو المرجع الأساس الذي بنى عليه سيبويه في تأليفه للكتاب بعدما استقر في ذهنه المنهج الذي يسير عليه في إعداد هذا الكتاب، وفي استنباط قواعد اللغة العربية مما سمعه من كلام العرب الموثوق بعربيتهم، بدءا بشيوخه الذين تلقى علومه على يديهم وانتهاءًا بكل عربي فصيح سمع منه هو ذاته، أو سمع عنه من قبل شيوخه، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، وحسب سيبويه فإن كلام هذا "المتكلم الثقة" "يسير وفق القياس، وهو إلى ذلك يملك معرفة حدسية وفطرية بوجوه النحو وحالاته المختلفة دون أن يكون ملما بمصطلحات النحويين، لذا يسند إليه سيبويه كل العمليات اللغوية التي تجري في اللغة والعادات التي يمارسها العرب في كلامهم، وهي كثيرة منها: الحذف والإضمار والاختزال، والاستغناء والاختصار والاستخفاف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير واستحباب أسلوب معين في الكلام على آخر..." [(1)].

ولقد فطن سيبويه إلى تلك التقنيات المتعلقة بكلام العرب وممارساتهم اللغوية، فجعلها جزءا لا يتجزأ من منهجه التعليلي، حتى إنها اختلطت بعلل أخرى تدخل ضمن نطاق العلل السياقية التي تعد بحق من تقنيات وإستراتيجيات التبليغ اللساني من المنظور اللساني الحديث.

وقد أشار سيبويه إلى فئة المتكلمين الثقة في كثير من المواضع؛ وبصيغ مختلفة في كتابه، ومن ذلك قوله: "أنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس..." [(2)]، و"أما العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون..."، و"سمعت من أثق به من العرب"[(3)]، و"سمعناه ممن ترضى عربيته"[(4)]، و"سمعنا العرب الفصحاء"[(5)].

---

(1)- ينظر: الكتاب، ج3، ص: 300

(2)- نفسه

(3)- نفسه، ج2، ص: 186

(4)- نفسه، ج3، ص: 533

(5)- نفسه، ج1، ص: 19، 478

و"سمعنا بعض العرب الموثوق بهم"[1]، و"سمعنا من نثق به من العرب"[2]، والأمثلة عن المتكلم الثقة كثيرة عزيزة عن الحصر.

2. دور المتكلم في بنية الكلام من وجهة نظر سيبويه:

في الكتاب أمثلة أكثر من أن تحصى، تبرز دور المتكلم في بنية الكلام، نورد بعضها لنؤكد -فيما بعد- مدى اهتمام ووعي سيبويه العميق بدور كل عنصر في العملية التبليغية بدءا بالمتكلم الثقة، وهذه الأمثلة هي كالآتي:

1) في الباب الذي عقده في الأفعال التي تستعمل وتلغى مثل ظن وحسب: "وإنما كان التأخير أي تأخير فعل الشك أقوى لأنه إنما يجيء بالشك بعدما، يمضي كلامه على اليقين، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقين ثم يدركه الشك... فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيته من الشك أعمل الفعل... (فيقول) أظن زيداً ذاهباً"[3].

2) "وتقول: قم يدعوك، لأنك لم ترد أن تجعل دعاءه بعد قيامه، ويكون القيام سببا له، وكذلك أردت: قم إنه يدعوك، وإن أردت ذلك المعنى جزمت"[4].

3) "ومن النعت أيضا: مررت برجلٍ لا قائمٍ ولا قاعدٍ، جُرَّ لأنه نعت؛ كأنك قلت: مررت برجلٍ قائمٍ، وكذلك تحدث من في قلبه أن ذاك الرجل قائم أو قاعد، فقلت: لا قائم ولا قاعد، لتخرج ذلك من قلبه"[5].

4) "فقولك: هذا عبدُ الله منطلقًا... فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهو عبد الله، و لم يكن ليكون هذا كلاما حتى يبنى عليه أو يبنى على ما قبله، فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند إليه... [6]، والمعنى أنك تريد أن تنبهه له منطلقًا لا تُرِيدُ أن تعرفَّه عبْدَ الله لأنك ظَنَنتَ أنَّه يجهله..." [7].

(1)- الكتاب، ج1، ص: 319، 336

(2)- نفسه، ص: 423

(3)- نفسه، ص: 120

(4)- نفسه، ج3، ص: 98

(5)- نفسه، ج1، ص: 429

(6)- نفسه، ج2، ص: 126-128

(7)- نفسه، ص: 78

5) "وإن قلت: رأيتُ فأردتَ رؤية العين... فهو بمنزلة ضَرَبْتُ ولكنك إنما تريد بوَجَدْتَ عَلِمْتَ، وبِرَأَيْتُ ذلك أيضا، ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول: رأيتُ زيدًا الصالحَ"[1].

6) "وإن شئت قلت: هوَ خَيرٌ عملاً، وأنتَ تنوي منك... وهذا أوَّلُ رجلٍ (المراد القول)... أول الرجال، فحذف استخفافًا واختصارًا"[2].

7) "وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به: اجتمعتْ أهلُ اليَمَامَة. لأنه يقول في كلامه: اجتمعتِ اليمامةُ، يعني أهْلَ اليَمامَةِ، فأنَّثَ الفعلَ في اللفظ إذ جعله في اللفظ لليمامة، فترك اللفظ يكون على ما يكون عليه في سعة الكلام"[3].

8) "ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جده: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، إنما يريد: أهلَ القريةِ، فاختصر عمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا... ومثل ذلك من كلامهم بَنُو فُلانٍ يَطَؤُهُمْ الطَّرِيقُ، يريدون يَطَؤُهُم أهلُ الطريقِ"[4].

بعد تتبع هذه الأمثلة، لا يحتاج الباحث لكبير عناء ليدرك مدى اهتمام سيبويه بالمتكلم، وبمراده من الكلام، ففي النص الأول، يقرر سيبويه حقيقة مفادها إن نية (غرض/قصد) المتكلم هي التي تحدد إعمال (ظن وأخواهّا) من الأفعال أو إلغاء عملها، ولا يتم ذلك إلا بالنظر إلى حالة المتكلم الذي إذا كان شاكا في كلامه أعمل الفعل، فيقول حينذاك: "أظن زيداً ذاهباً"، أما إذا غلب يقينه على شكه أخر الفعل "ظن" وبدأ يضعف تأثيره في إضفاء معنى الشك، ومن هنا يتوقف بناء جملة الشك وترتيب موضع فعل الظن فيها على خيار المتكلم وإرادته[5].

(1)- الكتاب، ج1، ص: 40

(2)- نفسه، ص: 203

(3)- نفسه، ص: 35

(4)- نفسه، ص: 212-213

(5)- أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه، سارة الخالدي، ص: 23-24

وفي النص الثاني، توحي عبارة "قم يدعوك" بأنها طلبية، ولكن سيبويه يوضح بأن المعنى الذي يريده المتكلم لا يتكشف إلا باستعادة الكلمة المحذوفة التي تحدد نية (قصد) المتكلم وهي كلمة (إنه) فتصبح العبارة: "قم إنه يدعوك" حيث ينتهي معنى الطلب، وإنما تتضمن العبارة بيانا لسبب الطلب بالقيام، أما إذا أراد المتكلم المعنى الطلبي فقد وجب عليه أن يجزم الفعل الثاني "يدعوك".

أما النصان الثالث والرابع، فإنهما يتضمنان هدف المتكلم والغاية التي يرجو الوصول إليها، وهي تغيير وجهة نظر المخاطب والتأثير عليه، وذلك بوصف رجل لا قائم ولا قاعد مما يؤدي بالمخاطب إلى حيرة من أمره، حيث يظن الرجل إما قائمًا أو قاعدا "فتخرج ذلك من قلبه" على حد تعبير سيبويه الذي يسوغ هذا التركيب في جملة النعت (لا قائم ولا قاعد) التي يشبهها بالكلمة المفردة (كأنك قلت: مررت برجل قائم) بالاستناد إلى مراد المتكلم من وراء هذا الوصف(1).

والأمر نفسه بالنسبة للنص الرابع الذي يكشف لنا هو الآخر عن هدف وغرض المتكلم الذي يسعى إلى إيصال معلومة محددة من خلال ذكر الحال في قوله: "هذا عبد الله منطلقا"، فالمتكلم لا يسعى إلى تعريف المخاطب "بعبد الله" بل يريد تنبيهه إلى حال انطلاقه، ولو لم يكن هذا قصد المتكلم ما جاز أن يأتي لفظ "منطلقا" حالا منصوبة، ولعل من نافل القول أن ينبه المتلقي في النص الرابع إلى قدرة سيبويه على دمج منهجين في تحليل اللغة والتقعيد لها، المنهج الأول نحوي صرف، قسم فيه سيبويه الكلام إلى ركنين أساسيين هما: المسند والمسند إليه، والمنهج الثاني بلاغي تداولي، إذ يلتفت فيه سيبويه إلى المعنى الذي تفيده العبارة مشيرا إلى نية (قصد) المتكلم في تنبيه المخاطب إلى مراده من الخطاب؛ وهو أن عبد الله في حالة انطلاق(2).

وفي النص الخامس، يشير سيبويه إلى أن هناك أفعالا لديها أكثر من معنى، يكشف عن ذلك تأثير "حال" المتكلم، ففي عبارة "رأيت زيداً الصالح" إذا كان المتكلم أعمى، كان من

(1)- المرجع نفسه، ص: 26

(2)- أثر سياق الكلام، سارة الخالدي، ص: 26-27

الواضح أن "رأيت" هنا ليس بمعنى الرؤية البصرية، ولكن بمعنى العلم، وعلى هذا الأساس فكلمة "الصالح" هي بمثابة مفعول ثان وليس نعتا لزيد، يستنتج من ذلك أن الفرق بين المعنيين قائم على حقيقة خارجية، وذلك أن "اللغة في نظامها الداخلي الذاتي لا تقيم هذا الفرق ولا تقول به في هذا الموضع بجواز ومنع"[1].

وفي النصوص الثلاثة الأخيرة، يعرض سيبويه مسألة تستدعي الانتباه فحواها؛ إن للمتكلم الحق في الاستخفاف والاختصار في الكلام على أن يبقى المحذوف في "النية"، ففي عبارة "هو خيرٌ عملاً" لعل غرض المتكلم القول: "هو خَيْرٌ مِنْكَ عَمَلاً"، كما في عبارة "هذا أول رجل"، فلعله يريد القول: "أول الرجال" على وجه الاختصار في الخطاب.

وفي باب جواز حذف حرف الجر، يورد سيبويه أمثلة نحو: "اخترت الرجال عبد الله" و"أكلت بلدة كذا"[2]، فالملاحظ أن المتكلم قد حذف حرف الجر "من" بعد الفعلين: "اخترت" و"أكلت" ويعلل سيبويه هذا الحذف بقوله: "... أنه جاز حيث كثر في كلامهم وحذفوه تحقيقا وهم ينوونه"[3]، يوحي هذا التقرير أن العرب كانوا ميالين إلى الاستخفاف والاختصار، وكثر هذا في عاداتهم اللغوية حتى أصبحت هذه المسألة من القضايا التي تستحق التأمل والدراسة لما فيها من طرافة وغرابة في آن، إذ كيف يجوز للمتكلم أن يختصر في حديثه فيحذف حرفا (منك) أو يغير صيغة الكلمة من الجمع (رجال) إلى المفرد (رجل) دون أن يُخِلَّ بالمعنى أو يتجاوز حدود القواعد النحوية[4].

وأمر الحذف والتعديل نفسه ينسحب على النصين السابع والثامن، إذ يجوز للمتكلم أن يؤنث لفظا مذكرا نحو قوله: "اجتمعت اليمامة" حيث حذف المتكلم لفظ (أهل) وذلك أن تقدير الكلام هو: "اجتمعت أهل اليمامة"، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، إذ التقدير حسب المفسرين: ﴿وَاسْأَلْ أَهْلَ الْقَرْيَةِ﴾، وهو حذف جائز في الكلام اتساعا

(1)- نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص: 94

(2)- الكتاب، ج1، ص: 17

(3)- نفسه، ج2، ص: 144

(4)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 28

واختصارا، ويشير سيبويه في هذا الشأن إلى أن الحذف الذي جرى في الآية والعبارة كلتيهما قد أحدث تعديلا في علاقة الإسناد، فأضحت كلمة "القرية" مفعولا به بعد أن كانت مضافا إليه، وتحول لفظ "الطريق" في قولنا "بنو فلان يطؤهم الطريق" من مضاف إليه إلى فاعل، والحذف من أجل الاستخفاف والاختصار أمر معروف ومعتاد عند العرب، يحاول سيبويه دائما أن ينحو على سمتها في كل ما تعلق بكلامها وأداءاتها اللغوية المختلفة، لذلك يشير دائما إلى القول: "... وهو عربي جدي كثير"[1]، إذ تشير كلمة "كثير" إلى الاستعمال.

إن لغة العرب الفصحاء هي المنابع التي استقى منها سيبويه مادته اللغوية وبنى عليها قواعده وأحكامه النحوية واللغوية، فلا عجب إن كان يؤمن بأن ما نطق به العربي "الذي يثق بعربيته" صحيح ومقبول، وإن كان هناك من يخالفه أو يعارضه من نحويين وبلاغيين، لاسيما عبد القاهر الجرجاني الذي تأثر بسيبويه، وانتقى منه مادة مؤلفاته كما سنرى في مبحث لاحق.

وخلاصة هذا المبحث، أنه لو لم يكن المتكلم العربي متيقنا من قدرة المخاطب أو السامع على فهم كلامه على الوجه الصحيح، ما كان ليلجأ إلى الحذف أو الاختصار وغيره من تقنيات التبليغ، وإن كانت هذه التقنيات والإستراتيجيات سليقية وفطرية قبل مخالطة العرب لغيرهم من الأعاجم.

ب. المخاطب:

المخاطب: إن السامع أو المخاطب عند سيبويه لا يشكل ركنا أساسا في تكوين الخطاب فحسب، بل كذلك الأثر البالغ في تحديد بنية هذا الخطاب وعناصره اللغوية، لأنه يمثل العنصر السياقي الرئيس الذي يخول للمتكلم استعمال أساليب مختلفة في التعبير تسمح له بممارسة أعراف لغوية متعددة، اعتمادا على فهم السامع أو المخاطب الذي فطر على هذه الأساليب، والذي يملك والمتكلم سليقة لغوية مشتركة، تعين كل واحد منهما على التفاهم

[1]- الكتاب، ج1، ص: 34

ومنع ما قد يقع من لبس أو خطإ في التفسير[1]، تلك السليقة التي تساهم بشكل كبير في إنجاح عملية التبليغ.

ومراعاة لأهمية عنصر المخاطب في العملية التبليغية لا يسوغ للمتكلم أن يستخدم في كلامه تراكيب مخالفة لما تعارف عليه القوم المتكلمون باللغة، اتقاءاً لالتباس المعنى عليهم، وإذا فعل ذلك فهو من وجهة نظر سيبويه "ملغُزٌ تَارِكٌ لِكَلاَمِ النَّاسِ الَّذِي يَسْبِقُ إِلى أَفْئِدَتِهِمْ"[2]، وذلك أن "كثيرا مما نقوله محكوم بما نعتقد أن المخاطب يتوقعه، وهو الذي دائما نَسْتَبِقُ أسئلته وتساؤلاته"[3].

ولأن للمخاطب في الكتاب شأنا بالغ الأهمية نورد بعض الأمثلة التوضيحية.

1) جاء في "باب الجمع في المنعوت والتفريق في النعت" قوله: "مررت برجلين مسلم وكافر... كأنه أجاب من قال: بأي ضرب مررت؟ وإن شاء رفع كأنه أجاب من قال: فما هما؟ فالكلام على هذا وإن لم يلفظ به المخاطب، لأنه إنما يجري كلامه على قدر مسألتك عنده لو سألته"[4].

2) و"اعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة فالذي تشغل به كان المعرفة، لأنه حد الكلام... يبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر، فإذا قلت: كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك، فإنما ينتظر الخبر، فإذا قلت: حليما فقد أعلمته مثل ما علمت، فإذا قلت: كان حليما، فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة، فهو مبدوء به في الفعل وإن كان مؤخرا في اللفظ، فإذا قلت: كان حليمٌ أو رجلٌ، فقد بدأت بنكرة، ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي يترل به المخاطب مترلتك في المعرفة، فكرهوا أن يقربوا باب لُبْسٍ"[5].

(1)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 31

(2)- الكتاب، ج1، ص: 308

(3)- ينظر: An ArabGrammarian, of the eighthcentury, Carter M. G Jaos, 96, 1973, p :149

(4)- الكتاب، ج1، ص: 432

(5)- نفسه، ص: 47

"وقد تقول: كان زيد الطويل منطلقا، إذا خفت التباس الزيدين... لأنه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك، فالمعروف هو المبدوء، ولا يبدأ بما يكون فيه اللبس وهو النكرة"[1].

3) "هذا باب تخبر فيه النكرة بنكرة، وذلك قولك: ما كان أحد مثلك... وإنما حسن الإخبار هاهنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأن المخاطب قد يحتاج أن تعلمه هذا، وإذا قلت: كان رجل ذاهبًا، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله، ولو قلت: كان رجل من آل فلان فارسا، حَسُنَ، لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه أن ذلك في آل فلان وقد يجهله، ولو قلت: كان رجل في قوم عاقلا، لم يحْسُنْ، لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عاقل، وأن يكون من قوم، فعلى هذا النحو يحسن ويقبح"[2].

4) "هذا باب متصرف رويد، ومن ذلك قولك للرجل تراه يعالج شيئا: رويدا... واعلم أن رويدا تلحقها الكاف... وذلك قولك: رويدك زيدا، فإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعنيبمن لا يعني، وإنما حذفها في الأول استغناءًبِعِلْمِ المخاطب أنه لا يعني غيره، فلحق الكاف، قولك: يا فلان للرجل، حين يقبل عليك، وتركها كقولك للرجل أنت تفعل، إذا كان مقبلا عليك بوجهه منصتا لك"[3].

5) "باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة ولا مصادر لأنه حال... وذلك قولك: كلمته فاه إلى فيَّ، وبايعته يدا بيد، ... واعلم أن هذه الأشياء لا ينفرد منها شيء دون ما بعده، وذلك أنه لا يجوز أن تقول: كلمته فاه حتى تقول إلى فيَّ، لأنك إنما تريد مشافهة، والمشافهة لا تكون إلا من اثنين... ولا يجوز أن بايعته يدا... لأنك إنما تريد أن تقول: أخذ مني وأعطاني... ولا يجوز أن تقول: بعت داري ذراعا وأنت تريد بدرهم، فيرى المخاطب أن الدار كلها ذراع، ولا يجوز أن تقول: بعت

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 48

(2)- نفسه، ص: 54

(3)- نفسه، ص: 244

شائي شاةً شاةً، وأنت تريد بدرهم، فيرى المخاطب أنك بعتها الأول، فالأول على الولاء"[1].

6) "باب من ينتصب لأنه خبر [حال] للمعروف المبني على ما هو قبله من الأسماء المبهمة، ... وذلك أن رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقا، وهو زيد منطلقا، كان محالا، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق و لم يقل: هو وأنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني، إلا أن رجلا لو كان خلف حائط، أو في موضع تجهله فيه، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقا في حاجتك كان حسنا"[2].

7) "يقول الرجل: أتاني رجلٌ، يريد واحدا في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر، أو يقول: أتاني رجل لا امرأة، فيقال: ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك، ويقول: أتاني اليوم رجل أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء، فإذا قال: ما أتاك أحد صار نفيا [عاما] لهذا كله"[3].

8) "وتقول إذا كان غَدٌ فأتني... والمعنى أنه لقي رجلا فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء في غد فأتني، ولكنهم أضمروا استخفافا، لكثرة كان في كلامهم لأنه الأصل لما مضى وما سيقع"[4].

وبعد عرض هذه الشواهد يبدو جليا أن صحة التواصل تفترض حضور المخاطب دائما في ذهن المتكلم، كما يتصور ذلك سيبويه؛ لذلك فقد حرص على أن يأتي بعبارات واقعية لا بأمثلة مجردة بعيدة عن استعمالات العربي الأصيل، وهذا ما يتضح في تعليلاته اللغوية وفي تحليلاته لفئة من التعابير التي نطق أو ينطق بها العرب قياسا[5].

(1)- الكتاب، ج1، ص: 391-393

(2)- نفسه، ج2، ص: 80

(3)- نفسه، ج1، ص: 55

(4)- نفسه ص: 224

(5)- أثر سياق الكلام في سيبويه، ص: 35

فالنص الأول، يتبدى وكأنه مقتطع من حوار واقعي وطبيعي (أو هكذا تخيله سيبويه) يجري بين متكلم ومخاطب أو بين مجموعة من المتكلمين، أحدهم يسأل والآخر يجيب، أو أن أحدهم يبدأ بالكلام والثاني (السامع) يسأله، ولذلك عمد سيبويه إلى تفكيك ما نطق به المتكلم إلى جزأين، الجزء الأول يمثل الكلام الأصلي للمتكلم: "مررت برجلين" والجزء الثاني، يمثل إجابة عن سؤال أو استفسار طرحه أحد المستمعين وإن لم يكن مطروحا بالفعل، وهو "بِأَيٍّ ضرب مررت؟" فيجيب المتكلم: "مسلم وكافر"، وكأن سيبويه قد شعر بأن في العبارة زيادة وتفصيلا سببهما استفسار المخاطب واستزادته لتوضيح المعنى، وقد جاء النعت المفرق هنا مجرورا ليوافق صيغة سؤال المخاطب المفترض "بأي ضرب مررت" حيث تحل عبارة "مسلمٍ وكافرٍ" محل أي ضرب، وقد تأخذ هذه العبارة ذاتها حكما نحويا آخر بالرفع، أي رفع النعتين (مسلم وكافر) إذا كان السؤال المفترض من قبل المخاطب ما هما؟[1].

والمتمعن في باب النعت والمنعوت، يدرك أن سيبويه لم يقف في هذه المسألة عند الحكم الإعرابي فحسب، ولكنه جعل سياق الموقف وتساؤلات المخاطب المفترضة هما المحدد للبنية التركيبية لجملة النعت، يؤكد هذا الإدراك تعقيب سيبويه نفسه على المثال: "مررت برجلين مسلم وكافر" وافتراض أسئلة وإن لم تكن ملفوظا بها من قبل المخاطب؛ إلا أنها بحكم الملفوظة لأنها أمر يقتضيه منطق الكلام كما يراه سيبويه، "فالكلام على هذا وإن لم يلفظ به المخاطب"[2].

ولعل المنهج الافتراضي أو التخيلي لدى سيبويه في استعادة ما حذف من الكلام أو ما "لم يقل" هو الذي أصبح مثار جدل ونقاش من قبل بعض اللغويين والباحثين قديما وحديثا، وهو منحى اعتمده سيبويه في التقعيد والتحليل للتراكيب التي تسير وفق سنن العرب في كلامها، أما التي لا تسير وفق ذلك فينعتها "بالمحال" الذي هو معيار يطلقه على التراكيب التي لا تؤدي معنى منطقيا أو مقبولا بالنسبة للمخاطب، أو يضعفها أو يصفها بالقبح أو الكذب.

---

(1)- أثر سياق الكلام في سيبويه، ص: 36

(2)- نفسه، ص: 37

وفي النص الثاني يوضح سيبويه أن المتعارف عليه عند العرب الفصحاء، أن نبدأ الكلام باسم معرفة "لأنه حد الكلام" لذلك وجدناه يربط صحة تركيب الجملة الخبرية بما يعرفه المخاطب أو يتوقع سماعه، فإذا قال المتكلم "كان زيدٌ" فقد بدأ بما يعرفه هو والمخاطب على السواء، ولكن الكلام غير تام، لذا ينتظر المخاطب الخبر حتى يكتمل المعنى لديه، فيقول المتكلم "حليمًا" وبذلك يكتمل المعنى ويتضح، أما بدء المتكلم بقوله "كان حليما" فإن المعنى لا يستقيم بالنسبة للمخاطب حتى يعرف صاحب هذه الصفة، أما الذي لا يصح ولا يوافق سمت العربية فهو البدء بمبتدإٍ نكرة مثل: "كان رجل" أو "كان حليم" إذ لا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، لذلك إذا التبس على المخاطب قول المتكلم: "كان زيد منطلقًا" لوجود زيدين مثلا، عمد المتكلم إلى توضيحه بالنعت قائلا: كان زيدٌ الطويلُ منطلقا، لرفع كل لبس أو توهم.

وتعقيب سيبويه وتعليله في هذه الأمثلة، ينبهنا إلى وظيفة النعت المعنوية التي تكمن في التوضيح والتحديد، وهي دليل على اهتمام سيبويه بالمعاني والوظائف التي يؤديها النحو في إنجاح التبليغ.

في النص الثالث، من مسوغات مجيء الخبر نكرة لمبتدإ نكرة أن يكون الخبر متضمنا أمرا يحتاج المخاطب إلى معرفته، أو يكون مجهولا لديه، لذلك –حسب سيبويه- تقبل عبارة مثل: "ما كان أحد مثلك" وذلك أن المخاطب لا يحتاج أن تعلمه أمرا كهذا، لكن عبارات مثل: "كان رجل ذاهبا" أو "كان رجل في قوم عاقلا" فإنها "قبيحة" و"لا تحسن"، إذ مدلولها غير واضح، وبالتالي فهي لا تقدم للمخاطب أمرا ذا بال، مع أنها من الناحية النحوية صحيحة، أما في عبارة "كان رجلٌ من آل فلان فارسًا" فمدلولها محدد لدى المخاطب إذ تعلمه أن ذلك في بني فلان إن كان يجهله، وعلى هذا الاعتبار عدَّ هذا التركيب عند سيبويه "حسنًا".

يتعلق النص الرابع بالتفاتة سيبويه لعلاقة المتكلم بالمخاطب من حيث القرب أو البعد المكاني وأثرها في بناء الكلام، بالإضافة إلى أثر "حال" المخاطب وتفاعله مع المتكلم من خلال

هيئته وحركة جسده، واستنادا إلى هذه الالتفاتة وهذه الفطنة التي ليست من نصيب كل دارس أو باحث، نظر سيبويه إلى كلمة "رويد" التي قد تلحق بها الكاف في كلام العرب الفصحاء مشيرا إلى أن هذه الكاف لا تلحق إلا تبعا لوضع المخاطب، فإذا كان التواصل مباشرا بين المتكلم والمخاطب كأن يراه يفعل شيئا، اكتفى بقوله: "رويدًا"، أما إذا كان المخاطب في جماعة وكان هو المعني بالخطاب من بينهم أضاف المتكلم الكاف على نحو: "رويدكَ" خشية التباس من يعني بمن لا يعني.

النص الخامس، إذا كان سيبويه يجيز الحذف والتعديل في بعض المواضع، ويفترض أسئلة وأجوبة في بعض الأبواب، فإنه يمنع الفصل أو الحذف في بعض التراكيب خاصة ما تعلق بأمثال العرب التي ذكرنا بعضها في مصادر مادة سيبويه، إذ وجدناه يشير محللا ومعللا أن هناك بعض التعبيرات لا تأتي إلا مركبة، نحو: "كلمته فاه إلى فيّ" و"بايعته يدًا بيدٍ" وذلك أن فصل بعضها عن بعض، لا مدلول يرجى من ورائه، لأن معنى المشافهة "كلمته فاه إلى فيّ" لا يتحصل إلا بالتواصل بين متكلم ومخاطب، كما أن المبايعة لا تتم إلا بين مشترٍ وبائع، ومن هنا أضحى تلازم هذه التراكيب ضروريا، ومرد ذلك أن مدلولات هذه التراكيب مركبة في مقتضياتها الخارجية، وعلى هذا الأساس فالفصل أو الحذف في مثل هذه التراكيب يجعل المعنى ملتبسا على المخاطب الذي يسعى المتكلم إلى إيصال معلوماته إليه من أجل فعل شيء أو تركه، أو الاقتناع بمدلوله، إذا كان الأمر يتطلب الإخبار فقط أو حتى التواصل العادي الذي لا يرجو منه المتكلم إحداث تأثير أو تغيير، فقط نقل المعلومة إلى المخاطب بلغة سليمة وفصيحة.

ومن خلال التحليل الذي قدمه سيبويه في النص الرابع يتضح للمتلقي بصورة لا يرقى إليها الشك مدى الاهتمام البليغ لسيبويه بالطرق والتقنيات التي كان العرب يستعملون بها لغتهم في تواصلاتهم، ويتحرى غاية الدقة في الوقوف على التعبيرات التي توافقوا عليها وأجازوها، وبتفسير مدلولاتها وتطابق ذلك مع الواقع الخارجي الذي يجيز ذلك أو يمنعه، دون أن يشير أدنى إشارة إلى تدخل القواعد النحوية في تحديد بنية الكلام، وذلك أن التعابير التي أوردها سيبويه في هذا الموضع تعد بمثابة اصطلاحات (Codes) تعارفت عليها تلك "الجماعة

اللغوية" "Langua group" التي تتقن اللغة الطبيعية التي لم يشبها تحريف أو تعديل أو تهجين ومن ثم كان حرص سيبويه الشديد على الأخذ ممن استقامت لغته واتسمت بالصحة والفصاحة[1].

يتضمن النص السادس حديث سيبويه عن نصب الحال للمعروف المبني على مبهم، إذ لا يجوز البتة في كلام العرب أن تخبر شخصا تعرفه ويعرفك قائلا له: "أنا عبد الله منطلقا" أو "هو زيد منطلقٌ" إذ غرض المتكلم ألا تخبر المخاطب بنفسه، وإنما بأمر يجهله هذا المخاطب أو ينتظره، ولذلك فاستخدام الضمير "أنا" و"هو" في العبارتين الآنفتي الذكر مع ذكر الاسم لا يجوز نحويا لأنه يخرق أصول استخدام الضمير، وفي الوقت ذاته لا يتوافق مع انسجام السياق الخارجي (العلامة الشخصية بين المتكلم والمخاطب).

والغرابة في تحليل سيبويه أن المثال نفسه "أنا عبد الله منطلقا في حاجتك" يصلح فيه الضمير؛ والعلة في ذلك هي اختلاف السياق الاجتماعي، باعتبار المتكلم مجهولا بالنسبة للمخاطب وغير مرئي، "كان خلف حائط" في موضع يجهله المخاطب، وعلى هذا الأساس فالفيصل في الحكم على سلامة الخطاب أو عدمه ألا يقتصر على البناء النحوي وحسب، بل يتجاوزه إلى عوامل أخرى معنوية واجتماعية، تجعل من "المحال" في تركيب ما "صحيحا" في غيره.

في النص السابع، ينبهنا سيبويه إلى أنه قد يكون للجملة الواحدة وجوه تفسير متعددة، كما في عبارة المتكلم: "أتاني رجل"، المتضمنة ثلاث احتمالات:

1) أتاني رجل واحد،
2) أتاني رجل لا امرأة،
3) أتاني رجل ذو قوة و لم يأتني ضعيف.

يستنتج من هذه الدلالات أنّ السامع أو المخاطب بناءا على ما فهمه من مقصد المتكلم يستطيعأن ينفي الدلالات الثلاث بجملة واحدة فقط كردة فعل من قبله، وهي "ما

(1)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 41

أتاك أحد"، إذ إن كلمة "أحد" تنفي المعنى نفيا تاما، لذلك ينصحنا سيبويه بعدم استخدامها في حالة الإيجاب.

إن التقنية التي عرض بها سيبويه تباين دلالة الجملة الواحدة وهي الطريقة نفسها التي ذهب إليها فلاسفة اللغة الغربيون ومن بينهم "فتكنشتاين" "Wittgenstein" من أن اللغة هي عبارة عن "ألعاب كلامية" يمارس فيها المتكلمون فنونا مختلفة لإيصال المعنى المراد[1].

وفي النص الثامن، يشير سيبويه إلى أنه إذا كان المخاطب على دراية بالموضوع، فلا حاجة له بالتفصيل في الكلام، إذ يستطيع المتكلم أن يختزل ويختصر في كلامه تبعا لسياق الأحداث التي تكون بينهما، ولذلك وجدنا سيبويه يعلل الاختزال في الكلام على أنه طلب للخفة ولكثرة الاستعمال. يؤكد هذا التعليل قوله: "ولكنهم أضمروا استخفافا لكثرة كان في كلامهم، لأنه الأصل لما مضى وما سيقع".

وبتحليلنا للنصوص الثمانية، اعتمادا على تحليل سيبويه نفسه، وتماشيا مع ما يستلزمه التبليغ اللساني وغير اللساني، وبناءا على مفهوم التواصل ونظرياته وعناصره، ووسائله، يتبين لنا مدى اهتمام سيبويه بالمتكلم وبالمخاطب الذي يمنحه دورا كبيرا في تحديد استقامة الكلام وفي تشكيل خطاب المتكلم، كما أنه يؤكد على أن تفاعل المخاطب مع المتكلم من الناحية النفسية والجسدية له أهمية كبرى في إنشاء الحدث الكلامي، أما المتكلم فثمة قيود على كلامه تفرضها "حال" المخاطب/السامع الذي يتجه إليه بالخطاب"الكلام[2].

إذن، ندرك بجلاء مدى تفطن سيبويه إلى وظيفة اللغة كونها أداة تواصل في طبيعتها، إذ لِكُلِّ عبارةٍ قائلٌ أو مُتَكَلِّمٌ قَصَدَ من وَرائِهَا شَيْئًا، ولابد لهذا القائل من سامع أو مخاطب (ولو متخيل) يفقه معنى ما يتفوه به المتكلم ويدرك الغاية التي إليها قصد، وإذا اعترى النص حذف أو غرابة في التركيب عزا ذلك إلى نية المتكلم وإلى قدرة السامع على الفهم، وقبل ذلك معرفة ما يستطيع السامع فهمه، وحتى تتوضح كل المعالم في الكتاب، دأب سيبويه على تخيل

(1)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 43

(2)- نفسه، ص: 44

الظروف المحيطة بكثير من التغيرات التي نطق بها العرب، بل وعمل على استرجاع حضور المخاطب أو السامع في بعض الأحيان، حتى تكتمل بذلك عملية التحاور أو التواصل(1).

وبعد، فلعل كل مساعي سيبويه في الكتاب وتقنياته من عرض وتحليل، وحذف واختصار، وتخيل وافتراض، وغيرها يوافق ما ذهب إليه أحد الباحثين اللغويين الغربيين الذي يقول: "حينما أتكلم، فأنا أحاول أن أبلغ أمورا معينة لسامعيّ من خلال جعلي إياه يلاحظ نيتي في إيصال هذه الأمور، وأكون قد حققت الأثر المقصود أو المطلوب على السامع، إذا ما جعلته يدرك قصدي"(2).

3. وظيفة الكلام والتقنيات التبليغية المستخلصة من الكتاب:

يقصد بوظيفة الكلام، غرض المتكلم أو الغاية التي يسعى إلى تحقيقها أو الوصول إليها عن طريق الكلام، كأن يريد إخبار سامعه أو مناداته أو أمره بفعل شيء أو تركه أو تغيير سلوك...، وتتعدد الأغراض والغايات بناءا على نية المتكلم وحال المخاطب وفهمه، ولتحديد هذه الوظيفة وعلاقتها بالنحو أورد سيبويه نصوصا نحوية هي كالآتي:

1) "فأما الاسم غير المندوب فَيُنَبَّهُ بخمسة أشياء: بها، وأيا، وهيا، وأي، وبالألف... إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل... وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة غير (وا)، إذا كان صاحبك قريبا منك مَقْبِلاً عَلَيْكَ، توكيدا، وإن شئت حذفتهن كلهن استغناءًا كقولك: حار بن كعب، وذلك أنه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه"(3).

---

(1)- أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه، ص: 44

(2)-Linguisticanthropology, Alessandro Duranti, New York, Cambridge University, Press, 1997, p: 231

(3)- الكتاب، ج2، ص: 229-230

2) "ومما ينتصب في غير الأمر والنهي على الفعل المتروك إظهاره قولك: يا عبد الله، ...، حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم هذا في الكلام"[1].

3) "باب ما ينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره وذلك قولك: سقيًا ورعيًا... وأما ذكرهم "لك" بعد سقيا فإنما ليبينوا المعنى بالدعاء، وربما تركوه استغناءًا إذا عرف الداعي أنه قد علم من يعني"[2].

4) "وهذه حجج سمعت من العرب وممن يوثق به... من ذلك قول العرب في مثل من أمثالهم: "اللهم ضبعا وذئبا" إذا كان يدعو بذلك على غنم رجل، وإذا سألتهم من يعنون قالوا: اللهم اجمع فيها ضَبْعًا وذئبًا، وكلهم يفسر ما ينوي"[3].

5) "وأما المستغاث به فيا لازمة له، لأنه يجتهد، فكذلك المتعجب منه، وذلك يا للناس ويا للماء، وإنما اجتهد لأن المستغاث عندهم متراخ أو غافل والتعجب كذلك، والندبة يلزمها "يا" و"وا" لأنهم يختلطون ويدعون ما قد فات وبعد عنهم"[4].

6) "وأما قولهم: مَنْ ذَا خَيْرٌ مِنْكَ؟ فهو على قوله: مَنِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ؟ لأنك لم ترد أن تومئ إلى إنسان قد استبان لك فضله على المسؤول فيُعْلِمْكَهُ، ولكنك أردت من ذا الذي هو أفضل منك؟ فإن أومأت إلى إنسان قد استبان لك فضله عليه، فأردت أن يعلمكه نصبت خيرا منك"[5].

7) "لو قلت: طعاما لك وشرابا لك ومالا لك، تريد معنى سقيا، لم يجز، لأنه لم يستعمل هذا الكلام كما استعمل ما قبله، فهذا يدلك ويبصرك أنه ينبغي لك أن تجري هذه الحروف كما أجرت العرب وأن تعني ما عنوا بها"[6].

8) "واعلم أنه ليس كل موضع يجوز فيه التعظيم، ولا كل صفة يحسن أن يعظم بها، لو قلت: مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البزاز، لم يكن هذا مما يعظم به

(1)- الكتاب، ج1، ص: 291

(2)- نفسه، ص: 311-312

(3)- نفسه، ص: 255

(4)- نفسه، ج2، ص: 231

(5)- نفسه، ص: 61

(6)- نفسه، ج1، ص: 330-331

الرجل عند الناس ولا يفخم به... فاستحسن من هذا ما استحسن العرب، وأجزه كما أجازته، وليس كل شيء من الكلام يكون تعظيما لله عز وجل، يكون تعظيما لغيره من المخلوقين، لو قلت: الحمد لزيد تريد العظمة لم يجز وكان عظيما"[1].

9) "هذا باب ما ينتصب فيه المصدر... على إضمار الفعل المتروك إظهاره... وذلك قولك: مَا أَنْتَ إلا سَيْرًا، وما أنت إلا الضرب الضَّرْبَ... فكأنه قال في هذا كله: ما أنت إلا تفعل فعلا"[2].

10)"ومما ينتصب في هذا الباب على إضمار الفعل المتروك إظهاره: ﴿اِنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ و"وراءك أوسع لك" و"حسبك خيرا لك" إذا كنت تأمر... وإنما نصبت خيرًا لك أوسعَ ولك؛ لأنك حين قلت: "اِنْتَهِ" فأنت تريد أن تخرجه من أمر، وتدخله في آخر... ولعلم المخاطَب أنه محمول على أمر حين قال له: اِنْتَهِ فصار بدلاً من قوله: اِئْتِ خَيْرًا لَكَ"[3].

11)"الأسدَ الأسدَ، الجدار الجدراَ والصبي الصبيَّ... وإنما نهيته أن يقرب الجدار المخوف المائل، أو يقرب الأسد، أو يوطئ الصبي"[4].

12)"هذا باب ما ينتصب من الأسماء التي أخذت من الأفعال... استفهمت أو لم تستفهم، وذلك قولك: أقائما وقد قعد الناس؟ وأقاعداً وقد سارَ الرَّكْبُ؟ وذلك أنه رأى رجلاً في حال قيامٍ أو حالِ قعودٍ، فأراد أن ينبهه، فكأنه لفظ بقوله: أتقوم قائمًا وأتقعدُ قاعدًا، ولكنه حذف استغناءًا بما يرى من الحال، وصار الاسم بدلا من اللفظ بالفعل"[5].

13)"هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه، تقول: أتاني زيدٌ الفاسق الخبيث، لم يرد أن يكرره ولا يعرفك شيئا تنكره، ولكنه شتمه بذلك"[6].

---

(1)- الكتاب، ج2، ص: 69

(2)- نفسه، ج1، ص: 335

(3)- نفسه، ص: 282-284

(4)- نفسه، ص: 253

(5)- نفسه، ج1، ص: 340

(6)- نفسه، ج2، ص: 70

14)"هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمرح، وإن شئت جعلته صفةً، فجرى على الأول، وإن شئت قطعته فابتدأته، وذلك قولك: الحمد لله الحميد هو،... والملك لله أهل الملك..." (1).

15)"وأما قول الناس: كان البُرُّ قَفِيزَيْنِ، وكان السَّمْنُ مَنَوَيْنِ. فإنما استغنوا هاهنا عن ذكر الدرهم لما في صدورهم من علمه، ولأن الدرهم هو الذي يُسَعَّرُ عليه، فكأنما يسألون عن ثمن الدرهم في هذا الموضع، كما يقولون: البُرُّبِستِّينَ تركوا ذكر الكُرِّ...(2)، لأن المخاطب قد علم ما يعني"(3).

وبعد عرضنا لهذه النماذج المنتخبة من الكتاب، نود استنباط التقنيات التواصلية التي أوردها سيبويه في هذه النصوص، مع تحديد وظيفة كل تقنية في الكلام/الخطاب.

أ. تقنية النداء:

يقدم سيبويه في النصين الأول والثاني أدوات النداء التي يستخدمها المتكلم اعتمادا على وضعية المخاطب الذي قد يكون منصرفا أو متثاقلا أو نائما، مشيرا إلى أنه قد تستخدم كل تلك الحروف خلا "وا" التي توظف في حالِ المخاطَب المقبل المستيقظ توكيدا، إذ يمكن للمتكلم الاستغناء عنها كلها، إذا كان المخاطب "بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه".

وفي النص الثاني، ينبه سيبويه المتلقي إلى حقيقة مفادها؛ إن صيغة النداء هي في الأصل تعبير عن فعل النداء والمنادى، حذف الفعل لكثرة الاستعمال، وبقي الاسم المنادى منصوبا كيفما سيكون هذا المنادى (منصرفا أو متثاقلا)، سواء استخدم المتكلم أدوات النداء أو تم الاستغناء عنها.

---

(1)- الكتاب، ج2، ص: 62

(2)- الكر: مكيال لأهل العراق، ستون قفيزا أو أربعون إردبا، (تعليق: هارون)، الكتاب، ج1، ص: 393

(3)- الكتاب، ج1، ص: 393

ب. تقنية الدعاء:

تتضمن هذه التقنية نوعين من الدعاء، دعاء للإنسان ودعاء عليه، ولكل نوع صيغة متبعة عند العرب (زمن سيبويه)، لذلك "حرص سيبويه على الفهم الصحيح عن العرب في استفساره عن مقاصدهم في أقوالهم وأمثالهم، مشددا على أهمية نية المتكلم وأثرها في تحديد المعنى"[1]، "وكلهم يفسر ما ينوي" وهذا الذي لمسناه في النصين الثالث والرابع، إذ يحذف الفعل الناصب "المتروك إظهاره" ويظل المدعو به منصوبا كما في قوله: "سقيا ورعيا" وأما إلحاق "بك" فجائز لعلم المدعو له بأنه هو المعني.

أما النوع الثاني المتمثل في قوله: "اللهمَّ ضَبْعًا وذِئْبًا"، فالفعل محذوف هو الآخر، ولذلك يكتسب هذا الدعاء معنيين متناقضين، الأول الدعاء على الإنسان والثاني الدعاء له، وإن كان السيرافي يعلق على هذا الكلام شارحا إياه بقوله: "ذكر أبو العباس المبرد أنه سمع أن هذا دعاء له لا عليه؛ لأن الضَّبُعَ والذِّئْبَ إذا اجتمعا تَقَاتَلاَ فأفلت الغنم، قال: وأما ما وضعه عليه سيبويه فإنه يريد ذئبًا مِنْ هَاهُنا، وضَبْعًا مِنْ هَاهُنا"[2].

يحيلنا هذا التفسير إلى أن نية المتكلم ومعرفته بالمخاطب، وبمعرفة المخاطب به هي التي تقدر استرجاع الفعل المحذوف حتى يتضح المعنى المراد، وهذا الضرب من الدعاء الذي قد يلتبس فيه المفهوم على المخاطب كثير حتى في كلامنا اليومي.

ج. تقنية الاستغاثة والتعجب والندبة:

تتضح هذه التقنية جلية في النص الخامس، إذ نجد سيبويه يركز في تقعيده لمسائل الاستغاثة وما شابهها على نية المتكلم وحال المخاطَب، وذلك عائد إلى علة نفسية متعلقة بالمستغاث الذي هو في حالة تراخٍ أو غافل؛ والأمر نفسه بالنسبة للتعجب، لذلك وجب

---

(1)- أثر سياق الكرم عند سيبويه، ص: 51

(2)- الكتاب، ج1، ص: 255 (تعليق: السيرافي في هامش هذه الصفحة)

إلحاق اللام بالمستغاث به أو المتعجب منه أو المندوب له، كما يجب إلحاق "ياء" و"وا" في الندبة لأن فيها معنى النداء لشيء فات وبَعُدَ[1].

د. تقنية الاستفهام المراد به التعظيم:

لم يفت سيبويه في النص السادس أن ينبه المتلقي لكتابه إلى مسألة الاستفهام الذي يراد به التعظيم حتى لا يلتبس عليه أمر ذلك، لذلك أورد مثالين لتوضيح الفرق بين الاستفهامين، ففي مثال: من ذا خير منك؟ يحتمل الكلام أن يكون تعظيما "للمخاطب المسؤول"، إذ التقدير: من الذي هو خير منك؟ والذي يحدد قصد المتكلم في هذه الحالة، هو الحالة الإعرابية لكلمة "خيرٌ" أي الرفع.

أما الاستفهام الحقيقي فيحدّده النصب للفظة "خيراً" وفي حال التعظيم، المتكلم يعرف فضل المخاطب لذلك يريد مخاطبته بالتعظيم، فرفعَ "خُبُر". وفي الاستفهام يريد معرفة من هو أفضل من المخاطب لمعرفته أن غيره أفضل منه.

ه. تقنية إعادة التفكير في علاقة اللغة بالثقافة:

في النصين السابع والثامن يشير سيبويه إلى مسألة هامة جدا، وهي أن هناك عبارات لا تستقيم لأنها وضعت قياسا على استعمالات وموضوعات أخرى غير مناسبة، نحو قولنا: "طعاما لك وشرابا" التي صيغت قياسا على "سقيا لك" ويبدو أن المراد من هذه العبارة هو معنى الدعاء، غير أن هذا الكلام مرفوض معنً ومبنً؛ لأنه يخالف ما استعملته العرب من تراكيب ومعاني[2]، والأمر نفسه ينطبق على المتكلم الذي يستخدم أوصافا من أجل التعظيم نحو: "مررت بأخيك صاحب الثياب أو البزاز" أو "الحمد لزيد"، إذ ليست كل الصفات مناسبة للتعظيم، ولا يجوز أيضا أن نصف أحدا من البشر بما يعظم به الله عز وجل، ومن يفعل ذلك فقد ارتكب ذنبا عظيما.

---

(1)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 52

(2)- نفسه

يستخلص من النصين السابقين السابع والثامن مدى وعي سيبويه بما يسمى في عصرنا الحاضر بعلم "الأنثروبولوجيا اللغوية" (Linguistic Anthropology) هذا العلم الذي يدعو إلى إعادة التفكير في علاقة اللغة بالثقافة أو الحضارة بصورة عامة[1]، وما يقرره سيبويه من رفض أو قبول لبعض التراكيب والمعاني لا علاقة له بمخالفة أصول النحو أو قواعده، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى كون أن تلك التراكيب تخالف ما تكلمت به العرب، خاصة في المجتمع الإسلامي حيث لا يعظم بالحمد إلا الله سبحانه وتعالى "فالكلام، كما هو في تصور سيبويه ممارسة ثقافية وعبارات القوم وأمثالهم تكشف عن ثقافتهم وهويتهم، ونمط تفكيرهم وعقيدتهم، وطرق عيشهم، فلن تفهم لغتهم ما لم تعرف حضارتهم"[2].

و. تقنية الخبر والأمر والنهي والاستفهام:

تظهر هذه التقنية المتعددة والمتباينة في النصوص من (9 إلى 12) حيث في كلٍ يحذف الفعل لأنه متروك إظهاره، ويبقى معموله وهو الاسم المنصوب تماشيا مع عادات العرب في ممارسة كلامهم، إذ اعتادت في مثل هذه السياقات الاستغناء عن الفعل الذي له ما ينوب عنه في اللفظ المذكور، لذلك وجدنا سيبويه يميل إلى نزعة التحليل الدقيق والتعليل لكل ما يورده من أمثلة، نحو تعليله لسبب نصب الكلمة "خيراً" ولكل العبارات الواردة في النصوص السابقة بحذف فعل تقديره "ائت" أي "ائت خيراً لك" أو "انته خيرا لك".

ونشير هاهنا إلى أن سيبويه لا يكتفي بتوضيح علة الحذف، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك إذ نجده يتعمق في شرح غاية كل تقنية وبعدها التواصلي، مشيرا إلى أن تقنية الأمر تقتضي من المأمور الامتناع عن شيء، والخروج منه بغية القيام بشيء آخر، أما تقنية الاستفهام، فمنها ما يخرج إلى معنى التنبيه والإرشاد بناءا على تداخل العناصر السياقية المختلفة فيما بينها (نية المتكلم تجاه المخاطب وموضوع الكلام والموقف الذي يدور فيه هذا الكلام)، هذه العناصر التي بمجملها تؤثر في صيغة التعبير الكلامي[3].

(1)- Linguisticanthropology, p: 03

(2)- أثر سياق الكلام في الكتاب، ص: 53

(3)- نفسه، ص: 54

وفي السياق نفسه يشير سيبويه إلى أن حذف الفعل من صيغة الاستفهام التنبيهي ليس عاملا نحويا، بل هو حقيقة خارجية تتعلق بـــ"حال المخاطب" ولذلك يورد أمثلة على خروج الاستفهام إلى معاني أخرى كالتوبيخ أو التعجب أوالتقريع وغير ذلك[1].

ز. تقنية تغيير الحكم الإعرابي:

في النصين (13-14)، نتبنّى مقولة أحد علماء اللغة الغربيين "رولاند ووردوت" (Roland Wardhaugh) من أن: "الممنوعات اللغوية قد تنتهك للفت الانتباه أو لإظهار الانزعاج أو العدوانية أو للإثارة"[2]، هذه المقولة التي تنطبق تماما على إشارة سيبويه الصريحة بجواز تغيير الحكم الإعرابي لكلمة ما، والعلة في ذلك هي وظيفة الكلام، فعبارة: "أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ" تتضمن الذم والشتم والتحقير لزيد، لذلك جاز نصب النعت (الفاسقَ الخبيثَ) الذي من حقه الرفع تساوقا من أن النعت يتبع منعوته في كل أحواله وعلى رأسها الحكم الإعرابي.

فالملاحظ هنا أنه تم انتهاك قاعدة نحوية كنا نراها ثابتة، في حين أن قصد المتكلم هو الذي غير هذه القاعدة، لتحل محلها قاعدة نحوية أخرى، وهي أنه في باب النعت المراد به التحقير، فإنه يجوز لنا أن ننصب النعت، الذي حقه الرفع، والأمر نفسه ينطوي على العبارة: "الحمدُ لله الحميدَ هو" إذ المراد هنا هو التعظيم والمدح لله الذي لا يحمد سواه، فكلمة "الحميدَ" نعت منصوب من حقه الرفع، جاء بهذه الصيغة لإظهار قصد المتكلم.

وبناءًا على ما سبق ذكره، يمكننا أن نزعم أن للمتكلم سلطانا يفوق سلطان النحو، بدليل أنه يسوغ له في مواضيع محددة، مخالفة القاعدة النحوية الصريحة؛ كقاعدة النعت والمنعوت، فقط بسبب نية المتكلم وهدفه من الخطاب (الكلام)[3]، وهو الأمر الذي تنبه له سيبويه منذ قرون مضت.

---

(1)- ينظر: الكتاب، ج1، ص: 343 وج2، ص: 181

(2)- An introduction to Sociolinguistics, Oxford, Black Well, 1993, p: 236

(3)- أثر سياق الكلام، ص: 55

ح. تقنية الحذف:

في النص الأخير (15) يوضح سيبويه أن العرب كثيرا ما تميل إلى الحذف، نظرا لكون ذلك المحذوف معلوما بالنسبة للناس، لذلك أورد لنا تراكيب ذات محتوى تجاري، أو إنه مستمد من لغة التجار، ومن ذلك قولهم: "كان البرُّ قَفِيزَيْنِ" و"كان السَّمْنُ مَنَوَيْن"، إذ جرى حذف كلمة "بدرهم" من آخر كل عبارة لاعتياد الناس على التسعير بالدرهم.

وبعد، فلا نغالي ولا نبالغ إذا قلنا بأن سيبويه لم يكتف بتنويع دراسة أساليب الكلام عند العرب فحسب،بل نَوَّعَ كذلك في الموضوعات ومستويات الاستعمال اللغوي، إذ تناول ظاهرة لغوية بالشرح والتحليل، والتعليل والتعليق، بل وتعمق في كل استخدام للغة مستقرئا ومستنتجا، ومستخرجا القواعد والأحكام والعلل لكل التراكيب التي تداولها العرب، مبينا مواطن "الحسن" و"القبيح" و"الضعيف" و"المرفوض"،... كما أوضح أن موضوع الخطاب/الكلام يسمح أحيانا بأنماط معينة من التعابير التي قد يتخللها حذف، أو اختصار، أو اقتصار وأحيانا باستعمالات أخرى تخرج عن القاعدة النحوية، بناءًا على نية المتكلم وحال المخاطب والظروف التي اقتضت هذا الانزياح أو العدول.

هذه الظروف التي يسميها القدامى المقام، ويدعوها المحدثون السياق، ويسميها سيبويه مرة الحال وأخرى الكلام، ومهما يكن من أمر هذا المصطلح؛ فإن المعنى واحد؛ وهو سياق الموقف أو سياق الحال، أو السياق الاجتماعي.

4. السياق الاجتماعي في الكتاب:

ذكرنا في مبحث "سيبويه والنظرة الاجتماعية للغة" أن سيبويه لم يفصل اللغة عن واقعها الاجتماعي ومحيطها الخارجي، ولم يدرسها بعيدا عن الناطقين بها، ولعل هذا الذي جعل تحليله للغة ذا بعد اجتماعي واضح، مع العلم أن السياق يتضافر مع عناصر العملية التبليغية الأخرى، أعني المتكلم والسامع والخطاب، من أجل تواصل ناجح، فماذا عن السياق الاجتماعي عند سيبويه؟

إن النظر في كتاب سيبويه في ضوء علم اللغة الاجتماعي "Sociolinguistique"[1]، يستجلي لنا أبعادا نحوية كان السياق الاجتماعي عنصرا أساسا في تقعيدها، كتقعيد الظاهرة النحوية في الكتاب بين منهجين ثابت ومتحول، يتوازيان في خط المعيار المجرد، والوصف الحي، كاختيار سيبويه أمثلة بعينها للاستدلال على مقصده النحوي، فاختيار سيبويه "جاءَ عبد اللهِ" في الاستدلال على جملة فعلية مكونة من (فعل وفاعل) اختيار مقصود، وذلك أن البدائل أمامه كثيرة جدا، ولكن هناك خصوصية اجتماعية للفعل "جاء" والفاعل "عبدُ اللهِ"[2]، نود الكشف عنها من خلال تحليلنا لبعض النصوص الواردة في الكتاب.

ولقد وصف كمال بشر علم اللغة بأنه "علم ذو أهمية وطرافة، فهو يلقي ضوءا على السلوك الاجتماعي، والخواص الاجتماعية من عادات وتقاليد في المجتمع المعين، وقد تقود مثل هذه الدراسة إلى الكشف عن طبقات المجتمع كشفا موضوعيا صحيحا"[3].

وإذا جاز تقسيم الأنحاء برمتها إلى نمطين: أنحاء صورية؛ تنظر إلى اللغات الطبيعية على أنها أنساق مجردة، يمكن دراسة بنيتها بمعزل عن وظيفتها في التواصل داخل المجتمع المستعمل لها، وأنحاء وظيفية؛ ترى أن بنية أي لغة طبيعية لا يمكن عزلها عن وظيفتها التواصلية، فإن نحو سيبويه لمن يتأمله ويتعمق في معانيه يجده نحوا وظيفيا[4]، وتداوليا بامتياز؛ لأنه يمثل نسقا منتظما للسان العربي، مبنيا على رعاية الأركان اللسانية، وخارج اللسانية المتدخلة في بناء اللغة العربية، وتوجيه الدلالات التواصلية من لدن المتكلم والمخاطب والسياق التخاطبي ومقاصد المتخاطبين واستلزامات الحوار، وهو عين ما اهتم به أكثر من تيار في المدرسة الوظيفية المعاصرة[5].

---

(1)- ينظر: علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، دار غريب، مصر، القاهرة، د.ط، 1995، ص: 41-42

(2)- رؤى لسانية في نظرية النحو العربي، د. حسن خميس الملخ، دار الشروق، عمان، ط1، 2007، ص: 139

(3)- التفكير اللغوي بين القديم والحديث، د. كمال بشر، مكتبة الشباب، مصر، د.ط، د.ت، ص: 58، وينظر كذلك: كتابه علم اللغة الاجتماعي، ص: 41-42

(4)- اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، د. أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، د.ط، 1989، ص: 13

(5)- الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية)، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2011، ص: 77

والدليل على ذلك أن النظريات الوظيفية المعاصرة تعتبر اللغة وسيلة للتواصل الاجتماعي، أي نسقا رمزيا يؤدي مجموعة من الوظائف أهمها وظيفة التواصل، كما تفترض أن بنية اللغات الطبيعية لا يمكن أن ترصد خصائصها إلا بربط هذه البنية بوظيفة التواصل[1].

واعتمادا على ما جاء في كتاب سيبويه، وعلى ما توصلت إليه النظريات اللسانية الحديثة، نصل إلى نتيجة مفادها: إن عزل المتن اللغوي عن سياقه هو بمترلة فصله عن ماء حياته "ولقد أتى على النحو حينٌ من الدهر ضاق فيه حتى صار تفسيرا وإعرابا ووصفا لأمثلة معزولة عن سياقاها، وشواهد مقطوعة عن مقاماها التواصلية التي هي ماء حياها، فصار مادة جامدة خامدة بعد أن كان تداوليا حيا"[2].

وتشير معظم الأبحاث إلى أن نحو سيبويه الذي كان يمثل علم العربية لم يعش طويلا ولم يستمر بعده، إذ دخل مرحلة (المدرسة الإسكولائية) التي استلزمت تفرق مستوياته على ما عرف في تاريخ التأليف بالصرف والنحو، والتجويد والمعاني والبيان وغيرها من مجالات المعرفة اللسانية المتخصصة[3]، ولكن الدراسات اللغوية الحديثة أصبحت تنادي بإعادة النظر في كل موروث لدراسته من جديد، ولعل هذا الذي شجعنا للإبحار في كتاب سيبويه، لعلنا نتمكن من الحصول على بعض من درره الكامن في أعماق كتابه.

ومعلوم أن الموقف الكلامي يتطلب مرسلا ومستقبلا على أي صورة من صور الإرسال والاستقبال، يتبادلان خطابا لغويا مفهوما في وسط يساعدهما على التواصل، فيصبح خطابهما دالا ومدلولا عليه كما في الشكل التالي:

(1)- ينظر: اللسانيات الوظيفية، أحمد المتوكل، ص: 13

(2)- الأفق التداولي، إدريس مقبول، ص: 77

(3)- نفسه، ص: 77

حيث الدال والمدلول عليه يحملان دلالات نحوية، صرفي، صوتية ومعجمية، غير أن المدقق النظر في هذا الشكل يرى غياب السياق؛ أو أن هذا الرسم ينظر إلى السياق على أنه عنصر محايد في التأثير في الموقف الكلامي(1)، إذ لا توجد إشارة تدل على سياق الموقف بين المرسل والمستقبل، مما قد يؤدي إلى إفشال عملية التواصل.

إن السياق هو المجتمع الحي اجتماعيا واقتصاديا، ونفسيا وسياسيا، ويكاد السياق الاجتماعي يشمل هذه الأبعاد كلها، وذلك أن "الاستقبال" و"التلقي" في صميمهما يمثلان عملية اجتماعية(2)، واللغة لا وجود لها خارج الإطار الاجتماعي(3)؛ لأن التحليل الكامل لمفهوم الكلمة، أو صيغة الجملة، لابن اللغة يجب أن يحتوي على قدر كبير، وغير محدود من المعرفة فوق اللغوية، ومن معرفة الكثير من المدركات والمشاعر والأفكار والعواطف، والآمال، والمخاوف الخاصة، و... (4)، والسياق مثير للقرارات الثنائية بين المرسل والمستقبل، ولا يمكن إدراك تواصلهما إلا به(5)، لذلك يتم تعديل الرسم الأول حسب الشكل التالي:

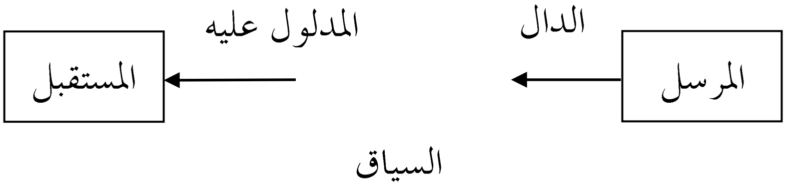

وإذا ما عدنا إلى سيبويه وجدناه قد أدرك الحضور الفاعل للسياق في صوغ العرب لكلامهم من خلال قوله: "ومن كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام"(6)، وفي بعض تحليلاته لمقتضيات حذف الفعل والفاعل في العربية وجدناه يقول: "أو

(1)- سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد 145، الكويت، ص: 131-132

(2)- علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، د.ط، 1997، ص: 70

(3)- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، بيت الحكمة، الموصل، العراق، 1988، ص: 95

(4)- موجز تاريخ علم اللغة، روبنز، ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، عدد 227، الكويت، 1997، ص: 342

(5)- اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1996، ص: 431

(6)- الكتاب، ط1، ج1، ص: 51

رأيت رجلا يسدد سهما قبل القرطاس، فقلت: القرطاس واللهِ، أي يصيب القرطاسَ، وإذا سَمِعتَ وَقْعَ السهم في القرطاسِ، قلت: القرطاسَ واللهِ، أي: أصاب القرطاسَ"[1].

فكلمة "القرطاس" صيغة مجردة لم تكتسب أية دلالة إلا عند رسم السياق الذي تحولت فيه إلى عنصر حامل لمعنى الإصابة، وهذا المعنى كان مرتبطا بالزمن، فقبل حدوث فعل الإصابة كان هناك توقع ناسبه الفعل "يصيب" وعند حدوث الفعل، كان هناك تحقق في الحدث ناسبه الماضي "أصاب" وهذا يتفق مع ما ذهب إليه طه عبد الرحمن، من "أن القول الطبيعي مجرد عن مقامه تصير محامله كثيرة، ولا يتعين واحد منها إلا بتعيين المقام، حتى إنه يصح الإدعاء بأن الأصل في القول الطبيعي أن تتعدد معانيه إلى أن يثبت بالدليل خلاف ذلك، وإذا كان كذلك، فقد وجب أن تكون صوره الممكنة متعددة، وأن لا ينحصر تقويمها في حتمية واحدة"[2]، لذلك تتعدد السياقات.

- **أشكال السياق في الكتاب:**

تتفرع من السياق الاجتماعي عدة سياقات منها: السياق البصري، السياق السماعي وسياق الحواس، أو السياق الحركي المتعلق بالمخاطب أو المشاهد، ولتوضيح ذلك نورد بعض النصوص من الكتاب؛ لإبراز مدى وعي سيبويه بمكانة السياق ووظيفته في عملية التبليغ الذي قد لا يحصل في بعض الأحيان؛ إلا بمصاحبته لبعض الظواهر التواصلية غير اللفظية التي لم يمنع اشتغال سيبويه بالنحو من الاهتمام بها، وجعلها من صميم مفهوم النحو السيبويهي، أو التبليغ السيبويهي، وهذه النصوص هي:

1) "هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار أفعال المستعمل إظهاره، وذلك قولك: زيداً وعمراً ورأسَه، وذلك أنك: رأيت رجلا يضرب أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله، فقلت: زيداً، أي أوقع عملك بزيد أو رأيت رجلا يقول: اضرب شرَّ الناس،فقلت: زيداً، أو رأيت رجلا يحدث حديثا

[1]- الكتاب، ج1، ص: 295، هذا المثال يتكرر ذكره في كثير من المواضع في الكتاب

[2]- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص: 45

فقطعه، فقلت: حديثك أو قدم رجل من سفر، فقلت: حديثَك، استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مستخبر، فعلى هذا يجوز هذا أو ما أشبهه"[1].

2) "هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره... قولك إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحاج، قاصدا في هيئة الحاج، فقلت: مَكَّةَ ورَبِّ الكَعْبةِ. حيث زَكِنْتَ[2]، أنه يريد مكةَ، كأنك قلت: يريدُ مكَّةَ واللهِ، ويجوز أن تقول مَكَّةَ واللهِ، على قولك: أراد مكة والله، كأنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمس، فقلت: مكةَ واللهِ، أي: أراد مكة إذ ذاك... أو رأيت رجلا يسدد سهما قبل القرطاس، فقلت: القرطاسَ واللهِ،... وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس، فقلت: القرطاسَ واللهِ، أي أصاب القرطاسَ، ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبَّروا، فقلت: الهلالَ ورب الكعبةِ أي أبصروا الهلالَ"[3].

3) "هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا ويكون المبني عليه مظهرا، وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آيةً لك على معرفة الشخص فقلت: عبدُ اللهِ وربِّي كأنك قلت: ذاك عبدُ اللهِ، أو هذا عبدُ الله، أو سمعت صوتًا فعرفْتَ صاحِبَ الصوْتِ، فصار آيةً لك على معرفته، فقلت: زيدٌ وربيِّ، أو مَسَسْتَ جَسَدًا أو شَمَمْتَ ريحًا، فقلت: زيدٌ، أو المِسكُ، أو ذقت طعامًا فقلتَ: العسلُ"[4].

إن اختيارنا للنصوص الثلاثة اختيار مقصود، وذلك أن هذه النصوص تضمنت أشكالا من السياق سنذكرها بحسب ترتيب النصوص.

أ. السياق البصري الحركي:

يحتوي النص الأول تصويرا حيا للحالة أو الموقف الذي يجري فيه الكلام، وكذا تقنية الحذف، إذ يتحدث سيبويه عن حدث معين وهو وجود رجل يضرب أو يقتل أو يشتم أحدًا

(1)- الكتاب، ج1، ص: 253

(2)- زكن الخبر زكنا: علمه، وقيل: هو الظن الذي هو عندك كاليقين، أنظر: لسان العرب، مادة (زكن)

(3)- الكتاب، ج1، ص: 257 وما بعدها

(4)- نفسه، ج2، ص: 130

(سياق بصري بالنسبة للمتكلم وسياق حركي بالنسبة للمشاهد)، فاستثار هذا الأمر أحد المشاهدين (وهو هاهنا المتكلم) فأراد أن يوقع الضارب أو القاتل عمَلَه ذلك برجل بعينه يدعى زيداً، ولما كان الضارب أو الشاتم أو القاتل منهمكا في عملية الضرب والشتم والقتل، رآه شخص فاستغنى عن الفعل (وَاصِلْ) أو "اِضْرِبْ" أو "اقْتُلْ" أو "اشْتُمْ" واكتفى بالقول: زيداً، فاستقام له ذلك وجاز أن يلفظ بكلمة واحدة: زيداً، وفي النص نفسه، يورد سيبويه موقفا آخر بين متكلم يُعْرِبُ عن نيته في إيقاع الضرب بِشَرِّ النَّاسِ فينبري أحد سامعيه ويطلب إليه ضرب زيد بقوله: "زيداً" ويجوز الحذف كذلك في موقف من كان يتحدث أو قادم من سفر، يقول المتكلم: "حديثكَ" أي وَاصِلْ حديثك بالنسبة لمن توقَّف عن حديثه، و"حديثَكَ" أيضا بالنسبة لمن قدم من السفر الذي يتوقع أن يُسْأَلَ ويستخبر عن قدومه، يقول أحدُهم "حديثَكَ"، أي حَدِّثْنا عن سَفَرِكَ، حيث يكتفي المتكلم بقوله لمخاطبة القادم: "حديثكَ"، ويفهم من هذا الموقف أن الحدث قد ينوب أحيانا مناب الكلام، أو يعد جزءا من عملية التواصل الكلامي[1].

ويكشف لنا هذا النسق عن أن هذا السلوك مع المسافر هو من عادات القوم المتعارف عليها، وهكذا وجدنا سيبويه يلمح بقصد أو بغير قصد إلى العلاقة القائمة بين اللغة وبين المؤثرات الخارجية المتمثلة بالعادات والتقاليد الحضارية والثقافية لجماعة لغوية ما، وهذا الأمر ذكرناه في موضع سابق.

وننبه المتلقي إلى أن تأكيد سيبويه على مسألة نيابة الحدث أو الواقع الخارجي عن التلفظ بالقول يتكرر كثيرا، يظهر هذا التأكيد بجلاء في مثال آخر يورده سيبويه قائلا: "ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، أن ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول: خيرَ مقدمٍ، أما النصب فكأنه قد بناه على قوله: قدمتُ، فقال: خيرَ مقدمٍ، وإن لم يُسمع منه هذا اللفظ، فإن قدومه ورؤيته إياه بمنزلة قوله: قدِمتُ"[2].

[1]- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 61

[2]- الكتاب، ج1، ص: 270-271-276

صرح سيبويه في قوله بقدوم المسافر قدوما قام فعلا مقام الكلام، لذلك قال له من شاهده: "خيرَ مقدمٍ" أي: "قَدِمْتَ خيرَ مقدمٍ"، إذن، فقول المتكلم استجابة لغوية لواقع مثير غير لغوي، ومع ذلك عد سيبويه هذا الضرب والتواصل من قبيل التخاطب الكلامي الذي حكم له بالصحة والمقبولية، ويذكرنا إدراك سيبويه لمسألة المثير والاستجابة بسيناريو "جاك وجيل" في نظرية التبليغ عند "بلومفيلد".

والملاحظ في كل المواقف التي استخلصت من النص الأول أن سيبويه يجيز للمتكلم النطق بكلمة واحدة في سياقات مختلفة وَعَدِّهَا كلاما مقبولا، والسبب في ذلك أنها مفهومة من قبل المخاطَب السامع لها، وأن الموقف الذي قيلت فيه كفيل بإيضاح المقصود، وهذا دليل آخر يضاف إلى ما مر من اهتمام سيبويه الأكبر بدراسة اللغة الحية المنطوقة داخل سياقها الاجتماعي الحيوي البعيد عن التقعيدات الجافة والقوانين الصارمة، وحتى حين كان لا يجيز الحذف أو الإضمار إذا كان هذا الحذف يخالف صريح الأحكام النحوية[1]، كما يظهر في قوله: "... ولا يجوز أن تضمر تَنَحَّ عن الطريق، لأن الجار لا يضمر"[2]، ولكننا نجد سيبويه يجيز حذف الجار في مواضع أخرى متعلقة بنية المتكلم ويرفض الحذف في مثل: "زيدٌ عمراً" إذا كان المتكلم لا يخاطب زيداً بأمره بضرب عمرو. أو إذا لم يكن في السياق ما يساعد هذا المخاطَب على استيعاب المقصود، "ولا يجوز: زيدٌ عمراً إذا كنت لا تخاطِب زيداً"[3]، فالخطأ هنا من وجهة نظر سيبويه؛ هو في عدم إيضاح المتكلم قصده للمخاطَب[4].

فالملاحظ، أن المعيار المعنوي يتداخل أحيانا مع المعيار النحوي، بل ويرتبط به ارتباطا وثيقا، من وجهة نظر سيبويه لذلك ألفيناه يستخدم تعابير نحو: "لا يجوز" أو "كَرِهُوا" أو "ضَعُفَ" لَمَّا عَدَّهُ خَطَأً من الناحية الدلالية أو النحوية، وأحيانا أخرى، نجده يفصل بين المعيارين، إذ يفرد لكل منهما موضعا خاصا[5].

(1)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 62-63

(2)- الكتاب، ج1، ص: 254

(3)- نفسه، ص: 254

(4)- نفسه، ص: 253-255

(5)- ينظر: الكتاب، ج1، ص: 253-255

ومهما يكن الأمر، فإن التعابير التي استخدمها سيبويه للتدليل على مسألة، كالحذف والإضمار أو غيرهما في غالبها مشتقة ومستمدة من محيطها الطبيعي، وليست تراكيب مصطنعة أو مفتعلة أو بعيدة عن روح الاستعمال العربي لها.

ب. السياق البصري والسماعي والحركي:

يمثل النص الثاني، سياق رؤية وسماع وحركة، وذلك أن المتكلم في موقف المستجيب لعدة مثيرات خارجية غير لفظية، أولها رؤية رجل يسلك طريق الحج ""متوجها وجهة الحاج (سياق حركي)، أو هو مرتد ثياب الإحرام "قاصدا في هيئة الحاج"، فيقول المتكلم الرائي: "مكةَ ورب الكعبة" بحذف الفعل (يريد) أو يكون قد سمع من أحد أن هذا الرجل كان بتلك الهيئة فيقول: "مكةَ والله" أي أراد مكةَ والله، فالمتدبِّر لهذا الكلام يدرك أن غاية سيبويه من إيراد هذه التعابير أو التركيب هو أن السياق الاجتماعي؛ من رؤية رجل في هيئة الحاج تسمح بحذف الفعل اختيارا لا إلزاما، وذلك أن الفعل في مقام كهذا "مستعمل إظهاره"، كما نبه إلى ذلك سيبويه في مطلع نصه.

وفي باب الحذف دائما، يشير سيبويه إلى سياقات حال أو مواقف اجتماعية أخرى، منها ما هو (بصري) كرؤية من يسدد السهم نحو القرطاس، فيخمِّن الرائي أن الرجل سيصيب الهدف، فيقول: القرطاسَ واللهِ، أما إذا اختلف السياق وأصبح (سمعيا) أي أنه سمع وقع السهم في القرطاس، فإن الفعل المقدم في الزمن الماضي؛ لأن الحدث مضى وانتهي "أصاب القرطاسَ".

أما الموقف الثالث، فيصور فيه سيبويه مشهدا تمثيليا لقوم أو جماعة من الناس يلتمسون الهلال، وهناك رجل يرقبهم من بعيد (سياق بصري)، فإذا كبروا أيقن أنهم رأوا الهلال، وحينها يقول: الهلالَ واللهِ، أو الهلالَ وربِّ الكعبةِ، بإسقاط الفعل "أبصروا" وتكبيرهم يدل على (سياق سماعي) من قبل المتكلم، الذي حذف الفعل بناءًا على أن الحال والمقام يدلان عليه.

ج. سياق الحواس الخمس:

يمثل النص الثالث، النص الأوحد الذي يشرك جميع الحواس الإنسانية الخمس في عملية التواصل وفي بناء سياق الكلام؛ وهي إلى ذلك -أي الحواس- تغني عن ذكر المبتدإ في العبارة أو القول وتحل محله، فرؤية المتكلم لصورة شخص يعرفه جيدا تغنيه عن القول: "هذا عبد الله وربي" فيقول: "عبد الله وربي" بحذف "هذا" أو "ذاك"، والأمر ذاته إذا سمع صوت شخص يعرفه فيقول: "زيدٌ وربي" أو لمس جسدًا يعرف صاحبه، أو شم عطرًا تعوَّد على واضعه، فيقول: "زيدٌ" أو تذوق شيئا فعرف أنه عسل، فقال: "العسلُ".

فالملاحظ في كل تلك المواقف أن الحواس الخمس هي التي تقوم بدور كبير في إنشاء بنية الكلام، ولعل الذي يلفت انتباهنا، أن معظم الأمثلة قد اعتراها حذف لكلمة ما، في موضع ما، أتى السياق ليجبر هذا الحذف ليتم المعنى، ولكن سيبويه لا يطلق الحذف دون شروط، إذ هناك عدد من القضايا يجب أن تراعى في حال الحذف وهي[1]:

- أن يكون المحذوف مما جاء مثله على لسان العرب.
- أن يكون السامع أو المخاطب فاهما ومدركا للكلام الذي اعتراه الحذف.
- أن يترافق مع الكلام ظرف اجتماعي أو موقف يسوغ هذا الحذف.
- أن تكون ثمة علاقة بين العنصر المحذوف والعناصر القائمة تركيبيا ودلاليا.

فأنت كما ترى لا يمكنك التصرف بالإعراب في الأقوال الطبيعية السابق ذكرها أو الملفوظات إلا داخل سياقاتها ومقاماتها التي دل عليها سيبويه، حيث تترابط المكونات التي تشكل عملية التواصل"Communication Process" بين أفراد المجتمع وتكشف عن بنائية السلوك اللغوي "Structural of verbal behavior"[2]، وجملة هذه الأقوال لو تفحصتها لوجدتها تفتقر إلى التسييق الذي يرفع اللبس[3]، والغموض عنها، وينقعها في ماء حيائها

---

[1]- عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه، سعيد حسن بحيري، ص: 227

[2]- الإشارات الجسمية (دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل)، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1991، ص: 07

[3]- الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1403هـ، ج1، ص: 337

لتتضح تستبين، قال السيرافي: "فهذا من الباب الذي يجوز إظهار الفعل فيه وإضماره لحال حاضرة ودلالة بينة"[1]، وليست الحال الحاضرة سوى السياق (سياق الحال أو سياق الموقف).

وبناءًا على تحليل وشرح وتعليل سيبويه لكل ما ورد في كتابه، خاصة الأمثلة التي استيقناها من منبعه، يمكننا القول بأن الجملة العربية تتضمن أحيانا فراغات لا يملؤها إلا تبين السياق الذي قيلت فيه، نحو قول سيبويه "أَوْ رَأَيْتَ رَجُلاً يقول: اِضْرِبْ شَرَّ النَّاسِ، فقلت: زيداً... اِسْتَغْنَيْتَ عن الفعل بعلمه أنه مستخبر"، إذ يوجد قبل كلمة "زيداً" فراغ نحوي لم يملأه إلا السياق[2].

لقد أدرك سيبويه أن اللغة صيغ وأشكال يبدعها المتكلم أو المنشئ، فتسري فيها الحياة بكل مضامينها وأبعادها، وليست عبارات مسكوكة، تحمل الطاقات التعبيرية حتى لو كانت في المعجم، وعلى هذا الأساس فكل استخدام لأي صيغة من صيغ اللغة في الإفراد والتركيب ابتداع جديد غالبا في بعده السياقي غير اللغوي، وذلك أن اللغة عرض وليست جوهرا[3]، ولهذا قيل: "ليس هناك معنى إنما استعمالات شتى، فالمعنى كما يصل إلينا في الخطاب يخضع لعلاقات الكلمة مع غيرها من الكلمات ضمن السياق ذاته، وتحدد بنية النظام الألسني هذه العلاقات"[4].

فالنحو محدد من محددات الصواب والخطإ، وظيفته تحديد الوجه الجائز نحوا، بعلامة ملحوظة أو ملفوظة تشير إلى العلاقات النحوية في الجملة، فنصب كلمة "زيداً" في المثال السابق، علامة تشير إلى ناصب يفسر الجملة نحوا ودلالةً، كما أن السياق فيصل في الحكم بصحة التراكيب النحوية وخطئها أحيانا[5].

---

(1)- ينظر: النكت في تفسير كلام سيبويه وتبيين الخفي في لفظه وشرح أبياته وغريبه، الشنتمري، تحقيق: رشيد بلحبيب، طبعة الأوقاف، الرباط، 1999، ج1، ص: 456

(2)- رؤى لسانية في نظرية النحو العربي، خميس الملخ، ص: 140

(3)- نفسه، ص: 140-141

(4)- علم الدلالة، بيار غيرو، ترجمة: أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1986، ص: 29

(5)- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، دار النشر ومكتبة وسام، الأردن، ط2، 1987، ص: 101- 102

ولولا الإشارات التواصلية والإيماءات المصاحبة وهي موضوع عناية السيميائيين والتداوليين وعلماء الإناسة لما وجدنا إلى فهم الملفوظات سبيلا، وهذا عينه ما ذهب إليه ابن جني من أن اللغة الطبيعية المتداولة بين الناس، والتي يتواصل بها لا تكفي وحدها في تبليغ المراد، بل يحتاج المتكلم بها إلى أمور منها، حضور مخاطبه معه، ورؤيته له، إذ انكشافه له ليس يستوي واختفاؤه عنه أو تكليمه له في الظلمة، يقول: "أوَ لاَ تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه، استعطفه ليقبل عليه فيقول له: (يا فلان أين أنت أرني وجهك أقبل عليَّ أحدثك، أما أنت حاضر يا هناه)، فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه أو نحو ذلك، فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه وعلى ذلك قال:

العيْنُ تُبْدِي الَّذِي في نَفْسِ صَاحِبِهَا   من العَدَاوةِ أَوْ وُدٍّ إذَا كانَا

وقال الهندي:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيْلِدُ لا تُرْعَ   فُقلْتُ وأنْكَرْتُ الوُجُوهَ هُمُ هُمُ

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلا على ما في النفوس وعلى ذلك قالوا: رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة، وحكاية الكتاب من هذا الحديث وهو قوله: (ألا تا وبلى فا)، وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة[1].

وهذا ما يؤكد قول نهاد الموسى حيث قال: "إن سيبويه أدرك ما يكون من اندغام اللغة في نظامها الداخلي الخاص بالحياة في مجالها الخارجي العام، أو أدرك أن بين اللغة وسياقها الاجتماعي علاقة عضوية"[2].

---

[1]- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 246-247

[2]- نظرية النحو العربي، ص: 99

وإذا كان سياق الكلام لا يدل على عنصر يعوض عن العنصر النحوي المحذوف، أو يشير إليه، فليس كلاما حيا مماثلا لما يجري على ألسنة العرب من الكلام الحي الحامل لآرائهم وأفكارهم ومشاعرهم، لأن السياق في حقيقته عنصر إيضاح لا عنصر غموضٍ ولُبْسٍ إلغازٍ[1]، لذلك وصف سيبويه تعليق الكلام على سياق غامض مجهول ملبس بأنه "ملغز تارك لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم"[2].

ونود أن نشير هنا إلى تقنية مهمة جدا لها علاقة بالسياق وهي تقنية التعريف والتنكير التي تعد في وجه من وجوهها قضية عرفية اجتماعية، قنن النحو بعض علاماتها، وترك ما لم يقننه للسياق، ومن ذلك أن قول الناس: "سآتيك غدا" وقعت فيه كلمة "غداً" محددة تحديدا لا لُبْسَ فيه، وإن كان شكلها نكرة، وهي في دلالتها السياقية معرفة تامة التعريف، قد تفوق دلالة العلمية في قولنا: "حضر سعيدٌ"[3]، إذ كلمة "سعيد" وإن كان معرفة بالعَلَمية كما يشير السياق إلا أنه قد يقع فيه لبس، لأن كلمة "سعيد" مشتركة بين مسمّيين به "سعيد" الاسم العلم و"سعيد" من السعادة. والسياق هو الذي يحدد المعنى ويرفع اللبس.

وبعد هذا العرض التحليلي لبعض ما جاء في كتاب سيبويه، نخلص إلى أن سيبويه قد أدرك إدراكا تاما أن للمتكلم والمخاطب على السواء تأثيرا كبيرا في تحديد البنية التركيبية للكلام المنطوق، وأن للمتكلم العربي الأصلي أو ابن اللغة (Native Speaker) بشكل خاص مساحة كبيرة من الحرية[4]، في اختيار النسق التعبيري الذي يُلَبِّي وينقل حاجته وقصده، وينقل المعنى الذي يسعى إلى إيصاله إلى المخاطب أو المتلقي مع ما قد يتخلل هذا النسق من حذف واختصار، أو تقديم وتأخير، أو تغيير لبعض الأحكام الإعرابية، وذلك كله اعتمادا على فهم السامع، أو تعويلا على ما يقدمه السياق بمختلف أشكاله من تعويض وتوضيح، بالإضافة إلى ما تسمح به الجماعة اللغوية من استخفاف، وإيجاز واستغناء على السعة ولكثرة الاستعمال.

---

(1)- رؤى لسانية في النحو العربي، حسن خميس الملخ، ص: 141

(2)- الكتاب، ج1، ص: 308

(3)- رؤى لسانية، ص: 142

(4)- أثر سياق الكلام، ص: 98

ليس هذا فقط، بل أكد سيبويه في أكثر من موضع ما للعناصر غير اللغوية من دور فعال في التبليغ "إذ قد تقوم هذه العناصر مقام العناصر اللغوية الخالصة وتسد مسدها"، "فاللغة عنده لم تكن تنفك عن ملابسات استعمالها، ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي، كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي"[1].

وبناءًا على معطيات السياق الاجتماعي وعلى تلك الأمثلة المقدمة من كتاب سيبويه يمكننا استخلاص خمسة أشكال للتواصل اللاشفهي وهي:

1) التواصل البصري (Visaul Communication):

وهو واسع جدا، والحاسة فيه هي العين المبصرة التي تستقبل المعلومات في شكل شفرات إلى جهاز فك التشفير في المخ، ويهمنا في هذا السياق ما أورده سيبويه من آليات التعرف على الأشخاص من خلال صورهم وبعض ملامحهم، "رأيت صورة شخص فصار آية" لك على معرفة الشخص فقلت: "عبد الله وربي".

2) التواصل السمعي (Auditor Communication):

التواصل السمعي هام ومركزي، إذ لا كلام لمن لا سمع له، ويمكننا التعرف على الأشخاص من خلال أصواتهم، نحو قول سيبويه: سمعت صوتا، فعرفت صاحب الصوت، فصار آيةً لك على معرفته، فقلت: "زيدٌ وربي".

3) التواصل اللمسي (Tactile Communication):

وهو أول أشكال الإدراك عند الإنسان، يبدأ في مرحلة الطفولة مع الأم ثم مع الأشياء المحيطة بالطفل، وينمو هذا التواصل مع الإنسان ويتجدد من خلال السياق الثقافي الذي يعيش فيه، نحو قول سيبويه: "مسست جسدا، فقلت: زيدٌ"، ويشترك هذا التواصل مع التواصل

(1)- نظرية النحو العربي، د. نهاد الموسى، ص: 90-92

اللغوي، بحيث عن طريقه نستطيع تحديد معظم أجزاء الجسم الملموسة، كالمصافحة باليد، أو نحو نظام أبجدية المكفوفين الذي يعتمد على اللمس بالأصابع لتحديد كل حرف.

4) التواصل الشمي (Olfactory Communication):

تمثل عملية الشم فعلا عضويا يقوم بتوصيل رسالة دلالية مخصوصة، يترجمها الجهاز العصبي للإنسان، ويؤدي إلى سلوك استشاري يتمثل في الإقبال أو الإعراض أو النفور بعد التمييز والتعرف[1]، لذلك قال سيبويه: "شممت ريحا فقلت: المسكَ"، ويتواصل الإنسان مع غيره من الأفراد بحاسة الشم، فنجده يشم روائح الزهور المختلفة، وروائح المواد المتباينة، كما يشم روائح الأطعمة، لذلك عُدَّ الشم وسيلة من وسائل المعرفة والتواصل، وبغية ذلك يسعى التجار والصناع لصنع أروع العطور لأنها تحمل وظيفة اجتماعية بين الأشخاص، خاصة المحبين والأزواج.

5) التواصل الذوقي (Gustative Communication):

تخضع عملية الذوق إلى تواضع الجماعة، إذ يمثل الطعام نظاما من العلامات المتعارف عليها، كاختيار أنواع من الطعام أو طريقة طهيها، والمتناول والمحرم منه، وارتباط بعضه بالمناسبات وبمواعيد معينة، وهو خاص بكل الأطعمة النيئة والمطبوخة التي يأكلها الإنسان مع غيره، نحو قول سيبويه: "ذقت طعاما، فقلت: العسلُ".

وإذا تأملنا العربية وجدناها تستعمل الفعلين (شم وتذوق) بمعنى اختبر وأدرك[2]، يؤكد هذا قول أحد الباحثين الأمريكيين توماس هال (Hall, T) الذي يرى أن العوالم الحسية التي تتحرك داخلها الذات العربية تختلف عن غيرها من الذوات الثقافية الأخرى، ذلك أن العربي عادة ما يعتمد اللمس والشم في تواصله مع مخاطبه، إنه ينتح ويدرك من خلال هذه المعطيات بخلاف الإنسان الأمريكي[3].

(1)- الأفق التداولي، ص: 84

(2)- نفسه، ص: 86

(3)- ينظر: La dimension cachée, Tomas Hall, Ed Seuil, Paris, 1971, p: 15

▪ دلالة المثال النحوي بين المجتمع والقاعدة النحوية:

المثال النحوي تركيب مصنوع بصيغة النحاة تطبيقا لقاعدة نحوية ومثالا عليها، فإذا ما أردنا التمثيل لجملة اسمية مكونة من (مبتدإ وخبر)، قلنا: "العلم مفيدٌ" أو "الكرم محمودٌ" أو أي مثال آخر يدل على انطباق القاعدة النحوية على التركيب المستعمل، واختيار المثال اختيار قصدي[1]-كما ألمحنا إلى ذلك في موضع سابق- غالبا في بعده غير النحوي، لأنه يحمل فكرة، كالحديث عن العلم في جملة "العلم مفيد"، ومن هناك ينشأ ارتباط وثيق بين المثال النحوي ودلالته غير النحوية، وذلك أن دلالة المثال النحوي في كتاب سيبويه على الأقل بنت عصرها اجتماعيا وسياسيا وثقافيا واقتصاديا[2].

وتشير الدراسات إلى أن المثال النحوي إشارة ووسيلة، فهو إشارة؛ لأنه يحمل دلالة تاريخية اجتماعية على عصر معين أحيانا، فلا يوجد في كتب النحو القديمة مثال يدل على أسلوب "الحال" بجملة "انطلقت السيارة مسرعةً" وذلك أن السيارة بمفهوم العربية الآلية التي نعرفها لم تكن موجودة قبل عدة قرون، كما تشير الجملة الفعلية "أعتق زيد جاريته" إلى ظاهرة الجواري والعبيد، وهي الظاهرة التي لم يعد لها وجود فعلي في عصرنا الحالي[3].

وأما أن المثال النحوي رسالة؛ فلأنه يرتبط غالبا بالقيم والمعاملات، أي الحياة بتعبير أعم، مثل الحديث عن الكرم والوفاء واللقاء والرؤية والمساعدة وغيرها من مضامين الحياة المختلفة، فالمثال النحوي في كتاب سيبويه يرسم -إلى حد ما- بعض أبعاد مجتمع البصرة في القرن الهجري الثاني، ذلك المجتمع الذي تشكل على فم البادية فيه الأعرابي القُحُّ الذي يقول فيعرب، والعربي الحضري الذي يشوب لسانه أثر التحضر، والأعجمي الذي لا يكاد يبين بالعربية[4].

(1)- علم لغة النص، د. سمير حسن بحيري، ص: 146

(2)- رؤى لسانية في النحو العربي، ص: 144

(3)- نفسه

(4)- نفسه، ص: 144-145

وما شيوع اسم "عبد الله" و"زيد" في أمثلة سيبويه إلا دلالة على شيوع هذين الاسمين في مجتمع سيبويه البصري، إذ ليس لاسم "عبد الله" أي دلالة نحوية تختلف عن اسم "عبد الرحمن" أو "امرئ القيس" أو "عبد الملك" أو غيره، والأمر ذاته بالنسبة لاسم "زيد" إذ لا خلاف بينه وبين "بكر" أو "خالد" أو "خليل"، فكلها أسماء لا دلالة نحوية لها، ترغم الباحث على اختيار أحدها دون الآخر.

ولكن الملاحظ في كتاب سيبويه أنه يكثر من استعمال اسم "عبد الله" وهو اختيار مقصود، وذلك أن اسم "عبد الله" له دلالة دينية لإضافته إلى لفظ الجلالة، والمتفحص لكتاب سيبويه يستنبط أن هذا الاسم لا يستعمله سيبويه في مواطن الذم أو التحقير في التمثيل به، بل يأتي به في السياق المقبول اجتماعيا، نحو: "عبد الله أخوك"[1]، و"أعطى عبد الله زيداً المال إعطاءً جميلاً"[2]، و"عبد الله فاره العبد"[3]، و"لقيت القوم كلهم حتى عبد الله لقيته... وهلك القوم حتى زيداً أهلكته"[4]، فاسم "عبد الله" جاء في موضع محمود وهو اللقاء، بينما جاء اسم "زيد" في موضع مذموم وهو الهلاك، ونعتقد أن اختيار سيبويه لأمثلته هو احتراس اجتماعي ديني منه، من دلالة الإضافة إلى لفظ الجلالة.

ومن الاحتراس الديني أيضا عدم الجواز بالقول "الحمد لزيدٍ " في مقام الشكر والتعظيم، لأنه "ليس كل شيء من الكلام تعظيما لله عز وجل يكون تعظيما لغيره من المخلوقين[5]، وهذا عينه ما ذهب إليه نهاد الموسى بقوله: "وما أشبه هذه الملاحظة بملاحظة اللغويين الاجتماعيين حول تخصص ألفاظ وتراكيب معلومة، بمواقف دينية أو تقليدية معلومة"[6].

---

[1]- الكتاب، ج1، ص: 23

[2]- نفسه، ص: 41

[3]- نفسه، ج2، ص: 177

[4]- نفسه، ج1، ص: 96

[5]- نفسه، ج2، ص: 69

[6]- نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص: 106

ومن الأمثلة التي أوردها سيبويه، يمكننا رصد بعض القيم الاجتماعية الحميدة، "كالصداقة" التي يعبر عنها بالأخوة في قوله: "كنت أخاك وزيداً كنت له أخا"[(1)]، إشارة إلى تمثل مفهوم الأخوة في الإسلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(2)]، وفي قوله كذلك "أعْطَى عبد الله المال"[(3)]، و"أعطى عبد الله زيداً المال"[(4)]، قيمة اجتماعية أخرى تتمثل في الكرم والعطاء، وهناك أيضا مكارم الأخلاق الواردة في قوله: "وأما خالداً فلا تشتم أباه"[(5)]، وقوله: "ليس زيدٌ بجبان ولا بخيلاً"[(6)]، وفي قوله: "مررت برجل راحمٍ للمساكين وبارٌّ بوالديه، فقلت: فلانٌ والله"[(7)].

والمهم من رصد هذه القيم، هو أنها ليست اصطناعا من سيبويه، وإنما دلالة على وجودها في المجتمع البصري الذي فيه الناس طبقات، إذ منهم الأغنياء المترفون الذي اتخذوا من كثرة الجواري والغلمان والخيل دليلا على مرتبتهم الاجتماعية المتميزة، والدليل على هذه المرتبة ما أورده سيبويه من أمثلة نحو قوله: "عبد الله فاره العبد فاره الدابة"[(8)]، وقوله: "جاريتاك قالتا... وذهبت جاريتك"[(9)]، وقوله: "لا غلام ظريفا لك"[(10)]، وما كثرة الأمثلة إلا لكثرة الجواري في المجتمع البصري في القرن الثاني الهجري، وليس هذا فقط، وإنما هناك أيضا إشارات على أن مجتمع البصرة كان مركزا للجهاد، وذلك أن هناك أمثلة من قول سيبويه تدل على الرماية نحو: "إذا رأيت رجلا يسدد سهما..."[(11)]، ولعل الجهاد أيضا كان سببا في

(1)- الكتاب، ج1، ص: 89
(2)- سورة الحجرات، الآية: 10
(3)- الكتاب، ج1، ص: 41
(4)- نفسه، ص: 138
(5)- نفسه، ص: 138
(6)- نفسه، ص: 66
(7)- نفسه، ج2، ص: 130
(8)- نفسه، ص: 177
(9)- نفسه، ص: 38
(10)- نفسه، ص: 288
(11)- نفسه، ج1، ص: 257

زيادة النسل والإنجاب، حتى إن الرجل ليحب أن يولد له وهو في عمر الستين، قال سيبويه: "ولد له ستون عاما"[1]، على الاتساع في النيابة في الفاعل، كما ذكرنا سابقا.

أما المكان فهناك اسمان يدلان عليهما: الأول "اليمن" في قول سيبويه "هذا نسيج اليمن"[2]، وفحوى هذا الكلام أن هناك علاقة تجارية مع اليمن، وربما يكون في العلاقة نفسها خصوصية تشير إلى أن بعض قبائل البصرة هم من أصل يمني، ومن هنا فلا عجب أن يتخير سيبويه مثلا فيه إشارة إلى اليمن على الرغم من توفر النسيج في الشام ومصر وغيرهما[3].

والمكان الثاني هو "الشام" الذي ذكره سيبويه في قوله: "ذهبت الشامَ"[4]، وقوله كذلك: "أما أن أسير إلى الشام فما أكره، وأما أن أقيم فإن فيه أجراً"[5]، فكلا المثالين يدلان على أن للشام مكانة متميزة عند سيبويه، بالإضافة إلى فكرة قداسية الشام وبركتها، إيمانا منه بفكرة قداسة بيت المقدس وأكنافه في الشام، لذلك أشار إلى الإقامة والأجر.

ومن الأمثلة الدالة على وجود علاقات اجتماعية قوية بين أفراد المجتمع قول سيبويه: "إذا كان غدٌ فأتني... وإن شئت قلت: إذا كان غداً فأتني"[6]، وقوله: "كلمته فاه إلى فيَّ... كأنه قال كلمته مشافهة"[7]، وقوله: "رأى عبد الله زيداً صاحبنا"[8]، وقوله: "نبأت زيداً عمراً أبا فلان"[9]، وقوله: "ليته عندنا يحدثنا"[10].

فالأمثلة كما نلاحظ ذات أبعاد تواصلية محضة، إذ تدل في مجملها على المباشرة في تنفيذ الفعل الكلامي، وهي على الترتيب تدل على الإتيان والمشافهة، وتعريف الأصدقاء بعضهم ببعض، ونقل أوصاف الناس، والحرص على الحديث عند اللقاء، يجعل هذا اللقاء قناة

(1)- الكتاب، ص: 211
(2)- نفسه، ج2، ص: 120
(3)- رؤى لسانية، ص: 146
(4)- الكتاب، ج1، ص: 414
(5)- نفسه، ص: 155
(6)- نفسه، ص: 224
(7)- نفسه، ص: 391
(8)- نفسه، ص: 39
(9)- نفسه، ص: 41
(10)- نفسه، ج3، ص: 93

للحوار ونقل الأخبار، بل دليلا على قوة الترابط الاجتماعي ووحدة المجتمع وتجانسه، وهو الأمر الذي قال به "هدسن" من أن "الذين يشعرون بتقاربهم الروحي يقترب بعضهم من بعض نسبيا عند التعامل، وبذلك تقع علاقات المحبين في جانب، وتقع في جانب آخر المواقف غير الشخصية والرسمية"[1].

فكأن سيبويه قد تَنَبَّهَ إلى حيوية الموقف الكلامي عند العرب، فتركزت أمثلته النحوية على الضرب والرؤية والحديث، وما كثرة الحذف السياقي في العربية إلا دليل على دور السياق الكلامي الاجتماعي في إسقاط بعض العناصر النحوية[2].

ويبدو أن أمثلة سيبويه لا تخرج عن بيئته "البصرة" ولا تكاد تبرح مجتمعه حتى تشير إلى كل خصوصيات ذلك المجتمع في ذلك العصر، وهذا شيء من زي أهل البصرة كانوا يرتدونه أو يلبسونه على رؤوسهم، فقط أن الأمثلة عن ذلك غير دقيقة، ولكنها مفهومة بحكم أن الشيوع والوضوح يصبحان مسوغين للتخفف من بعض قيود النحو، نحو قول سيبويه: "أدخلتُ في رأسي القلنسوة، والجيد أدخلت في القلنسوة رأسي"[3]، فلبس القلنسوة عادة اجتماعية، ولكن ليست هي التي تدخل في الرأس، بل العكس، لهذا استدرك سيبويه الخطأ بالجملة الثانية بقوله: "والجيد، أدخلت في القلنسوة رأسي".

ومن باب اللباس، إلى باب المعاملات التي تظهر في قول سيبويه: "بعت متاعك أسفله قبل أعلاه؛ وسقيت إبلك صغارها أحسن من سقيي كبارها"[4]، فلعل بيع المتاع كان عادة أهل البصرة، خاصة المجاهدين الذين كانوا يذهبون إلى الجهاد لا يدرون متى يعودون، فيبيعون متاعهم قبل الخروج إلى الجهاد تحسبا من عدم العودة، إما بسبب الاستشهاد أو بسبب الاستقرار في البلاد المفتوحة[5].

(1)- علم اللغة الاجتماعي، هدسن، ترجمة: عبد الغني عياد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987، ص: 228

(2)- رؤى لسانية، ص: 147

(3)- الكتاب، ج1، ص: 181

(4)- نفسه، ص: 152

(5)- رؤى لسانية، ص: 147

ويلتمس من سقي الإبل تفسير تاريخي اجتماعي في الانتجاع والارتياع[1]، وذلك راجع إلى الموقع الجغرافي لمدينة البصرة التي تقع على فم بادية الجزيرة العربية الشمالي الشرقي، وبديهي أن تنجع إليها بعض القبائل العربية من البادية طلبا للماء والكلإ، أو الاستقرار أحيانا، وقد عَبَّرَ سيبويه عن هذا الانتجاع بعبارة موجزة وبليغة حين قال: "بنو فلان يطؤهم الطريق... يريد أهل الطريق"[2].

وقد علق ابن جني على هذا المثال، فقال: "فيه من السعة إخبارك عما لا يصح وطؤه، بما يصح وطؤه، ووجه التشبيه إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه، فَتَشَبَّهْتَهُ بهم إذا كان المُؤَدَّى له، فكأنه هم، وأما التوكيد فلأنك إذا أخبرت عنه بوطئه إياهم كان أبلغ من وطئ سالكيه لهم، وذلك أن الطريق مقيم ملازم، وأفعاله مقيمة معه وثابتة بثباته، وليس كذلك أهل الطريق لأنهم قد يحضرون فيه وقد يغيبون عنه، فأفعالهم أيضا حاضرة وقتا وغائبة آخر، فأين هذا مما أفعاله ثابتة مستمرة، ولما كان هذا كلاما؛ الغرض فيه المدح والثناء، اختاروا له أقوى اللفظين لأنه يفيد أقوى المعنيين"[3].

ومما يدل على اجتماع أهل البصرة في حرها الشديد صيفا. قول ابن عصرهم سيبويه: "اجتمع القيظ، يريد اجتمع الناس في القيظ، فتوسع وأوجز"[4]، فالعبارة مختصرة تقليلا في الجهد والوقت، وإشارة إلى أن حرارة الصيف لم تكن لتمنع مجتمع البصرة من الاجتماع والكلام وتسيير شؤون حياتهم، وفي قوله: "صككت الحجرين أحدهما بالآخر"[5]، آية كذلك على بعض عاداتهم في كيفية إشعال النار.

ومن أبدع وأروع ما صور سيبويه مثاله النحوي الذي يدل على قساوة الصحراء، خاصة إذا مرض المرء في خلائها الواسع الشاسع، إذ لا يجد لا أنيسا ولا معينا، فلم يكن

---

(1)- التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، عبد العزيز الدوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1986، ص: 47

(2)- الكتاب، ج1، ص: 212-213

(3)- الخصائص، ابن جني، ج1، ص:246-247

(4)- الكتاب، ج1، ص: 215

(5)- نفسه، ص: 153

الركوب حينذاك ميسرا للجميع، وكم يكون السير صعبا وشاقا لا يعلم مشقته إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال سيبويه: "مرض حتى يمرَّ به الطائر فيرحمه، وسرت حتى يعلم أني كالٌّ"[1].

وبالإضافة إلى كل ما سبق ذكره، يشير سيبويه إلى أكلة شعبية قليلة التكلفة، محببة إلى العرب في عصره، اسمها "الثريد" الذي أصبح عادة شعبية اجتماعية متميزة للاحتفال بالعيد الأمازيغي (الناير) من كل سنة في عصرنا الحالي، والثريد طعام معروف يهشم من الخبز ويبل بماء القدر وغيره[2]، وقد شاعت هذه الأكلة في كتب النحو، نحو قول سيبويه: "كيف أنت وقصعة من ثريدٍ"[3].

نستنتج بعد كل ما عرضناه، أن الأمثلة التي أوردها سيبويه هي بنات عصره تحيا بين الناس بأبعادها النحوية والاجتماعية والثقافية، وكتاب سيبويه لا يمثل القرن الثاني الهجري فقط، وإنما فيه شعر جاهلي يعبر عما قبل الإسلام، واعتمادا على الأمثلة المقدمة في الكتاب، يمكننا القول بأن سيبويه كان واقعيا في تخير أمثلته النحوية وصياغتها، فهو لم يرسم لمجتمعه -البصرة- صورة مثالية فاضلة، بل ذكر مثالبه ومناقبه، فتحدث عن الضرب والشتم والقتل والسرقة وغيرها، نحو قوله: "هذا رجل ضربناَ"[4]، "وأما زيد فاقتله"[5]، و"سرقت عبد الله الثوبَ الليلة"[6]، و"أنت أكرمُ على من ضربَكَ، وأنت أنكدُ من أن تتركه، أي أنت أكرم عليَّ من صاحب الضرب، وأنت أنكد من صاحب تركه"[7].

(1)- الكتاب، ج3، ص: 19

(2)- لسان العرب، مادة (ثرد)

(3)- الكتاب، ج1، ص: 299

(4)- نفسه، ص: 16

(5)- نفسه، ص: 138

(6)- نفسه، ص: 41

(7)- نفسه، ص: 213

ويبدو واضحا جليا أن سيبويه لم تكن له أي علاقة بالدولة، إذ لا يوجد أي إشارة أو أمثلة ترتبط بالدولة، وتشير سيرة حياته حسب ابن الأنباري إلى أنه كان زاهدا في التقرب إلى أمراء بني العباس كشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي[1].

- **أقسام النحو في الكتاب:**

بناءا على الدراسات اللغوية الحديثة، يبدو أن سيبويه قد ميز بأمثلة بين ضربين من النحو:

أ. النحو السياقي:

الذي يفسر صيغا وتراكيب يتداولها الناس فيما بينهم في عصرهم عند الاستعمال الحي للغة، تعبيرا عن التواصل بينهم، ومن أجل إنجاح هذا التواصل، فهم يحذفون ويخففون، يقدمون ويؤخرون، اعتمادا على ملابسات الموقف الكلامي، وحصر وظيفة اللغة في التواصل حتى يكون الاستعمال اللغوي وسيلة لا غاية[2].

ب. النحو النصي:

وهذا الضرب يموت فيه السياق غالبا وتحيا القاعدة، فيأتي الكلام بحسب القاعدة، حتى وإن كان فيه توسع وحذف وتقديم، فإن هذا لا يتعدى الحدود التي تجيزها القاعدة النحوية، يدل هذا الكلام على عزل القاعدة عن السياق، مجردة بصورة رياضية، لا يقوم النص إلا باتخاذها منهجا ومعيارا[3]، على أن يستخدم المتكلم أو المنشئ اللغة في إنشاء نصه استخداما فنيا الغرض منه التواصل عبر النص دون أن يتخفف من قيود النحو، بل يتمثلها غايةتحمي نصه.

وجدير بالتنبيه أن الضرب الثاني، أي نحو النص هو الذي غلب على أعمال نحاة العربية، إذ أضحى نحوهم معياريا بعيدا عن الاستعمال الحي للغة، بينما لم يفت سيبويه ما

(1)- نزهة الألباب في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت577هـ/1181م)، تح: السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 1985، ص: 54-55

(2)- رؤى لسانية، ص: 149

(3)- علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، ص: 72-73

للسياق من دور في توجيه قواعده النحوية، ومن الملاحظ السياقية التي سجلها سيبويه لكل متفحص متعمق في كتابه ما يلي:

1) قوله: "دعنا من تمرتان"، إذ حمل كلمة "تمرتان"[1] على الحكاية، فقال: "إجابة على الحكاية لقوله: ما عنده تمرتان"، فالتمر وما أكثره في البصرة، وقد لا يتنبه المرء عند حديثه عنه إلى ضوابط الإعراب لوضوح المعنى وجلائه ولكن سيبويه لم يفته ذلك، فحمل هذا الكلام على باب الحكاية وقام بتحليله وباب الحكاية، باب نحوي مبني على مراعاة ما يقتضيه سياق الكلام[2].

2) وقوله: "وتقول إذا كان غدٌ فأتني... وإن شئت قلت: إذا كان غداً فأتني، وهي لغة بني تميم، والمعنى أنه لقي رجلا، فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء في غدٍ فأتني، ولكنهم أضمروا استخفافا.. ولأن المخاطب يعلم ما يعني فجرى بمنزلة المثل، كما تقول لا عليك، وقد عرف المخاطب ما تعني، أنه لا بأسَ عليك"[3].

يحمل هذا النص أبعادا سياقية تواصلية ليس سهلا أن يلاحظها أو يتفطن إليها إلا من خبر عصره وتمكن من لغته كسيبويه الذي تبينها، و لم يجد فيها خروجا عن سنن العربية، فقد اختبر جملة "لا عليك" لوعيه أن المتكلم قد حقق مقصده؛ وهو إيصال كلامه إلى المخاطب كاملا في جملته المختصرة، ولهذا فقد تواصل المتكلم والمخاطب، والتواصل غاية اللغة[4].

ومهما يكن من أمر النحو السياقي أو النحو النصي، فلابد من التحوط بتأكيد أنّ نحو السياق الذي يفسر الاستعمال[5]، لا يجوز أن يعتمد كمقياس يتبع في تركيب الكلام، إلا إذا اتفق مع معايير نحو النص[6]، فلا يجوز مثلا أن نقيس على جملة: "أدخلت في رأسي القلنسوة"

(1)- الكتاب، ج2، ص: 413

(2)-رؤى لسانية، ص: 149

(3)- الكتاب، ج1، ص: 224

(4)-رؤى لسانية، ص: 149

(5)-علم اللغة الاجتماعي (مفهومه وقضاياه)، صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، 1995، ص: 253-254

(6)- نفسه، ص: 254

أو "هذا الضاربُ الرَّجُلِ" لأن قبول هاتين الجملتين اعتمد تسويغا من سيبويه أفقد العلامة الإعرابية قيمتها الوظيفية، ولعل هذه الإلماحة من سيبويه هي التي سبقت إلى عقل تلميذه محمد بن المستنير المعروف بقطرب[1]، فقال رأيه المشهور: "إنَّ حركاتِ الإعرابِ للوصلِ في درجِ الكلامِ، ولَيْسَتْ ذَاتَ قِيمَةٍ دَلالِيةٍ مُطَّرِدَةٍ"[2].

ولعل الخلاف بين البصريين والكوفيين كان في وجه من وجوهه خلاف في البعد غير النحوي للجملة، الذي يسمح باتخاذها أصلا ومقياسا، فالبصريون -على العموم- كانوا يميلون إلى عزل الجملة عن قياسها، لذلك أقاموا المعايير الثابتة المجردة وقللوا الآراء، وتشددوا في الرخص النحوية، بينما الكوفيون -على العموم- تسمحوا في الحدود غير النحوية أحيانا[3]، إذ نظروا إلى المعنى والسياق، وجعلوهما مناط الترخص في النحو، فغدا نحوهم أقرب إلى مفهوم نحو السياق، حتى إن مصادرهم كتب غير نحوية في الأصل، كمعاني القرآن للفراء، وشارح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري[4].

ولعل سبب انزواء نحو الكوفيين بعد القرن الرابع الهجري أن المتأخرين لم ينتبهوا إلى هذه الصفة الطبيعية في النحو الكوفي الذي يحتاج إلى تحديث في معطياته ونتائجه وضوابطه بين الفينة والأخرى، لأن السياق تابع للظروف والتغيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية الاقتصادية، أي إنه يحتاج إلى دارسة تزامنية وصفية، لأنه نحو اجتهادي متجدد[5].

وعلى عكس النحو الكوفي، فقد كان نحو البصريين نحواً نصياً ثابتاً معزولا عن السياق[6]، لذا فإن طبيعته لم تستدع إعادة النظر فيه بين فترة وأخرى، أما نحو سيبويه، فقد

---

(1)- رؤى لسانية، ص: 152

(2)- الإيضاح في علل النحو، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت339هـ/950م)، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1979، ص: 70-71

(3)- حضارة العراق، مبحث اللغة والنحو، د. خديجة الحديثي، دار الحرية، بغداد، 1985، ج3، ص: 240-246-250-255

(4)- رؤى لسانية، ص: 152

(5)- نفسه، ص: 152

(6)- نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، حسن خميس الملخ، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1998، ص: 97-99

جمع كلا من خصائص الضربين، السياق والنص في نسيج لغوي لا نظير له في تاريخ العربية[1].

لقد استطاع سيبويه بذكائه النادر تقليب النظر في كل أمثلته، مستثمرا كل الأبعاد الدلالية والتداولية في التقعيد النحوي، وتقسيم اللغة إلى مستويات من حيث القياس عليها في إطارين، زماني واقعي، وتجريدي غير زماني، نعتقد أن هذه دعوة منه لكل الأجيال اللاحقة من باحثين ودارسين إلى استعمال أمثلة من الواقع المعاصر الفصيح للغة العربية حتى تكون أقرب دلاليا للمتعلم، وأجدى منفعة له من أمثلة قديمة تحتاج إلى شرح طويل لأبعادها غير النحوية لا يدركها المتعلم لأنها لا تنتمي إلى عصره ولا إلى مجتمعه، مع استثمار القرآن الكريم والشواهد القديمة من منظوم الكلام ومنثوره في التطبيقات، لمتابعة تمكن المتعلم من القاعدة النحوية، وحتى يبقى على اتصال وتواصل مع تراثه، والخير كل الخير في استضاءة الظاهرة النحوية بمنهج يناسبها، وتقديمها للمتعلمين وفقها، لتكون العلاقة بين كل المناهج علاقة تكامل لا انفصام أو تصادم، ولعل تكامل المناهج (معياري، اجتماعي، تاريخي، وصفي، مقارن بصري، كوفي) في كتاب سيبويه هو سر خلوده.

(1)- رؤى لسانية، ص: 152

الفصل الرابع:

التبليغ السيبويهي

في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة

المبحث الأول: سيبويه وأثره في النحاة واللغويين العرب

المبحث الثاني: التبليغ السيبويهي وبعض اتجاهات الدرس اللغوي في الغرب

المبحث الأول: سيبويه وأثره في النحاة واللغويين العرب

تمهيد:

إذا عدنا إلى التراث العربي في مفهومه للغة والبلاغة، والبيان والفصاحة، ألفيناه يركز على خاصية التواصل، فهذا ابن جني يعرف اللغة بقوله: "أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، نستنتج من هذا التعريف الخاصية الجماعية للغة، وهي نفسها خاصية التواصل، فاللغة لا تسمى لغة إلا إذا أدت وظيفتها بين المخاطبين، وهؤلاء المتخاطبون يتخذونها وسيلة للتعبير عن حاجاتهم ومآربهم الحياتية اليومية، ومن هنا يكون استعمال اللغة تواصليا على مدار كل ما يسبح في الفلك ليلا ونهارا.

وعلى هذا الأساس لابد من التطرق إلى الكتب والمعاجم التي تناولت التواصل العادي، ثم المرور إلى المؤلفات التي تعرضت للتواصل الراقي (الأدباء، الشعراء)، ومن الصنف الأول نذكر كتاب "لحن العوام" للزبيدي، ثم معجم "أساس البلاغة" للزمخشري، أما الصنف الثاني فللجاحظ من خلال كتابه "البيان والتبيين"، وعبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز"، وابن جني من خلال كتابه "الخصائص".

1. كتب لحن العامة وفكرة تواصلية اللغة:

يشهد التاريخ على وعي قدماء العرب بالوظيفة التواصلية للغة من خلال كتاب "لحن العوام" لصاحبه أبي بكر الزبيدي (316-379هـ)، هذا الكتاب الذي ركز على مصطلح "العامة" والمقصود به تلك الشريحة العريضة من المجتمع التي تلتزم نمطا موحدا يضمن لها عملية التواصل بامتياز، ومن ثم فالمستوى اللغوي الذي تستلزمه هذه المؤلفات هو مستوى التداول، وإن كان هذا يمثل انحرافا بالنسبة لعلماء البلاغة، فإن اللسانيات تعده -تطورا كبيرا للغة- عن مستوى اللغة المعيارية (الفنية) التي تحويها الكتب الخاصة بالأدباء الشعراء والخطباء[2].

---

[1]- أبو بكر محمد الزبيدي، صاحب كتاب "لحن العوام"

[2]- لحن العوام، أبو بكر محمد الزبيدي، تح: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2000، ص: 06

وفي مقدمة تحقيقه لكتاب الزبيدي، يذهب رمضان عبد التواب إلى أنه: "...ليس المقصود بالعوام هنا الدهماء، وخشارة الناس، وإنما المقصود بهم عند هؤلاء -أي الذين كتبوا في هذا الموضوع- هم المثقفون الذين تتسرب لغة التخاطب في الحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى، بل لقد وصل الأمر ببعضهم إلى أن يركزوا على خاصة المثقفين"(1).

ولعل المحقق يكون قد اعتمد في مقولته السابقة على ما جاء على لسان الزبيدي ذاته في مقدمة كتابه التي يستهلها بقوله: "...فألفيت جملا مما أفسدته العامة عندنا فأحالوا لفظه أو وضعوه غير موضعه، وتبعهم على ذلك الكثير من الخاصة، حتى ضمنته الشعراء أشعارهم، واستعملته جلة الكتاب في رسائلهم..." (2).

وانطلاقا من هذا الرأي للزبيدي، يتضح أن المقصود "بالعامة" هو الشريحة الواسعة من المجتمع، ومن هنا فالمستوى المقصود دراسته في تلك الكتب كان المستوى العادي، يدل على ذلك أقوال الوبيدي التي نوردها للمتلقي حتى يتمعن فيها، إن مؤيدا وإن معارضا مُعَلِّلاً:

أ. "ولم تزل العرب العاربة في جاهليتها وصدر من إسلامها تنزع في نطقها بالسجية.. حتى فتحت المدائن.. فاختلط العربي بالنبطي، والنقي الحجازي بالفارسي، فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن في ألسنة العوام"(3).

ب. "...ثم فشا اللحن بعد ذلك، وكثر بقدر اختلاط الناس، وكثرتهم، ونشوء الذرية على ما فسد من لفظهم"(4).

ج. "...ثم نظرت في المستعمل من الكلام في زماننا وبأفقنا، فألفيت جملا لم يذكرها أبو حاتم، وغيره من اللغويين، مما قد أفسدته العامة عندنا، فأحالوا لفظه أو وضعوه غير موضعه وتابعهم في ذلك أكثر الخاصة، حتى ضمنتهم الشعراء أشعارهم واستعملته جلة الكتاب، فرأيت أن أنبه عليه وأبين وجه الصواب فيه... وأن أفرد لما يحضرني

(1)- لحن العوام، الزبيدي، ص: 06

(2)- نفسه، ص: 61

(3)- نفسه، ص: 59

(4)- نفسه

منه كتابا أحصره به، ونزع اجتلاب ما أفسده دهماء العامة، وسقاطهم مما عسى أن لا يغرب عمن تمسك بطرف من الفهم"[1].

د. "ولعل طاعنا يطعن في كتابنا هذا، بما ذكرناه من الكلام السوقي واللفظ المستعمل العامي، جهلا منه، أن الفساد إنما يقع في المستعمل على الألسنة، وأن الوحشي مصون عن التغيير والإحالة لقلة استعماله وجهل عوام الناس به"[2].

ه. "...يقولون لواحد الثآليل: ثألول والمتصفح منهم يقول آثلول، والصواب ثؤلول"[3].

إن المتتبع للأقوال السابقة، يدرك أن الزبيدي يقصد بعامة الناس كل من الشعراء والأدباء والكتاب والبلغاء، ومن دهماء العامة الذين أخذت عنهم الرطانة كل مأخذ، ثم إنه عندما خاض في الكلام عن اللحن، فإننا نجده قد ربطه بظاهرة الاختلاط التي ميدانها الأسواق والأحياء والمتاجر -وبديهي- أن تتناسب سرعة انتشار اللحن تناسبا طرديا مع كثرة الاختلاط واتساع رقعته، ثم يزداد هذا اللحن رسوخا حتى يأخذ نوعا من الشرعية داخل المجتمع الذي يمثل أجيالا متعاقبة، فينشأ جيل ما بعد الاختلاط، هذا الجيل الذي لا يملك مناعة ولا حصانة من هذه الظاهرة، فقط اللغة الأصل الأم التي بإمكانها أن تمثل تلك المناعة وتلك الحصانة، لذا دعا ويدعو العلماء في كل حين ومع كل جيل، التشبث باللغة الأصل، ومحاربة كل دخيل، وذلك عن طريق مؤلفاتهم، ودراساتهم ومحاضراتهم.

ولقد حاول الزبيدي تبرير اعتنائه بهذا المستوى من اللغة -الكلام السوقي واللفظ العامي- وذلك أنه المستوى الأكثر تعرضا للفساد والتغيير بسبب تداوله بين الناس، إذ يستعملونه في محادثاتهم وفي تعاملاتهم التجارية، وفي تعاملاتهم الاجتماعية، على نقيض المستوى الراقي للغة، والذي صانه عن اللحن أنه نخبوي من حيث الطبقة، ومن حيث نوع اللغة[4].

(1)- لحن العوام، الزبيدي، ص: 61

(2)- نفسه، ص: 64

(3)- نفسه، ص: 69

(4)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 41-42

ولعل ما يهمنا من تصفح كتب لحن العوام، هو اعتناؤهم باللغة الشفهية على حساب اللغة الخطية، وذلك اعتمادا على ما جاء في مؤلفاتهم من لفظة، يقولون، يقول العوام، تقول العامة، -وكما هو معلوم- فإن معظم الدراسات اللغوية الحديثة تركز على اللغة الشفهية؛ لأنها من أهم سمات لغة التداول بينما تبقى اللغة المكتوبة حكرا على ثُلَّةٍ من المثقفين والمتخصصين كل في مجاله.

2. المعاجم وفكرة تواصلية اللغة:

لم يكن أمام المعجميين الأوائل أمثال: أبي الأسود الدؤلي، الخليل ابن أحمد الفراهيدي، سيبويه، وغيرهم كثير -لم يكن أمامهم- منبعا ينهلون منه مادتهم اللغوية إلا المجتمع العريض ببواديه وحواضره، ذلك المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه أو يتصلون ببواديه وحواضره، ويسمعون منهم يسجلون عنهم، وبقي الحال على ما كان عليه إلى أن جاء المتأخرون، ومن هؤلاء: الزمخشري (ت583هـ) صاحب معجم "أساسا البلاغة"، نصب اهتمامه على تقنيتين أساسيتين هما السياق والمشافهة.

أ. **السياق:** خالف الزمخشري المعجميين الأوائل الذين أقاموا معجماتهم على شرح الكلمة بالكلمة، وذلك أنه اعتمد في تبيين معاني المفردات على التراكيب.

ب. **المشافهة:** تجاوز الزمخشري قيدي الزمان والمكان الذين وضعهما العلماء شرطا لتدوين اللغة، إذ حصروا ذلك في زمن معين في البوادي، وهذا الأمر يذكرنا بدراسة دي سوسير للغة وهي الدراسة الآنية (Synchronique) في مقابل الدراسة التاريخية أو التزامنية للغة (Diachronique).

وبذلك يكون الزمخشري قد رسخ المنهج الوصفي في التعامل مع اللغة التي تظهر من خلال منهجه على أنها وسيلة تواصل لا تظهر قدراتها إلا أثناء الاستعمال والتداول، مهما كان مستوى التواصل، وهذا عينه ما تنادي به المناهج والاتجاهات الحديثة التي تدرس التواصل، كالتداولية، وعلم النص، وعلم الاتصال.

ولأن تقنية المجاز هي الجزء المتغير من اللغة والكفيل برسم المميزات لكل جيل، ولأن اللغة تحيا بين مستعمليها، إذ تتطور وتنمو وتتغير وتعتمد السياق لا الكلمة، فقد ألفينا الزمخشري يركز اهتمامه على المعاني المجازية للكلمة، وإليك بعض النماذج التي تثبت ما ذهب إليه:

1) في مادة (ن ط ح): "..سمعت منهم من يقول: جرى لنا في السوق نطاح وأي نطاح".
2) وفي مادة (ب ل غ): "..ومن المجاز: يقول أهل مصر: اشترى فلان بغلة حسناء، يريدون الجارية".
3) وفي مادة (ج ر م): "..ويقول أهل الحجاز: أعطيته كذا جريما من التمر".
4) وفي مادة (د ق ن): "..ويقول أهل بغداد: في دقنك أي في لحيتك".
5) وفي مادة (ط ر ر): "وسمعت المغاربة: الدرر على الطرر، وهي حواشي الكتب".
6) وفي مادة (خ ض د): "..وقيل لأعرابي كان يعجبه القثاء: ما يعجبك فيه؟ قال خضده، أي تكسره، ومنه قول صبيان مكة في ندائهم على القثاء: العثري، العثري، عثر فتكسر".
7) وفي مادة (ت و ر): "..وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالتَّوْر: وهو إناء صغير وهو مذكر عند أهل اللغة ومررت بباب العمرة على امرأة تقول لجارتها: أعيريني تُوَيْرَتَكِ وسمي بذلك لأنه يُتَعَاوَرُ ويَرَدَّدُ".
8) وفي مادة (ف ث ر): "فلان واسع الفاثور وهو الخوان من رخام، وقيل من فضة أو ذهب وهو عند العامة الطَّشْتَخَان".
9) وفي مادة (و م هـ): "..وسمعت بالبادية كوفيا يقول لأعرابي: كيف ماوان؟ قال: مَيِهَة قال: أَمْيَهُ مما كانت؟ قال: نعم..".

وغير هذه المواضع في الأساس كثيرة جدا، وقد سقتها حتى يتأكد القارئ من وعي القدامى بتداولية اللغة العربية، وأنها ليست حكرا على المستوى الفني فقط، وكل ما نص مما سبق يشهد بتتبعهم للغة العربية وهي تنتقل بين ألسنة الجماهير العريضة للمجتمعات العربية

والإسلامية، تعبر عن حاجاتهم واهتماماتهم وتقرب بينهم الشقة، وتصل بين فئات المجتمع المختلفة، وكما أشرت آنفا، إذا كان الأمر بهذا الوضوح عند الزمخشري وهو من أبناء القرن السادس، فالأمر عند أوائل المعجميين أكثر وضوحا، حيث إنهم دونوا لنا اللغة العربية كما كانت عند مستعمليها في البوادي والحواضر مشافهة، ولم يستندوا على مؤلفات البتة وعند المتأخرين تختلف درجة اعتماد المعجمي على الواقع المعيش واللغة الآنية بحسب شجاعته العلمية ومؤهلاته المعرفية ونظرته الخاصة لطبيعة اللغة(1)، يؤكد كلامنا هذا كتاب سيبويه الذي نعتقد أنه منبعا للزمخشري.

هذا، إذن عن كتب لحن العوام، وفكرة المعاجم وعلاقاتها بالتواصل، فماذا عن التواصل في كتب البلاغة العربية؟

3. نظرية التواصل في كتب البلاغة العربية:

أ. نظرية التواصل عند الجاحظ:

لا أحد من الدارسين ينكر المجهودات الجبارة التي بذلها الجاحظ لإرساء قواعد متينة للبيان العربي (البلاغة بعلومها الثلاثة)، ولعل الذي ساعد على ذلك، كونه عالما لسانيا ولغويا أمضى عمره كله في دراسة لغة القرآن، ضف إلى ذلك أنه كان يترأس فرقة من المعتزلة بفكره البارع، ثم إنه صاحب مذهب في البيان(2).

وعلى الرغم من اتصال الجاحظ بالملوك والأمراء، إلا أنه عايش الطبقات الدنيا من المجتمع، فعرف خباياها ومكنوناتها، يقول عبد الحكيم بليغ: "لقد أفاد الجاحظ إفادة جمة من مداخلته للناس، وطول مراسه لأحوالهم وبشؤونهم، وتدبره لما يجري في حياتهم من خير وشر، فأدرك كل شيء على حقيقته"(3).

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 46

(2)- ينظر في حياة الجاحظ، كتاب، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية، دمشق، 1961

(3)- النثر الفني وأثر الجاحظية، عبد الحكيم بليغ، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، دت، ص: 232

ولعل تلك الأسباب مجتمعة هي التي ساعدت الجاحظ على إرساء قواعد البيان العربي، كما ساعدته على دراسة اللغة وهي تؤدي وظيفتها في المجتمع، تلك الوظيفة المتمثلة في التواصل بشقيه النوعي والعادي، بناءا على الطبقة التي يجري فيها، أو من حيث مستوى اللغة التي يجري بها.

وجدير بالذكر، أن ما جعل ثمار دراسة الجاحظ "للبيان والتبيين" تأتي أكلها، هو حضارة عصره الذي ضم رجالا أقاموا قواعد التقدم والسبق، حيث ارتفعت مقاييس الحضارة والتقييم سواء في باب تنظيم الدولة أو في تسيير الأموال أو في نشر الفكر والعقيدة، أو في طبيعة علاقة الأفراد مع نظام الدولة أو في علاقة بعضهم بعضا[1].

ب. مفهوم اللغة والإنسان عند الجاحظ:

يرى الجاحظ أن الإنسان هو "العالم الصغير سليل العالم الكبير"[2]، ويوضح معللا هذا الجمع بين الكون بما يحويه وبين الإنسان ذلك الجرم الصغير بأنه -أي الإنسان- "يصور بيده كل صورة، ويحكي بفمه كل حكاية، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع، وإن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا"[3].

فالمتتبع لهذا القول يلاحظ أن الإنسان يتميز بكل صفات الكائنات الحية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، إذ يشبه الطيور والسباع، فهو يأكل أكلها ويسكن مسكنها -جوا وبرا وبحرا- ينتقل تنقلاتها إن مشيا أو طيرانا أو غوصا وسباحة، هذا من جهة، ثم إنه قد جُعِلَ حِكْمَةً من لدن الخالق العزيز الحكيم إذ "كان دليلا مستدلا"[4].

فالإنسان خلقه الله حكمة مع عقله للحكمة، بينما الحيوان فهو حكمة ولكنه لا يعقل الحكمة، ولا عاقبة للحكمة لديه، ومن هنا أضحت اللغة أو البيان هي الخاصية المميزة

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 50

(2)- الحيوان، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1969، ج1، ص: 212

(3)- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط4، دت، ج1، ص: 70

(4)- الحيوان، ج1، ص: 33

للإنسان، ولذلك قال صاحب المنطق: "حد الإنسان الحي الناطق المبين"[1]، وعلى هذا الأساس غدت اللغة هي الميزة الأساسية لهذا الإنسان، فهي تميزه عن باقي العالم، إذ تمثل بالنسبة إليه الأداة المثلى للتواصل (البيان والتبيين = الفهم والإفهام).

وإذا كانت اللغة من أرقى وسائل الاتصال بالنسبة للإنسان، فإن الكون بكل ما فيه من مجموعات مختلفة من طيور وحشرات وحيوانات في تواصل، فبعضه عن طريق الإشارة، وبعضه بالرائحة وذلك بالصوت، ولكن الإنسان وحده فقط هو الذي باستطاعته التواصل بكل هذه الأشكال التواصلية، وهذا الذي أقره سيبويه في كتابه، حينما تحدّث عن تسديد السهم، ورؤية الحاج، وتكبيرات الناس لرؤية الهلال، أو لمست جسدا أو شممت ريحا.

ولذلك وجدنا الجاحظ يقرر حقيقة وهي أن الله تعالى "فضل الإنسان على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة"[2]، فإذا ما رام تعلم لغة ثانية، فإنه يستطيع تحقيق ذلك بالتمرن والدراية، وقد ينسحب الأمر على كل نشاطاته الحياتية، عكس الحيوان الذي زوده الله بفطرة خاصة تملي عليه نوع الغذاء ونوع الحركة،...، ولذلك يرى الجاحظ أن الله قد "أجمع الخلق لخصال الخير"[3]، وأن اللغة هي نعمة من الله على الإنسان، إذ يذكر الله جميل بلائه في تعليم البيان وتقويم اللسان في قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[4]، ومن ثم فالبيان التام ما لقي معونة إليه وتوفيقا ربانيا[5]، ولعل هذا البعد الروحي غائب في المدارس اللغوية الحديثة[6].

واللغة شأنها شأن الإنسان، فكما أن الإنسان يعيش في مجتمع به طبقات وأجناس فكذلك "كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم طبقات"[7]، وهذا الأمر يوضح فهم

(1)- الحيوان، الجاحظ، ج1، ص: 33

(2)- نفسه، ص: 70

(3)- نفسه، ص: 194

(4)- سورة الرحمن، الآية: 01-04

(5)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 06

(6)- المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، دار الحكمة، دط، 2002، ص: 11

(7)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج2، ص: 198

الجاحظ للدور التواصلي التداولي للغة، فهي لا تكون في طبقة معينة إلا مارست وظيفة التواصل حتى تكتسب مجموعة من المواصفات تجعلها تنتمي إلى تلك الطبقة، ومن هذه المواصفات: طبيعة الكلام، طبيعة الموضوع، طبيعة اللفظ وطبيعة المقام، ولذلك يعد الجاحظ كما جاء على لسان محمد العمري: المصدر الرئيس المنظِّرُ للخطابِ الشفهي في باب البلاغة[1]، ويرى كمال بشر أن من دلائل وعي الجاحظ باجتماعية اللغة هو كلامه عن طبقات المجتمع، وخصوصية لغة كل طبقة، وكذا حديثه عن المقام وبظروف الحال المتعلقة بالمقام[2]، وإذا كان سيبويه قد سبق الجاحظ في الزمن، فإنهما يتفقان في نظرتهما إلى اجتماعية اللغة.

ج. أدوات التواصل عند الجاحظ:

حينما بدأ الجاحظ في ذكر "البيان" ركز على دوره التواصلي الاجتماعي، وذلك أن الإنسان يحتاج إلى اللغة إذا كان يعيش وسط مجتمع تختلج في نفوس أفراده معان مستورة خفية، لا يكشف عنها سوى البيان الذي "جعله الله تعالى سببا فيما بينهم معبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعرفا لمواضع سد الخلة، ورفع الشبهة ومداواة الحيرة"[3]، "فالدلالة على الخفي هو البيان"، وكلما كان هذا البيان واضحا فصيحا، كلما ازدادت منفعته، وهذا النوع من البيان هو ذلك البيان الذي قال عنه الجاحظ "هو الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن"[4].

وعلى هذا الأساس فالبيان (الإفهام) الذي قال به الجاحظ هو الوسيلة التي يتم بها التواصل بين شخصين "فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[5].

---

(1)- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2001، ص: 71

(2)- علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط3، 1997، ص: 115-166

(3)- الحيوان، الجاحظ، ج1، ص: 44

(4)- البيان والتبيين، ج1، ص: 75

(5)- نفسه، ج1، ص: 76

وفي كتاب "البيان والتبيين" يعرض الجاحظ لكل متلق أو باحث أدوات التواصل المتمثلة في قوله "أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النِّصْبَة"[1].

واعتمادا على مقياس نسبة الاستعمال، رتب الجاحظ أدوات التواصل الاجتماعي، باستعمال كلمة (أولها) وحرف العطف ثم، حيث إن تواصل الإنسان مع الإنسان يتم باللفظ والإشارة والعقد والخط. وتواصل الإنسان مع الكون باعتبار النِّصْبَة.

يلاحظ من ترتيب الجاحظ للأدوات التواصلية أنه بدأ بالخاص ثم العام، وذلك أن اللفظ يمثل اللغة المنطوقة التي هي أهم وسيلة في التواصل مع الطرف الآخر عن قرب، وتليها الإشارة مؤازرة لها -للغة- أو في حالة وجود مسافة بين الطرفين، ثم العقد الذي يعني الحساب، وهو عام في كل شيء، ثم يأتي الخط الذي يمثل الكتابة التي ليست من مؤهلات كل المتواصلين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي تستعمل في حالة وجود مسافة تفصل بين الأطراف حيث لا رؤية ولا سماع.

ومهما يكن من أمر، فإن كل الأنواع التي ذكرها الجاحظ مهمة جدا في التواصل ولكل نوع دوره، ولذلك علق الجاحظ قائلا: "وفي عدم اللفظ وفقدان الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم"[2].

لقد أسهب الجاحظ في شرح كل أداة من أدوات التواصل التي ذكرها، فأضحى التواصل خمسة أشكال كالآتي: التواصل باللفظ، التواصل الإشاري، التواصل الكتابي، التواصل بالعقد ثم التواصل بالنصبة، وهذا التواصل الأخير تواصل غير مباشر، وذلك أن النصبة/الحال تمكن الكون من التواصل مع الإنسان ، إذ "هي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة في الحيوان الناطق"[3]، وعلى هذا الاعتبار فالكون كله يتواصل بطريقته، هذا -طبعا- حسب المفهوم الإسلامي الذي استمات

(1)- البيان والتبيين، ج1، ص: 76

(2)- نفسه، ص: 80

(3)- نفسه، ص: 81

الجاحظ في ترسيخ مفاهيمه من خلال الآي القرآني الكريم، ومن خلال نظريته التواصلية التي تمثلها مؤلفاته خاصة كتاب "الحيوان" و"البيان والتبيين".

وفيما يلي عرض لأدوات التواصل عند الجاحظ بشيء من التفصيل:

➢ **التواصل باللفظ:**

اللفظ هو الأصل في التواصل الإنساني، وذلك أن الصورة الشفهية للغة هي الأقدم والأنفع، ومن هنا فالتواصل باللفظ هو الأجل على الإطلاق، لأنه متعلق باللسان الذي من أبعاده أن وصفه بعض البلغاء بقوله: "اللسان أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن ضمير، وشاهد ينبيك عن غائب، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الحقائق، ومعز ينفي به الحزن، ومؤنس تذهب به الوحشة، وواعظ ينهي عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصد يستأصل الضغينة، وملهٍ يونق الأسماع"[1].

يستخلص المتمعن من هذه الحكمة التي أوردها الجاحظ أن اللسان يؤدي الوظائف التي تقوم عليها حياة الإنسان الخاصة والعامة.

➢ **التواصل بالإشارة:** الإشارة نوعان:

أ) **إشارة مصاحبة للكلام:** لا يكاد يستغني عنها إنسان، فهي تكون إما شارحة أو مؤكدة، وفيها يقول الجاحظ: "الإشارة واللفظ وحسن الإشارة باليد من تمام البيان باللسان"[2]، ولكن هذا لا يتم إلا إذا كان هناك تناسب بين النطق باللسان، وبين الإشارة، وتتضح هذه أكثر عند الجاحظ في قوله: "والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه، وتقطيعه، ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ، وضروب المعاني ولو قبضت يده، ومنع حركة رأسه لذهب ثلث كلامه"[3].

---

(1)- البيان والتبيين، ج2، ص: 75

(2)- نفسه، ص: 79

(3)- نفسه، ج3، ص: 119

ب) **إشارة مستقيمة:** إذا تعذر على الإنسان المتكلم الاتصال بالطرف الآخر (المتلقي) بواسطة اللفظ، إما بسبب بعد المسافة أو لأمر يود إخفاءه، لجأ إلى الإشارة الجسدية، أو بأحد الوسائل المستعملة في نطاق ذلك الشخص، وهذه الإشارة هي التي يقصدها الجاحظ بقوله: "فالإشارة باليد، وبالرأس وبالعين وبالحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف"[1]، وفي بيان أهميتها ودورها الجليل يواصل الجاحظ قائلا: "وفي الإشارة.. مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ويخفونها عن الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص،[2] وذلك أن "مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت"[3].

➢ التواصل الكتابي:

قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[4]، انطلاقا من هذه الآية خلص الجاحظ إلى أن وسيلة الكتابة نعمة من الله منَّ بها على خلقه أجمعين، كنعمة اللسان تماما، لذلك قالوا "القلم أحد اللسانين"[5]، وعلى الرغم من أن الكتابة تأتي في المرتبة الثانية بعد اللفظ من حيث الأهمية، إلا أنه لا يمكن أبدا نسيان ما قدمته قديما ولا تزال تقدمه في عصرنا من وظائف جليلة أهمها:

- ضمان التواصل رغم بعد المسافة بين الملقي والمتلقي، عكس اللسان الذي تنحصر وظيفته على القرب الحاضر، بينما القلم مطلق في الشاهد والغائب[6]، فالكتابة لا تتقيد بحاجزي الزمان والمكان، ولذلك فالكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه[7]، لذلك سمّى سيبويه مؤلفه بـــ"الكتاب"، وإن كان متن

(1)- البيان والتبيين، ج1، ص: 77
(2)- نفسه، ج1، ص: 78
(3)- نفسه، ج1، ص 79
(4)- سورة العلق، الآية من 03 إلى 05
(5)- البيان والتبيين، ج1، ص: 79
(6)- نفسه، ص: 80
(7)- نفسه

الكتاب يمثل الشفاهية في أجَلِّ صورها، فإن هذا الإدراك لم يتم لنا ولكل قارئ، ولولا أن كتبه سيبويه، وكأنه كان يقصد إلى ذلك، أعني أن كتابه فيه خطاب شفاهي موجه لأبناء عصره، ونص لأبناء ما بعد عصره.

- تمكين المرسل من تدارك الخطإ وتصحيح الأسلوب قبل أن يصل خطابه أو رسالته إلى المتلقي.
- تمكين المرسل إليه من معرفة شخصية المرسل من خلال الرسالة ولذلك قيل: "رسائل المرء في كتبه أدل على مقدار عقله، وأصدق شاهدا على غيبه لك، ومعناه فيك، من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة"[1].

➢ التواصل بالعقد:

لم يسهب الجاحظ في أمر هذا النوع من التواصل كثيرا، وإنما علل قائلا: "والحساب يشتمل على معاني كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة... وفي عدم اللفظ وفساد الخط، والجهل فساد جل النعم..." [2]، مستندا إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[3]، وعلى الرغم مما قدمه الجاحظ فيما يتعلق بالعقد والحساب، فإن هذه الوسيلة غير واضحة بشكل جيد عنده[4].

➢ التواصل بالنصبة:

سبق الذكر أن قلنا بأن هذا الشكل تواصل غير مباشر، وإذا كانت الأشكال الأربعة الأولى تمكن الإنسان من التواصل بالإنسان، فإن هذه الوسيلة تمكن الكون من التواصل مع

(1)- البيان والتبيين، ج1، ص: 221
(2)- نفسه، ص: 80
(3)- سورة الإسراء، الآية: 12
(4)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 59

الإنسان، وذلك باستخلاص الإنسان العاقل بصفات الخالق من خلال كونه البديع الرحب المتناسق.

وتتميز النصبة بكونها عامة، لجمع الناس في جميع الأرض بشكل متساو، لا اختلاف في ذلك بين الأمم عكس الأدوات الأخرى التي تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى غيره، ومما يؤكد هذا المفهوم للنصبة قول الإمام أبي الطاهر إسماعيل التيجيني البرقي المتوفى في النصف الثاني من القرن الخامس، شارحا كتاب "ظاءات القرآن" لأبي العباس المقرئ (ت440هــ): "فالدلالة بالنصبة القائمة في خلق الأرضين والسماوات وسائر الجمادات والحيوانات كالدلالة المسموعة من العقلاء والناطقين، والفصحاء المتكلمين، بأبين البيان، بل النصبة أصدق إعلاما، وأرقى إفهاما، وأنصح وعظا وأفصح لفظا"[1].

وعلى الجملة، فإن اللغة عند الجاحظ خاصية من الخصائص الاجتماعية عند الإنسان، ومن ثم كان الغرض الأسمى عنده هو كيف يصل الفرد بلغته إلى مستوى البيان أو الإفهام إن كان متكلما، وإلى مستوى التبيين أو الفهم إن كان مستمعا؟!وهو المسعى نفسه الذي دعا إليه قبله سيبويه في توخي الحذر عند الحذف أو التقديم أو التأخير، حتى لا يكون المتكلم ملغزا للكلام.

د. مفهوم التواصل عند الجاحظ وأنواعه:

بحكم معاشرة الجاحظ لكلا الطبقتين، الطبقة الراقية والطبقة العادية، فإننا نجده يركز من خلال مؤلفاته على نوعين من التواصل، التواصل الخاص ويضم تحت لوائه "البلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء، والأمراء، مِمَّنْ كان يكاد يسكت مع قلة الخطإ والزلل"[2]، وهذا المستوى من التواصل يضطرنا أولا إلى معرفة معنى البلاغة.

أما المستوى الثاني للتواصل، فهو مستوى التواصل العادي –سمي عاديا– لأنه يتم بلغة دون لغة المستوى الأول، وذلك أنه يتداول من قبل الشريحة الواسعة للمجتمع –أي اللغة

---

(1)- ظاءات القرآن، المقرئ أبو العباس أحمد، شرح الإمام أبي طاهر التيجيني البرقي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1991، ص: 61

(2)- البيان والتبيين، ج1، ص: 98

التخاطبية اليومية- ومهما يكن من أمر، فإن كلا المستويين يسعيان إلى الفهم والإفهام وآداب التواصل.

1) التواصل الخاص:

جاء مفهوم التواصل الخاص عند الجاحظ في باب "البلاغة" التي تعني عنده: إبلاغ المتكلم مراده إلى السامع مع اللفظ الرفيع الذي يورثه متعة، مستندا في تعريف هذا على عرضه لِلَثْغَةِ سيدنا موسى -عليه السلام- التي ذكرها عز وجل في قوله: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾[1]، وقوله أيضا: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾[2]، فعلق الجاحظ قائلا: "رغبة منه -يقصد رسول الله موسى- في غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة"[3].

ولأن الجاحظ لغوي "أديب" فإنه يعرف للكلمة العذبة مفعولها في النفس الإنسانية المولعة بالجمال، فالإنسان حينما يتواصل فإنه يلبي حاجة أساسية، كحاجته للغذاء تماما، ومن هنا فهو يَتَغَيَّا كذلك الحاجة الجمالية؛ كحاجته للباس والمظهر. وتركيز الجاحظ على جمالية اللغة كان باعتباره "فاتحة الفكر البلاغي وباكورة الجمالية الأدبية التي أينعت في العصور العباسية اللاحقة"[4].

ولعل تركيز الجاحظ على حلاوة العبارة مرده إلى ذلك التأثير الكبير الذي تتركه في نفس السامع، ولما اقتنع واصل بن عطاء بـــ"أن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، ويزين به المعاني..رام.. إسقاط الراء من كلامه"[5] لأنه كان أَلْثَغَ.

(1)- سورة القصص، الآية: 34

(2)- سورة الشعراء، الآية: 13

(3)- البيان والتبيين، ج1، ص: 07

(4)- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص: 25

(5)- البيان والتبيين، ج1، ص: 14

ولا يخفى على كل باحث اطلع على كتاب "البيان والتبيين" أن البلاغة عند الجاحظ هي عنوان جامع لمواصفات تخص الكلام، وأخرى تخص المتكلم من لفظ فصيح، ومعنى صريح، وصوت نقي وجمال العبارة، وانتحاء سمت العرب، ومن هنا ألفيناه يؤكد أهمية الإمتاع بقوله: "زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللكنة، أو الخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب كله سواء، وكله بيانا، وكيف يكون ذلك بيانا، ولولا طول مخالطة السامع للعجم، وسماعه الفاسد من الكلام لما عرفه، ونحن لم نفهم عنه إلا النقص الذي فينا"[(1)].

ومما يتعلق بأهمية الإمتاع، ما أورده ابن عتاب "يكون الرجل نحويا، وقساما فرضيا، وحسن الكتاب، جيد الحساب، حافظا للقرآن، راوية للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما، ولو أن رجلا كان حسن البيان، حسن تخريج المعاني، ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم، لأن النحوي الذي ليس عنده إمتاع كالنجار الذي يدعى ليعلق بابا، وهو أحدق الناس، ثم يفرغ من تعليقه الباب، فيقال له انصرف، وصاحب الإمتاع يراد في الحالات كلها"[(2)].

2) التواصل العام:

وجدنا الجاحظ بحكم مراسه ومعايشته لطبقات المجتمع الدنيا، يركز على خاصية اللغة الاجتماعية، وجاء تأكيده على أن الاجتماع ضرورة حياتية في قوله: "واعلم –رحمك الله- أن حاجة الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وثابتة لا تزايلهم"[(3)]، لأن الله تعالى "لم يخلق أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه"[(4)]، وإذا كان سيبويه لم يصرح بضرورة الاجتماع أو بخاصية اللغة الاجتماعية، فإنه أشار إلى ذلك في أكثر من موضع، أو لنقل من بداية كتابه إلى نهايته، إذ إن كلامه كان كله عن اللغة الطبيعية المستعملة، أو ذات الاستعمال الحي داخل

(1)- نفسه، ص: 162

(2)- نفسه، ص: 403

(3)- الحيوان، ج1، ص: 42

(4)- نفسه، ج1، ص: 43

المجتمع، وإذا كان الجاحظ يجعل البيان مرادفا للتواصل، فإن سيبويه قد جعل سمت كلام العرب والاستعمال وأجره كما أجرته العرب مرادفا للتواصل.

يستخلص من كل ما قيل عن الجاحظ، أنه يجعل كلمة "البيان" مرادفة لكلمة "التواصل"، وذلك أنه يشترط في البيان أن يحقق شيئين اثنين هما: حسن البيان وحسن التبيين، أو الفهم والإفهام[1]، وهو صلب نظريات التواصل الحديثة، يقول الجاحظ: "وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾، إنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم، وكذلك المعلم والمتعلم"[2].

ومما يدعم قول الجاحظ، ما أورده الإمام إبراهيم بن محمد في قوله: "حظ البلاغة أن لا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتي الناطق من سوء فهم السامع"[3]، يتفق هذا مع دعوة سيبويه المتكلم أَلاَّ يقول إِلاَّ ما يفهمه المخاطَب وإلاَّ كان مُلْبِسًا مُلْغزًا.

ومن هنا، فالتواصل "البيان" عملية ثنائية تقوم على الإفهام والتفهم، ويشترك في هذه العملية كل من القائل والسامع، وكل له وظيفته في إنجاح هذه العملية، فالقائل (المتكلم) يجتهد في الإبلاغ بصورة تجعل الرسالة تصل إلى السامع (المتلقي) تقنية واضحة، والسامع من جهة يحسن الاستماع -بقلبه لا بأذنه- حتى لا يضيع جهد المتكلم سدى، وذلك أنهما شريكان، وإن كان الجاحظ -كما أنف الذكر- يشير إلى أفضلية المفهم (المتكلم) على المتفهم (السامع).

ومن ثم، فالجاحظ وكل من تأثر به، يركزون على المتكلم محاولين لفت انتباهه إلى القواعد التواصلية التي تؤدي به إلى تحقيق مراميه، وهي التأثير في السامع، فهذا أبو هلال

(1)- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ص: 44

(2)- البيان والتبيين، ج1، ص: 08، سورة إبراهيم، الآية: 04

(3)- نفسه، ص: 87

العسكري يعرف البلاغة تعريفا تواصليا، مركزا على المتكلم في قوله: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فَتُمَكِّنُهُ من نَفْسِهِ تَمَكُّنِهِ من نفسِكَ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[1].

ومن أبعاد العملية التواصلية عند الجاحظ، خاصة ما يتعلق بالرسالة (الخطاب) والمتكلم قوله: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإن كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة عن هذه الشريطة، ونفذت من قائلها هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة..." [2].

يبدو جليا بعد كل ما استقرئ عن الجاحظ من نصوص، والتي لا يتسع مجال البحث لسردها ودراستها كلها، أنه كان على وعي عميق بالوظيفة التواصلية للغة، وبحق السامع على المتكلم، وبواجب المتكلم نحو السامع، وهي عناصر التواصل التي يستحيل الاستغناء عنها، إذ بالتعاون بينهما تنجح عملية التواصل، بالإضافة إلى عنصر مهم جدا ألا وهو عنصر "المقام".

ولقد تكلم الجاحظ عن المقام حينما ذكر قواعد العملية التواصلية المتعلقة بكل من المتكلم والسامع، بحيث يفرق بين مقام الإطالة ومقام الإيجاز، ومقام العامية -الجهلة- وبين مقام اللغة الفصيحة -الجبابرة- وبين مقام الأمراء ومقام عامة الناس، مستعملا كلمة (موضع) أو (مواضع) للدلالة على المقام.

ومما جاء عن المقام عند الجاحظ قوله: "إني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعاني"[3].

[1]- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ط1، 1952، ص: 67

[2]- البيان والتبيين، ج1، ص: 79

[3]-البيان والتبيين، ج1، ص: 145

يتضح من كل ما سبق ذكره وبشكل جلي، مدى وعي الجاحظ بالبعد التداولي للغة، وذلك بتوظيف كل الإمكانات والتقنيات للوصول إلى مرحلة الفهم والإفهام[1]، وذلك أن "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان، ذلك البيان، ومن أي جنس، كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[2].

٥. سيبويه والجاحظ:

بعد كل ما عرضناه، نستنتج أن نظرية الكلام عند الجاحظ تقوم على ركنين أساسين هما: الفهم والإفهام أو كما عبَّر عنهما من خلال وَسْمِهِ لكتابه "البيان والتبيين"، وهذان الركنان يترادفان مع لفظي "المتكلم" و"المُخَاطَب"؛ لذلك أسهب الجاحظ في الحديث عن الطرق التي تجعل المتكلم فصيحا والكلام بليغا -كما سبق الذكر- بالإضافة إلى أشكال التواصل غير اللسانية التي تعين المخاطب على الفهم وتوضيح معنى الكلام؛ من إشارات جسمية أو إيماءات، وقد لاحظنا كيف أن الجاحظ قد فسر كل شكل تواصلي مبينا بعده في العملية التبليغية؛ لإدراكه بعمق وظيفة اللغة نظاما من أنظمة التواصل التي تشترك في إنتاجها عناصر مختلفة لغوية وغير لغوية[3].

وقد عير الجاحظ عن أهمية الإشارة ووظيفتها في التبليغ قائلا: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد؛ أولها اللفظ، ثم الإشارة، قم العقد، ثم الخط، ثم الحال تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات"[4].

---

(1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1999، ص: 24

(2)- البيان والتبيين، ج1، ص: 76

(3)- أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه، ص: 71-72

(4)- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، 1968، ج1، ص: 76

وإذا كان الجاحظ قد ألمع إلى البعد التواصلي للإشارة بشكل مباشر؛ فإن سيبويه قد أشار إلى ذلك بشكل عابر، حين تحدّث عن النداء في باب "رويد" قائلا: "فلحاق الكاف، كقولك: يا فلان للرَّجُلِ حتَّ يُقْبِلَ عليكَ، وتركها كقولك للرجل: أنْتَ تفعل، إذا كان مُقْبِلاً عليكَ بوجهه منصتًا لكَ"[1]، فزيادة الكاف لــ"رويد"، أي "رُوَيْدَك" تتعلق بحال المخاطَب من حيث الإقبال بالوجه والإنصات للمتكلم، وذلك أن النداء بالكاف مع "رويد" يحقق عملية تواصلية حقّةً بكل عناصرها. (المتكلم المُنَادِي)، (المخاطب هو المُنَادَى)، و(الخطاب هو النداء)، و(المقام تدل عليه الكاف أو عدمها).

وتجدر الإشارة إلى أن هناك موضعا آخر؛ يلتقي فيه كل من الجاحظ وسيبويه؛ وهو موضع خاص بالمسافة والثوب، يقول الجاحظ مفصلا أشكال الإشارات المختلفة التي قد تصدر عن المتكلم في أحوال كثيرة: "فأما الإشارة؛ فباليد، بالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا"[2]، ولعل كلاًّ من دلالة الثوب والسيف يذكرنا بما قاله سيبويه في باب جواز استخدام حروف الندبة "للشيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم، الذي يرونه أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل أو إذا كان صاحبك قريبا منك مُقْبِلاً عليك توكيدا"[3]، بالإضافة إلى حديثه عن تقنية الحذف قي قوله: "مَكَّةَ واللهِ"[4]، لرؤية رجل في هيئة الحاج، إذ مجرد المشاهدة يحدث عنها حدث كلامي، وذلك أن السياق (هيئة الحاج) يدل أو ينوب عن المحذوف.

ولا يكتفي الجاحظ بالإعلاء من شأن الإشارة، بل إنه يرى "أن مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت"، و"حسن الإشارة باليد، والرأس من تمام حسن البيان باللسان"[5]، وهذا باب واسع وعميق في اللغة، غير أن سيبويه لم يتوسع فيه كما توسع فيه الجاحظ، لاهتمامه

(1)- الكتاب، ج1، ص: 244

(2)- البيان والتبيين، الجاحظ، ط3، ج1، ص: 77-78

(3)- الكتاب، ج2، ص: 229-230

(4)- الكتاب، ج1، ص: 257

(5)- البيان والتبيين، ج1، ص: 79

بالاستعمال اللغوي الحي، أو لأنه كان منصبا اهتمامه على فصاحة اللغة وسلامتها من كل ما قد يعتريها من لحن وفساد، وعلى الرغم من ذلك، فقد أشار هو كذلك إلى أشكال التواصل غير اللغوي، "هيئة الحاج"، "تكبيرات القوم عن الهلال"، "شممت ريحًا"، "لمست جسداً"، "سمعت السهم في القرطاس".

و. سيبويه وابن جني:

سبق وأن ذكرنا في مبحث قيمة الكتاب، بأن ابن جني يصرح باسم سيبويه في أخذ شواهده التي يستشهد بها في كثير من كتابه "الخصائص" وهذا يدل على إعجابه الكبير بسيبويه، وبما صنعه في كتابه؛ يقول ممتدحا ومثنيا الثناء الحسن على الرجل: "وحسبنا من هذا حديث سيبويه، وقد خطب بكتابه -وهو ألف ورقة- علمًا مبتكرًا، ووضعا متجاوزا لم يُسْمَعْ ويُرَى"[1].

- **تقنية المجاز عند كل من سيبويه وابن جني:**

أورد سيبويه مثاله الآتي: "بنو فلان يطؤهم الطريق" وهذا الكلام حسب سيبويه من التعابير التي يحذف فيها المضاف على السعة[2]، وأوضح معاني المجاز المختلفة التي ينطوي عليها هذا المثال ومن جملة تلك المعاني: الاتساع –كما سبق الذكر- إذ "فيه من السعة إخبارك عما لا يصح وطؤه بما يصح وطؤه، فتقول على هذا: أخذنا على الطريق الواطئ لبني فلان، ومررنا بقوم موطوءين بالطريق... وتقول: بنى فلان بيته على سنن المارة رغبة في وطئة الطريق بأضيافه له، أفلا ترى إلى وجه الاتساع من هذا المجاز، ووجه التشبيه إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه، فشبهته بهم، إذا كان هو المؤدى لهم فكأنه هم، وأما التوكيد، فلأنك إذا أخبرت عن الطريق بوطئه كان أبلغ من وطء سالكيه لهم، وذلك أن الطريق مقيم ملازم... وليس كذلك أهل الطريق، لأنهم قد يحضرون فيه ويغيبون عنه"[3].

(1)- الخصائص، ابن جني، ج3، ص: 315

(2)- الكتاب، ج1، ص: 212-213

(3)- الكتاب، ج1، ص: 212-213

ومعلوم أن ابن جني يفرق بين الحقيقة والمجاز، وهو بذلك يضع بينهما حدا فاصلا، قائلا: " الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز ما كان بضد ذلك، ثم يحصر وجوه المجاز في معان ثلاثة وهي: الاتساع والتوكيد والتشبيه، معتبرا الاتساع أو السعة لونا من ألوان التعبير المجازي[1]، لذلك وجدناه قد اقتبس من سيبويه المثال السابق المتعلق بوطء الطريق.

أما سيبويه، فإنه حين يريد الإشارة إلى عبارة تنطوي على معنى مجازي، فإنه يقوم بتحليل تلك العبارة كما في قوله: "فَاهًا لِفِيكَ" وذلك أن العرب أرادوا "فا" الداهية يقول: "والذي يدلك على أنه يريد به الداهية قوله: وهو عامر بن الأحوص:

وداهيةٍ من دَوَاهْي المَنُو نِ تَرْهَبُهَا النَّاسُ لا فَالَهَا

فجعل للداهية فَمًا، حَدَّثَنَا بذلك من يوثق بعربيته"[2].

فالملاحظ أن تعقيبه اقتصر على معنى البيت الشعري بقوله: أن الشاعر قد أتى بمعنى غير معهود، وذلك أن جعل للداهية فما ولم يزد على ذلك.

وفي باب المجاز دائما يستشهد ابن جني بعبارة سيبويه المتمثلة في قوله: "شربت ماء البحر" التي عدها صاحب الكتاب من المحال، ليبين للمتلقي السبب الذي دفع بسيبويه إلى عدها من المحال بقوله: "إنما أحال ذلك على أن المتكلم يريد به الحقيقة، وهذا مستقيم، إذ الإنسان الواحد لا يشرب جميع ماء البحر، فأما إن أراد به بعضه... فلا محالة من جوازه... فسيبويه إذا إنما وضع هذه اللفظة في هذا الموضع على أصل (وضعها في اللغة) من العموم، واجتنب المستعمل فيه من الخصوص"[3].

وإذا كان ابن جني يؤاخذ سيبويه لعدم التفاته إلى العبارات التي تنطوي على المجاز اعتبارا خاصا، فإننا نرى موقفه (سيبويه) يقترب مما يقوله التداوليون وعلى رأسهم فتكنشتاين

(1)- الخصائص، ج2، ص: 448

(2)- الكتاب، ج1، ص: 316

(3)- الخصائص، ج2، ص: 457 وما بعدها

(Wittgenstein) وأوستين من أن لغة المجاز غير جادة لأنها غير مقصودة لذاتها، وبالتالي ينبغي أن لا تؤخذ بعين الاعتبار، إلا إذا تحولت إلى لغة عادية يتداولها الناس فيما بينهم[1].

ومهما يكن من أمر "ابن جني" في مخالفته لبعض ما جاء به سيبويه، فإنه لم يخف إعجابه الكبير به، وبما صنعه في كتابه، لذلك فهو يمتدحه ويثني عليه الثناء الحسن قائلا: "وحسبنا من هذا حديث سيبويه، وقد حطب بكتابه -وهو ألف ورقة- علما مبتكرا، ووضعا متجاوزا لما يسمع ويرى"[2]، وأثر سيبويه في ابن جني جلي الوضوح، إذ نجده كثيرا ما يعمد إلى التصريح باسمه أو بقوله "صاحب الكتاب" وذلك بالاعتماد على كثير من شواهده في كتابه "الخصائص".

وتجدر الإشارة إلى أن سيبويه إذا كان قد أشار إلى الصور البلاغية في الأداء اللغوي العربي، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، فإنه لم يشر إلى هذه المصطلحات على أنها بلاغية، وإنما نظر إليها نظرة شاملة اتسمت بسطحية التناول أحيانا، وذلك أن معالجته إياها لم تكن مقصودة لذاتها وإنما تناولها وثَبَّتَهَا في ثنايا كتابه، بوصفها تفسيرا أو تعليلا لمتجهاته النحوية واللغوية، فلقد "أجرى جل التراكيب التي خرجت عن نمطيتها وعدل بها عن أصلها في الأداء اللغوي، وسارت في ذلك العدول على سنن العرب في كلامها على ما أسماه بالاتساع سواء كانت هذه التراكيب تشتمل على مجاز أو تشبيه أو استعارة أو غير ذلك"[3].

ويكفينا من سيبويه أنه قد ألمح إلى كل الألوان البلاغية، من معاني وبيان وبديع وعلى رأسها الحقيقة والمجاز في باب الاستقامة من الكلام والإحالة، حيث قسم الكلام إلى خمسة أقسام، "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب..." [4]، حسب الشكل الآتي[5]:

---

(1)- ينظر: Essays in speech acttheory, Vande Veken, Daniel Amsterdam, Netherlands, John Benjamins, 2002, p : 13, and Wittgenstein, understanding ans meaning, G.P Baker, Oxford, The university of Chicago, press 1980, p : 269

(2)- الخصائص، ج3، ص: 315

(3)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، د. أحمد سعد محمد، ص: 306

(4)- الكتاب، ج1، ص: 25-26

(5)- ينظر: الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 316

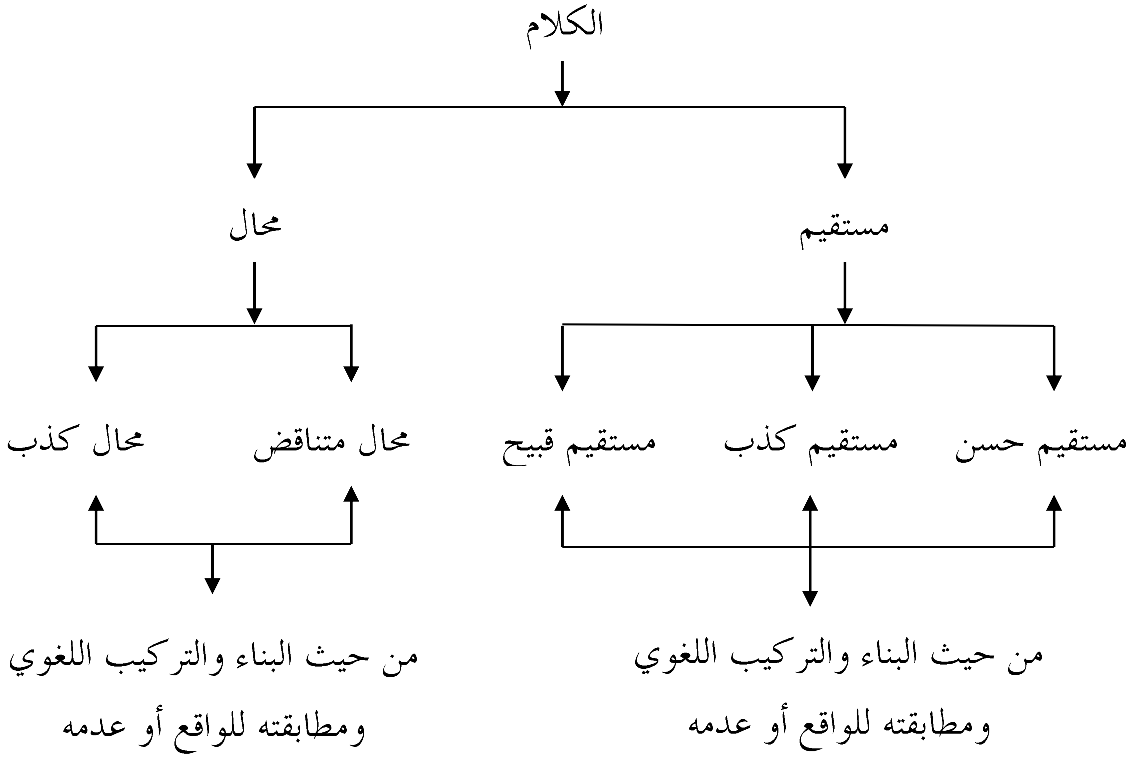

حيث:

1. الحسن: كلام جرى على الوجه المألوف: (أتيتك أمس وسآتيك غدا).
2. الكذب: ينطوي على إدعاء ما لا يمكن حدوثه: (حملت الجبل وشربت ماء البحر).
3. القبيح: تركيب مختل النظم بلا داع إليه: (قد زيداً رأيت، وكي زيداً يأتيك).
4. المحال: إدعاء وقوع الحدث قبل وقته، وهذا ممتنع، أو إدعاء وقوعه بعد فوات ظرفه وهذا ممتنع كذلك: (أتيتك غدا وسآتيك أمس).
5. المحال الكذب: زائد إدعاء ما لم يجر به طبع أو عادة: (سوف أشرب ماء البحر أمس).

وبناءا على هذا التقسيم يتضح من (الحسن) و(الكذب) ما يعرف بالحقيقة والمجاز، ثم إن مصطلح (الكذب) عند سيبويه لا يعني به الكذب الخلقي، ولكنه قد يعني به المبالغة والتخييل الفني القائم على الإدعاء، لذلك ترك سيبويه مصطلح (الكذب) وجعل مكانه مصطلح (الاتساع) الذي يمت إلى المجاز بصلة، ثم أدرج تحته كل التراكيب اللغوية التي تخرج

عن أصل وضعها، وبهذه الالتفاتة العظيمة التمس البحث البلاغي مباحثه البيانية القائمة على المجاز.

والحديث عن الصور البلاغية في الكتاب يستلزم بحثا مستقلا، والمقام هاهنا لا يسمح بإيراد كل ما جاء في الكتاب من ظواهر لغوية وأخرى بلاغية، ولعل كل باحث لغوي هو مضطر إلى قراءة الكتاب بتمعن وتأن وإعادة قراءة حتى يجد ضالته؛ وذلك أن هذا الكتاب هو بحق بحر لمعظم علوم اللغة العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ومن هنا "فلا ريب أن تتبع الأثر الذي تركه كتاب سيبويه في كل من لحقه من النحويين واللغويين وحتى البلاغيين أمر شاق عسير، ويتطلب من الجهد الشيء الكثير، وذلك لأسباب عديدة، لعل أبرزها أن الكتاب ظل لقرون طويلة المنبع الأساس الذي يستقي منه العلماء مادتهم اللغوية على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم"[1].

4. التواصل اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ):

إن المتصفح لتراثنا العربي القديم، أدبه وبلاغته ونحوه، وتصوفه وكلامه، يلاحظ أن هذه الفروع العلمية جميعها اعتنت بالخطاب، إما من جهة إنتاجه، وإما من ناحية استقباله، وقد ركز كل علم على الجانب الذي يعد محورا أساسيا له، فالأصوليون مثلا، اعتنوا باستقبال الخطاب وما يتبع ذلك من شروط للمستقبل له والرسالة المبلغة له، وعلماء النقد انصب اهتمامهم كذلك بالرسالة أو بفحوى الخطاب، فراحوا يحددون ما يزينها وما يشينها[2].

أما علماء البلاغة، فقد اعتنوا بإنتاج الخطاب، وكيف يصوغ المتكلم رسالته حتى تتوافر على الجمال والبيان في آن واحد، يظهر ذلك من خلال عناوين مؤلفاتهم: أدب الكاتب، كتاب الصناعتين، نقد الشعر، البيان والتبيين، إصلاح المنطق، ومن هؤلاء العلماء "عبد القاهر الجرجاني" هو من الذين أخذوا من كل علم بطرف، حيث أتقن البلاغة وفصل

(1)- أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه، ص: 70

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 122

في أمور كثيرة من أمور النحو والكلام، فجاءت مؤلفاته معينا لا ينضب يقصدها الباحثون على اختلاف مشاربهم لعلهم يجدون فيها ضالتهم[1].

ومن أهم ما يميز مؤلفات عبد القاهر الجرجاني، وخاصة "دلائل الإعجاز" أنها أصبحت مجالا مفتوحا لكثير من فروع الأدب واللغة، يعتمد عليها الباحثون بمختلف توجهاتهم واختصاصاتهم في التأصيل في أفكارهم، فهذا باحث في النحو يستفيد من نظمه وذاك باحث في البلاغة، يجد عنده تصورا متكاملا لنظرية الأسلوب، وباحث في النقد يعثر على طريقة فريدة ومنهج متميز في مواجهة النصوص وما إلى ذلك[2].

ونشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني يركز في مؤلفاته على الخطاب البلاغي والإقناعي بصورتيه الشعرية والنثرية، ومن ثم ارتأيت أن أتتبع خطة في التعامل مع فكرة التواصل، وبعد الإطلاع على مؤلف "دلائل الإعجاز" ألفينا الجرجاني مركزا على الخطاب النثري، وذلك أن هدفه الأسمى من التأليف كان إثبات إعجاز القرآن الكريم الذي هو أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، وعلى هذا الأساس انطلقت دراسة الخطاب عنده من نظرة واقعية للغة، هذه اللغة التي حاول دراستها تؤدي وظيفة خطابية تواصلية.

جاء عبد القاهر الجرجاني إلى حقل الدراسات البلاغية النقدية، مزودا بكل المؤهلات التي تجعل منه أعمق باحث يتناول نظرية النظم، فقد قرأ بإمعان ما كتب في مسألة الإعجاز، بالإضافة إلى ذلك ثقافته النحوية التي اغترفها من معين سيبويه، وإن كان قد خالفه في بعض المسائل، هذه إذن، أهم الروافد التي أمدته بفكرة النظم.

وانطلاقا من فكرة النظم، أشار عبد القاهر إلى أهمية التواصل اللغوي السليم من حيث الأداء ومن حيث الدرجة، ومن حيث التوجه، ومن حيث التأثير (البيان)، وغلط الناس في التسوية بينه وبين الإشارة بالرأس والعين، بل إنه جعل علم التواصل اللغوي السليم هو أجل العلوم وأحسنها[3]، فقال بعدما نوه بالعلوم عموما: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا

(1)- نفسه

(2)- نفسه، ص: 123

(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 122

وأسبق فرعا...من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ويصوغ الحلي.. والذي لولا تحفيه بالعلوم وعنايته بها، وتصويره إياها لبقيت كلها مستورة، إلا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه، ومُنِيَّ من الحيف بما مني به، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه، فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة، ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما يجده للخط والعقد، يقول: إنما هو خبر واستخبار وأمر ونهي، ولكل من ذلك لفظ قد وضع له، وكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، فهو بين في تلك اللغة"[1].

يدرك المتمعن في قول الجرجاني السابق، المكانة التي يحتلها كل من التواصل اللغوي الشفهي، وكذا التواصل اللغوي الكتابي ضمن وسائل البيان التي ذكرها الجاحظ بالتفصيل، وهي المكانة الأولى -من منظوره- وذلك أن التواصل بالإشارة أو العلامة لا يمكنه أن يرق إلى درجة التواصلين السابقين، ثم إن هذا التواصل لا يقوم فيما يظن الناس خطأ على إتقان اللغة بنحوها وصرفها وبلاغتها، بل إن "هاهنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاها العقل وخصائص معاني ينفرد بها قوم قد هدوا إليها.. وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضا"[2].

يستنتج أن دراسة الخطاب اللغوي عند الجرجاني تقوم على حياة هذا الخطاب بين مستعمليه، وذلك من خلال تأديته الوظيفة المنوطة به وهي "البيان" ومن هنا راح الجرجاني في دراسته يبين درجة بيان بلاغة القرآن الكريم التي وصلت إلى حد الإعجاز، جاعلاً الوسيلة لاستقراء ذلك مدارسة الشعر وإتقان النحو الذي لا يعني عنده قواعد نصب المفعول، ورفع الفاعل وما شاكلهما، إنما قواعد النحو عنده، هي قواعد تواصلية بحتة تمزج فيها القواعد اللغوية للكلمة والجملة مع القواعد الأدائية والتواصلية (علم النحو، علم البلاغة)[3].

(1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص: 15

(2)- نفسه، ص: 80

(3)-آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 125

وهو عينه ما ذهب إليه سيبويه في "الكتاب" الذي تأثر به الجرجاني، ومعظم الشواهد التي يستدل بها الجرجاني مأخوذة من "الكتاب" وإن جاز لنا أن نعقد مقارنة بين العَلَمَيْنِ، فإننا سنصل حتما إلى نتيجة تتمثل في كون أن سيبويه لم يستعمل المصطلحات التي استخدمها الجرجاني كمصطلح "النظم"، و"الناظم" التي تعني تأليف الخطاب، والمتكلم على الترتيب، وعلى كُلٍّ، فسيبويه هو أول منظر للتواصل اللغوي العربي، وكل من جاء بعده عَيَالٌ عليه، كما جاء على لسان الجاحظ.

- **النظم وعلم النحو عند الجرجاني:**

يقول الجرجاني: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله... وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فتنظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك "زيدٌ المنطلقُ، والمنطلقُ زيدٌ، وزيدٌ هُوَ منطلق"[(1)]، ويواصل الجرجاني حديثه شارحا المقصود بقواعد النحو، تلك القواعد التي يتسنى للإنسان من خلالها تبليغ خطابه بشكل ناجح، وهو لذلك يقول: "ثم إنا نعلم أن المزية المطلوبة في هذا الباب مزية فيها طريقة الفكر والنظر من غير شبهة... ومن هنا لم يجز إذا عد الوجوه التي تظهرها المزية أن يعد فيها الإعراب، وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالروية، لأن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علما باللغة وبأنفس الكلمة المفردة، وبما طريقهُ الحفظ"[(2)].

يستنتج من كلام الجرجاني أن علم النحو يحقق للمتكلم السلامة في الخطاب، ودور العقل في ذلك مهم وأساس على خلاف علم الشعر الذي يوفر لصاحبه أو المستشهد به، -يُوَفِّرُ لَهُ- وسيلة الإمتاع، ولا أحد ينكر أثر ذلك البعد الذي يتركه الشعر في نفس السامع، ومن هنا بات واضحا، أن مصطلح (أصول النحو) في الفكر الجرجاني يعني القواعد النحوية

(1)- دلائل الإعجاز، ص: 60

(2)- دلائل الإعجاز، ص: 239

الجزئية، والتي لم يقصدها الجرجاني، بينما المقصود هو مصطلح (علم النحو) المرادف لمفهوم النظم والذي حاول الجرجاني التأسيس عليه[1].

نشير هنا إلى أن الأصل في اللغة عند الجرجاني هو التركيب، أو كما يسميه هو -النظم- وليس اللفظة المفردة، وذلك أن اللغة من حيث إنها الوسيلة الأرقى للخطاب، فهي تستحق من الإنسان أن ينظر إليها في شكلها الخطابي التواصلي، الشكل الذي تؤدي فيه وظيفة "البيان" عن قصد المتكلم والكشف عن وجه التأثير الذي يريد أن يراه على سامعه، وأن يراعي المقام المناسب للتركيب المناسب، ولذلك فهو لا يفتأ يكرر أن فصاحة الألفاظ وبلاغتها لا ترجع إلى الألفاظ بشهادة الصفات التي توصف بها، وإنما ترجع إلى صورتها ومعرضها الذي تتجلى فيه[2].

لقد استطاع الجرجاني صهر فروع علم اللغة في قالب واحد حتى تؤدي اللغة وظيفتها الأساسية، وهي التواصل في خطاب حي ومتجدد يبلغ المقصد، ويخف على السمع وينبو عن اللحن، الأمر الذي يؤكد للمتلقي نظرة عبد القاهر الجرجاني التداولية للغة العربية[3].

وبعدما بين الجرجاني فضل العلم عموما، جعل سنامه علم البيان الذي أضر به سوء فهم الناس الذين يظنونه أداءًا للغة مما حفظت الذاكرة، وهو فن يتناغم فيه المخزون اللغوي مع دقائق الفكر، ولطائف العقل، وذلك المفهوم الخاطئ للبيان جعل الناس يعزفون عن الشعر والنحو الذين هما الطريق إلى إدراك إعجاز القرآن، ولعل مفهومه هذا يجعل البيان يلتقي مع مصطلح التواصل في الحد[4].

إن "البيان" عند الجرجاني حسب ترتيبه لأبواب كتابه هو كل ما تعلق بالكناية والمجاز والاستعارة، وبعلم المعاني من تقديم وتأخير، وفصل ووصل، وحذف، وذكر أيضا التجنيس الذي يخدم المعنى والنظم، فأظهر وظيفة كل جنس بلاغي، ولهذا راح يركز على البعد

(1)- مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، نصر أبو زيد، مجلة فصول، المجلد 5، العدد 01، 1984، ص:15

(2)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 126

(3)- نفسه، ص: 127

(4)- الدلائل، ص: 16

التواصلي التداولي لهذه الأدوات، التي بها يفهم السامع من كلام مخاطبه، دون أن يخطئ في ذلك، متقيا في الآن ذاته أن يوصف بسوء التأويل وسوء التفسير[1].

وفي باب "القول في التقديم والتأخير يضرب الجرجاني للمتلقي مثلا عن همزة الاستفهام فيقول: "ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه، ومثال ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمرود: ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمِ؟**﴾، لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام، وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ولكن أن يقر بأنه منه..." [2].

نفهم من عرض الجرجاني لتلك الأبواب الواردة في كتابه "دلائل الإعجاز" أنه هو الآخر كان على وعي عميق بالبعد التواصلي التداولي لتلك الأبواب التي تعد بحق أدوات إجرائية تواصلية يستعملها المتكلم للتأثير على السامع.

أنظر ماذا يقول عن التقديم والتأخير: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مَسْمَعُهُ، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أنه قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[3]، والأمثلة على ذلك كثيرة يشرحها الجرجاني بإسهاب لمن أراد التزود والانتفاع.

- **البعد التواصلي عند الجرجاني:**

بعد عرض الاستشهاد الذي ورد في باب "القول في التقديم والتأخير"، يتضح جليا أن أول ما نال اهتمام الجرجاني هو عملية التواصل أو التخاطب التي تستلزم طرفين، أحدهما يدعى المتكلم والثاني يدعى السامع، هذان الطرفان اللذان يتبادلان كمية من المعاني تكثر أو

---

(1)- نفسه، ص: 88

(2)- نفسه، ص: 88-89

(3)- الدلائل، ص: 85

تقل، ألا ترى أن الجرجاني قد ابتدأ كلامه عن مكانة البيان بقوله: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا وأسبق فرعا وأحلى جنى، وأعذب وردا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويقري الشهد...واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء..." [(1)].

وكما أسهب كل من سيبويه والجاحظ في توضيح الأبعاد التداولية والأدوات الإجرائية التواصلية التي تضمنها "الكتاب"و"البيان" بمفهومه الخاص، ألفينا الجرجاني هو الآخر لا يكاد يتوقف يشرح ويفسر كل باب أورده سواء في كتابه "أسرار البلاغة" أو في مؤلفه "دلائل الإعجاز".

وذلك أننا نجده في "الأسرار" يقرر أنه يهدف إلى تتبع المعاني، وكيف ينجح المتكلم في إخراجها في ألفاظ وتراكيب مناسبة لها كل المناسبة حتى تستطيع هي الأخرى بدورها تبليغ قصده ومراده إلى سامعه، وفي ذلك يقول: "واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته والأساس الذي وضعته أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تتفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفضل أجناسها وأنواعها وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل... وقرب رحمها منه أو بعدها حين تنسب عنه"[(2)].

إذن، فبعد أن دافع الجرجاني عن المعاني في مقابل الألفاظ في "الدلائل" جاعلا إياها الأصل في عملية التواصل، نجده في "الأسرار" يضع بعض الضوابط الخاصة بكيفية تبليغ هذه المعاني إلى السامع.

ولعل هذا الأمر هو الذي جعل رشيد رضا مقدم "الدلائل" و"الأسرار" يجعل في مقدمة "الدلائل" البلاغة مساوية للتواصل، قائلا: "عرفت البلاغة بعد هذا بقول: وهي أن يبلغ المتكلم ما يريد من نفس المخاطب بإصابة مواقع الاقتناع من العقل، والتأثير من القلب"[(3)].

---

(1)- نفسه، ص: 23

(2)- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 19

(3)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تقديم: رشيد رضا، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 1992، ص: 05

وفي مقدمة "الأسرار" ذكر الأسباب التي جعلته يركز على البعد التاصلي للغة، وهما سببان أساسيان، أولهما الوقوف عند ظواهر قوانين النحو، وثانيهما: التركيز على اللفظة المفردة دون التركيب، حيث "ظهر ضعف اللغة في القرن الخامس وكانت في ريعان شبابها، وأوج عزها وشرفها، وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو، ومدلول الألفاظ المفردة والجمل المركبة، والانصراف عن معاني الأساليب ومغازي التركيب، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه، وضروب التجوز والكناية فيه، وهذا ما بعث عزيمة الشيخ عبد القاهر الجرجاني إمام علم اللغة في عصره إلى تدوين علم البلاغة، ووضع قوانين للمعاني والبيان، فوضع هذا الكتاب، ومن فاتحته يتنسم القارئ أن دولة الألفاظ كانت قد تحكمت في عصره، واستبدت على المعاني، وإنه يحاول بكتابه تأييد المعاني ونصرها"[1].

وبما أن التركيب المفيد هو عمدة الخطاب، لا الكلمة المفردة، وجدنا الجرجاني يبني التفاضل في الكلام ونيل السبق فيه على التركيب الذي راح يضع له القوانين في مؤلفاته، وذلك أنه الكفيل الوحيد لأداء عملية الفهم والإفهام، إذ "كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان، ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ كيف؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"[2].

ومن هنا يعطي الجرجاني للمتكلم دورا هاما في العملية التواصلية؛ يوضح هذا ما جاء في "الدلائل" و"إذ قد عرفت هذا في الكناية، فالاستعارة في هذه القضية أن موضوعها على أنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ، إِنَّ بَيَانَ هذا أن تعلم أنك لا تقول: رأيت أسدًا، إلا وغرضك أن تثبت للرجل أنه مساو للأسد في شجاعته وجرأته، وشدة بطشه وإقدامه، ثم تعلم أن السامع إذا عقل هذا المعنى لم يعقله من لفظ أسدٍ، ولكنه

(1)- الأسرار، ص: ز

(2)- الأسرار، ص: 02

يعقله من معناه، وهو أنه يعلم أنه لا معنى تجمعه أسدًا مع العلم بأنه رجل، إلا أنك أردت أنه بلغ من شدة مشابهته للأسد..مبلغا يتوهم معه أنه أسد حقيقة"[1].

وفي "الأسرار" يقول: "وإذا سمع السامع قولك: زيد أسدٌ، وهذا الرجل سيف صارم على الأعداء، استحال أن يظنَّ وقد صَرَّحْتَ له بذكر زيدٍ أنك قصدت أسدًا أو سيفًا. وأكثر ما يدّعي تخيله في هذا، أن يقع في نفسه من قولك: زيدٌ أسدٌ، حال الأسد في جرأته وإقدامه وبطشه، فأما أن يقع في وهمه أنه رجلٌوأسدٌ معًا بالصورة والشخص فمحال"[2].

والاسترسال في الحديث عن اهتمام الجرجاني في المقام ما بعد من سبقوه كسيبويه والجاحظ وغيرهم للعملية التواصلية بالمتكلم يطول ولا يكاد ينتهي، ولعل مرد ذلك أن الجرجاني وهو من الأشاعرة الذين لطالما دافعوا عن كلام الله المعجز، انطلاقا من إيمانهم أن المتكلم الأول سبحانه وتعالى له نوعان من الكلام، كلام نفسي أزلي، وكلام مسموع حادث، والمتكلم الثاني هو الإنسان المكلف بتبليغ ما حمّله الله إياه من أمر بالمعروف وفهي عن المنكر، فإذن هو دائما مكلف أن يصدع بالحق[3].

واعتمادا من أن الكلام وظيفة الشرفاء والحكماء والسادة، فالله عز وجل متكلم ثم الأنبياء متكلمون والحكماء والعقلاء كذلك، وبالإضافة إلى ذلك فإن المجاهرة بالكلام كانت مطلب المعتزلة والأشاعرة في الرد على الخصوم ومقارعة الحجة بالحجة، ولذلك اعتنوا كثيرا بفن الخطابة وفن المناظرات، إذ المتكلم فيها دائما صاحب حجة، والساكت أو المستمع منقطع مفتقد للدليل، واعتناء عبد القاهر الجرجاني وغيره ممن أتى بعد سيبويه بفن المناظرات دليل على اقتدائهم بمن سبقهم، خاصة وأن الدفاع عن كلام الله أمر يستدعي الحجة والدليل القويين، وهذا الأمر لا يتأتى إلا لعالم مضطلع بعلوم الفقه والدين وكذا علوم العربية، وإذا كان عبد القاهر الجرجاني قد تفرد بعلوم البلاغة اهتماما، فإن سيبويه قد جمع كتابه

(1)- الدلائل، ص: 276

(2)- الأسرار، ص: 280

(3)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 134-135

النحووالبلاغة معًا. ممهدا السبيل لكل من تبعه كالجاحظ والجرجاني وابن جني وغيرهم من علماء العربية.

وعلى هذا الأساس الديني، وجدنا الجرجاني معنيا بإنتاج الخطاب مركزا في "الدلائل" على منشئه (المتكلم) وفي "الأسرار" على تحليل الخطاب، بناءا على قريحة السامع الذي هو مستقبل لا أكثر.

- **المتكلم وآليات التواصل عند الجرجاني:**

بلغ اهتمام الجرجاني في "دلائل الإعجاز" بالمتكلم وبعلم المعاني حدا لم تبلغه الدراسات اللسانية والبلاغية قبله ولا بعده، وكانت "نظرية النظم" أساسا جوهريا في تحليل القول (الكلام/الخطاب)، حيث ارتكزت على البعدين السياقي والتداولي، انطلاقا من دراسة تركيبية محكمة بقواعد النحو الداخلي للغة ومنفتحة على الفصاحة والمجاز، وهذه الازدواجية غي النظم هي التي جعلت حقل الدراسات النحوية، يخرج عن نطاق المقولات والنماذج، وقواعد الإعراب داخل الجملة إلى المعاني السياقية التي تنتجها الأشكال التركيبية، اعتمادا على الآليات والمكونات اللسانية (كالفصل والوصل، التقديم والتأخير، التعريف والتنكير، والتأكيد والحذف...) من جهة، والمقتضيات التداولية من جهة أخرى، ف"زيدٌ منطلقٌ" لا تعادل "زيدٌ المنطلقُ"، وهذه الأخيرة لا تعادل "المنطلقُ زيدٌ"، فالتقديم والتأخير يلعب هنا وظيفة تداولية معينة وليس فقط كما يقول النحاة: "لأنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم"[(1)].

وتجدر الإشارة أن الأمثلة التي أوردها الجرجاني مستقاة من كتاب سيبويه وهذا دليل على تأثر الجرجاني بسيبويه وإن لم يصرح بذلك كما فعل ابن جني في كتابه "الخصائص"، وعلى الرغم من عدم التصريح فإنه لا ينقطع يدافع عن علم النحو وقوانينه التي سنها سيبويه في كتابه الذي يُعَدُّ بِحَقٍّ موسوعة لجهود علماء وقُرَّاء وفقهاء ولغويين عرب.

ولقد سلك الجرجاني في تحليله للكلام مسلكا إبداعيا حيث أعطى للمقولات النحوية أبعادا تداولية ومعاني جديدة ووظائف تأثيرية أو مؤثرة غير تلك التي كررها، وأطنب فيها

---

(1)- الدلائل، ص: 86-87

النحاة القدامى والجدد على حد سواء، ومن هنا سنقوم بمعالجة بعض النماذج القولية التي أوردها الجرجاني في "الدلائل" التي تبرز دور المكونات والآليات اللسانية ووظائفها السياقية والتداولية في القول، وهي خطوة أولى لفهم الكلام وتأثيره في الآخر.

وقبل المرور إلى عرض هذه الآليات، لابد من الإشارة إلى أن قوانين القول عند الجرجاني اثنان: قوانين لغوية وأخرى تواصلية.

1. **القوانين اللغوية:** وهي تلك المستمدة من اللغة المستعملة من قبل المتكلم، والتي يحترم فيها السنن اللغوية التي ينتمي إليها السامع، لذلك نجده يخاطب المتكلم قائلا: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"[(1)].
2. **القوانين التواصلية:** وهي نوعان: قوانين عامة نظرية، وأخرى خاصة إجرائية.

أ. **القوانين العامة النظرية:** ومن هذه القوانين نذكر ما يلي:

➢ **آلية المجاز:**

وهو من الآليات التواصلية العامة التي سنها الجرجاني، فقد دعا المتكلم إلى حسن استخدام المجاز؛ لأنه يمكنه من التعبير عن مراده باللفظ القليل، إذ "لا معنى لقولنا كثرة المعنى مع قلة اللفظ، غير أن المتكلم يتوصل بدلالة المعنى على المعنى إلى فوائد لو أنه أراد الدلالة عليها -يقصد الحقيقة في مقابل المجاز، أو دلالة المعنى على المعنى- لاحتاج إلى لفظ كثير"[(2)].

ولدعوة المتكلم إلى استعمال المجاز، غايتها المتمثلة في منح الفرصة للسامع كي يشاركه في عملية التواصل بشكل مباشر، وذلك أن المجاز يحتاج إلى طرفين أساسيين: ملق ومكثف للمعنى، ومتلق يفكك المعنى، والمعنى الذي يصل إليه السامع بعد كد الفكرة ليس كالذي يصل إليه عفوا من اللفظ[(3)].

(1)- نفسه، ص: 60

(2)- فجر الإسلام، أحمد أمين، القاهرة، ط8، 1981، ص: 294

(3)- نفسه، ص: 279

وبقدر حسن استعمال المجاز يتفاضل الكلام في الحسن والقبول، كقولهم: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، وقولهم: يدخل في الأذن بلا إذن، هذا ما لا يشك فيه عاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى -أي المجاز عنده-"[1].

يلاحظ المتلقي لمؤلفات الجرجاني الذي يصب جل اهتمامه على المتكلم وعلى كيفية إنتاج الخطاب، أنه يعتقد أن المستمع في المستوى نفسه من الفهم عند المتكلم من حيث معاني التراكيب، مع العلم أن ليس كل سامع هو عالم باللغة، وبمعاني الألفاظ، ومن هنا أعتقد أن الجرجاني الذي يقصي السامع من دائرة الاهتمام في مؤلفاته؛ مرده أن كلامه موجه إلى فئة معينة من الناس، وهم الجبابرة على حد تعبير الجاحظ، أي أصحاب اللغة الراقية والمستوى الرفيع.

➢ آلية الغموض:

الغموض سمة من سمات بث لغوي ما، باعتبار جهة المستقبل لا المرسل، وسمي الغموض بهذا الاسم؛ لأنه خلاف الوضوح، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المكان الذي ينخفض انخفاضا شديدا، حتى لا يرى ما فيه، يسمى غامضا باعتبار المعنى اللغوي، عرفنا أن للمصطلح أبعادا دلالية كثيرة، فكما أن المكان المنخفض يغيّب ما فيه حتى لا يرى بوضوح، كذلك الغامض من الكلام، يغيّب المعنى، حتى وإن كانت ألفاظه بين يديك حسا في سماع كلام منطوق أو قراءة ما هو مكتوب، وكما أن قرارة الوادي بعيدة عن الواقف على سطحه، كذلك المعنى البعيد، فإنه بعيد عن القارئ غير المتمرس بفهم الغامض من الكلام[2].

ينشأ الغموض إذن، عندما ينقل المعنى من دائرة الحِسّ إلى دائرة الحدس، فلا يفهم إلا بالحدس، وبيان ذلك أن الكلمات، والجمل لها معان تعرف من مخزون اللغة في المعجم

(1)- فجر الإسلام، أحمد أمين، ص: 171

(2)- اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، د. سمير شريف، استيتية عالم الكتب الحديث، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2005، ص: 709

والصرف والنحو والاستعمال، وهذا الاستعمال يتضمن السياق والمقام، والأصل في معرفة الدلالات هو في الاعتماد المباشر على هذا المخزون[1].

ومن هنا تبدو عبقرية الجرجاني في دعوته المتكلم في الاستعانة بنسبة من الغموض -لا التَّعْمِية- لتحريك طلبه عند السامع وذلك من خلال قوله: "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه في النفس أجل وألطف"[2].

ولعل الجرجاني يكون دعا إلى هذه الآلية ليجعل ذلك القدر من الغموض الحد الفاصل والجزء الفارق بين كلام وكلام، وبين تركيب عامي مبتذل، وبين بيت شعري هو السحر الحلال "ولو كان الجنس الذي يوصف المعاني بلطافة ويعد في وسائط العقود، لا يحوجك إلى الفكر ولا يحرك من حرصك على طلبه بمنع جانبه، لكان (بَاقِلِيٌّ حَارٌّ) وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد واحدا، وسقط تفاضل السامعين في الفهم والتصور والتبيين"[3].

إذن، يدعو الجرجاني المتكلم إلى استعمال قدر من الغموض الذي لا يعني تعمية المعنى على السامع، وإنما ما احتوى على المراد في صورة غير مكشوفة تدعو السامع إلى استعمال بعض مدركاته في استخراج معنى الغامض من مخزونه اللغوي، وذلك أن التخاطب بالكلام العادي الصريح الواضح لا يؤثر في النفس في الغالب الأعم، ومن الغباء أن نعتقد أن الجرجاني أفنى عمره لمدارسة التخاطب العادي المبتذل الثابت على قوالب جاهزة، ليس فيها ما يدعو إلى إعمال فكر أو إمتاع نفس.

ب. **القوانين الإجرائية:** يبدو أن كل من دافع عن إعجاز القرآن قد خبر اللغة العربية جيدا ونظر في تقنينها، وفي تعقيدها للتركيب، كيف لا؟ والجرجاني قد جمع النحو والبلاغة معا.

---

(1)- نفسه

(2)- الأسرار، ص: 118

(3)- الأسرار، ص: 122، الباقلي، (بتشديد اللام: يقصد ويمد: الفول: أي دكان بائع الفول، وبيت بديع متساويين)

إذن، ليس افتخارا ولا تعصبا إذا قلنا بأن الجرجاني عالم نحوي وبلاغي، رأى أن روح اللغة لا تكمن في ألفاظها وتراكيبها وهي بعيدة عن الاستعمال، وإنما تدب الحياة فيها إذا نفخ فيها المستعمل الروح بالتواصل بها، والقصد من ذلك أنها تحيا بأداء وظيفة التواصل، وتموت إن جردت منها، ولذلك وجدنا الجرجاني يدعو إلى استعمال قواعد النحو وقواعد البلاغة بشكل تواصلي، وذلك أن قواعد النحو هدفها جعل منطق الإنسان سليما، خاليا من العيوب، وقواعد البلاغة تمد اللغة بمظاهر الجمال والإبداعية، وعلى هذا الأساس، فهما لا ينفصلان ووظيفتها متكاملتان[1].

إن مفهوم سلامة القواعد النحوية، ليس هو مفهوم السلامة النحوية، لأن ذلك أمر مسلم به، وإنما يقصد الجرجاني السلامة التواصلية التي تمكن المتكلم من تبليغ مراميه إلى السامع، وحتى لا يلتبس مفهوم السلامة على المتلقي يورد الجرجاني ما يلي: "...أما والصواب كما ترى، فَلاَ لأَنَّا لَسْنَا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن، وزيغ الإعراب، فنعتد بمثل هذا الضرب، وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يصل إليها بثاقب الفهم، وليس درك الصواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطإ تركا حتى يحتاج في التحفظ إلى لطف نظر وفضل روية... وهذا باب ينبغي أن تراعيه وأن تعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام، دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه"[2].

والأمر ذاته يصدق على القواعد البلاغية التي لا تجدي نفعا الاستعمال بها معزولة "فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع، والفاء للتعقيب بغير تراخ، وثم له شرط التراخي، و"إن" لكذا، و"إذا" لكذا، ولكن أن يأتي ذلك إذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه"[3].

---

(1)- آليات التواصل في الخطاب القرآني، ص: 139

(2)- الدلائل، ص: 71

(3)- نفسه، ص: 165

▪ تقنية التقديم والتأخير في الكتاب:

معلوم أن اللغة تؤدي وظيفتها بتركيب المفردات وتركيبها، لتبلغ غايتها في الإفادة وهي الإفهام، فالمنطقي أن تقوم العبارة على ترتيب الكلمات، حيث يعبر الترتيب بآن واحد عن حاصل الفكرة وتحليل القول مهما كانت اللغة التي يتم فيها هذا الغرض[1].

وبعبارة أكثر وضوحا فإن "رتبة كل كلمة داخل التركيب تؤشر مكانتها الخاصة بها"[2]، وأي إخلال بهذا النظام يؤدي -لا محالة- إلى عدم تحقيق الكلام لغرضه المتمثل في التبليغ، وقد عبر عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في نظريته "النظم" عن الترتيب والائتلاف الحاصل بين أجزاء الكلم بقوله: "لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك..." [3].

يستنتج من كلام الجرجاني أن ترتيب المفردات ينفخ فيها الحياة لتعبر عن مكنون الفكر، وما يختلج في الخواطر، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا تحتمه قوانين معينة لكل لغة[4]، وعلى حد تعبير "هلمسليف": "إنه ليس هناك لغة تتميز بحرية ترتيب عناصرها، فكل عنصر تتحدد علاقته بالذي يجاوره"[5]، والتقديم والتأخير أحد تقنيات التبليغ التي يستطيع المتكلم أن يحدث بها تغييرا في بنية الكلام لتحقيق غرض جديد، إذ إن "أي تعديل في نظام تركيب الكلمات في التركيب يحدث تغييرا في المعنى"[6].

ويكون سيبويه قد أدرك بذكائه الحاد وملاحظته الدقيقة لاستعمال كلام العرب، أنَّ نظم الكلمات في التركيب هو قوام النحو، ولعلة ذلك أولى "مراعاة تأليف الكلام وحسن

---

(1)- تاريخ علم اللغة، ص: 147

(2)- Language, E. Sapir, New York, 1921, p: 109

(3)- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت471هـ)، تصحيح وتعليق: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص: 44

(4)- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1975، ص: 295

(5)- ينظر: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 282-283

(6)-DiscoursingGrammar, p: 05

النظم القائم على توخي معاني النحو"[1]، عناية شديدة، ويعرف التقديم والتأخير في الدرس اللغوي الحديث بالتحويل الموضعي "Local Transformation"[2]، وقد عول عليه سيبويه ليحقق أغراضا كثيرة أهمها: العناية والاهتمام، لذلك يقول: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[3].

والواقع أن الشواهد التي ذكرها سيبويه عن التقديم والتأخير كثيرة جدا، يأتي في مقدمها الشاهد القرآني الذي كان نصيبه في هذه القضية، ثمان آيات؛ ست آيات قرآنية (برواية حفص عن عاصم) وقراءتين أخريين، إحداهما متواترة والأخرى شاذة[4]، وثانيها الشعر العربي الذي بلغ نصيبه خمسين شاهدا[5]، أما الشواهد النثرية التي استشهد بها لتقوية أحكام الوجوب والجواز، فقد بلغت تسعا وعشرين شاهدا، كلها لم يصرح فيها باسم القبيلة التي قالتها[6]، عدا المثل: (ما مُسيءٌ مَنْ أَعْتَبَ) الذي ذكر قبله الفرق بين (ما) في لغة أهل الحجاز، و(ما) في لغة بني تميم من خلال الآية الكريمة: ﴿بَشَرًا هَـٰذَا مَا﴾[7]، مستشهدا على جواز تقديم الخبر على المبتدإ بعد (ما) في لغة بني تميم، لا في لغة أهل الحجاز التي لا يجوز فيها ذلك[8].

ولقد أورد سيبويه هذه الشواهد ليبين للمتلقي أثر التقديم والتأخير في أجزاء الجمل والتراكيب في تغيير معنى الكلام، لذلك يتوجب على المتكلم -كما يرى سيبويه- أن يتوخى الدقة في اختيار النسق التعبيري لكي يطابق المعنى الذي أراده[9]، ففي باب "أمْ" التي تأتي في الاستفهام، يفرق سيبويه بين أن يلي همزة الاستفهام اسم أو يلياه فعل، ووجه الصواب في

---

(1)- أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، 1976، ص: 80

(2)- Introduction Reading on Langage, p: 149

(3)- الكتاب، ج2، ص: 35

(4)- التقديم والتأخير في بناء الجملة العربية عند سيبويه في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. أشرف السعيد السيد خضر، الصحوة للنشر والتوزيع، حلوان، مصر، ط1، 2009، ص: 66

(5)- التقديم والتأخير في بناء الجملة، د. أشرف السعيد السيد خضر، ص: 121

(6)- نفسه، ص: 121

(7)- سورة يوسف، الآية: 31

(8)- ينظر: الكتاب، ج1، ص: 59

(9)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 24

ذلك لا يتوقف على قاعدة نحوية بخبر مجيء الاسم دون الفعل أو العكس، ولكن الجواز يعتمد على غرض المتكلم، فالقول في الشاهد: "أزيدٌ عندك أَمْ عمرُو؟" و"أزيداً لقيت أم بشراً؟"[1]، يختلف في معناه عن قولنا: "أضربت زيداً أم قتلته؟"[2]، ففي الشاهد الأول غاية الاستفهام معرفة مَنْمِنَ الرجلين موجود عند المسؤول؟، فحسن هاهنا تقديم الاسم: ".. فأنت مُدَّعٍ أن المسؤول قد لقي أحدهما أو عنده أحدهما، إلا أن علمك قد استوى فيهما لا تدري أيهما هو... "واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن، لأنك لا تسأله عن اللقى وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو"، أما في الشاهد الثاني فإن موضع السؤال هو الفعل الذي صدر من المسؤول؛ ولذلك قدم الفعل، "فالبدء هاهنا بالفعل أحسن، لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان، ولا تسأل عن موضع أحدهما... كأنك قلت: أي ذلك كان بزيدٍ؟"[3].

ويشير سيبويه إلى علة لجوء العرب إلى تقنية التقديم والتأخير في الكلام فيقول: "وذلك قولك ضرب زيداً عبد الله،... وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[4].

غير أننا نجد أن عبد القاهر الجرجاني قد انبرى لانتقاد من ذهب إلى أن هذا الباب لا يقع إلا بهدف العناية والاهتمام، ويقصد بذلك سيبويه، يظهر هذا الانتقاد في قوله: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم، و لم يذكر في ذلك مثالا... وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، و لم كان أهم، ولتخيلهم ذلك قد صعد أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهونوا الخطب فيه..." [5].

---

(1)- الكتاب، ج3، ص: 169

(2)- نفسه، ج3، ص: 171

(3)- الكتاب، ج3، ص: 171

(4)- نفسه، ج1، ص: 34، وينظر كذلك: ج1، ص: 40-45-56-80، وج2، ص: 143

(5)- الدلائل، ص: 84 وما بعدها

وتقنية التقديم والتأخير حسب الجرجاني -كما سبق الذكر- "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ثم يبين أنه يقع على وجهين، فهناك تقديم يقال إنه على نية التأخير وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدإ إذا قدمته على المبتدإ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، كقولك: "منطلق زيدٌ، وضرب عَمْرًا زيدٌ"، معلوم أن "منطلقٌ" و"عَمْرًا" لم يخرجا بالتقديم عما كان عليه من كون هذا خبر مبتدإ ومرفوعا بذلك، وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله كما يكون إذا أخرت، وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم وتجعله بابا غير بابه، وإعرابا غير إعرابه"[1].

والملاحظ أن هذا التعريف للنوع الأول من التقديم والتأخير، قد لخصه سيبويه في عبارته الأكثر إيجازا وبلاغة، حينما قال: "فإن قَدَّمْتَ الفعل وأَخَّرْتَ الفاعل جَرَى اللَّفْظُ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدًا عبدُ الله، لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما"[2]، وإذا كان عبد القاهر الجرجاني يخالف سيبويه في بعض النواحي، فلأن ثمة بُونًا شاسعا بين المنهج النحوي اللغوي الذي اتبعه سيبويه في الكتاب، ومنهج الجرجاني البلاغي الذي هيمن على كتابه دلائل الإعجاز، ولذلك وجدت مسائل أثارها الجرجاني تختلف في بعض النواحي عن تلك التي عالجها سيبويه، وإن كان هذا لا ينفي تأثر الجرجاني بما جاء به صاحب الكتاب[3].

يفهم من هذا الكلام أن الجرجاني كان ينتصر لمعاني النحو الداخلية التي تمنح الكلام جودته وميزته، فيكون بذلك صحيحا لا فاسدا، "فلا ترى كلاما قد وصف بصحة النظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك

(1)- الدلائل، ص: 83

(2)- الكتاب، ج1، ص: 34

(3)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 90

المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه..." [1].

أما سيبويه، فقد كان مبدأ تمسكه بقواعد اللغة من باب الالتزام بسنن العرب في الكلام، فأجراها كما أجرتها العرب، ولذلك وجدناه في كثير من المواضع يجيز بعض التراكيب أو يمنعها لأسباب لا علاقة لها بالنحو بما هو أحكام إعرابية، أو قواعد ترسم حدود التأليف من تقديم وتأخير أو تعريف وتنكير وما سوى ذلك، جاعلا الفيصل في ذلك طريقة العرب في الكلام، خاصة إذ أَمِنَ اللبس، وفَهِمَ المخاطَبُ مقاصدَ المتكلم[2]، ثم إن سيبويه قد وفى مسألة التقديم والتأخير حقها من الشرح والتوضيح والدليل على ذلك عدد الشواهد التي أوردها على الجواز والوجوب والمنع.

وختاما نشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني قد أسهب هو الآخر في عرض الوسائل الإجرائية التواصلية المتمثلة في التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف والقصر بإنما، والخوض في هذه المباحث يتسع ولا ينتهي، إذ كل تقنية يلزمها بحث مستقل، ولذلك اقتصرت على نموذج واحد عند الأعلام موضوع المقارنة مع سيبويه لتأكيد تأثرهم بكل ما جاء في الكتاب إن اعترافا أو إنكارا منهم بمدى هذا التأثر الذي كشفت عنه تلك الشواهد المأخوذة من الكتاب.

وأخيرا؛ أعترف أن الذين تأثروا بما جاء في الكتاب لا يتسع المقام للإحاطة بهم كلهم، لذلك اقتصرت الإشارة إلى بعض الأعلام الذين اشتهروا في المعاجم وفي ميدان اللغة والنحو والبلاغة والأصوات، وهم: الزبيدي، الزمخشري، الجاحظ، ابن جني وعبد القاهر الجرجاني، وعملنا هذا ليس رغبة في مقارنة سيبويه بمن تبعه أو تأخر به، ولكن بغية الوقوف على جملة من الآراء والانطباعات، وكشفا عن سحر ذلك الكتاب الذي مهّد الطريق لمعظم اللغويين والبلاغيين والباحثين قديما وحديثا.

---

(1)- دلائل الإعجاز، ص: 66-67

(2)- أثر سياق الكلام، ص: 92

المبحث الثاني: التبليغ السيبويهي وبعض اتجاهات الدرس اللغوي في الغرب

تمهيد:

رغم التباين الكبير في الظروف التي تكشف كلا من المنهجين: العربي والغربي والسياقات التاريخية والثقافية الخاصة التي يتميز بها كل واحد منهما، لم تعد المقابلة ما بين منهج سيبويه أو سواه من اللغويين العرب القدامى في دراسة اللغة، وبعض مناهج المدارس اللغوية الحديثة ضربا من المجازفة أو المفارقة بسبب ما تنطوي عليه من مقارنة بين لغات تنتمي إلى أسر لغوية مختلفة[1]، وذلك أن ثمة قدرا كبيرا من التشابه بينهما في الاتجاهات والآراء والنظريات المتصلة بالبحث اللغوي التي قد يخيل إلى المتأمل والمتمعن فيها أنها صدرت من منبع واحد[2]، وليس أدل على ذلك ما أقر به كبار الباحثين اللغويين أمثال كارتر –كما سبق الذكر-

إن مجال الدراسة ليس بتحديد فضل التقدم والسبق لسيبويه، وإنما هو الكشف عن الملامح المشتركة بين ما جاء به في الكتاب منذ قرون، وبين الاتجاهات الغربية الحديثة كعلم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics)، والأنثروبولوجيا اللغوية (Linguistic Anthropology)، كما رأيناه في مبحث السياق الاجتماعي عند سيبويه، بالإضافة إلى الفلسفة وعلم النفس والتداولية (Pragmatique) التي أسهبنا في تناولها لعلاقتها الوطيدة بالتبليغ ودورها الفعال في الكشف عن مقاصد المتكلمين، ومن العجب أن يجد الباحث كل ما يضارع هذه الاتجاهات والنظريات الغربية في كتاب سيبويه، يتضح هذا من خلال المقارنة بين سيبويه وأبرز أعلام اللغة الغربيين، أمثال: دي سوسير، ومالينوفسكي، وبلومفيد، وكفتكنشتاين، وهابرماس (Habermas) وأوستين وغيرهم.

ونشير إلى أن كثيرا من العلماء الغربيين –أنموذج المقارنة- يعترفون بأن دراساتهم اللغوية لم تنفتح على سائر العلوم الاجتماعية، و لم تتكامل مع الدراسات الإنسانية المختلفة إلا

(1)- ينظر: أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه، ص: 109

(2)- ينظر: نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص: 20

بدءا من منتصف القرن العشرين[1]، نستدل على ذلك بأحد الأنثروبولوجيين:وهو مالينوفسكي الذي يطالب النحويين بتغيير المنهج الذي يتبعونه في بحوثهم اللغوية والمقتصر على الأوراق والأعمال المكتوبة، مقترحا عليهم تبني المنهج التجريبي الذي يعتمد اللغة المنطوقة الحية مادة أساسية للبحث[2].

والحق؛ إن المقام لا يتسع لعرض كل أوجه التشابه بين سيبويه وأبرز الأعلام السابق ذكرهم، وإن كنت قد أشرت سابقا إلى كثير من النقاط المتعلقة بذلك، ولذلك سأتعرض إلى المقارنة بصورة مقتضبة لتدارك ما يكون قد فاتني من إشارات جليلة، لم أذكرها من قبل في متن هذا البحث.

أ. سيبويه ودي سوسير:

لا أحد ينكر قيمة كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة" لصاحبه فردينان دي سوسير الذي ظهر سنة 1916 أي بعد وفاة صاحب هذه المحاضرات بثلاث سنوات (1913)، إذ كان فاتحة عهد جديد بالنسبة للدراسات اللسانية بوجه خاص والعلوم الإنسانية بوجه عام[3]، وبخاصة عندما تحدث عن "علم اللسان الخارجي" الذي يعنى بدراسة تاريخ الشعوب وحضاراتها لفهم البيئة اللسانية الداخلية الخاصة بكل منها[4]، ولذلك ذهب دي سوسير إلى أنه ينبغي دراسة تعبيرات ومفردات لغة شعب ما داخل نظامها اللغوي الخاص، إذ لا وجود لتلك التعبيرات إلا في علاقتها وفي تقابلها مع الكلمات الأخرى التي ارتبطت بها[5].

ولقد استطاع دي سوسير بحق أن يخرج الدرس اللغوي من التصورات الفلسفية، والأحكام المسبقة التي فرضتها ظروف فكرية سادت أوربا ردحا من الزمن من خلال اعتماده على مجموعة من المبادئ، غدت هي الموجه الأساس للدرس اللساني الأوربي بوجه

---

(1)- ينظر: New horizons in linguistics, John Lyons (Editor) England, Penguin Books, 1972, p : 08-09

(2)- ينظر: The dilemma of contemporary linguistics in language in culture and society, Bronislaw Malinowski, New York, Harpers and Maw publishers, 1964, p : 63

(3)- ينظر: محاضرات في اللسانيات العامة، فردناند دي سوسير، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 1987، ص: 03

(4)- ينظر: أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه، سارة الخالدي، ص: 112

(5)- ينظر: محاضرات في اللسانيات العامة، دي سوسير، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص: 31-32

خاص،والدراسات اللسانية العالمية بوجه عام، وهي السمات التي لازالت تطبع التفكير اللغوي الأوربي بخاصة في وجهيه اللساني المحض من جهة، والسيميائي ذي التوجه النقدي الأدبي من جهة أخرى[1].

ولعل أهم تغيير أحدثه دي سوسير في تاريخ علم اللغة الحديث عند الغرب هو ضرورة الابتعاد عن المنهج الزماني (Diachronique) في دراسة اللغة، وإتباع المنهج التزامني (Synchronique) الذي يبحث في التقنيات والطرق التي يتكلم بها الناس في مجتمع لغوي محدد وفي وقت معين[2]، جاعلا اللغة المنطوقة في المقام الأول لدراستها دراسة موضوعية كما هي وكما تظهر؛ أي في ذاتها ومن أجل ذاتها بغية الكشف عن حقيقتها[3].

وهكذا يكون ما نادى به دي سوسير في الغرب في القرن العشرين، قد سبقه إليه سيبويه وأسلافه من النحاة منذ ما يزيد عن اِثني عشر قرنا[4]، حينما قامت أسس نظرياتهم اللغوية على اللغة المنطوقة التي كانوا يسمعونها من معينها، أي بصورة مباشرة من الناطقين بها، مع ما وضعوا لهذه المادة المسموعة من شروط زمانية ومكانية لصحة الأخذ والقبول بها[5]، ولقد أشرنا إلى هذه الشروط في مسألة الاحتجاج.

ولقد ألمح سيبويه في مواطن كثيرة من كتابه إلى أهمية دراسة بعض التراكيب العربية من خلال ربطها بتراكيب أخرى مستعملة لدى العرب وقياسها عليها، مشددا على أن تكون هذه التراكيب متداولة في بيئتهم، وإلا قوبلت بالرفض إن كانت منسجمة نحويا، فالمنطق العام أو السليقة الفطرية الطبيعية للناطقين الأصليين هي مقياس الصحة أو عدمها، كما في "باب الاستقامة والإحالة" هذا فضلا عن وعيه بضرورة إشراك العوامل الخارجية غير اللغوية في تحليل اللغة وتقعيدها خاصة ما تعلق بسياق الموقف.

---

(1)- ينظر مقال: سيبويه والنقد اللساني، د. نصر الدين بوحساين، مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، العدد 08، 2010، ص: 109

(2)- ينظر: أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 112-113

(3)- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعدان، دار المعارف، مصر، د.ط، 1962، ص: 52

(4)- نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص: 23-44

(5)- من تاريخ النحو العربي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1995، ص: 37-38

ب. سيبويه وبلومفيلد:

سبق الحديث عن سيناريو "جاك وجيل والتفاحة" في نظرية التبليغ عند "بلومفيلد"، فمن يكون هذا الرجل؟ ليوناردو بلومفيلد "Leonardo Bloomfield" من أبرز الأعلام اللغويين وأكثرهم تأثيرا في تاريخ علم اللغة الأمريكي في أوائل القرن العشرين[1]، درس اللغة من منظار أنثروبولوجي وعلمي[2]، غير أنه قد تبنى المذهب السلوكي (Behavriouristic School) في تحليل الكلام الذي يقوم على اكتشاف ما سوف يفعله الفرد في موقف معين أوحين يرى شخصا ما يفعل شيئا، وهذه الطريقة تساعد على التنبؤ بالاستجابة حين نعرف "المنبه" أو "المثير"[3].

يفهم مما سبق آنفا، أن بلومفيلد ينظر إلى الحدث الكلامي على أنه صورة من صور السلوك الجسماني، ولذلك يتطلب فهم الموقف تحليل الأحداث العملية التي تسبقه والتي تلحقه زيادة عن دراسته هو بحد ذاته[4]، وأفضل نموذج يقدمه بلومفيلد عن تصوره هذا هو سيناريو (جاك وجيل والتفاحة) الذي تمت الإشارة إليه في أكثر من موضع من هذا البحث.

وإذا كان بلومفيلد قد أورد نموذجا واحدا لتصوره، فإن في الكتاب شواهد كثيرة يصور فيها سيبويه مشاهد من الأحداث الكلامية التي نتجت عن مثيرات لغوية وغير لغوية، ذكرناها أكثر من مرة في مواضع تطلبت التمثيل بها، ولا بأس من ذكرها مرة أخرى للتدليل على مزاعمنا وهي كالآتي:

- **الأحداث العملية السابقة على الكلام** (**رد الفعل اللغوي**):

المثير اللغوي/المثير غير اللغوي

- رؤية الحاج. "مكةَ واللهِ"
- رؤية رجل يضرب أو يقتل أو يشتم. "زيداً"

(1)- ينظر، أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 114

(2)- نفسه

(3)- ينظر: النحو العربي، عبده الراجحي، ص: 37

(4)- نفسه، ص: 38-39

- رؤية رجل يكاد يرتطم بالحائط. "رأسك والحائطَ"
- رؤية رجل يسدد سهما نحو القرطاس ثم سماع صوت تسديد السهم دون رؤيته "القرطاسَ واللهِ".
- رؤية أناس يرقبون الهلال ثم سماع صوت تكبيراتهم. "الهلالَ وربِّ الكعبة"

يلاحظ صاحب النظر الثاقب أن عنصر الاستجابة مغيب، وكذلك الأحداث التي تلي الحدث الكلامي، ولذلك ما يبرره عند صاحب الكتاب، وهو توقعات المتكلم، وهذا ما يعرف في علم النفس اللغوي (Psycholinguistique) بـــ"تداعي المعاني" " Word association game" أو "Stimulus and response model"، حيث يعرض العالم أو الباحث اللغوي مجموعة من المثيرات (stimulus) أمام أحد الأشخاص ليدرس استجابته الكلامية الفورية عليها[1].

ج. سيبويه وتشومسكي:

يتفق تشومسكي في كثير من الجوانب مع سيبويه، خاصة ظواهر التحويل كالتقديم والحذف والزيادة وغيره وكذا قواعد الاشتقاق، ولا يتسع المقام هنا لعرض أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فقط أننا سنلمح إلى الجانب النفسي في كتاب سيبويه في دراسة اللغة والذي يحتل حيزا مهما، لذلك يذهب تشومسكي إلى أن ثمة ارتباطا وثيقا بين علم اللغة وعلم النفس، على الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الحقلين أثناء التطبيق، وذلك أن النواحي النفسية تتدخل في عملية بناء التركيب، إذ هي المسؤولة عما قد ينتج عن ذلك من أخطاء أو تشوهات أو جمل غير تامة تزيد أوتغير في تسلسل الكلام[2]، وهذا الذي يلمسه الباحث عند سيبويه حين تحدث عن بدل النسيان والغلط حين يستدرك المتكلم خطأه فيعمد إلى تصحيحه أو حتى الإضراب عنه.

---

(1)- ينظر: Word association and linguistictheory, Herbert's Clark in New Horizons in linguistics, England, Penguin Books, 1972, p :

(2)- ينظر: The Harvesterpress, Lyons John Chomsky, p : 110-111

د. سيبويه ومالينوفسكي:

في رسالته "دلالة السياق" يعرفنا "ردة الطلحي" بمالينوفسكي على أنه من أبرز الأنثروبولوجيين (Anthropologistes) الذين أمدوا علم اللغة بأبعاد إنسانية واجتماعية فائقة الأهمية، يظهر ذلك في الأثر الكبير الذي تركه فيمن جاء بعده من اللغويين واللغويين الأنثروبولوجيين، أمثال: فيرث، وجسبرسن وجون بيير[1].

ويحرص "مالينوفسكي" على أن فهم اللغة يحتاج إلى مساهمات من فروع علمية عديدة، لاسيما من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين يمدانا بفهم أعمق لطبيعة الإنسان وثقافته[2]، لأنه لا سبيل إلى الفهم العميق للبناء اللغوي ما لم يفهم هذا الإنسان الناطق بهذه اللغة، إضافة إلى الظروف المحيطة التي تكتنف كلامه، وذلك أن معنى أي لفظة يعتمد على السياق الذي وردت فيه[3].

لقد أصبح واضحا أن دراسة أي لغة يتكلم بها قوم يحيون ظروفا معينة مغايرة لظروفنا، ويملكون ثقافة غير التي نملكها، يحتم علينا الإطلاع على ثقافتهم وظروف معيشتهم وخصائص بيئتهم، بل وحتى التعرف على عاداتهم وتقاليدهم التي يظهر أثرها في أنماطهم التعبيرية، وإلا تعذر علينا فهم كلامهم أو مقاصدهم، ولقد رأينا أن سيبويه قد تفطن إلى هذه الحتمية، إذ طبقها تطبيقا محكما حين إصراره على إدخال عنصر السياق الواقعي الذي جرى في الكلام الذي كان يحلله ويقعد لمبناه، بالإضافة إلى إشاراته إلى بعض من قيم العرب الاجتماعية، كما رأينا في مبحث السياق الاجتماعي عند سيبويه.

وتأكيدا على وعي سيبويه لمسألة أن دراسةَ لُغَةٍ ما، لا يتِمُّ إلا بالإطلاع على خصائص أهلها، نورد بعض شواهده على ذلك:

---

(1)- ينظر: دلالة السياق، ردة الطلحي، رسالة دكتوره، جامعة أم القرى، مكة، 2002، ص: 181

(2)- ينظر: « The problem of meaning in primitive langages », in the Malinowski, Bronislam Harcourt, Branc, meaning of meaning and wordinc, 1923, p : 298

(3)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 118

1. يقول في معرض تسويغ الرفع النعت: "له عِلْمٌ عِلْمُ الفقهاء، وإنما كان الرفع في هذا الوجه، لأن هذه خصال نذكرها في الرجل،.. ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تَعَلُّمٍ ولا تَفَهُّمٍ، ولكنك أردت تذكر الرجل بفضل فيه... كقولك: له حسبٌ حسبُ الصالحين، لأن هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحلية عند الناس وعلامات... وإذا قال: له علمٌ علمُ الفقهاء، فهو يخبر عما قد استقر فيه قبل رؤيته وقبل سمعه منه، و لم يرد أن يخبر أنه إنما بدأ في علاج العلم في حال لقيه إياه، لأن هذا ليس ما يثنى به، وإنما الثناء في هذا الموضع أن يخبر بما استقر فيه..." [1].
2. وفي باب منع أن يكون للأسد اسم عَلَمٍ يختص به قال: "وإنما مُنِعَ الأَسَدُ أن يكون له اسم معناه زيدٌ، لأن الأُسْدَ وما أشبهها ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا إلى أسماء يعرفون بها بعضا من بعض..." [2].

يتضمن النص الأول تقنية تعليل الحركات الإعرابية (تعليل رفع الاسم "علم" لكونه نعتا) وكذلك تعليل ما تواضع عليه الناس في تحديدهم لمفهوم الثناء ومعانيه، ويكون سيبويه بهذه التقنية قد ألف بين منهجين، المنهج النحوي (الحركات الإعرابية) والمنهج الأنثروبولوجي (تواضع الجماعة)، والقصد من هذا الجمع بين المنهجين، هو أن العلامة الإعرابية لا يتم لها معناها النحوي إلا إذا وقعت في أبعادها الاجتماعية الصحيحة[3].

أما النص الثاني، فإشارة سيبويه جد واضحة، وهي أن الناس ليسوا في حاجة إلى تسمية الأسود في الوقت الذي تكثر فيه الأسماء الخاصة بالحيوان، "ألا تراهم اختصوا الخيل والإبل والغنم والكلاب وما يثبت معهم"[4].

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 361-362

(2)- الكتاب، ج2، ص: 94

(3)- ينظر: الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه، نهاد الموسى، مجلة حضارة الإسلام، العدد 01، 1974، ص: 74

(4)- الكتاب، ج2، ص: 94

وهو الاتجاه نفسه الذي دعا إليه مالينوفسكي الذي "لاحظ بأن اللغة الأصلية للمتكلمين (Native language) تحوي تراكيب نحوية في منتهى البساطة، وهي إلى ذلك تحتضن قدرة تعبيرية كبيرة تتحقق دائما من خلال المقام والموقف"[1].

إن لكل قبيلة أو مجتمع بدائي كما لكل مجتمع متحضر مخزون من الكلمات وأنماطا من القواعد التي لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا من خلال ارتباطها بمتطلباتهم العقلية، ومن هنا فإن مهمة الإثنوغرافي (عالم الأنثروبولوجيا الوصفية) (Ethnographer) الكشف عن ذلك المخزون وما يتعلق به من قواعد[2].

ويبدو أن سيبويه يكون قد كشف عن هذه المسألة منذ قرون، ويظهر هذا جليا في قيامه بمهمة النحوي الذي يقعد واللغوي الذي يفصح والإثنوغرافي الذي يكشف.

ومهما يكن من أمر، فإن علم اللغة الاجتماعي الذي أسهبنا الحديث عنه في مبحث السياق الاجتماعي، يلحظ أن الخطاب يتركز حول الناس أو الأفراد "People - centered"، في حين أن الكتابة تركز على الموضوع (Topiccentered)، إذ الخطاب يولي عنايته الشديدة لجمهور المستمعين أو المشاهدين؛ لأن غايته إشراكهم في الحوار والحديث[3]، ولذلك فإن أغلب الشواهد الواردة في الكتاب تكثر فيها أفعال النهي والأمر والإخبار والاستفهام والتحذير وما شابه ذلك من معاني، ترتبط ارتباطا مباشرا بالأشخاص لا بالموضوعات.

ه. سيبويه وفنكنشتاين:

تضاربت آراء بعض المفكرين الغربيين حول "فنكنشناين"، إذ يعدونه الفيلسوف الأول للقرن العشرين، خاصة بعد نشر الكتاب المشهور "Philosophicalinvestigations"، بينما يرى راسل (Russel) وآخرون أن لا فائدة ترجى من هذا الكتاب بناءا على نظر

(1)- نفسه، ج2، ص: 94

(2)- ينظر: The problem of meaning, p : 300

(3)- ينظر: أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 124

الكثيرين من الفلاسفة الذين رأوا أنه غامض ومحير وعسير الفهم[1]، والحق إن "فنكنشتاين" كان يؤاخذ الفلاسفة على استعمالهم لِلُغَةٍ لا يفهمها كثير من الناس غيرهم، ولذلك غدت الفلسفة لغة خاصة لا يفهمها إلا المتحدث بها[2]، دون أن يلقوا لقواعد النحو بَالاً ولا لأساليبَ التعبير إلا فيما يُعِينُهُمْ على حل قضاياهم الفلسفية[3]، ومن هنا فلا ريب في أن الاتجاه الفلسفي في دراسة اللغة؛ يختلف في أبعاده وغاياته عن الاتجاه اللغوي الصرف في دراسة القضايا اللغوية[4]، ولكن هذا لا يمنع اللغويين من الاستفادة من تحليلات ونظرات الفلاسفة العميقة في جوهر اللغة.

يدرك كل باحث مطلع على أعمال "فنكنشتاين" الفلسفية أنه ينتصر للغة الطبيعية، لغة التخاطب التي أكثر الحديث عنها، وذلك أن التواصل أو التخاطب بين الناس " Verbal communication" كان شغله الشاغل، وهو الذي أطلق على التخاطب اللغوي اسم "ألعاب الكلام (Language games)"، يفهم من هذا أن ممارسة اللغة عنده تعني بأن هناك طرفا ما ينطق بالكلمات، وطرفا آخر يعمل وفقها[5]، على قدر ما تم فهمه واستيعابه لما سمعه، لذلك وجدناه يطرح تساؤلاته حول الكيفية أو التقنية التي يصل بها المعنى من المتكلم إلى المستمع، وعلاقة ذلك بالسياق الذي يرد فيه الكلام، قائلا: "هل يتوقع المتكلم أن يصل المعنى الذي أراده من كلامه إلى المخاطب كما هو ماثل في ذهنه هو، أم أنه ينتظر من هذا المخاطب أن يخمن فحوى كلام محدثه؟ وإذا حاول المتكلم توضيح مراده من خلال الأمثلة، فقد يتبادر إلى ذهن السامع أكثر من تفسير واحد لما يسمعه، فيتوجب عليه في هذه الحال أن يسأل المتكلم ويستفسر منه، وما على المسؤول إلا الإجابة"[6].

---

(1)- ينظر: Wittgenstein, understandingmeaning, G. P, Baker, p : 05

(2)- ينظر: Wittgenstein on the arbitrariness of grammar, Michael Forster, Princeton, universityPress, 2004, p : 01

(3)- ينظر: How to do thingswithwords, Austin, J. L, Oxford universitypress, 1981, p : 02

(4)- ينظر: Wittgenstein, Rules, grammar and necessity, Baker G.P, Oxford, Bail books Well, 1985, p : 54

(5)- ينظر: Philosophical investigations, Wittgenstein Ludwig, Oxford, Black wellpublishers, 2001, p : 04

(6)- نفسه، ص: 71

تذكرنا هذه الأسئلة بمنهج سيبويه في تحليل وتفكيك بعض التعابير، كتلك التي مثلنا بها في باب النعت الوارد في الكتاب في قوله: "مررت برجلين/مسلم وكافر"، حيث يرى سيبويه أن هذه العبارة هي في الأصل مزيج من كلام المتكلم، وإجابة عن سؤال المخاطب الذي يتوقع منه السؤال وإن لم ينطق به (بمن مررتَ؟).

وفي مجال فلسفة التواصل يضرب "فنكنشتاين" للمتلقي مثالا لتوضيح علة التباس المفاهيم في بعض العبارات، بسبب احتمالها معاني متعددة من التفسيرات، وذلك بالعبارة الآتية: "Moses did not exist"، هذه العبارة التي تحتمل ثلاث دلالات متباينة[1].

1) إن الإسرائيليين لم يكن لديهم قائد حينما خرجوا من مصر.
2) قائد الإسرائيليين لم يكن اسمه موسى.
3) ليس هناك أحد أنجز ما روى الكتاب المقدس عن موسى.

وهي مشابهة للمثال الذي أورده سيبويه في قوله: "ما أتاني رجل" التي تحتمل عدة دلالات أوضحها كالآتي[2]:

1) ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر من ذلك.
2) ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك.
3) ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء.

فإذا قيل ما أتاك أحد صار نفيا عاما لهذا كله[3]، ليس هذا فقط، وإنما هناك أيضا علاقة مشابهة فيما يخص تقنية الحذف التي تناولها سيبويه بالتحليل والتعليل معولا على سنن العرب وما اعتادت عليه، وهو الأمر نفسه الذي وجدناه عند الفيلسوف "فنكنشتاين" وهو أن "معنى كلمة ما يكمن في كيفية استخدامها"[4]، يفهم من هذا الرأي دور السياق في تحديد

(1)- ينظر: Wittgenstein, Philosophical investigations, p : 31
(2)- الكتاب، ج1، ص: 55
(3)- نفسه
(4)- ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 18

مقاصد المتكلمين، إذ هو الكفيل بإزالة الغموض في فهم العبارة المنطوقة، وإن لم تكن مكتملة العناصر نحويا[1].

فالنطق بكلمة "Slab" يمكن أن تفهم فهما صحيحا إذا عرفنا السياق الذي قيلت فيه، ولمن قيلت؟! ولماذا؟! فإذا تصورنا على سبيل المثال أنها قيلت في مكان خاص بالبناء (ورشة بناء)، وأن الذي تلفظ بهذه المفردة هو أحد العمال مخاطبا بها زميله، أدركنا فورا أنها مساوية لعبارة: "Bring me a slab" أو "Hand me a slab"[2] أي: "ناولني البلاطة"، فالمتكلم يدرك أنه بكلمة واحدة سيفهمه المخاطب، لذا فهو لا يحتاج إلى تأليف العبارة كاملة وإنما يلجأ إلى الحذف تجنبا للتفاصيل التي هو في غنى عنها.

لذلك فهو يرى أننا إذا تمكنا من خلال استعمال كلمة واحدة فقط أن ندير "لعبة اللغة"؛ فإن هذه الكلمة تشكل جملة بمفردها، بينما لو تلفظنا بعبارة صحيحة نحويا، ولكنها لم تؤد معنى تجيزه الجماعة اللغوية "Language group" فإنها سترفض؛ لأنها تفتقر إلى الاستخدام المقبول[3]، لذا فهو يركز على السياق ويولي اللغة العادية التي يتحدث بها الناس عناية كبيرة أكثر من اهتمامه باللغة المليئة بالمصطلحات الفلسفية، يتضح من هذه العناية "أنه يسعى إلى توضيح علاقة النحو باللغة الحية، ولا يطمح إلى تغيير اللغة العادية ولا إلى خلق لغة جديدة، بل يبتغي تبيين طريقة استخدامها"[4].

وفي حديثه عن الاستعمال المقبول، اتفاق بين فنكنشتاين وسيبويه حينما تحدث عن تسويغ حذف الأفعال، بل وحتى الجمل باعتبار ذلك صحيحا؛ لأنه مقبول معنى واستخداما، خاصة وأن السياق الاجتماعي الذي يرد فيه الكلام يسمح بالاختصار والحذف؛ لعلة هي أن المخاطب على دراية بغرض المتكلم، مثال ذلك ما ذكره سيبويه عن جواز النطق بكلمة واحدة هي "زيداً" إذا كان المخاطب فاهما لقصد المتكلم الذي يريد إيقاع أمر ما، أو المواصلة

---

(1)- ينظر: Understanding, Baker, p : 51-96

(2)- ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 08

(3)- ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 08

(4)- أثر سياق الكلام عند سيبويه، ص: 129

في عمل ما بزَيدٍ من ضرب وغيره، إضافة إلى اختزال بعض من الكلام لارتباطه بأحداث سابقة تفهم من سياق الكلام، كمثال سيبويه عن ذلك: "إذا كان غَدٌ فأتني"، هذه العبارة المتعلقة بمناسبات مختلفة والتي يفسرها سيبويه في قوله: "والمعنى أنه لقي رجلا، فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء في غد فأتني"[(1)].

يستنتج مما أنف ذكره، أن فنكنشتاين "يقيم وزنا للقواعد النحوية التي يرى أنها تضبط استخدام الكلمات، وبالتالي فهي المسؤولة عن تحديد المعنى، فعلاقة النحو عنده باللغة تشبه إلى حد كبير علاقة قواعد اللعبة باللعبة، فكما أن هذه القواعد تتحكم بأصول ممارسة هذه اللعبة، وهي التي تسمح بالتحركات التي تجري داخلها، كما في الشطرنج مثلا، فكذلك النحو يتحكم بمساحة ما من اللغة، وهو الذي يسوغ التحركات اللغوية داخلها، وهو إلى جانب ذلك يقرر فشل هذا الاستخدام أو نجاحه"[(2)]، وهو المذهب ذاته الذي ذهبه سيبويه في تأكيده بالنسبة لعلاقة النحو الوثقى بالمعنى.

و. سيبويه والتداولية:

أ. سيبويه و"بول غرايس":

اهتم "غرايس" بموضوع التخاطب والحوار، وعمل علي إيجاد نظام لهما، فحدد هذا النظام في مبادئ أو قواعد جمعها في مبدأ سماه "مبدأ التعاون والاقتصار على جانب التبليغ".

وبالعودة إلى هذهالقواعد الوارد ذكرها في مدخل البحث، يتجلى لنا أنها تنطبق تماما على قواعد التبليغ وتقنياته التي وردت في "كتاب سيبويه"، يدلنا على ذلك اتخاذ سيبويه كلام العرب الفيصل في صحة وسلامة كل التراكيب اللغوية الرامية إلى التبليغ، وقد ذكرنا في مبحث آخر من البحث عناصر العملية التبليغية في الكتاب، وخصصنا جانبا من الدراسة لكل عنصر (المتكلم وأنواعه، المخاطب وأنواعه، غرض الكلام، والسياق).

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 224

(2)- ينظر: Wittgenstein, philosophical investigations, p : 09

كما أشرنا إلى قواعد التخاطب عند كل طرف من أطراف العملية التواصلية، ونريد من خلال هذه المقارنة بين سيبويه وغرايس أن نثبت فكر سيبويه التداولي ومدى اتفاقه مع بول غرايس وذلك من خلال قواعد التخاطب والحوار عند غرايس.

1) قاعدة الكم:

- إخبار السامع بالقدر الذي يحتاجه دون زيادة.
- توافر القدر المطلوب من المعلومات.
- يجب ألا توجز إلى حد الإخلال، ولا تطنب إلى حد الإفراط.

توافق هذه القاعدة (تقنية الحذف والاختصار والاتساع) عند سيبويه، وقد أسهبنا كثيرا في تحليل هذه التقنية ولا نريد تكرار ما قاله سيبويه في هذا الشأن تفاديا للضجر أو الملل الذي قد ينفر المتلقي من متابعة البحث.

2) قاعدة الكيف:

- عدم إعطاء المتكلم معلومة لا يملك الدليل على صدقها أو صحتها (الإلغاز).
- لا تقل للمخاطب ما تعلم كذبه (باب الاستقامة).
- لا تقل شيئا تعوزك في إثباته الحجة؛ أي ما ليست لك عليه بينة، (لذا لا يأتي سيبويه بقواعد نحوية عشوائية؛ وإنما يحتكم إلى فصاحة العرب وسننها، معتمدا في ذلك على شيخه الخليل أو بالقياس على كلام فصحاء العرب).

3) قاعدة الورود:

مناسبة المقام لمقتضى الحال: سمعت تكبيرات القوم وكنت بعيدا عنهم ولكن على مرأى منهم، قلت: "الهلالَ وربِّ الكعبةِ".

هيئة الحاج ⟵ "مكَّةَ وربِّ الكعبةِ"

رجل يسدد سهما صوب القرطاس ⟵ "القرطاسَ واللهِ"

أحد الناس يقع عليه الضرب ⟵ "زيداً"

ليكن خطابك واردا، أي ألا يكون متناولا لأمر غير الموضوع الذي أنت بصدده، (مثال: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٌ)، إذ خَرِبٌ صفة للجُحْرِ لا للحَيوانِ"الضب"، (تنبيه سيبويه إلى هذا الخطإ الذي يقع فيه إلغاز أو عدم فهم النعت على من يعود).

4) قاعدة الكيفية:

وتشتمل على آداب الخطاب وطريقة أدائه.

كن واضحا: (دعوة سيبويه وحرصه على التوضيح وعدم الإلغاز، تجنب الغموض، تجنب الالتباس، ليكن خطابك مركزا، كن منظما، كن مؤدبا)، ومثال ذلك قول سيبويه: "فَقِفْ على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسر"[1].

وهو الاتفاق نفسه مع باحث مشهور في التداوليات وهو "ديكرو" الذي أشار إلى قوانين التواصل والتبليغ وهي:

1) قانون الاهتمام

2) قانون الإخبارية

3) قانون الاستقصاء

4) قانون التلطيف

وإذا كانت هذه القواعد والقوانين متعلقة بالمتكلم، فللمخاطَب كذلك حظٌّ من الاهتمام نفسه، عند كل من سيبويه، غرايس، وديكرو وكل الباحثين القدامى والمحدثين، ومن أمثلة قواعد الاهتمام ما يلي:

حسن سلامة السمع، حسن الانتباه، الرصيد اللغوي الكافي، الرغبة في التواصل، القدرة على الربط والاستنتاج والتأويل، القدرة على الاعتراض والمناقشة والتأييد.

ثم إن الأسئلة التي تحاول التداوليات الإجابة عنها تتفق تماما مع ما جاء به سيبويه في كتابه، ومن أسئلة التداولية ما يلي:

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 266

1) من يتكلم؟ نوع المتكلم ← شاعر، متعلم، مخطئ أم ثقة؟
2) إلى من يتكلم؟ ← نوع السامع في درجة المتكلم نفسها؟، منصت جيد؟، نائم؟، سادر؟، غافل؟...
3) ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ نوع الرسالة ويحددها السياق
4) ما مصدر التشويش والإيضاح ←الغموض، اللبس، الإلغاز مثال ذلك: رويد ورويدك، بإضافة (الكاف) لمخاطبة من هو وسط جماعةٍ وحتى ينتبه المعني بالنداء والخطاب من غير المعنى أي (الكاف) لرفع اللبس والإيضاح.
5) كيف نتكلم بشيء ونريد شيئا آخر؟ ←المجاز، الكناية.

والإجابة عن هذه الأسئلة تستدعي استحضار مقاصد التخاطب وأفعال اللغة ببعديها المقامي والمقالي التداولي، وهذا يحدده كما مر بنا نية المتكلم ووظيفة الكلام، وسياق الموقف.

7. سيبويه ونظرية الحجاج:

في كتاب سيبويه تخضع حججه للتراتبية والتنظيم من حيث: القوة والضعف، والبدء والختم، والإبطال والإثبات، والحسن والقبيح، والمحال والكذب، الجيد والشاذ...

يدلي سيبويه بحججه حتى لا يشك شاك في استنباطه للقواعد والخروج بالأحكام، مدعما أقواله بالشواهد المختلفة التي استقاها من البيئة العربية، أي من واقع المخاطَب، فهو إما يثبت له أمرا (قاعدة) أو يزيل عنه الشك في قضية، أو يذكره بشيء لم ينتبه إليه في لغته، أو يوضح له سلامة تركيب أو خروجه عن كلام العرب، أو أن العرب لم تتكلم به، بعرضه للمثال أولا، ثم استخراج الحكم الإعرابي ثم القاعدة، مستشهدا على ذلك بما يناسب المقام، إن آية أو شعرا أو نثرا، متوقعا أن المتلقي لكلامه ربما لن يقتنع، أو سيؤاخذه على قاعدة ما، لذلك فهو -كما نرى- لا يترك مجالا للشك، وكأنه يحيطه من كل جانب حتى لا يجد المتلقي مفرًّا من الاقتناع بما قاله، والانصياع لقواعده النحوية السابقة من الاستعمال.

وإذا كانت نظرية الأفعال الكلامية تتمركز حول الذات المتكلمة، فإن حجج سيبويه تتمثل في تحديد (نية المتكلم)، وذلك أن سيبويه متكلم متلق في الآن ذاته، والحجة تقوم على

الدليل الذي يقتضي (الغلبة والظفر)، بينما الحجاج يقوم على أساس التخاطب بين المتكلم السامع اللذين يتحاجان في أمر أو قضية يستلزم دليلا أو حجة، ولذلك وجدنا سيبويه يقدم الشواهد كأدلة وحجج على ما نحو هذه من استنباطات معتقدا أن هناك متلقيا يستعرضه، ولذا فهو لا يترك الفرصة لذلك ربما لوعيه وإن يتمثل بالمصطلح الحجاج، أن "الحجاج كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"، وأن الحجاج يؤطره التفاعل وكأن كل المظاهر موضوعة على قانونه ومفهومه على مقتضاه.

أ. أنواع الحجج في كتاب سيبويه:

1) البصر بالحجة:

يتوفر الكتاب على هذا النوع من الحجج، وقلنا بأن سيبويه لا يترك الفرصة ليعترض عليه معترض في استنباط قواعده وأحكامه، لذلك فهو يهرع إلى سد السبيل على المتلقي حتى لا يجد منفذا إلى استضعاف الحجة أو الخروج عن دائرة فعلها، ولذلك قال الجاحظ: "جماع البلاغة بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"[1]. وشواهد الكتاب كلها حُجَجٌ لقواعد واستنباطات وأحكام سيبويه، الفيصل فيها أنها مستمدة من الواقع اللغوي للعرب في عصره.

2) ترتيب الحجج:

الواضح أن ترتيب أبواب سيبويه بدءا بالنحو وانتهاءًا بالأصوات كان له ما يبرره، وهو أننا نرتب أفكارنا أولا في الذهن من حيث الدلالة، ومن حيث السلامة اللغوية، ثم ننطقها أصواتا، ولذلك ابتدأ سيبويه كتابه بما يجب أن يبتدئ به ذكي عالم بلغته "هذا باب علم ما للكلم من العربية"، "فالكلم: اسم وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجل، فرس وحائط، وأما الفعل، فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ونسبت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع،...، وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل، فنحو: ثم، سوف، وواو القسم، ولام الإضافة، ونحوها"[2].

---

(1)- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 2001، ج1، ص: 63

(2)- الكتاب، ج1، ص: 12

فالملاحظ أنه قد ذكر الأسماء، ثم الأفعال، ثم الحروف، مرتبا إياها حسب القوة والضعف، وحيث الثبوت والتحول، وحسب البناء والإعراب، وحسب الزمن الماضي والمضارع المجزوم، المضارع المنصوب، ثم الأمر، شارحا محللا معللا كل ضرب من ضروب الكلم، وانطلاقا من "باب علم ما الكلم في العربية" سيطبق قواعده وأحكامه التي لا تخرج عن انتحاء سمت كلام العرب.

1. فالمقدمات هنا: الكلم: اسم وفعل وحرف لمعنى ليس باسم ولا فعل.
2. هنا يدخل عنصر الاستمالة والتأثير لمعرفة كل ضرب أو كل قسم من أقسام الكلم.
3. استعمال ما في الواقع لدعم وتطعيم كلامه.

الاسم: رجل، فرس، حائط.

الفعل: تحديد الزمن (الماضي، المضارع، الأمر).

الحرف: مثل: ثم، سوف، واو القسم، لام الإضافة ونحوها.

فالملاحظ أن هذا الباب استمالة ودعوة لمتابعة كل أبواب الكتاب، يدلنا على ذلك قوله: "...فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة ستبين إن شاء الله"[(1)].

ب. سيبويه وبيريلمان وتيكاه:

يقولان إن "موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[(2)]، وفي المؤلف نفسه يذكر الباحثان الغاية من الحجاج، فيؤكدان أن "غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج هو ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوي درجتها لدى السامعين بشكل يحثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق –على الأقل- في جعل تحفيز السامعين للاستعداد للقيام بذلك

(1)- الكتاب، ج1، ص: 12

(2)- Traité de l'argumentation, Pérélaman et Tytéca, p : 05

الفعل في اللحظة المناسبة"[1]، وقد اصطلح سيبويه على القصد بـــ(نية المتكلم والمقام والحال) وهما أساسيان لكل خطاب حجاجي.

ويتفق سيبويه مع بيريلمان، إذ يجب على المتكلم –وفق بيريلمان– التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بعلاقة المخاطبين مع المقام والموضوع معا، وكأن سيبويه قد أدرك أنه سيكون أكثر تأثيرا، إذا استثمر حقائق فعلية أو أحداثا معينة، لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية بقوله: "وهو عربي جيد كثير"، حتى لا يقدح ابن اللغة في لغته.

ويرى "بيريلمان" أن المقام هو الذي يساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم، وكأن هذا الكلام يصنف سيبويه في فئة المبدعين حسب "بيريلمان".

ولقد كان الحجاج دوما وبشكل عام دفاعا عن ملفوظ أمام ملفوظات أخرى[2]، لهذا يقول جيلالي دالاش عن حقل التداولية "إنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"[3]، لأنها تبحث في معرفة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه، وقد لمسنا هذا الجانب بوضوح في الكتاب، حين أشار سيبويه في أكثر من موضع إلى "نية المتكلم" و"وظيفة الكلام"، معتمدا في ذلك الاستعمال الحي للغة الطبيعية داخل مجتمعه العربي الفصيح، ويحضرني في هذا المقام قول سيبويه: "سير عليه ليل"[4]، إذ حذف سيبويه الصفة (طويل) لعلمه أن الحال تدل على موضعها، وقوله كذلك: "كان والله رجلاً" فتزيد في قوة اللفظ باسم الجلالة "الله" وذلك أن يكون المقام مقام مدح لخصال الرجل، فتمطيط اللام، وإحالة الصوت يُوحِيًّانِبأنه: (رجل فاضل شجاع)، وكذلك في مقام الذم، نحو قوله: "سألناه وكان إنساناً" وتزوي وجهك وتغطيه فيغني عن ذلك قولك: (إنسانًا لئيمًا) أو (بخيلاً).

---

[1]- الكتاب، ج1، ص: 59

[2]- خطابات الحداثة، ماريا كاريلو، ترجمة: إدريس كثير، عز الدين خطاب، منشورات دار ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2001، ص: 74

[3]- مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص: 01

[4]- الكتاب، ج1، ص: 220

ونُذَكِّرُ أن أفعال اللغة المتداولة حسب أوستين هي: أكد، أنكر، أجاب، اعترض، وهب،...، في حين أن التعابير الإنجازية مرتبطة بالسياق ومنها: أجيب، أستنبط، أستخلص، أعترض،..، وهدفها الأقوال اللاحقة بالأقوال السابقة، وهذه الأقوال تأكيدية عامة، وهذا ما نجده في الكتاب، إذ تحدث سيبويه عن العلائق المنطقية والدلالية، مثل: الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض، وكلها علائق حجاجية استدلالية، وهو ما يدعى بمنطق الخطاب أو المنطق الطبيعي.

ج. سيبويه وشارل موريس:

ميز "موريس" في كتابه "أسس نظرية الرموز (1938)" بين ثلاثة عناصر تدخل في تحديد الرمزية وهي[1]:

1) الرمز من حيث هو علامة.
2) الرمز من حيث هو دلالة.
3) الرمز من حيث هو محل للتأويل.

حيث نقل هذا التقسيم الثلاثي للرمز من المنطق إلى اللسانيات؛ فميز بين مستويات ثلاثة تحدد العلاقة بين علم الدلالة والتداولية وتتعاقب تعاقبا خطيا.

أ. **المستوى التركيبي**: يعنى بتحديد قواعد التأليف، أي جُمَلاً لغوية، والكلمة المفتاح في هذا الطور هي النحوية، افتتح سيبويه كتابه "بباب علم ما للكلم من العربية".

ب. **المستوى الدلالي**: يعالج علاقة العلامات بمرجعها أو مدلولاتها.

- الاسم: إنسان، حيوان، حائط.
- الفعل: ماضي، مضارع، مستقبل.
- الحرف: ثم، سوف، واو القسم...

بالإضافة إلى "باب الاستقامة والمحال"، حيث يذكر:

(1)- أسس نظرية الرموز، شال موريس، ترجمة:

1) المستقيم الحسن: أتيتك أمس وسآتيك غدا.
2) المحال: أتيتك غدا، وسآتيك أمس (نقض أول الكلام).
3) المستقيم الكذب: حملت الجبل، وشربت ماء البحر.
4) المستقيم القبيح: قد زيدا رأيت، وكي زيدا يأتيك.
5) المحال الكذب: سوف أشرب ماء البحر أمس.

إذ تكمن قيمة هذه العبارات في الصدق والكذب، أي السلامة اللغوية والعدول (ولا يعني سيبويه بذلك الصدق والكذب الأخلاقيين) بل المجاز وغيره من الانزياحات التي تزيد الخطاب توضيحا أو قوة أو جمالا ومتعة.

ج. **المستوى التداولي:** يدخل في هذا المستوى عنصر التأويل للرموز والعلامات الموجودة في الخطاب، أو التي يتلفظ بها المتكلم مخاطبا مستمعا.

وهذا لا يتحقق إلا باستيفاء الكلام لشروط القول وقدرته، التأثيرية وتطرح في هذا المستوى أمثلة من مثل: هل يناسب القول المقام، أم أن الأمر على خلاف ذلك؟ ما هي الأفعال الكلامية التي تسمح بإنجازه (الإثبات، الاستفهام، النفي، التمني...؟)، ما هي طبيعة رد فعل المخاطب (استنكار، الإجابة بسؤال؟)، يذكرنا هذا بتقنية الاستفهام والأمر، النداء والندبة، والتعجب عند سيبويه. والتي قمنا بدراستها في مبحث المتكلم عند سيبويه ودوره في الخطاب/الكلام.

د. العوامل الحجاجية في الكتاب (سيبويه، ديكرو وانسكومير):

ليست مظاهر التلفظ في بعض جوهرها سوى عوامل حجاجية تندرج في الأقوال، فتكيف تأويلها وفق غاية المتكلم، حيث إن هناك ألفاظا وكلمات ذات قيمة حجاجية نحو الرابط الحجاجي "لكن" الذي يقدم قرائن معنوية تبين المراد من الخطاب، وتوجه طريقة تأويل العلاقة بين المحتويين الخبريين، جاء في "هذا باب المبدل من المبدل منه، والمبدل يشرك المبدل منه في الجر"، وذلك قولك: مررت برجلٍ حمارٍ، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن، فأما المحال أن تعني أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول مررت برجل، ثم تبدل

الحمارَ مكان الرجل فتقول: حمارٍ، إما أن تكون قد غلطت، أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل، وتجعل مكانه مرورك بالحمار، بعدما كنت أردت غير ذلك، ومثل ذلك قولك: لا (بل) حمار... ومن ذلك ما مررت برجل (بل) حمار، وما مررت برجل و(لكن) حمار، أبدلت الآخر من الأول وجعلته مكانه... ولو ابتدأت كلامك فقلت: ما مررت برجل و(لكن) حمارٌ، تريد (ولكن) هو حمارٌ، كان عربيا، أو (بل) حمارٌ، أو (لا بل) حمارٌ، كان كذلك، كأنه قال: ولكن الذي مررت به حمارٌ"[1].

ويستشهد على هذا القول بقوله تعالى: "﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ (بَلۡ) عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾[2]، فهذا على أنهم كانوا قد ذكروا الملائكة قبل ذلك بهذا، وعلى الوجه الآخر والمعرفة والنكرة في (لكن) و(بل) و(لا بل)، سواء"[3]، وقوله كذلك: "... ما مررت بزيد ولكن عمرو، وابتدأ بنفي ثم أبدل مكانه يقينا"[4].

فالاستدراك بـــ(لكن) أو (بل) يوجه دلالة القول كله إلى سلب نتيجة الجمل المستدركة، أما في المستوى الدلالي فيقع ربط دلالة القول بسياقه حيث تدخل اعتبارات التخاطب بين المتكلم والمستمع، ومكان القول وزمانه وكل المعطيات المقامية.

وفي تصورهما للتداولية المدمجة، سعى كل من ديكرو وانسكومير إلى صياغة دلالة الخطاب لسانيا من خلال تحديد العلاقات بين المضمر والمصرح به، وحسب تصورهما فإن القول المصرح به ما هو إلا حامل لخلاصة مقترحة من قبل متغيرات حجاجية ملازمة للجملة، سواء أوافق المتلقي عليها أم لم يوافق، وذلك أن الحجاج يظهر في كيفية تسجيل اللغة الطبيعية لخلاصة ما، أو اقتراحها أو تضمنها أو إظهارها أو اقتضائها[5].

(1)- الكتاب، ج2، ص: 439

(2)-سورة الأنبياء، الآية: 26

(3)- الكتاب، ج1، ص: 440

(4)- نفسه

(5)- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص: 276

وهذا الذي ذهب إليه سيبويه في المثال السابق: مررت برجل و"لكن" حمارٌ، قائلا: "وإذا كان قبل ذلك منعوت فأضمرته، أو اسم فأضمرته أو أظهرته، فهو أقوى، لأنك تضمر ما ذكرت وأنت هنا تضمر ما لم تذكر، وهو جائز عربي، لأن معناه: ما مررت بشيء هو رجل، فجاز هذا كما جاز المنعوت المذكور نحو قولك: [ما] مررت برجلٍ صالحٍ (بل) طالحٌ"[1].

٥. المراتب الحجاجية:

توحي هذه المراتب بأن للحجة الواحدة مراتب، لا يلبث التحليل أن يكشف أنها الأصل في القوانين التي يتحدد بها الصنف الاستدلالي المعروف باسم "الاستدلال التمثيلي"، وهذه المراتب أشكال كما مر بنا في مبحث التقنيات الحجاجية الاستدلالية، وهي أنواع:

1) المراتب المضادة:

يمثلها قول سيبويه في "هذا باب ما ينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره، وذلك قولك: "سقيًا ورعيًا"، ونحو قولك: خيبةً ودفرًا، وجوعًا وعقرًا وبؤسًا، وآفةً وتفةً، وبعدًا وسحقًا، ومن ذلك قولك: تعسا وتبا وجوعا وجوسا"[2]، التي ترتب حسب التدرج التالي:

(1)- الكتاب، ج1، ص: 440

(2)- الكتاب، ج1، ص: 440

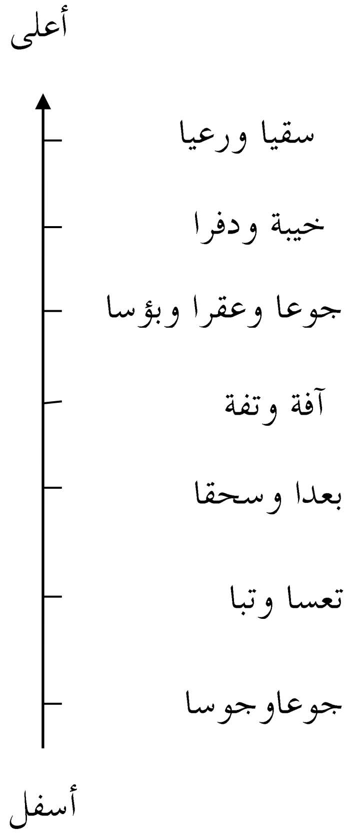

حيث إن المحذوف هو لفظ الجلالة "الله"، فالأول دعاء بالخير تقديره: "سقاك الله سقيًا ورعاك رعيًا"، رعيا وبقية المدارج دعاء بالشر تقديرها: خَيَّبَكَ الله خَيْبَةً، وجَوَّعَكَ الله جوعًا... وهكذا

ويحتج سيبويه لقوله السابق، بقول ابن ميادة:

تَفَاقَدَ قَوْمِي إِذْ يَبِيعُونَ مُهْجَتِي   بِجَارِيَةٍ بَهْرًا لَهُمْ بَعْدَهَا بَهْرًا[1]

والتقدير هاهنا قوله: "فقد قومي بعضهم بعضًا إِذَا لَمْ يُعِينُونِي على جارية شغفت بحبها، فكأنهم باعوا مهجتي، دعا عليهم بالتفاقد وبالغلبة والقهر"[2].

ويقول سيبويه شارحا معللا ومستدلا: "وإنما ينتصب هذا وما أشبهه، إذا ذكر مذكور فدعوت له أو عليه، على إضمار الفعل، كأنك قلت: سقاك الله سقيا، ورعاك الله رعيا، وخيبك الله خيبة، فكل هذا وأشباهه على هذا ينتصب"[3].

(1)- في اللسان (فقد، بهر) والكامل، ص: 381

(2)- هامش الكتاب، ج1، ص: 311

(3)- الكتاب، ج1، ص: 312

ومثله قوله: "من ذلك قولك حَمْدًا وشُكْرًا لا كُفْرًا، وعَجَبًا، أو فعل ذلك كرامةً ومسرةً ونعمةً عني..." [1]، والتقدير أحمد الله حمدًا...

2) المراتب الموجهة توجيها كميا:

يوجد هذا النوع في الألفاظ الدالة على معاني تشغيل التدرج في اتجاه واحد إما على مقتضى التزايد أو مقتضى التناقص، مثال ذلك قول سيبويه: ".. فقولك: هو مني فرسخان، وهي مني عروة الفرس، ودعوة الرجل، [وغلوة السهم]، وهو مني يومان، وهو مني فوت اليد، فإنما فارق هذا الباب الأول؛ لأن معنى هذا أنه يخبر أن بينه وبينه فرسخين ويومين، ودعوة الرجل وفوتا، ومعنى فوت اليد؛ أنه يريد أن يُقَرِّب ما بينه وبينه، فهذا على هذا المعنى، وحري عل الكلام الأول كأنه هو سعة الكلام، كما قالوا: أخطبُ ما يكونُ الأميرُ يوم الجمعة"[2]، وقوله أيضا: "وأما قول العرب: أنت مني مرأىً ومسمعٌ، فإنما رفعوه لأنهم جعلوه هو الأول، حتى صار بمنزلة قولهم: أنتَ مِنِّي قريبٌ"[3].

3) المراتب الموجهة توجيها قصديا:

العامل المحدد لهذا النوع من المراتب هو قصد المتكلم، جاء على لسان سيبويه في "هذا باب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة، وذلك قولك: مَا كَانَ أَحَدٌ مثلَك، وما كان أحَدٌ خيرًا منكَ، وما كان أحَدٌ مُجْتَرِئًا عَلَيْكَ، وإنَّمَا حَسُنَ الإخبار هاهنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأن المخاطَب قد يحتاجُ أن تعلِمَه مثل هذا"[4].

وفي السلم الحجاجي يمكننا إخضاع المثال السابق إلى الشكل الآتي، حيث ي، ج، د أدلة و(نا) ترمز إلى المدلول منها، و(د) يلزم عنه القول (ج)، و(ج) يلزم عنه القول (ب)، و(د) و(ج) أقوى إثباتا للمدلول (نا)، وإن كل قول يختلف من ناحية درجة القوة والضعف عن الآخر في المعنى.

(1)- نفسه، ص: 318

(2)- نفسه، ص: 415

(3)- نفسه

(4)- نفسه، ص: 54

نا	(زيد ليس في مثل حاله شيء أو فوقه)
د	ما كان أحد مثلك.
ج	ما كان أحدُ مجترئًا عليكَ.
ب	ما كان أحدُ خيِّرا منكَ.

ومهما يكن من أمر هذه الحجج المستعملة في الكلام، فإن للمتكلم سلطة التغيير والتنويع في استعمال الحجج التي يود أن يقدمها من لحظة إلى أخرى.

و. قواعد السلم الحجاجي في الكتاب:

1. قاعدة قلب التفاضل عند سيبويه:

وذلك بترتيب قسم التفاضل في النفع والضرر نحو قوله: "ومنه: مررت برجل شرٍ منك، فهو نعت على أنه قد نقض أن يكون مثله"[1]، ومثله: مررت برجل مسلم وكافر.

2. قاعدة تفاضل الأطراف:

إذا كانت إحدى المجموعتين تفضل الأخرى، فإن أفضل عنصر في المجموعة الفاضلة أفضل من أفضل عنصر في المجموعة المفضولة، نحو قول سيبويه: "واعلم أنه ليس كل موضع ولا كل مكان يحسن أن يكون ظرفا، فمما لا يحسن أن يكون ظرفا أن العرب لا تقول: هو جوف المسجد ولا هو داخل الدار ولا هو خارج الدار، وإنما فَرَّقَ بَيْنَ خَلْفَ ومَا أَشْبَهَهَا وبين هذه الحروف؛ لأن خَلْفَ وما أشبهها للأماكن التي تلي الأسماء من أقطارها"[2]، ثم يقول: "واعلم أن الظروف بعضها أشد تمكنا من بعض في الأسماء، نحو القبل والقصد والناحية، وأما الخلف والأمام والتحت فهن أقل استعمالا في الكلام أن تجعل أسماءاً"[3].

(1)- الكتاب، ج1، ص: 423

(2)- الكتاب، ج1، ص: 411

(3)- نفسه

3. قاعدة جمع التفاضل المركب:

وقد مر أن عرضنا إلى هذه القاعدة في المثال الخاص بالاستدراك بـــ"لكن" و"بل" في قول سيبويه: "ما مررت برجل لكن حمارٌ، ولكن حمارٌ،...، مررت برجل صالح بل طالحٌ"[1]، فالرابط "لكن" ينفي أن يكون مر برجل؛ أي مرَّ بحمار، وحينما استدرك خطأه ربط كلامه بالرابط الحجاجي "لكن"، وفي المثال الثاني، ينفي أن يكون قد مر برجل صالح، وإنما مر برجل طالح، وحينما استدرك خطأه استعمل الرابط الحجاجي "بل".

وإن كان "ديكرو" قد ابتدع مصطلح الروابط والسلالم الحجاجية، فإن سيبويه قد وعى ذلك منذ قرون فقط أنه لم يَتَمَثَّلْ هذه المصطلحات، وهذا شيء طبيعي، إذ لكل جيل عصره، وبكل ما يتميز به هذا العصر من خصائص ثقافية، معرفية، سياسية، اقتصادية وغيرها.

و لم يفت سيبويه أن يتحدث في كتابه عن كل ما يتعلق باستعمال اللغة، ومن ذلك الروابط الحجاجية، كالواو، والفاء، ثم، سوف، حيث، لكن، بل، ذلك، وهي كثيرة تستدعي بحثا خاصا للتفصيل في كل رابط، ومثله قوله أيضا: "ومن المبدل أيضا قولك: مررت برجل (أو) امرأةٍ، إنما ابتدأ بيبقن ثم جعل مكانه شكا أبدله منه، فصار الأول والآخر الإدعاء فيهما سواء، فهذا شبيهه بقوله: ما مررت بزيد ولكن عمرو، ابتدأ بنفي ثم أبدل مكانه يَقِينًا، وأما قولهم: أمررت برجل (أم) امرأة؟ إذا أردت معنى أيهما مررت به؟ فإن (أم) تشرك بينهما كما أشركت بينهما (أو)، وأما: ما مررت برجل (فكيف) امرأة...، قال هو بمترلة: (أين).."[2].

فالملاحظ أن الروابط الحجاجية يكمن موضوعها أساسا في تحديد بنية الخطاب، لكونه آلية في عملية الربط داخل النسق المقول؛ لذلك اهتم التنظير بموضوع الرابط في اللغات

(1)- نفسه، ص: 440

(2)- الكتاب، ج1، ص: 440

الطبيعية -كما سبق الذكر-، وهناك من يسميها بالقرائن، ويتمثل دورها في فهم الأبعاد التواصلية وترتيب الأغراض التي يقتضيها الخطاب/الكلام.

وتشمل الروابط الحجاجية كل الحروف والظروف وأدوات الاستثناء والنفي، إذ بعضها يدعى العوامل الحجاجية، وبعضها يعد رابطا نحويا (كالواو والفاء)، وغيرها من حروف العطف، على أن هذه الروابط تشارك في إنجاز الأغراض اللغوية المباشرة وغير المباشرة، مما يسمح بالتأويل. وتسمى الروابط الحجاجية؛ بالقيود الاستدلالية لأنها تعين على فهم المعنى الظاهر والخفي.

ولذلك، فعندما يؤول المخاطب، جملة يسعى إلى إنجاز غرض استدلالي يعالجه في علاقته مع النتيجة التي يمكن أن تدور باعتبارها حديثا منعزلا.

ز. حجة التضمين في الكتاب:

أسهب سيبويه في حديثه عن مظاهر التحويل من حذف وزيادة وتقديم وتأخير، وبدل، وتعويض، وإنابة وتضمين، وقد تعرضنا إلى بعض هذه المظاهر، إذ البحث فيها كلها مضن وقد لا ينتهي، ولكننا وقفنا على أمثلة كثيرة يتضح فيها الأثر الذي يتركه هذا اللون من التحويل في التراكيب النحوية، ومن ذلك على سبيل المثال زيادة الحروف التي للتوكيد ولتقوية المعنى كـــ(من) الواقعة قبل الفاعل في جملة: (ما أتاني (من) أحد إلا زيدٌ)، والأصل: (ما أتاني أحد إلا زيداً)، قال: لأن معنى (ما أتاني أحد) و(ما أتاني من أحدٍ) واحدٌ، ولكن (من) دخلت هنا توكيدا[1].

ويمكن تحليل هذه الجملة إلى مكوناتها المباشرة بطريقة (المخطط الشجري) كالآتي[2]:

حيث يشير الرمز (ج) إلى الجملة، و(رف) إلى الركن الفعلي، و(رأ) إلى الركن الاسمي

(1)- نفسه، ج2، ص: 316

(2)- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص: 288

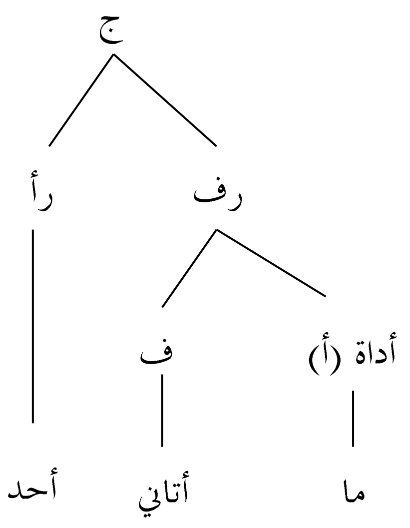

حيث تُزَادُ (مِنْ) قبل (أحدٍ) لتؤدِّيَ وظيفةً دَلاَلِيَّةٍ هي التوكيد.

وبعد هذا العرض يمكن أن نوضح بأن سيبويه يكون قد عالج قواعد التحويل: الحذف، الزيادة، التضمين، التقديم، التأخير والبدل...، بأسلوب متميز تظهر فيه خصائص المنهج الوصفي، وقد ساعده هذا اللون من التحويل في وضع قواعد لغوية عريضة، تكشف عن الطاقة التعبيرية لبنية التراكيب النحوية من خلال قابليتها لاستيعاب إضافات جديدة، ومظاهر جديدة من التحويل، ومن هنا أمكننا القول بأن ما جاء في كتاب سيبويه يلتقي مع منطلقات نظرية التحويل والتفريع التي استند إليها "تشومسكي" وأتباعه[1].

وبهذا الصدد يقول الدكتور "عبد القادر حسين": "من هذا يتضح أن فائدة حروف الزيادة المعنوية عند المتأخرين لا تخرج عما قاله سيبويه -رحمه الله- منذ خمسة قرون من الزمان"[2]، ويسانده في ذلك الدكتور "عبد السلام المسدي" بقوله: "لا يمكن للباحث أن يغفل عن نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام، فقد حاول صاحب الكتاب تفسير المظاهر الطارئة على بنية التراكيب النحوية في اللغة"[3].

(1)- نفسه، ص: 293

(2)- أثر النحاة في النحو البلاغي، ص: 78

(3)- التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 1981، ص: 332

أما التضمين فإنه يقال في حالات ثلاث: الأولى عندما يتعدى فعل لازم إلى مفعول، وفي هذه الحالة يتناوب القول بالتضمين مع القول بالحذف، وفي الثانية عند تعلق الفعل بحرف جر غير الحرف الذي يتعدى به، وفي هذه الحالة يتناوب التضمين مع الإبدال، والثالثة حين يأتي الفعل المتعدي لازما، أو المتعدي لفعلين متعديا لفعل واحد، ويشمل الحديث عن التضمين كل ما ذكرناه عن الروابط الحجاجية، وذلك أنه يخرج الرابط عن معناه الأصلي الحرفي إلى قوة استلزامية أخرى تنتج من خلال السياق، إذ الروابط -كما سبق الذكر- لا تكتسب وظيفتها إلا من خلال السياق التي ترد فيه.

نخلص إلى أن الربط سمة غالبة للتركيب النحوي في اللغة العربية، وقرينة لفظية تربط بين أجزاء الكلم في السياق، وكما لاحظنا؛ فإن وسائل الربط في العربية متعددة ومتنوعة، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يدلي بقوله: "لا نغالي حين نقرر أن اللغة العربية لغة الوصل، ففيها من أدوات الربط ما لا تكاد تراه في غيرها"[(1)].

ويطلق سيبويه لفظ (التعليق) للدلالة على وسيلة الربط، وينقل جواب الخليل عن سؤاله عن الربط بـــ(إذا) الفجائية في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾[(2)]، هذا الكلام معلق بالأول، كما كانت (الفاء) معلقة بالكلام الأول[(3)]، والربط في العربية نوعان: الربط اللفظي والربط المعنوي، فالمعنوي يكون في الإسناد لربط الفاعل بالفعل، والخبر المفرد بالمبتدإ، ولا حاجة للإسناد إلى رابط لفظي "لأن اتحاد المسند بالمسند إليه أقوى من أي رابط آخر"[(4)].

نشير إلى حقيقة، وهي أنه لولا الربط لأصاب الكلام الضعف والغموض، إذ ليست اللغة "في حقيقة أمرها إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا تحسمه

(1)- من أسرار اللغة، ص: 327

(2)- سورة الروم، الآية: 36

(3)- الكتاب، ج3، ص: 64

(4)- الربط في الجملة العربية، عادل زغير، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1988، ص: 50

قوانين معينة لكل لغة"[1]، وكأن سيبويه قد تفطن إلى بعدها التواصلي في الكلام، إذ جعل ما بعد الرابط من كلام معلقا بالكلام الأول، وفي الكتاب مواضع كثيرة فيها بيان لأثر ربط أجزاء الكلم بعضها ببعض الحروف، ومما سبق يتضح أن "الرابط" عنصر أساس لإضفاء سمة التماسك الشكلي للكلام، وهو مبدأ يؤكده المنهج الوصفي الحديث[2].

ح. التنغيم باعتباره رابطا حجاجيا:

يدخل التنغيم في "إطار التحليل الشكلي للعلاقات التي تربط بين أجزاء الكلم"[3]، يفهم من هذا أن التنغيم سمة للتراكيب المتشابهة في الشكل والمتباينة في المعنى، ويقصد بالتنغيم "تنوع الأصوات بين الارتفاع والانخفاض في أثناء الكلام"[4]، إذن؛ فالتنغيم تنوع في طبقة الصوت، يأتي لتنظيم علاقة الوحدات اللغوية في السياق وهو "الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق"[5]، وعلى الرغم من أن سيبويه لم يشر صراحة إلى مصطلح (الجملة) فإنه قد درسها من خلال المفهوم العام للكلام، ذلك أن "الجملة هي جزء من الكلام"[6]، وعلى هذا الأساس يؤدي التنغيم في اللغات "وظيفة نحوية مهمة، فهو الوسيلة المثالية التي تخدم علم اللغة الوصفي، ويظهر أثره بوضوح في مجال دراسة التراكيب"[7].

وقد تنبه سيبويه إلى أثر هذه القرينة اللفظية في تحليل العلاقات الشكلية بين الوحدات اللغوية في السياق، وبين وظيفته النحوية في تغيير دلالات التراكيب، وفي الانتقال من باب نحوي إلى آخر بارتفاع درجة التنغيم وانخفاضها في أثناء النطق بالعبارة، إذ يؤدي التنغيم في اللغة العربية بعدًا تواصليًا يتمثل في توضيح المعاني، يقول سيبويه في تحليله لبيت جرير[8]:

أعبداً حَلَّ في شعبي غريبًا   أَلُؤْمًا لا أَبَا لكَ واغترابًا؟

---

(1)- من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ص: 298

(2)- ينظر: اللغة والمعنى والسياق، ص: 219-220

(3)- Linguistics, Cristal, D. Penguin Book, 1981, p : 202

(4)- سيكولوجية اللغة، ص: 77

(5)- اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 226

(6)- علم اللغة العام، دي سوسير، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، دار الآفاق العربية، بغداد، د.ط، 1985، ص: 143

(7)- An introduction to descriptive linguistics, H. Gleason, New York, 1961, p: 176

(8)- ديوان جرير، المطبعة العلمية، مصر، 1313هـ، ص: 62

"وأما (عبداً) فيكون على ضربين، إن شئت على النداء، وإن شئت على قوله: (أتفتخر عبدا) ثم حذف الفعل"[1]، فالذي يحدد تنقل الكلام من (النداء) إلى (الاستفهام) في هذا البيت هو طبيعة النغمة الصوتية، ومنه قوله: "وقد تقول (تا الله!) وفيها معنى التعجب"[2]، والمعروف أن (تا الله) أسلوب يفيد الحلف والتوكيد، غير أن النغمة الصوتية تنقلها من باب إلى باب، وهذا لا يظهر إلا في اللغة المنطوقة، ومثله قوله: "ما أنت عبد الله" التي تفيد التحفيز والتعظيم تبعا للنغمة، قال سيبويه: "كأنك قلت (ما أنت وعبد الله) وأنت تريد أن تحقر أمره أو ترفع أمره"[3].

وبالإضافة إلى ما يقوم به التنغيم من الانتقال من باب إلى غيره تبعا لنية المتكلم، هناك أيضا تلك التغيرات التي تظهر على حركات المتكلم من تحديق وتغيرات وجهية توحي بدلالة معينة، يريد المتكلم الإفصاح عنها، كالتعجب، والفخر والتحقير، والتي نرى أن للتنغيم علاقة وثقى بها، وذلك "أن البنية السطحية هي التي تقرر من خلال التنغيم، ماهية المعلومات الجديدة أو الهامة التي تحتويها الجملة، وكذلك ما تتضمنه من مفترضات مسبقة"[4].

ومن خلال الأمثلة التي تم ذكرها، يبدو وكأن سيبويه قد جعل التنغيم ملحظا وصفيا لتحديد الدلالات التي يتضمنها الكلام المنطوق، ومن ذلك ما قد توحي به العبارة الواردة في الكتاب "ما أتاك رجل"، إذ يمكن أن تعبر عن: العدد، والجنس والنوع.تساعد المستمع على استنباط ذلك، النغمة التي تنسجم مع الغرض الذي يريد المتكلم إبلاغ إياه، يقول سيبويه موضحا: "يقول الرجل: (أتاني رجل) يريد واحدا في العدد لا اثنين، فيقال: (ما أتاك رجل) أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول: (أتاني رجل لا امرأة)، فيقال: (ما أتاك رجل) أي (امرأة

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 339

(2)- نفسه، ج3، ص: 497

(3)- نفسه، ج1، ص: 301

(4)- تشومسكي والثورة اللغوية، جون سيرك، ترجمة: هيئة التحرير، مجلة الفكر العربي، العدد (8-9)، بيروت، كانون الثاني، 1979، ص: 141

أتتك)، ويقول: (أتاني اليوم رجل) أي في قوته ونفاذه، فتقول: (ما أتاك رجل)، أي: (أتاك الضعفاء)" [1].

ويمكن توضيح دلالات سيبويه حسب الشكل التالي:

ما أتاك رجل	العدد	"أكثر من ذلك"
	الجنس	"امرأة أتتك"
	النوع	"أتاك الضعفاء"

إن دراسة ظاهرة التنغيم في كتاب سيبويه تثبت حذقه وفطنته، بل ووعيه بكل ما يتعلق بنظام لغته في استعمالها الحي وتداولها بين الناس، لذا كان دقيق الملاحظة، شديد الحرص في تحليله لكل ما يتعلق بنظام هذه اللغة، فما ترك لا كبيرة ولا صغيرة عن اللغة إلا أحصاها حتى إنه لم يترك لمن أتى بعده غير الشرح والتأويل والتفسير لِمَا قد يلتبس فهمه، وذلك أن اللغة التي انبرى يدافع عنها، وعن سلامتها، وقدسيتها، فيها مفردات خاصة بعصره يصعب فهمها من قبل الأجيال اللاحقة، خاصة ما تعلق بمفردات الشعر الجاهلي التي يصعب فهمها على المتلقي العصري، مما يضطره للعودة إلى المعاجم العربية كـــ(لسان العرب) وكتب "فقه اللغة العربية" وغيرها.

ولا نعتقد أن انطباعنا هذا ينفر من قراءة الكتاب، وإنما هو تحفيز للإطلاع على ثقافتنا الأصيلة، ولغتنا الفصيحة التي كانت فيما مضى سجية وسليقة العرب، وربما لو لم تختلط بالعجم لكان لها شأن آخر، ولكان للدارسين شأن آخر كذلك، أو لربما أن ختلاطها بغيرها من اللغات كان حكمة للإطلاع ولكشف أسرارها التي لا تنكشف لكل من هب ودب، وإنما للباحث المتأمل المتمعن والمدقق، ومثالنا على ذلك سيبويه وشيوخه وبعضٌ من الذين أتوا بعدهم، ويظل باب الدراسة مفتوحا لكل شغوف بأسرار اللغة العربية.

وفي نظرته إلى المعنى وعلاقته بالبنية إلى جانب ربط ذلك بمدى صحته في الاستعمال ومطابقة الكلام للواقع، جعل سيبويه المعنى في اللغة العربية خمسة أقسام:

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 55

- المستقيم الحسن
- المحال
- المستقيم الكذب
- المحال الكذب
- المستقيم القبيح

وقد مر أن عرضنا إلى هذا الباب في أكثر من موضع من متن البحث، وبناءا على هذا الذكاء، ما كان سيبويه يكتفي بإخراج القواعد وإثبات الأحكام، وإنما راح يشرح ويحلل ويفسر ويعلل وجود كل علامة إعرابية أو رابط نحوي، أو قرينة معنوية، محددا علاقة الفاعل بالمبتدإ أو باسم كان وأخواتها؛ والعلة في وجود الضمة على الاسم المرفوع، وهكذا في كل الأبواب التي تناولها في مستويات اللغة الحية، متجاوزا في كتابه مصطلح "الاحتجاج" إلى مصطلح الحجاج النحوي الذي يتضمن إثبات حجية القاعدة النحوية بإبراز مستند بنائها وتقنينها من كلام العرب، وهذا الذي يشكل ما يعرف في الحجاج بالشواهد النحوية، لذا وجدنا سيبويه يكثر من كل ما سمعه من الشواهد؛ إن آية أو شعرا أو نثرا، حسب ما يوافق استنتاجاته، أما إذا تعذر عليه أن يجد شاهدا نحويا من كلام العرب، فكان يلجأ إلى التمثيل بمثال يدل على مقتضى قواعد النحو عملا بمقتضى القواعد السابقة، وكأننا أمام عصرين، العصر الأول عصر الشاهد، والعصر الثاني هو عصر التمثيل، وهي قيمة زمانية تستمد مشروعيتها وصدقيتها من العصر الأول، عصر التقعيد، وتعمل على مواصلة الحياة اللغوية للغة العربية في العصر الثاني الذي تبع زمان التقعيد، وكان من البديهي أن يقدم الصورة المتكاملة الأولى للنحو العربي[1].

ولقد أدرك سيبويه أن توضيح قواعد النحو بابه الشواهد والأمثلة، خاصة ما تعلق منها بأعراف الزمان المكان؛ لذلك ربط كل قاعدة نحوية بالاستعمال الذي تمثله تلك الشواهد المستقاة من البيئة نفسها، وهنا تظهر عدالة الشاهد وصدقه، وبالتالي الإذعان لحكم القاعدة

(1)- الحجاج في الدرس النحوي، ص: 130

النحوية، وبناءا على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غيره من الكلام ولا خلاف في ذلك، استشهد سيبويه في أكثر من موضع بالقرآن الكريم إضافة إلى استشهاده بالشعر، الذي كان ديوان العرب آنذاك، وذلك حتى يقتنع المخاطب، وهي حجة قاطعة كما في القضاء.

فالشاهد تقنية وبعد تداولي، إذ أنها تدور حول تقوية وتأكيد القضية موضوع الكلام، حيث يمنح الشاهد تلك القضية مظهرا حيا وملموسا، وزيادة عن كون الشاهد النحوي (قرآن، شعر ونثر) دليلا فإنه يعمل على تحريك مخيلة المستمع، لأنه يقوم بتجسيد الفكرة باستحضارها في صورة شاخصة، وإذا حضرت الصورة في الذهن قويت القاعدة وثبت الحكم.

وتذكيرًا لما سبق ذكره في موضع من هذا البحث، قلنا إن سيبويه قد قصد اختيار شواهده إيمانا منه بأنها ستجد صداها شعوريا وعاطفيا لدى المتلقي لكتابه، ومن ثم ستقوم بتحريك خياله، فتفرض عليه الانتباه الذي يسهل عليه عملية الفهم، لينتهي به المطاف إلى التواصل معه ومع كل ما جاء في كتابه، ويشعر المتلقي لكتاب سيبويه، وكأنه يتواصل مع كل العرب الفصحاء في زمن سيبويه.

إن شواهد سيبويه تبهر كل متلق لكتابه، وذلك أن قدرته على تصوير وتجسيد استعمال العرب في كلامها في عصره، تجعلنا نرتحل إلى ذلك الزمان، لا لنستدل ونتثبت مما جاء به من قواعد وأحكام، وإنما لنقف على الأطلال العربية التي لم يعد لها وجود سوى في كتب الأوائل، كالخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه العبقري سيبويه، ونحن نطالع كتاب سيبويه نتجاوز مجرد التزود بالقواعد المجردة إلى فقه تلك الآيات المحتج بها، وإلى التمتع بتلك الأشعار التي لولا الاستشهاد بها لما وصلت إلى عصرنا، والأمر ذاته بالنسبة لنثر العرب أيام سيبويه وكلامها المأثور، وميزة كل قول حجاجي؛ أنه يزاوج بين الصورة والمضمون لتحصيل التواصل الناجح، ولكن هذا لا يتم إلا بانتهاج مسالك الحجاج المتمثلة في أساليب تنقيح وجه الاستدلال الطبيعي في القواعد النحوية ومستنداتها من السماع والقياس حتى لا يتسرب الشك

إلى صحة القواعد النحوية المستنبطة، ولقد تعرضنا إلى هذه المسالك في مبحث "الحجاج في الدرس النحوي العربي".

ولقد تم التحقق من شواهد كتاب سيبويه من قبل الجرمي البصري، فنسب كل شاهد شعري إلى صاحبه، عدا خمسين بيتا لم يتفطن إلى أن سيبويه في بعض المواضع لم يذكر البيت كاملا، وإنما أشار إلى عبارة منه فقط، وقد تم توضيح هذا الأمر في مبحث "سيبويه وعصره اللغوي"، وتبقى الممارسة التاريخية للنحو العربي -كما سبق الذكر- هي السند الأكثر قوة على وثاقة شواهد سيبويه، خاصة وشواهد النحو العربي عامةً.

ط. حجة التمثيل:

قلنا بأن التمثيل نوع من الحجاج نعني به التشبيه بكل أنواعه والاستعارة بكل أنواعها، وهذا النوع من الحجة هو الأنسب للتواصل اللغوي وللمتلقي، يدعم هذا الرأي قول طه عبد الرحمن: "لا تخفى على ذي بصيرة أن نموذج الحجاج هو قياس التمثيل، إذ المعروف أنه هو الاستدلال الذي يختص بالخطاب الطبيعي في مقابل البرهان الذي هو الاستدلال الذي يختص بالقول الصناعي"[1]، أما العلماء والأدباء فإنهم يضربون الأمثال لوعيهم أن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته، والمثل مقرون بالحجة[2]، ولحجية التمثيل شأن عظيم في هتك الحجب عن المعاني وإبراز ما خفي من الحقائق.

وسعيا منه لتفادي كل لبس أو غموض قد يصيب التراكيب اللغوية المستعملة في كلام العرب من قبل غير العربي، وتوضيحا للمعاني النحوية لبعض التراكيب، استخدم سيبويه في مواضع متفرقة عبارة "تمثيل ولا يتكلم به"، بالإضافة إلى عبارات أخرى تصب في هذا السعي وهي:

1. ولكن أردت أن أمثل لك[3].

---

(1)- اللسان والميزان، ص: 232

(2)- ينظر: البرهان في وجوه القرآن، ص: 42

(3)- الكتاب، ج1، ص: 300

2. تمثيل ولا يتكلم به[1].

3. تمثيل وإن كان لا يستعمل في الكلام[2].

4. تمثيل وإن لم يتكلم به[3].

5. تمثيل وإن كان يقبح في الكلام[4].

6. تمثيل ولكنه لم يستعمل في الكلام[5].

7. تمثيل ولكنهم لا يتكلمون بها[6].

8. لأمثل لك[7].

9. وإنما ذكرت ذلك للتمثيل[8].

فالملاحظ أن الجذر المعجمي (م، ث، ل) هو الأساس في كل تلك العبارات، ويليه الجذر المعجمي (ك، ل، م)، وهدف سيبويه من الإشارة إلى تلك العبارات؛ هو الكشف عن المقصود من تلك التراكيب المستعملة في كلام العرب، وهذا العمل له صلة بما يقوله النحويون بخصوص البنية العميقة (Deep structure)، وذلك أن شأنهم من وراء الحديث عن البنية هو بيان المقصود من التعبيرات المكتوبة أو المنطوقة، ولذلك يمكن بيان التحويل الذي يؤدي إلى ظهور الكلام على "السطح" وهو الذي يتعامل معه اللغوي[9].

(1)- نفسه، ص: 312، ج2، ص: 118، ج3، ص: 28

(2)- نفسه، ج1، ص: 353

(3)- نفسه، ج1، ص: 375-376، ج2، ص: 171، ج2، ص: 278-279، ج3، ص: 34

(4)- نفسه، ج2، ص: 19

(5)- نفسه، ج1، ص: 374

(6)- نفسه، ج2، ص: 281

(7)- نفسه، ج2، ص: 348

(8)- نفسه، ج2، ص: 387

(9)- التراكيب غير الصحيحة نحويا في كتاب سيبويه، دراسة لغوية، د. محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1985، ص: 158

واعتمادا على التحويل، وجدنا سيبويه يقول إنَّ "بِهراً" معناها "بَهرك اللهُ"، ونحوها "سقيا ورعيا" المقصود بهما "سقاك الله سقيا ورعاك الله رعيا"، ويمكن إظهار هذا المعنى حسب الشكل التالي[1]:

ولقد عقد سيبويه بابا بعنوان "هذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره استغناءاً عنه"، ثم أتبعه بقوله: "وسأمثله لك مظهرا لتعلم ما أرادوا إن شاء الله تعالى"[2].

أشرنا في أكثر من موضع بأن العرب تحذف وتضمر اختصارا واستخفافا لعلمها أن المخاطب بكلامها يدرك مقصودها، وهذا الذي يريد سيبويه أن يؤكده للمتلقي لكتابه، إذ وجدناه يبين المقصود بالإضمار عن طريق التمثيل بالمظهر نفسه الذي يدل عليه الكلام، وقد بدأ بـــ"هذا باب ما جرى منه على الأمر والتحذير": "وذلك قولك إذا كنت تحذر: إياك كأنك قلت: إياك نحّ، وإياك باعد، وإياك اتق، وما أشبه ذا، ومن ذلك أن تقول: نَفْسَكَ يَا فلان، أي: اِتَّقِ نَفْسَكَ، إلا أن هذا لا يجوز فيه إظهار ما أضمرت، ولكن ذكرته لأمثل لك ما يُظْهرُ إضماره، ومن ذلك أيضا: إياك والأسدَ، وإيَّايَ والشرَّ، كأنه قال: إِيَّاكَ فَاتَّقِيْنَ والأسد، وكأنه قال: إياي لأتقين الشر، فإياي ومتقىً والأسدُ والشرُ متقيان، فكلاهما مفعول ومفعول معه"[3].

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 357

(2)- نفسه، ص: 273

(3)-الكتاب، ج1، ص: 273-274

والأمثلة التي استعملها سيبويه في هذا الباب كثيرة، منها: رأسَهُ والحائط ومعناها: خل أودع رأسه والحائط، ومثلها: شأنك والحج والمقصود بها: عليك شأنك مع الحج، وكذلك قوله: امرأ نفسه كأنه قال: دع امرأً مع نفسه، وكذلك: أهلك والليل، أي: بادر أهلك قبل الليل، وإنما المعنى أن تحذره من أن يدركه الليل، والليل محذر منه، كما كان الأسد محتفظا منه... وإنما حذفوا في هذه الأشياء حتى ثنوا لكثرتها في كلامهم واستغناءًا بما يرون من الحال، وبما جرى من الذكر، فصار المفعولُ الأولُ بدلاً من اَلْفَظِ بالفِعْلِ حين صار عندهم مثل: إياك، ولم يكن مثل: إياك لو أفردته، لأنه لم يكثر في كلامهم كَثْرَةَ إِيَّاكَ، فشبهت بإياك حيث طال الكلام وكان كثيرًا في الكلام"[1].

لقد استخدم سيبويه التمثيل استعمالا واسعا وربطه بالمعنى؛ وذلك لتوضيح القواعد الخاصة باستعمال العرب للغتهم، راميا إلى بعد تواصلي هو تقريب تلك القواعد لأذهان المتكلمين باللغة والمستعملين لها.

وإذا كان التمثيل تقنية حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة لارتباط التمثيل بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة بغرض إفهام فكرة، أو العمل على أن تكون تلك الفكرة مقبولة، سعى سيبويه إلى حجية التمثيل دون إدراك منه، بأنه بهذا العمل يمهد لظهور أصول بلاغية تمثلها عن وعي البلاغيون الذي أتوا من بعده، ونهلوا من كتابه واقتبسوا من شواهده للتدليل على استنباطاتهم الذوقية الجمالية التي لا تغادر النحو الذي يُقَوِّمُ اعوجاجها، ويضمن سلامتها ويوضح مرادها.

1) التشبيه:

حظي هذا الفن البياني بكثير من العناية والاهتمام، ولأنه من الناحية النفسية شيء مركوز في طباع كل البشر، يلجئون إليه لإبراز المعنى وتوكيده في نفس المتلقي، وهو قديم في

[1]- نفسه، ص: 274-275

الأداء الأدبي وفي تقدير الأدباء والنقاد العرب، حتى غدت البراعة في صياغته دليلا على البراعة في النظم وعلامة على التميز(1).

فكان طبيعيا أن يلتفت إليه اللغويون والنحويون، وذلك أن الوسائل الموصلة إليه لغوية، وكان أول ملفت لهذا الفن هو كثرته في الشعر الجاهلي، لذلك التفت إليه الخليل بن أحمد الفراهيدي، غير أنه لم يتعمق في أبعاده التواصلية، دليلنا في ذلك ما أورده سيبويه في (هذا باب ما ينتصب فيه المصدر المشبه به على إضمار الفعل المتروك إظهاره) حيث يقول: "وزعم الخليل –رحمه الله– أنه يجوز أن يقول الرجل: هذا رجل أخو زيد، إذا أردت أن تشبهه بأخي زيد، وهذا قبيح ضعيف لا يجوز إلا في موضع الاضطرار، ولو جاز هذا لقلت: هذا قصيرٌ الطويلُ، تريد: مثل الطويل، فلم يجز هذا، كما قبح أن تكون المعرفة حالا إلا في الشعر، وهو في الصفة أقبح، لأنك تنقض ما تكلمت به..." (2).

يستنبط من هذا الكلام علتان:

الأولى: نحوية تقعيدية، حيث لا يجوز أن توصف النكرة بالمعرفة، كما لا يصح أن توصف المعرفة بالنكرة، بل يراعى التطابق فيما بينهما كما هو معروف ومقرر في قواعد اللغة(3).

والثانية: وهي علة بلاغية تتضح من مثاله: هذا قصيرٌ الطويلُ، وهذا قبيح، إذ لا يصح لا لغة كما لا يصح بلاغة "لأنك تنقض ما تكلمت به"، ولو تكلم به متكلم على قبحه لكان ناقضا لكلامه، مُلْغِزًا في إفهامه حاجته، مبتعدا عن الصحة اللغوية الجارية على سنن اللغة وطرائق متكلميها، بالإضافة إلى عدم تحقيق ذلك التركيب لمعنى التشبيه الذي أراده الخليل(4).

وانطلاقا من وعيه للبعد التواصلي للتشبيه تطرق سيبويه إلى بيان بعض مسائله التي تقوم على الاتساع والحذف والإيجاز مشيرا إلى كل أدواته، غير أن عمله هذا لا يخرج عن

(1)- ينظر: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، د. إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1985، ص: 271

(2)- الكتاب، ج1، ص: 261

(3)- ينظر: الكتاب، ج1، ص: 361 وما بعدها

(4)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، د. أحمد سعد محمد، ص: 309

حدود منطلقه اللغوي، وذلك أن المصطلحات البلاغية لم تكن متناولة في عصره كما هي الآن، وعلى هذا الأساس فهو يشير إلى (الكاف) بوصفها أداة تفيد التشبيه ذاكرا ذلك في (باب الجر)، حيث يقول: "..وإذا قلت: أنت كعبد الله، أضفت إلى عبد الله الشبه بالكاف"[1]، وفي "باب عدة ما يكون عليه الكلام"، يقول سيبويه: "وكاف الجر التي تجيء للتشبيه، وذلك قولك: أنت كزيدٍ"[2]، ويشير أيضا إلى "أن ناسا من العرب إذا اضطروا في الشعر جعلوها -أي الكاف- بمنزلة مثل، قال الراجز وهو حميد الأرقط:

فَصِيرُوا مثل كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

وقال خطام المجاشعي:

ومَالياتٍ ككما يُؤْثَفَيْنِ"[3].

ولقد جاز الجمع بين الكاف ومثل -فيما ذهب إليه الأعلم الشنتمري- لاختلاف لفظيهما مع ما في ذلك من المبالغة في التشبيه[4].

ومن أدوات التشبيه إضافة إلى (الكاف)، (كأن)، مثل وأخواتها كما في قوله: "ومن النعت أيضا: مررت برجل مثلك، فمثلك نعت على أنك قلت: هو رجل كما أنك رجل، ويكون نعتا أيضا على أنه لم يزد عليك ولم ينقص عنك في شيء من الأمور، ومثله: مررت برجل مثلك، أي: صورته شبيهةُ بصورتك، وكذلك مررت برجل ضربك وشبهك ومثلك ونحوك: يجرين في المعنى والإعراب مجرىً واحداً"[5].

ومن صور التشبيه التي ذكرها سيبويه قوله: "ومثله في الاتساع؛ قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[6]، فلم يُشَبِّهُوا -بما

---

[1]- الكتاب، ج1، ص: 421

[2]- نفسه، ج4، ص: 218

[3]- نفسه، ج1، ص: 32-408

[4]- ينظر: هامش الكتاب، ج1، ص: 13

[5]- الكتاب، ج1، ص: 423-424

[6]- سورة البقرة، الآية: 171

ينعق- وهو الراعي وإنما شُبِّهُوا بالمنعوق به، -وإنما المعنى- مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى"[1]، ودون تصريح منه أشار سيبويه إلى ما يسمى عند البلاغيين تشبيه التمثيل الذي يقوم على تشبيه شيئين بشيئين، كما هو جلي في الآية الكريمة، أي: تشبيه الداعي والكفار بالراعي مع الغنم، ولكنه اكتفى بذكر الكفار من المشبه والراعي من المشبه به، فدل على ما أبقى ، وهذا ما قصد إليه سيبويه[2].

ولقد نبه سيبويه إلى أن في الآية حذفا واختصارا بدلالة علم المخاطب بالمعنى، ولولا هذه القرينة ما جاز الحذف تجنبا للبس الذي قد يتعرض إليه المخاطب، إذ ظاهر التشبيه يوحي بتشبيه الكفار بالراعي، وليس بمعقول أن يشبه الكافر بالداعي إلى الإيمان، ولكن المعقول هو تشبيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالراعي مع غنمه التي لا تعي دعاءه أو نداءه.

"وفي هذا باب يختار فيه الرفع" يورد سيبويه نوعا آخر من التشبيه يدعى بالتشبيه المؤكد القائم على حذف الأداة[3] عند بعض البلاغيين وبالتشبيه البليغ[4] عند بعضهم الآخر، وهو أن يتساوى المشبه والمشبه به في الصفة، أي استغراق المشبه في المشبه به أو العكس وكأنه هو، ومن ذلك قوله: "وأما: له صوتٌ صوتُ حمارٍ، فقد علمت أن صوت حمار ليس الصوت الأول، وإنما جاز لك رفعه على سعة الكلام، كما جاز لك أن تقول: ما أنت إلا سيرٌ"[5]،والعلة في رفع الصوت الثاني حسب سيبويه تكمن في إضمار (مثل) مستدلا على حكمه الإعرابي هذا، بإضمار المضاف في قوله تعالى: [واسَأَلِ القَرْيَةَ]، حيث أضمر لفظ (أهل) فحل محله المضاف إليه (القرية) وأخذ حكم النصب مع أن من حقه الجر، والملاحظ في

(1)- الكتاب، ج1، ص: 212

(2)- إعراب القرآن المنسوب للزجاج، ج1، ص: 47

(3)- ينظر: بغية الإيضاح للقزويني، تحقيق وشرح: الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالقاهرة، د.ط، د.ت، ج3، ص: 76

(4)- بغية الإيضاح، ج3، ص: 72

(5)- الكتاب، ج1، ص: 363

هذا التشبيه أن المتكلم أراد أن يخبر المستمع بأن لفلان صوتا قبيحا هو نفس صوت الحمار، فجرى هذا الأمر على سعة الكلام أو المبالغة في التشبيه.

وسعيا في إقناع المخاطب يورد سيبويه نصا آخر ليؤكد أن العرب كانت تستعمل تقنية التشبيه في كلامها لأغراض متعددة، يظهر هذا في قوله: "هذا باب ما شبه من الأماكن المختصة بالمكان غير المختص"، "وقد زعم يونس أن ناسا من العرب يقولون: هو مني مزجر الكلب، يجعلونه بمنزلة مرأى ومسمع، وكذلك مقعد ومناط، يجعلونه هو الأول، فيجري كقول الشاعر وهو الأخطل:

وأنتَ مكانُكَ من وائلٍ مكان القُرادِ من إسْتِ الجملِ

وإنما حسن الرفع هاهنا، لأنه جعل الآخر هو الأول كقولك: له رأسٌ رأسُ حمارٍ، ولو جعل الآخر ظرفا جاز، ولكن الشاعر أراد أن يشبه مكانه بذلك المكان"[1]، والمراد من البيت أن الأخطل يجعل مكان مهجوه كعب بن جعيل التغلبي من قبيلة وائل شبيها بمكان القراد من إست الجمل في الخسة والدناءة مبالغة في التشبيه، وعلى هذا المعنى أجاز سيبويه الرفع في البيت[2].

وبعد هذا العرض لتقنية التشبيه، نشير إلى أن سيبويه لم يتجه في تناوله للتشبيه اتجاه البلاغيين من حيث تفريع مسائلة والإبانة عن أغراضه، ولكن يكفيه أنه أشار إلى جل أدواته المتمثلة في (الكاف)، (كأن) على لسان الخليل[3]، ومثل وأخواتها، ونص صراحة على أنها تأتي للتشبيه كما أشار إلى بعض أنواعه -السابق ذكرها- فقط أنه لم يتمثلها اصطلاحا كاصطلاح البلاغيين.

(1)- نفسه، ص: 364

(2)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 313

(3)- ينظر: الكتاب، ج3، ص: 151

2) المجاز والاستعارة:

لم يشر سيبويه إلى مصطلحي المجاز والاستعارة صراحة، ولكنه ألمح إلى ذلك في "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، حيث قسم الكلام -كمال سبق الذكر- إلى خمسة أقسام في قوله: "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب"[1].

وقد فسر هذه الأقسام الخمسة كل حدة، معللا تفسيره بما يوحي فهمه للحقيقة والمجاز فهما فطريا، يقول[2]:

1. فأما المستقيم الحسن: فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا
2. وأما المحال: فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا وسآتيك أمس.
3. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه.
4. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيت وكي زيداً يأتيك.
5. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس".

يستخلص من هذا القول، إن الكلام من حيث البناء والتركيب اللغوي ومطابقته للواقع، أو عدم مطابقته ينقسم إلى قسمين، مستقيم ومحال، فضابط القسم الأول (المستقيم) هو إمكانية الوقوع مع تفاوت في هذه الإمكانية، و(الحسن) منه كلام جرى على المألوف في البناء والتركيب و(الكذب منه) ينطوي على ادعاء ما لا يمكن حدوثه، أما (القبيح) فهو تركيب يخل بنظام اللغة دون داع إليه، وأما (المحال) "فهو ادعاء وقوع الحدث قبل وقته، وهذا ممتنع، أو ادعاء وقوعه بعد فوات ظروفه، وهذا ممتنع كذلك، و(المحال الكذب)" كما تدل عليه عبارته، فيه من المحال زائد ادعاء ما لم يجر به طبع أو عادة[3].

(1)- الكتاب، ج1، ص: 25

(2)- نفسه، ص: 25

(3)- المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين المنع والإجازة، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط1، 1985، ص: 07

فندرك أن القسم الأول بنوعيه (الحسن) و(الكذب) يوحي بطريقة فطرية إلى الفرق بين الحقيقة والمجاز، إذ المستقيم الحسن هو ما جرى مجرى سنن العرب في كلامها؛ أي على سنة اللغة في تراكيبها مع مطابقته لواقع المتكلم ومعتقده، أما المستقيم الكذب فهو ما وافق سنن اللغة العربية في نظمها إلا أنه يخالف في وقوعه العقل والعادة معا[1].

وانطلاقا من وعي سيبويه من أن هناك كلاما مقبولا وآخر مردودا من حيث الظاهر، أيقنا أن مصطلح (الكذب) عنده لا يعني الكذب الخلقي؛ وإنما قد يعني به المبالغة أو التخيل الفني القائم على الادعاء، ولعله يكون قد تفطن إلى أن لفظ الكذب قد يحسبه متلق ما (الكذب الخلقي) فتركه ووضع مكانه مصطلح (الاتساع) الذي له علاقة بالمجاز ليدرج تحته كل التراكيب التي انزاحت عن أصل وضعها، ولعل هذا الرأي ساعد البلاغيين في اكتشاف مباحثهم البيانية القائمة على المجاز؛ كالاستعارة بكل أنواعها، وكذا الكناية بالإضافة إلى الألوان البديعية ليكتمل علم البلاغة الذي لا تقوم دعائمه إلا بالنحو.

ولعل سيبويه يكون قد أدرك أن هناك صورا من التراكيب يتسع لها صدر اللغة وعقول متكلميها إذا صرفت عن ظاهرها، لذلك أورد مثاله في قسم المستقيم الكذب: حملت الجبل، إذ أن هذه العبارة تمثل مقالة لا يدعيها إلا إنسان يعاني من أمرٍ جللٍ، وحملٍ ثقيلٍ مُلْقًى على كاهله، فيكون صاحب هذا الإدعاء قد شبه حاله وهيئته وهو يتحمل ما يتحمل من اللغوب والنصب، بحالة من يحمل جبلاً، وذلك أن كليهما يحمل عبئا ثقيلا، والقرينة هنا محققة بالاستحالة، أي استحالة أن يتصور أن يحمل إنسان ما -كائنا من كان- جبلاً[2].

الآن أصبح واضحا أن الخطوة التي خطا بها سيبويه بمثاله "حملت الجبل" تشير إلى ما يسميه البلاغيون "التمثيل القائم على حد الاستعارة" كعبد القاهر الجرجاني[3]، ومعناه تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أكثر، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في

(1)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 317

(2)- نفسه، ص: 318

(3)- ينظر: دلائل الإعجاز، ص: 430

التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه، ومتى فشا استعمال هذا التمثيل سمي مثلاً، ولذلك لا تغير الأمثال[1].

ومن النصوص والأمثلة التي تدل على فهم صاحب الكتاب لمصطلح الاستعارة المكنية فهما فطريا ما ذكره في "هذا باب ما جرى من الأسماء مجرى المصادر التي يدعى بها"، حين قال: ... ويدلك على أنه يريد به الداهية قوله: وهو عامر ابن الأحوص:

وَدَاهِيَةٍ مِنْ دَوَاهِي المَنُو نَ تَرْهَبُهَا النَّاسُ لاَ فَا لَهَا

فجعل للداهية فما حدثنا بذلك من يوثق به"[2].

يفهم من بيت الأحوص أنه قد شبه الداهية بحيوان مفترس قوي، ثم حذف المشبه وأتى بشيء من لوازمه وهو الفم الذي يعد قرينة للمكنية، أما إثبات الفم للداهية فهو من قبيل الاستعارة التخييلية مبالغة في التشبيه[3]، فالواضح أن سيبويه ومن يوثق به قد تجاوز مدلول اللفظ الظاهر السطحي إلى بنيته العميقة، إذ أدرك أن إثبات الفم للداهية فيه تشبيه لها بذي فم، فعدل باللفظ الظاهر عن جهته على طريقة الاستعارة.

وفي الكتاب إشارات كثيرة لأوجه الاستعارة لا يمكن الوقوف عليها كلها، وذلك أن ما نود الكشف عنه هو تقنيات التبليغ التي كانت مستعملة في كلام العرب في عصره ذي اللغة النقية الخالصة الفصيحة البعيدة عن اللحن والفساد، بالإضافة إلى التقنيات التبليغية المتعلقة به شخصيا في كيفية معالجته لكلام العرب، ثم طريقة عرضه لنصوص كتابه.

3) الكناية:

الكناية في اصطلاح البلاغيين هي: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه الحقيقي"[4]، وفي "هذا باب يكون فيه الاسم بعدما يحذف منه الهاء بمنزلة اسم ينصرف في الكلام لم يكن فيه (هاء) قط"، يقول سيبويه: "وأما قول العرب يافُلُ أَقْبِلْ، فإنهم لم يجعلوه

(1)- ينظر: بغية الإيضاح، ج3، ص: 146-147-151

(2)- الكتاب، ج1، ص: 316

(3)- ينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، مطبعة مصطفى الحلبي، ط1، 1937، ص: 156

(4)- بغية الإيضاح، ج3، ص: 173

اسما حذفوا منه شيئا يثبت فيه في غير النداء، ولكنهم بنوا الاسم على حرفين... وهذا الاسم بني على حرفين...، اختص به النداء، وإنما بني على حرفين لأن النداء موضع تخفيف، ولم يُجزْ في غير النداء، لأنه جعل اسما لا يكون إلا كناية لمنادى، نحو: يا هناه، ومعناه يا رجل، وأما فلان فإنما هو كناية عن اسم سمي به المتحدث عنه خاص غالب، وقد اضطر الشاعر، فبناه على حرفين في هذا المعنى، قال أبو النجم:

في لَجَّةٍ أَمْسِكْ فُلانًا عَنْ فُلِ"[1].

يوحي هذا النص بأنه إذ أراد متكلم أن يتحدث مع إنسان ولا يعرف اسمه تحديدا، فإنه يلجأ للاسم الغالب الخاص الذي يكنى به الآدميون، فيقول: فلانٌ للمذكر وفلانة للمؤنث كناية عنهما، وقد يخفف لفظ فلان في النداء فيصير (فُلُ) وذلك أن النداء موضع تخفيف.

والملاحظ أن أبا النجم قد استعملها في غير النداء ضرورة؛ لأنه يجوز للشاعر ما لا يجوز للناثر، وكأنه أراد بلفظ (فل) دلالة على معنى التخفيف، أما إذا ما أراد المتكلم كناية غير الآدميين، فإنه يلحق بهما الألف واللام فيقول: الفلان والفلانة.

وكما حظي التشبيه والاستعارة باهتمام سيبويه، كذلك الأمر بالنسبة لتقنية الكناية التي وجدت صداها الكبير في الكتاب، ولاشك في تلك الأمثلة التي تمثل بها سيبويه مما سمعه عن العرب، أنها قد توحي بوجه من التأويل والتفسير، وخاصة فهمه الفطري للكناية، فإذا قلت: "هو مني منزلة الشغاف، وهو مني منزلة الولد، فإنما أردت أن تجعله في ذلك المكان"[2]، وهي كناية عن القرب القلبي وشدة الحب.

وبعد هذا التحليل نخلص إلى أن حجية التمثيل بكل أنواعه: تشبيها واستعارة وكناية قد وجد صداه في كتاب سيبويه، وكأنه كان على دراية من أنه سيؤاخذ إذا لم يورد كل ما له علاقة باستعمال العرب للغتهم، وهو بهذا العمل يعد وفيا ومخلصا في عملية النقل والوصف

(1)- الكتاب، ج2، ص: 248

(2)- الكتاب، ج1، ص: 409-410

العلمي، يدلنا على ذلك حرصه الشديد على تدوين كل ما سمعه من شيوخه وما سمعه هو نفسه من العرب المحيطين به، فكأنه مزدوج المهمة: مصوِّر وناقل للحدث بصدق في الآن ذاته.

أما فيما يخص تقنية المثل والنموذج، فقد ذكرنا هذا في مبحث السياق الاجتماعي عند سيبويه، ولا نريد التكرار، إذ إن ما في الكتاب من الأمثال ما يعز عن الحصر، إذ لكل أمة أمثالها وحكمها المستخلصة من تجاربها الإنسانية وهي إما تتمثل تلك الأمثال أو تستحضرها، أو تعمل بها في مناسبات مختلفة، تستدعي المثل الذي يناسبها، أما النموذج، فقد اقتدى سيبويه بكل شيوخه في العلم، ولكنه اتخذ الخليل نموذجه الرئيس في اكتساب العلم، ولقد حرص سيبويه على التصريح بما كان ينطقه العرب، وما لم يكن ينطقونه، بل إنه لا يكتفي بعرض ذلك، وإنما يسأل أستاذه الخليل عن سبب عدم نطق العرب بهذه التراكيب، وهو بذلك يتعرض للاستعمال اللغوي واللغة المنطوقة عند العرب، فيصفها ويعرضها كما قالوها[1]، تصديقًا وعملاً بدروس أستاذه الخليل وبكل من يثق بفصاحته وعروبته التي لا يشوبها لحن أو عجمة.

ي. حجة البديع:

لا نزعم أن سيبويه قد اهتم بالمصطلحات البلاغية وهو يرسي دعائم علم اللسان العربي، ولكن نريد أن نلمح إلى بعض اللفتات التي مهدت السبيل لبعض البلاغيين، أمثال عبد القاهر الجرجاني وأبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني وغيرهم من الذين ذاع صيتهم في ميدان البلاغة العربية، ومن بين اللفتات البلاغية ما يلي:

1) التجريد:

والتجريد من منظور جمهور البلاغيين "أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمال ما فيه"[2]، ويترتب هذا الفن عندهم على وسائط لغوية

---

(1)- ينظر: التقديم والتأخير في بناء الجملة عند سيبويه، ص: 346

(2)- بغية الإيضاح، ج4، ص: 44

معينة؛منها التجريد "بالباء" و"من" و"في" التجريدية، بالإضافة إلى مخاطبة الإنسان نفسه، وكأنه ينتزع منها شخصا آخر يحاوره ويخاطبه.

وربما يكون سيبويه قد أدرك مضمون هذا الفن وبعض طرائقه، يثبت هذا قوله في (هذا باب ما يختار فيه الرفع، ويكون فيه الوجه في جمع اللغات): "ولو قال أما أبوك فلك أبٌ، لكان على قوله: فلك به أبٌ، أو فيه أبٌ، وإنما يريد بقوله: فيه أبٌ، فجرى الأب على سعة الكلام"[1].

فالتركيب (لك به أبٌ أو فيه أبٌ)، يذكره سيبويه ليفسر به للمتلقي قاعدة نحوية، ولكن طريقة تحليله تشبه طريقة تحليل البلاغي، ويفهم من تحليله أنه يدرك علة هذا النوع من التركيب، لذلك وصفه بأنه وسيلة من وسائل الاتساع في التعبير، ومجرى هذا الاتساع أن لفظ (الأب) الأول قد بلغ من الاتصاف بتلك الصفة (فلك أبٌ) حدا يصح معه أن ينتزع منه موصوف آخر يتصف بها، وقد اتضح عند البلاغيين أن الاتساع في الكلام قد صار أحد الأغراض المراعية لهذا اللون البديعي في البحث البلاغي[2].

وتشييدا بمضمون فن التجريد يستدل ابن جني على قول سيبويه قائلا: "اعلم أن هذا طريق فصل من فصول العربية، حسن، ورأيت أبا علي -رحمه الله- به غريا معنيا، ولم يفرد له بابا، لكنه وسمه في بعض ألفاظه بهذه السمة، فاستقريتها منه، وأَنِقَتْ لها، ومعناه أن العرب قد تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنه حقيقته ومحصوله، وقد يجري ذلك إلى ألفاظها لما عقدت عليه معانيها، وذلك نحو قولهم: لئن لقيت زيدا لتلقينَّ منه الأسد، ولئن تسأله لتسألنَّ منه البحر، فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسدا وبحرا، وهو عينه" هو الأسد والبحر"، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه وممتازا منه...وقد تستعمل الباء هنا فتقول: لقيت به الأسد، وجَاوَزْتُ به البحر... ومنه مسألة الكتاب، أما أبوك فلك أبُ، أي: لك منه أو به أو بمكانه أبٌ"[3]وهكذا فإن الدلالة على مصطلح التجريد، وترسيخ مفهومه، وبيان طرائقه، يعود

(1)- الكتاب، ج1، ص: 381

(2)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 342

(3)- الخصائص، ج3، ص: 473-474

الفضل فيه إلى أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني، أما البذور والمهاد فهما لصاحب الكتاب سيبويه -رحمه الله-.

2) الفواصل:

الفاصلة مظهر من مظاهر السجع، ومفهومها قريب إلى حد بعيد من مفهوم القافية، "وقد عهد البحث في نصوص الكتاب الدلالة على مصطلح الفواصل بوصفه علما على رؤوس الآي، وألف الإشارة إلى بعض التعبيرات اللغوية التي يمكن أن تطرأ على ألفاظ الفواصل ويعمد إليها التنزيل أحيانا ليحقق التناغم الإيقاعي فيما بينها، وهو في ذلك لا يخرج عن أساليب العرب، وما يستحبونه من موافقة المقاطع، لتروله متساوقا لأفانين القول عندهم"[(1)].

يؤكد هذا الكلام ما جاء في (هذا باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف وهي الياءات)، حيث يقول: "وجميع ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي، فالفواصل قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[(2)]، و﴿مَا كُنَّا نَبۡغِ﴾[(3)]، ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾[(4)]، و﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾[(5)]، والأسماء أجدر أن تحذف، إذا كان الحذف فيها في غير الفواصل والقوافي"[(6)].

هذا عن الفاصلة في القرآن الكريم، وما تعلق بالحذف في شأنها، أما القوافي فقد أفرد سيبويه بابا لذلك سماه (باب وجوه القوافي في الإنشاد)، يقول فيه: "أما إذا ترنموا -أي العرب- فإنهم يلحقون الألف والياء والواو وما يُنَوَّنُ، لأنهم أرادوا مَدَّ الصوت، وذلك قولهم وهو لامرئ القيس:

---

(1)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 376

(2)- سورة الفجر، الآية: 04

(3)- سورة الكهف، ص: 64

(4)- سورة غافر، الآية: 32

(5)- سورة الرعد، الآية: 09

(6)- الكتاب، ج4، ص: 148-175

قِفَا نبكِ من ذكرى حَبيبٍ ومنزِلي

وإنما ألحقوا هذه المدة في حروف الروي، لأن الشعر وضع للغناء والترنم فألحقوا كل حرف الذي حركته منه"[1].

يفهم من هذا الكلام، أن الفواصل إذا وقعت موقعها المناسب أكسبت المتكلم استراحة بالخطاب وتحسينا للكلام بها، "فجاز فيها من تغيرات الحذف والوقف ما جاز في غيرها من الفواصل التي تقع في رؤوس الآي جريا على مذهب القياس"[2]، بالإضافة إلى ما تؤديه كذلك القوافي من حسن إفهام المعاني وتمكينها في النفوس، وهذا الذي سعى سيبويه إلى التدليل عليه انطلاقا من الاستعمال الحي لتلك الأساليب في مجتمعه.

3) المبالغة والغلو:

إن الوصف الذي يمكن وقوعه عقلا وعادة يقع في مرتبة التبليغ، وأما ما يمكن وقوعه عقلا لا عادة فإنه يرتقي إلى مرتبة الإغراق، أما إذا كان الوصف المدعى غير ممكن لا عقلا ولا عادة فإنه ينصرف إلى مرتبة الغلو[3].

انطلاقا من هذه المفاهيم الثلاثة: التبليغ، الإغراق، والغلو نشير إلى أن مصطلح المبالغة (الإغراق) قد توارد ذكره في كتاب سيبويه بلفظه ومفهومه المرادف لمعنى الكثرة والإجادة والتكثير والتشديد في عمل الفعل، ولم يقف به الأمر عند هذا الحد، وإنما تجاوزه إلى الدلالة على بعض صورها القائمة على الحذف والاتساع.

يؤكد هذا الاستنتاج ما جاء في (هذا باب ما جرى في الاستفهام من أسماء الفاعلين والمفعولين مجرى الفعل كما يجري في غيره مجرى الفعل)، حيث يقول: "وأجروا اسم الفاعل، إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر مجراه إذا كان على بناء فاعل، لأنه يريد به ما أراد بفاعل إلا أنه

(1)- نفسه، ص: 204-205-206

(2)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 348

(3)- نفسه، ص: 349

يريد أن يحدث عن المبالغة، فما هو الأصل الذي عليه أكثر هذا المعنى: فعول، وفعال ومفعال وفَعِلٌ، وقد جاء فعيلٌ كرحيمٌ وعليم وقدير وسميع وبصير... لأنه يريد المبالغة في الفعل"[1].

ونظير هذا ما ذكره على لسان أستاذه الخليل في (هذا باب ما يكون مذكرا يوصف به المؤنث) بقوله: "وزعم الخليل أن فعولا ومفعالا ومفعلا، نحو: قؤول ومقوال، إنما يكون في تكثير الشيء وتشديده والمبالغة فيه"[2].

نشير إلى أن صور المبالغة كثيرة ذكرها سيبويه في كتابه شرحا وتحليلا وتعليلا وتمثيلا لكل صورة ولا يتسع المقام لعرضها كلها.

أما الغلو، فهو نوع آخر من المبالغة من منظور البلاغيين[3]، وقد وجد لهذا النوع أصداء في كتاب سيبويه ومن ذلك ما ذكره في (باب الاستقامة من الكلام والإحالة): "...وأماالمستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"[4].

ولِغَرَضٍ مَا، يُورد سيبويه عبارة "شربت ماء البحر" ضمن المستقيم الكذب، وربما لأن هذا الأمر يمنعه العقل، وما منعه العقل، فإن العادة تمنعه، فلا يتصور أبدا أن هناك إنسانا يشرب ماء البحر لا دفعة واحدة، ولا على دفعات ولو أطال الله عمره قرونا من الزمن. فهذا الأمر -إذن- لا يمكن وقوعه لا عقلا ولا عادة، ولذا فهو نوع من المبالغة يبلغ بالمعنى حَدًّا لا يستطيع أن يتصور حدوثه، وذلك هو الغلو الذي وسمه سيبويه بالكذب "لأنه لا أصل له يستند إليه"[5].

وصفوة القول، إن سيبويه لم ينطلق في تأليف كتابه من الفراغ أو من فرضيات تستوجب الدراسة، وإنما انبنى مذهبه على استقراء الواقع التعبيري للعربِ الفصحاء.

---

(1)- الكتاب، ج1، ص: 110-117

(2)- نفسه، ج3، ص: 384

(3)- سر الفصاحة لابن الخفاجي، شرح وتعليق: الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح، د.ط، 1969، ص: 264

(4)- الكتاب، ج1، ص: 25-26

(5)- البديع تأصيل وتجديد، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ط، 1986، ص: 159

ك. حجة التكرار:

للتكرار بعد تواصلي لا يمكن إنكاره، وذلك أنه يولد حافزا، ويجدد دافعا، ويمد طاقة، وينفخ نفسا، لا يمكن أن توفره لغة النصح المباشر أو التوجيه المكشوف، وهو نوع من التكوين يكتسبه المتكلم أو المستمع من خلال الوقائع الحية، ثم إنه يضيف دائما جديدا، فهو يتجاوز مجرد الإخبار والإبلاغ والتأثير إلى الدفع نحو تنفيذ الفعل، وتغيير السلوك، إن شئت فهو الغاية القصوى في الحجاج، بل الرتبة العليا في السلم الحجاجي.

ولإدراك سيبويه قيمة التكرار في التواصل المتمثلة في التوكيد بنوعيه، وكذلك في جلب الانتباه، إضافة إلى استدامة التواصل أشار إليه في أكثر من موضع يدلنا على ذلك ما ورد في: (هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل)، حيث يقول: "وأما النهي فإنه التحذير كقولك: الأسدَ الأسدَ، والجدارَ الجدارَ، والصبيَ الصبيَ، وإنما نهيته أن يقرب الجدار المخوف المائل، أو يقرب الأسد أو يوطئ الصبي، وإن شاء أظهر في هذه الأشياء ما أضمر من الفعل، ولا توطئ الصبي واحذر الجدار، ولا تقرب الأسد، ومنه أيضا قوله: الطريقَ الطريقَ، إن شاء قال: خل الطريق أو تنح عن الطريق"[(1)]، فالملاحظ في هذا النص، أن التكرار اختياري إن شاء المتكلم استخدمه وإن شاء استغنى عنه.

وفي "هذا باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف"، يقول سيبويه: "وذلك قولك: الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌ، والمرء مقتول بما قتل به إن خنجرًا فخنجرٌ، وإن سيفًا فسيفٌ"، وإن شئت أظهرت الفعل فقلت: إن كان خنجراً فخنجرٌ، وإن كان شراً فشرٌ، ومن العرب من يقول: إن خنجراً فخنجراً، وإن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً، كأنه قال: إن كان الذي عمل خيراً جزي خيراً، والرفع أكثر وأحسن في

[(1)]- الكتاب، ج1، ص: 253-254

الآخر، لأنك إذا أدخلت الفاء في جواب الجزاء استأنفت ما بعدها وحسن أن تقع بعدها الأسماء[1].

يفهم من كلام سيبويه أن للتكرار أبعادا تواصلية منها التوكيد (توكيد الفعل أو الجزاء) أو غيره، والذي يحدد هذا البعد هو الحكم الإعرابي إضافة إلى ما يستحسنه العرب، يقول: "وإن أضمرت الرافع كما أضمرت الناصب فهو عربي حسن، وذلك قولك: إن خيرٌ فخيرُ"[2].

ولتأكيد حجة التكرار يستدل سيبويه يقول أحد شيوخه قائلا: "وزعم يونس أن العرب تنشد هذا البيت لهدية بن خشرم:

فإنْ تَكُ فِي أَموَالِنَا لاَ نَضِقْ بِهَا ذِرَاعًا، وإن صبْرُ فَتَصْبِرُ لِلصَّبْرِ

والنصب فيه جيد بالغ على التفسير الأول والرفع على قوله: وقع صبرٌ أو إن كان فينا صبرٌ فإننا نصبرُ"[3]، وهناك حجج بديعية كثيرة ذكرها سيبويه كالطباق والجناس وغيرها، نحو قوله: "اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، وسترى ذلك إن شاء الله.

1. فاختلال اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جَلَسَ وَذَهَبَ.
2. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذَهَبَ وانْطَلَقَ.
3. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وَجَدْتُ عليهِ من المَوْجْدَةِ، ووَجَدْتُ إذا أَرَدْتُ وِجْدَانَ الضَّالَةِ، وأشباه هذا كثير"[4].

فالمثال الأول؛ يمثل الطِّباق، وأما الثاني؛ فإنه التَّرادف، والمثال الثالث: هو الجناس، وهذه كلها من المحسنات البديعية التي تزيد النص قوة في التأكيد، وقوة في الجرس الإيقاعي.

ل. حجة القياس في الكتاب:

[1]- الكتاب، ج1، ص: 258
[2]- نفسه، ص: 259
[3]- نفسه، ص: 259-260
[4]- ينظر: الكتاب، ج1، ص: 24

يعد القياس أصلا من أصول النحو العربي، وهو عند النحاة العرب علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي تتألف منها، فيحتاج من أجل ذلك إلى تبيَّن حقيقة الكلام لتبيين أجزائه التي يتألف منها ويَتَبَيَّنَ أحكامها. ويرتبط القياس عند العرب بمقولة (الأصل) و(الفرع) وهذا القول يجيز بأنهم سبقوا التوليديين المحدثين في كثير من النقاط الجوهرية في نظامهم النحوي، فالأصل يمثل اطراد الظاهرة اللغوية وكثرة ورودها، والفرع قلتها، وإن كانت ممن يوثق بعربيته، وفي الوقت الذي رأى فيه الوصفيون أن قضية الأصل والفرع قضية ميتافيزيقية لا تعتمد على مبدإ سليم، يرى التوليديون أن هذه القضية أساس في فهم البنية العميقة وتحويلها إلى بنية السطح[1].

فالأصل هو الإطار الذهني للمعنى المعين، والفرع إطاره الخارجي، وفي كل تركيب كلمات أصول (unmarked words) وأخرى فرع (Marked words)، فالأصل فكرة، والفرع كيفية إخراج هذه الفكرة، والأصل بنية عميقة (Deep structure)، فرعها البنية السطحية (Surface structure)[2].

ولابد للفرع أن يكون فيه الأصل، ففي (التعريف) مثلا أصل مجرد ذهني هو (التنكير)، وفي (التأنيث) أصل ذهني متصل بالبنية العميقة هو (التذكير)، والأصل في كل (معرب) أن يكون له حرف (الإعراب)، والأصل في الأسماء (الصرف)، وإذا كان لنا أن نستشير سيبويه في قضية الأصل والفرع فإنه سيجيبنا قائلا: "وإنما كان المؤنث بهذه المترلة، (يعني جواز صرف الاسم المؤنث الثلاثي الساكن الوسط أو عدم صرفه)، ولم يكن كالمذكر؛ لأن الأشياء كلها أصلها التذكير ثم تختص بعد، فكل مؤنث شيء، والشيء يذكر، فالتذكير أول وهو أشد تمكنا، كما أن النكرة أشد تمكنا عندهم، فالنكرة تعرف بالألف واللام والإضافة، وبأن يكون علماً، والشيء يختص بالتأنيث فيخرج من التذكير كما يخرج المذكور إلى المعرفة"[3].

(1)- ينظر: النحو العربي والدرس الحديث، د. عبده الراجحي، بيروت، د.ط، 1979، ص: 144
(2)- دراسات في اللسانيات، ثمار النحوية، د. هادي نهر، جامعة جدارا، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011، ص: 194
(3)- الكتاب، ج3، ص: 241-242

هذا عن تعريفه لماهية القياس من الجانب النظري، أما من الجانب التطبيقي، فالكتاب من أوله إلى آخره يمثل القياس في أجلى تمثلاته، إذ إن المعيار الأساس الذي قاس عليه سيبويه كل ما جاء في الكتاب؛ هو الاستعمال الحي للغة عند أبنائهما العرب الموثوق بعربيتهم، يدلنا على ذلك ما جاء في (هذا باب إضمار المفعولين الذين تعدى إليهما فعل الفاعل).

يقول سيبويه: "اعلم أن المفعول الثاني قد تكون علامته إذا أضمر في هذا الباب العلامة التي لا تقع "إِيَّا" موقعها، وقد تكون علامته إذ أضمر "إيا".

فأما علامة الثاني التي لا تقع "إيا" موقعها فقولك: أعطانيه وأعطانيك، فهذا هكذا إذا ابتدأ المتكلم بنفسه، فإن بدأ بالمخاطب قبل نفسه قال: أعطاكني أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال: قد أعطاهوني، فهو قبيح لا تكلم به العرب، ولكن النحويين قاسوه.

وإنما قبح عند العرب كراهية أن يبدأ المتكلم في هذا الموضع بالأبعد قبل الأقرب، ولكن تقول: أعطاك إياي، وأعطاه إياي، فهذا كلام العرب، وجعلوا إِيَّا تقع هذا الموقع إذ قبح هذا عندهم، كما قالوا: إياك رأيتُ، وإياي رأيتَ، إذا لم يجز لهم: ني رأيتَ، ولا: كَ رأيتَ[1].

ويواصل قائلا: "وإنما كان المخاطَب أولى بأن يُبْدأَ به من قِبَلِ أنَّ المخاطَب أقرب إلى المتكلم من الغائب، فكما كان المتكلم أولى بأن يبدأ بنفسه قبل المخاطب، كان المخاطَب الذي هو أقرب من الغائب أولى بأن يبدأ به من الغائب، فإن بدأت بالغائب فقلت: أعطاهوك، فهو في القبح وأنه لا يجوز بمترلة الغائب والمخاطب إذا بدئ بهما قبل المتكلم، ولكنك إذا بدأت بالغائب قلت: قد أعطاه إياك.وأما قول النحويين: قد أعطاهوك وأعطاهوني، فإنما هو شيء قاسوه لم تكلم به العرب، ووصفوا الكلام في غير موضعه، وكان قياس هذا لو تكلم به كان هينا"[2].

---

(1)- نفسه، ج2، ص: 363-364

(2)- الكتاب، ج2، ص: 364

إن العلة المانعة للأنماط التي أوردها سيبويه في نصيه السابقين مرجعها الاستعمال اللغوي عند العرب، إذ إنهم كما يخبرنا سيبويه لا يتحدثون بها، فأمر المنع ليس القبح فقط؛ وإنما كراهيتهم في أن يبدؤوا كلامهم بضمير الأبعد عن المتكلم قبل الأقرب له، وذلك أنهم يستعملون دائما الأقرب ثم الأبعد فيقولون: أعطانيه وأعطانيك، أما إذا اضطروا للإتيان بالمفعول الأول قبل الثاني للأقرب؛ جعلوا الضمير المنفصل (إيا) بدلا من الضمير المتصل، فيقولون: أعطاك إياك، وأعطاه إياك.

ويصرح سيبويه بأن مذهبه هذا يخالف ما ذهب إليه النحويون الذين جوزوا هذه الأنماط: أعطاهوك وأعطاهوني، معللا مذهبه في المنع أنه قائم على الالتزام بما ورد في لغة العرب "فهو هنا لغوي واصف من الطراز الأول لا يعتد بالمعيارية والقياس الذي لا يسنده استعمال لغوي لمتكلمي اللغة، ولذلك يفند رأي النحويين ويدحضه ويستهجنه"(1)، قائلا: "فإنما هو شيء قاسوه لم تكلم به العرب ووضعوا الكلام في غير موضعه، وكان قياس هذا لو تُكِلِّمَ به هينا"(2).

وقد عرض لهذا النص الدكتور "عبده الراجحي" خلال حديثه عن الاتجاه الوصفي عند سيبويه، وأنه قد أقام قواعده في أغلبها على الاستعمال اللغوي، وقد لاحظ ذلك من عدة أمور منها: "أن فكرة القياس على كثرة ما قيل فيها لم تكن عند سيبويه غير متابعة الكلام العربي، وفي الكتاب إلحاح على هذا التصور، فنجد فيه مثلاً قوله: ".. فهو قبيح لا تكلم به العرب، ولكن النحويين قاسوه،... وكان قياس هذا لو تكلم به كان هينا"(3).

وتتبعا للنص نفسه يوضح الدكتور "أحمد ياقوت" الجانب الوصفي فيه قائلا: "إذا أردت أن تتبين ملامح المنهج الوصفي عند سيبويه، تبينا لا مجال فيه للشك، فاقرأ... (يعرض أكثر من نص والنص الذي هو محور دراستنا)، فسيبويه يفرق هنا بين مجالين: مجال الصحة المفترضة أو المتصورة التي وضعها النحاة، ومجال الواقع اللغوي المستعمل فعلا عند العرب

(1)- التقديم والتأخير في بناء الجملة عند سيبويه، د. أشرف السعيد السيد خضر، ص: 367

(2)- الكتاب، ج2، ص: 364

(3)- النحو العربي والدرس الحديث، د. عبد الراجحي، ص: 57

بغض النظر عن المعايير التي وضعها النحاة"[1]. يقصد النص الذي هو في صفحة ثلاثمائة وأربعة وستين من كتاب سيبويه من الجزء الثاني.

وبعد استقرائه للنص نفسه، يخلص الدكتور أحمد سعد محمد إلى القول: "فالقياس الذي لا يراعي جانب المعنى، وما تكلمت به العرب، هو قياس لا يولد إلا كلاما وتراكيب سقيمة ينبو عنها الذوق السليم، ولو وقف الأمر عند ذلك لكان هينا، ولتصدى لقياس قواعد تلك اللغة كل من هب ودب ممن لا يعرفون سننها وأساليبها، وهذا ما لا يرتضيه سيبويه قياسا على ما تكلمت به العرب"[2].

وختاما، فإن مقياس استقامة الدلالة وقبول التراكيب والحكم عليها بالصحة وعدمها، لا يستطيعه إلا المتكلم المستمع المثالي الذي يطلق عليه ابن اللغة "فهو وحده الذي يمتلك الكفاءة التي تمكنه من التمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح، فالقبول النحوي لا يتوقف على المعنى المعجمي لعناصر الجملة، ولكنه يرتكن إلى نظام عميق يمتلكه المتكلم، وبه يستطيع أن يميز جملة من أخرى"[3]، يقول "رولاند": "إن أهم ما يميز كفاءة المتكلم الفطري مقدرته على التمييز بين الجمل الصحيحة نحويا وغير الصحيحة نحويا"[4]، لذلك سعى سيبويه إلى تمييز الصحيح من غيره معتمدا في ذلك الاستعمال الحي للغة داخل المجتمع، مراعيا كل سياقات المقام المتعلقة بالكلام؛ معياره الأساس الذي يستند إليه في تمييزه؛ هو كلام العرب الفصيح.

(1)- الكتاب بين المعيارية والوصفية، د. أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1989، ص: 43-47

(2)- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، ص: 48

(3)- عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه، سعيد حسن بحيري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1989، ص: 157

(4)- Introduction to linguistics, Wordhagh Roland, New York, 1972,p: 12

الخاتمة

بعد الجهد المضني وبعد العرض المفصل للتبليغ العام بكل عناصره وتقنياته الحجاجية-الاستدلالية وكذا اللغوية-البلاغية، وبعد إسقاط كل ما هو نظري على الكتاب لسيبويه، وبعد الكشف عن الدافع إلى تأليف المعاجم اللغوية العربية، وبعد تبيان الأثر الذي تركه سيبويه في بعض النحاة واللغويين العرب، كالجاحظوابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، وبعد أن أثبتنا وجوه الاتفاق والتقارب بين مؤلف الكتاب وأصحاب النظريات اللغوية الغربية المختلفة، نخلص هاهنا إلى بعض النتائج التي يتعلق بعضها بمنهج دراسة الكتاب، وبعضها يتعلق بصاحب الكتاب سيبويه، وطرق عرضه لكتابه، والتقنيات الواردة في هذا الكتاب وإن لم نذكرها كلها، وذلك أن كل باب أو كل تقنية يلزمها بحثٌ مستقلٌ، وهذه النتائج هي كالآتي:

- الحدث اللغوي هو موضوع علم اللغة مثل أي حدث اتصالي، له عناصر ضرورية لتأليفه: المتكلم والسامع والرسالة، والموقف الذي يقع فيه مكانا وزمانا وقناة، والكود الذي ينتظم لغته، ومن الجميل أن يتنبه "إمام النحاة" سيبويه إلى هذه العناصر كلها.
- إن من مزايا الكتاب الدور الذي عزاه سيبويه إلى العمليات العقلية التي ينفذها المتكلم لكي يجري اتصالا ناجحا يعبر عن المعنى المراد تبليغه، ومسؤوليته نحو السامع أو المخاطَب الذي دوره المتوقع أن يحلل الكلام في سياقه.
- إن تحليل سيبويه للغة من حيث إنها سلوك اجتماعي يقع في سياق محدد، ومحاولته إعادة بناء التفكير الداخلي للمتكلم ليقرر ما الجوانب الشكلية للمنطوق التي يمكنها أن تعبر عن نيته (قصد المتكلم)، وهذه المحاولة من سيبويه لهي من أهم خصائص الكتاب وأكثرها ضرورة، لأنها جعلت الكتاب فريدا في التراث اللغوي العربيّ وأعطته قيمته الحقيقية في تاريخ الفكر اللغوي.
- ولقد توصل بحثنا إلى الكشف عن النظرية النحوية في كتاب سيبويه، أي المادة والمنهج وإجراءات التحليل التي طبقها على كلام العرب، وعن آثاره في اللغويين

والنحويين والبلاغيين العرب الذين أتوا بعده، كما كشف عن موقع إنجازاته في الدراسات اللغوية الحديثة.

- إن الكلام الذي يدل على التواصل ينبني على العلاقة التخاطبية، والتخاطب – إجمالا – هو إلقاء جانبين لأقوال بغرض إفهام كل منها الآخر مقصودا معينا، ولكن هذه الأفعال لابد أن تضبط بقواعد تحدد وجوه فائدتها التواصلية، وهذه القواعد تدعى قواعد التبليغ.

ومصطلح التبليغ موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، ويتولى موضوع التخاطب في كلا وجهيه التواصلي والتبليغي آفاق علمية كثيرة أهمها: فرع من المنطقيات الحديثة وهو "منطق الحجاج والحوار"، بالإضافة إلى فرع التداوليات من اللسانيات الحديثة، ثم اللسانيات التوليدية وغيرها.

ما توصل إليه التداوليون في أبحاثهم من قواعد وقوانين التخاطب، نادى به العرب الأوائل منذ قرون أمثال: سيبويه، ابن وهب، السكاكي، ابن خلدون، الجاحظ، ابن جني، عبد القاهر الجرجاني، وغيرهم كثير، والدليل على ذلك، هو تلك الكتب التي تناولت التواصل بالدراسة والتحليل لإدراكهم ضرورة التواصل.

- المتكلم الجيد هو المستمع الجيد، يؤكد العلم الحديث هذا التصور، خاصة ما تعلق بالجانب التشريحي في تفسير عملية الكلام، وحسب دي سوسير يجب أن يكون كل من المتكلم والمخاطب على لياقة متماثلة أو متقاربة في استخدام الأنساق المشتركة في التعبير عن فكرهما الشخصي، بالإضافة إلى توفر الآلية النفسية للإدراك والفهم وتفكيك الوحدات الصوتية الوافدة حتى يتحقق التواصل في ظروف ملائمة.

ولقد تفطن سيبويه إلى أهمية الكلام الذي هو أصوات مقطعة دالة على معنى، ولكي يخرج هذا الكلام المضمر في النفس، لابد أولا من ترتيب أصواته وألفاظه وحروفه وفق قواعد وقوانين تضمن سلامته وصحته ودلالته، ثم النطق به في الأخير، لذلك ابتدأ سيبويه كتابه بالنحو، ثم الصرف، ثم الصوت، وهذا الترتيب مقصود دال على فطنة وذكاء صاحبه من

جهة، وعلى موضوعيته وتمثيله للواقع الحي من جهة أخرى، فمن تراه ألف كتابا شاملا لكل مظاهر اللسان قبل سيبويه؟!

- يشترط سيبويه توفر القصد (نية المتكلم) حتى يسمى اللفظ كلاما، ومن ثم فلا يسمى كلام النائم، أو السادر أو الحيوان كلاما، لأنه يفتقر إلى قصد التواصل مع الغير، وهذا يتوافق مع مبادئ التداولية التي تركز اهتمامها على مقاصد المتخاطبين بناءا على السياق.
- ويستثمر السياق لبيان المقاصد، وهناك تمييز بين اللغة والكلام وبين المعنى والقصد، ويجسد هذه المفاهيم التداوليات الحديثة، وعلى هذا الأساس يمكننا القول: إننا عندما نتحدث فإننا ننقل اللغة إلى كلام، والجملة إلى قولة، والمعنى إلى قصد، ودلالات الألفاظ إلى إشارات، ولكن هذا لا يتم إلا بإقحام العناصر الخارجة عن اللغة وهي: المتكلم والمخاطب والسياق، أي ربط الجملة بزمان ومكان ومقام تخطابي ومخاطبين، وتحديد ما تشير إليه التعبيرات اللغوية الإشارية، وهكذا تخرج بعض العبارات من حيز اللغة إلى حيز الكلام الفعلي.

يولي التداوليونعناية كبيرة للاستعمال وللسياق، ولذلك قيل إن التداولية تعني "عملية الاستعمال" وهم لذلك يرون أن كلمة التخاطب لا تخلو من إخبار واستفهام وأمر ونهي، وتسمية أو نحو ذلك مما يدعونه "أفعال الكلام" (Speech acts)، وبذلك يتطور المفهوم الجامد للكلام كما شرحه دي سوسير إلى طابع ديناميكي يأخذ طابع الاستعمال، لذلك استعملت مصطلحات ديناميكية أهمها مصطلح القصد (Intention) عند التداوليين، ونية المتكلم عند سيبويه بدلا من الجملة، لذلك أضحى اللسانيون يبحثون عن مبادئ أو أصول التخاطب (Principlesof communication) لبلوغ كنه المتكلم بدلا من الاقتصار على البنى المجردة.

- مفهوم المتكلم: المتكلم هو الذي يمارس سلطته على اللغة، إذ يشكلها كما يشاء، والقصد (نية المتكلم) هو الذي يميز المتكلم الذي يستعمل الإظهار والإضمار،وقصده

التبليغ، أي نقل فائدة الخبر أو القول الطبيعي نقلا يزدوج فيه الإظهار والإضمار، إذن فهو ذات مبلغة لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تبطن فيه، معتمدة في متنه من قرائن ما ورد منها خارجه، وهنا يدخل: المجاز، التشبيه، الاستعارة، والكناية، بالإضافة إلى الألوان البديعية من فاصلة وقافية (سجع) ومبالغة...

- أما الكلام فهو مسؤولية كبيرة، إذ كل ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، متلق حقيقي (réel)، متلق افتراضي (virtuel)، ومتلف خيالي (fictif)، وقد فاضل رولان بارث بين القارئ الحقيقي والقارئ الضمني، وهو الأمر نفسه الذي رأيناه عند سيبويه فيما يخص المخاطب النائم والسادر، وعلى هذا الأساس، ركزت الاتجاهات البلاغية على المتكلم باعتباره منشئ الخطاب، ولكنها لم تفرط في المستمع، إذ كانت تذكر المتكلم دائما بمراعاة السامع في خطابه سواء في طبيعة لغة الرسالة أو في التقنيات اللغوية المستعملة، من حذف وزيادة، تقديم وتأخير، تكرير وإطناب أو غيرها، أو على مستوى المقام العام (الوقت المناسب، مراعاة المكانة العلمية والاجتماعية والسياسية بناءا على أن الناس طبقات).

لا يوجد معنى الخطاب/النص بعيدا عن المتلقين وذلك أن المعنى يولد أثناء تعامل المتلقي مع الخطاب لا قبله، ومن هنا، الصلاحيات التي أعطتها الهيرمينوطيقا والسيمولوجيا للمتلقي (قارئا أو سامعا) تسمى استنطاق النص (إرغام الذات عن التخلي عن ذاتها)، أما نظرية القراءة والتفكيكية فإنهما يجعلان النص مليئا بالثقوب والفجوات، ثقوب يكلف القارئ وحده برتقها، وفجوات يقوم القارئ وحده بملئها، وهذا يوافق تقنية القياس والتأويل، فالخطاب/النص: رسالة تجد نفسها بين متلق ضمني (متخيل) وهو الذي يحضر مع المتكلم أثناء إنتاج الخطاب، ومتلق فعلي هو الذي يستقبل الخطاب، ولذلك فإن أهم وسيلة إجرائية يتعامل بها المتلقي في فهم الخطاب هي التأويل، لأنه هو الذي يمكنه من ملء الفجوات من منظور "ايزر" لذلك تحدث سيبويه عن الحذف والإضمار.

وهناك أدوات أخرى تساعد المستمع على الفهم منها: المعرفة بشخص المتكلم وحاله، مراقبة السمات والعلامات البادية على المتكلم، وهي دلالات بصرية، بالإضافة إلى المهارات اللغوية التي هي في خزانة السامع (في الذاكرة).

- كتاب سيبويه نوعي، لأنه لا يفهمه كل الناس، وإنما الباحثون وطلبة العلم في وقتنا الحالي، أما في عصره، فقد كان يسير الفهم، لأنه مؤلف على سمتهم وسجيتهم، فما كان يحتاج قارئه إلى عسير تعمق، وكثيرِ إدراكٍ لفهم ما جاء في متنه من موضوعات.

مرحلة الإدراك هي المرحلة الأساسية في عملية التواصل، لأنها تمثل مرحلة الاستثمار الحقيقي للخطاب، لذا فالسماع المقصود هو سماع الإدراك والتدبر، ولذلك فإن من أهداف المتكلم ومن أمنياته أن يرى استجابة السامع لخطابه في الموقف التواصلي، وتبدأ هذه الاستجابة من حسن الاستماع، مرورا بحسن الإدراك والفهم ثم انتهاءًا بحسن الالتزام والتطبيق، وهذا يتعلق بما جاء في كتاب سيبويه، إذ يوجه كلامه عبر كتابه إلى متلق يرجو منه التطبيق، راسما له كل السبل التي توصله إلى الإدراك والفهم، موضحا أو معينا إياه بالتقنيات التبليغية التي استنبطها من كلام العرب قبل أن يختلطوا بالأعاجم.

فكتاب سيبويه هو تسجيل لتاريخ العرب ولكلامها ومبادئها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها وسياقاتها، أي لحياة العرب في عصره بكل ما يعتريها من ثقافة وعلوم دينية واقتصاد، وعادات وممارسات كلامية وغيرها.

- كتاب سيبويه خطاب موجه لكل من يريد أن يكون مدرسا، إذ كل ما في الكتاب يعتبر دليلا مساعدا لتدريس اللغة وقواعدها النحوية والصرفية، أو لتدريس علوم البلاغة (المعاني، البيان، البديع)، أو لتدريس علم العلامات (السيمولوجيا)، يدل على ذلك أشكال التواصل التي حرص سيبويه على توضيحها أو لتدريس اللسانيات بكل فروعها: الاجتماعية، العامة، التطبيقية تعليمة اللغات، بالإضافة إلى اللسانيات التحويلية التوليدية وكذا التداولية

- لتدريس تاريخ العرب والقبائل العربية، العادات والتقاليد العربية، حتى العصر العباسي الأول.
- تاريخ النحو العربي، الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام.
- الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحة الأحكام وضبط القواعد وتقوية درجة الاقتناع.
- تدريس التداولية، لأن سيبويه اعتمد في تأليف الكلام على الاستعمال الحي في تداول اللغة، وعلى نية المتكلم وقيل: إن التداولية هي "عملية الاستعمال".
- اعتماد سيبويه على اللغة المنطوقة، وهو ما تحث عليه الدراسات اللغوية الحديثة حتى يكون نتاج ما توصلت إليه موضوعيا علميا.

خطاب سيبويه وإن كان نوعيا فهو موجه إلى كل الفئات إلا من أبى، وذلك أنه في صميمه خطاب تعليمي توجيهي إخباري تقريري، لمن يريد أن يكتسب علما أو إطلاعا على صفاء اللغة العربية ونتاج أهلها الضخم شعرا ونثرا.

كتاب سيبويه يمثل خطابا ونصا في الآن ذاته، وذلك أن سيبويه نفسه كان متلقيا للنصوص المبثوثة في كتابه، ومن هنا فكتابه خطاب في عصره، نص في زماننا، أو هما معا، وعلى هذا الأساس، فكل متلق لكتاب سيبويه هو سامع وقارئ في الوقت ذاته، ولذلك أمكننا القول إن من أهم خصائص كتاب سيبويه الشفاهية والكتابية، وربما لذلك سمي سيبويه مؤلفه "الكتاب"، إذ المقصود بالكتاب هو "السورة" وهو اللوح المحفوظ، والذي يؤيد صفتي النص والخطاب "هو أن الكتاب ما يكتب والقرآن ما يجمع بعضه إلى بعض"، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر/01]، وقال عز وجل: ﴿**كتاب أنزلناه لا ريب فيه**﴾ [سورة/آية]، ولعل سيبويه يكون قد أخذ صفة اللوح المحفوظ صفة الشفاهية والكتابية وكذلك عدم الشك في محتويات الكتاب المترل، منطلقا لتسمية مؤلفه "الكتاب" خاصة وأن كتابه قد جمع الكثير من الشواهد القرآنية والشعرية، وكذا معظم اللهجات

العربية، ما يجعله متداولا في كل مكان وزمان وربما لهذا السبب سمي "قرآن النحو" وكتب له الخلود.

الكفاءة هي التي تحدد نوع ودرجة المتلقين (نوعي، عادي) ومن هنا فالمؤهلات التواصلية للمتلقي هي: اللغة، والعلم، والإطلاع على ثقافات الغير، بالإضافة إلى المشاركة الإيجابية للسامع من خلال عملية السؤال والجواب (الجدل والمحاورة)، وكذا الاستعداد للتواصل والرغبة فيه، وكذلك معايشة المقام الذي يحتضن الخطاب.

هذا في حالة الخطاب المباشر أما في حالة الخطاب غير المباشر أي النص، فيشترط في السامع معرفته بالمتكلم وبلغته ولفظ الخطاب سواء من حيث المفردات أو التراكيب، وكذا معرفة واقع الخطاب: مكانه وزمانه، والظروف التي كانت أحاطت به، ولعل هذا الذي دفعنا إلى التعريف بسيبويه وعصره اللغوي تكرارا لما جاء في كتب السير أو التأريخ للعظماء ولعلمائها، وإنما لنصل المتلقي بعصر سيبويه ما دمنا نبحث في ميدان التبليغ والتواصل، وحتى نفهم ما جاء في كتاب سيبويه الذي ينعته الجهلة بالغموض والتعقيد.

المؤهلات الذاتية: قوة الاستعداد والتحليل والاستنتاج (خاصة بالسامع) وقوة الذاكرة والفطنة، فنحن إذا ما أردنا تحليل نص أو خطاب أصبح من اللازم علينا استحضار مكانة المتكلم، وذلك أن كل خطاب يحمل حتما بصمات صاحبه وخصوصياته بدءا من نوع الصوت، حتى إنه يقال إن تفوق سيبويه في التأليف راجع إلى تلك اللكنة التي عرف بها، لذا كان علمه أغزر وأوفر من كلامه.

وانتهاءً بصورة التركيب، لذا لم يكن أحسن من القائل في تبليغ خطابه إذ لا يرتقي إلى درجة تبليغه أي وكيل، ومن هنا فكلما كانت معرفة المتلقي (سامعا/قارئا) بالمتكلم جيدة، كان الفهم لمؤلفه أو خطابه جيدا.

ومهما يكن من أمر، فإن لكل جنس أدبي جمهوره ونقاده الذين تتوفر لديهم آليات التذوق والتقييم دون غيرهم، كل هذا وفق معارفهم المختلفة واهتماماتهم المتشعبة وأعمالهم المتنوعة وآرائهم المتفاوتة.

نادي هاهنا بعدم إعطاء أحكام جزافية على ما جاء في كتاب سيبويه، إلا إذا تم ذلك على وفق عملية التدبر التي تمثل أعلى درجات التركيز وأرقى مراتب الاهتمام، بل وأعلى مستويات استقبال واستثمار الخطاب، وذلك أن التدبر يمكن المتلقي من الانتباه إلى المعاني الضمنية للخطاب في مقابل المعاني الصريحة.

- وهناك خطابات تتسم بمؤهلات أسلوبية ودلالية صعبة الفهم، لذلك أصبح ضروريا تكرار القراءة وتجريد السماع من أجل استكشاف معانيها، وهذا الذي قمنا به في بحثنا، وذلك أننا إلى زمن بعيد كنا نعتقد –مثل غيرنا– أن كتاب سيبويه فيه من الغموض والتعقيد ما لا يشجع على قراءته، بالإضافة إلى اعتباره كتاب قواعد نحوية وصرفية لا أكثر.

إن قراءتنا المتكررة والمتمعنة لما جاء في كتاب سيبويه جعلتنا نتواصل مع صاحبه ومع عصره، وبالتالي تم لنا اكتشاف أن هذا الكتاب هو حقا بحر، المحظوظ هو الذي يمكنه العثور ولو على أحد درره التي لا تعد ولا تحصى، إذا ما حاول باحث أن يغوص في أعماقه، فما تنبهت إلى ظاهرة لغوية إلا وجدت أن لها علاقة مع ظواهر أخرى لم يتم الفصل فيها لحد الساعة، فللساني نصيب من الدراسة وللبلاغي نصيب، ولعلم الأصوات نصيب، وللمؤرخ نصيب، ولعلماء الاجتماع نصيب، وللسيمولوجيين نصيب، ولمن يريد أن يبحث في علم اللهجات نصيب، وكأن صاحبه كان يريد أن يكون كتابه شاملا جامعا لكل ما له علاقة بحياة الإنسان وكيفية تواصله مع أفراد مجتمعه، بتقنيات عديدة تجدد لغته وتريح ضجره من الاستعمال الثابت الجامد، وذلك أن الإنسان ملال بطبعه، يميل إلى التجديد والتنويع دائما في كل مجالات حياته، يهمنا هنا ما تعلق بلغته لا بلسانه أو تجواله.

إن كل الشواهد التي أوردها سيبويه تدل على حفظه الجيد لكلام الله، وأشعار العرب جيدها ورديئها، وكذا كلامها المأثور من أمثلة وحكم، ساعده على ذلك القراءة أو المتابعة المتكررة لكل ما دونته العرب في مؤلفاتها أو ما سمعه هو نفسه من شيوخه أو ممن يحيطون به،

وربما هناك معين أكثر ساعده على تأليف الكتاب هو تقنية التدبر التي حث الله عليها والتي تعني الفهم الجيد والعميق للخطاب/النص.

وتقل فسحة المتلقي في التأويل وتضيق كلما اقتربت هذه النصوص من الجدية والتعليمية ككتب النحو والقوانين والشريعة، وتكمن جدية هذا النوع من النصوص في هدفها المنشود، إذ منها ما يقصد إلى تنظيم حياة الأفراد، ومنها ما غرضه تعليمي، ومنها ما هدفه إحقاق الحق والإدلاء بالحجة القاطعة، ولهذا تستحيل قصدية المخاطب محل قصدية المتكلم، إذ ليست كل الخطابات عرضة لأهواء المفسرين والمؤولين، ولكن هذه النصوص الجدية ليست جامدة، وإنما يشترط أن يكون تأويلها من داخلها بواسطة فكرة ملهمة تستخرج من الخطاب أو النص ذاته، وذلك بالاستعانة بنصوص أو عبارات قريبة من هذه النصوص الجدية.

إن التأويل أو الفهم الذاتي هو خدمة عظيمة للخطاب ذاته، إذ هي الكفيل الوحيد لجعله يحقق مقاصده وعلى رأسها صلاحيته لكل زمان ومكان، وحاجتنا للتأويل تزداد كلما ازداد ابتعادنا عن المقام الأول للخطاب، وذلك أن الظروف تستبدل بشكل مستمر، وآفاق المتلقي واهتماماته وثقافته تتطور هي الأخرى، ولكننا نرى أن ما تطور في كتاب سيبويه هو تقنيات التناول وطرق المعالجة لمتن الكتاب، بحيث أصبح كل باحث يسقط تخصصه على ما جاء في الكتاب، ليحدد في نهاية بحثه أوجه الاختلاف أو الاتفاق، عاقدا مقارنة بين القديم والحديث ليكتشف أن الدراسات اللغوية الحديثة تأخرت بقرون عما جاء في كتاب سيبويه، ليس من باب الفخر والاعتزاز ولا من باب الأسبق والأفضل، ولكن من باب الاعتراف، بناءا على معايير وأسس الدراسات اللغوية الحديثة التي لم يظهر نورها إلا في القرون الأخيرة (القرن التاسع عشر والعشرين).

إذن، لا نغالي إذا قلنا إن سيبويه يضاهي بعلمه كل الباحثين اللغويين الغربيين المحدثين، أمثال: دي سوسير، تشومسكي، بلومفيلد، ديكرو، جاكبسون، بوهلر وفتكنشتاين، أوستين وغيرهم.

وبفضل تقنية التأويل أصبح الخطاب مرنا يزداد حجمه ويتشكل دون أن يفقد شيئا من خصوصياته، إذ غدا "قناة تواصلية تفصل مختلف الحقب التاريخية وتؤلف أطراف الفكر البشري".

والتأويل أو العدول أو الانزياح يعد مبدعا جماليا يكشف الطاقات التعبيرية لكل خطاب، لذلك يكثر المجاز في بعض الخطابات، وهي دعوة حتى يعمل المستمع فكره فيه ويظهر طاقاته وقدراته في الفهم الجيد، بناءا على أن اللفظ لا يمثل المعنى تمثيلا مطلقا، وذلك أن المعنى مفهوم ذهني غير محدد لا يفهمه إلا صاحبه، واللفظ قابل للتحديد، ولكن يجب أن ننبه إلى أن آلية التأويل مغامرة وإحالات محكومة بنقطة بداية ومتجهة نحو نهاية بعينها، ولا يمكن للتأويل أن يقود إلى كل المدلولات الممكنة، لأن ذاك خرقا لمبادئ التفكير العقلي.

وعلى هذا الأساس، يرى سارتر "أن عمل المؤلف ينطوي على فراغ وعلى القارئ أن يملأه"،كما قال شيشرون: "إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكيف دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء ولا لصالح أي شيء، عليه إذن، لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا لغويا ملائما له".

فالمقام هو الحال، والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى التكلم على وجه الخصوص أي الداعي إلى أن يعبر من الكلام الذي يؤدي أصل المعنى خصوصيته مع ما هي المسماة .بمقتضى الحال، وقد يأخذ المقام معنى الحجة والبرهان ويصبح من وسائل الإقناع والاقتناع، وقد قالوا قديما "ليس من رأى كمن سمع"، وفي حال تلقي الخطاب في زمن إنتاجه وفي المقام الواحد تكون فهوم المتلقين متقاربة ومتضارعة، إذ لا نجد للخطاب في زمن إنتاجه إلا معنى واحدا متداولا، لذلك عندما ألف سيبويه كتابه كان يدرك تماما أن متلقيه سيفهمونه لاشك في ذلك.

وكلما ابتعد الخطاب عن مقامه الأول، بدأت التأويلات والتخريجات، كما حدث مع القرآن الكريم في زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم– ولقد اتسع مفهوم المقام في الدراسات

اللغوية الحديثة ليصبح اسمه "السياق"، إذ تناولته مجالات مختلفة كتحليل الخطاب، السيميائيات، نظرية أفعال الكلام، علم النص، علم التأويل، البلاغة والتداولية، علم الاجتماع، نظرية الحجاج وغيرها.

أسهبنا الحديث عن التأويل وذلك أن لولاه ما استطعنا الخوض في بحثنا، إذ بفضل التأويل تمكنا من تحليل نصوص الكتاب، واستخراج كل تلك التقنيات، بالإضافة إلى التمييز بين النحو الوظيفي، ونحو النص، كما أننا لم نعد ننظر إلى متن الكتاب على أنه مجرد قواعد جامدة ثابتة.

ولقد شغل الخطاب بكل أنواعه المختلفة، خاصة الأدبي والاجتماعي اهتمام الدارسين واللسانيين وغير اللسانيين متجاوزين في ذلك اللسانيات السويسرية عن طريق ما يعرف بتحليل الخطاب، إذ توزعت في تحليل إشكالاته مدارس متعددة انتهت إلى إعادة النظر في المعالجة المتعلقة بالموضوع وبالأدوات الكلامية، وبينت أن هناك خطابات تشتمل على ضبابية يصعب نقلها مباشرة، لتنتقل بعد ذلك إلى التنظير والمساءلة في إطار التيار البنيوي، حيث اكتشفت ما يخفيه هذا الخطاب من جوانب إيديولوجية بين المتكلم والسامع.

التحليل التداولي للخطاب يمثل اللسانيات المنحدرة من أعمال الفلسفة التحليلية للأفعال اللغوية، وعلى رأسها أعمال أوستين (Austin) وتلميذه سيرل (Searle)، وقواعد الحوارية (غرايس)، هؤلاء الباحثين الذين اهتموا أساسا بدراسة مختلف نماذج الأفعالية الكلامية التي عرفت بالأفعال التكلمية (Illocutoires actes) وشروط استعمالها، كما اعتنت بدراسة مختلف الوسائل اللسانية التي يتوفر عليها المتكلم من أجل إيصال الفعل اللغوي، واهتمت أيضا بإشكالات مثل: هل يتحقق الفعل بوضوح أو بشكل ضمني لدى السامع؟ هل يرتبط بحضور علامات لسانية، أو على العكس من ذلك هل يحدده سياق القول؟ وهذه الإشكالات كلها قد عالجناها في بحثنا هذا.

بناءا على الكلام سيكون الاهتمام باللغة من قبل المتكلمين، إذ المعنى لا يمثل بعض حالات الشيء فقط، وإنما يعبر أيضا عن أفكار ومشاعر معينة تحدد الغايات التي يقصدها

المتكلم، وذلك أن وصف قول ما، هو وصف لنوع الفعل الذي يتوخى القول تحقيقه (أمر، نهي، وعد، تمني، تدليل)، وكل فعل اعتقادي من شأنه أن يؤدي إلى فعل عملي مناسب وليس غريبا أن يقول كارناب "Carnap": "إن النحو الوصفي والدلالة تأسسا في الواقع على معارف تداولية".

وقد نظر كل من أوستين وسيرل إلى اللغة على أنها فعل تواصلي وحدته الأساسية الفعل اللغوي وليس الجملة، وفرق أوستين بين الجملة الوصفية والجملة الإنجازية، إذ تخضع الأولى لقاعدة الصدق والكذب، بينما تخضع الثانية إلى معيار النجاح أو الفشل، وهما مرهونان بعنصر المقام وهو الأمر ذاته الذي دعا إليه سيبويه، وعلى هذا الأساس قسم جميع الجمل اللغوية (أفعال، أقوال) إلى مستويين، مستوى مقالي (فعل القول)، ومستوى مقامي، ويتضمن (فعل إنجازي/وآخر تأثيري).

أكثر الخطابات نجاحا في عملية التواصل، هو ذلك الكلام الذي يدخل المتلقي في جو من الخطاب حتى يصبح وكأنه جزء من المقام، وحتى يحيط به المقام من كل جهة، فيضمه إلى عناصره، فيصير معاينا ومشاركا فيه، وهذا هو فن التصوير وهو تقنية جيدة لإنجاح عملية التواصل، ولا نعتقد أن سيبويه قد فاتته هذه التقنية، إذ نجده كثيرا ما يحرص على المقام، وقد أوردنا أمثلة ونصوصا كثيرة لا نود تكرارها –نذكر فقط بعضها- "مكة ورب الكعبة"، "القرطاس والله"، "الهلال ورب الكعبة"، "بنو فلان يطؤهم الطريق": تصوير أناس يقيمون بجانب الطريق، يكرمون كل من مر بهم، وينجدون كل من طلب نجدتهم، وهذه خصال العرب (الكرم، الشهامة، الشجاعة)، لذلك أسهب سيبويه في دراسته لتقنية الحذف التي هي خصيصة تلجأ إليها كل الأمم، وذلك أنه يكاد يكون ظاهرة مشتركة في اللغات الإنسانية.

- كتاب سيبويه لا يتحدث فيه عن أسماء الملوك أو الخلفاء أو الأسماء التاريخية، كما يغيب التواريخ التي تمت فيها الأحداث، وبذلك أصبحت لديه القابلية لاحتواء أي مقام جديد، وهذا الأمر معين لغاية الباحثين والدارسين للعودة إليه في كل حين، ولعل السر في ذلك هو تلك الشواهد التي يحتج بها على استنباط قواعده وتثبيت

أحكامه وصدق أقواله، خاصة وأن تلك الشواهد -كما سبق الذكر- قد اتسمت بالطابع الإنساني، ولأنها تمثل الاستعمال الحي للغة داخل المجتمع.

- ومن غير المحال مقارنة كتاب سيبويه بالكتاب المقدس، لأن كلام الله معجز لكلام البشر ومحيط بكل العلوم، ولكن من باب الاقتباس والقياس وإسقاط الدراسات اللغوية الحديثة وتحديد المصطلحات والمفاهيم، ولأن سيبويه كان طالبا للفقه والحديث في بداية أمره، ثم عكف طالبا علما لا يلحنه فيه أحد، وهو العلم الذي ضمن للغة العربية لغة القرآن الكريم سلامتها بوضع القواعد والأحكام الثابتة التي لا تخرج عن الاستعمال الحي للغة عند العرب في عصره، كل هذا يجعلنا نأخذ من بعض أوصاف كتاب الله عز وجل لنسقطها على كتاب سيبويه، وربما يكون هو نفسه قد قصد تسمية مؤلفه "بالكتاب" ليكون له شهرة واهتمام بين الناس، وربما سماه بالكتاب لأنه يجمع كل ما يمت للعرب بصلة بدءًا من القرآن الكريم وانتهاءًا بكلام العرب شعرها ونثرها.

إن ما جاء في كتاب سيبويه يتخطى حدود اللغة كما يتخطى حدود الزمان والمكان، والدليل على ذلك أنه لم يظهر كتاب منذ القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا فيه نحو جديد يضبط لنا لغتنا ويعوض ما جاء به سيبويه، ولهذا الأمر كتب لكتاب سيبويه الخلود.

اللغة تؤخذ استعمالا لا قاعدة، والتداولية هي دراسة اللغة أثناء الاستعمال وهذا الذي قام بتوضيحه سيبويه، إذ وجدناه لا يكتفي بتقديم الأمثلة من كلام العرب ليستخرج قاعدة ويثبت حكما، بل يستعين على ذلك بالشاهد القرآني ثم الشعري، ثم النثري، محتكما إلى كلام العرب الفطري الفصيح، أي معتمدا على الاستعمال اللغوي بكل ما يشوبه وما يسمه من مظاهر تحويل أو قلب أو استبدال أو غيرها من التقنيات التي لم نتمكن من حصرها كلها في بحثنا هذا، وإن كنا قد أدركنا بعد تتبعنا لموضوعات الكتاب، أن كل باب على حدة يمثل موضوعا للدراسة، ودراسة كل الأبواب في بحث واحد لا تكفيه لا الكتب، ولا يسعه الوقت، ولعلي بعد إنهاء بحث الأطروحة، سأتناول -إن شاء الله- في كل مرة بابا مع تنويع الدراسة، وذلك أن هذا الكتاب فتح شهيتي للبحث المتواصل والغوص في هذا البحر.

إن التواصل قبل أن يكون حركة نحو الآخر، فهو حالة ذاتية تنشأ من توفر مجموعة من العوامل تولد في نفسه الاستعداد للتواصل، فينظر إلى التواصل على أنه حتمية، وأساس لا تقوم الحياة إلا به، وبغية ذلك يستمد الفرد علاقاته مع الآخر على أن يكون التواصل الحق سلوكا اجتماعيا مشتركا.

ولقد أصبح الجميع يدرك تماما قيمة وضرورة الحوار والتواصل، لأنهما يوفران الاستقرار للبشرية جمعاء، فبفضل التعارف والاختلاف والتنوع، يتبادل البشر نتائج معرفية، ويستوعبون التجربة المكدسة عند الآخرين، فيؤدي التواصل دوره الخاص في العملية الاجتماعية للمعرفية، سواء على المستوى العلمي-النظري، أو على المستوى العلمي-التجريبي.

إن التواصل الإنساني -جملة- قائم على الحجاج إلى حد أن المرء ليسلم بأنه لا تواصل من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل، والمناولة الحجاجية لا تخلو من فاعلية في هتك أسرار الخطاب واستجلاء خباياه، وترسيخ قيم الحوار والإقناع واحترام الاختلاف، لأن الحجاج هو توجيه خطاب إلى متلق لأجل تعديل رأيه أو تغيير سلوكه أو هما معا، وهو لا يقدم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة.

ومن خلال التجارب اليومية، وقف الإنسان على مجموعة من العلاقات بفضل التقنيات التبليغية التي يستعملها، والتي تمس حقولا معرفية متنوعة، نفسية وثقافية واجتماعية، وسياسية وعلمية وكل ما له علاقة بالنشاط الإنساني، وسبيله في ذلك كله هو اللغة، لأنها تجسد التفاعل الحاصل بين قدرات الإنسان وعناصر الطبيعة وكياناتها، يفهم من هذا أن اللغة هي مادة الحجاج، والفكر هو الآلة التي تقوم بتحديد المبادئ والقواعد داخل أنساق تصورية تعبر عن العلاقات التي تنظم تلك القواعد وتلك المبادئ.

إن اللغة هي أول وأعظم الابتكارات التي تنطوي على أجنة كل الابتكارات اللاحقة، إنها -أي اللغة- تمثل أداة اقتصادية للتحكم في الأشياء والكائنات، وقد تكون الكلمة أشد فعالية وأفضل أداة أو سلاحا لأجل امتلاك الواقع، ولهذا فالتحكم أو التأثير في الإنسان

بواسطة اللغة هو ما يدعى بالحجاج، وعندما ينصب هذا التأثير اللغوي على الطبيعة والأشياء فإنه يختص بتسمية أخرى، وقد تكون هي: العمل أو التقنية أو العلم والتأثير في الإنسان بأداة أخرى غير اللغة ليس حجاجا، والأمر الأساس في أي مسعى تواصلي حجاجي يمثله قصد المتكلم.

- إن اللغة التي نتوسل بها في الحجاج هي من جنس اللغة الطبيعية التي طهرت من الشوائب ولقحت لجعلها جديرة بأن تكون موضع اتفاق بين المخاطبين، إذ لا تحمل إلا ما اتفقت عليه الأطراف المتواصلة، وهذا الذي نادى به سيبويه، بل وكان حجته في استنباط القواعد والأحكام، لأنه أجراها كما أجرت العرب كلامها، وكأنه يؤكد حقيقة موجودة لم يتفطن لها إلا القليل من العلماء بدءا من علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– ثم أبي الأسود الدؤلي، ثم شيوخه وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، وحجة سيبويه في كل ما ورد في متن كتابه هي كلام العرب الفصيح.

ولقد أثبتت كل الدراسات أن الحجاج بعد ملازم لكل خطاب، وهو عنصر كامن في اللغة، إن من حيث بنيته أو من حيث وظيفته، لذلك أصبح الحجاج فعلا كلاميا تجب دراسته في نطاق دراسة اللغة التي تعد مسرحا للمحاورة والنجاح بين الذوات المتواصلة، وتنحصر وظيفتها في دلالة الأقوال على التوجيهات الحجاجية الناتجة عنها، وكيفما يكون نوع الحجة (لغوية محضة، أو لغوية بلاغية أو عقلية صرفة)، فإن الأساس في ذلك أن الحجة لا يخلو منها خطاب وذلك أن:

أ. الحجاج بعد من أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة والمنطوقة كيفما كان نوعه (لساني، بلاغي، سياسي، قضائي...).

ب. الحجاج ظاهرة اجتماعية، وهو جهد إقناعي جوهري في اللغة التي تتوسل إقناع الآخر.

ج.الحجاج فعالية تداولية جدلية، تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب

إخبارية وتوجهات ظرفية، فهو جدلي، لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقةوالجوانب الصالحة في الحجاج هي أفعال خطابية لا علاقة لها بالمنطق الصوري.

وينهض الحجاج على ما يطلق عليه "تحليل الخطاب"، ولذلك وجدنا بيريلمان يقرر حضور الحجاج في كل الخطابات الاجتماعية والسياسية والقانونية والإشهارية، بل وفي جميع المناقشات العامة، أي إنه يغطي كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع مهما كان المتلقي ومهما كانت التقنية المتبعة، وطبيعة الموضوع الذي يدور حوله النقاش.

يخضع الخطاب الحجاجي ظاهريا وباطنيا لقواعد وشروط القول والتلقي، والدليل على ذلك أن كل خطاب مهما كان نوعه تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية، وبالتالي قيمة ومكانة أفعال الذوات المتخاطبة.

ولقد ركزنا على التداولية في بحثنا، لأنها ملتقى لمصادر أفكار وتأملات شتى، ثم إنها لا تعني اللسانيين وحدهم، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع إلى المناطقة، وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني، والفضل يعود إلى لسانيات القرن العشرين التي وحدت بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام خلافا لموضوعها المحدد في اللغة وحدها في محاضرات دي سوسير، واهتمت كذلك بالخطاب كونه يمثل أي إنتاج لغوي منظور إليه في علاقته بظروفه المقامية وبالوظيفة التواصلية التي تؤدى بها هذه الوظيفة في هذه الظروف.

وتهتم التداولية في عمومها بجميع شروط الخطاب معتمدة في ذلك أسلوبا ما في فهمه وإدراكه، وذلك بدراسة كيفية استخدام اللغة، وبيان الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلا بالاستعمال وشرح سياق الحال الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم.

موضوع التداوليات هو التواصل البشري المعتمد على دراسة المقام والشروط الملائمة لأداء الكلام وتوضيح العلاقة وكذا المقام والعلاقة بين المتكلم والسامع، وعلى هذا الأساس فالتداوليات اختصاص جديد في فعل الدراسات الإنسانية، لذا يقول جيلالي دالاش: "هي

لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية"، ولقد اعتمدناها في بحثنا لأنها تشرح وضعية التواصل وسياقه، وتفتح أبواب دراسة ما لم يقل، ودراسة الضمني من الحديث، فالحجاج مجال غني من مجالاتها لاشتراكه مع العديد من العلوم، على الرغم من أنه انبثق من المنطق والبلاغة والفلسفة.

- التلفظ هو الصوت المتحدث باسم المتكلم للتعبير عن أفكار معينة ضمن الخطاب الحجاجي، وبعد: فالحجاج ليس عنصرا خارجا عن اللغة أو يضاف إليها، بل هو يسري فيها سريانا طبيعيا، والقيمة الحجاجية لتلفظ ما ليست هي خلاصة أو نتيجة ما يقدمه من معلومات فقط، بل هناك أيضا الصيغ والتعابير التي تصلح لتوجيه حجاجي للقول وتوجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذاك، وإذا كان المتكلم يهدف إلى إقناع المخاطب أو إفادته بشيء يجهله، فإن المجال التداولي هو المجال الأرحب والأوسع للوصف الاستدلالي للمتكلم والمستمع الذي تدل عليه في الحجة أدوات لغوية خاصة.
- يرتبط الخطاب الحجاجي بالبعد التداولي على أساس أن الملفوظ دال ما دام يتموضع في مجتمع القائمين بتلفظه، ويمتلكون علاقة تخاطبية، وذلك أن الحوارية هي مكون لكل كلام، وكل كلام إلا وله مالكان، وسيدة الكلام الحواري هي العلاقة التخاطبية ذاتها.

ولقد عالجت التداولية الحجاج باعتباره فعلا تداوليا لا يمكن تفسيره دون إظهار مراتب المتكلمين وأدوارهم في أفعال الكلام، وأهمية السياق التخاطبي، بالإضافة إلى محاولتها تحديد الروابط الحجاجية باعتبارها أدوات إجرائية تعين على تحديد العلاقة الخطابية بين طرفي التواصل، كما وسعت اهتماماتها بالسلالم الحجاجية داخل المنطوقات، يستنتج من كل ما قيل ما يلي:

1. نظرية الحجاج في اللغة امتداد وتطوير لنظرية أفعال الكلام.

2. كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، فقط أن درجة وطبيعة الحجاج تختلف من نص إلى آخر ومن خطاب إلى غيره.
3. الخطاب والحوار هما المجال الحقيقي للحجاج، حيث تظهر وجوه استعماله وتنجلي طرائق اشتغاله.
4. الخطاب هو مجموعة من الحجج والنتائج.
5. للقول قيمة أكبر من مجرد نقل معلومة إخبارية.
6. الاستعمال الإقناعي ليس شيئا يضاف إلى اللغة، بل إنه موجود في نظامها الداخلي.

إن البحث فيما وراء اللغة نحوها وصرفها وأصواتها ودلالاتها، إنما هو بحث في النظرية العامة للغة، تلك النظرية التي تضيء للمشتغلين في اللغة طريقهم في التعليم والبحث معا، وذلك أن النحوي قاض بين الناس في كلامهم يحكم على صحة سبك كلامهم بالأدلة والبراهين، لأن الدليل مؤد إلى حكم، وإن كان في ذاته لا يمثل حكما، وهكذا فأدلة النحو ليست أحكاما، لكنها براهين مؤكدة وصحة الأحكام، وهذه البراهين يمكن أن يقع فيها الخلاف، لأنه يمكنها أن تقبل أو ترفض وتنقض بغيرها، شأنها في ذلك شأن الأدلة في القضاء إذالم تكن قطعية الدلالة، وبديهي أن توابع الأحكام من مستندات وتفسيرات وأدلة أكبر حجما من منظومة الأحكام نفسها، ومستندات الأحكام النحوية هي: القرآن الكريم، الحديث الشريف، الشعر والنثر، إضافة إلى القياس بوصفه تفسيرا عقليا وبرهانا إقناعيا، ولابد لكل قياس من مستند السماع، واحتذاء السماع يؤدي إلى استمرار النطق بكلام العرب المبني نحوها وصرفها على تقنين كلامهم، وذلك أن مصطلح الحجاج يدل على ما تصح به مصطلحات النحو وأحكامه وقواعده في الوجوب والجواز الامتناع، والميدان العام للحجاج ليس الضروري الصادق، لذلك فإن الحجاج فيما وراء الاستعمال هو المطلوب في النظرية النحوية الحديثة، وعلى هذا الأساس فمصطلح الحجاج النحوي أوسع من المصطلح الموروث المتداول في أعمال نحاة العربية وهو مصطلح "الاحتجاج"، وإطلاعنا على كتاب سيبويه جعلنا ندرك مدى حذق ووعي سيبويه في تجاوزه للنحو التعليمي إلى النحو العلمي الذي يبحث فيما وراء اللغة، نحوها، وصرفها، وأصواتها ودلالاتها.

- ولقد قسم كلام العرب إلى زمانين، إذ ما سبق زمن تقعيد القواعد النحوي يدعى شاهدا، وما تبع زمن التقعيد سمي مثالا، حيث تستمد القاعد النحوية مشروعيتها ومصداقيتها من العصر الأول لتعمل في مواصلة الحياة اللغوية للغة العربية في العصر الثاني، والزمان اللغوي هو مكان لغوي في الآن ذاته، وإذا كان الشاهد والمثال يشكلان الاتجاه النصي في الحجاج، فإن القياس متحلل من الإطار الزمكاني، ولكنه غير متحلل من الفضاء المعرفي، ومن هنا غدا للحجاج ركنان هما: السماع (الشاهد والمثال) والقياس، على أن النحوي عندما يقيس فإنه يحاول اكتشاف شيء جديد في الكون النحوي الواسع لا لمجرد الاكتشاف، وإنما لتفسير الحياة اللغوية للغة العربية على الأقل.
- توصلنا إلى العلة التي من أجلها أكثر سيبويه من الشواهد النحوية، وذلك أنه كان بمثابة من يقدم الصورة المتكاملة الأولى للنحو العربي، وحذا حذوه كل من أتى بعده، كالأخفش الأوسط، والمازني والمبرد، والزجاج، والزجاجي، والسيرافي، وأبي على الفارسي والروماني، وابن وهب، وابن جني، والجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم كثير.

وكان من الممكن التمثيل بشاهد أو شاهدين أو التقليل من الشواهد، ولكن خوفا من عقدة الاتهام التي لازمت النحاة، جعلوا من الشاهد تقنية تعليمية توضح قواعدهم وتعلل ضوابطهم وأحكامهم، فأثبتوا أن اللغة تقوم على المعاني فيما يقوم النحو على التراكيب والمباني، ولو اقتصر الأمر على المسموع والمنقول لتعذر التعبير عن كثير من المعاني التي لم يرد فيها سماع عن العرب، فلزم لذلك قياس ما لم يرد على ما ورد وكذلك الحال في الفقه.

علم اللغة مبني على السماع، وعلم النحو مبني على القياس، ولذا كانت مهمة اللساني تتوقف عند تلقي المادة اللغوية من مصادرها، وجمعها وتدوينها ولا يتعداها، وأما مهمة النحوي فتمثلت في استقراء تلك المادة وتبويبها واستنباط القواعد الكلية والقوانين العامة التي تندرج تحتها الفروع والقياس عليها، وبإطلاعنا على الكتاب وجدنا أن سيبويه قد أوكل لنفسه المهمتين، فهو لساني نحوي في الآن ذاته.

نستنتج أن دراسة الحجاج وتقنياته تكشف أن الحجاج يساهم بشكل كبير في تبليغ الخطاب إلى الأفراد والجماعات، وذلك أننا نتكلم بقصد التأثير والإقناع، وسبيلنا في ذلك استعمال اللغة الطبيعية التي تحمل في جوهرها بعدا حجاجيا تداوليا، مؤشرا لها في بنية تلك الأقوال والجمل، فالإنسان حينما يتكلم فإنه يمارس سلطة على المستمع وللكلام قوة تعبيرية وتحويلية للواقع بمختلف أشكاله لا تعادلها أي قوة، ولذلك فإن كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية تختلف من نص إلى آخر ومن خطاب إلى غيره كل حسب طبيعة ودرجة الحجاج المتوسل في تلك اللغة تبعا لنوع النص أو الخطاب المعالج.

إن الطرق المخصوصة والوجوه التي تظهر بها الفائدة في نظم الكلام، هي تلك التقنيات التبليغية التي سعى سيبويه إلى توضيحها من خلال مؤلفه الخالد "الكتاب"، وما أتى به في متن كتابه ينم عن المهارة والحس والإجادة، وهي الطريقة المثلى للتبليغ في الدرس اللساني الحديث.

والقصدية التي قال بها سورل: "هي ما يشكل ذاتية المتكلم نفسه، فالحالات القصدية هي مضامين تمثيلية تأتي على شكل موجهات (Modes) سيكولوجية هي بمثابة خصوصية جوهرية للذهن البشري تعمل على الربط بين الحالة القصدية والأشياء التي تمثلها".

ولذلك فكل حالة قصدية لا تحدد بشروطها الناجحة إلا بإقحامها داخل شبكة من حالات قصدية أخرى، تكون الخلفية العلمية للمتكلم قبل القصدية اللحظية، ولا يمكن الانتقال من القصد القبلي إلى الفعل إلا عن طريق نظام سببي هام يؤدي إلى ذلك.

- لقد أصبح مهما اليوم دراسة الإنجاز، أي أن ينصب الاهتمام على الأدوات والمكونات الداخلية التي تشكل الفعل (إنجازي أو خبري) من جهة أخرى، وهذا لا يعني الأشكال التركيبية الجامدة أو المنطقية الشكلية، بل النظر إلى إشكالية أساسية تتعلق بالتحول الخارجي والتأثير الذي يحدثه فعل القول على المتكلم أو المستمع، انطلاقا من استعمال التقنيات اللغوية باعتبارها تدخلا ذاتيا في القول المرتبط بالوقائع الخارجية للعالم.

وإن كان أوستين يرى أن إحداث التلفظ هو إنجاز لفعل وإنشاء لحدث، والحدث عند دايك هو "كل تعبير يستلزم اختلافا في الأحوال أو العوالم أو المواقف، ويخضع تعريف الأحداث لعرف الجماعة وتحديدها، فقد تحدث عن ذلك سيبويه في أول باب من كتابه"، اتفاقا مع ما يقول دايك من أن الفعل "كل حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني"، ويشعر المتلقي لكتاب سيبويه أنه المعني الأول بالخطاب، ولذلك فهو يتقدم بنية الفهم والإدراك والتدبر، وربما لهذا الأمر وجد خطابه طريقه إلى الواقع الخارجي المتمثل في التحصيل العلمي والإطلاع على فصاحة العرب قبل أن تختلط بلغة الأعاجم.

- يستنتج المتلقي لكتاب سيبويه أنه خطاب موجه لكل متمسك بقداسة اللغة العربية، لغة القرآن هذا من جهة، ومن جهة أخرى حبا في التزود بنظام اللغة العربية وبكل ما يكتنفها من حذف، وتقديم وتأخير وإضمار وتضمين وحجج وغيرها من التقنيات التي يستعملها المتكلم قصد تبليغ خطابه إلى المستمع، إما بغرض الإخبار فقط، أو بغرض تعليمي أو إرشادي أو كشفي أو إقناعي لكل ما تمتاز به اللغة، هذه الأداة العجيبة التي لا يستغني عنها مجال من مجالات الحياة.

إن التقنيات التبليغية الحجاجية-الاستدلالية أو اللسانية-البلاغية، لا تستطيع في حقيقة أمرها إلا مد اللغة بمرونة نسبية تضمن لها مسايرة المعاني، إذ لو أحاطت المباني بالمعاني باعتماد وسائل معينة، لاندثر التفاعل الفردي والشخصي مع اللغة، ولأصبحت اللغة محدودة ومسكوكة، تحفظ وتستعمل كما تحفظ، وبالتالي تصبح وسيلة جامدة كغيرها من الوسائل الثابتة كوسائل الحدادة والنجارة.

ولعل من أجلِّ الوسائل اللغوية الإبداعية عند الفرد هو استعمال المجاز، لأنه يكسر المعيارية ورتابة اللغة الجماعية ليصنع لنفسه لغة جديدة خاصة به عليها بصماته الخاصة وتميزه عن غيره.

واعتمادا على قلة المباني وكثرة المعاني لابد في التعامل مع اللغة من التوليد، وتكثير الحروف والكلمات والتراكيب حتى يحيط الإنسان اللغة -بشكل نسبي- بتهاطل المعاني وتجددها.

- الغاية من الحذف هي نقل المخاطَب من متلق حيادي للخطاب إلى مشارك فيه، ومنجز له، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالمتكلم يفرض على المتلقي الاهتمام بالعملية التواصلية بجميع أطرافها، وذلك أن تحديد الحذف وتقديره يعتمد على أشياء كثيرة منها: طبيعة اللغة، قصد المتكلم، طبيعة الفكر، نوع المقام وقدرة السمع على الفهم والتدبر والتقدير، ويفترض الحذف معرفة المستمع بجهات حسن الكلام، وإذا تم الحذف أصبح منطقة مشتركة بين المتكلم والمخاطب.

الحذف من التقنيات التي تحرك مخيلة المستمع، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أكثر، ويتجلى أثره في تفاعل كل الجهات التواصلية، متكلم، سامع، خطاب ومقام، ومن الأبعاد التواصلية للحذف -كذلك- أنه طريقة من طرق تكثير الدلالات وتجديدها وفق المستوى اللغوي والعلمي والثقافي للمتلقي، وبذلك يصبح الخطاب خطابا واحدا باعتبار المتكلم، وخطابات متعددة وثرية باعتبار المتلقي.

عمد سيبويه إلى تقنية الالتفات في عرضه لموضوعات كتابه، وإن كان بعض العلماء يؤاخذه على الانتقال من باب إلى غيره دون اكتمال الحديث في الباب الذي قبله، معتبرين ذلك خلطا أو غموضا، فإننا نعتقد أنه قصد من وراء هذه التقنية التنويع في موضوعات كتابه، لإدراكه قيمة الالتفات، وتجنبا للضجر والملل الذي هو طبيعة البشر من بعض الأمور الجامدة الثابتة، ونلمس هنا دعوة من سيبويه إلى استدامة التواصل مع ما جاء في كتابه، وهي التفاتة قلما نجدها عند معظم الدارسين والباحثين، وكأنه لا يلتفت إلى مجرد نقل الاستعمال اللغوي العربي، وإنما يهتم أيضا بمتلقي كتابه، وبذلك فإن الالتفات هو فن التنويع الذي يمنع الفتور والوهن عند المتلقي، لذلك وجدنا سيبويه ينتقل من باب إلى باب في تناسق كبير،

بحيث لا يشعر المتلقي لكتابه إلا بالأثر الإيجابي لتلك التقنية، وهذه الخطوة لا يلتفت إليها إلا متمكن بارع، إذ الالتفات تقنية من تقنيات استمرار التواصل.

ولعل سيبويه وهو يؤلف كتابه، كان يضع نصب عينيه المتلقي وما قد يتبادر إلى ذهنه من أسئلة، لذلك وجدناه في كثير من المواطن يضع نفسه مكان المتلقي، فيطرح أسئلة ثم يجيب حسبما توقعه، وهو يشير إلى باب أو ظاهرة لغوية من الظواهر التي تناولها بالدرس والشرح والتحليل والتعليل، وخوفا من أن يعترض متلق على ما أودعه كتابه، كان يعلل كلامه أو يباشر في عرض كل قضية بأن هذا من استعمال العرب للغتهم الفصيحة، أو أنه سمعه ممن يثق به من العرب، أو من أحد شيوخه الذين أخذ عنهم الفقه والحديث واللغة، ثم يستشهد بالقرآن الكريم، لأن لا أحد يشك في كلامه جل وعلا، ثم بالشعر الذي كان ديوان العرب آنذاك، ثم بنثر العرب وذلك أنه يخاطب ابن اللغة، وبعد أن يزيل عن المتلقي الشك أو التردد أو التساؤل يعود إلى الموضوع الذي كان قد أخذ في شرحه وتحليله، وكل ذلك في تلاؤم تام، وبذلك فهو يأخذ بيد المتلقي لمواصلة الاستمتاع أو القراءة والتركيز في كليهما.

وهناك أيضا تقنية التكرار التي وجدناها تتعلق بسيبويه كونه متكلما ونحن متلقون، وقد لجأ إلى التقنية ليس لافتقاره اللغوي، وهو العبقري البارع المتمكن من اللغة بكل ما تعلق بها، ولكن من أجل أن:

1. نتواصل مع تراثنا العربي الأصيل.
2. نتواصل معه من خلال كل ما جاء في متن كتابه.
3. نتأكد من أن اللغة العربية القديمة أرقى في الاستعمال مما هي عليه الآن، بسبب ما داخلها من مصطلحات جديدة.
4. أن نفتخر بتراثنا ونعتز به ونعمل على الحفاظ عليه.
5. أن نمتلك كفاءة لغوية تساعدنا على الإبداع وإدراك عمق اللغة والاستعمالات المتنوعة.

6. نتأكد من أن للعربية أساليب مختلفة ومتنوعة وراقية، حتى نتمثلها في إبداعاتنا نحن وكل من له ذوق رفيع.
7. أن نتذوق الشعر، ونتمكن من التأويل، وأن نستعين بتلك التقنيات التي يزخر بها متن كتابه
8. وأن نجني فوائد كثيرة عزيزة عن الحصر، لذلك وجدناه يكرر في أكثر من موضع الأمثلة نفسها أو الشواهد نفسها، ولكن الأغراض والتعليلات تختلف كل حسب المقام والقضية التي يريد معالجتها، ودليلنا على "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، إذ يمكن استخراج قواعد كثيرة متعددة ومختلفة من كل مثال أورده، وقد عرضنا إلى ذلك في أكثر من موضع من هذا البحث.
9. أن يضمن وصول رسالته إلى كل المتلقين، بل وعلى الوجه الذي يريده.

وبهذا، ينتهي رحثي الذي لا أدّعي فيه أنني قد استوفيت حقه كما ينبغي، ولكني حاولت، وبذلت كل ما استطعت إليه سبيلا في ذلك، فإن كان قد بلغ الذي أردت، فذلك من فضل الله الذي تعد فضائله علينا ولا تحصى، وله الحمد وحده على نعمة التوفيق، وإن لم يكن الأمر كذلك، فحسبي أني حاولت واجتهدت، وصبرت وبذلت، وسعيت ما وسعه السعي وعلى الله قصد السبيل، وهو الموفق والهادي إلى سواء الصراط، والله وحده أعلم بالصواب وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في البدء والختام والحمد لله رب العالمين أولا وأخيرا.

مكتبة البحث

القرآن الكريم .

أ. المصادر والمراجع باللغة العربية:

1. ابن السراج ومذهبه في النحو (دراسة في كتاب الأصول)، أحمد مطر العطية، دار الصحوة، القاهرة، ط1، 2009
2. أبنية الصرف في كتاب سيبويه، د. خديجة الحديثي، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1965
3. اتجاهات البحث اللساني، مليكا إفيتش، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1996
4. إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد، محمود شكري الألوسي (ت1342هـ)، تح: عدنان الدوري، وزارة الأوقاف العراقية، د.ط، 1402هـ
5. الاتصال والسلوك الإنساني، برنت روبن، ترجمة: نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية، جامعة الملك سعود، معهد الدراسات العامة، دط، 1991
6. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت911هـ)، تقديم وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط5، 2002
7. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، د.ط، 1998
8. أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت
9. أثر سياق الكلام في العلاقات النحوية عند سيبويه، سارة عبد الله الخالدي، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 2006
10. إحكام الفصول في أحكام الأصول، الباجي أبو الوليد، تح: عبد المجيد تركي، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1995
11. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1981
12. أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي (ت368هـ)، تح: فرنسيس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1936
13. أدب المفتي والمستفتي، عثمان بن عبد الرحمن، دار الوفاء، المدية، الجزائر، د.ط، د.ت
14. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، (محمد بن علي بن محمد ت1225هـ)، دار الفكر، دط، دت
15. أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، دار صادر،1979، مادة (خطب)

16. أساسيات علم الكلام (الجانب الفيزيائي والتشريحي لعملية السمع)، جوليا بوردن وكاثرين هاريس ولورانس رافائيل، ترجمة: محي الدين حميدي، دار الهدى للثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1998

17. الاستدلال في معاني الحروف، دراسة في اللغة والأصول، أحمد كروم، المطبعة والوراقة الوطنية، ط1، 2000

18. إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004

19. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، تقديم: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت

20. أسرار التكرار في القرآن الكريم، ابن حمزة الكرماني (محمود بن حمزة ت خلال القرن السادس)، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة، تونس، دط، دت

21. الأسس المنهجية بالنسبة للنحو العربي (دراسة في كتاب إعراب القرآن)، د. حسام أحمد قاسم، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1،2007

22. الأسلوبية والأسلوب "نحو بديل ألسني في نقد الأدب"، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، دط، 1977

23. الإشارات الجسمية (دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل)، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1991

24. الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1984

25. إشكالات النص (دراسة لسانية نصية)، جمعان بن عبد الكريم، النادي الأدبي بالرياض، بيروت، ط1، 2009

26. إشكالية القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، دط،1996

27. إشكالية تعلم مادة النحو العربي في الجامعة، حمار نسيمة، منشورات مخبر الدراسات اللغوية في الجزائر، جامعة تيزي وزو، الجزائر، 2011

28. الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، د. أحمد سعد أحمد، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا، القاهرة، ط2، 2009

29. أصول الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986

30. أصول الفقه، د.محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط، 1958

31. الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1997

32. الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1983

33. الأصول، السرخسي (أبو بكر محمد بن أحمد)، حقق أصوله: أبو الوفاء الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، دط، دت،

34. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، دت

35. أعلام الفكر اللغوي، التقليد اللغوي القرآني، كيس فريستيج، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديدة، لبنان، ط1، 2007

36. الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين محمد الأنباري، تح: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط2، 1981

37. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د.محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 2002

38. الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، د. علي محمود حجي الصّرّا، مكتبة القاهرة، دط، 2010

39. الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية)، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2011

40. الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998

41. الاقتراح في علوم أصول النحو، السيوطي، قرأه وعلق عليه: محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 2006

42. الألسنية (علم اللغة الحديث)، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983

43. آليات التواصل في الخطاب القرآني، بلقاسم حمام، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة باتنة، الجزائر، 2005

44. الأمر والنهي في اللغة العربية، الزهري نعيمة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، دط، 1997،

45. إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي (جمال الدين عبي بن يوسف)، تح: محمد أبي الفضل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986

46. الانتصار لنقل القرآن، الباقلاني (أبو بكر ت403هـ)، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، دط، دت

47. الإنسان نشاط وتواصل، لودميلا بويفا، ترجمة:زياد الملا، دار دمشق للطباعة، ط1، 1983

48. الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت

49. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، منشورات كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، د.ط، د.ت

50. الإيضاح في علل النحو، عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت339هـ/950م)، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1979

51. البحر المحيط لأثير الدين، أبي حيان الأندلسي النحوي، نشر مكتبة النصر الحديثة، الرياض، السعودية

52. البديع تأصيل وتجديد، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ط، 1986

53. البرهان في أصول الفقه، إمام الحرمين الجويني، حققه وقدمه ووضع فهارسه: عبد العظيم الديب، دار الأنصار، القاهرة، ط2، 1400هـ

54. البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1972،

55. البرهان في وجوه البيان،ابن وهب أبو الحسن إسحاق، تح: جفني محمد شريف، مكتبة الشباب، مصر، دت، دط

56. البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تح: محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1970

57. بغية الإيضاح للقزويني، تحقيق وشرح: الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالقاهرة، د.ط، د.ت

58. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، مطبعة السعادة، مصر،ط1، 1326هـ

59. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، د. إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1985

60. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999

61. البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، القاهرة، دط، 2000

62. البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط2، 1961
63. تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1974
64. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهبم حسن، مكتبة النهضة بالقاهرة، ط3، 1953
65. تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، القاهرة، دط، دت
66. التأريخ النصي للنحو العربي من خلال مفهوم الإضافة، د. عبد السلام العيساوي، منشورات كلية الآداب، منوبة، دار سحر للنشر، تونس، ط1، 2004
67. تاريخ بغداد أو مدينة السلام، أبو الخطيب البغدادي، مطلعة السعادة بمصر، ط1،1931
68. تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، تأليف جورج مونان، ترجمة: بدر الدين قاسم، مطبعة دمشق، د.ط، 1972
69. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، أمرتوإيكو، ترجمة وتقديم: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2004
70. تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، د.ت
71. التحرير والتنوير، ابن عاشور (محمد الطاهر)، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984
72. تحفة الأديب في نحاة معنى اللبيب، السيوطي جلال الدين، تح: حسن الملخ وسهى نعجة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2005
73. تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1989
74. التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993
75. التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2008
76. التراكيب غير الصحيحة نحويا في كتاب سيبويه، دراسة لغوية، د. محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1985
77. تطور الدرس النحوي، د. حسن عوني، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة البجيلاوي، د.ط، 1970

78. تعدد المعنى في القرآن الكريم، ألفت يوسف، دار صحر للنشر، كلية الآداب، منوبة، تونس، ط1، 2003
79. التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني (ت716هـ)، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1992
80. التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1998
81. التعريفات، الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983
82. التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، فخر الدين أبو عبد الله بن عمر بن الحسين الرازي، تقديم وشرح: الشيخ خليل محي الدين الميس، دار الفمر، بيروت، دط، 1995
83. التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء، التحليل، التفسير، حسن الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2002
84. التفكير اللساني في الحضارة العربية، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 1981
85. التقديم والتأخير في بناء الجملة عند سيبويه في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، د. أشرف السعيد السيد خضر، الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009
86. تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، دار المغرب، المغرب، دط، 2000
87. التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)، عبد العزيز الدوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1986
88. التلقي والتأويل،محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، سنة 2001
89. تهذيب اللغة للأزهري، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتب العربي، بيروت، 1967
90. التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بومزبر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007
91. تيارات في السيمياء، عادل فاخوري، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1990
92. ج. هيوسلفرمان، نصيات بين الهيرمنوطيقا والتفكيكية، ترجمة: حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002
93. الجمل في النحو، الزجاجي عبد الرحمن بن إسحاق، تحقيق: علي الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984

94. جوانب من نظرية النحو، تأليف (نوام تشومسكي)، تر: مرتضى سعيد باقر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، د.ط، 1986
95. الحجاج في الشعر العربي القديم، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008
96. الحجاج والاستدلال الحجاجي، دراسات في البلاغة الجديدة، حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011
97. حضارة العراق، مبحث اللغة والنحو، د. خديجة الحديثي، دار الحرية، بغداد، 1985
98. الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، عبد العالم سالم مكرم، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، 1977
99. حوار حول الحجاج، د. أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010
100. الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، إفريقيا الشرق، ط1، 2004
101. الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 2003
102. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شرح الكافية لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت1093هـ)، دار صادر، بيروت، ط1
103. الخصائص، ابن جني (ت392هـ)، تح: محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط1، 1956
104. الخصائص، ابن جني، تح: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، سيدنا الحسين، 1418هـ
105. الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د.ط، 1990
106. الخصائص، أبو الفتح ابن جني، تح: محمد النجار، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان د.ط، د.ت
107. الخطاب والمترجم، باسل حاتم، وميسون إيان، تر: عمر فايز عطاري، جامعة الملك سعود، الرياض، ط1، 1998
108. خطابات الحداثة، مانويل ماريا كاريلو، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين الخطاب، منشورات دار ما بعد الحداثة، فاس، ط1، 2001
109. الخطابة العربية، أصولها وتاريخها في أزهر عصورها، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، دت
110. الخليل بن أحمد الفراهيدي، أعماله ومنهجه، د. مهدي المخزومي، مطبعة الزهراء، بغداد، د.ط، 1960
111. دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية)، ج16، الطبعة العربية، ج4

112. دراسات في اللسانيات، ثمار التجربة النحوية، د. هادي نهر، جامعة جدازا، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011

113. دروس في الألسنة العامة، فيردينان دي سوسير، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1985

114. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001

115. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تقديم: رشيد محمد رضا، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 1992

116. دلتاي وفلسفة الحياة، د. محمود سيد أحمد، القاهرة، د.ط، د،ت

117. ديوان جرير، المطبعة العلمية، مصر، 1313هـ

118. الديوان، جرير، دار صادر، بيروت، دت، دط

119. رؤى لسانية في نظرية النحو العربي، د. حسن خميس الملخ، دار الشروق، عمان، ط1، 2007

120. الرائد المعجم اللغوي الأحدث، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط8

121. رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، دط، دت

122. الرسالة، الإمام الشافعي (الإمام أب عبد الله محمد بن إدريس ت204هـ)، تحقيق وشرح وتعليق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2009،

123. الرواية والاستشهاد باللغة، دراسة لقضايا الرواية والاستشهاد في ضوء علم اللغة الحية، د. محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، 1972

124. روح المعاني، الآلوسي، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1983

125. سر الفصاحة لابن الخفاجي، شرح وتعليق: الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح، د.ط، 1969

126. سلسلة أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر العربي، محمد عطية الأبراشي، وأبو الفتوح محمد التوانسي

127. السمعيات العربية في الأصوات اللغوية، د. سعاد سناسي، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، الجزائر، 2012

128. سوسيولوجيا اللغة، بيار أشار، تعليق: عبد الوهاب ترو، منشورات عويدات، بيروت، د.ط، 1996

129. سيبويه إمام النحاة، د. علي النجدي ناصف، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، 1953

130. سيبويه إمام النحاة، د. علي النجدي ناصف، مكتبة نهضة مصر، بالفجالة، د.ط، د.ت

131. سيبويه جامع النحو العربي، د. فوزي مسعود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1986
132. سيبويه، حياته وكتابه، أحمد أحمد بدوي، جانفي، صحيفة دار المعارف للعلوم، مصر، 1948
133. سيمياء التأويل، رشيد الإدريسي، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2000
134. الشاهد في أصول النحو، خديجة الحديثي، الكويت، دط، 1974
135. شرح ابن علي ألفية ابن مالك ومعه كتاب منحة الجليل، محمد محي الدين عبد المجيد، تح: شرح ابن عقيل، دون بيانات، ط2
136. شرح أبيات كتاب سيبويه للسيراطي، تحقيق: د. محمد علي سلطاني، دار العصماء، سورية، ط1، 2010
137. شرح الكافية، الرضي الاستربادي، تح: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2000
138. شرح ديوان أبي تمام، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1981
139. شرح كتاب سيبويه، الحسن بن عبد الله السيرافي، تح: أحمد حسن مهدي وعلي سيد علـــي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008
140. شواهد الشعر في كتاب سيبويه، د. خالد عبد الكريم جمعة، مكتبة دار العروبة، الكويت، القاهرة، 1980
141. الصاجبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس أحمد زكريا، حققه وقدم له: مصطفى الشويمي، مؤسسة "أ" بدران للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1963
142. الصحاح للجوهري، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بـــيروت، ط3، 1984
143. طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر محمد الحسن الزبيدي، تح: محمد أبو الفضـــل إبـــراهيم، دار المعارف، مصر، دط، دت
144. طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (ت231هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المـــدني، القاهرة، د.ط، 1974
145. ظاءات القرآن، المقرئ أبو العباس أحمد، شرح الإمام أبي طاهر التيجيني البرقي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1991
146. ظاهرة قياس الجمل في اللغة العربية بين علماء اللغة بين القدامى والمحدثين، د. عبد الفتاح حســـن علي البجة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1998
147. العربية وعلم اللغة البنيوي، دارسة الفكر اللغوي العربي الحديث، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 1996

148. العقل وفهم القرآن، الحارث بن أسد المحاسبي، تح: حسن القوتلي، دار الندى، ط3، 1982
149. علم الإعلام اللغوي، عبد العزيز شرف، دار لونجمان للطبع، مصر، دط، 1995
150. علم الدلالة، بيار غيرو، ترجمة: أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1986
151. علم اللغة الاجتماعي (مفهومه وقضاياه)، صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، د.ط، 1995
152. علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط3، 1997
153. علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، دار غريب، مصر، القاهرة، دط، 1995
154. علم اللغة الاجتماعي، هدسن، ترجمة: عبد الغني عياد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987
155. علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ترجمة: د. عزيز سوئيل يوسف عزيز، دار آفاق العربية، بغداد، د.ط، 1981
156. علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ترجمة: د. يوئيل يوسف عزيز، دار الآفاق العربية، بغداد، د.ط، 1985
157. علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، بيت الحكمة، الموصل، العراق، 1988
158. علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، فان دايك، ترجمة وتعليق: محمد سعيد البحيري، جمهورية مصر العربية، ط1، 2001
159. علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، د.ط، 1997
160. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، قدم له وشرحه، د. صلاح الدين الهواري، وأ. هدى عودة، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996
161. عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني، عبد القادر الفاسي الفهري، دار تلقال للنشر، المغرب، ط2، 1993
162. عناصر النظرية النحوية في كتاب سيبويه، سعيد حسن بحيري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1989
163. فجر الإسلام، أحمد أمين، القاهرة، ط8، 1981

164. الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، تح: بجنة إحياء التراث العــربي في دار الآفــاق الجديــدة، بيروت، لبنان، ط4، 1997

165. الفهرست، النديم أو الفرج (385هـ)، تحقيق: رضا تجداد بن علي بن زيــن العابــدين الحــائري المازندراني، ط3، 1988

166. في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الــدار البيضــاء، المغرب، ط2، 2000

167. في أصول النحو العربي، السعيد شوقة، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط1، 2008

168. في الجانب التاريخي لعلم الاتصال، برنت روبن، ترجمة: نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية، جامعة الملك سعود، معهد الدراسات العامة، 1991

169. في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، د. خليفة بوجادي، بت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2008

170. في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، منشورات المكتبة العصرية، صــيدا، بــيروت، ط1، 1964

171. في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1999

172. في تحديد مفهوم الخطاب، د. كمال عمران، المجلة العربية للثقافة، مجلة نصف ســنوية (مــارس-سبتمبر)، العدد 28، 1995

173. في حياة الجاحظ، كتاب، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، شارل بلا، ترجمــة: د. إبــراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية، دمشق

174. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط11، 1985،

175. في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، حكمت صباغ، دار الآفاق للنشــر، بــيروت، ط3، 1985

176. في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمايرة، عالم المعرفة، جدة، ط1، 1404هـ/1984م

177. القاموس المحيط، 3/106-107، مادة (بلغ)

178. قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، محمد عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1996

179. قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، تح: محمد الوالي ومبارك حنوز، دار توبقــال للنشــر، الــدار البيضاء، ط1، 1988

180. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، أحمد المتوكـــل، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 2001

181. القول الشعري، د. يمني العيد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987

182. القياس في النحو العربي، نشأته وتطوره، د. سعيد جاسم الزبيري، دار الشروق للنشر والتوزيـــع، عمان، الأردن، ط1، 1997

183. الكتاب (أبو بشر عمرو بن قنبر)، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت

184. كتاب الصناعتين، العسكري (أبو الهلال حسن)، تح: علي محمد البجاوي ومحمـــد أبـــو الفضـــل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952

185. الكتاب بين المعيارية والوصفية، د. أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1989

186. الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت

187. الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، ط3، 1408هـ/1988م

188. الكتاب، سيبويه، شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991

189. الكتاب، سيبويه، شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1982

190. كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، تح: لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1977

191. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل، الزمخشري محمود بن عمـــر (ت528هـ)، دار الفكر، دمشق، دط، دت

192. الكليات، لأبي البقاء الكفوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، د.ط، 1982

193. الكنوز الذهبية في شرح وإعراب شواهد سيبويه الشعرية، حمدي علي المهـــدي، مطبعـــة الآداب، النجف الأشرف، ط1، 1964

194. لحن العوام، أبو بكر محمد الزبيدي، تح: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القـــاهرة، ط2، 2000

195. لسان العرب، 419/8، مادة (بلغ)

196. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن منظور، دار بيروت للطباعـــة والنشـــر، (د.ط، د.ت)، مـــادة (خطب)

197. اللسان والقاموس، مادة (خ ط ب)

198. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998

199. اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، د. سمير شريف، استيتية عالم الكتب الحديث، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2005

200. اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، د. أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، د.ط، 1989

201. اللسانيات واللغة العربية، عبد القادر الفاسي العربي، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1986

202. اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، جورج لايكوف، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 2008

203. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت

204. اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، مدونة المحاضرات الملقاة عام 2000

205. اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ط، 1989

206. اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000

207. اللغة والخطاب الأدبي، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992

208. اللغة والمنطق: بحث في المفارقات، حسان الباهي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000

209. اللمع في أصول الفقه، للشيرازي، تح: محمد ياسين عيسى، القاهرة، د.ط، 1907

210. ما الأدب، جاندويل سارتر، ترجمة: د. محمد غنيمي هلال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1971

211. مباحث في النظرية الألسنية وتعلم اللغة، ميشال زكريا، طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، لبنان، د.ط، د.ت

212. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد الموصلي ابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1990

213. المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين المنع والإجازة، د. عبد العظيم المطغى، مكتبة وهبة، ط1، 1985

214. محاضرات في اللسانيات العامة، فرديناند دي سوسير، ترجمة: يوسف عازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ط، 1984

215. المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، دار الحكمة، دط، 2002
216. المدارس النحوية، خديجة الحديثي، دار الأمل، أربد، الأردن، ط3، 1422هـ/2001
217. المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، 1972
218. مدخل إلى التداولية، جيلالي دلاش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
219. مدخل إلى اللسانيات، د. محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط1، 2004
220. مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1980
221. مدخل إلى علم لغة النص، فولفجانيج هاني همان وديتر فيهفجر تر وتح: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2004
222. مدخل إلى نظريات الاتصال المعاصرة، محمد مزيان، منشورات دار لالة سكينة، الجزائر، ط1، دت
223. مراتب النحويين، أبي الطيب النحوي
224. المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، مجموعة من العربتين، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، المغرب/لبنان، دط، 2000
225. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، شرح وتعليق: محمد جاد الموالي بك، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 1987
226. المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت
227. المسائل العسكريات في النحو، الحسن بن أحمد أبو علي النحوي (377هـ)، دراسة وتحقيق: علي جابر المنصوري، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1، 1982
228. المستصفى من علم الأصول، الإمام أبو حامد الغزالي محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)، اعتناء عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008
229. مشكلة خلق القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد الشفيع الماحي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع 16، 1998
230. المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت
231. المعارف الإسلامية، ابن قتيبة، تح: سالم الكرنكوي حيدر أباد، 1353
232. معالم التفكير في الجملة عند سيبويه، د. محمد عبدو فلفل، دار العصماء، بيروت، ط1، 2009
233. معاني القرآن، الفراء (أبو زكريا يحي ت207هـ)، تح: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار سرور، بيروت، لبنان، دط، دت
234. المعتمد في أصول الفقه، أبو الحسن البصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت

235. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: د. أحمد فريد رفاعي ، دار المأمون، القاهرة، دط، دت
236. معجم المصطلحات اللغوية، د. خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط5، 1995
237. معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د. محمد نجيب اللبدي، مؤسسة الرسـالة، بـيروت، دار الفرقان، عمان، د.ط، 1985
238. المعجم الوسيط، 70/1، مادة (بلغ)
239. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط3، 1985
240. معجم مقاييس اللغة، 201/1-202،مادة (بلغ)
241. معرفة اللغة، جورج يول، ترجمة: محمد فراج عبد الحافظ، نشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشـر، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ت
242. المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1998
243. معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد الغزالي، تحقيق: حسين شرارة، دار الأندلس للطباعة والنشـر، بيروت، 1964
244. مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بـيروت، لبنـان، ط2، 1981
245. مفتاح العلوم، السكاكي أبو يعقوب يوسف (ت 626هـ)، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000
246. مفتاح العلوم، السكاكي، مطبعة مصطفى الحلبي، ط1، 1937
247. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تح: محي الدين عبد المجيد، المكتبة العصرية، صـيدا، بيروت، لبنان، د.ط، 1991
248. المفصل في تاريخ النحو العربي، د. محمد خير الحلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1963
249. المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري (ت528هـ)، ق-ب: د. علي بملحم، دار ومكتبة الهـلال، بيروت، ط1، 1993
250. المفصل، موفق الدين بن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ط
251. مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بـيروت، لبنـان، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1996
252. مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، نصر أبو زيد، مجلة فصول، المجلد 5، العدد 01، 1984

253. المقاربة التداولية، فرانسواز أرمنيكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، المغـــرب، د.ط، د.ت
254. المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينيكو، تر: سعيد علوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
255. المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، إبراهيم بن موسى الشاطبي، باعتناء معهـــد البحـــوث العلمية، ومركز إحياء التراث في جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 2007
256. المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، محمد العمري، مجلة دراسات ســيميائية أدبيـــة لسانية، مطبعة النجاح، المغرب، العدد 05، 1991
257. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، د.ط، 1979، مادة (خ ط ب)
258. المقتضب، المبرد محمد بن يزيد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت
259. مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمود، منشورات كلية الآداب والفنـــون والعلـــوم الإنسانية، تونس، د.ط، د.ت
260. المقدمة، ابن خلدون (ت808هـ)، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائـــر، دط، 1984
261. المقدمة، ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، نسخة محققة، دار الفكر للطباعة والنشـــر والتوزيـــع، بيروت، لبنان، ط1، 2003
262. مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، د. جعفر عباينة، دار الفكر، عمان، د.ط، 1974
263. ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل لاين حزم الأندلسي، تـــح: ســـعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1969
264. من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1978
265. من تاريخ النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1978
266. من مناهج البحث في اللسانيات واللغويات المعاصرة، سيبويه والأخفـــش الأوســـط، د، هـــدى جنهويشني، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، دط، 1425هـ/2004م
267. مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، د.ط، 1979
268. المنصف، شرح أبي الفتح ابن جني لكتاب التصريف للمازني، تح: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1954
269. المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، د. علي سامي النشار، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1965

270. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقويم وتحليل: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1985
271. المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998
272. المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. نوزاد حسين أحمد، دار دجلة، عمان، ط1، 2006
273. منهج سيبويه في الاحتجاج بالقراءات ولها، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، د.ط، 2010
274. منهج سيبويه في الاستشهاد بالقرآن الكريم وتوجيه قراءاته ومآخذ بعض المحدثين عليه، دراسة نقدية تحليلية نحوية وصرفية، د. سليمان يوسف خاطر، مكتبة الرشيد (ناشرون)، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 2008
275. منهجية الحوار والتفكير النقدي، حسان الباهي
276. الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، د. محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، 2001
277. موجز تاريخ علم اللغة، روبنز، ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، عدد 227، الكويت، 1997
278. موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، التهانوي
279. النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج)، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، د.ط، 1988
280. النحو العربي والدرس الحديث، د. عبده الراجحي، بيروت، د.ط، 1979
281. النحو العربي: أصوله وأسسه وقضاياه وكتبه مع ربطه بالدرس اللغوي الحديث، د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، ط1، 2009
282. نزهة الألباب في طبقات الأدباء لأبي البركات بن الأنباري، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1959
283. نزهة الألباب في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت577هـ/1181م)، تح: السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط3، 1985
284. النشر الفني وأثر الجاحظية، عبد الحكيم بليغ، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، دت
285. النص بناه ووظائفه، مقدمة أولية لعلم النص والفكر العالمي، تون أ. فان ديجك، مركز الإنماء القومي، د.ط، د.ت

286. النص والخطاب (استقصاءات البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2000
287. نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه، مصطفى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2001
288. نظرية أفعال الكلام العامة، جون أوستين، تر: عبد القادر قنيي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 1991
289. النظرية الأدبية المعاصرة، رمان سلدن، ترجمة: جابر عصفور، دار قباء، مصر، دط، 1998
290. نظرية الاكتمال اللغوي عند العرب، د. أحمد طاهر حسين، القاهرة، د.ط، 1987
291. نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، حسن الملخ، دار الشروق، الأردن، ط1، 2000
292. نظرية التلقي (أصول وتطبيقات)، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001.
293. نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، بشرى موسى صالح، ، المركز الثقافي العربي، ط1، 2001
294. نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، عبد الناصر حسن محمد، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، دط، 1999
295. نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم
296. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ط، 1890
297. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، دار النشر ومكتبة وسام، الأردن، ط2، 1987
298. النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، جان لوي كابنس، دار الفكر، سوريا، 1982
299. النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968
300. النكت في تفسير كلام سيبويه وتبيين الخفي في لفظه وشرح أبياته وعربيته، الشنتمري، تحقيق: رشيد بلحبيب، طبعة الأوقاف، الرباط، 1999

301. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1948

ب. باللغة الفرنسية:

1. 100 Fiches pour comprendre la linguistique, Gilles Siouffi, et Dan Van Raemdonck, Bréal, Rosny, Novembre 1999
2. Aborder la linguistique, D. Maingueneau, Collection « lettre », dirigée par Jacques générant et Edmond Blanc, Edition Seuil, Février 1996
3. An Arab Grammarian of the Eight Century, Carter Michael G. Jaos, 93, 1973
4. An introduction to descriptive linguistics, H. Gleason, New York, 1961
5. An introduction to Sociolinguistics, Oxford, Black Well, 1993
6. Argumentation et conversation, Elément pour une analyse pragmatique du discours, Moechler, Paris, 1985
7. Argumentation et conversation, J. Moescler, Hatier, 1985
8. Cohesion in English, M.A.K, Halliday Ruqaiya Hasan, Longman, Th impression, 1983
9. Dictionnaire de didactique des langues, R. Galisson et D. Coste, librairie Hachette, 1976
10. Dictionnaire de la linguistique, G. Moumin Quadrige, PUF, édition, 1974
11. Dictionnaire de linguistique (discours Taxte), Jean Dubois et autres, Larousse, Paris, 1973
12. Dictionnaire de linguistique, Larousse,J. Dubois, 2ème édition, 1989
13. Dictionnaire encyclopédique de pragmatique, Jacques Moeschler, et Anne Rebole, Seuil, France, octobre 1994
14. Dire et ne pas dire, principes de sémantique linguistique, Oswald Ducrot, collection Savoir Sciences, Hermann, 3ème édition, Paris, France, Octobre 1991
15. How to do things with words, Austin, J. L, Oxford university press, 1981
16. Initiation aux méthodes de l'analyse du discours (problèmes et perspectives) Dominique Maingueneau, éd. Hachette université, 1976
17. Introduction to linguistics, Wordhagh Roland, New York, 1972
18. L'analyse du discours introduction de D. Maingueneau, L'archive Hachette, Paris, 1991
19. L'argumentation colle « Que sais-je » Ed PUF, Paris, 1983
20. L'argumentation dans la langue,
21. L'information et la communication, Roget escaprit, Hachette. SI. 3ed, 1991
22. La conversation, Catherine Kebrat Orecchioni, Seuil, Paris, 1996
23. La pragmatique d'Austin à Goffman, Philippe Blanchet, Collection référence, éd. Bernard Lacoste, Paris, France, 1995

24. Langage et présentation in « Sciences Humaines », J. P. Bronckart, n° 21, Hors série Juni-Juillet, Auxerre 1998
25. Le langage silencieux, Edward. T. Hall, éd. Seuil, Paris, 1984
26. Le raisonnement, Robert Blanché, PUF Paris, 1973
27. Les actes de langage, Searl (Jhon. R), Collection savoir, lecture, Herman, Paris, France, Nouveau tirage, 1996
28. Les échelles argumentatives, Ducrot Oswald, édition de Minuit, Paris, 1989
29. Les voies du langage, Bordas, Paris, Dunod, 1982
30. Linguistic anthropology, Alessandro Duranti, New York, Cambridge University, Press, 1997
31. Linguistic semantics, Lyons John, An introduction Cambridge, university press, 1995
32. Linguistics, Cristal, D. Penguin Book, 1981
33. Logic and conversation in Cole Paul Grice, Peter and Morgan, Jerry L. (eds) speech acts, in syntax and semantics, vol 3, Academic press, New York, 1975
34. Logique, Langage et Argumentation, Michel Meyer, Hachette Université, 2ème édition, Paris, 1982
35. Philosophical investigations, Wittgenstein Ludwig, Oxford, Black well publishers, 2001
36. Polyphonie des discours argumentatifs in pratiques, Auricchio Angres et Alliesla, revue N° 73 Mars 1992, Metz
37. Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Collection lettres, SUP Dunod, Paris, 1997
38. Problème de linguistique générale, Emil Benveniste, Gallimard, Paris, 2ème édition, 1974
39. Problèmes de linguistique générale, Emile Benveniste, édition Gallimard, Tome I, 1966
40. Quand dire c’est faire, Austin (J. L) introduction, traduction et commentaire par Gile Lame, édition du Seuil, 1970
41. Quand dire c’est faire, p: 114-115, huitième conférence
42. Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes, communication
43. The new rhetoric a treatise on argumentation, ch Perelman L. olbreahts
44. Théorie du langage, J.P Brancard, 2ème édition, Bruxelles, 1977
45. Théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle, Jacque Loschler, éd: Armand Colin Masson, Paris, France, 1996
46. Traité de l’argumentation
47. Traite de l’argumentation, la nouvelle rhétorique, Perlman (CH) et Olbracht Tytéca (L), éditions de l’université de Bruxelles, Belgique, 3ème éd. 1976
48. Wittgenstein on the arbitrariness of grammar, Michael Forster, Princeton, university Press, 2004
49. Wittgenstein, philosophical investigations

50. Wittgenstein, Rules, grammar and necessity, Baker G.P, Oxford, Bail books Well, 1985
51. Wittgenstein, understanding meaning, G. P, Baker

ج. قائمة الرسائل الجامعية والمقالات العلمية ضمن المجلات المحكمة:

1. الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، ع1، ماي 2008م/1429هـ
2. الاختلاف في طوية الوحدة من أجل معاقلة الخطاب العربي الإسلامي، إبراهيم مشروح، ص: 113، نقلا عن مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي
3. الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، د. رضوان الرقبي، مجلة عالم الفكر، م40، العدد 02
4. إشكالات التواصل والحجاج، مقاربة تداولية معرفية، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 2000
5. أصول النحو العربي، د. محمد عبيد، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، 1978
6. بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، الكويت، العدد 164، 1992
7. البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، القارضي محمد علي، بإشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة، تونس، 1998
8. البنية الحجاجية للخطاب القرآني، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، العدد 62-63، المغرب، مايو 2001
9. تشومسكي والثورة اللغوية، جون سيرك، ترجمة: هيئة التحرير، مجلة الفكر العربي، العدد (8-9)، بيروت، كانون الثاني، 1979
10. الحجاج في الدرس النحوي، حسن خميس الملخ، مجلة عالم الفكر، م 40، ع 02
11. الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عبد الغني ذاكر، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 02، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2011
12. الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، مجلد 30، العدد 01، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت، 2001

13. الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري ضمن كتب: الحجاج، مفهومه ومجالاته، مجلة عالم الفكر، المجلد 30، العدد 01، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت
14. رأي في أصول النحو وصلة بأصول الفقه، مصطفى جمال الدين، مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، إيران، 1990، ع 15
15. الربط النحوي في كتاب فيض الخاطر لأحمد أمين، ليلى خميس السيد خميس، كلية الألسن، جامعة عين شمس، القاهرة، 2000
16. الربط في الجملة العربية، عادل زغير، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1988
17. سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد 145، الكويت
18. الشفاهية والكتابية، والترج أو تح، تر: د. حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، (182، المجلس الوطني للثقافة الفنون والآداب، الكويت، شعبان 1414هـ/فبراير 1994
19. العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، أبو فالج شبيب العجمي، مجلة عالم الفكر، م28/ع01، سبتمبر 1999
20. في بلاغة الخطاب وعلم النفس، صلاح فضل، عالم المعرفة
21. اللغة والكلام في التراث النحوي العربي، بحث للدكتور محمد سعيد صالح ربيع الغامدي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 34، العدد 03، العام 2006
22. مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بريلمان، د. محمد الولي، مجلة عالم الفكر، المجلد 40، العدد 02
23. المرايا المقعرة، عبد العزيز حمودة، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد 2001
24. مفهوم الحجاج عند "بيريلمان" وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، م28، العدد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير-مارس 2000
25. مفهوم الخطاب الشعري عند رومان جاكبسون، أحمد منور، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع2، 1984
26. مقال السيميائيات السردية للخطاب، "غريماس"، مجلة التواصل
27. مقال السيميائية والنص الأدبي للأستاذ عبد الحميد بورايو، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، 1995
28. مقال تحليل الخطاب الروائي، بشير براير
29. مقال في قراءة التحليل السردي للخطاب

30. مقال: الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، أ. سامية بن يامنة، مجلة دراسات أبية، الجزائر، ع1، ماي 2008

31. مقال: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله

32. مقال: الاستدلال والحجاج الاستدلالي، حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، المجلد 30، العدد 01، يوليو/سبتمبر، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت

33. مقال: الحجاج في الدرس النحوي، ص: 136

34. مقال: بين النص والخطاب، الأستاذ أحمد يوسف، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، العدد 1، 1992

35. مقال: عن الضوابط اللغوية لتوجيه الخطاب العلمي، أ.د سيدي محمد غيتري، الملتقي الدولي الأول، جامعة البليدة، ماي 2000

36. مقال: في قراءة التحليل السردي للخطاب، الطاهر رواينية، مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد 04، جوان 1996

37. مقال: مراتب الحجاج وقياس التمثيل، طه عبد الرحمن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صبري، محمد بن عبد الله، فاس، المغرب، العدد 09

38. مقال: مقاربة نظرية في مظاهر الربط الحجاجي لبنية الاقتضاء، أحمد كروم، مجلة عالم الفكر، م32، العدد 3، يناير-مارس، 2004

39. مقال: نشأة الخلاف في النحو بين البصريين والكوفيين، مصطفى السقا، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 10، 1950

40. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، د. عبد الملك مرتاض، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، 1992، العدد الأول

41. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث الغربي، د. عبد الملك مرتاض

42. مقالة: "سيبويه حياته وكتابه"، د. أحمد أحمد بدوي، صحيفة دار العلوم الصادرة، في جانفي 1948

43. مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، هواري غزالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000

44. من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، د. عبد الله ربيع محمود، مجلة كلية اللغة العربية، الإمام محمد بن سعود، السعودية، العدد 09، 1979

45. النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، محمد العبد، مجلة فصول، العدد 60، شيف/فريق، 2002

46. النص والتأويل، بول ريكور، العرب والفكر العالمي، ع3، 1988

47. نظريات قراءة النص،لمياء باعشين، مجلة علامات في النقد، جدة، م 20، ج 39، ذو الحجة 2110/1421

48. نظريات قراءة النص، لمياء باعشين، مجلة علامات في النقد، جدة، م 20، ج 39، ذو الحجة 2110/1421

49. نظرية التأصل، جونيفين شوقو، تر: إبراهيم أولحيان، مجلة فكر ونقد، فبراير 2001، ع 36

50. نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، حسن خميس الملخ، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1998

51. هندسة اللغة، سلطة القراءة بخرائط الكلام الزماني والمتاعي، محمد أحمد خضراوي، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، ع33، م09، 1998

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الإهداء

شكر وعرفان

مقدمة.. أ

مدخل: التواصل والتبليغ والتخاطب في اللغة والاصطلاح

تمهيد: 01

علم الاتصال: نظرة تاريخية.. 02

المبحث الأول: التواصل والاتصال.. 08

أ. التواصل في مادة بعض المعاجم العربية: 08

ب. التواصل في معجم المصطلحات اللغوية: 09

ج. التواصل في معجم اللسانيات: 10

د. التواصل في معجم (A. Moles Démoèl): 11

ه. التواصل في معجم تعلم اللغات: 11

المبحث الثاني: التواصل والتبليغ... 12

أ. ماهية التبليغ: 12

ب. التبليغ بين اللغة والاصطلاح: 12

ب.1 التبليغ في اصطلاح العرب: 14

ب.2 التبليغ في اصطلاح الغرب: 15

ج. نظرية التبليغ عند "بلومفيد" (Bloomfield): 18

المبحث الثالث: ماهية الخطاب والتخاطب...................................... 22

1. الخطاب والتخاطب في اللغة: 22

2. الخطاب في الاصطلاح: 23

3. الخطاب والكلام: 27

4. الخطاب والتلفظ: 28

5. الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة: 30

أ. القواعد المتعلقة بالمتكلم في البلاغة العربية: 38

ب. القواعد المتعلقة بالسامع في البلاغة العربية: 39

ج. القواعد المتعلقة بالرسالة في البلاغة العربية: 39

▪ وسائل الاتصال وقواعد التخاطب عند ابن وهب: 40

الفصل الأول: التبليغ اللساني العام -دراسة في العناصر-

المبحث الأول: دراسة عناصر العملية التواصلية.. 44

1. أطراف التواصل في الاصطلاح: 44

أ. المتكلم والسامع: 44

ب. الرسالة: 46

ج. المقام: 46

المبحث الثاني: تفسير عملية التبليغ........................... 47

أ. نموذج التبليغ عند طه عبد الرحمن: 47

ب. نموذج التبليغ عند دي سوسير: 48

ج. نموذج التبليغ عند كارل بوهلر: 50

المبحث الثالث: مفهوم الكلام.................................... 52

أ. المعتزلة والأشاعرة: 52

ب. الكلام عند دي سيوسير: 53

ج. مفهوم الكلام عند نوام تشومسكي: 55

المبحث الرابع: مفهوم المتكلم.................................. 56

أ. مستوى المفردات: 57

ب. مستوى التراكيب: 57

المبحث الخامس: مفهوم السامع.................................. 61

أ. مفهوم السامع عند دي سوسير: 65

ب. مفهوم السمع: 67

ج. آليات التواصل عند الإنسان: 68

▪ ارتباط السمع بالاستجابة: 71

▪ ارتباط السمع بالكلام المفيد: 72

د. عملية فهم السامع للخطاب بين التفسير والتأويل: 77

المبحث السادس: المقام........................ 82

1. مفهومه وأهميته: 82

أ. مفهوم المقام عند القدامى: 83

ب. مفهوم المقام عند المحدثين: 86

▪ الاتجاهات التي اهتمت بالمقام: 89

1. اتجاه الأصوليين: 90

2. المقام في مجالات الدراسات الحديثة: 91

الفصل الثاني: تقنيات التبليغ اللساني

توطئة........................ 104

ماهية التقنية: 104

أ. مفهوم التقنية في اللغة: 104

ب. من الناحية الاصطلاحية: 104

1. التحرر التشريعي: 106

2. النظرة إلى الآخر: 107

المبحث الأول: التقنيات/الآليات الحجاجية-الاستدلالية........................ 109

1. توطئة: 109

2. اللغة والحجاج: 110

3. مفهوم الحجة أو الحجاج: 114

أ. الحجة (Argument preuve): 114

4. تقنية الحجاج وعلاقته بالحقول المعرفية (بلاغة، تداولية، لسانيات، نحو): 119

أ. الحجاج في تصور البلاغيين الجدد: 119

ب. تقنية الحجاج في التصور التداولي: 123

1) المفهوم والعلاقة: 123

2) المراتب الحجاجية: 136

توطئة: 136
أ. المراتب المتضادة: 137
ب. المراتب الموجهة توجيها كميا: 138
ج. المراتب الموجهة توجيها قصديا: 138
3) السلم الحجاجي: 139
أ. المفهوم: 139
ب. قوانين السلم الحجاجي: 140
ج. السلم الحجاجي والقياس عند الأصوليين: 142
د. الروابط الحجاجية التداولية: 143
1) المفهوم: 143
▪ الروابط الحجاجية ودورها في الفهم والإدراك: 146
▪ التضمين التداولي في الروابط الحجاجية: 148
▪ النحو العربي وعلاقته بالبلاغة والتداولية: 152
أ. تداولية المتكلم في النحو العربي: 155
ب. تداولية السامع في النحو العربي: 156
ج. تداولية الخطاب في ذاته في النحو العربي: 157
المبحث الثاني: الحجاج في الدرس النحوي العربي: 159
توطئة: 159
▪ تقنيات الحجاج في النحو: 162
▪ ركنا الحجاج: 164
أ. السماع: 165
ب. الرواية: 167
ج. الاحتجاج: 169
▪ تقنية الشاهد Illustration: 170
ج. الشاهد في اللغة: 170

د. الشاهد في الاصطلاح: 171

- تقنية التمثيل Analogie: 175
- تقنية المثل (Exemple): 178
- تقنية النموذج (Model) أو النموذج المضاد (Anti-model): 179
- تقنية القياس: 181

توطئة: 181

- القياس تقنية لتوليد الخطاب الطبيعي: 182

1. مفهومه: 182

أ. القياس عند المناطقة: 183

ب. القياس عند الأصوليين: 187

- تقنية تنقيح وجه الاستدلال في القواعد النحوية: 192

أ. مفهوم الاستدلال: 192

- مسالك الحجاج: 195

1. تقنية التوثق في مستندات السماع: 195
2. تقنية تنقيح موجب القياس: 198
3. تقنية الإجماع: 199

أ. إجماع وصفي: 200

ب. إجماع تقنين: 200

ج. إجماع تعليل وتفسير وتأويل: 200

المبحث الثالث: تقنيات التبليغ اللسانية-البلاغية: 201

تمهيد: 201

1. تقنية الفعل الإنجازي: 206

أ. مفهوم الفعل الإنجازي عند الغرب: 206

ب. مفهوم الفعل الكلامي عند العرب: 207

ج. تحليل الفعل الكلامي عند الغرب: 209

▪ عند أوستين: 209

▪ عند "سورل":... 212

➢ تقنية الأمر والنهي: 213

1. تقنية الترغيب والترهيب: 216

2. تقنية تنويع الأفعال الإنجازية: 216

3. تقنية الحذف: 216

أ. الحذف المتعلق بقصد بالمتكلم: 220

ب.الحذف المتعلق بالسامع: 222

4. تقنية الالتفات: 226

5. تقنية التكرار: 232

1) على مستوى المتكلم: 236

أ) إثبات الكفاءة التواصلية: 236

ب)لتأدية معنى تواصلي: 236

2) على مستوى السامع: 237

أ) تسلية وتثبيت قلب السامع: 239

ب)تعميم فحوى الخطاب على جميع المستمعين: 239

ج) إقامة الحجة وإثبات الإعجاز: 240

د) إنشاء الإمتاع في الرسالة: 240

3) على مستوى المقام: 240

4) على مستوى الرسالة: 241

6. تقنية البديع: 243

7. تقنية التقديم والتأخير: 250

أ. الرتبة المحفوظة: 250

ب.الرتبة غير المحفوظة: 250

1) الاستفهام بالهمزة في التقديم والتأخير: 251

أ) الإنكار... 252
ب)النهي: 252
ج) التسليم بالخبر ومطالبة المستمع بدليل على خبره: 252
د) التقديم والتأخير في النفي: 253

الفصل الثالث: التبليغ السيبويهي وأهم تقنياته

المبحث الأول: سيبويه وعصره اللغوي.. 254
توطئة: 254
- اسمه ونسبه: 254
- لقبه: 256
- مولده: 258
- أخباره: 258
- وفاته: 260
- أخلاقه وصفاته: 264
- الحوادث التي وقعت لسيبويه: 265
- دراسته وعلمه: 266
- شيوخه: 267
- أقرانه: 271
- معاصروه: 272
- تلاميذ سيبويه: 272
- الكتاب وآراء العلماء حوله: 277
- تأليف الكتاب: 284
- روايته: 285
- نشر كتاب سيبويه: 286
- موضوعات الكتاب: 287
المبحث الثاني: منهج سيبويه في عرض موضوعات الكتاب.......................... 288
أ. المنهج لغة: 288

ب.المنهج اصطلاحا: 289
المبحث الثالث: أسس منهج سيبويه.................. 295
1. السماع: 295
2. الاستقراء: 296
3. التصنيف: 299
4. المصطلحات: 301
5. القياس: 302
6. الموضوعية: 303
المبحث الرابع: سيبويه والنظرة الاجتماعية للغة............................... 307
أ. اللغة والكلام: 307
ب.عناية سيبويه باللغة المنطوقة: 310
ج. مصادر وطبيعة المادة اللغوية في الكتاب: 314
1) القرآن الكريم: 314
2) الشعر: 315
3) كلام العرب المنثور: 316
المبحث الخامس: عناصر العملية التبليغية في الكتاب............................ 317
أ. المتكلم عند سيبويه: 318
▪ المتكلم الشاعر: 318
▪ المتكلم المتعلم: 319
▪ المتكلم المخطئ: 320
▪ المتكلم الثقة: 321
1. دور المتكلم في بنية الكلام من وجهة نظر سيبويه: 322
ب.المخاطب: 325
2. وظيفة الكلام والتقنيات التبليغية المستخلصة من الكتاب: 336
أ. تقنية النداء: 338

ب.تقنية الدعاء: 339
ج. تقنية الاستغاثة والتعجب والندبة: 339
د. تقنية الاستفهام المراد به التعظيم: 340
ه. تقنية إعادة التفكير في علاقة اللغة بالثقافة: 340
و. تقنية الخبر والأمر والنهي والاستفهام: 341
ز. تقنية تغيير الحكم الإعرابي: 342
ح. تقنية الحذف: 343
3. السياق الاجتماعي في الكتاب: 343
- أشكال السياق في الكتاب: 347
أ. السياق البصري الحركي: 348
ب.السياق البصري والسماعي والحركي: 351
ج. سياق الحواس الخمس: 352
1) التواصل البصري (Visaul Communication): 356
2) التواصل السمعي (Auditor Communication): 356
3) التواصل اللمسي (Tactile Communication): 356
4) التواصل الشمي (Olfactory Communication): 357
5) التواصل الذوقي (Gustative Communication): 357
- دلالة المثال النحوي بين المجتمع والقاعدة النحوية: 358
- أقسام النحو في الكتاب: 365
أ. النحو السياقي: 365
ب.النحو النصي: 365

الفصل الرابع: التبليغ السيبويهي في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة

المبحث الأول: سيبويه وأثره في النحاة واللغويين العرب.......... 369
تمهيد: 369
1. كتب لحن العامة وفكرة تواصلية اللغة: 369
2. المعاجم وفكرة تواصلية اللغة: 372

3. نظرية التواصل في كتب البلاغة العربية: 374

أ. نظرية التواصل عند الجاحظ: 374

ب.مفهوم اللغة والإنسان عند الجاحظ: 375

ج. أدوات التواصل عند الجاحظ: 377

➢ التواصل باللفظ: 379

➢ التواصل بالإشارة: 379

➢ التواصل الكتابي: 380

➢ التواصل بالعقد: 381

➢ التواصل بالنصبة: 382

د. مفهوم التواصل عند الجاحظ وأنواعه: 382

1) التواصل الخاص: 383

2) التواصل العام: 384

ه. سيبويه والجاحظ: 387

و. سيبويه وابن جني: 389

▪ تقنية المجاز عند كل من سيبويه وابن جني: 389

4. التواصل اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني: 393

▪ النظم وعلم النحو عند الجرجاني: 396

▪ البعد التواصلي عند الجرجاني: 399

▪ المتكلم وآليات التواصل عند الجرجاني: 402

➢ آلية المجاز: 404

➢ آلية الغموض: 405

▪ تقنية التقديم والتأخير في الكتاب: 407

المبحث الثاني: التبليغ السيبويهي وبعض اتجاهات الدرس اللغوي في الغرب........ 412

تمهيد: 412

أ. سيبويه ودي سوسير: 414

ب. سيبويه وبلومفيلد: 415

ج. سيبويه وتشومسكي: 417

د. سيبويه ومالينوفسكي: 417

ه. سيبويه وفنكنشتاين: 420

و. سيبويه والتداولية: 424

ب. سيبويه و"بول غرايس": 424

7. سيبويه ونظرية الحجاج: 427

أ. أنواع الحجج في كتاب سيبويه: 427

1) البصر بالحجة: 427

2) ترتيب الحجج: 428

أ. سيبويه وبيريلمان وتيكاه: 429

ب. سيبويه وشارل موريس: 431

ج. العوامل الحجاجية في الكتاب (سيبويه، ديكرو وانسكومير): 432

و. المراتب الحجاجية: 434

1) المراتب المضادة: 434

2) المراتب الموجهة توجيها كميا: 436

3) المراتب الموجهة توجيها قصديا: 436

و. قواعد السلم الحجاجي في الكتاب: 437

1. قاعدة قلب التفاضل عند سيبويه: 437

2. قاعدة تفاضل الأطراف: 437

3. قاعدة جمع التفاضل المركب: 438

ز. حجة التضمين في الكتاب: 439

ح. التنغيم باعتباره رابطا حجاجيا: 442

ط. حجة التمثيل: 447

1) التشبيه: 450

2) المجاز والاستعارة: 455
3) الكناية: 457
ي. حجة البديع: 459
1) التجريد: 459
2) الفواصل: 461
3) المبالغة والغلو: 462
ك. حجة التكرار: 464
ل. حجة القياس في الكتاب: 466
الخاتمة.............................. 470

مكتبة البحث

القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع) 494
أ. المصادر والمراجع باللغة العربية: 494
ب.المصادلا والمراجع باللغة الفرنسية: 512
ج. قائمة الرسائل الجامعية والمقالات العلمية ضمن المجلات المحكمة: 514
فهرس الموضوعات......................... 518

ملخص:

يتناول موضوع الرسالة "تقنيات التبليغ عند سيبويه"، وهو موضوع يكشف عن تحليل سيبويه للغة من حيث إنها سلوك اجتماعي يقع في سياق محدد، ومحاولته إعادة بناء التفكير الداخلي للمتكلم ومسؤوليته نحو السامع أو المخاطب الذي دوره المتوقع أنه يحلل الكلام في السياق، ليقرر ما الجوانب الشكلية للمنطوق، والتقنيات التبليغية التي يمكنها أن تعبر عن نيته (قصد المتكلم)، وهذه المحاولة من سيبويه لهي من أهم خصائص الكتاب وأكثرها ضرورة، لأنها جعلت الكتاب فريدا في التراث اللغوي العربي، وأعطته قيمته الحقيقية في تاريخ الفكر اللغوي مقارنة بالاتجاهات الغربية الحديثة.

الكلمات المفتاحية:

التواصل، التبليغ، التخاطب، المتكلم، المستمع، الخطاب، الكلام، المقام، السياق الاجتماعي، الاستعمال، اللغة الطبيعية، تقنيات التبليغ، الحجاج، الاستدلال، التقديم، التأخير، الحذف، الالتفات، المجاز، المنهج، السماع، القياس، الاستقراء، التداولية، التأويل، التدبر والإفهام، سيبويه والاتجاهات الغربية الحديثة، أشكال التواصل غير اللغوي في الكتاب.

Résumé :

Le thème du mémoire porte sue les techniques de la communication chez Sibawayh, c'est un sujet qui découvre l'analyse de la langue par Sibawayh en tant que social se trouvant dans un cours fixé et sa tentative de reconstitution de la réflexion intérieure du locuteur et sa responsabilité envers l'auditeur ou l'interlocuteur dont le rôle éventuel est d'analyser le langage dans le cours pour décider les côtés de forme du dispositif, les techniques de la communication qui peuvent exprimer son intention (le but du locuteur), cette tentative de Sibawayh est une des plus importantes caractéristiques du livre et la plus nécessaire, car elle a mis le livre dans le patrimoine linguistique arabe et lui a donné sa valeur réelle dans l'histoire de l'esprit linguistique en faisant le parallèle avec les orientations oxidentales modernes.

Mots clés:

Communication, Notification Communication orale, Locuteur, L'auditeur, Missive, Langage, Position, Processus, Social, Usage, Langue naturelle, Techniques de la notification, Arguments, Raisonnement, Renvoi, Suppression, Considération, Métaphore, Méthode, Audition, Analogie, Induction, Concertation, Interprétation, Réflexion et application, Sibawayh et les orientales modernes, Formes de la communication non linguistique dans le livre.

Summary:

The theme of thesis concerns the techniques of the communication at Sibawayh it is the subject which discovers the analysis of the language by Sibawayh as social behavior being in a fixed course and its attempt of reconstruction of the internal reflection of the speaker and his responsibility to the auditor or the interlocutor whose possible role is to analyze language in the course to decide on the highly-rated of shape of the device, the techniques of the communication which can express his intention (the purpose of the speaker) this attempt if Sibawayh is one of more important characteristics of the book and more necessary, because it put the unique book in the Arabic linguistic heritage and gave him his real value in the history of the linguistic spirit by drawing the parallel with the modern occidentals orientations.

Keywords:

Communication, Notification, Oral communication, Speaker, The auditor, Letter, Language, Position, Social process, Use, Natural language, Techniques of the notification, Arguments, Reasoning, Dismissal, Abolition, Consideration, Metaphor, Method, Hearing, Analogy, Induction, Dialogue, Interpretation, Reflection and explanation, Sibawath and modern Westerners orientations, Forms of communication not linguistic in the book.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب واللّغات
قسم: اللّغة العربية وآدابها

رسالة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغة والأدب العربي
تخصّص: التواصل اللّغوي

موسومة بـ

تقنيات التبليغ عند سيبويه

إعداد الطالبة:
عمارية حاكم

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد الجليل مرتاض

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د.المهدي بوروبة	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسًا
أ.د.عبد الجليل مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً
د.بوعلي عبد الناصر	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	. عضوًا.
أ.د.العرابي أحمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة تيارت	عضوًا
أ.د.بريهمات عيسى	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأغواط	عضوًا.
د.حنيفي بن ناصر	أستاذ محاضر (أ)	جامعة مستغانم	عضوًا.

السنة الجامعية: 1433-1434هـ/2012 – 2013

رسالة دكتوراه "تقنيات التبليغ عند سيبويه"
ملخص الرسالة

يتناول موضوع رسالة الدكتوراه "تقنيات التبليغ عند سيبويه" وهو موضوع يتعمق في البحث عن التقنيات التبليغية التي أوردها "سيبويه" في مؤلفه "الكتاب" الذي عُدَّ لمدة قرون كتاب قواعد نحوية وصرفية ثابتة وجامدة، في حين أن إسقاط النظريات اللسانية الغربية الحديثة على كتاب سيبويه، كنظرية الحجاج المعاصرة، والتداولية، والتفكيكية، والهيرمونيطيقا، ونظريات القراءة والتلقي، وكذا نظريات تحليل الخطاب، كلها تكشف أن موضوعات "الكتاب" هي مجال لكل هذه النظريات والاتجاهات، وذلك أن سيبويه؛ يجعل الفيصل في استنباط قواعده والخروج بأحكام ثابتة، لا مراء فيها هو كلام العرب الموثوق بعربيتهم بدءاً بشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي -رحمه الله-؛ أي على الاستعمال الحي للغة الطبيعية في مجتمعها من قبل ابن اللغة.

وكما هو معروف؛ أن الحدث اللغوي هو موضوع علم اللغة مثل أي حدث اتصالي، له عناصر ضرورية لتأليفه؛ المتكلم، السامع، الخطاب، والموقف الذي يقع فيه مكانا وزمانا، وقناة، والسنن الذي ينتظم لغته، ومن الجميل أن يتنبه إمام النحاة "سيبويه" إلى هذه العناصر كلها.

إن من مزايا الكتاب الدور الذي عزاه سيبويه إلى العمليات العقلية التي ينفذها المتكلم لكي يجري اتصالا ناجحا يعبر عن المعنى المراد تبليغه، ومسؤوليته نحو السامع أو المخاطب الذي دوره المتوقع أن يحلل الكلام في سياقه.

إن تحليل سيبويه للغة من حيث إنها سلوك اجتماعي في سياق محدد، ومحاولته إعادة بناء التفكير الداخلي للمتكلم لِيُقَرِّرَ ما الجوانب الشكلية، والتقنيات التبليغية للمنطوق التي

يمكنها أن تعبر عن نيته (قصد المتكلم)؛ وهذه المحاولة من سيبويه لهي من أهم خصائص الكتاب وأكثرها ضرورة؛ لأنها جعلت "الكتاب" فريدا في التراث اللغوي العربي، واعطته قيمته الحقيقية في تاريخ الفكر اللغوي، مقارنة بالاتجاهات اللسانية الغربية القديمة والحديثة.

ولقد توصل بحثنا إلى الكشف عن النظرية النحوية في كتاب سيبويه؛ أي إلى المادة والمنهج، وإجراءات التحليل التي طبقها أو بالأحرى استخرجها من كلام العرب، وعن آثاره في اللغويين والنحويين العرب الذين أتوا بعده، واغترفوا من ينبوعه الصافي، كما كشف عن موضع إنجازاته في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة.

وإذا كان مبلغ العرب أن افتتنوا بالكتاب حتى سموه "قرآن النحو" وإذا كانوا قد أجمعوا على نفاسته وتفرده في فنه، فإن اللغويين المحدثين في الغرب، قد وضعوه في موضعه المستحق؛ حتى قال قائل منهم: "إنه في مترلة بين دي سوسير وبلومفيلد، وإنه ليس مؤسس علم النحو فحسب، بل علم اللغة أيضا"، والدليل على ذلك أنه نشر في باريس قبل أن ينشر في القاهرة، وكان الاستعمار الفرنسي في المغرب الأقصى يخصص جائزة لمن يحفظ الكتاب، وقد ترجم إلى الألمانية في وقت معاصر لنشره في القاهرة، وألفت عنه كتب وأبحاث عالية القيمة حتى قيل: "إن التراث اللغوي للعربية ليس إلا هوامش على كتابه".

ولقد تعمق بحثنا في الكلام والتخاطب لا في الجملة، وذلك أن الكلام الذي يدل على التواصل ينبني على العلاقة التخاطبية والتخاطب -إجمالا- هو إلقاء جانبين لأقوال بغرض إفهام كل منهما الآخر مقصودا معينا، ولكن هذه الأفعال لابد أن تضبط بقواعد تحدد وجوه فائدتها التواصلية، وهذه القواعد تدعى قواعد التبليغ.

ومصطلح التبليغ موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، ويتولى موضوع التخاطب في كلا وجهيه -التواصلي والتبليغي- آفاق علميةى كثيرة؛ أهمها: فرع من المنطقيات الحديثة، ثم اللسانيات التحويلية التوليدية وغيرها.

ولقد تفطن سيبويه إلى أهمية الكلام الذي هو أصوات مقطعة دالة على معنى، ولكي يخرج هذا الكلام المضمر في النفس لابد أولا من ترتيب أصواته، وألفاظه، وحروفه وفق قواعد وقوانين تضمن سلامته وصحته ودلالته، ثم النطق به في الآخر، لذلك ابتدأ كتابه بالنحو، ثم الصرف، ثم الصوت، وهذا الترتيب مقصود دال على فطنة وذكاء صاحبه من جهة، وعلى موضوعيته وتمثيله للواقع الحي من جهة أخرى، فمن تراه ألف كتابا جامعا شاملا لكل مظاهر اللسان قبل سيبويه أو بعده؟

ويشترط سيبويه القصد (نية المتكلم) حتى يسمى اللفظ كلاما، ومن ثم لا يسمى كلام النائم أو السادر أو الحيوان كلاما؛ لأنه يفتقر إلى قصد التواصل مع الغير، وعلى حد تعبير دي سوسير أن الكلام هو ذلك النشاط الفعلي للغة، أي ناتج النشاط الذي يقوم به مستخدم اللغة؛ الذي ينطق بأصوات لغوية مفيدة، بينما تتسم اللغة بالطابع الاجتماعي بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في أذهان أفراد المجتمع، أما السياق فإنه يستثمر لبيان المقاصد.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك تمييزا بين اللغة والكلام، وبين المعنى والقصد، والذي يجسد هذه المفاهيم هو التداوليات الحديثة، وعلى هذا الأساس، يمكننا القول: إننا عندما نتحدث؛ فإننا ننقل اللغة إلى كلام، والجملة إلى قولة، والمعنى إلى قصد، ودلالات الألفاظ إلى إشارات، ولكن هذا لا يتم إلا بإقحام عناصر خارجة عن اللغة وهي: المتكلم والمخاطب والسياق، والخطاب، وهذه العناصر مجتمعة هي التي تمثل دارة الكلام أو عناصر العملية التواصلية.

هذه العناصر التي وجدت أرضيتها وحقها في كتاب سيبويه؛ إذ وجدنا المتكلم بكل أنواعه؛ المتكلم الشاعر، المتكلم المخطئ، المتكلم المتعلم، والمتكلم الثقة الذي كان موضوع الدراسة في الكتاب، لأنه يمثل العربي الموثوق بعربيته، ثم المخاطب الذي يشكل ركنا أساسا في تكوين الخطاب، بل والأثر البالغ في بنية الخطاب وعناصره اللغوية؛ لأنه يمثل العنصر السياقي الرئيس الذي يخول للمتكلم استعمال أساليب وتقنيات مختلفة للتعبير، تسمح له بممارسة أعراف لغوية متعددة، اعتمادا على ما فطر عليه هذا السامع أو المخاطب.

ونشير إلى أن توفر عنصر المتكلم وحده، وتوفر عنصر المستمع وحده لا يحقق التواصل الحي؛ إذ إن العنصر الوحيد والكفيل بنقل الخطاب إلى درجة التواصل الفعال والمباشر هو المقام الذي يجمع كل أطراف العملية التواصلية (المتكلم، السامع، الخطاب) ليبث فيها روح التناسق (الإيقاعية التواصلية) وهو الذي يضمن أيضا النجاح التداولي للخطاب في مقابل النجاح النحوي الدلالي الذي هو مسؤولية البناء.

ولقد بحثنا في كل عنصر من عناصر العملية التواصلية، كل على حدة، من الماهية إلى الوظيفة إلى القيمية، حيث تعرضنا إلى تعريف كل عنصر عند القدامى، وعند المحدثين، لنكشف أن الدراسات اللغوية الحديثة ما هي في حقيقة الأمر إلا امتداد وتطوير للدراسات اللغوية القديمة؛ خاصة في مجال الدراسة والتناول وكذا توليد المصطلحات وتكاثرها؛ الأمر الذي قد يجعل بعض الباحثين يغمط القدامى حقهم في السبق العلمي والمعرفي.

وبعد أن عالجنا كل عنصر ودوره في إنجاح التواصل اللغوي وغير اللغوي، تطرقنا إلى البحث في التقنيات أو الإستراتيجيات المتعلقة بكل عنصر من عناصر العملية التواصلية، بدءًا بالمتكلم كونه المدير للعملية التواصلية انتهاءً بالخطاب أو الكلام، فكانت التقنيات على مبحثين، أولها التقنيات الحجاجية–الاستدلالية، ثم التقنيات اللسانية–البلاغية.

وقبل الولوج إلى تحليل التقنيات بعد عرضها، تطرقنا إلى مفهوم التقنية؛ التي تعني -حسب المفهوم اللغوي- الأصول والأساليب والطرق المختصة بفن أو علم أو معنى أو حرفة، لنصل إلى معناها الاصطلاحي الدال على أن استعمال التقنية يكثر في موضوعات التعليم ومجالاته، ومستوياته المختلفة والمتنوعة، لتنوع المواد المدرسة وطريقة التدريس وأهدافه.

وبناءًا على طريقة التدريس؛ التي تتضمن الإلقاء والإلقاء يستدعي الإصغاء الجيد الذي يأتي أكله في الفهم الجيد، رأينا أن نظرية التواصل اللساني تنطلق أساسا من معرفة كيف يتم التواصل أكثر من معرفة ما يتم إيصاله؛ وهذا الذي فتح لنا الباب لمعرفة الطرق والآليات والتقنيات التي يصوغ بها المتخاطبون الأقوال، والتي تكشف بدورها عن الكيفية التي يشتغل بها الذهن البشري في ترتيب الأفكار للتعبير بها عن المشاعر والمعتقدات وكل المكتسبات والتأثير بها في الآخر.

وبعد اطلاعنا وفحصنا لمعظم النظريات اللغوية المعاصرة وجدنا أن التداولية بصفة عامة هي المعرفة الشاملة بالآخر والمعرفة العميقة بمكنونات عمليات التخاطب، وذلك أنها جزء من العلم المعرفي باعتباره الوسيط بين العالم الحقيقي وعالم اللغة، هذان العالمان اللذان تعمل اللغة على تجسيد بنائهما المعرفي الواسع.

وانطلاقا مما تحققه اللغة، هذه الخصيصة العجيبة عالجنا علاقتها مع الحجاج، فاستخلصنا أن اللغة هي مادة كل حجاج وذلك أن الحجاج هو توجيه خطاب إلى متلق ما، لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلا بالكلام المتألف من معجم اللغة.

وأن محاولة التحكم أو التأثير في الإنسان بواسطة اللغة هو ما يدعى بالحجاج، وحينما ينصب هذا التأثير اللغوي على الطبيعة والأشياء، فإنه يختص بتسمية أخرى، وقد تكون هي العمل أو التقنية أو العلم، كما أن التأثير في الإنسان بأداة أخرى غير اللغة ليس حجاجا.

لقد صار الحجاج في الدراسات اللغوية والبلاغية الحديثة أوسع مجالا، إذ لم يعد دوره يقتصر على التوظيف الانتقائي باعتباره عنصرا خارجا ثانويا؛ يوظف فقط في مواقف تواصلية معينة، بل تحول مع تيار التداولية المدمجة في الدراسات اللسانية إلى عنصر كامن في اللغة إن من حيث بنيته أو من حيث وظيفته، وبذلك أصبح الحجاج فعلا كلاميا يجب دراسته في نطاق دراسة اللغة، لا في البحث عما هو واقع خارجها، وهذا ما يدعو إلى اعتبار اللغة مسرحا للمحاورة والتحاج بين الذوات المتواصلة، إذ تنحصر وظيفة اللغة في دلالة الأقوال على التوجيهات الحجاجية الناتجة عنها.

وبناءًا هلى المفهوم الجوهري الذي طرأ على مفهوم الحجاج سمحنا لأنفسنا بإدراجه ضمن تقنيات التبليغ أو ما يسمى بآليات التواصل اللغوي، فتناولنا بالدراسة والتحليل، تقنية الحجاج وعلاقته بالحقول المعرفية (بلاغة، تداولية، لسانيت ونحو)، وحاولنا الإلمام بكل المفاهيم والتصورات لأبرز المنظرين للحجاج ولتلك الحقول المعرفية التي تلتقي بالحجاج في كثير من الجوانب.

ولعل العلاقة الجامعة بين الحجاج وبين البلاغة واللسانيات والتداولية والنحو؛ هي أولا اللغة، وثانيا أطراف العملية التواصلية من متكلم وسامع وخطاب، وقصد. وإن كنا قد ركزنا في بحثنا هذا على علاقة الحجاج بالنحو العربي، وذلك أن المصدر موضوع البحث هو "الكتاب" لسيبويه الذي يمثل العلم الشامل والجامع للنحو العربي منذ القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا.

وفي مبحث الحجاج في الدرس النحوي العربي، تعرضت إلى التقنيات الحجاجية-الاستدلالية، وذلك أن النحو يمثل الميدان الأوسع والأرحب للمناولة الحجاجية، فأشرت إلى أنه إذا كانت العلمية تبدأ من اعتماد اللغة المنطوقة لا المكتوبة، فإن اللغويين العرب هم

الأسبق إلى ذلك قبل غيرهم، إذ أخذوا اللغة من أفواه الفصحاء الذين لا يعرفون اللكنة اللغوية، أو ما يعكر صفو لغتهم التي يتلاغون بها، وعلى هذا يكون "السماع" عند علماء العربية يؤكد أصالة مبدإ دراسة اللغة المنطوقة وسبقها على اللغة المكتوبة Written Language، وهو عكس ما سار فيه الفكر اللغوي الغربي الذي بدأ بالنصوص المكتوبة لينتهي إلى اللغة المنطوقة أو المسموعة.

واعتمادا على السماع للغة المنطوقة، أو الاستعمال اللغوي الحي داخل المجتمع؛ عالجنا تقنية الشاهد (Illustration)، فكشفنا عن مفهومه اللغوي والاصطلاحي، وبينا وظيفته في التبليغ والتواصل، ذاكرين أنواعه (الشاهد القرآني، الشاهد الشعري)، ثم عرجنا إلى تقنية التمثيل (Analogie) كونه نوعا من الحجاج؛ كما أنه الأنسب للتواصل اللغوي وللمتلقي، وذلك أنه يتضمن التشبيه والاستعارة، كما أنه يمثل الاستدلال الذي يختص بالخطاب الطبيعي في مقابل البرهان الذي هو الاستدلال الذي يختص بالقول الصناعي.

ولتقنية التمثيل شأن عظيم في هتك الحجب عن المعاني وإبراز ما خفي من الحقائق، وذلك أن قيمته تعلو على مفهوم المشابهة، لأنه لا يرتبط بعلاقة المشابهة دائما، بل يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدا.

وحتى نزيل الغموض، ونوضح الخفي عالجنا تقنية المثل (Exemple)، لنشير أن هناك فرقا بين المثل والتمثيل باعتبار أن المثل وسيلة ناجعة للتعبير عن القيم والحقائق التي تختزل التجارب الإنسانية، وهو نوع من الاستدلال؛ يقوم بنقلة نوعية من خلال الجمع بين الاستقراء والمشابهة عن طريق الحدس، الهدف منه تقوية درجة التصديق بقاعدة أو فكرة أو أطروحة معلومة، تقوم ما يوضح القول العام ويقوي حضوره في الذهن، ويدعى المثل

بالقوالب الجاهزة، يتم تخزينها في ذاكرة الإنسان، يستحضرها كلما استدعى المقام ما يشابهها أو ما هو في حاجة إلى تأكيد فكرته.

وفي مجال الاقتداء؛ تعرضنا إلى تقنية النموذج (Model) والنموذج المضاد (Anti Model)، لنوضح أن هناك ميلا طبيعيا في النفس نحو اقتداء نماذج معينة، لأشخاص يمتلكون بعض مظاهر التميز، وذلك أنه لا يمكن الاقتداء بأي كان "ولقد كان لكم في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إسوة حسنة".

على أساس أن النموذج لا يصلح فقط لتأسيس أو بلورة قاعدة معينة كما في المثال والشاهد، بل يدفع إلى فعل شيء مستوحى من النموذج لوجود سلوكات عفوية للاقتداء من الإنسان.

وبناءًا على أصول النحو العربي، تناولنا تقنية القياس كونه تقنية لتوليد الخطاب الطبيعي فعرفناه عند كل من المناطقة، وعند الأصوليين، وعند المحدثين، فتوصلنا إلى نتيجة مفادها، أن باب القياس مفتوح في العلة والتفسير والاجتهاد بتقعيد الظواهر الجديدة في العربية، والإفادة من المنجزات القديمة والحديثة بالتفاعل العلمي السليم معها.

وعن تقنية الاستدلال في القواعد النحوية، قمنا بتحليل هذه التقنية، لنصل إلى أن الاستدلال يختص بالخطابات الطبيعية التي تتسم بالخصوبة والالتباس والتداول والتفاعل الاجتماعي، وبسبب غناها النحوي والمعجمي والدلالي، كانت الأداة المفضلة للتواصل البشري الطبيعي والعادي، بكل ما يشمله هذا التواصل من أهداف ووظائف تعبيرية واجتماعية وشعرية.

أشرنا كذلك إلى مسالك الحجاج وتقنيات التوثق من مستندات السماع، وكذا تنقيح موجب القياس لننتهي إلى تقنية الإجماع التي تتضمن إجماعا وصفيا وآخر تعليليا وتفسيريا

تأويليا، لنخلص في نهاية مبحث التقنيات الحجاجية-الاستدلالية إلى أن دراسة الحجاج وتقنياته تساهم بشكل كبير في إنجاح التواصل اللغوي بين الأفراد والجماعات، وذلك أن هذه الدراسة تنطلق أساسا من الفكرة الشائعة التي مؤداها: "إننا نتكلم عامة بقصد التأثير والإقناع، وأن اللغة الطبيعية تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية"، نشير إلى أن الإنسان عندما يتكلم فإنه يمارس سلطة على الآخر، والكلام (الخطاب، القول، التلفظ) له قوة تعبيرية وتحويلية للواقع بمختلف أنماطه، لا تعادله أي قوة، لذلك فإن كل الخطابات والنصوص التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية تختلف حسب طبيعة ودرجة الحجاج.

وفي مبحث التقنيات اللسانية-البلاغية؛ تطرقنا إلى الحديث عما أنجزته الدراسات اللسانية المعاصرة من أبحاث ونظريات أدت إلى خلق فروع جديدة في موضوع اللغة، كان له الأثر الإيجابي في تطور العلوم الإنسانية عامة، وعلم التواصل اللساني خاصة؛ كما أدت إلى طفرة نوعية في تحليل اللغة من جوانبها المتعددة تركيبا ودلالة وفونولوجيا...، وظهرت في هذه الفترة العلمية حقول جديدة واتجاهات فرعية استقلت بذاتها؛ كان "دي سوسير" يعتقد أن مجالها الخاص هو اللغة ذاتها، ومن بين هذه الحقول والاتجاهات اللسانية؛ البنيوية، والوظيفية والتوزيعية والتحويلية التوليدية التي اعتمدت التحليل العلمي الخالص للغة؛ مبعدة كل تمظهرات اللسان، الأمر الذي أدى إلى ظهور دراسات جديدة أعادت للغة ديناميتها الخارجية بشكل جديد، معولة في ذلك على الإنجازات التي قدمها المنطق المعاصر مع بداية القرن العشرين المتمثل في المنطق الطبيعي "لجورج لايكوف" ومنطق العلاقات مع "فرتج" و"راسل" و"فنتكشتاين"، بالإضافة إلى "أوستين" وتلميذه "سورل" و"جاك موشلير" وغيرهم من الدارسين الذين أعادوا للغة ديناميتها -كما سبق الذكر-.

فكانت البداية مع مفهوم الفعل الإنجازي عند الغرب (مع "أوستين" و"سورل" و"فان دايك")، وعند العرب (مع إمام النحاة "سيبويه" و"الزمخشري" و"الرضي الاستربادي"،

هؤلاء العلماء الذي تحدثوا وحللوا الفعل الكلامي الإنجازي الذي ينطلق من الحدث (Act) لا من الفعل (Verb) الذي يعد مؤشرا أو وسيلة لغوية لإنجاز الحدث، وهكذا فإن الفعل الذي يوجده النطق سواء أكان النطق اسما أو فعلا أو حرفا.

وبعد توضيح مفهوم الفعل الكلامي؛ وجب التعرض إلى التقنيات اللغوية البلاغية أو التحويلية -حسب المصطلح الجديد- فكانت البداية مع تقنية الأمر والنهي، وذلك أن هذه التقنية هي الكفيلة بإقامة التواصل بين الناس؛ لأن الوحدة الأساسية للاتصال البشري ليست الكلمة، أو الرمز أو الجملة أو العلامة -كما يفترض غالبا- بل هي إنتاج واحد من هذه الوحدات أو قولها بأداء أنواع معينة من الأفعال الكلامية.

وتعرضنا كذلك إلى تقنية تنويع الأفعال الإنجازية؛ التي هدفها إزالة الضجر والملل عن المتلقي؛ إذ لكل فعل كلامي أثره الذي قد لا يحظى به غيره من الأفعال الإنجازية الأخرى في التأثير في نفسية المتلقي، ثم عرجنا إلى تقنية الحذف التي يتوسلها المتكلم في خطابه رغبة في تبليغ مقصده وغرضه تبليغا سليما، إذ يرى أنه لا يحقق ذلك إلا بالحذف، ورغبة كذلك في مشاركة السامع إياه في بناء الخطاب حتى ينتقل من الاتصال إلى التواصل.

فالمتكلم باستعمال تقنية الحذف يكون قد نقل السامع من متلق حيادي للخطاب إلى مشارك فيه ومنجز له، هذا من جهة، ومن ناحية أخرى فإن المتكلم يفرض على المتلقي الاهتمام بالعملية التواصلية بكل أطرافها.

ومن أهم الظواهر التواصلية كذلك تقنية الالتفات التي عدها الطاهر بن عاشور من أفانين الكلام، وهو نقل الكلام من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر، والالتفات انتقال فجائي في الأسلوب إلى غيره تطرية واستدرارا للسامع، وتجديدا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملل والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه.

وبعد تقنية الالتفات وتبيان بعدها التواصلي انتقلنا إلى تقنية التكرار أو الترديد كما يسميه الجاحظ؛ وإن كان هناك من يدعو إلى تجنبه؛ بحجة أنه دال على الافتقار اللغوي ولا يلجأ إليه إلا لغرض تواصلي، فإن هناك من يعده مظهرا من مظاهر الإعجاز البياني خاصة في القرآن الكريم، وذلك أن التكرار يؤلد حافزا، ويجدد دافعا، ويمد طاقة، وينفخ نفسا، لا يمكن أن توفره لغة النصح المباشر، والتوجيه المكشوف، وهو نوع من التكوين من خلال الوقائع الحية.

فالتكرار يضيف دائما شيئا جديدا، فهو يتجاوز الإخبار والإبلاغ والتأثير إلى الدفع نحو الفعل، وتغيير السلوك وإن شئت فهو الغاية القصوى في الحجاج، بل الرتبة العليا في السلم الحجاجي، وقد أشار إليه سيبويه في استعمال العرب له في مواضع شتىً من "الكتاب" خاصة في أسلوبي الإغراء والتحذير.

وبعد تقنية التكرار؛ أوردنا تقنية البديع التي تشترك مع تقنية التكرار في الإيقاع الموسيقي الذي يحدثه التكرار والجناس والسجع والطباق، والفواصل، لنخلص إلى أن تقنية البديع هي مظهر من مظاهر الشفاهية، ووسيلة من وسائل إنجاح التخاطب واكتمال التواصل، وميدانها في التوازن الإيقاعي (الموسيقى الداخلية والخارجية) التي يمثلها الصوت من حيث؛ مخرجه، وصفته، وتركيبه.

وختمنا مبحث التقنيات اللسانية-التحويلية بتقنية التقديم والتأخير الذي هو واحد من أهم مظاهر التحويل في النحو العربي واللغة العربية بوصفها إحدى اللغات المعربة التي تفسح المجال بحرية كبيرة بغية ترتيب الكلمات داخل الجملة، وإذا كان القصد من التقديم والتأخير عند النحاة هو "العناية"، فإنه عند الجرجاني لا يأتي لإبراز الفائدة أو عدمها، بل يأتي لتمييز المعاني المختلفة التي تدور في ذهن المتكلم، والتي يريد إيصالها إلى المستمع، ومن أبعاده

التواصلية؛ الإنكار، النهي، التسليم بالخبر، بالإضافة إلى تنبيه المستمع حتى يرجع إلى نفسه لتقوية اعتقاده.

وتجدر الإشارة إلى أن كل تقنية في كتاب سيبويه يلزمها بحث مستقل؛ خاصة تقنية التقديم والتأخير ومتعلقاته من الوجوب والجواز والامتناع.

وبعد الفصل الثاني؛ أصبح لازما إسقاط كل ما هو نظري على ما جاء في كتاب "سيبويه"؛ واهتماما منا بالمتلقي لبحثنا؛ وحتى نكفيه عناء البحث عن حياة سيبويه؛ كانت البداية بعرض موسع لحياة الرجل منذ طلب الفقه إلى أن توفي، فذكرنا لقبه، وحياته، وعلمه، وشيوخه، ومعاصريه، وكتابه، وموضوعاته، وقيمة الكتاب، ومنهجه، وأسس منهجه، ثم عرجنا إلى النظريات اللغوية الغربية الحديثة لنقارن كل ما جاء في الكتاب بما دعت أو توصلت إليه هذه النظريات التي تأخرت بقرون كثيرة عما جاء في الكتاب.

فتعرضنا إلى اللغة والكلام بين سيبويه ودي سوسير وأبرز المنظرين اللسانيين عرب وغرب، كما ألمحنا إلى طبيعة الشواهد في الكتاب، لنصل إلى السياق الاجتماعي في الكتاب الذي حظي بقدر كبير من البحث والتحليل، والعلة في ذلك أنه الكفيل بإنجاح التواصل، توقفنا عند كل عنصر من عناصر العملية التواصلية عند سيبويه؛ فوجدنا المتكلم على أنواع: المتكلم الشاعر، المتكلم المخطئ، المتكلم المتعلم، ثم المتكلم الثقة الذي كان موضوع البحث بناءًا على أنه الفيصل في استنباط القواعد وتثبيت الأحكام المتعلقة بالاستعمال الحي للغة الطبيعية في مجتمع سيبويه، اعتمادا على كلام العرب الموثوق بعربيتهم، بدءًا بشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي.إنتهاءا بما سمعه هو ذاته ممن يحيطون به من العرب .

ونشير إلى أن المخاطب لم يهمل من قبل سيبويه، وذلك أن كل التقنيات تصاغ من أجله؛ إن من أجل التبليغ والإخبار فقط، أو من أجل التأثير والإقناع، لذلك ذكرنا مع كل

طرف من أطراف العملية التبليغية و تقنياته المتعلقة به، وهذا الذي جعلنا لا نرتب التقنيات كما وردت في المستوى النظري، وأخرنا بعضها إلى أثر سيبويه فيمن تلاه.

توقفنا مع كتب لحن العامة للزبيدي، وفكرة المعاجم مع الزمخشري لنوضح الهدف من تأليف "الكتاب" وهو ذلك الخوف من تفشي اللحن والفساد في لغة القرآن الكريم. وتعرضنا إلى أشكال التواصل غير اللغوي (السميائي) عند الجاحظ لنقارنها بما جاء عند سيبويه، إن تأثرا للجاحظ بسيبويه أو للمقارنة فقط.

وعكفنا الحديث عن أثر سيبويه في ابن جني -صاحب كتاب الخصائص- واقتصرنا على المجاز وباب الاستقامة والإحالة من الكلام عند سيبويه؛ وقد عرفنا أن ابن جني لا يخفي إعجابه بعلم سيبويه، ولا ينكر أخذه لشواهده من الكتاب.

وبعد ذلك تطرقنا إلى تبيان أثر سيبويه في عبد القاهر الجرجاني الذي وجدناه يخالف في كثير من المواضع سيبويه، وإن كانت معظم الشواهد التي يستدل بها أو يحللها في كتابه "دلائل الإعجاز" مأخوذة من الكتاب وهذا دليل على تأثر الجرجاني بسيبويه وإن لم يشر إلى ذلك صراحة كما فعل ابن جني .

ولعلنا أسهبنا في عرض نظرية التواصل عند كل من الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، حتى نبين نقاط الالتقاء بين المنظرين الغرب والعرب، إضافة إلى إمام النحاة، الذي يعد منظرا للغة العربية بكل مستوياتها (النحوية، الصرفية، التركيبية، الصوتية) بلا منازع.

وختمنا بحثنا بموقع كتاب سيبويه في الإنجازات اللسانية الغربية الحديثة، وأخرنا تحليل بعض التقنيات، خاصة الحجاجية-الاستدلالية؛ وذلك أنه منظر لها في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة، فرصدنا اللقاء بين سيبويه ودي سوسير، سيبويه وبلومفيلد، سيبويه ونوام تشومسكي، سيبويه ومالينوفسكي، سيبويه وفنكنشتاين، سيبويه ومنظري التداولية، بدءًا بـــ:

بول غرايس ومبادئه التي وجدت أرضيتها في مؤلف سيبويه، سيبويه ونظرية الحجاج، سيبويه ومنظري البلاغة الجديدة (بيريلمان وتيتيكاه)، سيبويه وشارل موريس، سيبويه وديكرو وانسكومبر.

وأنهينا البحث؛ بتحليل كل التقنيات التي لها علاقة بمعظم المنظرين الذين تم رصد اللقاء بينهم وبين سيبويه، لكي نؤكد صحة ما استنبطناه إثر تعمقنا في الكتاب، ولنكشف كذلك عن النظرية النحوية التي أتى بها سيبويه في مؤلفه "الكتاب" الذي عد "قرآن النحو" في عصره، وكتب له الخلود حتى عصرنا.

وقد مثلت خاتمة البحث معظم ما حققه هذا البحث من نتائج، نرجو أن تكون صائبة وجدية وعلمية وبالله التوفيق.

الطالبة :

عمارية حاكم

“Techniques of the communication at Sibawaih

Introduction of the thesis:
In the name of God the lenient one and the merciful one

The communication currently constitutes one of the broad fields of human knowledge because it represents one of the most important functions of the language and grammar is a part indissociable and integral of the language because by its codified rules, the language has a fictitious representation and symbolic system coinciding with what results from it with the correct application such as the various linguistic messages resembling in their grammatical structure the conversations produced by nature before the discovery of the rule. They were at the origin of their argumentation. As for the linguistic messages produced after having given the grammatical rules and after its coding. The rule is before them, and after the laws of Arab grammar and its implementing rules, a theory of orientation and interpretation. On their knowledge, the grammarians establish their parsings and they make of it a methodological base in grammatical research. And their work exceeds the knowledge of the provisions of the exactitude of the language to knowledge of the theories of these provisions and their research methods. It is not proceeded to the renewal of the grammar of what it has need only by the reading which it does not need, which implies its deepened knowledge, and it is not the scholarship here, for the deepening for knowledge the scholarship for the theories for the main thing, but the perception and the meditation for comprehension and of the communication.

The communication such as we will see it later on requires given elements consisting of what follows: The speaker the listener and the language (the message), and the position or the course such as certain researchers name it. And these joined together elements are the elements of the operation of the communication whose base is the social course.

While endeavouring to enrich our Arab library with modern linguistic research, and while liking to make revive the original Arab heritage, I noted that it was neglects and that it did not take its great part of the modern linguistic studies, it is the side of the Arab grammar whose researchers dissociated its chapters and there were those which are worry about its rules and the standardisation of its provisions, there are of them those which explained its poetic quotations, there were those which studied its method in the allegation by the Koranic readings while asserting there, and there was those which highlighted its origins and the sources of its linguistic matter, waited until many researchers gave their consent concerning the matter of Arab grammar, inert matter and constant, while basing themselves on the

constancy of its rules, and while conforming to its orders in the perfection of the Arab language and its eloquence.

And by our confirmation concerning the modern theories which go on the one hand on the other hand with the content of the book of Sibawaih as a linguistic communications theory, the position does not suffice for its total study, I preferred to approach the linguistic communications theory because the communication is a dimension whose realization is aimed, by any theory in accordance with various and various techniques.

After the idea to approach the techniques of the communication at Sibawaih was fixed in my spirit, and after my reiterated and deepened readings content of the book, I realized that the method which can clarify the ways of the study, it is the complementary method which joins together several methods, some are descriptive and others are of an analytical and explanatory nature, and of other still are historical.

The historical method represents the origin of the consistent Arab heritage in the origins of grammar and the sources of the Arab language. As for the descriptive method, since it is one of the linguistic branches which treat the linguistic phenomena in accordance with the balanced scientific method having a great advantage near the linguistic researchers since they looked further into his orientations by theories which took language their matter and their object.

As for the method of the explanatory analysis, it carries these parallels which will take place between Sibawaih and the modern Western methods, and among the most important reasons for research at Sibawaih it is that its book is its object the language with all its linguistic levels of under, of construction, of semantics. Which represents the clear source of descriptive research among Arabic, Sibawaih lengthily treated the linguistic phenomena by describing their realities and by contemplating their secrecies, by analyzing their structure to arrive at judgements representing an objective of maturity.

And I chose the techniques of the communication at Sibawaih a topic of my thesis because all that Sibawaih quoted like technical suppression, presentation, metaphor, order representation prohibition and request of arguments explanation and others what research could not report completely because it is an impossible thing in a research total, consistent in the use living of the natural language in the sociétè.

My research did not miss certain obstacles, the important ones: Scarcity of the existence of exercise of this kind of research, knowledge what relates to Arab grammar and his relationship with the communication, scarcity of the documentation which clarifies the way of a new research. Most current documentations approached a side of the grammatical study and

its relationship to the communication. Which were published by foreign languages however the conviction of the objectives of research levelled any difficulty.

Research was distributed between an introduction, four chapters and the conclusion of the anticipated results, according to the following plan.

An introduction with the following title: Communication, notification and conservation in the language and the terminology. I noted that there, there exists an amalgam in the terminology and the approach in the concept, I tried to dissociate this competition so that the stakes of research are cleared up and so that comprehension is easy to the listener.

First chapter: General linguistic communication and of its elements, after having specifies the concept of each terminology and one arrived at the approach at semantics, it is necessary to study the elements of the operation of the communication, I distributed this chapter in four research:

1/ Research of the study of the speaker:

All that concerns like inspirations of the terminology to the related rules there.

2/ Research of the study of the listener:

With in its share of study as a study of the speaker.

3/ Research of the study of the position.

Which occupied a great place of the study of the range of its importance in the success of the operation of the linguistic and nonlinguistic communication.

4/ Research of the study of the message and all that is related there and its importance appears in the analysis.

Second chapter: Techniques of the general linguistic communication. Which was divided into three research:

1/ Searches in the techniques of argumentation and deduction: I approached the definition of the linguistic matter authority there, and his kinds which it is possible to get in the message and I indicated his relationship to circulation, rhetoric and linguistics, by quoting the most famous signs of the linguistic matter authority and of his dimensions of communications in the message.

2/ Searches linguistic, convertible techniques: I realized that the eloquence is the widest field and more diversified because it approaches the operation of the communication and its rules

and any other field can profit from it because the eloquence exposes for the communication with its two levels of communication of quality and the ordinary communication and its least chance and the techniques go from the suppression, the contribution, the catch in consideration, the order, prohibition, the request for explanation, the call the convocation and others ....

3/ Searches argumentation concerning Arab grammar: I approached in this research the origins of Arab grammar and their relationship to the linguistic matter authority I studied: Hearing, the analysis, the deduction and the ways of the linguistic matter authority consisting of the documentation of the technique of hearing, as well as the documentation of the consolidation of measurement and what results from this consolidation and I had approached at the beginning of this research with the exchange of the speaker and the exchange of the listener and the exchange of the message in the Arab language.

If I insisted during the exchange in this research, it represents a linguistic orientation in a serious attempt to acquire dimensions present and future in the message, by judgement that it is an evolution of the function to face the incapacity which often, characterized the linguistic current precedents. Among the purposes of the study, it is the benefit of the progress acquired by modern linguistics and the light brought to our heritage and its interpretation and for the determination of our position of this heritage and of the language, currently stalemate the recognition of the temporal anticipation of our scientists and the little of means of which they lay out (library preserving their contribution of sciences at that time, since most sciences were lost either by the reason which they were burned or they were lost for the defect of capacity to preserve them in the memory so that they can circulate from generation to generation).

Third chapter: Communication relating to Sibawaih and its more important techniques:

I distributed the chapter in several research of which the first: Sibawaih is its linguistic time I judged that it is necessary to treat the biography of Sibawaih even if there were special documentations S of them. But I always think of the listener who needs the knowledge of the man who was called “the chief of the grammarians” and while taking care to avoid to him the painful recourse to documentations and the most important books relating to the biography of the famous scientists, we reported his biography with a little more details and thus a side of its biography is useful for us in this research.

The second searches: Bases of the method of Sibawaih in the book

1/ Petrol of the method: (Language and terminology).

2/ Bases of the method: Hearing – Deduction – Analogy.

Third searches: Documentations of the language in the book: The saint Koran poetry, prose.

Fourth searches: The communication in the book and its elements. I approached there what follows:

A/ Has Sibawaih and the social sight.

B/ Language and language.

C/ The care of Sibawaih to the spoken language.

D/ Nature of the witnesses in the book.

Fifth searches: Elements of the operation of the communication in the book: I approached in this research the study of any element and his kinds as his techniques of communication in the book (the speaker, the listener the message, the function of the language (the communication) the course of the position), his forms, I also quoted the parts of grammar in the book.

Fourth chapter: The communication relating to Sibawaih in the light of the linguistic studies modern was a broad space for the meeting between Sibawaih and most famous student and enquiring Westerners however, before the parallel, I indicate that I divided this chapter into two research:

First searches: Effect Sibawaih on certain grammarians and Arab linguistics.

I approached there an outline of the melody of people common by taking Zoubaidi as model then I passed to the encyclopaedia of the base of the eloquence of Zamakhchari then I approached. The demonstration of the effect Sibawaih on the famous scientists and the seniors of the grammarian and the eloquence through the following titles: Sibawaih and El Djahiz, Sibawaih and In Djani like Sibawaih and Abdelkahar El Djordjani to specify the range of the influence of these grammarians and eloquent Arab by the book of Sibawaih either that they stated where that they did not indicate ç is enough that most witnesses drawn from their works raise of their origin in the book.

As for the second searches, I gave him the following title:

This research was a field for the parallel of Sibawaih with the most famous Western scientists, while indicating most techniques which were not quoted, not by lapse of memory of our share, but by our will, because most techniques relating to the argumentation deduction have a sight in the Western orientations. And of there was the beginning with the world of the language and the father of linguistics Fernand de Saussure, Now Tchoumiski, Austain, Sul, Ducro and others those whose names are quoted in various research topics.

On what, the problems posed in this research are: Is this Sibawaih was concerned with the description of the phenomena? Or it was concerned also by their interpretation and their harmonization for the examination of the relations between the bottom and syntax?. Which are the origins that Sibawaih proposed to treat the linguistic matter?. How it organized the classification of the matter of the book?. Which is its attitude when it listening to a language which Arabic did not speak?.

Which is its attitude when its hearing met a language going against the grammatical rule. Does the Sibawaih book carry the elements of the operation concerning the communication? Which is the role of each element inside this operation?. Which are the techniques of communication concerning each element? Does the book of Sibawaih have influence in those which read it such as the Arab linguistics and grammarians? Did the book of Sibawaih attract the sights of the researchers and the scientists of the occident? Is there an agreement between Sibawaih and the Western linguistic orientations? Which is the range of this agreement? The answer to all these problems, will discover us if God wants it, the reserves of its abundant science through our research characterized by "the techniques of the communication at Sibawaih".

The conclusion represents most results to which research led.

I hope that I am not isolated reason and I hope that I did not exaggerate in the imagination of the things where I did not grant Sibawaih.

And by God! Success

The student one:
HAKEM Ammaria

"Techniques of the communication at Sibawaih"

Conclusion of the Thesis

After the painful effort and the detailed talk of the general communication with all its elements and its technique of argumentation, of deduction, as well as linguistics and of conversion after deduction of all that is theoretical on the book of Sibawaih in certain grammarians and Arab linguists such as el Jahiz, Ibn Djani and Abdelkader and Djordani, and after our confirmation of with dimensions of the agreement and the approach, between the author of the book and the Masters of the various Western theories, we conclude here the results of which some relate to the method of the study of the book, others concerning the author of the Sibawaih book, and the methods of the exposure of its book and the techniques appearing in this book if we do not quote them all it is that each chapter or any technique needs an independent research and these results are as follows:

The linguistic event is the topic of linguistics such as for example any event of communication, has elements necessary to compose it: The speaker, the listener, the message and the position where it is held being the place time, the channel and the code governing his language and it is although the chief of the Sibawaih grammarians notices all his elements.

The benefits of the book the role allotted by Sibawaih to the mental operations that the speaker carries out to proceed to a communication successful by expressing what one wants to communicate and its responsibility towards the listener or the interlocutor whose expected role is to analyze the language in its course.

The analysis of Sibawaih of a language expected that it is a social behavior being held in a fixed course and its attempt at reconstruction of the interior reflection of the speaker to decide with dimensions ones of the shape of the device which they can express its intention (the goal of speaker). And this attempt at Sibawaih is one of most important necessary because it made the book single in the Arab linguistic heritage and its actual value gave him in the history of the linguistic spirit.

And our research managed to discover the grammatical theory in the book of Sibawaih knowledge the matter the method and the procedure of analysis which it applied in the language of Arabic and its effects to the Arab linguistics and grammarians and eloquent people who succeeded it. Which research managed to discover the position of its achievements in the modern linguistic studies.

The language which means the communication is based on the relation of conversation, overall is them two with dimensions to throw words for the purpose of rendering comprehensible, an objective however given these acts, it is necessary that they are governed by rules fixing with dimensions ones of their interest of communication and these rules are called the rules of the communication.

The terminology of the communication is the object of the significance of the communication concerning the man and the object of the conversation in the two with dimensions ones of the communication is work many scientific horizons of which most important are: The branch of the modern logics "the logic of the argumentation and the dialogue" in more the branch of the deliberations of modern linguistics then maieutic and different linguistics.

Results at which arrived those which act in concert in their research such as the rules and the laws of the conversation the first Arabs it proclaimed since centuries, such as Sibawaih, Ibn Wahb, Essakaki, Ibn Khaldoun, El Jahiz, Ibn Djani, Abdelkader El Djordani, and of many others. And the proof which results from it is that these books approached the communication by the study and the analysis by their comprehension of the need for the communication.

The good speaker is the good listener, modern science confirms this design, in particular with regard to with dimensions explanatory one of the interpretation of the operation of the language and according to Saussure, one needs that the speaker and the interlocutor are of suitability similar or close in the use of the common forms in the expression to their personal spirit, moreover the procuration of the psychic mechanism for the assimilation, the comprehension and the decomposition of the vocal units arriving so that the communication is carried out in suitable circumstances.

And Sibawaih seized the importance of the language which consists of cut out sounds having a direction however this implicit language leaves the heart, firstly, it is necessary to classify its sounds, its words, its letters, according to rules and laws guaranteeing its perfection, its authenticity and its significance then its pronunciation at the end this is why, Sibawaih started its book by grammar then the conjugation then the sound and this ranking is aimed, meaning the perspicacity and the intelligence of its author, on the one hand and his objectivity and its representation of alive reality, on the other hand. Who was the author of a book comprising all the phenomena of the language, before Sibawaih?!.

Sibawaih requires the existence of the intention (the opinion of the speaker so that the term is called language on what, the language of the deadened person of the dreamer or inattentive because it is not called language the intention of continuity with others it misses is what is appropriate with the principles of the use which insist on their concern of the intentions of the interlocutors on the basis of course.

The course exploits by the state of the intentions there is a distinction between the language and the language and the idea and the intention, and these concepts incarnate the modern uses and on this basis, we can say When we speak, we transport the language to the language, and the sentence with one to say and the idea to an intention, and the significances of the terms to signs, however, that is done only with the insertion of the elements external of the language knowledge: The speaker the interlocutor and the course, knowledge to bind the sentence to time, the place and the position where the conversation and of the interlocutor proceeds, by determining what the linguistic expressions by the gestures indicate thus certain expressions leave the space of the language to the circle of the effective language.

The practitioners grant a great care with use and to the course this is why, one says that the practice of the language, means the operation of the use it is for what they judge that the word conversation is not empty of information, request for explanation of order and prohibition, of denomination what they call “acts of the language” (speech acts). For this purpose, the inanimate concept of the language such as explained of Saussure evolves with a dynamic character which takes the character of use this is why dynamic terminologies were

used of which the most important terminology intention at the practitioners and the intention of the speaker at Sibawaih instead of the sentence. This is why the linguists seek the principles and the origins of the communication to expect the petrol of the speaker instead of being satisfied with abstract constructions.

Concept of the speaker: The speaker is that which exerts his authority on the language because it gives him the form as it wants, and the intention (the goal of the speaker) it is it which characterizes the speaker who uses the clarified and implicit acts, his intention is the communication knowledge transport of the interest of the message or the natural word, a transport where there is the duality of the explicit act and the implicit act. Consequently the concept has a goal which is not aimed only by the explicit language but it is exceeded for an implicit intention while being based on indices which are indicated out of this language. And there is the metaphor the comparison the allegory, the metonymy more the splendid colors such as the comma the rhyme and prolixity.

The language is a great responsibility since any marked word has a supervisor laid out, real receiver, virtual and fictitious receiver And Roland Barthes compared the real reader and the implicit reader and it is the same thing that we saw at Sibawaih with regard to the deadened interlocutor and the dreamer, and on this base the orientations of the eloquence were based on the speaker as a creator of the message however, they did not give up the listener then that they always pointed out the speaker by taking care of the listener in his speech are in the nature of language of the message or in the linguistic techniques used such as the suppression, the addition, the contribution the reiteration redundancy or others, or on the level of the general position (suitable time to take care of the general position suitable time to take care of the scientific, social position and policy because people belong to classes).

The idea of the message of the text does not exist far from the listeners it is the idea creates for itself during the relation established with the listener with regard to the message only previously the prerogatives which gave semiology (Study of all that relates to the signs and symbols such as the legend, the myth, rites) to the receiver (speaker or listener) are called the interrogation of the text (obligation of the entity to yield its entity) as for the theory of the

reading and that of deciphering leave the text full with holes and gaps, all the reader alone connects them, and of the gaps, the reader alone fills them, which is appropriate for the technique of measure and interpretation the message the text: Message being between an implicit receiver (fictitious) it is him who is present with the speaker during the production of the message, an effective receiver it is him who receives the message this is why, the most important procedure with which the receiver is in relation with regard to the comprehension of the message, it is interpretation because it is him who can fill the gaps of the theory "Izer" this is why Sibawaih carried out the suppression, and the implicit one.

Of other tools help the listener to understand some. Knowledge with the person of the speaker and his state, the control of the signs and the indices which appear in the speaker, they are visual significances besides the linguistic skills which are stored at the listener (in the memory).

The book of Sibawaih is of quality because all people do not understand it, if they are not the researchers and the applicants of science at the present time, as for its time its comprehension was easy, because it is composed according to their sign and their innate character his reader needed a difficult deepening, having a great comprehension of its content relating to the topics.

Stage of comprehension is stage principal in operation of communication because it represents phase of investment real of message this is why, listener aimed it is hearing of comprehension and of reflection this is why among goals of speaker with his message in position of communication and this answer begins by good hearing, via good comprehension and assimilation and enfon by good commitment and good application, and that concerns content of book Sibawaih then that its language is addressed through its book to the receiver by hoping for of him the application, by tracing all the ways to him who lead it to the assimilation and comprehension, while specifying or by indicating the techniques of eloquence to him who he deduced from the language from Arabic before mixing with non arab people.

The book of Sibawaih is the recording of the history of Arabic of their language of their principles, of their morals, their customs and traditions and their habits concerning the ideas, knowledge the life of Arabic at his time with all that it covers like culture religious sciences, economy, traditions and practices of language and others.

A/ Has The book of Sibawaih is a message sent to whoever wishes teaching being since all that is in the book is a guide which helps to teach sciences of the eloquence (ideas rhetoric elocution), or to teach semiology what proves it, they are the forms of the communication in which Sibawaih takes care to specify them or teach linguistics with all its sectors social, general, relating to the application of the instruction of the languages, in more linguistics of creative conversion as well as the practice.

B/ To teach the history of Arabic and the Arab tribes, habits and traditions until the first Abasside time.

C/ History of Arab grammar preislamic poetry and poetry at the time Islamic.

D/ The argumentation by knows coran concerning the authenticity of the judgements and the exactitude of the rules Net the recess of the degree of persuasion.

E/ The teaching of the practice because Sibawaih is base in the composition of the language on the use living in practice of the language, and with the intention of the speaker and one said “the practice is the operation of the use”.

Sibawaih was based on the spoken language, it is what is encouraged by the modern linguistic studies so that the modern linguistic studies so that the result to which they arrived either objective and scientific.

The message of Sibawaih, if it were of quality addresses to all els categories because, in that it is a message of teaching, orientation, information, on a purely affirmative basis, with which conch wishes purchaser a science or to examine the purity of the Arab language and the great production of its people in poetry and prose.

The book of Sibawaih represents a message and a text, it is that Sibawaih itself was receiver of the texts scattered in his book on what, its book is a message at its time, a text in our time or both unit and on this basis any receiver of the book of Sibawaih is listener and reader at the same time this is why, we can say that the greatest characteristics of the book of

Sibawaih, they are orality and the writing and can be, for that Sibawaih named its work the book what means "sourate (chapter of the coran) "it is the divine table which supports qualities of the text and the message" it is book it is what is written and the coran it is what assembles its parts".

God very high said "here the verses of the book and he said "the coran"

God the majestic one said: here a blessed book which we reduced towards you so that they meditate on his verses and that endowed with intelligence reflect.

Perhaps, Sibawaih would have taken the quality of the divine table the quality of orality and the writing, as well as the lack of doubt in the content of the book revealed from the denomination of work particularly that its book joined together many testimonies Koranic and poetic as well as the pluparts Arab dialects what lets it circulate in all spaces and time and can be by this reason it was called the Koran of grammar and eternity was intended to him.

The capacity, it is it which determines the genius and the class of the receivers (of ordinary quality) on what the means of communication of the receiver are the language science the study of the cultures of others in more the active participation of the listener through the operation of the question and the answer (the dialectical one and the dialogue), as well as the provision of the communication and the demonstration of their will in the latter, and thus commensality of the place where the message is.

That in the event of the direct message As for the case of the indirect message knowledge the text one requires of the listener his knowledge with the speaker and his language and the word of the message from the terms point of view or of syntax, as well as the knowledge of the reality of the message: its place, its time and the circumstances which surrounded it can be it what encouraged us to know Sibawaih and its linguistic time, often as regards is reported in the books of biography or history for the large ones and the scientists but to connect the receiver by the time of Sibawaih as long as we seek in the field of the communication and continuity and in order to understand the content of the book of Sibawaih which the ignoramus allots to him qualities of confusion and complication.

Personal abilities: the predisposition the analysis and the deduction (concerning the listener) the force of the memory and the intelligence if we want to analyze a text or a message it us is necessary to evoke the position of the speaker and that each message carries the prints of his author and his characteristics while starting with the quality of the voice and one managed to even say that the prevalence of Sibawaih in the composition is due to this incorrect language of which it is known this is why his science was more abundant than his language.

Finally with the image of construction, this is why, if there were not better than that which says in the communication of its message since it does not reach the degree of its communication any agent on what, all the times that the knowledge of the receiver (listener or reader) was good with the speaker, the comprehension of its made up book or its message was good.

At all events, any literary kind has its public and his critics who have the mechanisms of taste and evaluation with the exlusion of others, all that according to their various knowledge and their ramified concerns and their various activities and their unequal opinions.

And here we proclaim not to give judgements in detail concerning the content of the book die Sibawaih, except if that took place according to the operation of the meditation which represents more the high degree of the concentration and more the high level of concern and more the high level the reception and of the exploitation of the message it is that the meditation helps the receiver to the attention with the implicit ideas in against part of the explicit ideas.

And there are messages which are characterized by capacities stylistics and semantic difficult to understand this is why, it is necessary to reiterate the reading and to disregard hearing in order to discover their ideas, it is this we made in our research and we had the conviction at one remote time, like others, which the book of Sibawaih is confused and complicated what does not encourage to read it, moreover it is a book of conjugation and grammatical rules nothing more.

Our reiterated and deepened reading content of the book of Sibawaih let to us be communicated with his author and with its time and consequently, we discovered that this book is really a sea, privileged whom one can find there one of his pearls that one does not count, if the researcher tried to penetrate his funds I draw my attention with a linguistic phenomenon and I find that it has a relationship to other phenomena which remain still hanging at this hour. The linguist has a share of study and the eloquent one has a share. The phonetist has a share the historian has a share the sociologists have a share. The semiologists have a share. The dialectologist has a share and its author wanted a sound book includes all that has a relationship to the life of the man and the mode of communication with the individuals of his company by various methods which renew its language and calm its trouble of the constant use and inert it is that the man by his nature is tedious, has leaning for the restoration and the variety always and in all the fields of its life what interests us here what relates to its language.

All testimonies that Sibawaih reported show that he learned the language well from Allah the poetries from Arabic, most beautiful and els poorer, their language preferred such as the proverbs and maxims what helped it, it is the reading and the follow-up repeated of all that Arabic wrote in their literary works or what he heard itself near his Masters or the scientists of his entourage. Can be what assisted it more for the composition of the book, it is the technique of the meditation to which God incited, which means the good one and deep comprehension of the message of the text.

And spaces it of the receiver decreases in interpretation and narrows each time these texts approach serious and of didactic such as the grammar books of the laws and jurisprudence and the serious one of this kind of texts consists with its sought-after goal because there are those which regulate the life of the undivided ones, those of which the goal is didactic, those of which the goal has ends of right and to bring the convincing proof this is why, there is impossible to subrogate the poem of the interlocutor to the poem of the speaker because all the messages are not the object of passions of the exegetes, But these new texts are not inert however one requires that they be interpreters starting from their interior content by the means

of an inspiring idea drawn from the message or same text, while resting by texts or expressions close to these serious texts.

Interpretation or comprehension is a great service of the same message because it is a spot which is the single guarantee to let it carry out its intentions and with its its validity for any time sucks and in any place and our need with interpretation increases each time our variation increases first position of the message because the circumstances change continuously, and the horizons of the receiver, his concerns and his culture evolve too. However, we see what evolved in the book of Sibawaih they are the techniques of approach and the methods adopted to treat the expected book that each researcher devotes his speciality the content of the books. To fix at the end of its research with dimensions ones of dissension or agreement, by doing it parallel between the old one and the new one to discover that the modern linguistic studies were delayed, lasting of the centuries, of the content of the book of Sibawaih, is not by pride or the priority but by the recognition considering the standards and the bases. modern linguistic studies whose light appeared only during the last centuries. (19th and 20th century).

Consequently, we do not exaggerate, if we say that Sibawaih, by its science, is the equal one of all the enquiring Western linguists, such as: De Saussure, Tchomski, Ducro, Jakbson, Austin and others.

And thanks to the technique of interpretation the message is flexible, its volume increases and is formed without losing its characteristics since it became a channel of communication renewing the various stages historiques.et constituting the parties of the human spirit.

Interpretation or retractation remains an aesthetic creation discovering energies of expression of each message. This is why, the metaphors multiply in some messages and it is a call so that the listener there uses his spirit and expresses his capacities in good creation, considering the term does not represent the direction according to an absolute representation. It is that the idea is a mental concept, unspecified, it is understood only by its author. The term is determinable, however, it should be drawn attention that the mechanism of interpretation, constitutes, an adventure and changes governed by a point of beginning and

directed towards the same end. It is impossible with interpretation. to carry out all the possible significances because that is a violation of the principles of the spiritual thought.

On this basis, sartre judge which the work of the author is empty and the reader must fill it such as Cicéron said it: “the eloquent man must above all bring the evidence of his wisdom, and adapts to the various circumstances and in the people he believed emotionally that one should not always adapt by the same method near all and not against any thing, and not with the profit of any thing. It thus must, in order to be eloquent, be worthy to let with each circumstance correspond a suitable language.

The circumstance, it is the situation, and the situation in the terminology of people ideologists it is the order incentive with speaking, to know to express by the language which gives the origin of the idea its characteristic with the denomination under the terms of the situation, and the situation takes the idea of the argument and the proof and becomes among the means of persuasion and conviction. And another time one said “that which saw is not as that which heard”. And in the situation of the reception of the message at the time of its production, and in the same circumstance comprehensions of the receivers are close, since one finds with the message at the time of his production only one adopted idea. On what, when Sibawaih composed its book, it knew well that its receivers will undoubtedly understand it.

All the times that the message deviates from its first circumstance, begin interpretations, such as that occurred with the saint Koran. At the time of Prophet Who safety is on him. The concept of the circumstance took extension in the linguistic studies so that its denomination becomes the course then that it was adopted by various fields such as the analysis of the message, semiologies, the theory of phonology, interpretation, the eloquence, sociology, theory of the argumentation and others.

We spoke with abundance about interpretation if there were not interpretation, we could not undertake our research, thanks to interpretation we could analyze the texts of the book, and extract all these techniques besides the distinction between functional grammar, and the grammar of the text.

We do not look at any more the content of the book that it constitutes only constant inert rules.

The message under all its various kinds in particular literary and sociological worried the students, linguistics and others that linguists by exceeding there the linguistics of Saussure by the analysis of the message, since in the analysis of its problems, various schools were distributed. Which led to re-examine the problem by tools of language and showed that there are messages confused which it is difficult to carry directly to move with the examination within the framework of the structural current, waited until they discovered what this message like ideological sides between the speaker and the listener hides.

The adopted analysis of the message represents the linguistics emanating of works of the analytical philosophy of the linguistic acts at their summer works of Austin and its Searle disciple. The rules of the dialogue these researchers who are worry mainly study of various models of acts locutoires which were known as acts locutoires with the conditions of their use, as they treated by a study, various linguistic means that the speaker for the renewal of the linguistic act has. And they were also concerned with the problems such as: Is the act carried out clearly or in implicit form at the listener? Is it bound by the presence of linguistic signs? Or on the contrary is what it is fixed by the course of the word? And all these problems, we evoked them in our research.

Considering the language the speakers are concerned with language since the idea does not only represent certain situation of the thing, but expresses also ideas and feelings given determining the goals which the speaker aims at it is that the description of a speech is a description of an act kind which one can carry out (order, prohibition, promise, wish, justification) and any act of conviction which can lead to an adequate practical act and it is not strange that “Carnap” says “descriptive grammar and the significance were actually based on the knowledge put in circulation.

Austin and Searle conceived the language as an act of communication, its major unit is the linguistic act and not the sentence and Austin made the difference between the descriptive sentence and the sentence carried out since first is subject to the rule. Forgery or true, whereas

second is subjected to the standards of success or the failure. Which are conditioned by the element of the circumstance, and it is what Sibawaih evoked. And on this basis, it distributed all the linguistic sentences (verbs, statement) in two levels level concerning the statement (act, speech), and a level of circumstance carrying (Act carried out and another emotional person).

The messages which have the most success in the operation of the communication it is this language which puts the receiver in an environment of the message until it are like part of the circumstance and until the circumstance surrounds it by any side, it becomes one of its elements by joining it is the art of imagination it, being a good technique to make make a success of the operation of the communication, and we do not believe that Sibawaih did not seize this technique since often the circumstance we find we it to evoke inserted many examples and texts such as “Mecque and the Master of the kaba”, “paper and Allah”, “the crescent and the Master of the kaba”. Imagination of people beside the street spirit to gratify the passers by, to assist from all those which require it. They are the virtues of Arabic (courage, the magnanity, generosity). This is why, Sibawaih studied in abundance the technique of the suppression. Which is a characteristic to which all the nations resort what would be a phenomenon common to the human languages.

The book of Sibawaih does not bring back the names of the kings, the caliphs or the historical names, and the author did not report the dates where there were events by that, it can carry any new circumstance what helps the researchers and the students and can be the secrecy of that they are these witnesses that he takes for argument with regard to the deduction of his rules, the confirmation of its judgements, the sincerity of its words, in particular, which these witnesses were characterized by the human character because they represent the use living of the language in the company.

It is not possible to compare the book of Sibawaih with the crowned book because the language of Allah is inimitable for the language of human, it controls all sciences. However, by quotation, by analogy, by deduction of the modern linguistic studies and the determination of the terminologies and of the concepts and it is because Sibawaih studied Moslem jurisprudence and the hadith, at the beginning, then it is gave to his this where it excelled, it is

the science which comprises the Arab language, the language of the noble Koran of which it guaranteed the perfection by laying down the constant rules and provisions which do not leave the use living of the language among Arabic, at its time.

All that lets to us take some qualities of the book of Allah the majestic one to use them in the book of Sibawaih can be it is him even which named its work “the book” so that it is celebrated among people. And can be, it named it “the book”. Which joins together all that binds it to Arabic while starting with Holy Coran and by finishing by the language of Arabic their poetry and their prose.

The language is taken by the use and not by the rule, the practice it is the study of the language during the use it is what Sibawaih specified clearly since it is not satisfied to bring examples concerning the language of Arabic to extract a rule and to confirm a judgement, on the contrary it is helped by the Koranic witness, then poetic, finally the witness of prose, while referring to the innate and eloquent language of Arabic, knowledge while being based on the linguistic use with all that it covers like phenomena of conversion of inversion, of change or others, relating to the techniques that one cannot determine. And we knew after having followed the topics of the book, each chapter, only constitutes an object of study. And the study of all the chapters in only one research, the books are not enough for him and time does not allow it. Perhaps, after the research closure of the thesis, I will approach, if God wants it, each time, a chapter by diversifying the study. It is that this book gave me the appetite for continuous research.

The communication before being an action towards the other, it is a personal situation created by obtaining all the factors which create in him the provision to be communicated. It is seen that the communication is a determinism and a base, the life exists only by it, and for this purpose, the individual tied his relations with the other so that the true communication is a common social behavior.

All know well the value and the need for the dialogue and the communication. Which get stability with all mankind. Thanks to the mutual recognition, with the dissension and diversity, the human ones exchange results concerning knowledge, learn the experiment piled

up at the others, the communication played its part concerning the social operation of knowledge, either at the scientific, theoretical level or at the experimental scientific level.

The human communication is a unit based on the argumentation until the man admits that there is no communication without argumentation and that there is no argumentation without the communication and the question of argumentation does not fail an action to discover the secrecies of the message and to maintain the values of the dialogue of persuasion and a respect of the dissension, because the argumentation is the orientation of a message towards a receiver in order to modify his opinion or to change its behavior it is brought only by one language composed by the linguistic lexicon.

And through the daily experiments, the man examined a set of relations thanks to the techniques of the communication which it uses, and which touches of the fields of knowledge varied, psychological, cultural social, political and scientific and all that is in relation to the human activity and whose means is the language because it flesh-colored the interaction which has place between the capacities of the man and the elements of the nature and of its publishes. On what, that the language is the matter of the argumentation is understood and the spirit is the tool which fixes the principles and the rules inside the picturesque systems expressing the relations which govern these rules these principles.

The language is the largest first and of the innovations which contain genes of all the later innovations. The language constitutes an economic tool to control the things and the beings. The word has more efficiency and it is the best tool or weapon to have reality. this is why, the Master or the influence in the man by the language it is what one named by “the argumentation”. When this linguistic influence flows on nature and the things it is concerned with another denomination. Which denomination would be work, the technique, science and the influence in the man by another tool other than the language which is not argumentation and the principal thing in any approach of communication of argumentation is represented by the intention of the speaker.

The language which one uses as average argumentation of kind of natural language which was purified to be worthy to be the object of agreement between the interlocutors because it

carries only the consensus to which the parts in communication arrived, and it is what Sibawaih recommended on the contrary it was its argument in the deduction of the rules and of the judgements because it proceeded there Arabic made their language like if it confirming a truth existente. Can of scientists saw it while starting with Ali Ibn Talib, then Aby El Assoued Eddouali, then its Masters at their head Khalil Ben Ahmed El Farahidi, and the argument of Sibawaih in all that was known as in its book it is the eloquent Arab language.

All the studies confirmed that the argumentation is a need for any message, being an element exist in the language on the side of its structure or on the side of its function this is why the argumentation is an act of language, it should be studied within the framework of the study of the language which is a field of dialogue and success between the communicating people and whose function is the significance of the words relating to the orientations of argumentation which result from it. Some is the kind of the argument (linguistic, eloquent, rational) the bottom it is that the argument does not miss a message:

The argumentation one of dimensions of the human message is allowed by the language written and spoken some is the kind (linguistic, eloquent, political, legal ....).

The argumentation is a social phenomenon, an essential effort of persuasion in the language which uses of the means to persuade the other.

The argumentation is a dialectical efficient act, put in circulation because its spiritual character is circumstantial and social, by taking into account the requirements of the situation such as common knowledge, the information requests, the conjectural orientations, so much while being dialectical because its goal is persuasive its object is based on the commitment of the broader images of reasoning and richer than the structures of narrow evidence and the sides useful for the argumentation they are acts of message not having relationship to formal logic.

And the argumentation rises on what one called “the analysis of the message” it is for what we found PIERLMAN to decide the presence of the argumentation in all the political social messages legal and advertising on the contrary in all the general discussions it is that it covers all the field of the message which aims at persuasion and comprehension some is the

receiver and whatever the adopted technique et al. natural of the topic, the center of interest of the discussion.

The message of argumentation is subjected as well outside as inside with the rules and the conditions of the speech and the reception, and the proof is it is that any message some is the kind comprises the position of the intention, influences and efficiency and consequently the value and the position of the acts of the people, of the interlocutors.

We insisted on putting into circulation of the language, in our research because it is the crossroads of the sources of ideas and of many reflections then it does not concern only the linguists, on the contrary they of many sociologists, logicians, by exceeding their concerns by all research relating to the idea of the communication by rising object of the message to be a general theory of the human activity and the merit is with linguistics of the twentieth century quia unified linguistics of the language and linguistics of the language going against the object only fixed in the language in the conferences of Saussure. Which were also worried about the message since it represents which linguistic production seen of its relationship to its circumstances and the communicative function by which this function in this economic situation is accomplished.

Putting into circulation is generally worried all conditions of the message while being based in that on the method of its comprehension, by the study in the manner of using the language, and the state of the linguistic forms whose direction is fixed only by the use and the interpretation of the course of the situation where the speakers present their messages the operation of the deliberations, it is the human communication, supported by the study of the circumstance and the adequate conditions to present the language and to specify the relation as well as the position and the relation between the speaker and the listener. On this basis, circulations of the language constitute a new speciality in the action of the human studies this is why Dalache Djilali known as: “They are linguistics of the dialogue or the faculty of communication” and adopted we it in our research because she explains the position of the communication and her course, by opening the doors of the study of the new and the implicit

study of maintenance. The argumentation is a rich field and its fields several sciences join although the argumentation concerns logic, the eloquence and philosophy.

The pronunciation is the sound creates in the name of the speaker to express ideas indicated in the message of argumentation: The argumentation is not an element external with the language or being annexed him, there is course naturally, and the sales value to pronounce it is not the conclusion or the result of what it only brings like knowledge, on the contrary, there are there too the forms and the expressions which are useful for the sales orientation for the language and the orientation of the receiver in this direction if the speaker aims to persuade the interlocutor or to inform it of a thing which it is unaware of, the field of vehicular is more the vast domain for the description of the reasoning of the speaker and the listener which is proven in the argument by linguistic tools particular.

The sales message is dependent corresponding to putting into circulation on the basis which the delivery is significant as long as it has are object in the company where they pronounced it, by adapting the interlocutory relation, because the situation of the dialogue east composes of any language, and each language has two people who have it and the mistress of the language of the dialogue is the interlocutory relation.

I treated the operation of the deliberations relate to the argumentation by it considering that one cannot explain it without assembling the orders of the speakers and their role in the acts of the language, the importance of the interlocutory course, by annexing his test to fix the bonds of the argumentation as tools of procedure helping to fix the interlocutory relation between the parts of the communication as I carried out the extension his concerns with sales scales inside the devices, one to read the results of the aforesaid one:

- Theory of the argumentation in language extension and evolution of the theory of the acts locutoires.
- All the texts and all the messages which are carried out by the natural language according to the operation of argumentation only the degree and the nature of the operation of argumentation differs from a text with another, of a message to another.
- The message and the dialogue are the expected real field of the argumentation that the sides of its appearing use.

- The message is a set of arguments and of results.
- The word has a value larger than a simple declaratory information paper.
- The persuasive use is not a thing to be added to the language, on the contrary there exists in its interior order.

Research concerning the language its grammar, its conjugation its sounds and its significances, is research concerning the general theory of the language, this theory which lights for the linguists their way in al searches and the instruction. The grammarian is judge between people with regard to their language, he judges the veracity of their, pledge by evidence because the proof leads to the judgement even if in him even he does not represent a judgement. Thus the evidence of al grammar is not judgements however in fact demonstrations affirm the authenticity of the judgements these demonstrations can be the object of a dissension because they can accept or refuse. Their business in that is the business of evidence in justice. It is obvious that the continuations of the judgements such as the documents explanations and evidence have a larger volume and the documents of the grammatical judgements are: the noble Koran, Hadith, poetry et al. prose, in more the analogy as a mental interpretation and a proof of persuasion. And one needs for any analogy a document of hearing and the incentive of the listener carries out the continuity of the pronunciation by the language of Arabic whose grammar and conjugation are founded on the coding of their language. The terminology of El-Hadjadj means the choice right of the terminologies of the grammar of its judgements, rules for it was allowed, which is prevented, and the general field of the terminology El Hadjadj it is not the necessary one, truth El Hadjadj concerning the use is required according to the modern grammatical theory. On this basis, the grammatical terminology of El-Hadjadj is broader than the terminology inherited El Moustadaouel (what is adopted) in works the Arab grammarians, it is the terminology El-Hadjadj and the examination of the Sibawaih book let to us know the awakening of Sibawaih by exceeding didactic grammar to pass to the scientific grammar which seeks after the language, its grammar, its conjugation, its sounds and its significances.

It distributed the language of Arabic in two times since time when the grammatical rules were installed is a witness and what follows the time of the rules is called example. Waited

until the grammatical rule draws its legality and its validity from the first time to act in the renewal of the linguistic life to the Arab language at the second time. Linguistic time is the bond of al language even. If the witness and the example constitute the orientation of the text in El-Hadjadj, the analogy is analyzed within the framework temporal and special however, it is not analyzed by the space of knowledge. On what, it Hadjadj has two elements the listener (pilot and example) and the analogy. The grammarian must when it proceeds to an analogue, it tries to discover new thing in the broad grammatical universe not by simple discovery but for the interpretation of the linguistic life of the Arab language at least.

We arrived at the reason which Sibawaih brought much grammatical witnesses it had brought the first complete image of Arab grammar and its successors imitated it such as El FakhFach Elaousat, El Mazini, Azzajaj, ESSIRAFI Aby Ali El Farissi, Romani Ibn Wahb Ibn El Djenni El Jahiz Abdelkahar El Djordani and others.

And it was possible to represent by a witness or two witnesses however of fear of the complex of the charge which touched the grammarians, they made of the witness an instructive technique which specifies their regelations and justify their judgements.

Which confirmed that the language subrogated the ideas whereas grammar takes care of syntax, if the thing were satisfied with the heard or written thing, there would be a prevention of the expression of many ideas which are not the object of hearing among Arabs that required the analogy of what was not brought back and that is the same for Moslem jurisprudence (Fiqh).

The science of the language is founded on hearing, grammatical science is founded on the analogy this is why the mission of the linguist rests on the reception of the linguistic matter, of its sources, to join together it to write it and not to transgress it, As for the mission of the grammarian it was conceived in the induction of this matter to divide it into chapters, of the deduction of regelations total and the general laws being inserted under the analogy.

And after the examination of the book, we noticed that Sibawaih assigned these two missions while being at the same time linguist and grammarian.

We draw the conclusion that the study of "El Hadjadj" and its techniques discover that El Hadjadj has a practice widely in the communication of messages to the individuals, in communities certainly we speak with the aim of the effect and the persuasion and our way in is custom of the natural language which wears in its essence a dimension of argumentation and adoption by indicating him in her structure these words and these sentences The man when he speaks, he(it) exercises an authority on the society and the language is a strength of expression and conversion of the reality with its diverse forms that no strength, can be her equal that is why, all the texts and the messages which come true by means of the natural language are arguments and different from a text in an other one each according to the nature and the degree of the argumentation used in this language following the genre of the text or the interpreted message.

The adopted methods and the highly-rated where appears the interest in the systems of the language, it is these techniques of the communication that Sibawaih watched to specify through his eternal work " The book " the content of which reveals its skill, its tact with the full success and it is the ideal method of the communication in the course of modern linguistics.

And the end which serles said it is what forms the person of the speaker he even The situations of the end it is the representative content which appears under the shape of psychological modes being an essential peculiarity of the human mind which acts by linking the state of the end to the things which she presents.

That is why, any situation of end its successful conditions are determined only once, inserted into the network of the other situations of end the idea of knowledge of the speaker is before the end of the observation it is possible to proceed to the transfer of the purpose of acceptance in the act only by a system of importing motivation leading to it.

And the study of the realization is important at present it is that the preoccupation concerns tools and internal components which constitute the act (of realization or information) it does not concern the sluggish forms of constitution, on the contrary the examination of the fundamental question concerned to the outside conversion and the effect which the act of the words creates on the speaker or the auditor, from the custom of the linguistic techniques being a personal intervention in the words connected to the outer facts of the world.

Even if Austin saw that the creation of the pronunciation, is the realization of an act and the creation of an event and an event at DAIK it is " any speech implying a subdued in the customs of the community as well as its determination And Sibawaih spoke about it in the first chapter of its book in agreement with what says Daik that the act any event obtained by means of the human race and the conductor of the book Sibawaih feels that he is the first one to be interested in the message that is why, He appears with the intention of the understanding, of the assimilation and of the mediation Can be for it, his message found its life towards the outside reality consisting of the scientific acquisition and the examination of the eloquence of the Arabs before her mixes with the language(tongue) of the not Arabic peoples.

The conductor of the book of Sibawaih draws the conclusion that its message is sent to whoever wishes to take advantage of the perfection of the Arabic language, the language of the Koran, the part and on the other hand, by love to arm itself with the system of the Arabic language with all that it wears as, abolition, contribution dissimulation, approvals and other techniques which the speaker uses to communicate his message to the auditor, is for the effect of the information only or for a didactic purpose, the orientation, the discovery or the persuasion from which the language distinguishes itself this wonderful tool no domain among the domains of the life of which can take place.

The techniques of communication arguments, deductive or linguistic eloquent are not possible in their reality that to return the flexible language relatively, guaranteeing her the adaptation of the ideas, because if the syntax was imposed on the ideas by referring to indicated means, the individual interaction with the language would have disappeared and the language would be limited, being learnt and it is used as it was learnt, On what, it becomes a means sluggish as other means of the constant means such as the tools of the forge and the workshop.

Can be by creative linguistic means at the individual, it is the use of the metaphor because he breaks the operation of the standards and the order of the collective language.

To create for himself a new language appropriate to him dressed in its particular imprints who makes it distinguish from others.

By leaning on the lack of syntax and the wealth of ideas it is necessary in the interaction with the language, the maieutics, the abundance of letters, words and constructions so that the man knows the language under a relative shape, by the wealth of ideas and their renovation.

And as regards the techniques of the communication, we indicate that the value and the drunk of every technique differs from the other one.

The purpose of the removal is the transfer of the interlocutor of the neutral speaker of the message to his partner who participated in it and whom he realized, on one hand and on the other hand, the speaker requires from the recipient to worry about the operation of the communication with all his parts it is that the determination of the removal its consideration rest on numerous things to know the nature of the language the intention of the natural speaker of the spirit the genre of position the capacity of the author in the understanding in the mediation and the removal requires the knowledge of the auditor of the highly-rated of the good language if there is a removal there is a common zone between the speaker and the interlocutor.

- The removal is one of the techniques which activates the imagination of the auditor any els time when we feel the removal with difficulty the enjoyment is bigger there and its effect appears in the interaction of all the parts of the communication Speaker-Auditor-message - position.

And the dimensions of the communication of the removal also it is a method of multiplication of meanings and their renovation according to the linguistic, scientific and cultural level of the conductor this is the way the message is the only one according to the speaker, and the diverse and rich messages according to the recipient.

Can being Sibawaih, by composing his book, what thought to the conductor and what he can imagine as question that is why we found him in several places put itself in the place(square) of the conductor by asking questions and by answering according to what he waits, by indicating the chapter or a linguistic phenomenon among the phenomena which he treated(handled) by the lesson, the explanation,

- The analysis and the motivation Being afraid that a recipient opposite to what its book put deposited he motivated his language and says by exposing this affair that it is taken by the use of Arabic concerning their eloquent language or of what he listened to with the Arabic persons who are the object of confidence, or with one of its maitres who taught him the language the Muslim jurisprudence and the hadith then he calls in to witness the noble Koran because nobody doubts Words of God, the majestic.

Then he calls in to witness the poetry Arabic of which established the collection Then he calls in to witness the prose of Arabic because he spoke to the son of the language.

Having removed the doubt, the hesitation, and having prevented the questions he returns to the subject explained and analyzed and all this in a perfect harmony, then he helped the conductor for the renewal of the enjoyment, the reading, the concentration.

There is also the technique of the repetition which we found concerning Sibawaih, because he is a speaker and us conductors He turned to the technique not because he is deficient in language, while it is an excellent genius(engineering) in language in all its affinities, but in the effect of what follows:

- We proceed to our renewal of our authentic Arabic heritage.
- For our renewal of these heritage concerning its book.
- We confirm that the ancient Arabic language is more modern in the use than today for the motive that it wears many new terminologies we are proud of our heritage and we watch to preserve it.
- We possess a linguistic capacity which helps us in the invention in the understanding of the depth of the language its diverse uses.
- We confirm that the Arabic language possesses diverse varied and modern styles so that we conformed to it in no innovation we and all those who have a high gout.
- We feel the gout of the poetry and we can interpret it helped by these techniques which are in his book.

We pick numerous interests which we cannot count that is why we notice that he multiplied the examples in his themes or his witnesses however the purposes and the motivations different according to the position and the affair (business) which we want to treat. " It is the perfect language "

Because it is possible to extract regels miscellaneous of any inserted example it is what we exposed in numerous themes in this research.

This is the way ends my research of which I do not aspire that I settled his its decent rights however I tried and I spread all my efforts if I reached the purpose, thank God whose benefactions we cannot count.

And by God! Success

The student one: HAKEM Ammaria

فهرس الموضوعات

تقديم .... أ. د. أحمد عزوز......................05

1- تحليل الصورة الإشهارية
د. عبد الخالق رشيد، جامعة وهران..07

2- الخطاب الإشهاري ودوره الاتصالي
د. ميلود منصوري، جامعة وهران..17

3- بين دلالة الكلمة ورمزية الصورة-الخطاب الإعلامي المكتوب أنموذجا- أ: خليفي سعيد، المركز الجامعي غليزان.....................28

4- التوافق والاختلاف في الترجمة- دراسة نقدية لترجمة "مائة عام من العزلة" لـ "ماركيز- د.: الزاوي مختارية، جامعة وهران...............34

5- سياق الحال- عند البلاغيين- مقاربة تداولية
أ. بن يامنة سامية، جامعة مستغانم...55

6- الخطاب الاتصالي الإشهاري ودوره في تنميط الثقافة الجماهيرية الاستهلاكية- د.: فلة بن غربية، جامعة وهران...........................83

7- تقنيات بناء الخطاب الإقناعي ضمن الإرسالية الإشهاري
د.: عبدالقادر مالفي، جامعة مستغانم..96

8- لغة الإشهار بين الإقناع والإبداع
د.: بوعناني سعاد آمنة، جامعة وهران.......................................115

9 - جهود عبد الرحمن الثعالبي اللغوية من خلال تفسيره (الجواهر الحسان) د.: مصطفاوي عمار، جامعة وهران..............................123

10 -تعليمية البلاغة العربية بين النمطية وإنتاج المعنى
د.: عبد اللطيف حني، المركز الجامعي الطارف..............................144

11- "قراءة في كتاب:" اللغة والتواصل" د. عبد الجليل مرتاض
الأستاذة: حاكم عمارية، جامعة سعيدة 159
12- أصول التفكير الصوتي عند الفلاسفة المسلمين
أ. فرح ديدوح، جامعة تلمسان...168
13- "نماذج وصف النص" (من الرؤية النحوية إلى الوظيفة الاتصالية)
أ: مصطفاوي جلال، جامعة معسكر...181

13- صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، دار الفكر اللبناني بيروت، لبنان، ط، 1986، ص 35.

14- المرجع نفسه، ص 36.

15- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 38.

16- عبد القادر حسي أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر، القاهرة، د ت، ص 32.

17- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي، دار المعرف، مصر، د ت، ج6، ص 15.

18- المرجع نفسه، ص 16.

19- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 9.

20- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط4، 1983، ص 355.

21- نفسه، ص 357.

22- السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت،) د.ت، ص 156.

23- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص36 .

24- عبد القادر حسين، أثر النحاة في الدرس البلاغي، دار نهضة مصر، القاهرة، د ت، ص 12.

25- أحمد خليل: المرجع السابق، ص135 .

26- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1988ن ص 25.

"قراءة في كتاب: "اللغة والتواصل" للأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض

الأستاذة: حاكم عمارية، جامعة سعيدة

تقديم

أقدم في بحثي دراسة تحليلية لكتاب "اللغة والتواصل - اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي- "للأستاذ الدكتور مرتاض عبد الجليل، وبعد اطلاعي عليه وجدت أن الباحث قد ألم في كتابه بمعظم المعارف التي جاء بها أعلام اللسانيات، والصوتيات، والسيميائيات من عرب وغرب.

وبذلك يكون الباحث قد كفى الباحثين التابعين عناء البحث الطويل، أو ربما قد مهد لهم الطريق ووجههم إلى معظم المصادر والمراجع التي تخدم البحث اللساني، ومن ذلك: أمهات الكتب لمؤلفين عرب أمثال "المصباح المنير" للفيومي، "الوجيز في فقه اللغة" لصاحبه محمد الأنطاكي، "نور القبس" للمؤلف أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، "مغنى اللبيب" و"شرح التصريح"، و"أوضح المسالك" وغيرها، وكذلك "محاضرات في الألسنية العامة" لفيردينان دي سوسير، "اللسانيات السانكرونية" لأندري مارتيني، وغيرها من المصادر والمراجع التي تفتح آفاقا كبيرة أمام كل الطلبة والباحثين الجدد. إن هذا الزخم الكبير من المصادر والمراجع التي اعتمدها أستاذنا الكبير الدكتور عبد الجليل مرتاض في كتابه الموسوم بـ:"اللغة والتواصل" تدل على الإطلاع الواسع لهذا الباحث الذي وهب نفسه للعلم، وكان نبراسا لطلبة مشروع اللغة والتواصل، ولكل الباحثين الذين لهم وجهة لسانية.

وفي المؤلف الذي قمت بتحليله؛ وجدت أن أستاذنا الكريم قد ابتدأ كتابه هذا؛ بمدخل تعرض فيه بكل تواضع إلى إثبات أن الباحث إذا ما حاول دراسة ظاهرة ما، وجد نفسه بعيدا عن النواة المركزية لتلك الظاهرة، خاصة ظاهرة التواصل وأضربها، لأن التواصل اللغوي بطرحيْه (الشفهي والكتابي)، يصدق فيه كما جاء على لسانه:" أنه نمط صعب ومخيف حتى لا نغالي فنخلد إلى اليأس، أو نميل إلى القول إنه لنمط مستحيل"[1].

- موضوع المؤلف

يشير الأستاذ مرتاض أنّ عمله في هذا البحث يتناول بالدرجة الأولى اللغة في تواصلها الشفهي، أو كما يسميها تواصلات ما وراء لسانية لارتباطها بالخطاب الشفهي أو حتى بالخطاب الكتابي أحيانا.

ويكشف الباحث عن نيته في القيام بعمله هذا المتمثل في عدم التمسك قلبا وقالبا بكل ما جاءت به العقول النيرة السابقة سواء للقدماء أو للمعاصرين، أصحاب تلك المدارس اللسانية التي لاح ضوؤها في سماء أمريكا، وأوروبا والتي خدمت اللغة الإنسانية على حد تعبيره. الأمر الذي زرع في قلبه غيرة على سمائنا العربية التي إذ ما حاولنا أن نبحث عن قبس نور فيها رجعنا إلى محاولات قرون غابرة - فقط- من أجل مقارنة نظرية لسانية في الغرب بفكرة أو أفكار لغوية عربية قديمة.

والباحث لا ينكر أن للعرب زادا معرفيا ضخما، وإنما يريد من الباحثين العرب أن يطلعوا بعمق على الدرس اللغوي عند العرب في جميع المجالات، وذلك من باب استدعاء حاضر لغائب.

- التواصل الكتابي والتواصل الشفهي

لقد خلص الباحث في عمله على التواصل اللغوي بشقيه الشفهي والكتابي إلى اكتشاف جديد سماه؛ اللغة الثالثة أحيانا واللغة الصامتة أحيانا والتواصل الصامت حينا أخرى، مشيرا إلى أن هذه اللغة خاصة لا عامة، مستدلا على اكتشافه هذا بقول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وبتعبير آخر؛ يسمي الباحث عبد الجليل مرتاض اللغة الصامتة بالخطاب الصامت أو المسكوت عنه، ويرى بأن هذا النوع من الخطاب ظهر يوم تحولت اللغة الشفهية إلى اللغة الخطية، أي منذ أن تحول الخطاب من عفو الخاطر إلى خطاب مفبرك، أو منذ أن بلغ المتكلم درجة من التمييز بين ما هو شعوري وما هو غير شعوري.

وفي فقرة أخرى من مدخل الكتاب، نجد أن الأستاذ الباحث ينبه المتلقي إلى تعدد وتداخل المصطلحات في الحقل اللساني، محذرا إياه من مغبة الوقوع في ملابسات تلك المصطلحات التي لاشك سيعاني منها المتلقي كيف ما كان. ممثلا لذلك بمصطلح اللسانية الذي ورد على غير هيئة في التسمية، مستدلا على تعدد المصطلح وكيفية اشتقاقه من القرآن الكريم والمصادر وكذا المراجع[2].

ويأبى الباحث ألا يترك المتلقي يتخبط في البحث عن الصياغة الصحيحة لمصطلح اللسانيات، وباجتهاد منه يتوصل إلى الصياغة الأنسب في نظره؛ موضحا الأسباب العلمية والموضوعية التي جعلته يخلص إلى أن الصياغة السليمة لمصطلح اللسانيات هي اللسانيات لا الألسنية أو علم اللسانة أو غيرها من تعدد المصطلح[3].

ويكون الباحث عبد الجليل مرتاض قد ضم رأيه في الخلوص إلى تسمية اللسانيات بدل الألسنية إلى أستاذنا الكبير والعالم اللساني الجزائري الفذ الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح.

وبعد توضيحه لمفهوم اللسانيات، يعود الباحث إلى موضوع كتابه "التواصل" مؤكدا أن مرجعه المعتمد في تلك الدراسة هو التراث القديم برمته، مستعينا بما جاء في كتاب "المصباح المنير" للفيومي، ليستدل على أقواله بما جاء في هذا المؤلف دون الاستغناء - طبعا- عن كلام الله المنزل الذي اتخذه مصدرا ينتقي منه حججه وبراهينه القاطعة التي لا يمكن دحضها أو البرهنة عليها.

وانطلاقا من اطلاعه على ما جاء في القرآن الكريم وتراثنا القديم، نلفي الباحث وكأنه يقوم بمقارنة لما ورد من مفاهيم عند القدامى العرب والغربيين لمفهوم الكلام. فمن منظور الباحث إن ما يهم ظاهرة التواصل اللغوي؛ هو ذلك الكلام الطبيعي القائم في النفس إذ "هو عبارة عن أصوات متتابعة لمعنى مفهوم"[4]، مستندا إلى قوله تعالى:{**يقولون في أنفسهم**}، وكذلك إلى قول الآمدي وجماعة من الدارسين العرب القدامى:" ليس المراد من اطلاق لفظ الكلام إلا المعنى القائم بالنفس، وهو ما يجده الإنسان من نفسه إذا أمر غيره أو نهاه، أو أخبره، أو استخبر منه، وهذه المعاني هي التي يدل عليها بالعبارات وينبه عليها بالإشارات"[5]. وهذا التعريف لمفهوم الكلام يشبه إلى حد بعيد تعريف دي سوسير بما أسماه "اللسان المتمفصل"، وكذا تعريف أندري مارتيني الذي أسماه "التمفصل المزدوج".

وفي كتابه هذا؛ عمد الباحث إلى توضيح مخطط ظاهرة التواصل اللغوي عند دي سوسير موضحا للمتلقي أن هناك باحثا لسانيا آخر تجاوز دي سوسير، في طرحه هذا وهو رومان جاكبسون الذي يعود إليه الفضل في وضع الوظائف الستة للغة البشرية، ويشير الباحث إلى أن اللسانيين يطمئنون إلى مخططه الشهير.

وأما عن مفهومه للغة فقد أورد لنا الباحث مفاهيم مختلفة لأشهر القبائل العربية؛ الحجاز، تميم، طيء موضحا مواطن الاختلاف بين لهجات هذه القبائل مشيرا إلى أنه قد جاء في القرآن الكريم بعض الآيات على لسان تميم، وبعضها على لسان الحجاز.

وهذه الاجتهادات من أستاذنا الفاضل كلها من أجل تيسير الصعب، وإماطة اللثام عن المفاهيم التي قد تستعصي على المتلقي.

وفي النهاية؛ يخلص الباحث إلى أن اللغة ليست مستقلة في ماهيتها عن الفرد، بل يصف الفرد بعدم الانصياع إلى لغته رغم الترابط المتلازم بين اللغة والكلام، حيث إن الكلام ذو طابع حركي، بينما اللغة

ذات مظهر يبدو شبه ثابت باستمرار، لولا الاعتداءات الخارجية التي تزحزحها بدون انقطاع كالجمع والتدوين، وكذا استحداث مصطلحات لسانية لا متناهية، ناهيك عن التراكيب المختلفة حسب اختلاف السياقات، والبنيات السانتاكسية والدلالية رغم ثبوت الحركات (قام زيدُ، لم يقم زيدُ، أقيم زيدُ).

وبعد الانتهاء من المدخل ينتقل الباحث إلى القسم الأول من الدراسة ليسميه "مبادئ عامة للتواصل (اقترابات وصفية لعناصر لسانية عامة)" حيث يتناول وصف اللغة الإنسانية معتمدا في ذلك على آراء باحثين لسانيين أوروبيين أمثال؛ شارل جودر Charles Goedert وأندري مارتيني الذي يقول عن اللغة:"يقال جريا على العادة، إن اللغة **"Le Langage"** الإنسانية تمتاز عن الإنتاجات الصوتية للحيوانات بكونها منطوقة ***"articulé"*** والذين يكررون هذه الكلمة البليغة سيكونون مهتمين بتوضيح ما يراد بهذا. ليبدو لهم بكل بساطة أن صرخات وهمهمات مختلطة للحيوانات تتعارض مع دقة ترتيب أصوات الكلام الإنساني"[6].

ثم ينتقل بعد ذلك إلى أن اللغة ما هي في الواقع إلا عكس لعالمنا، فهي تنقسم إلى أسماء وأفعال، حيث تدل الأسماء على الأشياء والأفعال على الأحداث التي تقع حسب اختلاف الأزمنة، ولا يقف الباحث عند هذا القدر من التحليل للغة، بل يواصل حديثه عن كونها تكتسب بطريقة غير واعية، ولكنها تعلم بمنهج واع، أي على التقليد الواعي والتقليد الاصطناعي حتى يخيل إلى الفرد أن لغته ولدت معه.

ويتعرض الباحث إلى المفاهيم والمصطلحات اللسانية ليوضح السبل والمناهج المتوخاة في الدرس اللساني، وذلك بتوضيحه لعملية التواصل التي تتم بين الباث والمتلقي، إذ يلقي الضوء على المفاهيم

والمصطلحات التي تتكرر باستمرار في الدرس اللساني، من لغة وكلام ولسان وكذا التزامنية (الآنية) والزمانية (التطورية)[7].

وينبه الباحث إلى خطورة هذه المصطلحات في الترجمة العربية؛ لأنها غير واضحة وغير دقيقة، الأمر الذي اضطره إلى إعطاء تعاريف موجزة عن كل مصطلح من المصطلحات اللسانية التي لها علاقة بعملية التواصل وعناصره الأساسية، مستعينا في اجتهاده هذا بكل التعاريف التي وردت عن القدامى والمحدثين من عرب (بسام بركة صاحب كتاب "معجم اللسانيات")، وغرب (المعاجم الأوروبية).

وفي طرحه للمفاهيم والمصطلحات يكاد الباحث يأتي على كل التعاريف التي وقعت عليها يده، وكأنه يريد أن يلم بكل المفاهيم القديمة والحديثة، لعله يصل إلى مفاهيم علمية دقيقة لا يمكن الاستغناء عنها أو الإتيان بترادفاتها، أو لعله يريد أن تكون تلك المفاهيم التي وصل إليها- يريدها أن تكون- بمثابة بديهيات أو مسلمات حتى لا يقع الباحث العربي في التباس أو غموض إذا ما حاول أن يقحم نفسه في الحقل اللساني.

ومن أجل الوصول إلى نتيجة علمية دقيقة؛ فإن الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض يكون قد أحاط بكل ما له علاقة باللغة، والكلام، واللسان، والتواصل عند أشهر الدارسين الذين ذاع صيتهم في مجال اللسانيات.

فتجده قد تعرض للمقارنة بين التواصل عند كل من كاتز، ودي سوسير، وجاكوبسون كما تعرض إلى الفرق بين التواصل والخطاب، لينتقل إلى اللغة، والتركيب، والجملة ثم إلى الهوية البنيوية، والقواعد الكلية عند نوام تشومسكي ليحدد أوجه الاختلاف والاتفاق بين اللغات من منظور أندري مارتيني، محددا بذلك البعد اللساني العالمي الكلي الذي تنضوي تحته كل اللغات من كليات فونولوجية إلى كليات لغوية إلى كليات دلالية.

وجدير بالذكر؛ أن الأستاذ قد خلص في نهاية هذا القسم إلى أن بعض التراكيب اللغوية تزول بزوال معانيها التي لم يعد لها استعمال لأن اللغة تنمو وتتطور[8].

ويعالج الباحث عبد الجليل مرتاض في القسم الثاني من كتابه "اللغة والتواصل" التواصل في ضوء اللغة المنطوقة، واللغة المكتوبة ليشرح للمتلقي بإسهاب؛ مفهوم التواصل في اللسانيات في معظم المعاجم الأوروبية وكذا العربية.

وبعدما اقتنعنا بالصياغة الصحيحة لمصطلح اللسانيات الذي خلص إليه أستاذنا الفاضل عبد الجليل مرتاض، وأستاذنا الكبير عبد الرحمن الحاج صالح، نجد أن الباحث عبد الجليل مرتاض هو نفسه مرة يقول اللسانيات وتارة يقول الألسنية[9] ولا ندري هل هو سهو منه أم هي الترجمة للفقرة التي وردت في كتاب (محاضرات في الألسنية العامة، ص 27: فـدي سوسير)، كما جاء في المُؤلَّف موضوع الدراسة.

وبعد كل الشروح والتوضيحات التي قدمها الباحث عن مفهوم التواصل بشقيه الشفهي والكتابي؛ يصل إلى المستوى التطبيقي ليقوم بتحليل مدونات شفهية قديمة بعضها شعري وبعضها نثري؛ فمن الخطاب الشعري القديم أتانا الباحث ببعض العينات من كتاب "المفضليات" حيث انتقى أبياتا شعرية للشاعرين "الجميح" و"الكحلبة العرني" قام بشرحها، ثم بمقارنتها بما جاء في القرآن الكريم.

ويدرس الباحث اللغة الشفهية من خلال المدونات الشفهية دراسة تحليلية، يكاد من خلالها يغطي عن كل محاسن اللغة الشفهية مشيرا في أحيان قليلة إلى محاسن اللغة الخطية التي لولاها ما وصلت إلينا ثقافة الأولين، ولا عرفنا أشعارهم، لأن الأولى كانت تعتمد على الحفظ خاصة الأشعار، والأمثال، والحكم التي توارثتها الأجيال بعد الأجيال، إلى أن أتى عصر التدوين حيث تم حفظ

بعضها إلى يومنا هذا، ومات بعضها الآخر بموت أصحاب الحفظ والذاكرة الثاقبة.

ومهما يكن من أمر؛ فقد أجاب الباحث عن معظم التساؤلات التي قد يطرحها المتلقي قبل أن يلقي الضوء على هذا الكتاب، ولذا يعد هذا المؤلَّف بمثابة الجواب الشافي لمعظم تساؤلات الباحثين في الحقل اللساني، خاصة ما تعلق بالتواصل بشقيه الشفهي والكتابي. وكأن الباحث على دراية، أو كأنه قرأ ما في أذهان المتلقين الذين لهم انشغال بميدان اللسانيات، لذلك قام بتأليف هذا الكتاب حتى يكون مرجعا يستقي منه الباحثون الجدد مادتهم وما يودون معرفته عن هذا الحقل الذي يكتنفه الغموض من كل جانب.

وبعد تحليله لمدونات شفهية شعرية أو نثرية قديمة كخطبة "قس بن ساعدة"، وكذا بعد تحليله لنصوص مكتوبة ومقارنتها من ناحية القواعد، والتراكيب، والأصوات بما فيها من نبر، وتنغيم، وتقطيع ينتهي الباحث إلى نتيجة أخيرة؛ وهي أنه ليس بمقدور الكفاءات اللسانية أن تتم إلا عبر ما يتجلى تحت الشكل الكلامي، وإنه من الخطأ الزعم بأن خطابا شفهيا متجانسا يتعارض مع خطاب كتابي متجانس، لأن كل خطاب ما هو إلا ظاهرة لكلام ناتج عن مختلف التقلبات وذلك بشروط التواصل (مرسل، مرسل إليه، قناة، مرجع، رسالة، سنن)، وهذا يفضي بالضرورة إلى نموذجية لا تضع في نهاية المطاف فصلا جوهريا بين الخطاب الشفهي والخطاب الكتابي[10].

ولأستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض كل التقديرات والاحترامات مع خالص الأمنيات ووفقه الله إلى كل ما يصبو إليه.

الإحالات:

(1)- اللغة والتواصل - اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي- الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض – دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط/2000، ص 01.

(2)- المرجع نفسه، ص04.

(3)- المرجع نفسه، ص05

(4)- المصباح المنير، الفيومي، ص539، نقلا عن كتاب اللغة والتواصل، ص20.

(5)- المصدر نفسه، ص ن. نقلا عن المرجع السابق.

(6)- اللغة والاتصال، ص20.

(7)- المرجع نفسه، ص 28- 33.

(8)- المرجع نفسه، ص36- 75.

(9)- نفسه، ص110- 110.

(10)- نفسه، ص167.

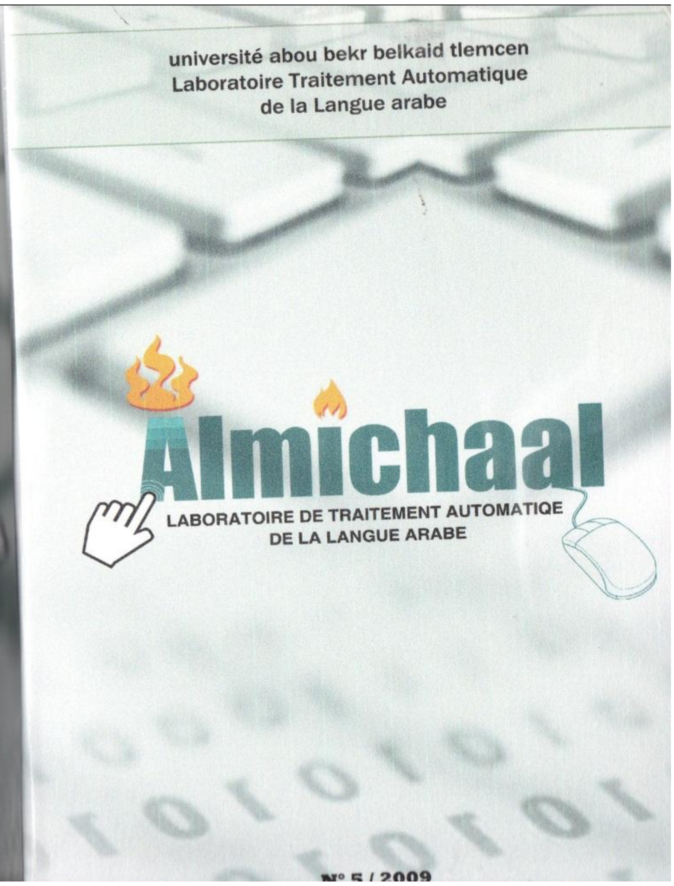

محتوى العدد الخامس

1) **د/ لخضر لعسال:** اللّغة العربيّة بين الخطأ والصواب.......................... 05

2) **د/ بلبشير لحسن:** قضايا الفصحى واللهجات في ضوء علم اللسان الحديث... 14

3) **أ/ هامل الشيخ:** واقع اللغة العربية في وسائل الإعلام المرئية.. 30

4) **د/ بوعلي عبد الناصر:** شاعرية الخط العربي........................... 40

5) **أ/ مقام عبد القادر:** دراسة تحليلية لبنية نص قانون استعادة الوئام المدني... 51

6) **أ/ فتيحة عويقب:** مراحل اكتساب اللغة لدى الطفل العادي ومقارنتها لدى الطفل الأصم... 70

7) **أ/ حبيبة بوزار:** حماية وترقية خاصة بقطاع الآثار(تلمسان نموذجا).. 78

8) **أ/ فضيلة صديق:** وسائل الاتصال ودورها في التنمية اللغوية عند الطفل.. 91

9) **سعاد سليماني:** الاتجاهات النظرية للدراسات اللغوية (المعيارية والوصفية والصورية).. 100

10) **أ/ سعيد بن عامر:** إشكالية ترجمة المصطلح التقني من الإنجليزية إلى العربية ترجمة عقود الشراكة أنموذجا.. 107

11) **أ. د/ سيدي محمّد غيثري:** تغيرات صوت الجيم في العربية.........114

12) **أ/ محمد بوزيدي:** عالمية اللغة العربية......................... 123

13) **أ/ عمارية حاكم:** قراءة في مصطلحات التواصل اللغوي......... 136

14) **عمار مصطفاوي:** مقدمة الأجرومية..............................154

15) **حاج محمد الحبيب:** أنواع الطبونيمات وقواعد كتابتها............172

16) **أ/ برحيل جويدة:** الانتكاسة عند الفصامي بين العلاجات الكيميائية والعلاجات النفسية.. 178

17) **ملحق: د/ سعيدي نصر الدين:** الكركم وفوائده الطبية.......... 190

ـوامش:

علة عالم الفكر المجلد الثامن العدد الأول، ماي سنة 1977، ص03، كويت.

تولى الخلافة بعد أبيه مروان بن عبد المالك في عام 65 هـ وقد استمر في الحكم 21 عاما 86-6 هـ)

الجهشيار، الوزراء والكتاب، تحقيق علي مصطفي، ط 2، مصر، 1999 ص 125.

انضر عبد الكريم ذنون، تعريب دواوين العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي مجلة آفاق عربية، ـ 97-98.

أحمد حسين الزيات، تاريخ الأدب العربي، القاهرة، ص 206.

محمد حسين النحار، الجواهر في البحور والدوائر ،مكتبة فلاوسن، تلمسان، سنة 2000 ص 24.

محمد خلف الله أحمد، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، عدد 04، سنة 1973، القاهرة، ص 0-05.

شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط01، دار المعارف القاهرة ص 108.

أحمد أمين، ضحى الإسلام، النهضة المصرية ص 201.

10 الفكر الإسلامي، منابعه وآثاره، ترجمة الدكتور أحمد شلبي، القاهرة، ص 42.

11 فليب وآخرون، تاريخ العرب، ج 01 ، ط 05 ، دار العلم، بيروت سنة 2002، ص296.

12 نفس المرجع ص 298.

13 عبد العزيز عبد الله، التعريب ومستقبل اللغة العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر،1975، ص07.

14 أحمد منور، تاريخ الدعوة إلي العامية، دار السعادة للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 2005، ص 83.

15 أحمد مستاوي التبشير في البلاد العربية، الريحانة سنة 2002، الجزائر، ص 174.

16 إحسان جعفر، مجلة الثقافة العربية عدد 06، ص 62.

17 مجلة دراسات العربية عدد 15، ص43 .

18 نفس المرجع،ص39.

قراءة في مصطلحات التواصل اللغوي

الأستاذة عمارية حاكم

جامعة سعيدة

كثيرا ما نصادف في قراءتنا اللسانية المعاصرة، عدّة كلمات متباينة في دوالها، في الوقت الذي لا يعني بها أصحابها إلاّ مفهوماً واحدًا[1]، ومن بين هذه الكلمات ما يتعلّق بمجال بحثنا، وهي كالآتي: الاتصال، التواصل، التوصيل، التبليغ، الإبلاغ، التخاطب، المخاطبة.

1- التواصل في بعض المعاجم العربية:

إنّ مادة "وصل" في لغتنا العربية ثرية بمفرداتها وترادفاتها، غزيرة المباني، متعدّدة المعاني، إذ تحيل في بعض معاجم اللغة العربية كمعجم الصحاح **للجوهري**: على معنى "اتصل"، إذا دعا بدعوى الجاهلية كأن يقول: يا لفلان، وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾، أي يتّصلون[2].

والوصل ضدّ الهجران، ووصل الثوب والخفّ، وبينهما وصلة أي اتّصال، وتواصل ضدّ التصادم، ومن هذا المعنى جاء الحديث: "لعن الله الواصلة والمستوصلة"[3].

فالتواصل هنا ضد التقاطع، غير أن الاتّصال أعمّ من التواصل، لأنّ التواصل من التفاعل، التفاعل في اللغة العربية لها ثلاثة معان[4]:

1- أن تكون من اثنين تخاصما: تقاتلا، تشاركا...

2- أن تكون أحيانا من واحد: تراءئ له، تمارى في ذلك، تعاطى منه أمر قبيح.

3- أن تكون إظهاراً بغير ما تدلّ عليه حقيقة الشيء: تغافل، أي أظهر غفلةً وليس بغافل، أو كما يقول **سيبويه**: "ليُريك أنّه في حال ليس فيها"[5].

وجاء في المصباح المنير **للفيومي**: "تعهّدت الشيء، تردّدت إليه وأصلحته، وحقيقته تجديد العهد به، وتعهّدته حفظته، قال **ابن فارس**: ولا يقال تعاهدته، لأنّ التفاعل لا يكون إلاّ من اثنين. وقال **الفارابي**: تعهّدته أفصح من تعاهدته[6].

ويكون **سيبويه** واضحا حينما قال: "وأمّا تفاعلت فلا يكون إلاّ وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً، ولا يجوز أن يكون معملا في مفعول، ولا يتعدّى الفعل إلى منصوب"[7]، مضيفا إلى قوله هذا أنّ تفاعل يلفظ بالمعنى في فاعلته، ويقصد أنّ فاعل مثلها مثل تفاعل كلتاهما تدلّ على تشارك اثنين في أمر"[8].

لذا يقول: "اعلم أنّك إذا قلت: فاعلته فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته، ومثل ذلك: ضاربته، وفارقته، وكارمته"[9].

وبعد هذه المقاربات اللغوية لمادّة (وصل) وبعض مشتقاتها الدلالية نخلص إلى أنّ الاتصال أكثر عموما من التواصل، والتواصل وحتى المواصلة[10]، وأنّ التواصل لا يكون إلاّ من اثنين فصاعداً، لأنه يدل على التفاعل والتشارك.

هذا عن المدلول اللغوي لمادّة (وصل) في بعض المعاجم العربية القديمة، فماذا عن التواصل في معجم المصطلحات اللغوية، وبعض المعاجم الغربية الأخرى.

2- التواصل في معجم المصلحات اللغوية:

وُجدَ في هذا المعجم لصاحبه **خليل أحمد خليل** مايلي[11]: تواصل (Communication): بمعنى: إبلاغ، اتصال، تخاطب، مخاطبة، توصيل، أساس التواصل استعمال رموز (Code) لنقل رسالة:

1- التواصل اللغوي: يدل على تبادل في الإشارات بين فرد وآخر، بين فرد وجماعة وبالعكس، وبين جماعة وأخرى. فيما الحيوانات التي لا تملك لغة بالمعنى الحقيقي، تتواصل من خلال الإيماءات والصراخات التي توفّر دلالات دقيقة.

2- اللغة البشرية: هي حامل مميّز للاتصال، حيث يرتبط التواصل بالتعبير الذي يعني انتقال المضمون التعبيري من فاعل إلى قابل (هو فاعل آخر في قبوله المرسلة).

3- في مستوى تجربة التخاطب بين الأنا والآخر (Intersubjective Experience): تقوم علاقة مقلوبة بين الطرفين:

أ- كلما كان التعبير جديداً؛ كان التواصل عشوائيا.

ب- كلما كان التعبير عاميا، كان التواصل سهلاً.

4- يستلزم تحليل الاتصالات داخل الجماعة مجمل التخاطبات إلى وحدات اتّصال مرسلة ن فرد إلى آخر ومنه إلى الجماعة برمّتها، وفي درس آثار التواصل، لابدّ من التنبيه إلى ؤثرات الإعلان (Publicité) والدعاية (Propagande) والتحقق من فعالية منطقهما حججهما.

5- يجرى التفريق بين تركيبتين اتصاليتين متعاكستين:

أ- تركيبة متناسقة: يقوم كل فرد بإبلاغ معلوماته إلى الجميع، ويسعى كل واحد منهم لى إيجاد الحلّ.

ب- تركيبة متمركزة: يرسل الأفراد معلوماتهم إلى أحدهم، فيمركزها، يكتشف حلّها، يبلغه إلى سواه (**تبلّغ ↔ تبليغ**)[12].

3- التواصل في معجم اللسانيات:

يواجه كل باحث صعوبة كبيرة في تحديد بعض المفاهيم اللغوية المرتبطة بأي مصطلح، ذا لا يمكن العثور على تعريف واحد للتواصل يضم كل رضاءات الباحثين، غير أننا نجد أنّ معجم اللّسانيات الذي أشرف عليه **ج.ديبوا** (Jean Dubois) يعرّف التواصل كالآتي[13]:

1- التواصل (La communication): تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج مل أو قولا موجّها نحو متكلّم آخر (Interlocuteur) برغب في السماع أو إجابة وا أو ضمنية (Explicite ou implicite) وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره الم (Le sujet parlant).

2- التواصل: حدث نبإ ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النبإ يكون بواسطة استقبلت عدداً من الأشكال المفكوكة (Qui a été codé).

ولكن بعض الدارسين يرى بأنّ هذا التعريف يعمّم بين ما يتّصل باللّغة، وبين ما صلة بها من معلومات تستخدم في مجال اتصالات أخرى غير لغوية.

4- التواصل في معجم (A.Moles Démoèl):

التواصل في هذا المعجم هو "عملية جعل فرد أو مجموعة متموضعة في عنصر من - س- يشارك في التجارب التي ينشطها محيط فرد آخر متوقع في عهد آخر وفي - ص- من مكان آخر، مستعملا عناصر المعرفة المشتركة بينهما والتجربة الوكيلية

5- التواصل في معجم تعلّم اللغات:

وُجد في هذا المعجم أنّ "نظرية المعلوماتية" (orie de la communication تحول الإعلام أو تنقله بين باث ومتلق، وذلك بفضل مرسلة تمرّ عبر قناة، مثل الإع

طريق التلفون، حيث الباث أو المتكلم سيرسل إلى مستقبله أو مكالمه مرسلة بفعل ذبذبات كهربائية بواسطة قناة الخط الهاتفي"[15].

ولكنّ **قيرو** (Guireau) يرى أنّ هذا التحليل لا يكون في أيّ لحظة معنى للمرسلة، لأنّ التواصل يقوم على نقل أو تحويل شكل مسجّل في ماهية أو مادّة، مثال ذلك، الأشكال المرئية في رسالة مكتوبة، وأمّا الخطّ الهاتفي فهو ينقل الطاقة، والحرف لأشكال خطيّة، وعموما فإنّ التواصل لا يتأسّس في المستوى الدلالي إلاّ في الحالة التي يكون فيها الباث والمتلقي يملكان نفس القانون أو السنن لفكّ المراسلة[16]. وإلى جانب هذا يرى **أندري مارتيني** (André Martinit) ولسانيون آخرون أن التواصل هو إحدى وظائف اللغة، حيث أن اللغة هي الوسيلة التي تسمح لمستعمليها بالدخول في علاقات مع بعضهم بعضا، وهي تضمن التفاهم المتبادل بينهم[17].

ويبدو أنّ **مارتيني** في تصوّره هذا لم يهمل الجانب الدلالي لمصطلح التواصل.

6- التواصل عند السيميائيين العرب:

لقد اصطنع السيميائيون العرب مصطلح "التبليغ" و"الإبلاغ" مقابلا للمصطلح الأوروبي (Communication) وهو في تمثل الأستاذ **عبد الملك مرتاض** أدقّ وأدلّ على هذا المعنى من مصطلح "التواصل" الذي قد يشيع في كتابات بعض النقاد العرب المعاصرين، ذلك أنّ المصطلح الأوروبي إنما ورد في أصوله على صيغة التّعدية المعنوية، على حين أنّ معادله العربي

"التواصل" لم يرد في العربية لهذا المعنى بل هو محايد لا يتعدّى إلى أي معنى في غيره، وإنّم يقتصر على ما فيه من معنًى في نفسه[18].

و"التبليغ" بمفهومه العام يشمل الإخبار، أو نقل أمر من أعلى إلى أدنى، أو من أعلى مستوى مماثل له في الدرجة.

ولفظ "البلاغ" اسم قديم الاستعمال في اللغة العربية، وقد ذكر في القرآن الكريم و لوظيفة الأنبياء والرسل تجاه من أرسلوا إليهم من الأمم ليبلّغوهم رسالات الله.

وهذا ما يبيّنه الجدول الآتي:

اسم السورة	رقم الآية	الآيـــة
الرعـد	40	﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّ عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْكَ الْحِسَابُ﴾.
النحـل	82	﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.
الأنبيـاء	106	﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.
الجـنّ	23	﴿إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾.

أما **غريماس** فإنّه يرى أنّ "نظرية التبليغ" إنّما جاءت على غرار نظرية الإعلام و معها... ولّما كانت نظرية التبليغ في أصلها نظرية لسانية، فإنها لم تكد تعنى إلا ب المظهرية الرابطة بين المرسل والمرسل إليه، وما بينهما، وما يعتور علاقتهما من مت الدلالة الوضعية كالسياق الدال، والشفرة المستخدمة بين الطرفين[19].

بينما يطلق **عبد الله الغذامي** اسم "نظرية الاتصال" على تلك المسماة "نظرية التبليغ"، أمّا **دي سوسير** فإنّ نظريته تنهض على نزعة اجتماعية، ولذا فهو يرى أنّ "التبليغ" ضرب من الحدث الاجتماعي الملاحظ في فعل الكلام، وبالتالي فإنّ نظريته تقوم على وجود شخصين اثنين على الأقل (باث ومتلق) لسيران تيار الكلام[20].

ومن منظور "علم النفس" يذهب النفساني **بوهلر** (Boohler) إلى أن النشاط اللساني يتحدّد بثلاثة وظائف تتمثل في[21]:

1- التعبير من حيث هو باث.

2- النداء من حيث هو مبثوث له أو متلقّ.

3- الاستحضار بما فيه من طبيعة الإحالة على المرجع أو السياق.

ثم جاء **جاكبسون** (R.Jakobson) فأضاف إلى هذه النظرية الثلاثية، وفصل من أمرها ما كان موجزا فغدت سداسية العلاقة حسب الشكل التالي[22]:

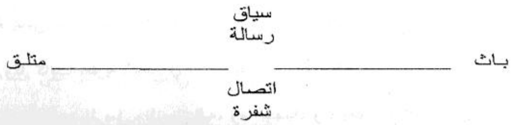

وتقوم رسمة **دي سوسير** على الصورة نفسها تقريبا، غير أنه يركز على جهازي النطـ[ـق] والسمع من جهة والإرسال والاستقبال من جهة أخرى، بينما يركز **جاكوبسون** علـ[ـى] السياق وضرورة الاتصال.

ويعدّ **دي سوسير** من الأوائل الذين تعرضوا إلى إشكالية التخاطب عند الإنسان، فقـ[ـد] بادر إلى تجاوز العملية التي تفترض مرسلا ومرسلا إليه وكلمات متبادلة بينهما[23].

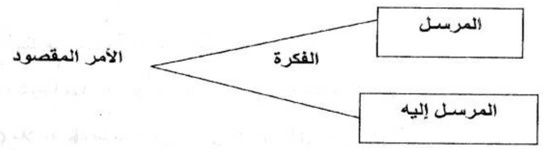

ليحدّد مخططا عامًّا أكثر عمقا لظاهرة التواصل اللّغوي، يأخذ عدّة أبعاد ذهنيـ[ـة] وتصورات فكرية، وقنوات فيزيائية وصوتية، ونفسيّة فيزيولوجية[24].

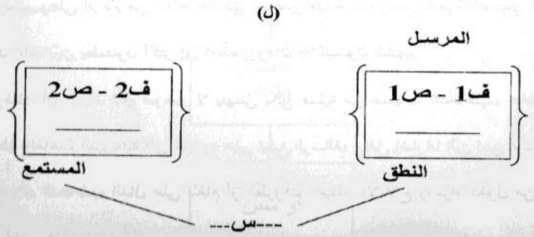

وغير بعيد عن النظرية التواصلية **لدي سوسير** نجد أنّ **ابن خلدون** يقترب من هذه المسألة حين يتحدث عن نظرية التبليغ اللسانية، وأنها تقوم على "مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال"[31]، وأن المتكلم (الباث أو المرسل) إذا جاء ذلك "بلغ (...) حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع"[32].

فكأنّ هذه النظرية الخلدونية تبدوا أشمل من النظرية السوسيرية، لأنها لا تلتمس التبليغ في صورة ميكانيكية فجّة، فتكون في كثير من الأحيان قاصرة عاجزة، وإنما تلتمسه داخل شبكة توصيلية، وعبر قنوات أدواتها، العلم باللّغة، والقدرة على التبليغ، واكتساب الملكة على هذا التبليغ[33].

وإذا ما حاولنا تفسير كلام **ابن خلدون** عن النظرية التبليغية ومقارنته مع ما ورد عن **دي سوسير وجاكبسون**، فإننا سنجد حتما مايلي:

1- "المتكلم" (لدى ابن خلدون) وهو الطرف المرموز له في نظرية دي سوسير بـ(أ) وهو إذن الطرف المرسل للرسالة.

2- "السامع" (لدى ابن خلدون) هو الطرف المرموز إليه في نظرية دي سوسير بـ(ب) وهو إذن الطرف المتلقي للرسالة.

3- "الكلام" في نظرية (ابن خلدون) هو العنصر الذي يقابل أو يمثل الرسالة في نظرية (جاكوبسون) أي الغرض من وراء الكلام الملقى إلى السامع.

4- "مقتضى الحال" في نظرية الخلدونية هو العنصر الذي يعادل في نظريـ[ـة] (جاكبسون) "السياق" وإن كان البلاغيون العرب ربطوا في كثير من أطوار تعاملهم مـ[ـع] اللّغة والخطاب؛ الدلالة بالسياق[34].

5- إنّ ما يسميه **جاكبسون** "الاتصال" (Contact) ليس هو في الحقيقة إلاّ ما ور[د] في تحديد العلاقة بين المتكلم والسامع في النظرية الخلدونية وذلك حين يتمثل هذه المسألة [...] بلوغ "المتكلم حينئذ الغاية من إفادة السامع"[35].

6- "مقصوده" وهو العنصر الذي يعادل إلقاء الكلام أي إلقاء الرسالة.

ومن غير الممكن حصر كل الآراء والنظريات التي تعرضت للخطاب والتواصل بالدراسـ[ـة] والتحليل، ومجمل القول أنّ الحياة البشرية برمّتها تقوم على التخاطب والاتصال أي علـ[ـى] العلاقات الإنسانية بما في ذلك العلاقة الدينية والعاطفية والفكرية والسياسية والتجاريـ[ـة] والعائلية والمهنية،...

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الاتصال لم تظهر إلاّ بعد ظهور العالم **شانون** (Shannon) سنة 1949 بمساعدة العالم **ويفر** (Weever) على أنّ القسم الأكبر لهذه الدراسة الهامـ[ـة] الخاصة بهذا المجال، جاءت من خارج علم النفس، أي من جهود المهندسين والرياضيين خاصّة بعد نشر عمل **كلود شانون** الموسوم بعنوان: "النظرية الرياضية التبليغيـ[ـة] **(La théorique mathématique de la communication)**[36].

ولقد أحدثت هذه النظرية ثورة لفتت انتباه جلّ المهتمين بحقول الإعلام، فتغلغل بعد ذلك الاتصال في علم النفس عن طريق علم النفس الاجتماعي، واللسانيات النفسية، وعن نظرية الشخصيّة.

ونتيجة لكل ما سبق ذكره نخلص إلى أن الاتصال (Le contact) ظاهرة بشرية اجتماعية إذ لا حياة بدون اتصال، ذلك أن الاتصال واقعة حية في السلوك البشري، الهدف منه التمكن من تحقيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية مع طرف آخر أو مع جماعة من الناس.

الهوامش:

1. اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، مدونة المحاضر الملقاة عام، 2000، ص:51.
2. الصحاح للجوهري، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ج1842/5.
3. المرجع نفسه، ص: 1842–1843.
4. الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د.الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيرو 1963، ص: 222– 223.
5. الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت، ج68/4.
6. المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت، ص: 435.
7. الكتاب، سيبويه، ص: 69.
8. اللغة العربية والاتصال، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، ص: 53.
9. الكتاب، ص: 68.
10. اللغة العربية والاتصال، ص54.
11. معجم المصطلحات اللغوية، د.خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط5، 1995، ص:
12. معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، ص: 55– 56.

Les voies des langages, Bordas, Paris, Dunod, 1982, P. 2-6.

14. المرجع نفسه، ص: 02.

Dictionnaire de dédactique des lauges: R. Galisson et D.Coste librairie Hachette- 1976- P: 102-104.

16. المرجع نفسه، ص: 103.
17. المرجع نفسه، ص: 103.
18. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، د.عبد الملك مرتاض، مجلة تجليات ا جامعة وهران، 1992، العدد الأول، ص: 13.

émiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et ourtes, communication, P :45.

20. المرجع نفسه، ص45.

émiotique dictionnaire; P:45.

22. الألسنية (علم اللغة الحديث)، د.ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص: 85.
23. مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1980، ص: 47.
24. مدخل إلى اللسانيات، ص: 47–48.
25. اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص: 10.
26. اللغة والتواصل، ص: 11.
27. مدخل إلى اللسانيات، ص: 50.
28. Les voies du langage, P: 05.
29. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث الغربي، د.عبد الملك مرتاض، ص: 15.
30. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 17.
31. المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج38/1.
32. المقدّمة، عبد الرحمن بن خلدون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 1071.
33. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 19.
34. – مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 20.
35. المقدمة، ابن خلدون، ص: 1071.
36. مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 21.

مقدمة الأجرومية

عمار مصطفاوي
جامعة وهران

المقـــدمة:

تتميز الدراسات اللغوية والنحوية على عهد **البجائي** بوضع المختصـــرات والحواش والاستدراكات وبوضع الشروح للمؤلفات المتداولة تسهيلا لحفظها والمحافظة عليها وتلقي للطلبة والمتعلمين، في هذا الإطار وضع **البجائي** شرحه للأجرومية والتي يظهر من خلاله محققا وناقدا ومعلما ومربيا .

والأجرومية هي عبارة عن مختصر في علم النحو تسمى بالمقدمة الأجرومية في مبا علم العربية و تسمى أيضا مقدمة **ابن آجروم** ومتن الأجرومية وتســـمى كـــذلك نس لصاحبها **ابن آجروم عبد الله محمد الصنهاجي**.

ومعنى **ابن أجروم**: الفقير الصوفي، ولكلمة أجروم عدة معاني أخرى[1].

والأجرومية على شدة اختصارها فهي جامعة لأبواب النحو وضعها صاحبها في الأ لتأديب ولده **محمد** كما يذكر هو في مستهلها، فانتفع بها وانتفع جميع من قرأها.